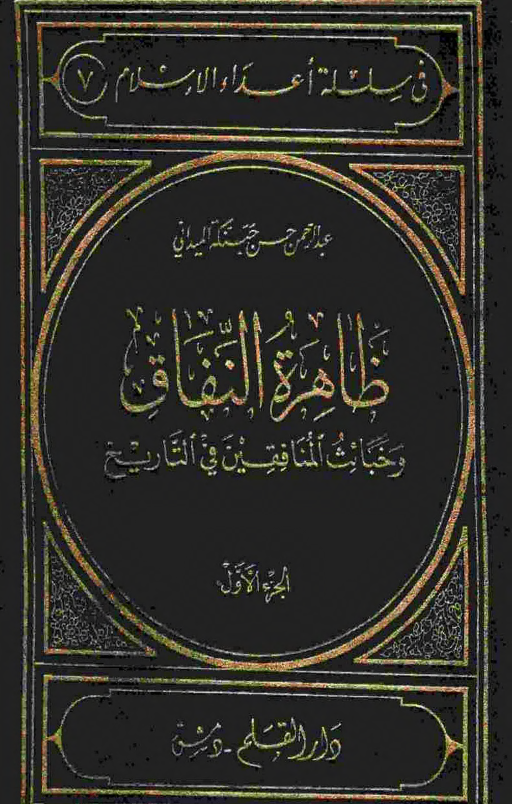

في سلسلة أعداء الإسلام ٧
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
ظاهرة النفاق
وخبائث المنافقين في التاريخ
الجزء الأول
دار القلم - دمشق

في سلسلة
أعداء الإسلام
٧

ظاهرة النفاق

وخبائث المنافقين في التاريخ

دراسة تحليلية وتوجيهية للتعريف بالنفاق والمنافقين
تدبر موضوعي شامل للنصوص القرآنية في النفاق والمنافقين
نظرة استعراضية للمنافقين عبر التاريخ

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الجزء الأول

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م



دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

لولا أنّ الإسلام حق بذاته ، مؤيّد بتأييد
الله ، محفوظ بحفظه ، لم تبق منه بقيّة
تصارع قوى الشّرّ في الأرض ، التي ما تركت
سبيلاً من المكر به إلّا سلكته ، ولا سبباً لإطفاء نوره
إلّا أخذت به ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين





بين يدي الكتاب

الحمد لله الملك الحقّ المبين، خالق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، مُعلّم الحق، والهادي إلى الصراط الحق، وناصر الحقّ بالحق، وأنزل كتابه بالحقّ. وبعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه.

وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ونبيّه ورسوله محمد بن عبد الله الذي اصطفاه لحمل رسالته الخاتمة للعالمين، فبلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصَحَ الأمّة، وجاءنا بها ملّة بيضاء صافية نقيّة، ظاهرها كباطنها، لم يخالطها غبش ولا ظلمة، ولا كدَرٌ ولا عكَرٌ، ولم يدخل فيها باطلٌ ولا ضلالة.

ونعوذ بالله السميع العليم القدير القاهر فوق عباده، من الشيطان الرجيم، إمام الكافرين والملحدين والضالين والمغضوب عليهم، من الكاشفين لصفات نفوسهم، ومن المنافقين الذين يلبسون أقنعة الكذب والخداع والمرآة على مطوي الخبث والشرّ والضر.

ونعوذ بالله السميع العليم القدير القاهر فوق عباده، من جنود إبليس شياطين الإنس والجن، ولا سيما المنافقون الذين جعل الله لَهُم نُزُولَ الدَّرْكِ الأسفل من جهنم دار العذاب يوم الدين.

وبعد: فلمّا كان النفاق أخطر مكيدة تهدم أبنية الحقّ، في عالَمَي الإنس والجنّ. وتُضِلّ وتُفْسِد ذوي الإرادات الحرّة الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، وأخطر حيلةٍ اتخذها إبليس لإخراج آدم وزوجه من الجنة، وجدْتُ من

واجبي أن أجعل ضمن دراستي لأعداء الإسلام، وما سطرت بتوفيق الله ومعونته من كتب عنهم «في سلسلة أعداء الإسلام» دراسة النفاق والمنافقين، وأن أكتب كتاباً خاصّاً في النفاق، وأبين فيه صفات المنافقين وخبائثهم في التاريخ.

وقد كنت منذ أكثر من عشر سنين عزمت على إعداد هذا الكتاب، وأعلنت عزمي هذا، وجاءت الإشارة إلى هذا العزم فيما ذكر الناشر في إعلاناته، حتّى بدأ كثير من القرّاء يترقّبون ظهوره، ويسألونني من حين لآخر: هل تَمّ إعداده؟ فأجيب بأنّ الله عزّ وجلّ لم يأذن بعد.

وكنت أكتب في هذا الكتاب بعض الوقت، وأترك الكتابة فيه أوقاتاً كثيرة، وتصرفني صوارفُ كتاباتٍ أخرى، حتّى يسّر الله عزّ وجلّ لي أن أتفرّغ له، وأجتهد في إعداده، ورأيتُ في الحلم أنّ هذا الكتاب الذي لم أتِمّهُ بَعْدُ قد طُبع، وعُرِضَ عليّ في الرؤيا شكل نسخة مطبوعة منه، فقلتُ في نفسي: قد أذن الله إذن بإكماله، فاطمأنّ قلبي للأمر، ثقةً بالبشرى، فضاعفت جهدي، وتابعتُ البحث والكتابة.

وهذا هو السفر الذي كان عزماً، فحُلْماً، وقد اجتهدْتُ أن أجْمَع فيه ما يحتاج إليه الباحث من حقائق، ونصوص، وتحليلات، وأمثلة، ودراسة مستفيضة، لظاهرة النفاق، وخبائث المنافقين في التاريخ.

ورأيت أن أقسّم البحث فيه إلى ثلاثة أقسام، تشتمل على فصول أو أجزاء:

فالقسم الأوّل: يشتمل على مقدّمة، وتعريفات عامة.

والقسم الثاني: يشتمل على دراسة تحليليّة واستنباطيّة للنصوص القرآنيّة التي نزلت بشأن المنافقين، مرتّبةً على وفق ترتيب نزولها، مع بيان ما ورد من أسباب النزول.

والقسم الثالث: يشتمل على عرض ما تيسّر لي جمعه من وقائع وأحداث المنافقين في تاريخ الخلق، أفراداً وجماعات ومنظمات.

وأشير إلى أنّ هذا القسم الثالث قسم يتعذّر سَبْرُ كلّ ما يتعلّق به، ولا يستطيع الباحثون مهما بذلوا من جهود مضنية إلّا أن يقدّموا أمثلة ونماذج منه فقط.

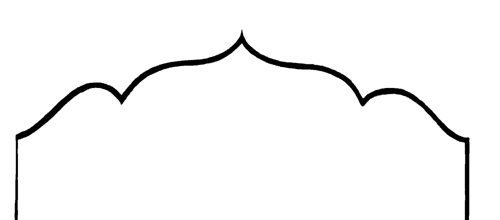
أسأل الله أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن يحميني والمسلمين من مكايد شياطين الإنس والجنّ من الكفرة والمنافقين وجنودهم وأنصارهم وسائر المجرمين.

وأسأله عزّ وجلّ أن ينفع بهذا السِّفر، ويبصّر به المسلمين، ويهدي به الضالين، وينبّه به الغافلين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني





القِسمُ الأول

مُقَدِّمَة وتَعْرِيفَاتٌ عَامَّةٌ

وفيه فصول:

الفصل الأوّل : مقدّمة عامة.

الفصل الثاني : الإيمان والإسلام.

الفصل الثالث : الكفر والنفاق.

الفصل الرابع : مجالات النفاق وصُورٌ منها.

الفصل الخامس : ملخص صفات المنافقين النفسية وآثارها في سلوكهم الباطن والظاهر اقتباساً من النصوص القرآنية.



الفصل الأول

مُقدّمة عامة

(١)
النفاق وخطره العظيم

النفاق انحراف خلقيٌّ خطير في حياة الفرد، وفي حياة الأمم، وتبدو خطورتُه الكبيرة حينما نلاحظ أنّه يدخل في الدين أعظم القِيَم في الحياة، وحينما نلاحظ أيضاً آثاره على الحركات الإصلاحيّة الخيّرة، إذْ يقوم بعمليّات الهدم الشنيع من الداخل، وصاحبُه آمِنٌ مُسْتأمَنٌ، لا تُراقِبُه الأعْيُن، ولا تَحْسُبُ حساباً لمكره ومكايده.

والنفاق سلوك مركّبٌ يرجع إلى عدّة عناصر خلقيّة ذميمة، يدخل فيها الجبْنُ، وجحود الحقّ، والطمعُ في المنافع الدنيوية، والقدرةُ على المراوغة والحيلة ولبس الأقنعة المختلفة، وعمادُها الكذب في القول والعمل.

وإنّ أخطر المصائب التي حلّت بالمسلمين في تاريخهم الغابر، وفي واقعهم المعاصر، إنّما حلّت بهم عن طريق النفاق والمنافقين، وبوسائل الكيد التي قام بها أو كان مطيّة لها المقنعون بأقنعة الإسلام زوراً وبهتاناً، وهم كافرون به، أو مرتابون فيه، يعملون لتهديمه من داخل صفوف المسلمين، أو يخادعون المؤمنين، ليأمَنُوا في ظلّهم، أو ليغنموا معهم من مغانمهم، وليشاركوهم في منافع ومصالح، أو سلطانٍ وقوّةٍ في الأرض.

لذلك كان من الواجب التحذير من النفاق والمنافقين، وبيان مواقع النفاق وخصائصه، وصفات المنافقين، وكشف أعمالهم في هدم الإسلام وإفساد المسلمين، وخدمة أعدائهم المجاهرين بعداواتهم، وتنفيد مخطّطاتهم المدمّرة للعقائد الإيمانيّة، والشرائع والأحكام والأخلاق والآداب الإسلاميّة، سواء أكان هؤلاء الأعداء من اليهود أو النصارىٰ أو المجوس أو غيرهم من أصحاب الملل والنّحل، أو كانوا من الملاحدة

الذين لا دين لهم مطلقاً إلّا تمجيد المادّة وعبادتها، من غربيّين وشرقيين، قدماء ومُحْدَثين.

إنّ العدوّ المخالط المُداخل المُساكن أخطر وأشدُّ كيداً من العدوّ البعيد، واللصّ المخالط المُداخل الذي يلبسُ ثوبَ صَدِيقٍ وَفِيٍّ أَمِينٍ أَكْثَرُ ضُرّاً وأنفذُ مكراً من اللصّ المكشوف الذي يُعْرَفُ بأنّه خائن غدّار، فيحذَرُ الناس منه، ويَقُون أنفسهم من سَطْوِهِ وأحَيْله ومكايده.

ويقول الناس في أمثالهم نحو قولنا: لصّ الدار لا تراقبه الأنظار.

لـذلك شـدّد الله عزّ وجلّ في كتابه على المسلمين المؤمنين لكي يحـذروا من النفاق والمنافقين أبْلَغَ الحذر، ونهاهم نهياً جازماً عن أنْ يتخذوا منهم بطانةً مداخلةً مخالطةً عالمةً بالأسرار، قادرة على إفساد أعمال المسلمين المؤمنين، وإحباط ما يُدبّرون من أمرٍ لإعلاء الإسلام، وتقوية الأمّة الإسلاميّة، وقادرة على الاتصال بالأعداء سرّاً، وإعطائهم ما يطلبون من معلومات، وتنفيذ ما يخطّطون من مخطّطات، والمؤمنون عنهم غافلون، ولهم مستسلمون، ويتصوّرون أنّهم من جهتهم آمنون.

وجاء في كلام الرسول ﷺ أنّ أخوف ما يُخاف على أمّته من بعده المنافقون.

روى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ».

أي: علْمُه بالإسلام لا يتجاوز حدود لسانه، فكلامه يخْدع المؤمنين، ولكنّه يضمر في قَلْبِه الكَيْدَ وإرادةَ الشّرّ.

وهذا كقول الله عزّ وجل في وصف فريق من المنافقين في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ . . .﴾. وجاء في رواية عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ».

(رواه الطبراني في الكبير، والبزّار، ورجاله رجال الصحيح)

وجاء في رواية أخرى:

«إنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ علَىٰ هٰذِه الأُمَّةِ كُلّ منافِقٍ عليم اللّسان».

وعن أبي عثمانَ النَّهدِيِّ قال: سمعتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وهو على منبر رسول الله ﷺ أكثر من عدد أصابعي هذه وهو يقول:

«إنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ علَىٰ هٰذِه الأمّة المنافِقُ الْعَلِيمُ».

قيل: وكيف يكون المنافق العليم:

قال: عالم اللّسان، جاهل القلب والعمل.

ويظهر أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سَمِع هذا الكلام من الرسول ﷺ، فكان يُكرّره في خطبه، بدليل الروايات الصحيحة المرفوعة إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

ورُوِيَ بإسناد جيّد عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنه قال:

«إنّ أَخْوَفَ مَا أَخافُ عليكم ثلاثَةٌ:

* مُنافِقٌ يقرأُ الْقُرآنَ لا يُخْطِىء فِيهِ واواً ولا ألفاً، يُجادِلُ أنّهُ أَعْلَمُ مِنْهُمْ لِيُضِلَّهُمْ عَنْ الْهُدَىٰ.

* وَزَلَّةُ عَالِمٍ.

* وَأَئِمَّةٌ مُضِلُّونَ».

ورُوِي عَنْ عُمَر أيضاً بإسنادٍ لَيِّنٍ أنَّهُ قَالَ:

«مَا أَخافُ عَلَيْكُمْ أَحَدَ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ مُؤْمِنٍ قَدْ تَبَيَّنَ إيمَانُهُ، ورَجُلٍ كافِرٍ قَدْ تَبَيَّنَ كُفْرُهُ.

ولَكِنْ أَخافُ عَلَيْكُمْ مُنَافِقاً يَتَعَوَّذُ بالإِيمَانِ وَيَعْمَلُ بِغَيْرِه».

ورُوِيَ بإسنادٍ صَحيحٍ عنْ حُذَيفَةَ مَوْقوفاً عليه، أنّه قال:

«إنّ مِنْ أَقْرَأ النّاسِ الْمُنَافِقَ الّذِي لا يَتْرُكُ وَاواً ولا أَلِفاً، يَلْفِتُهُ كما تَلْفِتُ الْبَقَرَةُ الْخَلَىٰ بِلِسَانِهَا».

الْخَلَى: الحشيش، وكُلُّ نَباتٍ رَطْبٍ، واحِدَتُهُ «خَلاةٌ».

ولهذا القول عن حذيفة شواهد مرفوعة إلى الرسول ﷺ، عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص، وعُمَرَ بنِ سَعْد، عند أبي داوُد، ومُسْنَد أحمد، بأسانيد قيل: إنها صحيحة.

* * *

(٢)
تسلُّلُ المنافقين ومكرهم وإفسادهم من الداخل

إنَّ المنافق خبيثُ النفس، فقد يكون جاسوساً وعيناً للأعداء الصُّرحاء، يَسْرُقُ من مجتمع المسلمين الأخبار والأسرار، وينقُلُها لأعدائهم، مقابل أجورٍ يبذلونها له، أو منافع يذلِّلُون له طُرُقَها، أو مطامع يُمَنُّونه بها، ويَعِدُونَه بتحقيقِها.

والمنافق مفسد داخل صفوف المسلمين، لا يألوهم خبالاً[1]، يَسُرُّهُ ما يَسُوءُ المؤمنين الصادقين، ويَسُوؤُهُ ما يَسُرُّهم.

والمنافق مكّارٌ مراوغ خدّاعٌ، يتربّصُ الْغِرّات، وينتهز الْفُرصَ السانحات، ليخلَعَ أثوابَ الصَّداقةِ والموالاة، ويَكْشِف عن جلْدِهِ الحقيقيِّ، جلْدِ الكراهيَةِ والحقْدِ والْعَداءِ وإرادةِ الشَّرِّ.

والمنافق من أبناء الأمّة دَنِيءُ النفس، يَسْهُلُ على العدوّ المجاهر بعداوته شراؤه واستئجارُه، لِضَرْبِ أمّته عن طريقه، مُقابِل ثَمَنٍ بَخْسٍ يُدْفَع له، أوْ شهوةٍ محرّمة تُبْذَل له، أو وَعْدٍ بتسليطِهِ علَىٰ قومِهِ يُقَدَّمُ له، أو وَعْدِهِ بالانتقام لَهُ من أعدائه من داخل أُمّته.

كم دخَلَ إلى صفوفِ المسلمين المؤمنين منافقون ماكرون، تظاهروا بالإسلام والاستقامة والولاء الكامل للمسلمين، ولَبِسُوا أَلْبسَةَ الصالحين المتقين، ثمّ تسلَّلُوا بنفاقِهِم إلى الصفوف الأولى من صفوف المسلمين، حتّىٰ كان بعضُهم أحد مستشاري الخليفة، أو الأمير، أو الرئيس، أو الملك، وحتّىٰ صار بعضهم قاضياً من قضاة

(١) أي: لا يُقصِّر في إفساد أمورهم وإيقاع الضرّ بهم.

المسلمين، أو عالماً من علمائهم، أو مفتياً من أهل الفتوى فيهم، أو زعيماً من زعمائهم، أو قائداً عسكريًا من قادتهم، أو حاكماً كبيراً من حكّامهم، ثمّ أخذ يكيدُ الإسلامَ والمسلمين من خلال مركزِهِ الذي وصل إليه.

وكم من حَبْرٍ يهوديٍّ داهيةٍ دخلَ في الإسلام نفاقاً، ليُفْسِدَ عقائدَ المسلمين، ويَدُسَّ الأكاذيبَ والخرافات، ويخترع لهم البدَعَ والضلالات، ويُحَرِّفَ الكَلِمَ عَنْ مواضعه، ويؤسس المذاهب الضّالة، والفرق المنحرفة الخائنة، وليُدْخِلَ في تفسير كتاب الله وشرح أحاديث رسول الله ﷺ الإسرائيليّات الباطلات، والآراء الفاسدات، والاجتهادات المُضِلّات، وليعبث في مفهومات النصوص الإسلاميّة عبثَ المفسدين، فَيُحِلَّ مَا حرَّم اللَّهُ، ويُحَرِّمَ ما أحلَّ الله، ويُعظِّم مِنْ أمْرِ الصغائر، ويُهوِّن مِنْ أمْرِ الكبائر، ويَنْشُر الوثنيّات، ويميتَ حَيَّ عَلى الجهاد في سبيل الله، ويجعلَ ما يخترعه ويُحْدِثُه من بِدَعٍ لا أصل لها في الدّين هي روح الدّين، أمّا أركانُ الإسلام وأحكامُه وعقائدُه وقواعِدُه الصحيحة، فَيُضْعِفُ مِنْ شأنِهَا، ويَتَلاعبُ بمفهوماتها ومعانيها، ويحاولُ أنْ يجعلَها هياكلَ ورسوماً غير ذاتِ مضْمُونٍ إسلامي صحيح.

وكَمْ من قسّيسٍ أوْ راهِبٍ نصراني فعَلَ مثل ذلك، فدخل في الإسلام نفاقاً، ليدُسّ كثيراً من المفاهيم والعقائد النصرانية داخل المفهومات الإسلامية.

إنّ فكرة حلول الله واتّحاده في الأشخاص البشريّة تَسَلَّلَتْ إلى بعض الطّوائفِ المنتسبة إلى الإسلام، عن طريق المنافقين من أصول نصرانية، أو المنافقين من أحبار اليهود، فالحلول والاتّحاد وتأليه البشر ممّا دسّه اليهود أصلاً في النصرانيّة، حتّى أفسدوا عقائدها التي جاء بها عيسَى عليه السلام.

وفكرة تأليه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وتأليه من بعده من سلالته، مكيدة يهوديّة، دسّها اليهودي المنافق «عبد الله بن سبأ» المشهور بابن السوداء، لأنّ أمّه كانت ذات جلد أسود، ثمّ يهودٌ آخرون منافقون تستّروا من بعده بالدّخول في الإسلام.

وكم من طُقوسٍ ومراسيم نصرانيّة وثنيّة، وعادات نصرانية كنسيّة، تَسَلَّلتْ إلى بعض فرق المسلمين، عن طريق الداخلين في الإسلام نفاقاً من أصول نصرانية،

وربّما كان بعضهم صادقاً، إلاّ أنّه جلبَها بحُسْن نِيّة، وهو جاهل بشرائع الإسلام وأحكامه، وتعاليمه.

وكمْ من ضابطٍ عسكريّ يهوديّ أو نَصْراني تظاهر بالإسلام نفاقاً، ودخل إلى بلدٍ من بلاد المسلمين، فخالط أهله، وتعلّم لُغَتَهُمُ، ودرس العلوم الإسلاميّة، وحفظ من القرآن والسنّة، وربّما أمّ المسلمين في الصلاة، وخطبَ فيهم لصلاة الجمعة أو لصلاة العيد، ولمّا انتهتْ مُهِمّته سافر إلى بلاده، ثمّ عاد برتبته ولباسه العسكري مع جيش الاحتلال الاستعماريّ إلى البلاد، وكشف عن وجهه الحقيقيّ، وأظهر أنّه كان منافقاً، وأنّه بنفاقه استطاع أنْ يظفر بمعلوماتٍ مُهِمّة لصالح قومه، ما كان باستطاعته أن يصل إليها لو أنّه دخل بوجْهِه الحقيقيّ.

ودخل في الإسلام من المجوس منافقون، فأدخلوا في مفهومات بعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام مفهومات باطلات، ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلطانٍ، وكان ذلك منهم كيداً كادُوا به الإسلامَ والمسلمين، وتسلّل بعضهم إلى مراكزَ خطيرةٍ في الدولة الإسلامية، إذ استطاع أنْ يكْتَسِبَ ثِقَةَ ذي سلطانٍ رفيع فيها، فَلَمّا تَمَكّنَ خانَ الأمّة، وانْحازَ إلى عدُوّها، وأوقَعَ شرّاً عظيماً في المسلمين، ذبحاً وتقتيلاً وتخريب عمران، وإفساداً في الأرض، واستدعاءً لجيوش أعداء الإسلام.

* * *

(٣)

صناعتهم للنكبات والفتن الداخليّة

إنّ معظم النكبات والفتن الداخليّة الّتي تعرّضَ لها المسلمون خلالَ تاريخهم الطويل، قد كانتْ بسبب الدسائس والمكايد التي تولّىٰ المنافقون والمنخدعون بهم كِبْرها، فعنهم نشأت معظم الفرق المنحرفة المرتدّة عن الإسلام.

والمنافقون في التاريخ الإسلامي هم الّذين أحكمُوا دسائسهم، فأسّسُوا فرقة الباطنيّة المرتدّة الملحدة، التي كادت الإسلام والمسلمين أيّما كَيْدٍ خِلالَ قُرونٍ عديدة، وكان لها صِلاتٌ سِرّيّةٌ باليهود الّذين يحقِدُونَ على الإسلام والمسلمين، ويُدبّرون ضدّهما كُلّ ما يستطيعون من كيد، وكان من الباطنيّين دعْمٌ وتأييدٌ لليهود في مختلف مجالات الحياة.

كمْ من هزيمة كـان المنافقـون سبَبَها، وكم من فتنـة أطلق المنافقـون شرارتهـا، وأوقدوا نارَها، وكم من ضلالة فكريّةٍ أو عمليّة كـان المنافقـون هم الناشـرين لها، وكم مِنْ إفسـادٍ خُلُقِيٍّ أو سلوكيٍّ كان المنـافقون هم العـاملين عليه، وكم من خيـانة لـدولـة المسلمين خانها المنافقون، فتمكَّنَ بسببها أعداؤهم من النكاية بهم، والإضرار الشديد ببلادهم وأموالهم ودينهم.

إنَّ معـظم الـذين سـاروا في ركـاب الأعـداء، فنقلوا لهم الأخبـار، وفتحـوا لهم الأبواب في السّلم والحرب، وثبَّطُوا روح الجهاد في سبيـل الله ضدّهم، قـد كانـوا من صنف المنافقين.

لقـد توصَّـل فريق من المنـافقين إلى مراكـز رفيعةٍ من أجهـزة الحكم عن طـريق التدرج والتسلّل وإرضاء الرؤساء بالرُّشوات، وجمهورُ المسلمين بهم منخدعون، وعن مكرهم غافلون، وعلى أعمالهم يثنون ولهم يُمَجِّدون، فَلَمَّا تمكّنُـوا من كرسِيِّ الحكم إذا هم بالمسلمين الصادقين والمؤمنين الأطهـار ينكّلون، ولأحكام الإسـلام يحاربـون، ولجمهور المسلمين يتجهَّمُون، ولمخطّطات أعداء الله ورسوله ينفّذون. ثُمَّ إِنَّهُمْ يُولُـونَ اليهـود والنصارى وسـائر الكفـرة والمـرتـدِّين على المسلمين، ويستعبـدون المسلمين الصادقين الملتزمين بتطبيق شرائع الإسلام.

وتـوصّل فـريق من المنافقين إلى مـراكز دينيّـةٍ عاليـة بين المسلمين، فكان منهم ـ كما ذكرت آنفاً ـ قُضاة شرع ومُفْتُون، وكان منهم خطباء، وكان منهم فقهاء وعلماء، وكان منهم شيوخ معاهد علْم كبرى، وكان منهم مستشارون لأولي الأمر من المسلمين، وكان منهم شيوخٌ مُرَبُّونَ ومُسَلِّكون، من شيوخ الطُّرُقِ الصوفيّة.

وتسلَّل المنافقون والمنافقات إلى أروقة القصور السلطانية، فأفْسَدُوا فيها وعبثُوا، فكم من قصّة اغتيالٍ كانُوا هم المدبّرين لها أو المساعدين عليها.

وتسلّل المنافقون إلى حـوانيت التّجار، فتـظاهروا بـالتقوى، وبـالَغوا بـالصلوات والأذكار، وهم خونةٌ كَفَرَةٌ فُجَّار.

وتسلّل المنافقون إلى صفوف الجيوش الإسلامية، حتّى كانُوا فيها قادةً مخـطِّطين أصحـابَ أمْرٍ ونَهْيٍ، فجلبُـوا للمسلمين الفشل والخيبـة والهـزيمـة والخـزي والعـار،

وجلبُوا لبلاد المسلمين الخرابَ والدّمار.

وتسلّل المنافقون إلى مدارس العلْم، ودوائر التخطيط والتوجيه، فدَسُّوا في العلوم الأفكار الملحدة الكافرة، والمذاهب المنافية لدين الإسلام، ولمّا جاءَ في كتابه وسنّةِ رسُوله، وأبْعَدُوا الإسلام عن مجالات المعرفة في الخطط والمناهج والكتب، وعملوا على وضْعِ التعليم في أيدي أعداء الإسلام، من كافرين مجاهرين، أو منافقين مقنّعين، يتظاهرون بالانتساب إلى الإسلام، وهم له جاحدون، ولأحكامه منكرون، وللصادقين بالانتساب إليه معادون.

ولدى التتبُّع لا نكاد نجدُ عصراً من عصور تاريخ المسلمين لم يكن للمنافقين فيه دور خطير، مشحون بالإفساد والتضليل وإثارة الفتن، وخراب العمران، وتفريق صفوف المسلمين، ومناصرة الأعداء المحاربين سرّاً، وإمدادهم بالأنباء عن واقع حال المسلمين، وعن ثُغَرات الضعف في حصونهم، أو في صفوفهم، أو في حدود بلادهم، أو غير ذلك.

* * *

(٤)
خطأ بعض الدعاة بشأن النفاق

يرى بعض رجال الموعظة والدعوة إلى الله أنّ النفاق قد انتهى منذ آخر عصر الرسول ﷺ، وتصحيحاً لهذا الرأي المجانب للصّواب أقول:

أوّلاً: لقد أثبتت وقائع التاريخ أنّ النفاق قد كان أشدَّ كيداً، وأكثر مكراً بعْد عصر الرسول ﷺ منه في عصره.

وقد استطاع أعداء الإسلام والمسلمين أن يحقّقوا من أهدافهم بعد عصر الرسول ﷺ عن طريق النفاق أموراً ما استطاعوا أن يحققوا منها في عصره شيئاً، والسبب في ذلك أن المنافقين كانوا مكشوفين للرسول ﷺ بما آتاه الله من بصيرة، وكان الوحي الربّاني يَنْزِلُ فاضحاً أعمالَهُمْ مع كُلِّ حَدثٍ من أحداثهم، لكنّ المسلمين بعد ذلك لم يستطيعوا أن يكشفوا كُلَّ من دخَلَ في الإسلام نفاقاً، أو ارتَدَّ عن الإسلام دون أن يُعْلِن ردّته، وبقيَ بين المسلمين يتظاهر بالإسلام نفاقاً.

وفي أيام الفتوحات الإسلاميّة الواسعات انصرف المسلمون الصادقون إلى ما هم فيه، وانشغلوا عن رَصْدِ المنافقين الأخباث، ضِمْن الأفواج التي كانت تدخل في دين الله إعجاباً به، وبالفتح المبين الذي منحه الله للفاتحين المسلمين.

ثمّ غلَبَ على المسلمين بعد ذلك حُسْنُ الظنّ، وتفاقم حُسْن الظنّ لدى من جاء بعدهم، حتى غلَبَتْ الغفلة.

ثمّ جاءت أجيالٌ اختَلَّ عنْدَها الميزان الّذي يجب أن يزنوا به النـاسَ، من خلال سلوكهم وأخلاقهم وفلتاتِ ألسنتهم.

ثمّ ضعف الإيمان عند الجماهير الوارثة للإسلام، والمنتسبة إليه، فضعُفَت بصيرتُهُمْ، فتَسَلَّل المنافقون إلى صفوفهم، وظَفِرُوا بثِقتهم، واستَدْرَجوهم إلى ما يريدونهُ منْهم مِنْ إفْسادٍ وتَضْليل، أو تعذيبٍ وتنكيل، أو ردّةٍ عن الإسلام، واتّباعٍ لليهود أو النصارى أو أهل الأوثان، أو الملحدين الجاحدين لوجود الله ربّ العالمين، أو مدّعي الألوهيّة من البشر، أو مدّعي الألوهيّة لبَعْض البشر، أو غير ذلك من مذاهب الكُفْرِ في الأرض.

ثانياً: لقد كان دور المنافقين في مقتل عمر، ثمّ في مقتل عثمان رضي الله عنهما هو الدور الأكبر.

ثم جاء دور المنافقين في تأسيس أخْطَرِ المذاهب والفرق في تاريخ المسلمين.

ثمّ جاء دور المنافقين في إقامة بعض أنواع الحكم التي تنتسب إلَىٰ الباطنيّة ذات الصلة اليهوديّة في السِّرّ، وتتظاهر بالإسلام، وهي تكيد الإسلام والمسلمين كيداً كُبّاراً.

ثمّ كان للمنافقين دور خطير جدًّا في تقويض الدولة الإسلاميّة في الأندلس، وطرد المسلمين منها في أعظم نكبةٍ أُصيبَ بها المسلمون خلالَ تاريخِهِمُ الطويل.

حدّثني حاجٌّ باكستاني اجتمعتُ به مصادفةً في مكّة في بيتِ أحَدِ الأصدقاء، وعلمت منه أنّه ضابط كبير في الجيش الباكستاني برتبة «لواء» قال: إنّ الحكومة الهنديّة إبّان الصراع الدامي بينها وبيْنَ باكستان، أرسلَتْ وفْداً إلى إسبانيا، للاستفسار بشكل رسميٍّ عن الأسباب التي استطاع بها الإسبانيّون النصارى تقويض الدّولة الإسلاميّة في

الأندلس، فرجع الوفد وفي حقيبته أنّ أهمّ الأسباب الّتي تمكّنوا بها من تقويض دولة المسلمين في الأندلس النفاق والمنافقون، وذكَر لي أنَّ خبَرَ هذا الوفد وحقيقة ما عاد به من إسبانيا قد نُشِر في الصُّحف الباكستانيّة وغيرها في حينه.

وقد سألت عن خبر هذا الوفد كثيراً من الباكستانيين ذوي الاطلاع فأكَّدُوا لي صحّة هذا الخبر، ومنهم سفير باكستان في دمشق سنة «١٣٩٨ هجرية» ولكن لم يتيسّر لي الاطلاع على نصٍّ منْشُورٍ لهذا الخبر.

وكان للمنافقين دور خطير في معاونة التتار ضدّ الدولة الإسلامية، وإسقاط الخلافة العباسيّة.

وكان للمنافقين دور كبيرٌ جدًّا في معاونة الصليبيّين، وتمكينهم من بلاد المسلمين، وجماهير الأمّة الإسلاميّة.

ثمّ كان للمنافقين الدور الأكبر في هدم الخلافة الإسلامية العثمانيّة، ثمّ في استقدام الدّول النصرانيّة المستعمرة إلى بلدان المسلمين، وتمكينهم من كلّ شيء فيها.

ثمّ كان للمنافقين دور خطير وكبير في خدمة الدُّول الاستعماريّة، وتنفيذ مخطّطاتها، سواءً أكانت هذه الدُّول الاستعماريّة محتلّةً احتلالاً مباشراً، أو تُوجّه أوامرها من خارج الحدود، فتحكم بطريقٍ غير مباشر.

وما يزال المنافقون يُصرّفون معظم الحركات الهدّامة، والسياسات ذوات الولاء لأعداء الإسلام والمسلمين، في كثيرٍ من بُلْدانِ العالم الإسلاميّ، فهم يتحرّكون وفق أوامر الأعداء، أو وفق رغباتهم ولو من دون أمْر، ويحقّقون لهم في بلدان المسلمين وفي الأمّة الإسلامية وأجيالها ما يريدون، مقابل تمكينهم من الحصول على ما يشتهون من مالٍ، أو سلطانٍ، أوجاهٍ، أو غير ذلك من متاع الحياة الدنيا.

فهل انتهى النفاق بانتهاء عصر الرّسول ﷺ، أم بدأ شرُّه الأكبر؟!

إنّ التاريخ يؤكّد الثانية، ويُبْطل الفكرة الأولى.

ثالثاً: وقد دلّت النصوص على أنّ النفاق سيظهر بقوّة بين صفوف المسلمين،

وسيكون للمنافقين مكايد خطيرة، تَنْجُم عنها فِتَنٌ سوداء مظلمة، فمنها ما يلي:

(١) روى الحاكم بإسنادٍ صحيح عن أبي هريرة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَضحِكْتُمْ قَلِيلاً، يَظْهَرُ النِّفاق، وتَرْتَفِعُ الأمَانَةُ، وَتُقْبَضُ الرَّحْمَةُ، وَيُتَّهَمُ الأمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ غَيْرُ الأمِين، أَنَاخَ بِكُمُ الشُّرُفُ الْجُونُ: الْفِتَنُ كَأَمْثَالِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ».

أَنَاخَ بِكُمُ الشُّرُفُ الْجُونُ:

الشُّرُفُ: هي النوق المسنَّةُ الْهَرِمَةُ، والْجُونُ: أي السُّود، والمعنى أناخ بكم النوق المسنّة الهرمة السُّود، وقد فسّرها الرسول ﷺ بالفتن الممتدّة المتّصلة، والتي هي كقِطَع اللَّيْلِ المظلم، تشبيهاً لهذه الفتن بقافلةٍ من النوق المسنّة الهرمة السُّود بطيئة الحركة، والّتي يَتْبَعُ بعضُها بعضاً، كقِطَع اللّيل المظلم الّتي يأتي بعضها وراء بعض.

وإقبال النوق والجمال رمزُ المصائب والفتن والنّكبات، فإذا كانت سوداً كانت أشدّ.

(٢) ورُوي بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل موقوفاً عليه قال: «إنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَناً، يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ، وَيُفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ، حَتَّىٰ يَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ والْمُنَافِقُ، والرَّجُلُ والْمَرْأَةُ، والصَّغِيرُ والْكَبِيرُ، وَالْحُرُّ والْعَبْدُ، فَيُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ:

مَا لِلنَّاسِ لا يَتَّبِعُونِي وقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؟ مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّىٰ أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ، فَإيَّاكُمْ وَمَا ابْتَدَعَ، فَإنَّ ما ابْتُدع ضَلاَلَة، وَأُنْذِرُكُمْ زِيغَةَ الْحَكِيمِ، فَإنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلاَلَةِ عَلَىٰ لِسَانِ الْحَكِيمِ، وَقَدْ يَقُولُ المنافقُ كَلِمَةَ الْحَقِّ».

(٣) وروى الطبراني في الكبير، والبزّار بإسنادٍ رجاله رجال الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنّه قال:

«إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ».

(٤) وروى الإمام أحمد بإسنادٍ صحيح عن عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ».

وقد سبق الاستشهاد بهٰذين الحديثين.

(٥) وروى البيهقيُّ في شعب الإيمان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال:

«إِنَّ ما أَخَافُ على هذه الأُمَّةِ كُلُّ مُنَافِقٍ يَتَكَلَّمُ بالْحِكْمَةِ وَيَعْمَلُ بِالْجَوْرِ».

(٦) وروى ابن أبي شيبة عن حذيفة قال: «المنافقون الذين فيكُمُ اليوم شرٌّ من المنافقين الذين كَانُوا على عهد رسول الله ﷺ، إنَّ أُولَٰئِكَ كانوا يُسِرُّونَ نِفَاقَهُمْ وَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَعْلَنُوهُ».

● ● ●

الفصل الثاني

الإيمان والإسلام

أولاً : الإيمان

(١)
تمهيد

لكي نعرف حقيقة النفاق لا بدّ لنا من أنْ نعْرف الإيمانَ، والإسلامَ، وشُروطَهُما، وما يدخُل في ماهيّتهما. ولا بدّ أيضاً مِنْ أن نَعْرِف الكُفْرَ والمكفّرات.

فالنفاقُ صورةٌ من السُلُوكِ الإنساني، أخْطَرُه وشرُّه مَا كان في مجالِ الدين، ولا يُمكن معرفة ماهيّتِهِ منفصلةً عن معرفةِ كُلٍّ من الإيمان والإسلام والكفر.

* * *

(٢)
تعريف الإيمان

الإيمان: هو حركةٌ إراديَّةٌ قَلْبيّةٌ تتضَمَّنُ التَّصدِيقَ والاعترافَ والتَّسليمَ بقضيَّةٍ فكريّة.

والإيمانُ المطلوبُ في دين الله الحقّ لعباده: هو الحركةُ الإراديَّةُ القلبيَّة التي تتضمَّنُ التَّصْدِيقَ والاعْتِرافَ والتَّسْليمَ باللّهِ عزّ وجلّ وبصفاتِهِ كَما ثَبَتَ بالوحْيِ عنه، والإيمانَ بملائكته وكتُبه ورُسُلِهِ واليوم الآخر، والإيمانُ بالقضاءِ والقدَرِ خَيْرِه وشرِّه من الله تعالى، والإيمانُ بالتفصيلات الثابتة بواسطة الوحي عن كلّ ذلك.

فأركان ما يجب الإيمان به ستّة، وهي على وجه الإجمال ما يلي:

الركن الأول: الإيمان بالله عزّ وجل، وبكمال صفاته وأسمائه الحسنى، وبأنّه تعالى واحدٌ في ربوبيّته، فلا ربّ غيره، أي: لا خالق، ولا رازق، ولا مُحْيِي ولاَ مُمْسِكَ في الحياة، ولا مُميتَ ولا نافع ولا ضارّ غيره، سبحانه.

والإيمان بأنّه عزّ وجلّ واحدٌ في إلَهيّته، فلا يَسْتحِقُّ أحدٌ في الوجود أن يُعْبَد سِوَاه، وكلُّ عبادةٍ لغيرِه سبحانه وتعالى شِرْكٌ به.

ومَنْ عبادة غير الله اتّخاذُ مُشَرِّعينَ سوى الله، يُحِلُّونَ ما حرّم الله، أو يُحَرِّمُونَ ما أحلّ، أو يُشَرِّعُونَ في الدين شرائع لم يأذَنْ بها تباركَ وتعالى.

الركن الثاني: الإيمان باليوم الآخر، وبأنّ الحياة الدنيا هي حياة الامتحان، أمّا الحياة الأخرى بعد البعث فهي الحياة التي أعدّها الله عزّ وجلّ للجزاء الأمثل، بالثواب أو بالعقاب على وفق نتائج الامتحان.

وللحياة الدنيا دار هي الدار الدنيا في هذه الأرض وما يتصل بها، وللحياة الأخرى دار أخرى، أمّا المؤمنون فلهم دار النعيم الجنّة التي أعدّها الله للمتقين، وأما الكافرون فلهم دار العذاب الأليم النّار التي أعتدها للمجرمين وللعصاة المذنبين.

الركن الثالث: الإيمان بالرسول محمد ﷺ وبمن أرسَلَهُ الله قبله من رُسُلٍ للناس، لِيُبَلِّغوا دين الله وشريعته وأوامره ونواهيه لعباده، والإيمان بجميع أنبياء الله الذين اصطفاهم الله بالوحي.

الركن الرابع: الإيمان بالقرآن كتاب الله، وبكلّ ما جاء من عند الله على لسان رسول الله محمد ﷺ، والإيمان بكلّ الكتب والشرائع التي أنزلها الله على رُسُله السابقين على وفق ما أُنْزِلت، لا على ما جرى فيها من تحريف وتغيير وتبديل.

أمّا الكتبُ المحرّفة أو المفتراةُ على الله فلا يصحّ الإيمان بها، ولا يجوز العمل بما جاء فيها ممّا يخالف ما جاء به رسول الله محمد ﷺ.

الركن الخامس: الإيمان بالوحي الذي هو واسطة التبليغ بين الله عزّ وجلّ ورُسُلِه من البشر، والإيمان بالملائكة، فمنهم يصطفي الله رُسُلاً يُبَلِّغون الرُّسُلَ من البشر، ما يريد الله تبارك وتعالى تبليغهم إيّاه.

الركن السادس: الإيمان بالْقَدَر خيره وشرِّه من الله عزّ وجلّ، فما يجري في الكون من نِعَمٍ أو مصائب وبلايا، فهي بقضاء الله وقَدَره لِحِكْمَةٍ هو يُريدُها تتّصلُ بامتحان عباده في الحياة الدنيا، أو لحكمةِ تربيتهم وتأديبهم، أو لحكمة مجازاتهم.

* * *

الإيمان المنجي كُلٌّ لا يتجزّأ

قد يوجد لدىٰ بعض الناس إيمانٌ ببعضِ عناصر أركان الإيمان، ويوجد لديهم أيضاً كفرٌ بعناصر أخرى، أو إنكارٌ لها، أو شكٌّ فيها، وهؤلاء ليسوا ذوي إيمان صحيح ينجيهم عند الله من العذاب المعَدّ للكافرين.

وذلك لأنّ الإيمانَ المطلوبَ في دين الله الذي اصطفاه لعباده كُلٌّ لا يَتَجزَّأ، وعَناصِرُهُ شبكةٌ مترابطة قائمة على أصْلٍ واحد، فَمن لم يؤمِنْ بعُنْصُرٍ ثابتٍ من عناصر الإيمان الّتي أمَر الله عزّ وجلّ بالإيمان بها لم يكن صاحب إيمانٍ كامل ينجيه عند ربّه يوم الدّين.

إنّ من كفر بعُنْصُرٍ ما من عناصر الإيمانِ الثابتةِ بيقين وهو لا يَمْلِكُ بُرهاناً، عادَ ما كفر به على ما آمن به فنقضه.

فمن كذّبَ الرَّسُولَ الصادقَ المؤيَّد من اللهِ بآياته المعجزات، فقد كذّبَ آياتِ الله، ومُكَذِّبُ آياتِ الله مُكذِّبٌ لله، ولا يجتمع الإيمان بالله معَ التكذيبِ بآياته التي هي من آثار صفاته.

وعلى مثل هذا يظهر انعقاد الترابط بين الإيمان باللّهِ وصفاته، وبين الإيمان بكلّ عناصر الإيمان الثابتةِ بيقين.

● ● ●

ثانياً: الإسلام

(١)
تعريف الإسلام

الإسلام: إعلان المؤمِن بلسانه ما آمن به في قلْبه، مع إعلان مبدأ الطاعة لله ولرسوله، والتسليم لهما في كلّ أحكام الدين وشرائعه، دون رفضٍ ولا استكبار، ولا تمرُّدٍ على أوامر الله ونواهيه، ولا تمرّدٍ على أوامر الرسول ﷺ ونواهيه.

فمن رفض أن يُعْلن إسلامه، وهو قادرٌ على ذلك غير عاجزٍ ولا جاهلٍ ولا مُكْره، ومرّ عليه زمَنٌ كافٍ لكي يُعْلِن إسلامه مع علْمِه بأنّ الله لا يُنْجيه من عذاب الكافرين يوم الدين ما لم يُعْلِن إسلامه، ولم يفعل ذلك، فإنّه لا يخرجُ من الكفر إلى الإيمان.

والسبب في ذلك أنّه لم يرفض هذا الإعلان إلاّ وهو لا يريدُ الالتزام بمضمون الحقّ الرّبّاني الذي عرفه، ولا يريد طاعة الله في أوامره ونواهيه، وهذا من الكفر.

إنّ من رفضَ طاعة ربّه بعد إيمانه به مستكبرٌ على ربّه، أو شاكٌّ في حكمته، أو مشركٌ به، أو معانِدٌ يبتغي الفجور في الأرض، وكلُّ ذلك من الكفر.

إنّ كُفْر من يرفُض طاعةَ ربّه في أوامره ونواهيه شبيهٌ بكُفْرِ إبليس، إذْ رفض طاعة ربّه استكباراً، وشكَّ في حكمته، حين وجّه له الأمر بأن يسجُد لآدم، وجَحَدَ حقّ الله عليه، وعاند وأصَرّ.

هذا النوع من الكفر هو كفر الاستكبار، أو كفرُ جُحود حقّ الله على عباده في أن يطيعوه، ويُعْلِنوا إسلامهم له عزّ وجلّ، أوْ كُفْرُ اتّهام الخالق بعدم الحكمة، أو بعدم العدل، أو بعدم العلم.

لكن من ركب مراكب معصية الله في أوامره ونواهيه، مع إعلانه مبدأ الطاعة، واعترافه بحقّ الله عليه، واعترافه بذنبه، وجرمه، ومع خضوعه وذُلّه لربّه، فهُو مسلمٌ مؤمِنٌ عاصٍ، وعصيانُه قد كان بسبب ضعف إرادته عن التغلُّب على أهواء نفسه وشهواتها، لا بسبب جحوده لأركان الإيمان، ولا بسبب رفضه لطاعة الله، استكباراً أو شكًّا في حكمته، أو إنكاراً لحقه على عباده، أو رغبة في أن ينطلق في الأرض فاجراً معانداً لربّه.

والمؤمِنُ المسلم العاصي يحاسَبُ على مقدار معاصيه، وينالُ جزاءه وفق مقتضيات العدل الرَّبّاني، أو يغفر الله له، إنْ عَلِمَ بحِكْمتِه أنّه يسْتحِقُّ المغفرة، ثمّ يكون بسبب إيمانه وإسلامه من أهل الجنّةِ بحسب وعد الله وفضله.

هذا هو الإسلام الحقّ المقبولُ عند الله، والْمُنْجِي من الخلُودِ في عذاب النار، والذي يكون به المسلمُ من أهل الجَنّةِ بفضلِ الله.

* * *

(٢)
أقسام معلني الإسلام

من تعريف الإيمان والإسلام يظهر لنا أنّه ليس كُلُّ مَنْ أعلن إسلامه هو مسلِمٌ حقًّا.

* فقد يُعْلِنُ الإسلامَ من هو كافرٌ في قلْبه بأركان القاعدة الإيمانيّة التي أمر الله بالإيمان بها، أو كافرٌ ببعضها، ويريد أنْ يخادع المسلمين بانتمائه الكاذب للإسلام.

فهذا مُسْلِمٌ إسلاماً ظاهريًّا فقط، وهو ليس بِمُسْلم حقًّا وصِدْقاً، وذلك لأنه كاذب في إعلانه يَجْحَدُ القاعدةَ الإيمانيّةَ كُلّها أو يَجْحَدُ بعضَها، وقد صارَ معلوماً أنّ جحود بعض عناصر القاعدة الإيمانية هو من الكفر، فالإيمان بعناصر القاعدة الإيمانية في دين الله لعباده كُلٌّ لا تُقْبَلُ فيه التجزئة، وإن وُجِدَتْ عند بعض الناس فإنّ ما آمنوا به لا ينجيهم عند الله من العذاب الْمُعَدِّ للكافرين، على أنّ الكفْرَ دَرَكاتٌ بعضُها أشدّ من بعض، والكافرونَ في دار العذاب يوم الدّين تَقَعُ منازلهم في دركاتٍ بَعْضُها أحطُّ وأنْزَلُ وأشدُّ عذاباً من بعض.

* وقَدْ يُعْلِنُ الإسلامَ مَنْ أعجبه الانتسابُ إليه، ويقْبَلُ مبْدأ الطاعة لما جاء فيه من أوامِرَ ونواهي، ولكنَّ هذا الإعجابَ غيرُ نابعٍ من القاعدة الإيمانيّة، وغير مرتكزٍ عليها.

فقد يكون إعجابه بالإسلام مرتكزاً على سبَبٍ غيرِ إيمانيّ، كانْبِهَاره بانتصارات المسلمين، فهو يريد بصِدْقٍ أن ينتميَ إلى الجماعة الغالبة، التي تَتحقَّقُ لها الانتصارات الباهرات، دون أن يصل إلى قناعةٍ بعناصر القاعدة الإيمانيّة، ولا إلى الإيمان بها.

فهذا مُسْلِمٌ بمعنى أنّه متنسِبٌ إلى جماعة المسلمين، ومُسْتَسْلِمٌ للأوامر الإسلامية، وهو في حدود هذا المعنىٰ غير كاذب في انتمائه، إلاّ أنّه مُسْلِمٌ غيرُ مؤمن، ويُرْجَىٰ بعْدَ انتمائه الصادقِ أن ينْتَقِل خُطْوةً أُخرىٰ يتفَهَّمُ فيها عناصر القاعدة الإيمانيّة، ويؤمن بها، فيكونَ مُسْلماً مؤمناً.

لكنّه إذا بقي عند حدود هذا الانتماء إلى جماعة المسلمين، دون أنْ يؤمن بالقاعدة الإيمانيّة الّتي أمر الله بالإيمان بها، فإنّه يظلُّ عند الله غير مُسْلِمٍ حقّاً، لأنّ الإسلام الحقّ المقبول عند الله عزّ وجلّ مشروطٌ بأنْ يكون مرتكزاً على القاعدة الإيمانيّة.

* * *

وبناءً على هذا التحليل يتبيّن لنا أن الّذين يعلنون إسلامَهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسامٍ رئيسيّة، وهي ما يلي:

القسم الأول:

المسلمون المؤمنون، وهم الّذين آمنوا وصدّقوا في قلوبهم بكلّ عناصر القاعدة الإيمانيّة، ولم يكفُروا ولم يشكُّوا بجزءٍ ما من أجزائها، وأعلنوا إسلامهم واستسلامهم لما يوجبه الإيمان ويقتضيه من الطاعة والاتباع، وساروا في طريق التطبيق دون معاندةٍ ولا استكبارٍ ولا تمرّد.

وهؤلاء على مراتب متفاوتاتٍ متفاضلات، وفي كلّ مرتبة من مراتبهم درجات:

المرتبة الأولى العليا: مرتبة المحسنين المقرّبين، وهم الذين استوْفَوْا حُقُوق

مرتَبَةِ التقوى، وتوسعوا في أعمال البرّ من نوافل الأعمال الصالحة التي تقرّبهم إلى الله عزّ وجلّ، ووَصَلُوا إلى حالةٍ قلبيّة استطاعوا بها أن يَعْبُدوا الله كأنّهم يَرَوْنه، ويَشْهَدُونَ أنَّهُمْ يَعْمَلُونَ أعمالهم بيْنَ يَدَيْهِ تبارك وتعالَىٰ، فَيُبَالغون في إحسانِ أعمالهم الظاهرة والباطنة، ويُجَوِّدُونَها، كحالِ الْخَادِمِ في حضرة الملك وهو يُشَاهده ويُنَاظِرُه، ويُراقب حركاته وسكناته.

ولهذه المرتبة درجات، يحتلُّ أعْلَاهَا أُولو العزم من الرسُلِ وفي مقدّمتهم رسول الله محمّد ﷺ، وتتَنَازل درجاتُها بحَسَب حال نسبةِ الإحسان في الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، كَمًّا وكيْفاً، واستمراراً أو في بعض الأوقات دون بعض.

المرتبة الثانية: مرتبة الأبرار، وهم الذين استوفَوْا حقوقَ مرتبة التقوى، وتوسَّعُوا في أعمال البِرّ من نوافل الأعمال الصالحة التي تقرِّبُهُمْ إلى الله عزّ وجلّ، إلاّ أنّهم لم يصِلُوا بَعْدُ إلَىٰ حالة الشعور الداخليّ بأنّهم يَعْبُدونَ الله كَأَنَّهُمْ يَرَوْنه.

وبسبب ذلك لم يَصِلُوا إلى مرتبةِ الإحسانِ والتجويد في الأعمال إحسانَ مَنْ يَشْعُر أنّه بيْنَ يَدَيْ رَبِّه، حتّى كأنّه يَرَىٰ ربَّهُ الذي هو على كلِّ شيْءٍ شهيد.

ولهذه المرتبة درجات تتناسبُ مع نسبة نوافل الأعمال الصالحة التي يُبْتَغَىٰ بها وجْهُ اللّهِ عزّ وجلّ كمًّا وكيْفاً، واستمراراً ومواظبةً في معظم الأوقات، أو في بعض الأوقات دون بعض.

المرتبة الثالثة الدُّنيا: مرتبة المتقين، وهم الذين تَنْحَصِرُ أعمالهم في فعل ما أمر الله به، وتَرْكِ من نهىٰ الله عنه، مَعَ استيفائِهِمْ لما هُو مطلوبٌ منهم من إيمان.

ولهذه المرتبة درجات متفاضلات:

* فأعلاها درجة الذين يؤدّون جميع ما فرض الله عليهم من أعمال ظاهرة وباطنة، ويَجْتَنِبُون جميعَ مَا نهاهم الله عنه.

وهؤلاء يحقّقُون كمال التقوىٰ، لأنّهم اتّقَوْا عقوبةَ اللّهِ التي رتّبها على مَعْصِيَتِه الّتي تكون بتركِ الواجبات وفعل المحرّمات.

ويُلْحَقُ بهذه الدرجة من قصَّرُوا ببعض حقوقها، إلاّ أنّهم عوّضوا بأعمالٍ ظاهرة

أو باطنة هي من أعمال مرتبة الأبرار أو مرتبة المحسنين، أو تابوا واستغفروا فكفّر الله عنهم سيئاتهم.

ويوصف أصحابُ هذه الدرجة بأنّهم «مقتصدون» أي: لم يستزيدوا من نوافل الصالحات، ولم يُقَصّروا بما هو مطلوبٌ منهم ممّا هو من حقوق هذه الدرجة.

* وتحت الدرجة العليا من هذه المرتبة تأتي درجات الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فقد تزيد حسناتهم على سيئاتهم، وقد تزيد سيئاتُهم على حسناتهم، وقد تتساوى، لكنّهم لم ينزلوا إلى دركة المسرفين على أنفسهم.

ويوصف أصحابُ هذه الدّرجات المتوسطة بأنّهم ظالمون لأنفسهم، بتعريض أنفسهم لاستحقاق العقاب على ترك ما تركوا من واجبات، وفعل ما فَعَلُوا من محرّمات، وهم ضمن حدود مرتبة المتقين، بوجه عامّ، لكنّهم لم يتّقوا كلّ ما ينبغي أن يتّقوه.

* أمّا الدرجاتُ السُّفْلَىٰ من درجات مرْتَبةِ المتقين فهي درجات الذين أسرفوا على أنفسهم، وهمُ المؤمنون الذين كثرت جدًّا معاصيهم، بترك الواجبات وفعل المحرمات، حتّىٰ بلَغُوا حدّ الإسراف في ذلك، وهم يدخلون أيضاً في مفهوم الظالمين لأنفسهم ولكن بإسراف.

وبعضُ هؤلاء أسوأُ حالاً من بعض، وأدناهم من اتّقىٰ بصِدْقِ إيمانه الخلود في النّار.

وأدلة هذه المراتب ودرجاتها موزّعةٌ في القرآن المجيد.

* * *

القسم الثاني:

المسلمون المنتسبون، وهم الذين أعجبهم الانتسابُ إلى الإسلام لسَبَبٍ من الأسباب الشكليّة أو غير الجوهريّة في الإسلام، كأنْ يكُونُوا قد رأَوُا الأفواج من قومهم تدخُل في الإسلام فدخَلُوا معهم، أوْ رأَوُا انتصار المسلمين فأحبُّوا الانتماء إليهم، أو استَحْسَنُوا بعض أعمال المسلمين ومعاملاتهم، فأحبُّوا الانتماء إلى جماعتهم من أجل ذلك، أو استحسنُوا النُّظُم الإسلاميّة فقبِلُوا الألْتزامَ بها، أو نحو هذه الأمور، وبناءً

على هذا الإعجاب أَعلَنُوا انتسابهم إلى الإسلام، دون أن تتَّضِحَ لهُمُ الرؤية الحقيقيّة لعناصر القاعدة الإيمانية.

إنّ هذا الإسلام هو في حقيقته:

* إمّا انتسابٌ صادقٌ غير كاذبٍ إلى جماعة المسلمين.
* وإمّا استحسانٌ لنظام الإسلام وإعلان للالتزام بتطبيقه.

لكنّه في كِلْتا الحالتين ليس إسلاماً مرتكزاً على الإيمان بعناصر القاعدة الإيمانيّة في الدين.

إنّ أهل هذا القسم المنتسبين إلى الإسلام ليسوا بكاذبين في إعلانهم إسلامهم، إذْ فهموا من الإسلام أنّه إعلان الانتماء وقبول مبدأ الطاعة والاتباع، وهذا في مفهوم كثيرٍ من الناس يشبه اتباع حزب بشري، أو زعيم من الزعماء، ويشبه الانتساب القوميّ أو العرقي أو الوطني، من الانتماءات التي ليس لها قاعدةٌ إيمانيّة اعتقادية فكريّة.

ومع أنّ هؤلاء ليسوا بكاذبين في إعلانهم الإسلام ضِمْنَ حدود مفهومهم الخاطىء للإسلام الذي لا يكون صحيحاً ما لم يكُنْ مرتكزاً علَىٰ القاعدة الإيمانيّة ونابعاً منها، فإنَّهُمْ ليسوا بمؤمنين حقاً، بل هُمْ مسلمون، بمعنى أنّهم استسلَمُوا لأحكام الإسلام العمليّة، وقَبِلُوا مبدأ الطّاعة ضِمْن جماعة المسلمين، لَكِنَّ قلوبهم لم تصِلْ بَعْدُ إلى مرحلة التصديق بعناصر الإيمان والاطمئنان إليها.

ومن مسلمي هذا القسم مسلمو الأعراب الذين قال الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ

إِسْلَٰمَكُمْۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

هذا النصّ يدلُّ على أنّ الأعرابَ الّذِين تَحدَّثَ عَنْهُمْ، هم قومٌ قد أسلموا بمعنىٰ أنّهم أعلنوا الانقياد والطاعة والمتابعة لرسول الله ﷺ، وأنّهم بهذا الإعلان صادقون غير كاذبين، فهم بذلك مسلمون.

لكنّهم حين ظنّوا أنّ إعلانَهم الإسلام هو الإيمان، فقالوا: آمَنَّا، أبانَ الله أنّهم لم يؤمنوا بل أسلموا فقط، فقال تعالى لرسوله يُعلّمُهُ ما يقوله لهم:

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ﴾:

أي: فإذا قُلْتُم: أسلمنا فأنتم صادقون، لأنكم أسلَمْتُمْ إسلام الاتباع والطاعة، لكِنْ هذا الإسلامَ لَمْ يكن ثمرةَ إيمانٍ دخل في قلوبكم.

إنّهم في حالةٍ وُسطىٰ لم يبلُغوا فيها أنْ يكونُوا مؤمنين، وأنْ يكونَ إسلامُهم ثَمرةً لإيمانِهم، ولم يبلُغوا فيها أنْ يكونوا جَاحِدينَ مُنْكِرينَ كافرين، وأن يكون إعلانُهم للإسلام إعلاناً كاذباً ناجماً عن نفاقٍ منْهم.

إنّهم مسلمون بمعنى الاتّباع والانقياد والطّاعة لأحكام الإسلام العمليّة، غير مؤمنين إيماناً صحيحاً بعناصر القاعدة الإيمانيّة.

وممّا لا ريب فيه أنّ ثباتَ هؤلاء في الانقياد والاتباع والطاعة ثباتٌ ضعيف، وهو عرضةٌ للتقلّب والتحوُّلِ والارتداد، نظراً إلى أنّ انتماءهم غير مرتكزٍ على قاعدةٍ إيمانيّة ثابتةٍ راسخةٍ في قلوبهم.

وقد أثبتتِ التجاربُ الإنسانيّة أنّ الانتماءات العاطفيّة، أو النفعيّة، أو القائمة على الانبهارِ بالظواهر، أو الإعجاب ببعض الأشكال والصُّوَر، قابلةٌ للتحوُّل والتغيُّر والارتداد بسرعة، بخلاف الانتماءات القائمة على قاعدةٍ إيمانيّة راسخة ثابتةٍ، ذات عناصر فكريّةٍ حقّ.

ولمّا كان هؤلاء الأعراب مسلمين فقط في حدود مفهوم الطاعة والانقياد

والاتباع، ولمّا يَدْخُلِ الإيمان في قلوبهم، كانوا بهذا غير مؤمنين حقًّا، ولا كاذبين في إسلامهم، فليسوا إذن منافقين.

ولمّا كانوا كذلك بيّن الله عزّ وجلّ لهم أنّ أجورهم على طاعتهم واتّباعهم ستأتيهم كاملةً غير منقوصة، فقال تعالى:

﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿لَا يَلِتْكُم﴾: أيْ: لا ينقصْكُمْ مِنْ أُجور أعْمالِكُمْ شيئاً.

ونفهم من نُصوصٍ أُخرى أنّ أجور غير المؤمنين صحيحي الإيمان أجورٌ دنيويّة غير أخرويّة.

ثمّ بيّن الله عزّ وجلّ صفات المؤمنين حقًّا فقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

فالمؤمنون هُمُ المصدّقون في قلوبهم بالله والرّسول، والذين ليس في قلوبهم ريْبٌ بأيّ عُنصر ممّا يجب عليهم أن يؤمنوا به، ولم يدخُلْ إلَى قُلوبهم ريْبٌ لاحِقٌ بَعْدَ إيمانِهِمْ، ثمّ ظهرت آثار إيمانهم الثابت في قلوبهم بأعمالهم، فجاهدوا بأموالهم وأنْفُسهم في سبيل الله، بعد أنْ أسلموا وأعلنوا بإسلامهم الطاعةَ والانقيادَ والاتّباع.

والاختبارُ بالجهاد الذي يستدعي بذلَ الأموال والأنفس، لَهُ ميزةٌ خاصّةٌ في كونه دليلاً على صدْقِ الإيمان، إذِ الإسلامُ الذي يكونُ بإعلان الشهادتين، وإقامةِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وصومِ رمضان، وحجِّ البيت، قد يفعله المسلمُ المنتسب، ولوْ لَمْ يدخُلِ الإيمانُ في قلبه، لكنّ بذلَ المالِ فوق الزكاةِ وبذلَ الأنْفُسِ جهاداً في سبيلِ الله، وإعلاءً لكلمة اللّهِ، لا يفعله غالباً إلاّ مؤمنٌ بالله ورَسُولِهِ واليوم الآخر صادقٌ في إيمانه.

وقول الله عزّ وجلّ في التعليم الذي أمَرَ الله رسوله بأنْ يقوله لهم:

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

يُشعِرُ بأنّ أنوار الإيمان قد بدأت تلامس ظواهر قلوبهم بعد إسلامهم، لكنّها لم تدخل فيها، ولم تُحْدِثْ في قلوبهم الطمأنينة. وربّما كانت هذه الأنوار قد لامست ظواهر قلوبهم قبل إسلامهم، وهذا المستوىٰ كان من المرجّحات الّتي جعلتهم يُعْلِنُونَ دخولهم في الإسلام، وهم صادقون في إرادة الطاعة والمتابعة.

إنَّ تصوُّرَهُمْ لقَضِيَّةِ إسلامهم كتَصَوُّرِ صَاحِبِ فضْلٍ في الانتساب إليه، إنّهم يرَوْنَ أنهم يُقَوُّونَ بانتسابهم الجماعَةَ التي ينتسبون إليها، والمبدأ الّذي ينتسبون إليه، نَظِيرَ مَنْ ينتَسِبُ إلى زَعِيم من الناسِ فيُناصِرُهُ ويُدافِعُ عَنْهُ ويُطيعُه.

ولمّا كان تصوُّرُهم كذلك أخذوا يَمُنُّون على الرسول ﷺ إسلامَهُمْ.

فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: جاءت بنو أسَدٍ إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أسْلَمْنا، وقاتَلَكَ العربُ ولم نقاتِلْكَ، فقال رسول الله ﷺ:

«إنَّ فِقْهَهُمْ قَلِيلٌ، وَإنَّ الشَّيْطَانَ يَنْطِقُ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ».

وأنزل الله قوله خطاباً لرسوله:

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

لقد كان جهلُهم يعبّر عنْهُ تصوُّرُهُمْ أنّ إسلامَهُمْ قد كانَ لمصلحة الرسول، فأخذوا يمنُّونَ علَيْه إسلامَهُم، وغابَ عنْهُمْ أنّ إسلامهم لو صحّ فإنّما هو لمصلحتهم أنفسهم، ولنجاتهم عند ربّهم، وللظُّفر بالسعادة الخالدة في دار النعيم التي أعدّها لعباده المتقين.

وهذا يؤكّد أنَّ إسلامهم قد كانوا صادقين فيه من جهة صِدْقِ الإعلان، لكنّه لم يكُنْ ثمرةَ إيمانٍ صحيحٍ دخلَ في قلوبهم، ولَمْ يكن أيضاً نفاقاً، يُضاف إلى ذلك أنّ أنوار الإيمان لم تكن بعيدةً عن قلوبهم، ولا مُجافيةً لَهَا كُلَّ المجافاة، بل هُمْ بَيْنَ بَيْن، ورجاءُ دُخول الإيمان في قلوبهم رجاءٌ قويٌّ، دلّ عليه قول الله عزَّ جلّ في التعليم:

﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾.

ولو أنّ إسلامهم قد كان ثمرَةَ إيمانٍ صحيحٍ دخلَ في قلوبهم، لَعَلِمُوا أنَّ المنَّةَ للّهِ عليهم، إذْ بَعَثَ رسولَهُ، وأنزل عليه كتابه، فهداهم بذلك إلى الإيمان، الذي هو السبيل الوحيدُ إلى أن ينالُوا سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونجاتهم من الشقاء والعذاب. ولَعَلِمُوا فضْلَ الرسول ﷺ عليهم، إذْ حمَلَ إليهم الرّسالة، وأدّى الأمانة، ولم يألُهُمْ نُصحاً، وكان بهم رؤوفاً رحيماً.

ويدخُلُ في قسم المسلمين المنتسبين من كان يؤمن ببعض عناصر الإيمان، إلاّ أنّ الرؤية لديْه لم تشمَلْ كُلَّ عناصر الإيمان حتّىٰ يؤمن بها، ومع ذلك فقد أعلن إسلامه صادقاً بإعلانه، ولكِنْ بمعنى الاستسلام والانقياد والطاعة لأحكام الإسلام وشرائعه ونظمه، لا بمعنى الإسلام النابع من القاعدة الإيمانيّة الكاملة، والمرتكز عليها.

والمنتمون إلى الإسلام على معنىٰ الطاعة والانقياد دون أن يكون إسلامهم قائماً على قاعدة إيمانيّةٍ صحيحةٍ كاملة متفاوتون فيما بينهم، فهم على درجات متفاضلات:

الدرجة الأولى: يحتلُّها الملتزمون كاملو الالتزام بالطاعة والانقياد، وفق مقتضىٰ إعلانهم.

الدرجة الثانية: يحتلُّها الذين هم بين بيْن.

الدرجة الثالثة: يحتلُّها الذين يقلُّ التزامهم جدّاً، وتكثُر مخالفاتهم، وتجاوزاتهم حدود طاعة الله ورسوله.

وكثيراً ما يسقُط المسلمون المنتسبون لدى امتحانهم بالدعوة إلى الجهاد بالأموال والأنفس، لأنّ الصدق في هذا الجهاد لا بدّ أن يعتمد على صدق الإيمان بالله واليوم الآخر.

ويدخلُ في هذا القسم وارثو الإسلام، الذين لم يدخل الإيمانُ بعْدُ في قلوبهم، إنّ إسلامهم إسلامٌ وراثيٌّ يكادُ يكون جَبْريًّا لا اختياريًّا، إنّهم وارثو الانتساب إليه. كما ورثوا من آبائهم الانتساب إلى قومهم وعشيرتهم، وكما ورثوا الانتماء إلى وطنهم الذي وُلِدُوا ونَشَوْوا فيه، ولا يكون إسلامُهُمْ إسلاماً كاملاً نابعاً من القاعدة الإيمانية ومرتكزاً عليها حتّى تتّضِحَ لهم رؤْيةُ عناصر القاعدة الإيمانيّة، وحتّىٰ يؤمنوا بها إيماناً لا ريب

فيه، ثم يكون إسلامهم بعد ذلك انتساباً إرادياً اختيارياً مستنداً إلى قاعدة إيمانهم.

إنّ الذين ورثوا الانتساب إلى الإسلام من أسرهم وبيئاتهم، فأعلنوا أنّهم مسلمون، ولمّا يدخُل الإيمان في قلوبهم، إذ لم تتّضحْ لديهم بعْدُ الرؤية الحقيقيّةُ للقاعدة الإيمانيّة وعناصرها، يشبهُ حالُهم حالَ الأعراب الذين وصفهم الله بقوله:

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... ﴿١٤﴾﴾.

إنّ انْتِسَابَهُمْ إِلَىٰ الإسلام ليس انتساباً كاذباً حتّى يكونوا منافقين كافرين في بواطنهم، مخادعين بالانتساب إلى الإسلام في ظواهرهم، وهم كذلك ليسوا بمؤمنين في قلوبهم، وليسوا أيضاً بكافرين على معنى أنهم يجحدون ويُنْكِرُونَ عناصر القاعدة الإيمانيّة مع علمهم بها. إنّهم ما داموا كذلك فهم في منزلةٍ وُسْطَى بين الإيمان والكفر.

لكنّهم لا يمْكِنُ أن يستمرّوا في هذه المنزلة، بل لا بُدَّ أن تتوارد عليهم أدلّةُ الإيمان، ثم هم بعد ذلك:

* إمّا أن يؤمنوا وتطمئنّ قلوبهم، وعندئذٍ يرتبطُ إسلامهم بإيمانهم، ويكونُ إسلامُهم مظهراً من مظاهر إيمانهم، وثمرةً من ثمراته.

* وإمّا أن تغلبَ عليهم الشكوكُ، وتلْعَبَ بهمُ الأهواء، وتجتالهم شياطين الإنس والجنّ، ويرفُضُوا الإيمان بعناصر القاعدة الإيمانيّة، بعد علمهم بها، وعرض أدلّتها البرهانيّةِ عليهم.

وعندئذٍ يُحكَمُ عليهم بأنّهم كافرون، فإنْ صرّحوا بكفرهم كانوا مرتدّين، كما حصل لبعض الأعراب الذين ارتدّوا، وإنْ حافظوا على مظهر الانتساب إلى الإسلام خوفاً أوطعماً، أو رغبة في الإفساد وهم داخل صفوف المسلمين كانوا من زمرةِ المنافقين.

ويدخل أيضاً في قسم «المسلمين المتسببين» الذين لمّا يَدْخُلِ الإيمان في قلوبهم، بعضُ المؤلفة قُلوبُهم، فقد أُطْلِقَ هذا الاسم على قومٍ انتسبوا إلى الإسلام غير منافقين، ولكنّ الإيمان لم يدخلْ بعْدُ في قلوبهم.

وهؤلاء قد أذن الله عزّ وجلّ بتأليفِ قلوبهم عن طريق بذل المال لهم ولو من الزكاة، إذا رأى حاكم المسلمين أنّ في ذلك مصلحةً للإسلام والمسلمين.

وأُطلق عنوان «المؤلفة قلوبهم» على قوم لم يتثبّتوا بَعْدُ إلى الإسلام، وأراد الرسولُ ﷺ تأليف قلوبهم، فأعطاهم ممّا لديه من الأموال العامّة، فألّف بذلك قلوبَهُم وقلوبَ أتباعهم، رجاء أن يدخلوا في الإسلام.

وربّما أُطْلِقَ هذا العنوان أيضاً على قوم يُعْطَوْنَ من الأموال العامّة ليقوموا بخدمات كبيرةٍ للمسلمين، كالدفاع، ومقارعة الأعداء في الثغور، وكجمع الصدقات من أقوامهم وجماعاتهم.

وقد كان من المؤلفة قلوبهم في عصر الرسول ﷺ وقد أسلموا وأعطاهم الرسول:

«أبو سفيان بن حرب ـ عُيَيْنَةُ بْنُ بدر ـ الأقرعُ بن حابس ـ عبّاسُ بْنُ مِرْدَاس ـ عَلْقَمَةُ بْنُ عُلاَثَة».

وكان من المؤلفة قلوبهم في عصر الرسول ﷺ وهم لم يُسْلِمُوا بعْدُ، وأعطاهم الرسول تأليفاً لقلوبهم: «صفوان بْنُ أُمَيَّة» وقد أعطاه الرسول ﷺ من غنائم حُنَين مائةً من الإبل، وكانَ قد شهدَ حُنَين وهو مُشْرك.

روى مسلمٌ والإمام أحمد والترمذي عن صفوان بْنِ أميّة قال: «أعطاني رسول الله ﷺ يوم حُنين، وإنّهُ لأَبْغَض النّاسِ إليّ، فما زال يعطيني حتّى إنّهُ لأحَبُّ النّاسِ إليّ».

من هذا يتبيّن لنا أنّه قد كان معروفاً بين أهل الصدر الأول وجود قسم من المسلمين غير قسم «المسلمين المؤمنين» وهم قسم «المسلمين الّذين لمّا يدخل الإيمان في قلوبهم» وقد يطلق على بعض أفراد هذا القسم وصف «المؤلّفة قلوبهم».

وقد بدا لي أن يُطلق على هذا القسم عنوان «المسلمون المتسبون» فإذا أضفنا إلى هذين القسمين قسم «المسلمين المنافقين» كانت الأقسام ثلاثة:

(١) المسلمون المؤمنون.

(٢) المسلمون المتسبون.

(٣) المسلمون المنافقون.

وتأكيداً لوجود الفرق بين «المسلمين المؤمنين» و«المسلمين المنتسبين» في بيانات الرسول ﷺ، نستشهد بما كان الرسول ﷺ نفسه يفعله من تفريق بين لفظتي: «مؤمن ومُسْلِم» إذْ كان لا يطلق لفظة «مؤمن» على من علم أنّ الإيمانَ لم يدخُلْ بعْدُ إلى قلبه، وإنما يُطْلق عليه لفظة «مسلم» كما طلب منه أن يقول للأعراب الذين لمّا يدخل الإيمان إلى قلوبهم، وكان يُرْشدُ أصحابه إلى ما ينبغي أن يطلقُوه على الناس من هاتَيْن اللفظتين حينما يريدون وصفهم بهما أو بإحداهما.

روى الإمام أحمد عن سَعْد بن أبي وقّاصٍ ــ رضي الله عنه ــ قال:

أعطىٰ رسول الله ﷺ رجالاً، ولم يُعْطِ رجلاً منْهُمْ شيئاً، فقال سَعْدٌ: يا رسول الله، أعطيتَ فلاناً وفُلاناً، ولَمْ تُعْطِ فلاناً شيئاً، وهو مؤمن.

فقال النبيُّ ﷺ: «أو مُسْلِم».

حتّىٰ أعادها سَعْدٌ ــ رضي الله عنه ــ ثلاثاً، والنبيُّ ﷺ يقول: «أو مُسْلِم».

ثمّ قال النبي ﷺ:

«إنِّي لأُعْطِي رجالاً، وأَدَعُ مَنْ هُوَ أَحَبُّ إليَّ مِنْهُمْ فلَمْ أُعْطِهِ شَيْئاً مَخافَةَ أَنْ يُكَبُّوا فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِم».

فهذا رسولُ الله يُفرِّق بيْنَ لفظة «مؤمن» ولفظة «مسلم» وذلك لأنّه ما دامت كلمة «مؤمن» تفيد أنّ من تُطْلَقُ عليه قد دخل الإيمان في قلْبِه واستقرّ، وما دامَ سعْدٌ لا يعْرِفُ ما في القلوب، وإنّما يَطّلعُ على الظواهر فقط، فقد علّمه الرسول ﷺ أن يشهد بما يعْلَمُ، ويَسْكُتَ عمّا لا يعْلَمُ، إنّه يعلَمُ عن الرجُل إسلامه، فليقل عنه: هو مسلم، ويجهل صدق إيمانه فلا يقُلْ عنه: هو مؤمن.

ولا يدُلُّ هذا الإرشاد النبويُّ على أنّ الرجُلَ المتحدّث عنه لم يكن مؤمناً، بل يدلُّ على أنّه لا ينبغي للمسلم أن يحكُمَ بما لا يعلَمُ.

على أنّه يكفي للحكم بالإيمان الدلائل التي تُعْطِي غلبةَ الظّنّ، وهو ما أرشدنا الله عزّ وجلّ إليه بقوله في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ . . . ﴿١٠﴾ ﴾.

فقد أذن الله عزّ وجلّ في هذه الآية للمؤمنين بأن يحكموا بإيمان من دلّتهم الدلائل الظّنّيةُ المرجّحةُ على أنهم مؤمنون، وبغيَةَ الوصول إلى هذه النتيجة أرشد الله إلى امتحان من يراد الحكم له بالإيمان، وسمّى ما يتوصّلُ الممتحنون إليه من غلبة الظنّ علماً.

أمّا العلم اليقينيُّ بإيمان آحاد الناس، فلا يستطيع الناس التوصّل إليه بحسب العادة إلّا عن طريق خبر الوحي، وذلك لأنّ الإيمانَ من صفات القلوب، وما في القلوب لا يعْلَمُه بيقينٍ إلّا الله علّام الغيوب، ثم من اصطفاهم الله بالوحي، أو أعطاهم قدرة الاطلاع على ما في القلوب كالملائكة، ولذلك جاء في الآية قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ جملةٌ اعتراضيّةٌ ضمن التوجيه لامتحانهنّ والحكم عليهنّ بالإيمان بعد الامتحان.

ونتساءل: هل يبقى «المسلم المنتسب» على حالته الوسطىٰ طوال حياته حتّىٰ يلقىٰ ربّه؟

وأرىٰ في الجواب ما يلي:

* إنْ كانَ توقُّفُه عن الإيمان ناشئاً عن جهلٍ وهو يبحث عن الحقّ، فسيكشف الله له من الأدلة والبراهين ما يهديه إلى الحقّ.

هذا ما جرت به سنّة الله تعالى في خلقه، وهو ما تقتضيه حكمته، وحين ينكشف له الحقُّ الذي يطلُبُه، فسَيَكُونُ من المسلمين المؤمنين، وعندئذٍ تَتِمُّ المواءَمَةُ بيْنَ ما أعْلَنَهُ وما اطمأنّ إليه قلبه.

* وإنْ لم يكُنْ كذلك، فسَيَجِدُ نفْسَه في ظروف الحياة الدنيا يتقلّبُ بامتحانات الله له في السّرّاء والضّرّاء، حتّى يُحَدِّدَ سبيلَهُ:

(١) فإمّا أن يجْحَد الحقّ بقلبه، ويبقىٰ في ظاهره مسلماً، وحينئذٍ يوسَمُ بميسم النفاق.

(٢) وإمّا أن يَجْحَدَ الحقّ بقلبه، ثمّ يُعْلِنَ ذلك بلسانه وأعماله، وحينئذٍ يكون من المرتدّين عن الإسلام، وهذا ما حصل للأعراب الّذين ارتدّوا عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ، إذْ كانُوا في الغالب من قسم «المسلمين المنتسبين» الّذين أسْلَمُوا طاعةً وانقياداً، ولم يكن قد دخل الإيمان إلى قلوبهم.

(٣) وإمّا أن يدخل الإيمان إلى قلبه، وعندئذٍ تتِمُّ المواءمة بين ما كان أعلنه من الإسلام، وما اطمأنّ إليه قلْبُهُ من الإيمان.

ومن المستبعد جدًّا أن يظلّ طَوال حياته على حالته الوسطى، مسلماً منتسباً فقط، باستثناء من تعاجله منيّته قبل أن تمرّ عليه مدّة كافيةٌ للتأمُّل والرّويّةِ والتقلُّب في وُجُوه الامتحانِ بالسرّاء والضرّاء.

* * *

القسم الثالث:

المتظاهرون بالإسلام كذباً وزوراً، وهم الذين يُطْلَق عليهم عنوان «المنافقين».

إنّ إسلام أفراد هذا القسم إسلامٌ مزيّف، إسلامُ من هو في داخله كافِرٌ جاحدٌ لعناصر القاعدة الإيمانيّة في الدين الإسلاميّ كُلِّها أو بَعْضِها، أو هو غير مكترث لها، ولا ملتفتٍ إليها، ولا باحثٍ عنها، فهو لا يؤمن بها لأنّها لا تخطُر له على بال، ولا يُعيرُها شيئاً من اهتمامه، ولا يُريد ذلك، إنّه لا يريد إلاّ مطالب نفسه وشهواته من الحياة الدُّنيا.

لقد رأى المسلمينَ ومَا لَهُمْ من قُوَّةٍ وَمَنَعةٍ، ورأى ما يُمْكِنُ أن يَغْنَمَهُ من مغانمَ ومنافِعَ عن طريقهم، أو خاف على بعض مصالحه إذا أعلن أنّه غير مسلم، أو أراد بالإسلام والمسلمين كيداً وهو ضمن جماهير المسلمين لا ترقُبُهُ العيون، لما يُضْمِرُ من عداوَةٍ شديدةٍ أَوْقَدَ نيرانَها في قَلْبِهِ وَلاَؤُهُ السابقُ لغيره من الْمِلَلِ والنِّحَلِ، كحالِ المنافقين من اليهود والنصارى والمجوس، فبَدا لَهُ أنْ يتظاهر أمام المسلمين بالإسلام كذِباً وزوراً، وأنْ يُعْلِنَ قَبُولَهُ للإسلام، وإيمانَهُ بأركان الإيمان، ويَشْهَدَ الشهادة الّتي يَدْخُلُ بها ضِمْنَ جماعَةِ المسلمين.

ويُضْطَرّ بعْدَ هذا الإعلان أن يشاركَ المسلمين في أعمالهم الظَّاهرة، من عبادات وغيرها، وهو في كلّ ما يقوم به من أعمالٍ إسلاميّة الظَّاهِرِ مخادعٌ كذّاب.

إنّ إسلام هذا القسم المتظاهر بالانتماء إلى جماعة المسلمين والمتظاهر بقبوله لعقائد الإسلام وشرائعه، وهو كذّابٌ مخادع مُرَاءٍ بما ليس هو من حقيقته، يرجع إلى الأسباب التالية كلّها أو بعضها:

السبب الأول: الرَّغْبَةُ في الحصول على منافع ومطامع دنيويّة ينالها بإسلامه، ودخوله ضمن جماعة المسلمين.

السبب الثاني: الخوفُ من سُلْطانِ المسلمين وقُوّاتهم الفاتحةِ المنتصرة، والخوفُ على فوات مصالح كان يستفيدها في بَلَدِه، إذا هو أصرَّ على كفره ولم يُسْلِم.

السبب الثالث: إرادةُ الكيد والإفساد والإضرار بالإسلام والمسلمين، دون أن يكون مُرَاقَباً من قِبَلِ المؤمنين الصادقين، لأنّه بحسب الظّاهر وَاحِدٌ مِنْ جماعَةِ المسلمين.

هذا القسم هو في حقيقته كافرٌ، إلاّ أنّهُ أسْوَأُ حالاً، وأشْنَعُ طَرِيقَةً من الكافرِ الصريحِ المجاهر بحالِه، الكاشف خبيئَةَ نَفْسِه، وهو أشدُّ ضرراً، وأَبْلَغُ أثراً، وأعظَمُ خطراً على الإسلام والمسلمين من الكافرين الذين يعلنون كفرهم وعداوتهم.

وسيأتي ــ إن شاء الله ــ مزيد شرحٍ وتفصيلٍ وتقسيمٍ لهذا القسم، وهو المعنيُّ بهذا الكتاب.

● ● ●



الفصل الثالث

الكُفْرُ والنِّفَاقُ

أولاً : الكفر

(١)
تمهيد

كتبتُ في كتابي «صراع مع الملاحدة حتى العظم» فصْلاً مُوسّعاً حول الكُفْر والكافرين، فأحيل القارىء عليه، وعلى ما جاء أيضاً في كتابي «العقيدة الإسلامية وأسسها».

وأُوجزُ هُنا ما لا بُدّ منْهُ للمناسبة التي جرّتْها طبيعةُ التعريفاتِ المراد منها تمييز المصطلحات للكلمات التاليات «الإيمان ـ الإسلام ـ الكفر ـ النفاق» بعضها من بعض، وسيلةً لبيان حقيقة النفاق وعناصره الظاهرة والباطنة، وحقيقة المنافقين وصفاتهم ومكايدهم، باعتبار أنّ موضوع النفاق والمنافقين وما يجب على المسلمين المؤمنين تجاههم هو مقصود هذا الكتاب.

* * *

(٢)
تعريف الكفر

أَصْلُ معنى الكُفْر في اللّغة التغطية والسَّتْرُ الكامل، يُقالُ لُغةً: كَفَرَ الشّيءَ كَفْراً، وكفَرَ عَلَىٰ الشّيءِ كَفْراً، وكَفَّرَ الشّيْءَ تَكْفِيراً إذا سَتَرَهُ وغَطّاهُ، وكَفَرَ التُّرابُ مَا تَحْتَهُ إذا غطّاه، ويُقالُ: تكفّرَ بالشّيْءِ إذا تَسَتّر وتغطّىٰ بـه، ويُقالُ: تَكَفّرَ في سِلاَحِهِ إذا دَخَلَ فيه.

ويقال للابس السلاح الذي غطّاه السلاح تغطيةً كاملةً كافر، لأنّه ستَر جِسْمَهُ بِهِ سَتراً كامِلاً.

ويقال للزارع أيضاً: كافر، لأنّه يدفن الحبّ في الأرض فيغطّيه بالتراب تغطيةً كاملة، ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ... ﴿٢٠﴾ ﴾.

أي: اعجَبَ الزُّرّاع نَباتُه.

ويُقَالُ للّيل المظلم: كافر، لأنّه يستُرُ بظُلمتِهِ كلَّ شيء.

وهكذا تَدُور الكلمة في اللّغة حول معنى السُّتر والتغطية.

واستُعملَتْ هـذه المادّة اللّغـويّة في الاصطلاح الـديني للدلالـة على مـا يُقـابـلُ الإيمان، وعَلَىٰ ما يُقَابِلُ الإسلام، فمن أبىٰ أن يؤمن بأركـان الإيمان بعْـد أن وضَحَتْ لَـهُ أدلَّتها فهـو كافـر، ومن أَبَىٰ أن يُسْلِمَ للّهِ ورسُولـهِ بعد أن وضَحَ له صـدْقُ ما جاء عن الله من دينٍ فهو كافرٌ.

ورُبَّما تكونُ المناسبة بين المعنى الدينيّ والمعنَىٰ اللُّغوي للفظة الكُفْر ومشتقـاتها أنّ الجـاحِدَ المنكِرَ لحقيقَـةٍ من الحقـائِقِ التي يجب الإيمـانُ بهـا في الـدين، والمنكـر لحقّ الله على عبـاده في الطاعـة لأوامره ونـواهيه، والإسْـلامِ له في أحكـامه وشـرائعه وتعاليمه ووصاياه، هو في حقيقة أمْرِه ساترٌ للبراهينِ وَالأدلّةِ الدامغـةِ له، التي أثبتَتْ لَـهُ حقائق عناصر الإيمان التي جَحَد بِها كلَّهـا أو بعْضِها، والتي أثبتَتْ لَـهُ حقّ الله عليه في الطاعة، أو في إفراده بالعبادة، في كلِّ عناصر الإسلام أو بعضها.

ولكونه ساتراً هذه الأدلّة والبـراهين، وبانيـاً إنكارَه عَلَىٰ أنّ الأدلّـة لم تكن كافيـةً لإقناعِه حتى يؤمن ويُسْلِمَ، كان من المناسِب أن يُسَمَّى كافراً، ويُسَمّى عملُه كُفْـراً، ثُمَّ أُطْلِقَ الكُفْرُ على اعتقاد بطلان قضيّةٍ ما بالحق أو بالباطل.

إنّ الإيمان ــ كما سَبَق ــ عِمادُهُ التَّصديقُ الإراديُّ القلْبيّ، والاعتـرافُ والتسليمُ بمَا أمر الله بالإيمان به، فالكُفْرُ المقابلُ للإيمـان لا بُدَّ أن يكـونَ عِمادُهُ رفضَ التَّصـديقِ والاعترافِ والتَّسليم، بحركةٍ إراديّةٍ داخليّةٍ، ومَسْؤُوليَّةُ المكلّف عن اختياره الكُفْرَ إنّمـا

تكونُ بعْدَ وُضوحِ الأدلَةِ لهُ الّتي تُلْزِمُهُ بالإيمان، وربّما تكون الأدلة ملزمة لـه بأنْ يكْفـرَ بالباطل، فيجب عليه عندئذ أن يكفرَ به.

وكـلّ إيمانٍ بشيءٍ يستَلْزِمُ عَقْـلاً الكفرَ بنَقِيضِـه، لذلِـكَ كـانَ كـلُّ مؤمنٍ بـأركـان العقيدة الإسلاميّة وعناصرها الجزئية، كافراً بنقيضها، وبمستلْزَمَاتِ هـذا النقيض، ومن ذلك كان الإيمانُ بالله يقتضي الكُفْرَ بالطاغوت اقتضاءً حَتْمِيّاً، وفي بيـان هذا يقـول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾.

إذن: فـلا يتمُّ إيمانُ المؤمنِ بـالله وبكلّ مـا صحَّ وثبت عن الله حتّى يكْفُـرَ بكُـلّ الطواغيت، ومن أجل ذلك اشتملت عبارةُ التوحيد على السَّلْبِ أوّلاً فالإيجاب ثانياً.

إنّ جُملةَ «لا إلَـهَ إلاّ الله» تشتمل أوّلاً على الكُفْـرِ بكلّ إلَـهٍ سِوَىٰ الله عـزّ وجلّ، فَعَلَىٰ الإيمان باللّهِ وحْدَهُ لاَ شريكَ له.

أمّـا غيرُ المؤمنين بـأركان العقيـدة الإسلاميّـة إيمانـاً كامـلاً صحيحاً فقـد عَكَسُوا القضيّـة، فآمَنُـوا بالباطل وكفَـرُوا بالحقّ، سـواء أكان ذلـك بصفةٍ كُلِّيَّـةٍ لجميع أركـان العقيدة الإسلاميّة، أو بصفةٍ جزئيّة.

ولَمّـا كان الإسـلامُ وهو قبـولُ مبدأ الاستسـلام ومبدأ الـطاعةِ لله ورسـولـه، بـلا استكبـارٍ ولا رفضٍ ولا اتّهامٍ لحكمـة الله في أوامره ونـواهيه، من العنـاصر الأسـاسيّـةِ للدُّخـول في دين الله، كانَ رَفْضُ إعـلانِ الإسلام دون عـذْرِ الإكْراهِ أو الجهـلِ كُفْـراً، وكانَ رفْضُ قبولِ مبْدأ الطّاعَةِ لله ورسوله كفراً، وكانَ الاسْتِكْبَارُ على طاعَةِ اللّهِ ورسُولِهِ كُفراً، وكانَ الطّعْنُ أو الشّكُّ في حكمة الله في أوامره ونواهيه كُفراً، وكان إنكارُ حقّ الله على عباده في أن يُطيعُوهُ ولا يَعْصُوهُ في أوامره ونواهيه كُفراً.

فالكُفْرُ إذَنْ لَهُ صورتان:

الصورة الأولى: تكون بإنكار أي شيءٍ ممّا يجب الإيمان بـه في الإسلام، بعـد العلْمِ به وبدليلِ أنّه حقّ.

الصورة الثانية: تكون برفض الاستسلام لله ورسوله، أو رفض طاعتهما، استكباراً، أو عناداً، أو شكّاً في حكمة الله بأوامره ونواهيه، وهذه الصورة تظهر بكفر إبليس ظهوراً واضحاً، لأنّه قد كان مؤمناً بربّه، إلاّ أنه كان مستكبراً، وطاعناً في حكمته، وجاعلاً الأسباب التي هي من خلْقِه ذاتَ أثرٍ على أمْرِهِ ونهيه.

وتَدُلُّ على هاتين الصورتين دلائلُ من القولِ أو العمل، فتعْتَبَرُ الأقوال أو الأعمال الدّالّةُ علىٰ أيّةِ صورة منهما من المكفّرات.

فمن أنكر وجود الرّبّ الخالق الرازق المحيي المميت، أو جحدَ شيئاً من صفاته الثابتة، أو أسمائه الْحُسْنَىٰ الثابتة، فهو كافر.

ومن أشرك بربوبيّة الله فزعم أنّ شيئاً في الوجود يُشاركُ الله في الْخَلْق والتدبير، والحياة والموت والرزق، والنّفْع والضرّ، وغير ذلك من خصائص الربّ الخالق، فهو كافر.

ومن أشرك بالوهيّة الله، فزعم أنّ أحداً غير الله يَسْتَحِقُّ أن يُعْبَدَ من دون الله، أو عَبَدَ مع الله إلٰهاً آخَرَ، أو تَقَرَّبَ إلى غير الله عزّ وجلّ بالعبادة، فهو كافر.

ومَنْ أنكر الإسلام، ولم يقبل ما جاء فيه من عقائد أو شرائع أو أحكام ثابتة فهو كافر.

ومَنْ أنْكَرَ شيئاً ما قد ثبت في الإسلام بصِفَةٍ قَطْعِيَّةٍ فهو كافر، لأنّ هذا الإنكار جحودٌ بدينِ الله، وتكذِيبٌ لرسول الله فيما جاء به عن ربّه، ولا بُدَّ أن نعلَمَ أنّ جحود بعض اليقينيات الدينيّةِ يكفي للحكم بالكُفر، ولا يتوقّفُ الحكْمُ بالكُفْرِ على إنكار الدّين كُلّه، إذ الإيمانُ كلٌّ لا يَقْبَلُ التفريق بين أجزائه، والعقيدة الإسلامية متماسكة الأركان، مترابطة العناصر ترابطاً تامّاً من جميع الأطراف، كما سبق بهذا البيان، فمن أنكر بعضها ممّا هو ثابت بيقين، فهو بسبب ذلك كافر.

ومَنْ كذّبَ الرّسولَ بشيْءٍ قد ثبتَ عنْهُ يقيناً فقد كَفر بنُبُوّته، ومن كفرَ بنبُوّة الرسول فقد كذّبَ شهادة من أرسلَهُ، وهكذا تَتَسَلْسَلُ نواقضُ عناصر الإيمان حتّىٰ تَصِلَ إلى الجذر الأساسيّ فتنقُضَهُ، وهذا هو الكُفْرُ الأكبر.

ومن رفض طاعة الله في أمْرٍ ما من أوامره، أو نهي ما من نواهيه، استكباراً، أو عناداً، أو شكّاً في حكمته سبحانه وتعالى، فهو كافِرٌ ككُفْرِ إبليس، حين رفض أنْ يسجد لآدم.

أمّا من عصَىٰ مع الاعتراف بحقّ الله عليه في الطاعة ومع الاعتراف بذنبه، وبأنّ غلبته شهوته أو هوى نفسه، فإنّه عاصٍ فقط، وليس بكافر، كما عصى آدم وزوجه فأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن أن يأكُلا منها، فاعترفا بالمعصية، واستغفرا ربّهما فتاب الله عليهما.

ومن زعم أنّ حُكمَ غير الله أحكَمُ وأعدلُ وأصْلَحُ من حُكْم الله الذي أنزله في شريعته لعباده فهو كافر.

ولا يَحْمِلُ النّاسَ على تطبيق قانون عامّ منافٍ لحُكْم اللّهِ القطعيّ ومباينٍ له، إلّا مَنْ يَزْعُمُ أنّ ما حَمَلَ النّاسَ عَلَيْهِ من قانونٍ بشريّ وضْعِيٍّ هو احكم وأعدلُ وأصلَحُ للناس من حُكْم الله الّذِي أنزلَهُ في شريعته لعباده، إلّا أنْ يكونَ مُكْرهاً، أو مؤثراً لمصالحه الدنيوية في أن يكون سلطاناً، وهو يخاف على سلطانِه من الزوال على أيدي قُوىً ذاتِ هيمنَةٍ في العالم.

ومن تحاكم إلى القوانين البشريّة المنافية لحكم الله وشريعته ظانّاً أنّها أعدلُ من حُكْمِ الله فهو كافر.

ومن جَحَدَ وُجُوبَ رُكْنٍ ما من أرْكانِ الإسلام الخمسة فهو كافر.

ومن أنكر شيئاً ما معلوماً من الدّين علماً عامّاً يشترك به العامّةُ والخاصّة (وهو ما يعرف بأنه معلومٌ من الدين بالضرورة) فهو كافر.

ومن قال قولاً، أو فعل فِعْلاً، يَدُلُّ على حالةٍ نفسيّةٍ توقع في الكُفر، كان قولُه أو فعله من المكفّرات القوليّة أو الفعليّة، كَشَتْمِ الخالق جلّ وعلا، وكَسَبِّ الرسول ﷺ، وكامتهان كتاب الله القرآن بعملٍ يُشْعِرُ بالكُفْرِ به، أو بالغيظ منه، أو يُشْعِرُ برفضِهِ، أو احتقار ما فيه، وكتعليق الصليب على الصُّدْر، وتقبيله وتعظيمه، وكالسجود للأوثان أو تعظيمها، وكتقريب القرابين لأرواح القدّيسين، وكالسجود لأضرحة الموتى

تعظيماً لهم، وكدُعائهم وسؤالهم مثل سؤال الله عزّ وجلّ.

إلى غير ذلك من أمور كثيرة يصعُبُ إحصاءُ أفرادها.

* * *

(٣)
الكفْـر دركـات

لا يقَعُ الكُفْـر كلُّه في دركـة واحـدة، بـل لـه دركـاتٌ بعضهـا أحطُّ وأخسُّ من بعض، وتتنازل الدركـات حتى يكون صـاحب الدركـة السُّفلى في الدرك الأسفـل من النّار.

وتنحطُّ دركاتُ الكُفر بمقدار زيادة الجحـود والإنكار والمعـاندة، وكثـرة الطغيـان وفعل الشرّ، والتلوُّنِ والاحتيال، وتحدّي الرّبّ الخالق في جَبروته، ومُقاوَمَةِ دينـه الذي أنزله، ورُسُلِهِ الذين أرسلهم مبلغين داعين هادين مبشّرين ومنذرين.

وبعض الكفر أخطر من بعضٍ وأشدُّ ضُرّاً وشرّاً، فالجاهل المنكر أهون شـرًّا من العالم المعاند.

وصاحب الدين المشـرك أخف خطراً من الـزنديق الـذي ليس له دين يخفّف من غلواء شره.

ومن له دين ما ولو كان وثنيّاً أقلُّ خبثاً وشرّاً من الملحد الذي لا يـرى الوجـود إلّا مادّةً مُتطَوّرة، ولا يَرَىٰ من وراء الحياة الدنيا إلّا عودة المادّة إلى مـا كانت عليـه، فليس في الوجود بزعمه خالقٌ يبتلي ويَعْلَمُ، ثمّ يُحَاسِبُ ويَحْكُمُ، ويجازي ويعدل.

والمجاهر بكفره الذي نراقبهُ فنحذرُ شرَّه أقلُّ أذىً وإضراراً من المتستِّر المنافق، الذي يخفي نفسه بقناع التظاهر بالإسـلام، لذلـك كان المنـافق في أسفل الـدركات، وكانت عقوبتُهُ أن يكون منزله يوم الدين في الدرك الأسفل من النار.

وأخفّ أنواع الكُفرِ الشِّرْكُ باللّهِ في عبادته، مع الإيمان به ربّاً خالقاً لا شريكَ لَـهُ في ربُـوبيّتـه، وقـد دلّ على هـذه القضيّـة قـول الله عـزّ وجـلّ في سـورة (النسـاء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

والكافرون جميعاً مخلّدون يوم الدين في دار العذاب، وإن تفاوتتْ دركات عذابهم، وكان بعضهم أشدّ عذاباً مِنْ بعضٍ، على مقدار كُفْرِهم، وما فَعَلُوا من شرور وجرائم في الحياة الدنيا.

• • •

ثانياً: النفـاق

(١)
تعريـف النفـاق

النفاق: اسم إسلاميٌّ لم تعرفه العرب بمعنى التظاهر بالإسـلام، وادّعاء الإيمـان كذباً ومخادعةً للمؤمنين، مع إبطان الكفر وعدم الإيمان.

وعلى هـذا المعنى الإسلامي تُسْتَعْمَـل مشتقاتُ هـذه المـادّة اللّغـويـة، فيقـال: نافق، ينافق، منافقةً، ونفاقاً، فهو منافق.

وأصل هذه المادّة اللّغوية معروف بغير هذا المعنى الإسلامي:

فالنَّفَقُ هو السَّرَبُ في الأرض النافذ إلى موضعٍ آخر، والـداخل فيـه يستتر بـه، وجمع النفق أنفاق، ومنـه قول الله عزّ وجلّ لـرسولـه في سورة (الأنعـام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

والنَّـافِقاءُ والنُّفَقَـةُ جُحْرُ الضبِّ والْيَـرْبُوع، والمعـروف عنـد العـرب أنّ اليربـوع إذْ يتّخـذ لنفسه نفقـاً في الأرض يجعل لهـذا النَّفق مَخْرَجَيْن أو أكثـر، فهو يستـطيع أن يهربَ من أيِّ واحدٍ منهما، وأَحَدُ هذَيْن المخرجين لا يجعله نافذاً إلى سـطح الأرض، بل يكتُمُه بمقدارٍ رقيقٍ من التراب، فإذا لحقه الطَّلَبُ من جهةٍ فـرّ من الجهة الأخرى، ويسْهُلُ عليه ضربُ المنفذ المستور برأسه ضربة يسيرةً ينهالُ بها التراب الرقيق، فيخرجُ فارّاً.

ويُسمّي العربُ المنفذَ المستورَ من نفَقِ اليربوع «نافقاء» والمنفذ المفتوحَ منْهُ «قاصعاء».

وربّما كانت تسمية المنافق في الدّين منافقاً تشبيهاً له بما يفْعَلُه اليربوعُ في حيلته هذه التي يسْتُرُ بها منافِذَ هَرَبِه.

فتعريف النفاق وفق المعنى الإسلامي: هو إظهار الإسلام باللّسان، وادّعاءُ الإيمانِ كذباً وزوراً ومخادعةً للمؤمنين، مع إبطان الكفر بكل أركان القاعدة الإيمانية، أو ببعض منها ممّا يجعل جاحده كافراً، ويدلُّ على النفاق أن يدّعي الإنسان الإسلام ولا يعمل به، روى ابن جرير عن حذيفة أنّه قيل له: مَا النفاق؟ قال: الرَّجُلُ يتكلَّمُ بالإِسْلَامِ ولا يَعْمَلُ به.

وهذا الوصف ينطبق على أقسام من الناس:

* إنّه ينطبق على من دخل في الإسلام كاذباً بدافع الخوف من المسلمين، أو بدافع الطمع بالمغانم، أو لغرض الإفساد والفتنة والإضرار، أو بغير ذلك من الغايات الدنيويّة، أو الغايات الخبيثة الضارّة.

* وينطبق أيضاً على من أسلم صادقاً أوّل الأمر، ثمّ ارتدَّ في نفسه دون أن يعلن ردّته، وبقي متظاهراً بالإسلام، فهذا منافق ذو نفاق طارىء، بعد إسلام لم يكن فيه كاذباً مخادعاً.

* وينطبق أيضاً على من ورث اسم الإسلام وراثة نسبيّةً عن طريق أبَوَيْه أو أحدهما، ولمّا بلَغَ وأدْرَكَ سِنّ التكليف جَحَدَ بقلبه أركان القاعدة الإيمانيّةِ كُلّها أو بعضها، وظلَّ محافظاً في الصورة الظاهرة على أنّه مُسْلِمٌ مُعْلِنٌ إسلامه.

إنّ الإسلامَ لدى هذا الصنف من الناس ليسَ انتماءً إراديّاً، إنّما هو إسلامٌ وراثيّ، يُسايِرُ الواحدُ منهم فيه المجتمع بإطلاق اسم «مسلم» عليه، دون أن يكون في ذاته قد أسلم حقّاً بإرادته بعد معرفته الإسلام.

ونظراً إلى أنّه يُبْطِنُ الكُفْر، إذْ يَجْحَدُ أركان الإيمانِ كلّها أو بَعْضَها، أو يأبَى أن يكون مسلماً لله ورسوله مطيعاً، فهو منافق.

إنّه لا يُرِيدُ أنْ يمْسَحَ عن نفسه الاسم الدينيّ الذي ورثه، مع أنّه يَعْتَقِد عقائدَ مناقضةً لعقائد هذا الدّين، ولو أنّه أعلنَ جحوده بالقاعدة الإيمانية كلّها أو بعضها لكان كافراً من أهل الرّدّة عن الإسلام.

وما أكثر المنافقين الذين يُطْلَق عليهم في البطاقة الشخصيّة اسم مسلم، وهم من هذا القسم!.

* ومن المنافقين قومٌ ورثوا النفاقَ عَنْ أُسَرِهم أو بيئاتهم الخاصة، ومن هؤلاء أُسَرٌ وجماعات يهوديّةٌ تظاهرت بالدخول في الإسلام، وظلّت هذه الأُسَرُ والجماعات محافظةً على يهوديّتها سِرّاً، وصارت ذراريها ترث عنها النفاق، ضمن خطّة كَيْدٍ ضدّ الإسلام والمسلمين، ذاتِ نَفَسٍ طويل، ومن هؤلاء أيضاً أُسَرٌ نصرانيّة أو مجوسيّة، دخلت في الإسلام نفاقاً ضمن خِطّةِ كَيْدٍ مشابهةٍ لخطّة الكَيْدِ اليهوديّة.

* * *

(٢)
النفاق سلوكٌ مركّب

إنّ أبرز ما في النفاق أنّه مَظْهَرٌ من مظاهر خُلُقِ الكذب، على أنّنا لدى التحليل نلاحظ أنّه سلوك مركّب، يرجع إلى عناصر خُلُقِيَّةٍ مُتعدّدة، فإذا جمعنا الجُبْنَ والطَّمَع بالمنافع الدنيويّة، وجحود الحقّ، وخُلُقَ الكذب، مع قِصَرِ النظر، تولّد عنها في سلوك الفرد ما نُسمِّيه بالنّفاق، ثمّ يَظْهَرُ نَظِيرُ ذلك في سلوك الجماعة حينما تكون فيها هذه العناصر الخلقيّة المنحرفة عن السبيل المستقيم، أو تسري إليها العَدْوَى بالتقليد، أو تتوارثها عن أصولها تأثُّراً بعوامل البيئة، منذ النشأة الأولى.

فلولا أن يكون المنافِقُ جَبَاناً، وصَاحِبَ طمَعٍ شديدٍ بالمنافع الدنيويّة التي يترقّبُها إذا هو تظاهر بالإسلام، لمَا سَلَك مَسْلَكَ النّفاقِ، ولمَا كان له وجهان: وجْهٌ مع الكافرين، ووَجْهٌ آخَرُ يُخَادِع به المؤمنين، ولوجَدَ الجرأةَ الكافيةَ على أن يُعْلِنَ جُحُودَهُ للمؤمنين، ويَقِفَ صراحةً في صفّ الكافرين. لكنّ جُبْنَه الشّديدَ يمنَعُهُ من ذلك، فهو يخشى أن يتظاهر بموقفه العدائيّ للمسلمين، كما أنّ طمَعَهُ الشديدَ بمشاركته المسلمين في الغنائم التي يظفرون بها من أعدائهم يجعلُهُ يتظاهر بأنّه منه.

فالجبْنُ والطمع مع خلُقِ الكذب المكتسب ومع قصر النظر من العوامل الرئيسيَّة التي يتولّد عنها النفاق في السلوك الإنساني.

ولولا أن يكون المنافق جَحُوداً للْحَقّ كَنُوداً، مع نَظَرٍ قَصِير إلى الوجود والحياة يجعلُهُ يتشبَّثُ بمصالحه ومنافعه القريبة من الحياة الدنيا، لَرَدَعَهُ إيمانُـهُ وحبُّهُ للحقّ عن سلوك مَسْلَكِ النفاق في الدّين.

وذلك لأنّ الذي يُحِبُ الحقّ، ويَكْرَهُ الْجُحُودَ، ولا يَطِيبُ لَهُ الكُنُودُ، ويكونُ ذَا نَظَرٍ إلَىٰ الوجود والحياة بعيد، فإنَّهُ لاَ يُنَافِقُ وإنْ كان جباناً أو شديدَ الطَّمع، لأنّه سيجد فيما يؤمن به من حقّ مخاوف تردَعُه عن الباطل، ومطامعَ أجلَّ تجعله يلتزم سبيل الحق والخير، وعندئذٍ يَمْتَصُّ سبيلُ الحقّ والخير الدينيّ جُبْنَه وطَمَعَهُ، ولا يبقَىٰ لديه منهما ما يَنْزِع به إلى النفاق الذي يجعل مَصِيرَهُ يوم الدين، في أسفلِ سافلين، وفي الدرك الأسفل من النار.

ولولا أن يكون المنافِقُ كذّاباً ذا قُدْرَةٍ فائقة على افتراء الكذب، وذا قُدْرَةٍ فائقة على تَصَنُّعِ الكذِبِ في ظواهر أعماله، حتَّىٰ صار خُلُقُ الكَذِب سَجِيَّةً مكتسبةً في نفسه، وشبيهاً بالسَّجَايا الفطريَّةِ تَمَكُّناً وعُمْقاً، ومهارةً في السلوك الذي قد لا تَبْدُو عليه أمارات التَّصَنُّع بالكذب، لَمَا طاوعَتْهُ نفسه أن يلتزم سبيل النفاق.

وذلك لأنّ النّفاقَ عَمَلِيَّةٌ مُسْتَمِرَّةٌ تَتَضَمَّنُ تَصَنُّعَ الكذب دواماً أو في معظم الأوقات، في القول والعمل، وهذا أمْرٌ لا يَسْتطيعُهُ ولا يُحْسِنُهُ إلّا كذّابٌ خبيث، مُمْتَهِنٌ لِلْكَذِب، جريءٌ علَيْهِ، وَقِحٌ في الْتِزَامه قادرٌ على أن يَبْهَتَ الناس في وجوههم، وذلك بأنْ يفْتري علَيْهِمْ أشياء لم يقولوها ولم يعملوها، وأن يواجههم بها، ويَحْلفَ على ذلك الأيمان المغلظة، دون أن يَتَلَجْلَجَ أوْ يتلَعْثَمَ أو يتَلَكّأ، وعلى مقدار مهارة المنافق في الكذب يكونُ تعمُّقُهُ في درك النفاق.

فالنفاق خُلُقٌ مُكْتَسبٌ مركّب، وليس خُلُقاً بسيطاً، إنّه طبخَةٌ شيطانيّة مُعَقَّدة في نفوس المنافقين.

وأخفُّ دركات النفاق أن يتخذ المنافق وجهين: يَسْتَعْلِنُ بأحدهما، فَيُرْضِي بظاهرهِ جماعة المسلمين، كاتماً عنهم الوجه الآخر ويستخفي بالآخر ويتآمر به مع

الكافرين الصُّرحاء، وهو يُخْبِرُهُمْ في السِّرِّ أنّه معهم، وأنّه يُريد أنْ يتظاهر بالانضمام إلى المسلمين ليخدم بذلك مصالح أعدائهم، دون أن يَحْذَر المسلمونَ مكايده الّتي يُدَبِّرُهَا ضِدّهم وهو ضمن صفوفهم، وهذا الوجْهُ الَّذِي يُبِرُّ به لإخوانه الكافرين الشياطين وجْهٌ يَسُرُّهم ويُفْرِحُهُمْ لأنّهم يعتبرُونه جاسوساً لهم في صفوف المسلمين المؤمنين، وما يُظْهِرُ بِهِ من الإسلام إنّما هو مُخَادعةٌ لِلْمُسْلِمين، بغيةَ خدمة مصالح أعدائهم.

وأشدّ من ذلك المنافق الذي يخادع المؤمنين ويخادع أعداءهم معاً، وهو في الحقيقة لا من هؤلاء، ولا من هؤلاء.

ويُمْكن أن نُسَمِّيَ هذا مزدوج النفاق، ويُمكِنُ أنْ نُمَثِّلَ لَهُ بيَهُوديٍّ تظاهر بالإسلام ليخادع المسلمين، ثمّ يَخْلُو بالمشركين فَيُبَشِّرُ لهم بأنّه سَيَخْدُم مصالحهم داخل صفوف المسلمين مُقَابِلَ مَنَافِعَ يَرْجُوها من المشركين، ثُمَّ إذا خَلَا بإخوانِهِ الشياطينِ من اليهود كشف لهم وجْهَهُ الحقيقيَّ، وقال لهم: إنّي منكم، وإنّي أُخادِعُ من أجلكُمُ المسلمين والمشركين الوثنيّين بوجْهَيْنِ مختَلِفَيْن.

وقد يُوجَدُ مُنافِقٌ مُثَلَّثُ النفاق، أَوْ مُرَبَّعُهُ، أو مُخَمَّسُهُ، أو أكْثَرُ من ذَلِكَ.

وكلَّما كَانَ المنافِقُ أقْدَر على التلوُّنِ بالألْوانِ المختلفة، والتقلُّبِ بين الوجوه المتضادّة والمتناقضة والمتخالفة، كان أقْدَر علَىٰ أنْ يَعْمَلَ في عدّة جهاتٍ متباينات في وقتٍ واحد، وأن ينافقها جميعاً، ويمكُرَ بها جميعاً.

* * *

(٣)
أقسام المنافقين
باعتبار وضعهم عند نشأة نفاقهم

المنافقون ينقسمون باعتبار وضعهم عند نشأة نفاقهم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول:

منافقون كانت لهم انتماءات غير إسلاميّة سابقة لدخولهم الإسلام، كاليهودية، أو النصرانية، أو المجوسية، أو الوثنيّة، أو الإلحادية.

ثُمّ دخَلُوا الإسلام نفاقاً بتأثير دافع أو أكثر من دوافع النفاق، ولتحقيق غايةٍ أو أكثر من غايات المنافقين.

القسم الثاني:

منافقون كانوا مسلمين غير كاذبين في إعلانهم الإسلام، ثم ارتَدُّوا عن الإسلام سِرّاً، ولم يُعْلِنُوا ردّتهم، فهم كَفَرَةٌ مرتَدُّونَ باطناً، وينافقون باسْتِبقاء الانتساب إلى الإسلام ظاهراً.

القسم الثالث:

منافقون ورثوا الانتساب إلى الإسلام من أُسَرِهِمْ أو بيئاتهم، ولكنّهم لم يدخلوا في الإسلام على سبيل الانتماء الإرادي، ولَمْ يجْرُؤوا على إعلان رفض هذا الانتساب، أو رأوْا أنّ مصالحهم في مجتمعهم تقضي بالمحافظة على انتسابهم إليه، وهم في داخلهم كافرون بعقائد الإسلام وقواعده ومبادئه وشرائعه كُلّها أو بعضها، فهم بسبب ذلك منافقون.

القسم الرابع:

منافقون ورثوا النفاق من أُسَرِهم أو بيئاتهم الخاصّة، فهم بسبب هذا الميراث الخبيث منافقون وأبناء منافقين.

* * *

استخلاص:
يظهر من هذا التقسيم
أنّ النفاق في الدين نفاق أصليّ ونفاق طارىء

الأقسام الأربعة للمنافقين التي سبق بيانها تكشف لنا أنّ النفاق في الدين منه ما هو نفاقٌ أصليٌّ، ومنه ما هو نفاق طارىء.

النفاق الأصلي:

قد تدفع المصلحة الدنيوية بعض الناس إلى أن يتظاهر بالانتساب إلى الإسلام، وهو غير مؤمن به في قلبه، فيكون منافقاً منذ المدّة الأولى لإعلانه الإسلام، ثم يستمرّ

على نفاقه، ويتبعه وارث النفاق عنه من أهله وذرّيته، فهذا هو النفاق الأصليّ، الذي لم يُسْبَقْ بإسلام صحيح، ونظيره من ينشأ في بيئة مسلمين من أصول مسلمة، إلاّ أنّه منذ بلغ رشده لم يؤمن بالإسلام، لكنه قَبِلَ أن يتظاهر بكونه مسلماً تبعاً لأبويه.

النفاق الطارىء:

وقد يُعْلِنُ بعض الناس إسلامهم وهُمْ صادقون غير كاذبين، ثُمّ يطْرَأُ الشَّكُّ علىٰ قُلوبهم، بعْدَ تعَرُّضِهم لامتحانات مختلفة، يَمْتَحِنُ اللّٰهُ بِهَا صِدْقَ إيمانهم، فيرتَدُّونَ عنِ الإسْلَامِ ارتداداً داخِليّاً، ويخشَوْنَ إعْـلَانَ رِدَّتِهِمْ، ويستَمِرُّونَ علىٰ التظاهر بالإسلام، مخافة إجراء أحكام الرِّدَّةِ عليهم، أو مخافة فوات منافع أو مصالح تأتيهم بوصفهم مسلمين، ومن ذلك خسارتهم مكانتهم في مجتمعهم، وتعرّضهم للذّمّ والنقد والتلويم، إلى غير ذلك من صُوَر الضغط الاجتماعي، فهذا هو النفاق الطارىء الذي طرأ بعد إسلام صادق.

ومن هؤلاء من ينشأ في بيئة مسلمين من أصول مسلمة، وحين بلغ رُشده قَبِلَ الإسلام صادقاً تبعاً لأبويه، ثمّ طرأ الشّكُّ على قلبه، فارتَدّ عن الإسلام ارتداداً داخليّاً ولم يُعْلِنْ رِدَّتَه، بل اسْتَمَرَّ متظاهراً بأنّه من المسلمين.

وقد تتكرَّرُ لدى بعض الناس حركة الدخول في الإسلام والخروج منه، بسبب ما يَعْرِضُ لتصوُّراتهم ولنفوسهم، لكن يظَلُّ ظاهرهم في مختلف الأحوال مستمرّاً على أنّهم مسلمون، وهؤلاء يقال فيهم: إنّهم آمنوا ثمّ كفروا، ثمّ آمَنُوا ثم كفَرُوا ثُمّ ازدادوا كُفْراً.

وقد دلّ على هذا النفاق الطارىء ما وصف الله به طائفة من المنافقين، وذلك في قوله تعالى في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

ودَلَّ عليـه أيْضاً قـول اللّهِ عزّ وجـلّ في سُورَة (المنـافقـون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ﴾.

فقد أثبت إيمانهم أوّلاً، وعـطف عليه إثبـات كفرهم بحـرف العطف الـدّالّ على التراخي «ثمّ» فدلّ على أنّ كفرهم القلبيّ كُفْرٌ عـارضٌ ولَيْس أصْليّاً، وسبـاقُ الحديث في السورة عن المنافقين.

ووصف الله عـزّ وجل طـائفةً من المنـافقين بالتـردُّد بين الإيمان والكُفْـرِ أكثر من مَرّة، فقال تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ۝١٣٧ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ ﴾.

وسيأتي شرح هذه النصوص ــ إن شاء الله ــ في مواضعها لدىٰ دراسـة النصوص القرآنية المتعلّقة بالمنافقين.

* * *

(٤)
أقسام المنافقين باعتبار موقعهم في الكفر

وينقسم المنافقون باعتبار موقعهم في الكفر إلى قسمين:

القسـم الأول:

منـافقون لهم مـذهب معيَّنٌ في الكفر، كـاليهوديـة، والنصرانيـة، والمجوسيـة، والشرك، والوثنيّة، والإلحاد، ونحو ذلك من مذاهب الكفر.

القسـم الثانـي:

منافقون ليس لهم مذهبٌ معيَّنٌ في الكُفر، وإنمـا هُمْ أصحاب مصـالح دُنيويّة، فهم يتّبعونها حيثُ وجَـدُوها، فـإن وجدوهـا عند أهـل اليمين تبعوهم لتحصيلهـا، وإن وجدوها عند أهل الشمال تبعوهم وانتسبوا إليهم لتحصيلها.

والمنافقون من هذا القسم هم منافقون مذبذبون، لا استقرار لأنفسهم، ولا ثبات لقلوبهم وعواطفهم وآرائهم.

إنّهم لا يُبْطنون مَذْهباً معيّناً من مذاهبِ الكُفْر، لكنّهم إذا وجَدُوا مصلحةً لهم من مصالح الدنيا لدى غير المسلمين، لم يجدوا مانعاً لديهم من متابعتهم سرّاً، ومؤازرتهم في تحقيق أغراضهم، ولو كان في ذلك خيانة للمسلمين، الذين هم منهم بحسب الظاهر، ولو كان في ذلك أيضاً هدمٌ للإسلام الّذي يدّعون أنّهم منتسبون إلَيْه.

وحينما يتابعون سِرّاً أو يؤازرون فريقاً من أهل الكفر الذين لهم مذهب معيّن فيه، فإنّهم لا يتابعونهم إيماناً بمذهبهم، وإنما يتابعونهم ابتغاء مصلحةٍ دنيويّةٍ يرجونها لديهم.

فهم مذبذبون في مسافة وسْطَى بين أهل الإيمان وبين الكافرين الذين لهم مذهبٌ مُعَيَّنٌ في الكُفر، فلاهم منتسبون إلى أهل الإيمان انتساباً صحيحاً صادقاً، ولا هم منتسبون إلى أهل مذهب معيّن في الكفر انتساباً صادقاً.

إنّ مذهب هؤلاء: لا صِدْقَ في الانتماء، ولا صِدْق في الولاء، والنفاق سيّد الأخلاق، وأنفع الرفاق، وأسْتَرُ الأنْفَاق، وافضل مذهب أن لا يكون للمنافق مذهب، فمذهبُهُ حيثُ يتحقّقُ لَهُ من مصالحه وأهوائه وشهواته مطْلَبُه.

وباستطاعتنا أن نقول: إنّ المنافق من هذا القسم له مذهبٌ في الكُفر، هو عدم استقرار الرأي والقلب، والتأرجُح بحسب أهواء نفسه وشهواتها، فحيث مالت أهواؤه وشهوات نفسه ومصالحه من دنياه مالَ فكره ورأيُه وقلبُه.

وهذا القسم من المنافقين لا يَعْترفُ لهم بالانتماء والولاء أهل الإيمان، ولا يعترف لهم بالانتماء والولاء أهل الكفر الذين لهم مذهبٌ معيّنٌ في الكفر، ويَتَعَامَلُون معهم في حدود ما يحقّقون لهم من منافع وخدمات ومصالح، وما يستفيدون منهم من أخبار، وما يُحَصّلُونه عن طريقهم من معلومات.

إنّهم إذا أقبلوا إلى أهل الإيمان مخادعين علم أهل البصيرة منهم أنّهم كذّابون قنّاصو منافع ومطامع، وإذا أقبلوا إلى من لهم مذاهب معيّنةٌ في الكفر، علموا أنهم

قناصو منافع ومطامع، فتعاملوا معهم على هذا الأساس، واتخذوا منهم أجراء، أو كلابَ صيْد لتحقيق أغراض لهم في صفوف المؤمنين المسلمين حقاً.

ولعلّ المنافقين من هذا القسم هم المقصودون بقول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾.

هذا النصّ مشروحٌ شرحاً تحليليّاً وافياً في النص (١٨) من نصوص الدراسة القرآنيّة للمنافقين، الآتية في القسم الثاني من هذا الكتاب.

وللمناسبة هنا نلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ يكشف فيه صفات المنافقين المذبذبين المتردّدين بين المؤمنين والكافرين، ابتغاء تَحْصيل المطامع والمنافع من كلٍّ من الفريقَيْن المتناقضيْن.

ويُحَدّد الله عزّ وجلّ في هذا النصّ الموقف الذي يجب أن يتّخذه المؤمنون من الكافرين.

* إنّه موقف لا يسمح بالمجاملة في قضايا الدين، ولا يسمح بإقرار الاستهزاء بآيات الله والتكذيب بها، فإقرارُ الكُفْرِ كُفْر، وهو مع ادّعاء الإيمان والإسلام نفاق.

* وهو موقف لا يسمح للمسلمين بأن يتّخذوا الكافرين أولياء من دُون المؤمنين، ابتغاء الاعتزاز بهم، والتّقوّي بقوّتهم، فهو لا يكون إلاّ ضدّ مقتضيات الإيمان والإسلام، أو ضدّ مصالح جماعة المؤمنين، وهو مظهر من مظاهر النفاق.

ولمّا كان المنافقون والكافرون مشتركين في الكُفْر بالحقّ الذي جاء من عند الله، كان من العدل أن يجمع اللَّهُ المنافقينَ والكافرين في جهنّم جميعاً.

ومن صفات المنافقين المذبذبين بَيْنَ المؤمنين والكافرين التي كشفها الله عزّ وجلّ في هذا النصّ الصفاتُ السَّبْعُ التاليات:

الصفة الأولى:

أنَّهُمْ يتربَّصُونَ كَمَا يتربّصُ القنّاصةُ ما يريدون صيْده، فإنْ كان للمؤمنين فتْحٌ من الله على عدُوّهم، قالوا للمؤمنين:

﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

فهم يطالبون في هٰذا بنصيبهم من الغنائم.

وإنْ كان للكافرين نصيبٌ من الانتصار على المسلمين لحكمة أرادها الله عزّ وجلّ، قالُوا للكافرين:

﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أي: ألم نُحِطْ بكم إحاطةَ حمايةٍ لكُمْ ونَحْنُ في صفوف المؤمنين، وبذلك منعناكُمْ وحَميناكُمْ من أنْ يَنْتَصِرَ المؤمنونَ عليكم؟

فهم يطالبون الكافرين في هذا بنصيبهم من الغنائم الّتي أصابوها من المؤمنين، أو يطالبون بأنْ يكونوا أهل مودّتهم، ومحلّ عنايتهم ورعايتهم، وأصحابَ حُظْوَةٍ لديْهم.

الصفة الثانية:

أنهم إذَا قَامُوا إلى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ، يراؤونَ المؤمنين بها، لأنّهم لا يؤدّونها

عن عقيدةٍ وإيمان، وإنّما يؤدّونها خشية أنْ ينكشف نفاقهم بتركها.

الصفة الثالثة:

أنّهم لا يذكرون الله في كلّ أحوالهم إلاّ قليلاً، ويَدْخُلُ في هذا الذكر القليل ما يُراؤونَ بِه أمام المسلمين المؤمنين، وما قد يكون منهم من دُعاءٍ لله إذا تعرّضوا لمطلب من مطالب دنياهم، أو تعرّضوا لمأزقٍ حرج، ولم يجدوا سبباً مادّيّاً ميسوراً يُحقّق لهم مطلبهم، أو ينقذهم من مأزقهم، وربّما ذكروا الله وسألوه أن يحقّق لهم ما يحبّون، دون أن يكون اعتقادهم به اعتقاداً صحيحاً جازماً، ويكون حالهم حينئذٍ كحال من يلتمس معرفة مستقبله عن طريق المنجّمين، وقارئي خطوط الأكُفّ.

الصفة الرابعة:

أنّهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وسبب ذلك أنهم ﴿يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾، أي: القوة الغالبة، وهم يجهلون أنّ القوّة كلّها هي لله عزّ وجلّ وحده لا شريك له.

الصفة الخامسة:

أنّهم يجالسون الكافرين ويَسْمَعُونَ مِنْهُم الكُفْرَ بآياتِ الله والاسْتِهزاء بها، فلا يُنْكِرونَ عليهم، ولا يفارقون مجالسهم، ويخالفون أمر الله في ذلك، فقد أنزل على المسلمين في القرآن ما يتضمّن:

﴿ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾.

هذا البيان في هذا النّص يُشير إلى ما سبق أن أنزله اللّهُ في العهد المكّيّ، وهو قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

فأضاف النصّ المدنيّ الذي جاء مؤكّداً ومُؤنّباً في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بيان أنّ إقرار الكفر كُفر، والرضا بالكفر كفر، والمشاركة في مجالس الكفر

عن رضاً، أو مع القدرة على الإنكار أو المفارقة كُفر، فقال الله عزّ وجلّ فيه:

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

فأبان أنّهُمْ مِثْلُهُمْ في الكُفْر، وأنّ عَمَلَهُمْ هذا يدْمَغُهُمْ بالنفاق.

وعلى الرغم من هذا التحذير الشديد فإنّ المنافقين يجالسون الكافرين، ويَسْمَعُونَ مِنْهُمُ الكُفْر بآيات الله، والاستهزاء بها، فلا يُنْكرون، ولا يفارقونَ مجالسهم، لذلك فحكمُهُم مثل حكمهم، وهم معهم في جهنم.

الصفة السادسة:

أنّهم بتَذَبْذُبِهم بين المؤمنين والكافرين يظنّون أنهم يخادعون الله، أي: يخادعون المؤمنين الّذين هم حزبُ الله.

لكِنّ الله عزّ وجلّ يُمْهِلُهُمْ ويُمْلِي لهم، حتّىٰ يُنْزِلَ بهم عقابه العادل، وبذلك تكونُ مخادعتهم مردودةً عليهم، فما يحفرونه من حُفَرٍ للمؤمنين يُسْقِطُهُم الله فيها.

إذن: فهم المخدوعون لا الخادعون، فجاء في النصّ:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ... ﴿١٤٢﴾﴾:

أي: يُمِدُّ لهم في الحياة الدنيا، فيَحْسَبُونَ أنّهم قد ظفروا بما أرادوا، لكِنّ اللّهَ عزّ وجلّ قد أعَدَّ لهم انتقاماً عادلاً وعقاباً أليماً.

الصِّفَةُ السّابعة:

أنّهم ليس لهم رأيٌ ثابتٌ لا في جانب الإيمان، ولا في جانب الكفر، بل هُمْ متردّدُون، يتقلّبُونَ في المبادىء حسب تقلّبِ أهوائهم وشهواتهم.

وهذا الصنف المتردّد من الناس له حالتان:

* فهو إمّا أن يتَرَدّد بين الإيمان والكفر، فيؤمن تارةً ثم يكفر، ثمّ يؤمن ثم يكفر، وهكذا يَتَقَلّب كما تتقلّبُ دوافع نفسه، وَدَواعي أهوائه وشهواته.

* وإمّا أن يَتَذَبْذَبَ وَيتَأَرْجَحَ نَفْسِيّاً في المسافة الوسْطَىٰ بين الإيمان والكُفْر، ثمّ يلْجأ إلى المصالحة والمقاسمة بين الطرفَيْن المتناقِضَيْن، فيُعْطِيَ علانيَتَهُ لجماعة

المسلمين، ويُعْطِيَ سِرَّهُ لأَوْليائه من الكافرين، ليستفيد من كلٍّ منهما، وليحميَ نَفْسَهُ من نِقْمَةِ كُلٍّ منهما.

ولمّا كان هذا الصنف من الناس عرضةً لهاتَيْن الحالتين، جاء قبل هذا النصّ الكاشف لبعض صفات هذا الصنف من المنافقين، قول الله عزّ وجلّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ ﴾.

وأتْبَعَ هٰذِهِ الآيَةَ بِقَوْلِهِ:

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾.

إنّ من الواضح أنّ التردُّد بيْنَ الإيمانِ والكُفْرِ يَدُلُّ دلالةً وَاضحةً على أنّ صاحبَهُ غَيْرُ ذي رأيٍ ثابتٍ، وأنَّ مَفْهُوماته في الحياة مفهوماتٌ خاضعةٌ لتقلُّبِ أهوائه، وأنَّ مراكزَ عقائِده أُلْعوبَةٌ في أيْدي شهواتـه، فإذا بـدا له أنّ مـا يَهْوىٰ وَيَشْتَهي يتحقّق في جانب الإيمانِ آمَنَ، وإذا بدا لَهُ أنّ الذي يَهْواه ويشْتَهيهِ يتحقق له في جانب الكُفْرِ كَفَر.

وهٰكَـذا، فقَلْبُهُ قُلَّبٌ، ورِزْقُـهُ خُلَّب، إذا أرَدْتَ أنْ تَقْبِضَ عَلَيْهِ وهـو في جـانب الإيمان بما يخالِفُ هواه تفلَّتَ إلىٰ جانبِ الكُفر، وانقلبتْ عقيدته، وكذلك يفْعَلُ وهُوَ في جانب الكُفر.

من أجْـلِ ذلك لا يقْبَـلُ اللَّهُ عز وجـلّ إيمانَ من عُـرِف منْـهُ التـردُّدُ بيْنَ الإيمـان والكُفْر، ولا يَغْفِرُ الله له، لأنّ إيمانه حين يؤمن إيمانُ هوى، واتّباعٍ لمصلحـةٍ دنيويـة، لا إيمانُ مُسْتَسْلِمٍ مطمئِنٍّ لما عرفَ من الحقّ.

روي عن عليّ بن أبـي طالب ــ رضي الله عنه ــ أنه قال: يُسْتَابُ المرتَدُّ ثلاثاً، ثم تلا هذه الآيَة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ ﴾.

إنَّ هذا الصنف من الناس:

* إذا ازدادتْ جرأتُه، وَقلَّ ذَكاؤه، وعَظُمَتْ وقاحَتُه، تردَّدَ بَيْنَ الإيمان والكُفر، فكان متقلّباً لَا ثباتَ له.

* وإذا ضَعُفَتْ جُرأتُهُ، وكَثُرتْ حيطَتُه، وقلَّتْ وَقاحَتُه، وهَدَاهُ ذكاؤه إلىٰ أَنْ يَخْشَىٰ مِنْ مَعَرَّةِ التَقلُّب، تَذَبْذَبَ بَيْنَ الإيمان والكُفر، وتأرْجحَ نَفْسِيّاً بيْنَ النقيضَيْن، واسْتَرضَىٰ هٰذَا الطَّرَف بوجْهٍ، واستَرْضَىٰ الطَّرَفَ الآخَرَ بوجْهٍ آخر، وأعْطَىٰ هذا علانيته، وأعْطَىٰ ذلك سِرَّه، وحاول أنْ يَنْفِيَ بذلك عن نفسه مَعَرَّةَ التَقَلُّبِ الَّذِي يَدُلُّ على ضَعْفِ الرأي، وضعف الإرادة، وظنَّ أنَّ أسلوبه هذا هو الأسلوب الذي يدلُّ على ذكائه وبراعَتِه وحُسْنِ تخلُّصه.

ومن هذا التحليل يتبيَّنُ لنا أنّ المتردّد الْقُلَّب، والمنافقَ الْمُذَبْذب، هما قسمانِ لصنفٍ واحدٍ من الناس، وليسا صِنْفَيْن أساسيَّيْن، واللَّهُ أَعْلَم.

* * *

(٥)
دوافع النفاق

سلوك الكائن الحيّ مظهر من مظاهر دافعٍ نَفْسِيٍّ أو أكْثَرَ لديه دفعه لاتخاذ هذا السلوك.

والنفاقُ سلوكٌ في الحياة تَتخذُه فئةٌ من الناس متأثرةٌ بدوافع نفسيَّةٍ لديها.

وبالتأمُّل تنكَشِفُ لنَا الدوافع النفسيَّةُ التالية، الّتي يُمْكِنُ أن تكون دوافع تدفع الإنسانَ غير السَّوِيّ ليَسْلُكَ مَسَالِكَ النفاق:

الدافع الأول:

الطمع بالمنافع الدنيويّة التي يرجو المنافق تحصيلها بالانتساب إلى المسلمين، وبإعلانه قبول مبدأ الإسلام، وإعلانه الدخول فيه.

ولا بدّ أن يكون معلوماً أنّه لا يكفي الطّمع وحده حتى يَسْلُك الإنسان مسالك النفاق، بل لا بدّ من أن يقترن الطمع بانحرافات خلقيّة تتولّد من اجتماعها ظاهرة النفاق، كالكذب، والخيانة، والغدر، والجبْن، ونحو ذلك من جذور أخلاق المنافقين.

الدافع الثاني:
الخوف على نفسه أو ماله أو مصالحه الدنيويّة، إذا بقِيَ معلناً كُفْرَهُ بالإسلام وجحودَهُ لعقائده وقواعده.

ولا يكفي هنا أيضاً الخوف وحده، حتى يسلُك الإنسان مسالك النفاق، بل لا بُدَّ من أن يقترن الخوف بانحرافات خلقيّة تتولّد من اجتماعها ظاهرة النفاق، كما سبق في دافع الطمع.

الدافع الثالث:
ابتغاء الكيد ضِدَّ الإسلام وجماعة المسلمين، عن طريق إعلان الدخول في الإسلام، ثم العمل على التخريب والهدم من داخل صفوف المسلمين المؤمنين، مع الشعور بالأمن والسّلامة وغَفْلَةِ الرقباء.

ولا يكون هذا الدافع إلاّ عند عدوٍّ بالغِ العداوة يريد هدم الإسلام، والإفساد بين المسلمين، وتوهين قواهم، أوْ لَدَىٰ مستأجَرٍ لهذه الغاية بما يُحِبُّ من مالٍ، أو شهواتٍ، أو جاهٍ، أو سلطان، أو لدى مدفوع بوسائل الترغيب والترهيب، أو لدى مسلوب الإرادة من قِبَلِ مُنَظَّمَاتٍ شيطانيّة خبيثة، تدفعُهُ للنفاق، حَتَّىٰ تَسْتَغِلَّهُ لغاياتها وأغراضها الإجرامية الخبيثة.

الدافع الرابع:
التَعَصُّبُ لاسم «الإسلام» الذي ينتسب إِلَيْهِ تبعاً لقومه أو عشيرته، وكراهيته إعلان الخروج عليهم، ومخالفتهم.

وهو في قلبه لا يؤمن بهذا الدين، بل يكْفُر به كُفْراً كُلِّيًّا، أو كُفْراً جُزئيًّا.

ثم قد يكون ذا عقيدة أخرى يعتقد بمقتضاها مذهباً آخر غير الإسلام، ممّا يتناقض معه، كالماركسيّة بمفهومات الماديّة الجدليّة، وكالقوميّة القائمة على الكفر بالله واليوم الآخر، وكالعلمانية الجاحدة للدّين ولما جاء فيه، وكالماديّة الملحدة وفق مفهومات الإلحاد الغربي.

وقد يكون غير ذي عقيدة خاصّة، بل هو من الّذين يَتّبعون في الحياة أهواءهم

وشهواتهم أنّى وَجَدُوها، ولا يُريدون أن يُفكِّروا في أيّة عقيدةٍ من العقائد حول الكون والحياة والمنشأ والمصير.

* * *

(٦)
أقسام المنافقين باعتبار غاياتهم ودوافعهم

ينقسم المنافقون باعتبار دوافعهم من النفاق، وغاياتهم التي يَرُومُون الوصول إليها من سلوك مَسْلَك النفاق، إلى أربعة أقسام:

القسم الأول:

المنافقون الذين نافقوا طمعاً في الحصول على منافع ومصالح دنيويّة يرْجُونها بانتسابهم إلى الإسلام وإعلانهم أنّهم مسلمون.

(١) فمن هؤلاء أعراب نافقوا إبّان امتداد الإسلام وانتشاره وكثرة فتوحاته، وتَدَفّق الغنائم على المسلمين من كلّ جهة، وقد دخلوا في الإسلام طمعاً في أن يشاركوا المسلمين فيما يصيبون من غنائم، وفي أن يكون لهم نصيبٌ من الأموال التي أخذت تتدفّق على المسلمين.

(٢) ومن هؤلاء تُجّارٌ دخلوا في الإسلام نفاقاً من جهاتٍ شتّى من العالم، ليكون لهم مجالات تجاريّةٌ واسعةٌ في العواصم الإسلاميّة، الّتي أخذت تزدهر بألوان الحضارة والثقافةِ والرُّقيِّ المدني.

(٣) ومن هؤلاء طالبو حكم وسلطان، رأَوْا تعاظم مجد المسلمين، وامتداد سلطانهم في الأرض، فطمعوا في أن يكون لهم نصيب من الحكم والسلطان فدخلوا في الإسلام نفاقاً، وتَسلّلُوا إلى داخل صفوف المسلمين.

وعلَىٰ سُلّم النّفاق الماكر، وبحيلة استرضاء جماهير المسلمين، واصطياد أفرادٍ منهم في غفلاتهم وطيبة قلوبهم وصفاء سريرتهم رُبّما وصلوا إلى ما كانوا يطمعون فيه.

وربّما أثّروا بخُبْثٍ على بعض أهل الأهواء والشهوات، فاتّخذوهم مطايا حملتهم إلى المراكز التي كانوا يطمعون في أن يَصِلُوا إليها.

(٤) ومن هذا القسم فريقٌ ورثوا الانتساب إلى الإسلام، وهم غير مؤمنين به، أو ارتدُّوا بعد إيمانٍ به، واسْتَبْقَوْا نِسْبَتَهُم الظَّاهرةَ إلى الإسلام، ليُحافِظُوا على مطامعَ ومنافعَ تأتيهم إذا كانوا في أقوامهم مسلمين.

ويلاحظ أنّ هذا القسم من المنافقين الطامعين له أمثلة واقعيَّةٌ كثيرة، في كلِّ بلاد المسلمين، وفي جميع عصور التاريخ الإسلامي، ويُوجَدُ في واقعنا المعاصر منهم أعدادٌ جَمَّةٌ لا حَصْرَ لها، منبثَّةٌ في كلِّ موقعٍ من مواقع المسلمين، وفي كلِّ جماعة أو هيئة أو منظمة من منظماتهم وهيئاتهم وجماعاتهم.

القسم الثاني:

المنافقون الّذين نافقوا خوفاً على أنفسهم أو أموالهم أو مصالحهم الدنيويّة المختلفة، أو زعاماتهم في أقوامهم الذين تخلَّوْا عنهم وأسْلَمُوا.

(١) فمن هؤلاء المنافقين «عبد الله بن أُبي ابنُ سَلُول» رأسُ منافقي المدينة في عهد الرسول ﷺ.

وكذلك الذين كانوا معه من المشركين، الّذين دخلوا في الإسلام نفاقاً من أهل المدينة.

(٢) ومن هذا القسم فئاتٌ دَخلت في الإسلام نِفاقاً إبَّانَ الفتح الإسلاميّ الواسع، ليحموا أنفسهم وأموالهم ومصالحهم المختلفة، وكانوا محاربين أعداءً للمسلمين، وكان منهم أصحاب زعامات في أقوامهم فأسلموا نفاقاً ليحافظوا على زعاماتهم ومكاناتهم الاجتماعية في أقوامهم الذين أسلموا إيماناً وتصديقاً، وحرصاً على النجاة يوم الدين، ورغبة في الظفر برضوان الله ودخول جنّته.

ومن هذا القسم فريق ورثوا الانتساب إلى الإسلام، وهم غير مؤمنين به، أو ارتدُّوا بعد إيمان، ومنعهم من إعلان كفرهم الخوفُ على أنفسهم أو أموالهم أو مصالحهم.

القسم الثالث:

المنافقون الذين نافقوا ليكيدوا الإسلام وهم منتسبون إليه، وليكيدوا المسلمين وهم ضمن صفوفهم يتظاهرون لهم بالأخوة والولاء، وهم في الحقيقة مشاقُّون أعداء،

لا يألون المؤمنين خبالاً، إفساداً لمجتمعهم، وتهديماً لأبنيتهم وحصونهم ومعاقلهم، وتحريفاً لدينهم، وتلاعباً في سياستهم، وتفريقاً لصفوفهم، وتمزيقاً لوحدتهم، وتضليلاً لمن يستطيعون تضليله منهم، واستدراجاً لقادتهم إلى المزالق ومواطن الزلل، وتربُّصاً بالمسلمين المؤمنين أن تدور عليهم الدوائر حتَّىٰ يَنْقَضُّوا عليهم من مأمنهم، مظاهرين ومناصرين أعداءهم المجاهرين بعدواتهم لهم.

(١) فمن هؤلاء منافقو يَهُودِ المدينة في عصر الرسول ﷺ الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً، كيداً، وابتغاء الإفسادِ وإثارة الفتن، والمكر بالمسلمين والرسول، وابتغاء تحريف الإسلام وإفساد مفهوماته، والكذب على الله والرسول، وإدخال الإسرائيليّات في تفسير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مهما سنحت لهم الفرصة لذلك.

(٢) ومن هؤلاء «عبد الله بن سبأ» المشهور «بابْن السوداء» وهو من يهود اليمن، دخل في الإسلام نفاقاً في عهد عثمان رضي الله عنه، وكاد الإسلام والمسلمين أيّما كيد، وأثار الفتنة على عثمان حتّى انتهت بمقتله، وبذر بزور تأليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعمل على شقّ صفوف المسلمين بدوافع سياسيّة، وُضِعَتْ لها بِدَعٌ اعتقادية كُفْرِيَّة[١].

(٣) ومن هؤلاء «ميمون بن ديصان القدّاح» وهو حبْرٌ يهوديّ تظاهر بالإسلام نفاقاً، واتّصل في السلميّة من بلاد الشّام بـ «إسماعيل بنْ جعفر الصادق بنْ محمد الباقر بنْ عليّ زين العابدين بْن الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِب» واندْسّ في شيعته، وتظاهر بالمحبَّةِ والخدْمةِ والولاء، ليُحْكِمَ مكيدته، ثمّ ظهر في الكوفة سنة «٢٧٦ هجرية» وأسّس مع «حمدان قرمط» مذهب الباطنيّة، الّذي تكوّنت منه فرقة ملحدة مرتدّة، كادت الإسلام والمسلمين كيداً كُبّاراً في التاريخ الإسلامي، وأنزلت بالمسلمين بلاءً عظيماً[٢].

---

(١) في القسم الثالث من هذا الكتاب تفصيل فتنته.

(٢) في القسم الثالث من هذا الكتاب تفصيل لطرف من فتنته، وفي كتاب «مكايد يهوديّة عبر التاريخ» تفصيل مطوّل لفتن القرامطة في التاريخ المنسوبين «لحمدان قرمط» وهم في الحقيقة أتباع «ميمون القدّاح».

(٤) ومن هؤلاء فريق من يهود الأندلس، وذلك أنّه لما سقطت الدولة الإسلاميّة، في أيدي نصارى الإسبان بمساعدة المنافقين المندسين ضمن صفوف المسلمين، لم يستطع النصارى الإسبانيون الشديدو التّعصّب، الذين استَوْلَوْا على الأندلُسِ بعْدَ انحسار الدولة الإسلاميّة عنها، أن يتحمّلُوا وُجُودَ مُسْلِمين أو يهود تحت حكمهم، بدافع ضيق أفقهم، وضيق نفوسهم وشدّة تعصُّبهم لنصرانيّتهم، ونقضوا عُهُودَهُمْ وَوُعُودهم السابقة.

ثُم أخَذُوا يُكْرِهونَ النّاسَ على أنْ يتنَصَّرُوا، وإلاّ كان مَصِيرُهُمْ الإبادةَ الجماعيّة، أو الفرار بدينهم، إنْ وجَدُوا إلى الفرار سبيلاً، وكانَ هذا على خلاف العهود والوعود التي كانوا قد قطعُوها على أنفسهم حينَ تَسَلَّمُوا من المسلمين مقاليد الحكم.

وهاجر فيمن هاجر من الأندلس بسبب ذلك أقلّيّاتٌ يهوديّةٌ كانوا فيها، ففريق من هؤلاء اليهود هاجروا إلى المغرب الإسلاميّ واستوطنوا فيه، وتظاهر بعضهم بالدخول في الإسلام ابتغاء الكيْد والفتنة، وفريق آخر من هؤلاء اليهود هاجروا إلى تركيّا، واستوطنُوا فيها، ثمّ تظاهر فريق آخر من هؤلاء بالدخول في الإسلام، تبعاً لقائدهم «سباتاي سيفي ــ أوزيفي» الذي ادّعَى فيهم أنه المسيح المنتظر، وعرف هؤلاء في تركيا باسم «الدونمة»[1]. ثم كان من هؤلاء المنافقين كيدٌ كبير للإسلام والمسلمين في تركيّا وسائر العالم الإسلاميّ، وكانُوا السبب في إسقاط الخلافة الإسلاميّة، وإقامة العلمانية الكافرة، وكان منهم «مصطفى كمال أتاتورك» وبسببهم مع الصهيونية العالمية، والصليبيّة الغربية تمَّتْ تجزئة الدولة الإسلاميّة، ودخل الاستعماريون بلاداً عربيّة ما كانوا يطمعون في أن يستعمروها.

(٥) ومن هذا القسم منافقون آخرون من نصارى ومجوس وغيرهم، دخلوا في الإسلام نفاقاً، ليمكروا به وبالمسلمين، وليكيدوهما كيداً عظيماً.

(٦) ومن هذا القسم فريق ورثُوا الانتساب إلى الإسلام، ولكنْ لعبت بأفكارهم ونفوسهم مكايد أعداء الإسلام، فكفروا، إلاّ أنّهم أخْفَوْا كُفْرَهُمْ كما أوصاهم

---

(١) في القسم الثالث من هذا الكتاب تفصيل عن هذه الفرقة المنافقة.

شياطينِهم، ليكيدوا الإسلام وجماعةَ المسلمين، وهم بحسب الظّاهر جزءٌ من المسلمين، ومن سلالاتهم.

القسم الرابع:

المنافقون الذين ورثُوا الانتسابَ إلىٰ الإسلام، لكنّهم غيْرُ مؤمنين به، وربُما تيسَّرَ لهم سبيل التخلُّص من هذه النسبة، إلاّ أنّ دافع تعصُّبهم لقومهم وأهليهم جعلهم يحافظون على مظهر الانتساب إلى الإسلام.

فهم متنسِّبون إلى جماعة المسلمين على سبيل العصبيّةِ لأهلهم وذويهم وقومهم، وليسوا منتسبين إلى جماعة المسلمين إيماناً بالإسلام، وتصديقاً لما جاء فيه من عقائد وقواعد وشرائع وأحكام.

فهؤلاء منافقون في الدين، متعصّبونَ للقوم.

ويوجد كثير من هؤلاء في واقع المسلمين المعاصر، عصر الإلحاد، والرِّدّة، والزّيغ المادّيّ.

وكثيرٌ من هؤلاء هم من الذين لعبت بأفكارهم ونفوسهم مكايد أعداء الإسلام، عن طريق الثقافات والعلوم المدسوسة بأفكار الإلحاد والمادّيّة الخالية من الإيمان بالله واليوم الآخر، أو عن طريق المنظمات الكافرة الملحدة التي تستدرج المنتسبين إليها إلى الفسق فالفجور فالكفر البواح.

* * *

(٧)
دركات النفاق

كما أنّ الكُفْر دركات بعضُها أسْفَلُ وأخسُّ من بعض، كذلك النفاقُ دركاتٌ بعضُها أسْفَلُ وأخسُّ من بعض.

وتتناسَبُ دركاتُ النفاق تسَفُّلاً وخِسّةً وانحطاطاً مَعَ دركاتِ الكُفر، ويُضافُ إلى ذلك ما يَحمِلُهُ المنافق من ابتغاء الكيد ضدّ الإسلام والمسلمين، والإضرار بعقيدتهم، وإفساد شرائع الإسلام وأحكامه وتشويهها، والإضرار بجماعة المسلمين ودولتهم،

أو خدمة عدوّهم في تنفيذ مُخَطّطاته داخل الأمة الإسلامية، مُستَخْدِماً الكذب والخيانة والمخادعة والمكر السّيء، ومُسْتَغِلاً ثقةَ المسلمين به.

فالمنافق الطامع بالمنافع الّتي تأتيه من قِبَلِ المسلمين، أو الخائف على نفسه أو ماله أو أهله، أهْوَنُ شرّاً، وأَخَفُّ ضَرَراً، من المنافق الذي ينافق وهو يُضْمِرُ الكَيْدَ ضدّ الإسلام والمسلمين، ويحتالُ بمختلف الوسائل للإضرار بهم، وإفساد دينهم، وتدمير دولتهم.

وشرٌّ منه من كان قائداً يُنَظِّمُ منظَّمة نفاقٍ، ويضَعُ لها مبادىء الكفر، وخِطَط المكر والكيد والإفساد، ويوجّه حركتها، ويَقُودُ جيش الفتنة والشرّ في الظُّلُمات.

على أنّ النفاق كُلَّهُ شرٌّ من الكُفْر، وأَسْوَأُ منه، وأكثر منه خبثاً وضَرَراً.

هذا هو النفاق في أصل الدِّين، وهو النفاق الأكبر، وهو الذي يكون صاحبه كافراً في حقيقة حاله، منتسباً إلى الإسلام في ظاهره.

* * *

(٨)
النفاق الأصغر

ويُوجَدُ نفاقٌ لا في أصْلِ الدّين، وصاحبُهُ لا يكونُ كافراً خارجاً عن الإسلام في حقيقته، بل يكون عاصياً، أو فاسقاً، أو مُحْبطاً بنفاقه عمله الذي هو من أعمال الطاعة لله، أو نحو ذلك، وباستطاعتنا أن نُسَمِّي هذا النوْعَ من النفاق «النفاقَ الأصغر».

فكُلُّ من يُظْهِرُ خلافَ ما يُبْطِنُ ليُخَادع الناسَ بما يُظْهِر خداعاً لَمْ يأذَنْ به الله، أو ليتوسّل بذلك إلى ما لم يأذن به اللَّهُ من الغايات، وكانَ ذلكَ في أُمورٍ لا تمسُّ أصل الدّين وعقائده، فهو منافق نفاقاً أصْغَر.

وبناءً على هذا التحليل للنفاق الأصغر يتَضِحُ لنا أنّ من يُرائي النّاسَ بفِعْلِ الأعْمَالِ الصالحة، ليَثِقُوا به في أُمورِ دنياهم، أو ليُعَظِّموه، أو ليُكَرِّمُوهُ من أجْلِ صلاحه وتقواه، هو منافق من مستوى هذا النفاق الأصغر، ويُطلق عليه اسم «مُراءٍ»

والمرائي هو الذي يُرِي الناسَ من مظاهر أقواله أو أعماله ما يَدُلُّ على غَيْرِ حقيقته الّتي يُحاول أن يخفِيَها عن الناس.

ومَنْ يكذبُ على الناس فَيُرْضِيهِمْ بأكاذيبه ليخدعهم، ولينال بالكذب ثقتهم، ثمّ يَغْدُرُ بهم، هو أيْضاً منافِقٌ من مستوىٰ النفاق الأصغر.

ومن يتظاهر بالفقر والمسكنة ليستدِرّ عطفَ الناس عليه، وهو في ذاته مخادع كذّاب، ليس بفقير ذي حاجةٍ حقيقيّةٍ، هو منافق من مستوى النفاق الأصغر.

ومن يتظاهر بالودّ والمحبّة وهو يُضْمر العداوة، وغرضه من ذلك مخادعة من يتظاهر له ليكيده، أو لِيَثِقَ به ويأمَنَ له، فيعمل ما لا يُريد وهو آمِنٌ من جِهَتِهِ، هو أيضاً منافِقٌ كذّابٌ من مستوى النفاق الأصغر.

وهكذا إلى صور كثيرة لا تكادُ تُحْصر.

والحيلةُ الكبرى للمنافق هي الكذب في القول، والكذب في ظواهر الأعمال، وغرضُ المنافق من هذا الكذب في القول والعمل مخادعةُ النّاس واستدراجهم إلى الثقة به، فيأتمنونه على أموالهم، أو أعراضهم، أو أسرارهم، أو عهودهم، ويصدّقون وعوده وعهوده.

فإذا خان فيما ائتمنوهُ عليه كانت خيانته استثماراً لنفاقه، وحين تنكشف خيانته، وينكشف غَدْرُه ونقضه لعهده وإخلافه في وعده، يحاول أن يَسْتُر نفسه بالمخاصمة الفاجرة، والأيمان المغلّظة الكاذبة.

وهكذا تَجْتَمِع في المنافق في معظم حالات نفاقه خمس خصالٍ هي من قبائح الصفات، وهي:

(١) الكذب في القول والعمل.

(٢) إخلاف الوعد.

(٣) الغدر بنقض العهد.

(٤) خيانة الأمانة.

(٥) الفجور في المخاصمة.

وهذه الخصال الخمس القبيحة قد جاء بيانُها فيما صحّ عن الرسول ﷺ، وفيما

يلي بيان ما جاء عن الرسول حول هذه الصفات:

* روى البخاريّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «آيَةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».

وفي رواية: «وَإذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

وفي رواية: «وَإنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ».

* وفي رواية صحيحة الإسناد على شرط مسلم عن أبي هريرة، أنّ النبي ﷺ قال:

«من عَلامَاتِ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».

* وروى النسائي والبزّارُ وغيْرُهما بـإسنادٍ صحيح عن عبد الله بن مسعود، عن النبيّ ﷺ، قال:

«آيَةُ المنافِقِ ثَلاثٌ: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».

* وروى أبو يَعْلَى عن أنس، بإسناد قيل فيه: إنّه حسن، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«فِي الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ ــ وإنْ صَامَ وصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ ــ: إذَا حدَّثَ كَذَبَ، وَإذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».

* وروى البخاريُّ ومسلم وأحمد والترمذيُّ والنَّسائيُّ عن عبد اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإذَا خَاصَمَ فَجَرَ، فَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَها».

* وروى الإمام أحمد والبيهقي في الشعب وابن نصر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة أنّ النبيّ ﷺ قال:

«إنّ لِلْمُنَافِقِينَ عَلاَمَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا، تَحِيَّتُهُمْ لَعْنَةٌ، وطَعَامُهُمْ نَهْبَةٌ، وَغَنِيمَتُهُمْ غُلُول، لا يَقْرَبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلاَّ هُجْراً (أي: بَعْدَ طُولِ غياب) ولاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ دُبُراً، مُسْتَكْبِرِينَ، لاَ يَأْلَفُونَ وَلاَ يُؤْلَفُونَ، خُشُبٌ بِاللَّيْلِ (أي: يسقطون نياماً كالخشب فلا يذكرون الله) سُخُبٌ بِالنَّهَار (أي: يكثرون الصياح والضجيج من أجل دنياهم ولا تهذيب لديهم)».

* وعن سعد بن منصور في سننه، عن سعيد بن المسيب مرسلاً، عن النبي ﷺ:

«آيَةٌ بيننا وبين المنافقين شهودُ العشاء والصُّبح لاَ يَسْتَطِيعُونَهُمَا».

وعن الصحابيّ أُمَامَةَ صُدَيّ بْنِ عَجْلاَنَ الباهِلِيّ أَنَّهُ قالَ:

«الْمُنَافِقُ الَّذِي إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خانَ، وَإِذَا غَنِمَ غَلَّ، وَإِذَا أُمِرَ عَصَىٰ، وَإِذَا لَقِيَ جَبُنَ، فَمَنْ كُنَّ فِيهِ فَفِيهِ النِّفَاقُ كُلُّهُ، وَمَنْ كَانَ فِيهِ بَعْضُهُنَّ فَفِيهِ بَعْضُ النِّفَاقِ».

هذا الحديث موقوف على أبي أمامة الباهلي، وبعضه ثبت في المرفوع الصحيح، أمّا كون المنافق إذا غَنِمَ غَلَّ (أي: أخذ من الغنائم قبل توزيع الإمام أو القيادة المفوضة بذلك لها) وإذا أُمِرَ عَصَىٰ، وإذَا لَقِيَ جَبُنَ، فهي من صفات المنافق دون شكّ لأنّها من لوازم النفاق، وتدُلُّ صفاتُ المنافقين في القرآن عليها.

أقول:

أمّا كون من اجتمعت فيه الصفات الأربع كما جاء في حديث عبد الله بن عمر الصحيح المرفوع، أو الصفاتُ السّت كما جاء في حديث أبي أُمامة كان مُنافقاً خالصاً، أو كان فيه النّفاقُ كُلُّه، فالمعنى كان مُنافقاً من مستوى النفاق الأصغر، إذا لم تكن مظهراً من مظاهر النفاق في أصل الدّين، لكنْ وجودَها مجتمعةً في شَخْصٍ واحدٍ أمارةٌ تَدُلُّ على أنّ احتمالَ كَوْنه منافقاً في أصل الدين احتمالٌ قويٌّ، فحالُه تستدعي المراقبة والحذر.

إنّ النفاق في أصل الدّين هو إعلان قبول كلّ العقائد الإيمانيّة التي جاء بها دين الإسلام، وإعلان قبول الطاعة لله ورسوله والإسلام لأوامر الله ونواهيه، وإبطانُ الكُفْرِ

بكُلٍّ أو بعض العقائد الإيمانيّة التي جاء بها الإسلام، أو إبطانُ رَفْض الطاعة ورفْض الإسلام لله ورسوله، ولو لبعْضِ الأوامر أو النَّواهي الصحيحة الثابتة، ولا بُدّ أن نَعْلَم أنَّ رفْضَ الطاعة جحوداً أو تمرُّداً على حقّ الله على عباده هُو من الكُفر، وهو غير الوقوع في المعاصي بدافع الشهوة أو هوى النفس مع الاعتراف والتسليم بحقّ الله الكامل على عِبَادِهِ في أن يطيعوه ويَعْبُدوه وحْدَهُ لا شريك له، فمِثْلُ هذا الوقوع في المعاصي لا يُدْخِل في الكُفْر، ولذلك كَفَر إبليس بمعصيته لأنه كان جاحداً حقّ الله عليه، ولم يَكْفُرْ آدم وزوجه بالمعصية لأنهما لم يكونا جاحدين، ودلّ على موقف إبليس إصرارُه وطَعْنُه في حكمة الله، ودلَّ على موقف آدم وزوجه قولهما:

«ربّنا ظَلَمْنا أنفُسَنا، وإنْ لم تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرين».

* * *

(٩)

تخوّف الصحابة من النفاق الأكبر والأصغر

ولمّا كان النفاق بمستوييْهِ الأكبر والأصغر من أشنع وأقْبحِ الخصال الّتي يتّصفُ بها الإنسان، كان أصحاب رسول الله ﷺ يتخوفون على أنفسهم تخوّفاً كثيراً منه ومن خصاله، ويتورّعونَ مِنْ أعْمالٍ كثيرة ليست هي من خصال المنافقين، مخافة أن يقعوا في شيءٍ من النفاق وهم لا يَشْعُرون.

حتّىٰ بلغ الأمر بعُمَر بْن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ أنْ تخوّفَ علَىٰ نَفْسِه من أن يكون من المنافقين، مع ما هو عليه من الإيمان الراسخ الذي شهد له به الرسول ﷺ، إذْ بشَّرَهُ بالجنَّة مع من بشَّرَ من أصحابه، ودفعه تخوّفُه على نفسه أن سأل حذيفةَ بن اليمان صاحب سرِّ رسول الله ﷺ في المنافقين: هلْ ذكره الرسول ضِمْنَ مَنْ ذَكَرَ مِنْ أسماء المنافقين، واسْتَحْلَفَهُ على ذلك فقال له: اللّهُمَّ لا.

روى ابن عساكر في تاريخه، عن حذيفة بن اليمان قال: مَرَّ بي عمر بن الخطّاب وأنا جالس في المسجد، فقال لي: يا حذيفة، إنَّ فلاناً مات، فاشْهَدْهُ، ثمّ مَضَىٰ، حتى إذا كاد أن يخرج من المسجد التفت إليّ فرآني وأنا جالس، فعرف،

فرجع إليّ فقال: يَا حُذَيفَةُ أنشدُكَ الله أمن القوم أنا؟ قلتُ: اللَّهمَّ لا، ولنْ أبرّىء أحداً بعدك، فرأيت عَيْنَيْ عُمَرَ جَادَتَا.

وبلغ الأمر كذلك بآخرين من أصحاب الرسول المؤمنين الصادقين، أنّهم كانوا يتخوّفون على أنفسهم من النفاق، لشِدَّةِ تحْذِير الرسول ﷺ منه، ولشِدَّةِ ما جاء في القرآن الكريم من توبيخٍ للمنافقين ووعيدٍ لهم بالعذاب الأليم، ولشِدَّةِ وكثْرَةِ تحذير المؤمنين من مكايدهم.

أخرج البخاريُّ في صحيحه عن ابْنِ أبي مُلَيْكَةَ قال: أدْرَكْتُ ثلاثينَ من أصحاب النبيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يخافُ النّفاقَ على نَفْسِه، ما منهم أَحَدٌ يقول: إنّه على إيمان جبريلَ وميكائيلَ.

قال: ويُذْكَرُ عَنِ الْحَسَنِ: مَا خافَهُ إلاّ مؤمنٌ، ولا أمِنَهُ إلاّ كَافِرٌ.

ويظهر لي أنّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يتخوَّفُون على أنْفُسِهِمْ من النفاقَيْنِ الأكْبَرِ والأصْغَرِ، لكِنّهُمْ بسبب صِدْقِ إيمانهم كَانُوا يُوجّهون جُلَّ تَخوُّفِهم من أن يَقَعُوا في النفاق الأصغر الّذِي قَدْ تَقَعُ مِنْهُمْ بعْضُ الصفاتِ الّتي هي منه، ولذلك كانوا يَحْرِصُونَ على البُعْدِ عنْ كُلِّ ما يُحْبِطُ العمل، من رياءٍ وسُمْعَةٍ، وطلَبٍ للدُّنيا بالدين.

أمّا تخوُّفُهم من النفاق الأكبر فالذي يظهر أنهم كانوا يَخْشَوْنَ أنْ يكونَ تناقُصُ مستَوَىٰ إيمانهم عن مُسْتَوَىٰ إيمانِ رسول الله ﷺ أو مستوى إيمان جبريل وميكائيل، هو من النفاق الذي قد يخالط الإيمانَ ويُدَاخِلُه، فيَنْقُصُ من قيمته، ويُضْعِفُ من قُوّته، ويَتَصَوَّرُونَ أو يخشون أن يكون الإيمان المطلوبُ مِنْهُمْ هو الإيمانَ المساوي لإيمان جبريل وميكائيل.

لقَدْ ثَبَّتُوا أنظارهم رضوان الله عليهم في قمّة الإيمان، فكان تَطَلُّعهم الدائم إلى هذه القمّة، وكانت هِمَمُهُمْ تَتَحَفَّزُ دائماً إليها، وكانوا يخشون أنْ يكون كلّ تقصير عنها جزءاً من النفاق، ومن أجل ذلك كانوا خير القرون.

ورُبّما كانوا يَخْشَوْن أن يكونَ حُبُّهُمْ لبعض الأمور الدّنيوية، كَحُبِّهم للْغَنَائم، أو حُبّهم لمجد الدنيا، أو حُبّهم لبعض الشهوات المباحات، الّتي قد يحصلون عليها عن طريق الجهاد في سبيل الله، من الشوائب التي قد تؤثر على صدق إيمانهم في

ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ، ويخشون أن يكون ذلك من شوائب النفاق، فهي تَنْقُص من كمـال إيمانهم، وربّمـا كانـوا يتخوّفـون من أن يُؤْثـر حبُّهُمْ لما نـالوه من الـدنيـا بسبب إسلامهم على صحة إيمانهم، وصدْقِ إسلامهم، وربّما كانوا يـرون أن ما يعتـريهم من الغفلات بسبب مشاغل الحياة، كانشغالهم بأهلهم، ونسائهم، وأولادهم، وأموالهم هو من نقصان الإيمان، وهو من شوائب النفاق.

وكـلُّ هذا ظـاهـرٌ من حـرصهم الشـديـد على أن يَبْلُغُـوا كمـال الإيمـان وكمال الإسـلام، ومن حرصهم الشـديـد أيضـاً على أن يكـون إسـلامهم خـالصـاً لـوجـه الله عزّ وجلّ، بريئاً من شوائب طلَبِ الدنيا به، ولا سيماحينما يُلاحظُون أنّ أشدَّ دوافع نفاق المنافقين رغبةُ نُفُوسِهِمْ في الحصول على مطالب الدنيا بالتظاهر بالإسلام، والانضمام إلى جماعة المسلمين.

فـاحتمـالات تخـوف أصحـاب رسـول الله ﷺ على أنفسهم من النفـاق تتلَخّصُ بالأمور الثلاثة التالية:

الأمـر الأول:

تخوُّفهم على أنفسهم من النفاق الأصغر، عن طريق ارتكاب صفاتِه في السلوك، أو ارتكاب بعضها.

الأمـر الثانـي:

تخوُّفُهم من أن يكون نُقْصَانُ إيمانهم عن مستوى إيمان الرسول أو إيمان جبريل وميكائيل، هو من شوائب النفاق.

وربّمـا اعتبروا من نقصـان الإيمان مـا يعتـريهم من الغفـلات، بسبب انشغـالهم بأهلهم ونسائهم وأولادهم، وأموالهم.

الأمـر الثالـث:

تخوُّفُهم من أن تكونَ رغبَتُهُمْ في الحصول على مطالب الحياة الدنيا، وما يُحبُّونَ منها، عن طريق أعمالهم الإسلامية، كالجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الله، هي من شوائب النفاق، فهي تؤثِّرُ على صِدْقِ إسلامهم، وكمال إيمانهم.

ولهذه الأمور شواهد من سيرتهم رضي اللّهُ عنهم، فمنها ما يلي:

(١) روى مسلم بسنده عن أبي عثمان النهديّ، عن حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيّ، (قال: وكان من كُتّاب الرسول ﷺ)، قال: لقيني أبو بكر فقال: كَيْفَ أَنْتَ يا حَنْظَلَة؟

قال: قلت: نافَقَ حَنْظَلَة.

قال: سُبْحَانَ اللهِ! ومَا تَقُول؟!

قال: قُلْتُ: نكونُ عنْدَ رسُولِ الله ﷺ، يُذَكِّرُنا بالنار والجنّة، كأنّا رَأْيُ عيْنٍ، فإذا خرجْنَا من عند رسول الله ﷺ، عافَسْنَا الأزواجَ وَالأولادَ والضَّيْعَاتِ، فنسينا كثيراً.

قال أبو بكر: فوالله إنّا لنَلْقَىٰ مِثْلَ هذا.

فانْطَلَقْتُ أنا وأبو بَكْرٍ، حتّىٰ دخلْنا عَلَىٰ رسُولِ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: نافَقَ حَنْظَلَة يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: «ومَا ذَاك؟!».

قُلْتُ: يا رسُولَ الله، نَكُونُ عنْدَكَ تُذَكِّرُنا بالنّار والجنّةِ، حتّىٰ كَأنّا رَأْيُ عَيْنٍ، فإذا خَرَجْنَا من عندك عافَسْنَا الأزواجَ والأولادَ والضَّيْعَاتِ فنسينا كثيراً.

فقال رسول الله ﷺ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ تَدُومُونَ عَلَىٰ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَىٰ فُرُشِكُمْ، وفي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ، سَاعَةً وَسَاعَةً» ثلاث مرّات.

أي: قال الرسول: «ساعة وساعة» ثلاث مرّات.

عَافَسْنَا: أي: خالَطْنَا وعَاشرنا ممارسةً ومزاولة وعملاً.

الضَّيْعَات: أي: مَكاسِبَ العيش، كالتجارة والزراعة والصناعة والحِرْفة، واحدتها «ضَيْعَة».

فمن هذا الحديث يتّضح لنا أنّ حَنْظَلَة وأبا بكر رضي الله عنهما قد تَخوّفا علىٰ أنْفُسِهِمَا من أنْ تكونَ الغفلة عن ذكر الله والدار الآخرة، انشغالاً بمتاع الحياة الدنيا، من نقص الإيمان، وأن يكون ذلك بسبب شوائبَ من النفاق.

(٢) وروى البخاري بسنده قال: «قال أناسٌ لابْنِ عُمَر: إنَّا نَدْخُلُ على سلطاننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلَّمُ به إذا خَرَجْنَا من عِنْدِهم.

قال: كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفاقاً».

قال ابن حجر في «الفتح» وفي رواية عروة بن الزبير عن الحارث بن أبي أسامة، والبيهقي، قال: «أتيتُ ابْنَ عُمَرَ فقلتُ: إنَّا نَجْلِسُ إِلَىٰ أئِمَّتِنَا هؤلاء، فيتَكَلَّمُونَ في شيءٍ نَعْلَمُ أنَّ الْحَقَّ غيْرُهُ، فَنُصَدِّقُهُمْ.

فقال: كُنَّا نَعُدُّ هَذا نِفاقاً، فلا أدْرِي كَيْفَ هُو عِنْدَكُمْ».

وظاهرٌ أنَّ هذا من النفاق الأصْغر الذي قد يكون من الكبائر ولا يبلغ مَبْلَغَ الكُفْر.

(٣) وروى ابن عساكر في تاريخه عن عمَّار بن ياسر قال: «ثلاثَةٌ لا يَسْتَخِفُّ بِهِمْ إلاَّ مُنَافِقٌ بَيِّنٌ نِفَاقُهُ: الإمامُ الْمُقْسِط، ومُعَلِّمُ الْخَيْرِ، وذُو الشَّيْبَةِ في الإسلام».

(٤) وكان الحسَنُ البصريّ يقول: والله الذي لا إلَـه إلاَّ هُوَ، ما مَضَىٰ مؤمنٌ قطُّ ولاَ بقي إلاَّ وهو من النفاقِ مُشْفِقٌ، ولاَ مضىٰ منافِقٌ قطُّ ولاَ بَقِي إلاَّ وهُوَ مِنَ النِّفَاقِ آمن.

وكان يقولُ أيضاً: مَنْ لَمْ يَخفِ النِّفَاقَ فَهُو مُنَافِقٌ.

وعنه أيضاً قال:

«من النفاق اختلاف اللِّسَانِ والقلب، واختلاف السِّرِّ والْعَلاَنِيَةِ، واخْتِلاَفُ الدُّخُولِ والخروج».

وظاهر أنّه في هذا يذكُرُ بعض صفات النفاق الأصغر، ويحذِّر منها، أمّا اختلاف الدخول والخروج فيريد منه مثل اختلاف أحوال الذين يكونون إذا دخلوا إلى أئمتهم صدّقوهم على باطلهم، وإذا خرجوا من عند أئمتهم قالوا الحقّ فيما بينهم، وأبانوا أنّ ما قاله أئمتهم باطل.

وكذلك ما رُوي عن ابن عُمر، وعمّار بن ياسرٍ.

* * *

(١٠)
المنافق في التشبيهات النبوية

(١) شبّه الرسول ﷺ المنافق الذي يَقْرأُ القرآن بالرّيحانة، رِيحُها طيِّبٌ وطعمها مُرٌّ، وشبَّه المنافق الذي لا يقرأ القرآن بالحنظلة، ليسَ لها ريحٌ طيِّبٌ، وطعمها مرٌّ.

فقد روى البخاريُّ ومسلم وأحمد وأبو داود وغيرهما، عن أبي مُوسَىٰ الأشعريِّ ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«مَثَلُ المؤمِنِ الذي يقرأ القرآن [وفي رواية صحيحة: ويَعْمَلُ به] مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ.

ومَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ: لَا رِيحَ لَهَا، وطَعْمُهَا طَيِّبٌ.

وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ، وطَعْمُها مُرٌّ.

وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ: لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»[1].

(٢) ورَوَىٰ ابْنُ جرير عن قتادة مُرْسلاً، عن النبي ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ والْمُنَافِقِ والْكَافِرِ، كَمَثَلِ رَهْطٍ ثلاثَةٍ دَفَعُوا إلى نَهْرٍ، فَوَقَعَ الْمُؤْمِنُ فَقَطَعَ، ثُمَّ وَقَعَ الْمُنَافِقُ حَتَّىٰ إذا كَادَ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ الْمُؤْمِنِ نَادَاهُ الكافِرُ: هَلُمَّ إِلَيَّ، فَإِنِّي أَخْشَىٰ عَلَيْكَ، وَنَادَاهُ الْمُؤْمِنُ أَنْ هَلُمَّ إِلَيَّ، فإنَّ عِنْدِي وعِنْدِي؛ يُحْصِي له مَا عِنْدَهُ، فما زَالَ الْمُنَافِقُ يَتَرَدَّدُ بَيْنَهُمَا حَتَّىٰ وَقَعَ عَلَيْهِ أَذَىً فغَرَّقَهُ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ لَمْ يَزَلْ فِي شَكٍّ وَشُبْهَةٍ حَتَّىٰ أَتَىٰ عَلَيْهِ الْمَوْتُ وهو كذلك».

في هذا الحديث وَصْفٌ للمنافِقِ الشَّاكِّ الْمُتَحَيِّرِ، لا للمنافِقِ الجازمِ بِمَذْهَبٍ مِنْ مذاهب الكُفْر.

---

(١) انظر شرح هذا الحديث في كتاب «روائع من أقوال الرسول» للمؤلف، وهو الحديث الخامس من الأحاديث المشروحة فيه.

(٣) وروى ابن جرير عن قتادة مرسلاً، أنّ النبي ﷺ قال:

«مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ ثَاغِيَةٍ (أي: شاة) بَيْنَ غَنَمَيْنِ، رَأَتْ غَنَماً عَلَىٰ نَشَزٍ (أي: مرتفع من الأرض) فَأَتَتْهَا وَشَامَتْهَا[1] فَلَمْ تَعْرِفْ، ثُمَّ رَأَتْ غَنَماً عَلَىٰ نَشَزٍ، فَأَتَتْهَا وَشَامَتْهَا فَلَمْ تَعْرِفْ».

وفي هذا الحديث أيضاً وَصْفٌ للمنافقِ الشَّاكِّ المتَحَيِّرِ، لا للمنافق الجازم بمذهبٍ من مذاهب الكفر.

(٤) وروى مسلم وأحمد والنسائي عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال:

«مَثَلُ المنافِقِ كمثلِ الشّاة الْعَائِرَةِ[2] بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَىٰ هَـٰذِهِ مَرَّةً وَإِلَىٰ هَـٰذِهِ مَرَّةً، لا تَدْرِي إِلَىٰ أَيِّهِمَا تَتْبَعُ».

* * *

(١١)
من صفات المنافقين الجسديّة

(١) أخرج أبو نعيم في الطبّ، عن سَعِيد بن المسيّب:

«إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ أَصْفَرَ الْوَجْهِ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلاَ عِلَّةٍ، فَذَلِكَ مِنْ غِشِّ الإِسْلَامِ فِي قَلْبِهِ».

(٢) وأخرج الديلميُّ في مُسْنَد الفردوس، عن ابن عباسٍ:

«احْذَرُوا صُفْرَ الوجوه، فإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ عِلَّةٍ أَوْ سَهَرٍ فَإِنَّـهُ مِنْ غِلٍّ فِي قُلُوبِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ».

(٣) وأخرج أيضاً عن عليّ:

«المنافِقُ يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ يَبْكِي كَمَا يَشَاءُ».

---

(١) شامَتْها: أي: نَظَرَتْ مَخَايلها تريد أن تتعرّف عليها، برؤية ضعيفة كليلة غير واضحة.

(٢) العائرة من الشاة: المتحيرة المتردّدة بيْنَ قطيعين لا تدري أيّهما تتْبَعُ.

(٤) وأخرج ابن عديّ في الكامل، عن عقبة بن عامر:

«إذا تمَّ فُجُورُ الْعَبْدِ مَلَكَ عَيْنَيْهِ فَبَكَى بِهِمَا مَتَى شَاءَ».

● ● ●

الفَصْلُ الرَّابِع

مَجَالاتُ ٱلنِّفَاقِ وَصُوَرٌ مِنْهَا

(١)
مقدّمة

للنفاق مجالاتٌ متعدّدات بعدد مجالات الحياة الإنسانيّة وعلاقاتها الاجتماعية، ومنها المجالات التاليات:

المجال الأول:

النفاق في الدين، وهو كما سبق قسمان:

القسم الأول: النفاق الأكبر، وهو إبطانُ الكُفر، وإظهارُ الإسلام، وهو المقصود الأعظم من هذا السِّفْر.

وقد سبق تعريف هذا القسم، وتمييزه من غيره، وسيأتي إنْ شاء اللّٰهُ تفصيل ظَوَاهِرِه في السلوك، واستعراضُ أمثلته في التاريخ الإنساني.

القسم الثاني: النفاق الأصغر، وهو التظاهر بالأعمال الدِينيّة الصالحة، ابتغاء مقاصِدَ دُنْيويَّةٍ يَقْصِدُها المرائي عند الناس الّذين يَنْخَدِعون بأعماله، فَيَستَغِلُّ انخداعَهُمْ به لتحقيق منافع لديهم يَسْتَثْمِرُهَا نتيجةَ مراءاته لهم.

وقد سبق تعريف هذا القسم، وتمييزُهُ من غيره، وله عُنْوانٌ خاصٌ به هو لفظ «الرِّياء» ومشتقّاته، وسيأتي إن شاء اللّٰهُ شرح الرِّياء بمقولة خاصة في هذا الفصل.

المجال الثاني:

نفاق الجاسوسيّة، وهي المهنة المنظّمة التي يعمل من يَعْمَلُ فيها لصالح فَرْدٍ أو مُنَظَّمَةٍ شعبيّةٍ أو دوليّة، من خلال علاقَاتِهِ الاجتماعيّة بالأفراد والجماعات، على اختلاف طبقاتهم ومُسْتَوَيَاتهم، ومهنهم وأعمالهم، ذكوراً وإناثاً، وهو يَلْبَسُ كَذِباً وَزُوراً أقنعةً يُخْفِي تحتها أغراضَهُ الحقيقيّة.

المجـال الثالـث:

النفاق في السياسة والْحُكْمِ وَالإِدَارَة، وهو سلوك اجتماعي يَعْتَمد علَىٰ الكذب، والتظاهر بالرِّقـةِ، والأدب الجمّ، والتواضـع، وحُسْنِ المجاملة، والمـوَدَّةِ، والإِحْسَانِ، والإكرام، والْبراءة، والرغْبَةِ في فعل الخير، وخدمة المصلحـة العامّـة، وإعطاء الـوعود والعهود والمواثيق، مَعَ العزم على عدم الوفـاء بها ابتـداءً، مُخَادَعَـةً وتغريـراً، وتضليلاً للجماهير بوجهٍ عامّ، أو تضليلاً لمن يُرادُ استدراجُهُ واصطياده وإسقاطُهُ في الحبائل من المحاورين السّياسيّين.

المجـال الرابـع:

النفـاق في التعامـل المالي، وهـو يعتمد على الكـذب والمخادعـة، والمـراوغـة والغشّ، ويعتمـد على التمويـه والإيهام والاستـدراج عن طريق الغفـلات، أو الإغـراءِ بالمطامع، إلى مزالق الخسارة، ليحقّق المتعامـل المراوغ المخـادع مكاسِبَ ومَـرَابح، مـا كـان بـاستـطاعتـه أن يحقّقهـا، لـو سَلَكَ مَسْلك الصِّدْقِ، والصـراحـة والنّصيحـةِ والاستقامة.

المجـال الخامـس:

النفـاق بتقـديم الخـدمـات والمعـونـات والمسـاعـدات الإنسـانيّـة، التعليميّـة، أو الصّحيّـة، أو الماليّـة، أو النفسية، أو الخيـريّة من مختلف وجـوه البرّ، بغيـة تحقيق مصالح سياسية، أو اقتصاديّة، أو استعماريّة ضارّة، أو بغيَةَ نشر مذاهب فكـريّةٍ بـاطلةٍ، والاستدراج للانتماء إليها واعتناقها.

المجـال السـادس:

النفـاق الاجتمـاعي القـائم بين الأفراد على إظهـار المودّات والصّـداقاتِ وتَصنُّـع المجاملات، لا لتأليف القلوب على الحقّ والخير ابتغـاء مرضـاة الله، ولكن لاستدراج النـاس وإيقاعهم في شَـرَكٍ يَكْرَهُـونَ الْوُقُـوعَ فيـه، كـزواج غيـر مكـافىء ولا مُـلاَئِمٍ، أو شراكةٍ في عَمَلٍ تَضيعُ فيه أَمْوَالُهُمْ أَوْ جُهُودُهُمْ، أو قبولِ كِتَابَةِ شيءٍ أَوْ حُضُورِ جلسةٍ أو التصريح بكلامٍ أو القيامِ بعَمَلٍ عَنْ حُسْنِ نِيَّةٍ، فيكـونُ من نتيجةِ مـا تَوَرَّطُـوا فِيه أن يخْسَرُوا مالاً، أو مركزاً، أو وظيفةً، أو مصلحةً، أو يَتَعَرَّضوا لمهلكـة في الأنْفُس، وكانَ

المنافقُ في هذا المجال يَبْتغِي إيقاعَ فريسته فيما وقع فيه لمصلَحَةٍ لَهُ، أو لِغَرض في نَفْسِه خَبيث.

إلى غير ذلك من مجالات مشابهات، ولا يَدْخُلُ تحْتَ عُنْوانِ النفاق في أيّ مجالٍ من المجالات ما يكون من مُصَانعاتٍ ومُجَاملاتٍ ومُلاَيَنَاتٍ وإظهارِ مودّاتٍ وصداقاتٍ ومَعُوناتٍ ومُسَاعَداتٍ وإكراماتٍ وإحساناتٍ وعباراتِ مدحٍ وثناءٍ وتمجيدٍ، إذا كان الْغَرَضُ استنقاذَ المحتفَى به من شرٍّ هو فيه، أو استخراجَهُ من الظلماتِ إلى النّور، ومن الكفر بالحقّ إلى الإيمان به، ومن فِعْلِ الشرّ والعمل السّيىء، إلى فعل الخير والعمل الصالح، ومن معصية الله إلى طاعته، أو كانَ الغرضُ التآخِيَ بيْنَ الْمُؤْمنين، أو الإصلاحَ بين الزَّوْجَيْنِ، أو إصْلاحَ ذاتِ الْبَيْنِ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ مُتَخاصِمَيْن، أو نحوَ ذلك مِنْ كلِّ أمْرٍ فيه مَرْضَاةٌ للّهِ عزّ وجلّ، بل كلُّ ذلِكَ هو من فِعْلِ الخير الذي يحثُّ الإسلام عليه، ويُثْني على مَنْ فَعَلَهُ، ويُؤكِّدُ أنّ من فعَلَ شيئاً من ذلك ابتغاء مرضاة الله أثابَهُ اللّهُ عليه ثواباً كثيراً، وأعطاه أجراً كبيراً.

وفي مقالات آتياتٍ من هذا الفصل تفصيلٌ ما لهذه المجالات باستثناء النفاق الأكبر فله الساحة العظمى من هذا الكتاب.

* * *

(٢)
النفاقُ الأصغر (وهو الرّياء)

الرِّياء: تظاهر المسلم بالأعمال المطلوبة في الدِّين من الأعمال الصالحة ابتغاء مقاصدَ دنيويَّةٍ يَقْصِدُها المرائي عند الناس الذين يرجو أن ينخدعوا بأعماله، فيَظُنُّوه مِنْ أهلِ كمال التقوى، أو من الأبرار أو من المحسنين، فإذا انْخَدَعُوا به، ووثقوا بما رأوا من صلاحه وتقواه، استغلّ ذلك في تحقيق مآربَ دُنْيَويّة لديهم، وحين يخلو بنفسه أو مع خاصّته من عَارِفي خَفَاياه أو شركائه في المعاصي أو أقرانه في مخادعة الناس، كانَ له سلوكٌ آخَرُ غَيْرُ السلوك الذي يظهر به أمَامَ العامّة.

* فطالبُ الذِّكْرِ والسُّمعَةِ الحسنةِ والمدْحِ والثّناء من الأعمال الصالحة الدينيّة الّتي يَعْمَلُها، غَيْرُ مخْلِصٍ لله عزّ وجلّ في عمله، بل هو إمّا طالِبُ دنيا فقط من

غير الله، وإمّا طالبُ ذَلِكَ مع طلَب ثواب اللَّهِ يوْمَ الدِّينِ إيماناً به، وهذا من الشِّرْكِ في عبادَةِ الله، وهو يُحْبط العمل، لأنّ الله لا يقْبَلُ أعمالَ العبادةِ له ما لم تكن خالصةً لوجْهِهِ الكريم من شائبة الشِّرْكِ في إلَهِيَّتِه، ومنْ شائِبَةِ الشِّرْكِ في إخلاص العمل لله بابتغاء أغراض الدّنيا من الناس مع ابتغاء ثواب الله ورضوانه.

وطالب الذكر والسُّمعة الحسنة والمدح والثناء لدى الناس ممّا يعمل من أعمال دينيَّةٍ صالحة، سيَجِدُ ذَلِكَ ضِمْنَ سُنَنِ الله السَّبَبِيَّة، والله يُهَيِّىء ذَلِكَ له تحقيقاً لسنّته، ولكنّه لا يجعل له في الآخرة نَصيباً، وقد دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

ودلّ عليه أيضاً أحاديث نبويَّةٌ صحيحة، منها:

(١) روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أَغْنَى الشُّركاء عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

(٢) وروى ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«قال الله عزّ وجلّ: أَنا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ لي عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فأنا مِنْهُ بَرِيءٌ، وهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ».

(٣) وروى الإمام أحمد بسنده عن محمود بن لبيد رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ».

قالوا: وَمَا الشركُ الأصغرُ يا رسول الله؟

قال: «الرِّياء، يقول الله عزّ وجلّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمالِهِمْ: اذْهَبُوا إلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُراءُونَ في الدُّنْيا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً».

تُراءُون في الدنيا: أي: تراءُونهم.

(المسند ج ٥ ص ٤٢٨)

* وَطَالِبُ التعظيم والتبجيل والتقديس والاحترام من الأعمال الصالحة الدينيّة التي يعْمَلُها سَيَجِدُ في الناس من يُعَظِّمُونه ويُبَجِّلُونه ويُقَدِّسونه من أجل ما شاهدوا ويُشاهدون من مظاهر أعماله الصالحة التي يعملها، ضِمْنَ سُنَنِ الله السَّبَبِيَّة، واللَّهُ يُهَيِّىءُ ذلِكَ لَهُ تحقيقاً لسنته، ولكنَّهُ لا يجعل له في الآخرة ثواباً عليها.

* وطالب مَتَاعِ الحياة الدنيا من التظاهر بأعماله الدينيَّة الصالحة التي يعملها يؤتيه الله ثوابَهُ من متاع الحياة الدنيا، ولا يَجْعَلُ الله له في الآخرة ثواباً عليها.

* * *

أمثلة

(١) من الناس من يتظاهر بالورع الشديد عن مواطنِ الشبهات، وَعَن فِعْلِ المكروهات، فضلاً عن المحرّمات كبائِرها وصغائرها، وهو في سِرِّه من مرتكبي الكبائر الكبرىٰ التي لا يأتيها الْفُسَّاق.

(٢) ومن الناس من يتظاهر بالإكثار من نوافل الصلوات والأذكار والأوراد والتسبيح وتلاوة القرآن أمام الناس، فإذا خلا بينه وبَيْنَ رَبِّهِ لَمْ يَفْعَلْ شيئاً من ذلك.

(٣) ومن الناس من يتظاهر بطول اللّحية وتعظيم السبحة، ويتظاهر بالْبَذَاذَةِ والرَّثَاثَةِ في ثيابه وهيئته، وبلُبْسِ الْخَشِنِ من الثياب، ولُبْسِ الْمُرَقَّعات والباليات،

ولُبْسِ الْعِمَّةِ والطَّيْلَسَانِ، وكَثْرَةِ العمل بحبّات السُّبْحَةِ إشعاراً بأنَّهُ في حالةِ ذِكْرٍ لله، وحضور دائم مع الله، أمام من يُعْجِبُهُم من الصالحين الزُّهْدُ والتقشُّفُ وما يُسَمَّى بالصوفية الّتي يبتعِدُ مُدَّعُوها عن شهوات الحياة الدنيا ومظاهر زينتها، ليكونوا فيما يزعمُونَ أهْلاً لاستقبال الإلْهامات والواردات الرَّبّانيَّة، وكشف الْحُجُبِ عن بعض المغيَّباتِ، ولئلاّ يكونوا من الذين أذْهبُوا طيباتِهِمْ في الحياة الدنيا.

فإذا خلا في نفسه، أو مع خاصّته، كان من أكثر الناسِ نَهَماً ولهواً ولَعِباً، وغفْلَةً عن الله، واستغراقاً في انتهاب اللَّذَاتِ ممّا حلَّ أو حَرُمَ، وربّما كان تظاهره وسيلة يُخْفي بها ما يمارسُ في سِرّه من كبائر إثْمٍ وفُجُورٍ ولُصُوصِيَّة.

(٤) ومن الناس من يتظاهر بإعفاء اللّحية، وتقصير الثوب، وبمجافاة البدع المظهريّة، لدى من يحرصون على الالتزام بالسنة، ويُوجّهون معظم أنظارهم للمظاهر الجسديّة والشكليّة، وغرضُه من ذلك أن يثقوا به، فَيُسْهِلُوا أموره الدنيويّة لديهم، ولدىٰ من يَسْتجيبُونَ لهم، ثقَةً بِسَلَفِيَّتِهِ، وهو لا يفْعَلُ من صالحات السلف إلاّ ما يتظاهر به.

ويَدُلُّ على أنّه مخادعٌ كذّابٌ ما يمارسُهُ دواماً من غيبة ونَميمَةٍ وكَذِبٍ وإفسادٍ بَيْنَ الناس، وإضرار بعباد الله، وتجريح للمخالفين في الرأي الاجتهاديّ من علماء المسلمين الماضين والحاضرين، وقذف الناس بما يفتري من عنده، أو بتخيُّله من ظنون، بغية إبعادِهم عن مزاحمته في مائدة المنافع الماديّة التي يَزْدَرِدُ ما يُوضَعُ عليها بِنَهَمٍ شديد، ويَبْتَلِعُ ما طابَ له من متاع الحياة الدنيا، مهما كان شأنُهُ حلالاً أو حراماً أو بين ذلك مما فيه شُبهات.

وربَّما يَتَّخذُ ما يتظاهر به وسيلةً لإخفاءِ فجوره وآثامه ولصوصيّتِهِ وتَجَسُّسِهِ لأعداءِ الإسلام والمسلمينَ، الذين يعمل جاسوساً لهم بين صفوف المسلمين المؤمِنِينَ الصادقين.

(٥) ومن الناس من يتظاهر بالورع العلميّ في تحقيق مسائل العلم، والتشدُّد بالْتِزام ما صَحَّ سَنَدُهُ عن المعصوم، والأخذ بحديثِ رسول الله ﷺ على ظاهره.

فإذا أعْلَنَ رَأياً في الدِّين، أو انتصر لمذهبه في بعض مسائله، ثُمَّ جاء من يخالِفُهُ في ذلك، وأقام عليه الحجّة البرهانيّة النقليّة والعقليّة، تخلّىٰ عن كلّ ورعه السابق،

وَأَصَرَّ على رأيه مكابرةً ومعاندةً للحقّ، انتصاراً لنفسه ورأيه، أو انتصاراً لمذهبه، وانكشف لأهل البصيرة أنّ ورعَهُ العلميَّ السابق لم يكُنْ إلّا ستارةً يستُرُ بها انتصاره لمذهبه الذي يتعصَّبُ له.

ولو أنّه كان ذا دينٍ حقيقيّ، وكان يخشىٰ الله حقّاً، لاتَّبَعَ الْحَقَّ أَنَّىٰ وجَدَهُ، ولو عند مخالفيه في أُسُسِ مذهبه التي يؤمن بها، لأنّ الدينَ دينُ الله، والاتباعَ فيه اتّباعٌ لله، وليس اتباعاً للرأي أو الهوى، ولا اتّباعاً لإمام بعينه من أئمة المذاهب.

(٦) وقد يتظاهر التاجر أو الصانع أو العامل بأنّه من المتقين المحافظين على صلواتهم، المؤدّين لزكواتهم، الصائمين الحاجين لبيت الله الحرام، التالين لكتاب الله، الذاكرين اللَّهَ كثيراً، الملازمين للعلماء والوعاظ ومجالس العلم والخير، ابتغاء أن يثق الناس به، فيكونوا من زبائنه في متجره أو مصنعه، أو من مستخدميه في أعمالهم، وابتغاء أن يتعاملوا معه واثقين به، مُغْمِضي عيونهم عمّا يأخُذُ منْهُمْ ويُعْطِيهم، ثمّ يَسْتَغِلُّ هذه الثقة فَيَغُشُّ في بيعه أو في عمله، ويغْبِنُ غَبْناً فاحشاً، ويَأكُلُ أموال الواثقين به بالباطل.

(٧) وقد يتظاهر السياسيّ طالبُ الحكم والسلطان والعلوّ في الأرض بالتديُّن والتزام أحكام الشَّرع الحنيف، لِيَثِقَ به النّاخبون المسلمون المتّقون، فينتخبوه، ويجعلوه وليّ أُمُورهم، وهو في حقيقة حالِهِ فاسِقٌ فاجرٌ لا دينَ له، إنّما هَمُّهُ أن يظفر بالسلطة لِيُحَقِّق مآربَهُ الشخصيَّةَ، ففي نفسه حبُّ السلطان والعلوّ في الأرض.

ثم إنّه عن طريق السلطان يستمتع بما يطلُبُ من شهوات وأموال ولذات، مع ما يُحَقِّقُه لنفسه من الاستمتاع بالأمر والنَّهي والاستعلاء والاستكبار على عباد الله وإشباع شهوة نفسه إلى الحكم.

(٨) وقد يُقَاتِلُ المقاتل ليقول الناس: إنّه شُجاعٌ بطل. وقد يتعلّمُ المتعلّم علوم الدّين لِيُشار إليه بالبنان أنّه عالم عظيم، وليثني عليه القاصي والدّاني، وينالَ عند الناس سمعةً حسنةً وصيتاً واسعاً. ويُذْكَرَ على ألسنة المدّاحين من الشعراء والخطباء. وقد يتصدّقُ المتصدّقُ بأموالِهِ في وُجُوه الخير والبرّ لتَنْفَقَ تجارته أو صناعته، أو لينالَ بين الناس مَدْحاً وثناءً وذِكْراً حسناً.

إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة يَصْعُبُ حصرها.

* * *

إحْبَاطُ عمل المرائي
بالنسبة إلى الثواب الأخروي

ولمّا كان الرّياء في الأعمال الصالحة الدينيّة من النفاق في السلوك الدِّيني، وهو النفاق الأصغر، وكان في حقيقة أمره من الشِّرْك في القصد من العمل، أو من ابتغاء مرضاة الناس فيه لا من ابتغاء مرضاة الله، ولمَّا كَانَ الله عزّ وجلّ لا يقبل الشرك في إلٰهيّته، ولا يقْبَلُ الشِّرْكَ في الْقَصْدِ من الْعَمَلِ الدّينيّ الذي يُوجَّهُ في الظاهر له عبادةً أو طاعةً أو تَقَرُّباً إليه بما يُحِبُّ من صالح العمل، كان من عدْلِ اللّهِ وحكْمَتِه أنْ يَقْصُرَ أجْرَ العامل الْمُرَائي على ما يَمْنَحُهُ وَفْق مجاري سُنَنِه من مطلوبٍ له من الحياة الدنيا، وأن يُحْبِطَ عَمَلَهُ عنده، فلا يَجْعَلَ لَهُ نصيباً من الثواب يوم الدين، إذْ يُقالُ له يومئذٍ: لقد أَخَذْتَ أجْرَكَ في الدنيا مِمَّنْ كانَ عَمَلُكَ منْ أجْلِه، أو جرت سُنَّةُ اللّهِ بمَنْحِكَ الثوابَ الّذِي كنْتَ تَطْلُبُهُ من متاعِ الحياة الدنيا، وإشراكُكَ غيرَ اللّهِ مع اللّهِ في قَصْدِكَ من الْعَمَلِ الدّينيّ أخْرَجكَ عنْ دائرةِ الإخلاص لله في الْعَمَلِ، وكانَ اللّهُ في الدّنيا قد أبانَ لَكَ أنّه لا يقبل من العمل الصالح الذي يرضاه إلّا ما كان خالصاً لوجهه، فلا تلومَنَّ إلّا نفسك.

وقد دلّت النصوص من القرآنِ والسُّنَّةِ على هذا الإحباط، وفيما يلي طائفة منها:

* * *

من نصوص التحذير من الرياء
المحبط لعمل المسلم عند الله

(١) روى البخاري عن أبي موسىٰ الأشعريّ قال: جاء رجُلٌ إلى النّبي ﷺ فقال: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقاتِلُ شجاعَةً، ويُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذلكَ في سبيلِ الله؟ قال:

«مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ في سَبِيلِ اللّهِ».

(الفتح/ رقم الحديث (٧٤٥٨))

(٢) وروى البخاريُّ عن أبي سعيد الخدريِّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يَكْشِفُ رَبُّنا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤمِنٍ ومُؤْمِنَةٍ، ويَبْقَى مَنْ كَان يَسْجُدُ في الدُّنْيا رِياءً وسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فيعودُ ظَهْرُهُ طبقاً واحداً».

(الفتح / رقم الحديث (٤٩١٩))

أي: لا يستطيع السجود، لأنّه لم يكن من الساجدين في الدنيا حقيقة، بل كانَ من المرائين الذين يُرِيدُون أن يُقالَ عنهم بين المؤمنين قومٌ متقون.

(٣) وروى البخاري عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، ومَنْ يُرائي يُرائي اللَّهُ بِه».

(الفتح / رقم الحديث (٦٤٩٩))

وعند مسلم:

«مَنْ يُسَمِّعْ يُسَمِّعِ اللَّهُ بِهِ، ومَنْ يُرائي يُرائي اللَّهُ بِه».

أي: من يقولُ لِيَسْمَعَهُ المسلمون فينَالَ عندهم صيتاً حسناً، ومَنْ يَعْمَلْ عملاً لِيَرَى الناسُ عمَلَهُ فينال عندهم صيتاً وذكراً حسناً، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُجازِيه من جنس عمله، فيعطيهِ ما يُريدُ من ذكر حَسَنٍ في الدُّنيا، ويَحْرِمُهُ من ثوابِ عَمَلِه فِي الآخِرَة.

(٤) وروى البخاريّ عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «الْخَيْلُ ثَلاثَةٌ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، ولِرَجُلٍ سِتْرٌ، وعلى رَجُلٍ وِزْرٌ.

* فأمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَطَالَ لَهَا في مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا[1] ذَلِكَ في الْمَرْجِ والرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ.

ولَوْ أَنَّها قَطَعَتْ طِيَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفاً أَوْ شَرَفَيْنِ[2]، كَانَتْ آثارُهَا وأَرْواثُها حَسَنَاتٍ له.

(١) الطِّيلُ والطِّيَلُ والطُّوَلُ والطُّوْلُ: الحبلُ الذي يُرْبَطُ طَرَفُهُ في الدابة ويربط طَرَفُهُ الآخر في وَتِدٍ ونحوه، ويُطَوَّلُ للدابة فترعى وهي مُقَيَّدَةٌ به.

(٢) اسْتَنَّتْ: أي: جَرَتْ. شَرَفاً أَوْ شَرَفَيْنِ: أي: شوطاً او شَوْطَيْنِ.

ولو أنَّها مرَّتْ بِنَهْرٍ فَشرِبَتْ منه ــ ولَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ بِه ــ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ له.

فهِي لذلك الرَّجُلِ أَجْرٌ.

* وَرَجُلٌ رَبَطَها تَغَنِّياً وَتَعَفُّفاً، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللّهِ في رِقَابِهَا ولا ظُهُورِها، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ.

* ورَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْراً وَرِيَاءً وَنِواءً فَهِيَ عَلَىٰ ذَلِكَ وِزْرٌ».

(الفتح/ رقم الحديث (٤٩٦٢))

نِوَاءً: أي: معاداةً، يُقَالُ لغةً: نـاوَأْتُ الرَّجُـلَ مُنَاوَأَةً وَنِواءً إذا فَاخَـرْتَهُ وَعَـادَيْتَهُ، والمراد معاداة أهل الإسلام، ولو من قبيل المنافسة، كما جاء في بعض الروايات.

(٥) وروى الإمـام احمد بسنـده عن بُرَيْـدَة الأسْلَمِيِّ قـال: خـرجْتُ ذاتَ يَـوْمٍ لِحَاجَةٍ، فإذَا أَنَا بالنبـيِّ ﷺ يَمْشِي بَيْنَ يدَيَّ، فأخَذَ بِيَدِي، فانْطَلَقْنا نَمْشِي جَميعاً، فإذَا نَحْنُ بَيْنَ أيدينا برَجُلٍ يُصَلِّي، يكثر الرُّكوعَ والسُّجُودَ، فقال النبيُّ ﷺ:

«أَتُرَاهُ يُرائي؟».

فَقُلْتُ: اللّهُ ورسُـولُه اعْلَمُ، فتـركَ يَدِي من يَـديه، ثم جَمَـعَ بَيْنَ يَدَيْـهِ، فَجَعَـلَ يُصَوِّبُهُما وَيَرْفَعُهُمَا، ويقول:

«عَلَيْكُمْ هَدْياً قَاصِداً، عَلَيْكُمْ هَدْياً قاصِداً، عَلَيْكُمْ هَدْياً قـاصِداً، فَـإنَّهُ مَنْ يُشَادُّ هَذَا الدِّينَ يَغْلِبْهُ».

أي: الْزَمُوا التوسُّط والاعتدالَ في العمل من أعمال الدِّين ولا تَغْلوا.

(٦) وروى أبـو داود عن عبـد الله بن عمـرو بن العـاص، أنـه قـال: قلتُ: «يا رسولَ الله أَخْبِرْني عن الجهاد والغزو» فقال:

«يَا عَبْدَ الله بْنَ عَمْرو، إنْ قَاتَلْتَ صَابِراً مُحْتَسِباً، بَعَثَكَ اللّهُ صَابِراً مُحْتَسِباً، وَإنْ قَاتَلْتَ مُرَائِياً مُكَاثِراً، بَعَثَكَ اللّهُ مُرَائِياً مُكَاثِراً.

يا عَبْدَ اللّهِ بْنَ عَمْرو، عَلَىٰ أيِّ حالٍ قاتَلْتَ أوْ قُتِلْتَ بَعَثَكَ اللّهُ عَلَىٰ تِلْكَ الْحالِ».

(مختصر وشرح وتهذيب سنن أبي داود/ رقم الحديث (٢٤٠٨))

(٧) وروى أبو داود عن أبي موسى الأشعريّ، أنّ أعرابيّاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنَّ الرَّجُلَ يُقاتِلُ للذِّكْرِ، ويُقاتِلُ لِيُحْمَدَ، ويُقاتِلُ لِيَغْنَم، ويُقاتِلُ لِيُرَىٰ مَكانُهُ؟» فقال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللّهِ هِيَ أعْلَىٰ فَهُوَ في سَبِيلِ اللّهِ عَزَّ وجَلَّ».

(٨) وروى ابْنُ ماجَةْ عَنْ أبي سَعِيد بن أبي فَضالَةَ الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا جَمَعَ اللّهُ الأوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فيه، نادَىٰ مُنادٍ: مَنْ كانَ أشْرَكَ في عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلّهِ، فَلْيَطْلُبْ ثوابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ، فإنَّ اللّهَ أغْنَىٰ الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ».

(٩) وروى ابْنُ ماجَةْ عن أبي سَعيدٍ قال: خرجَ عَلَيْنا رَسُولُ اللّهِ ﷺ، ونَحْنُ نَتَذاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجّالَ فقالَ:

«ألا أُخْبِرُكُمْ بِما هُوَ أخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجّالِ؟».

قُلْنا: بلى، فقال:

«الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ لِما يَرَىٰ من نَظَرِ رَجُلٍ».

(١٠) وروى ابْنُ ماجَةْ عن شَدّادِ بْنِ أوْسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«إنَّ أخْوَفَ ما أخافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الإشْراكُ باللّهِ، أما إنّي لَسْتُ أقُولُ: يَعْبُدُونَ شمساً ولا قمراً وَلا وثناً، ولَكِنْ أعْمالاً لِغَيْرِ اللّهِ، وشَهْوَةً خَفِيَّةً».

(١١) وروى التِرمِذِيُّ عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«تَعَوَّذُوا باللّهِ مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ».

قالوا: «يا رَسُولَ الله، وما جُبُّ الْحُزْنِ؟» قال:

«وَادٍ في جَهَنَّمَ تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلَّ يَوْمٍ مائَةَ مَرَّةٍ».

قُلْنا: يا رسول الله، ومَنْ يَدْخُلُه؟ قال:

«الْقُرَّاءُ الْمُرَاءُونَ بأعْمَالِهِمْ».

(قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب)

(١٢) وروى الترمذيّ عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ حدَّثَهُ:

«أنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَنْزِلُ إِلَىٰ العِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ.

فأوَّلُ مَنْ يَدْعُو به رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قَتِيلٌ في سَبِيلِ الله، ورَجُلٌ كَثِيرُ المال.

فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقارِىءِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَىٰ رَسُولي؟ قال: بلىٰ يا رَبّ، قال: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهار، فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ، وتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، ويقولُ الله: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إنَّ فُلَاناً قارِىءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.

وَيُؤْتَىٰ بِصَاحِبِ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ له: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ، حَتَّىٰ لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَىٰ أَحَدٍ؟ قالَ: بَلَىٰ يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قال: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ، وأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ له: كَذَبْتَ، وتَقُولُ له الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ. ويَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذاك.

وَيُؤْتَىٰ بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فِيمَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتَ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّىٰ قُتِلْتُ. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وتَقُولُ له الملائِكَةُ: كَذَبْتَ. ويَقُولُ اللَّهُ لَهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ».

ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَىٰ رُكْبَتِي، فقال:

«يَا أَبَا هُرَيْرَة أُولَٰئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسْعَرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

* * *

المراءاةُ هي في الأصل
من صفات الكافِرينَ والمنافقين

لمّا كانت المراءاة هي في الأصل من صفات الكافرين والمنافقين، وجدنا النصوص القرآنية جعلت مُراءاةَ الناس بأعْمال الخير التي ترضيهم من صفات هؤلاء.

(١) ففي سورة (الماعون/ ١٠٧ مصحف/ ١٧ نزول) وصف الله الّذين يكذّبون بالدّين بأنّهم يراءُون ويمنعون الماعون، فقال تعالى فيها بشأنهم:

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

(٢) وفي سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وصف الله الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر بأنّه يُنْفِقُ مَالَهُ إذا أنفقه رِئاءَ النّاس فقال تعالى فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ... ۝٢٦٤﴾.

(٣) وفي سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) وصف الله المشركين الّذين خرجوا من مكة إلى معركة بَدْر بأنّهم خرجوا بطراً ورِئاء الناس، فقال تعالى فيها خطاباً للذين آمَنوا:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝٤٧﴾.

(٤) وفي سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) وصَفَ الله الكافرينَ الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر بأنّهم إذا أنفقُوا أمْوالَهُمْ فإنّهم ينفقونها رِئاءَ النّاس، فقال تعالَى فيها:

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ۝٣٨﴾.

(٥) وفي سورة (النساء) أيضاً وَصَفَ الله عزّ وجلّ المنافقين بأنّهم يُراءُونَ النّاسَ

في أعمالهم ذاتِ المظهر الإسلاميّ، فقال تعالى فيها:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾.

وما هو من صفات الكافرين والمنافقين أساساً في السُّلوك القوليّ والعمليّ، قد يكون من صفات المؤمنين المسلمين على سبيل المعاصي غير المكفِّرة، أو المقاصد المحبطَة للعمل عند الله عزّ وجلّ، بمعنى إبطال كونه عملاً صالحاً يُثِيبُ اللَّهُ عليه يوم الدين.

* * *

(٣)
نِفَاقُ الجاسُوسيّة

الجاسوسيَّةُ الّتي تعمل لصالح منظماتٍ شعبيّة أو حكوميّة في حدود دولة معيّنة، أو على مستوىً عالميّ يشمل الدُّوَلَ والشعوب، ذاتُ أُسْلوبٍ من النفاق شديدِ المكر، خفيّ الوسائل، ذي نِظَامٍ وترتيباتٍ غايَةٍ في التدبير الشيطاني المحكَم، قائم على دِراسَاتٍ نَفْسِيَّةٍ واسعات، وخُطَطٍ مَدْرُوسة، وتجاربَ طويلة، وتَدْرِيباتٍ مُضْنِياتٍ تُكْسِبُ الْجَاسُوسَ مَهَاراتٍ فائقاتٍ، يسْتطيعُ بها نَقْلَ معلومات للّذِينَ ينافق من أجلهم، ويَعْمَلُ لصالحهم، قد تَبْلُغُ قيمةُ الخَبرِ الواحِدِ منْها القناطيرَ المقنطرة مِنَ الذَّهبِ وَنَفيسِ الجواهر الكريمة.

وقد تتحقّق بالجاسوسيّة فائدةٌ لمستخدم الجاسوسِ المنافق أكْثرَ ممّا تحقّقه حرْبٌ يُضَحَّىٰ فيها بعشرات الألوفِ من الجيش المحارب.

وقد يُدَمِّرُ جاسُوسٌ واحدٌ أُمَّةً كاملةً، وَقَدْ يكُونُ سَبَباً في إسقاط عَرْشِ مُلْكٍ قَوِيِّ الأرْكان، مَتِين البنيان، وفي إسقاطِ دولة عُظْمَىٰ وإمبراطوريّةٍ ذاتِ قُوىً تُرْهِبُ الْعَالَم.

وتُنْفِقُ الدُّول العظمى على الجاسوسية إنفاقات تَصِلُ إلى مِثْلِ ميزانيّة جَيْشٍ

بِمُعَدَّاتِه، وتُسَمّي منافقيها من الجواسيس، والعاملين في خدمتها في الخفاء، أسماء مختلفة، مثل: المخابرات، الجيش السّرّي، البوليس السرّي، إلى غير ذلك من أسماء تمويهيّة، وهي جميعاً تعني الذين يعملون في الخفاء، ويلبَسُونَ مختلف الأقنعة المزوّرة النفاقيّة من رجالٍ ونساء، مهمتهم دواماً أن يكذبوا ويُظْهِرُوا خلافَ ما يُبْطِنُون، ويخادعوا من يتعاملون معه، لاصطياده وإيقاعه في شركهم، واستجراره إلى حبائلهم، أو لسرقة معلومات منه تفيد الجهة الّتي يعملون لها، وتضرّ الجهة التي يحاربونها حرباً سرّيّة باردة أو ساخنة.

والمنافقون من الجواسيس قَدْ يَصِلُون من البراعة وإتقان عمليّة النفاق إلَىٰ أن يُنَافِقُوا عدّة جهاتٍ متعارضة متعادية، ويظهروا لكُلِّ جِهَةٍ بأنّهم منهم، ويعملون في خدمةِ مصالحهم ضدّ الجهات الأخرى التي يعملون أيضاً في خدمتها.

فبعض الجواسيس قد يكونُ مزدوج الجاسوسية، وبعضُهم قد يكون مثلَّث الجاسوسية، وبعضهم قد يكون مربّعها، أو مخمّسَها، وكلّما كان أكثر ذكاءً ودهاءً وَقُدْرَةً على إخفاءِ هُوِيَّتِهِ، وخبثاً في طويّةِ نفْسِهِ، كان أقْدَر علَىٰ أنْ يُوزِّعَ نفاقه على جهات أكثر، مع تعادي هذه الجهات تعادياً قد يَصِلُ إلى مستوى الحرب الباردة أو الساخنة بينها.

إنّ الجيوش تُحَارِبُ بعضَها بعْضاً من مواقع حذر كلٍّ منها من عدُوِّه، أمّا الجواسيس المنافقون فيحاربون من مواقع الأمن، وهي المواقع التي لا رقابة فيها، وليس فيها تحصينات تدفع مكايد العدُوّ المخالط الْمُدَاخِل.

إنّ الجاسوس المنافق هو كاللّصّ المجهول الْمُسَاكِنِ في الدّار الّذي تَصْعُبُ مراقبته.

من أجل ذلك كانت عقوبة المنافق أشدّ من عقوبة الكافر المعادي المستعلن بعدواته.

ومن أجل ذلك كانت منزلة المنافق في الدرك الأسفل من النار.

* * *

(٤)
النفاق في السياسة والإدارة والحكم

تواضع معظم السياسيِّين في العالم، على أنّ السّياسيّ البارع ينبغي أنْ يكون كذّاباً مخادعاً مراوغاً منافقاً مرائياً غدّاراً وخائناً، ينقض العهد ولا يفي بالوعد، يُظْهِرُ دَواماً خلاف ما يُبْطن، وأنْ يكون مُجْرماً قتّالاً لا رحمة في قلْبِهِ ضدَّ خصومه ومنافسيه، مع التظاهر بأنّه من أكثر الناس رحمةً وشفقةً ورِقَّةَ قلْب، ومن أكثر الناس رغبَةً في تحقيق العدل ورفْعِ الظلم وخدمةِ الضعفاء والمساكين، وأكثر الناس صِدْقاً وصراحة وأمانة، وإذا كان في مجتمع متمسّك بالدّين فعليه أن يتظاهر بالتديُّن، والحرص على تطبيق التعاليم الدينيّة، دون أن يهتَمّ بتطبيق شيءٍ ممّا يتظاهر به، ما لم يكن له مصلحةٌ في ذلك، تخدُمُ سلطانه واحتفاظه به. وأنْ يكون في واقع حاله لا همّ له إلاّ تثبيت حكمه بأيّة وسيلةٍ مهما كانت غير أخلاقيّة، ففي سبيل تثبيت أركان سلطانه يجب أن لا يكون للأخلاق الفاضلة اعتبار لديه مطلقاً، وإلاّ انهارت قواعد حكمه وفقد سلطانه.

وجاء الإيطالي «نيقولا مكيافيلّي ١٤٦٩ ـ ١٥٢٧م» فجعل النفاق السياسيّ أمراً ضرورياً لمن يتولّى الحكم والسلطان والإمارة، وزعم أنّ الإمارات لا تُنالُ ولا يُحْتَفَظُ بها ما لم تكن قائمة على قاعدة: «الغاية تبرِّر الوسيلة» أي: غاية الوصول إلى سلطة الحكم والاحتفاظ بها تُبرِّر أيّة وسيلة مهما كانت غير أخلاقيّة، ومهما كانت منافية لتعاليم الدين.

وذكر «ميكيافيلّي» أن تاريخ الإمارات في الأرض شاهدٌ على ذلك، فأكثر طلّاب الإمارة قدرةً على الوصول إليها والاحتفاظ بها، أقدرهم على استخدام الرّياء والنفاق وإتقان وسائلهما، وزعم أنّ الحاكم يُعَرِّض نفسه للهلاك إذا كان سلوكه متقيّداً دائماً بالأخلاق الفاضلة، لذلك يجب أن يكون ماكراً مكر الذئب، ضارياً ضراوة الأسد.

وذكر أنّ الأمير ينبغي أن يحافظ على العهد حين يعود ذلك عليه بالفائدة فقط، أمّا إذا كانت المحافظة على العهد لا تعود عليه بالفائدة فيجب عليه حينئذ أن يكون غدّاراً.

وقال: «بيد أنه من الضروري أن يكون الأمير قادراً على إخفاء هذه الشخصيّة، وأنْ يكون دعيّاً كبيراً، ومُرائياً عظيماً، والناسُ يَضِلُّونَ في السّذاجة، وفي الاستعداد

للخضوع للضراوات الحاضرة، إلى الحدّ الذي يجعل ذلك الذي يخدع يجدُ دائماً أولئك الذين يتركون أنفسهم ينخدعون.

وسَأنوّهُ فقط بمثَلٍ حديثٍ واحد، فالإسْكَنْدَرُ السادس لم يَفْعَلْ شيئاً إلاّ أن يخدع الناس، ولم يخطر بباله أن يفعل شيئاً آخر، ووجَدَ الفرصة لذلك، ولم يكن من هو أقدر منه على إعطاء التأكيدات، وتوثيق الأشياءِ بأغْلَظِ الأيمان، ولم يكن أحَدٌ يَرْعَىٰ ذَلِكَ أقلَّ منه، ومع ذلك فقد نجح في خُدْعاته، إذْ كان يعرفُ هذه الأمور معرفةً طيّبة».

واستنتج «مكيافيلّي» من هذا أنّه لا يلزم الأمير أن يكون متحلياً بفضائل الأخلاق المتعارف عليها، ولكن يجب عليه أن يتظاهر بأنّه يتّصف بها، وينبغي له أن يَبْدُوَ فَوْقَ كلِّ شيءٍ متديّناً[1].

وسارَ السياسيّون وطلاب الحكم والسلطان وفق مذهب «مكيافيلّي» مرائين منافقين باستثناء المتقين الذين يخشون الله من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وهؤلاء قليلون في التاريخ الإنساني.

* * *

(٥)
النّفاق في التعامل المالي

الأصل في التعامل الماليّ أن يكون قائماً على الصّدْقِ والأمانةِ والصراحة والعدل والإنصاف والنصيحة، بعيداً عن الغشّ والخيانة والكذب والغبن الفاحش، حتّىٰ لا يكون وسيلةً لأكْلِ أموال الناس بالباطل.

هذا ما أمر الله به في كلّ ما أنزل على رُسُلِه، وهذا الأصْلُ من قواعد التعامل الماليّ موضّحٌ ومشروحٌ في التعاليم الإسلاميّةِ أوْفَىٰ شَرْحٍ، وأحكامُهُ مفصَّلَةٌ فيه أوْفَىٰ تفصيل.

---

(١) اقرأ مذهب «ميكيافيلّي» وكشف زيف مذهبه في كتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» للمؤلف.

وهو ما تدعو إليه فضائل الأخلاق، ومبادىء الحقوق الإنسانية، وإلاّ كان التعامل المالِيُّ وسيلة من وسائل ظلم الناس للناس، وتلاعب الشياطين أرباب الْحِيَلِ على أهل الغفلات، والبرءاء الذين ينخدعون بظواهر أحوال المرائين المنافقين، ولا يَكْتَشِفُون ما يُخْفُون وراء هذه الظواهر من أخلاق السُّطُو على حقوق الآخرين بالمكر والكيد والحيلة.

ويُلاحظُ أنّ كثيراً من الناس لا يخشون الله وعذابه ونقمته العاجلة والآجلة، فيحتالون في أبواب التعامل المالي، حتَّىٰ يأكُلُوا أموال النّاس بالباطل، مستغلّين للوصول إلى الثراء الفاحِش جُهود غيرهم من أهل الكدّ والعمل.

وأكْثَرُ الّذِين يجمعون الأموال الطائلة إنما يجمعونها عن طريق أكل أموال الناس بالباطل، ويحتالون لتَحْصِيلها بحِيَلٍ كثيرةٍ يُمْكِنُ إدْخَالُ معظمها تحت عنوان النفاق والرياء، وذلك لأنّ عمدتهم فيها الكذب والغش وخيانة الأمانة والمخادعة، وإظهارُ ما يغُرُّ ويَسُرُّ، وإخفاء ما يُنفِّرُ ويَضُرُّ، وادّعاء الربح المعتدل أو عدم الربح أو الخسارة، كذباً وزوراً، مع حَلِفِ الأيمانِ المغلّظة، وتقديم الوثائق المزوّرة، وكلُّ هذه الخصال هي من خصال المرائين والمنافقين.

ومن الناس من يتظاهر بالأمانة والتقوىٰ وخشية الله، ليأمَنَهُ الناس على أموالهم في الودائع، أو في المشاركات، فإذا سَقَطُوا في حبائله جَحَد حقوقهم، أو خان الأمانة وهم لا يشعرون، فأكَلَ أموالهم أو بعضَها ظُلْماً وعُدْواناً، واتَّخذ لذلك ذرائع مختلفة، يُوهِمُ بها أنّه لم يكن خائناً ولا جانياً، وأنه شديد الورع بالنسبة إلى حقوق الآخرين، فهو لا يأخذ مال غيره بغير حقّ، ولا يُدْخِلُ علَىٰ نفسه مالاً حراماً، ولا مالاً فيه شبهة.

وكثيرٌ من التُّجّار والصنّاع والعمّال والموظفين يُظْهِرُونَ خلافَ ما هم عليه، ويلْبَسُونَ أثوابَ زور، ليسْتُرُوا بها أعمالاً كثيرةً يأكُلُون فيها أموال الناس أو أموال الدولة بالباطل.

ومن حيلهم الغشّ، والتلاعب بالأسعار، وافتراء الوثائق المزوّرة، وحلف الأيمان الكاذبة، وتبديل المتفق عليه بغيره ممّا هو أقلّ من المتّفق عليه قيمة، وسرقة وقت العمل المأجور للقيام بأعمال خاصة تجرّ لِسَارِقِ الوقت مكسباً ماليّاً أو منفعةً خاصة،

وربّما يَتَذَرَّعُ سارقُ وقتِ الْعَمَلِ بأنّه يُعِدُّ نَفْسَهُ للصلاة، أو نحو ذلك من العبادات.

ومن يتابع قضايا الخلافات المالية الَّتِي تُعْرَضُ على قُضاةِ محاكم العدل، يكتشف آلافاً من حِيَلِ النفاق، الَّتِي اسْتَخْدَمَهَا آكِلُو أموال الناس بالباطل، ليتوصَّلُوا بها إلى سَلْبِ الناس أموالهم.

* * *

(٦)
النفاق بتقديم الخدمات والمساعدات الإنسانية

يلبس المبشّرون بالنصرانية، والمستشرقون، والمستعمرون، والشيوعيون، وسائر أعداء الإسلام والمسلمين أقنعة المساعدات والخدمات الإنسانيّة رياءً ونفاقاً لتحقيق أغراضهم الخاصّة داخل شعوب الأمّة الإسلامية.

* فمنهم مدفوعون بدافع العداء للإسلام والمسلمين، وغرضهم هدم الإسلام، وإبعاد المسلمين عنه، وجعلهم يكفرون به، ليكونوا تابعين لهم في عقائدهم ومذاهبهم، ومنفذين لمآربهم الخاصة في أنفسهم.

* ومنهم مدفوعون بدافع الطمع باستغلال الشعوب المسلمة، ونَهْب ثرواتها، فيُظْهِرُون لهم المودّة، والرغبة في أن يساعدوهم مُسَاعداتٍ إنسانيّة علميّة أو طبيّة أو مالية أو عسكرية أو صناعيّة أو زراعيّة أو نحو ذلك.

ثم تكون مساعداتهم ذات المظهر الإنساني للشعوب المسلمة بمثابة من يقدّم الطُّعْمَ الطيِّبَ للسّمك في البحر على شوكة حادّة ليصطاد به السّمك، فيتاجر به أو يأكله.

كم أسّس المبشرون من مدارس ومعاهد، وكم أسّس المستشرقون من جامعات، تحت ستار المساعدات التعليميّة الإنسانية، وكان هدفهم تنصير المسلمين، وتطويع الأجيال الناشئة من أبنائهم لِيَقْبَلُوا أن نستعمرهم الدول النصرانيّة التي تنتمي إليها هذه المدارس التبشيرية، والجامعات التبشيريّة والاستشراقية.

وكذلك فعل مؤسسو المدارس العلمانية الموجهة من قبل الدوائر الاستعمارية.

وكم من إرساليات طبيّة تبشيريّة وفدت إلى بلاد المسلمين، فأسّستْ مستوصفات ومستشفيات لطبابة المرضىٰ من المسلمين، وكان هدفهم تنصير المسلمين، أو إخراجَهُمْ من الإيمان بالله إلى الكفر به، وانتزاع مكارم الأخلاق منهم، وتدمير مجتمعاتهم، وتطويع نفوسهم لقبول استعمار الدول النصرانيّة لهم.

وكم قدّمت الدول النصرانية أو العلمانية مساعدات مالية على سبيل قروض بفوائد، وقد تكون مغلّفة بعطاءات على سبيل مساعدات إنسانية، والغرض منها إحكام سيطرتها على البلاد والدول التي قدّمتْ لها هذه القروض والمساعدات، باستعمار مباشر أو غير مباشر.

ومن ذلك أيضاً تقديم المساعدات العسكريّة، وإتْبَاعُهَا بإثارة حروب إقليميّة، أو فتنٍ داخليّة تتحوّل إلى حروب أهلية، تُدَمِّر البلاد، وتهلك الناس، وتستهلك الثروات، وتُمزِّقُ الأمّةَ إلى فِرَقٍ وأحزاب متعادية يَحْقِدُ بَعْضُها على بعض، فتَبْتَعِدُ بذلك عن مواكبة الارتقاء العلمي والحضاري في مجالات القوىٰ الماديّة والصناعيّة والاقتصادية المختلفة.

ومن ذلك تقديم المساعدات الإداريّة، بإرسال مستشارين إداريين، وتقديم المساعدات السياسية، بإرسال مستشارين سياسيِّين، وتقديم المساعدات القانونية، بإرسال مستشارين قانونيين، والغرض من كلّ ذلك تحويل بلاد المسلمين عن شرائع الإسلام وأحكامه في هذه المجالات، وتطبيق الأنظمة العلمانية المنافية في أسسها وتطبيقاتها لما جاء في دين الله للناس.

ونظير ذلك المساعدات الصناعية والزراعية التي تأتي باسم مساعدات إنسانية، إلّا أنها جميعاً أقنعة تخفي تحتها أغراضاً ومصالح شخصيّةً للمنصّرين، أو المكفّرين، أو المستعمرين.

* * *

(٧)
النفاق الاجتماعي بين الأفراد

ليس من النفاق الاجتماعيّ المداراةُ، والمجاملةُ، والإكرام وحُسْنُ المقابلة،

وبشاشةُ الوجه، وأنـواعُ العطاء المختلفـة، والعفو والصفـح والمسامحـةُ والتغاضي عن السيِّئـات، في التعامـل مع المخـالفين أو الخصوم أو الأعـداء الكافـرين، بغيـة تـأليف قلوبهم لاعتقـاد مبادىء دين الله الحقّ، ثم العمـل بشرائعـه وأحكامـه، وإزاحـة مـا في نفـوسهم من عقبات صـادّة، تحجبهم عن إدراك الحقّ، والاستجابـة لدعـوته. أو بغيـة استجلاب مرتكبـي المعاصي إلى طاعة الله عزّ وجـلّ والعمل بمـراضيه، وإنقـاذِهم من عذاب الله ونقمته، أو بغيةَ تأليف قلوب الأعداء أو الحاقدين أو الحاسدين، لنزع مـا في صدورهم من غلٍّ وحقدٍ وحَسَدٍ وعـداوة، وبذْرِ بـزور المودّة والمحبّـة والأخوَّة الصـادقة الصافية فيها، حتى تَشُدُّهم روابط الإخاء، فيستعذبوا الولاء والصفاء، بعد أن استحكم فيهم داء العداء.

بل هذه الأعمال الحكيمة الرشيدة هي من الفضائل العظمىٰ، ومن مكارم الشِّيَم ومحاسنِ الأخلاق، وكَمَالاتِ التعامل الاجتماعيِّ الأمثل، لأنّ الغرض منها مصلحةُ من يؤلِّفُ قلبُه، وابتغاءُ مرضاة اللّه فيه، وليس للشيطان فيها حظٌّ ما، من جهة كونها وسائل هداية وإصلاحٍ وجَلْبِ خيرٍ لِمَنْ تُوَجَّهُ له، ويُعَامَلُ بها.

إنّما النفاق الاجتمـاعي ما كـان من ذلكَ وسيلةً لإخـراج المؤمِنِ من الإيمان إلى الكفر، ومن الإسلام والطاعة إلى المعصية والفجور، ومن منـاصرة الحقّ والخيـر، إلى منـاصرة البـاطل والشـرّ. ومَا كـان من ذلك أيضـاً وسيلة لاستدراج الإنسـان حتّى يغتـرّ ويستسلم فيقع في مصيدة المنافق، وعندئذٍ يستغله لمصلحته، ويحقّق منـافعه أو هـواه منـه أوعن طريقـه، أو يسلُبُه مـا يَمْلِكُ من مالٍ أو جـاهٍ أو سلطان أو زوجـة أو مسكن، أو يوقعه في مهلكةٍ ما حسداً وبغياً وظلماً.

* * *

أمـثـلـة

* فمن أمثلة النفاق الاجتماعيّ التظاهر بالأمانـة التامّـة من مستوى الـورع الذي لا يتورَّعُهُ إلاّ الصِّدِّيقون، ليغترّ صاحب المال فيُسَلِّمَ مالَهُ في قرضٍ حسن، أو مشاركة في عمل ما، أو نحو ذلك، حتّىٰ إذا تمكّن المنافق من الظفر بما يُرِيدُ ممَّنْ نَافَقَهُ، قَلَبَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ، وتغيّر عَمَّا كان عليه من ورع وأمانـة، فجحَدَ المـالَ، وابْتَلَعَ ما كـانت قد

وَصَلَتْ يَدُهُ إليه، وظهر على حقيقته باغياً ظَالِماً مُجْرِماً، ولِصًّا خائِناً.

* ومن أمثلة النفاق الاجتماعي تظاهر أَحَدِ الْخَاطِبَيْن أو كليهما بالحبّ والعطاء والتفاني في الخدمةِ وحُسْنِ المعاشرة، والتزام الأدب والحشمة ومكارم الأخلاق، والجود والتسامح والصفح والمعونة، للتغرير والظَّفَرِ بإتْمام عقْدِ الزواج، حتَّى إذا تمكَّنَ المخادع منهما من تحقيق ما أراد من صاحبه ظهر على حقيقته، وانكشف أنّ كُلَّ ما كان قد تظاهر به لم يكُنْ إلاّ رياءً ونفاقاً ومخادعة وكذباً وزوراً، وشبكة وضعها ليصطاد بها ما كان يطمع في الحصول عليه، والظفر به لدى من نافَقَ له وخادعه.

ولمّا ظفر بما أراد سقط القناع، وظهرت من ورائه نفس الذئب الماكر الخدّاع، فتنكر لكلّ ما كان يتظاهر به، وساء خلقه، وساءت معاملته، واستشرى طمعه وجشعه.

• • •

الفصل الخامس

مُلَخَّصُ صِفَاتِ المُنَافِقِينَ النَّفْسِيَّةِ وَآثَارُهَا فِي سُلُوكِهِمُ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ اقْتِبَاساً مِنَ النُّصُوصِ القُرْآنِيَّةِ الآتِي تَدَبُّرُهَا فِي القِسْمِ الثَّانِي

(١)
مقدمة

النصوص القرآنية الآتي تدبُّرها إن شاء الله في القسم الثاني من هذا الكتاب، والبالغة (٣٤) نصّاً من (١٦) سورة قد اشتملت على جَمّ غفير من صفات المنافقين النفسيّة، وآثارها في صفاتهم السلوكيّة الباطنة والظاهرة، وقد بلغ إحصاؤها بعد استخراجها من دلالات النصوص (١١٤) صفة نفسيّة وصفة سلوكية، في السلوك الباطن والظاهر، وما جاء مكرّراً منها قد ذكرته النصوص اللّاحقة للدلالة أنّ معالجتهم بوسائل التربية المختلفة الإقناعية والترغيبيّة والترهيبيّة والفاضحة والمنذرة بتعريتهم ومحاسبتهم ومعاقبتهم بيد الرسول وأيدي المؤمنين، من دون العذاب الأكبر الذي سيُعَذَّبونه يوم الدّين، لَمْ تَكُنْ ذات جدوى بالنسبة إلى بعضهم، الذين ما زالوا على قبائحهم الّتي كانوا عليها منذ مردوا على النفاق.

ويحسُن بنا أن نستعرض هذه الصفات في فصل خاصّ قبل دراسة النصوص المشار إليها دراسةً تدبُّريّة، وضمّ هذا الفصل إلى فصول القسم الأوّل من هذا الكتاب، المشتمل على مقدّمة وتعريفات عامّة.

فبيان صفات المنافقين من القضايا التي تدخل تحت عنوان التعريفات العامّة.

وقد سبق بيان صفات المنافقين الواردة في بيانات الرسول ﷺ، لدى شرح النفاق

الأصغر، وهي كما يلي جمعاً من عدّة أحاديث وردت في صفاتهم:

١ ـ الكذب في القول والعمل.

٢ ـ إخلاف الوعد.

٣ ـ الغدر بنقض العهد.

٤ ـ خيانة الأمانة.

٥ ـ الفجور في المخاصمة.

٦ ـ تحيّتهم لعنة.

٧ ـ طعامهم نَهْمَة (أي: يتناولون الطعام بشهوة مفرطة).

٨ ـ غنيمتهم غلول.

٩ ـ لا يدخلون المساجد إلّا قليلاً.

١٠ ـ لا يأتون الصلاة إلّا دُبُراً.

١١ ـ الاستكبار.

١٢ ـ لا يألفون ولا يُؤلَفُون.

١٣ ـ خُشُبٌ باللّيل، أي: كالخُشُب لا يذكرون الله.

١٤ ـ سُخُبٌ بالنّهار، أي: يُكثرون الصياح والضجيج من أجل دنياهم.

١٥ ـ يتهرّبون من شهود صلاتي العشاء والفجر.

١٦ ـ عُصاةٌ لله ورسوله.

١٧ ـ جبناء عند لقاء الأعداء في الحرب.

* * *

(٢)

ملخّص صفات المنافقين المقتبسة من النصوص القرآنية

أخذاً من النص (١) من سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول)

الآيتان (١٠ ـ ١١)

الصفة (١):

من صفات بعض الذين أسلموا دون أن يتمكّن الإيمان في قلوبهم أنّهم إذا تعرضوا لأذى على أيدي الكافرين من أجل إسلامهم أعطوهم من بواطنهم ما يريدون،

وساروا معهم في الكفر، وربّما استَبْقَوْا ظـاهر انتمـائهم إلى الإسلام نفـاقاً لئلاّ يُدانـوا بالردّة عن الإسلام.

* * *

أخذاً من النص (٢) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول)
الآيات من (٨ ـ ٢٠)

الصفـة (٢):
من صفات المنافقين أنّهم كذّابون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فيقـولون آمنّـا بالله واليـوم الآخر ومـا هم بمؤمنين، إذْ قلوبهم منكرة جـاحدة، فهم يكـذبون عن تعَمُّدٍ وإصرارٍ في أخطر قضيّةٍ من قضايا الوجود والحياة، هي قضيّة الدين.

الصفـة (٣):
أنهم مخـادعون، فهم فيمـا يتظاهـرون به من قـول أو عمل يقصـدون مخـادعـة المؤمنين، ليأمنوا جانبهم وليأمنوا جانب أعدائهم الكافرين، وليظفروا بالمغانم والمنافع من كلا الفريقين بحسب تصوّرهم.

الصفـة (٤):
أنّهم مصابون بمرض خلُقيٍّ في قلوبهم، وهو ليس من أصل فطرتهم، لكنّه من مكتسباتِ إراداتهم فهو مرض مكتسب، وبسببه سلكوا مسلك النفاق.

الصفـة (٥):
أنهم يُفْسِـدون في الأرض بأقـوالهم وأعمـالهم، فـإذا قيـل لهم: لا تُفْسِـدوا في الأرْض بَهَتُـوا الحقيقة بكـلّ وقاحـة، وجعلوا الباطـل حقّاً والحقّ بـاطـلاً، دونمـا حيـاءٍ ولا تلجلج وقالوا: إنّما نحن مصلحون، وأخـذوا يدّعـون بأن سلوكهم المنـافق المفسد هو من الأعمال الإصلاحية.

الصفـة (٦):
أنّهم يدعون لأنفسهم الذكاء ورجاحة العقل والحكمة في تدبير الأمور، ويتّهمون المؤمنين بالسفاهة، أي: بنقص العقل وبـأنهم محرومـون من الحكمة والفـطنة وحسن تدبير الأمور وتفهُّم غاياتها.

والحقيقة أنّ المنافقين هم السفهاء ولكن لا يعلمون، لأنّ أهـواءهم طمست على بصائرهم.

الصفـة (٧):

أنّ لهم أكثـر من وجه، وأدنـاها وجهـان، لهم وجه يستعلنـون به إذا لقـوا الذين آمنـوا، ولهم وجه آخـر يتوارون به ولا يُظْهِرُونه إلاّ إلى شيـاطينهم، أي: إلى إخـوانهم الكافرين أمثالهم، أو إلى الموسوسين لهم بأن يسلكوا مَسْلَك النفاق من شياطين الإنس كاليهود، ويُعلّلون لإخـوانهم هذا التلوُّنَ بـأنهم يستهزئـون بالمؤمنين، أي: يستغفلونهم ويخدعونهم ويغرّرون بهم ويترصَّدُون غِرّاتهم للإيقاع بهم، أو التخلّي عنهم في أوقات الشدائد.

الصفـة (٨):

أن المنافقين صنفان:

الأول: صنف مـردوا على النفاق، فهم صُمٌّ بكم عُمْي، لـذلك فهم لا يـرجعون إلى الحقّ ولا إلى طريق الهدى.

الثاني: صنف ما زال مـذبذبـاً بين الإيمان والكفـر، لكنّه إلى الثبـات في موقـع الكفر أقرب.

* * *

أخذاً من النص (٣) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً
الآيات من (٧٥ ــ ٨٢)

الصفـة (٩):

أنّ المنافقين من اليهود يغلب في شأنهم أنّ احتمال صدق إيمانهم مستقبـلاً يكاد يكون ميؤوساً منه، لعدّة عوامل نفسيّة قائمة لدى المجتمع اليهودي فصّلها النصّ.

* * *

أخذاً من النصّ (٤) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً
الآيات من (١٤٢ ــ ١٤٥)

الصفـة (١٠):

إثارة الشبهات والتشكيكات حول شرائع الإسلام وأحكامه ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

دلّ على هذه الصفة موقف المنافقين من قضيّة تحويل القبلة إلى الكعبة المشرّفة، بعد أن كان بيت المقدس هو القبلة التي يتوجهون لها في الصلاة.

* * *

أخذاً من النص (٥) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً
الآيات من (٢٠٤ ــ ٢٠٧)

الصفة (١١):
من المنافقين فريق يُعجِبُ قولُه في الحياة الدنيا من يلاقيه، ويدّعي أنّ قلبه ينطوي على الخير وحبّ الخير وابتغاء الخير، ويُشهِد الله بالأيمان على ما يدّعي أنّه في قلبه، وهو في الحقيقة من أكثر الناس مجادلةً بالباطل، وانحرافاً عن الحقّ.

فإذا تولّى عن مجلس محدّثه أو تسلّم سلطة ولاية سعىٰ في الأرض ليُفْسِد فيها ويُهْلك الحرث والنّسل، وإذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة التي هو فيها مكبَّلاً بسلاسل الإثم، فابتعد عن تقوى الله، وسارت به حتى أوصلته إلى أودية الجرائم العظيمة وأنواع البغي والطغيان.

* * *

أخذاً من النص (٦) من سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول)
الآيات من (٤٩ ــ ٥٥)

الصفة (١٢):
أن يقول المنافقون إذا تعرّض المؤمنون بسبب دوافع إيمانهم لمَا يُظَنُّ معه الهلاك أو الخيبة، كتورّطهم في معركة هم فيها دون عدُوّهم عدداً وعُدّةً: غَرَّ هؤلاء دينُهم.

أي: خدعهم وأطمعهم بالباطل دينهم، فاندفعوا بسفاهة وقلّة عقلٍ اعتماداً على معونات غيبيّةٍ تأتيهم يتخيّلونها دون أن يكون لها في الواقع وجود.

والسبب في إطلاقهم هذه المقالة أنّهم غير مؤمنين، أو في قلوبهم مرض الشكّ والتردّد حول صدق ما جاء في الإسلام.

* * *

أخذاً من النص (٧) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول)
الآيات من (٦٩ ــ ٧٤)

الصفة (١٣):

من صفات المنافقين خطّة الدخول في الإسلام نفاقاً، ثم الارتداد عنه، إغراءً لغيرهم بالرّدّة، وقد بدأ هذه المكيدة طائفة من اليهود.

* * *

أخذاً من النص (٨) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً
الآيات من (١١٨ ــ ١٢٠)

الصفة (١٤):

من صفات المنافقين أنّهم إذا تمكنوا من أن يكونوا بطانة لقادة المؤمنين، لم يقصّروا في أعمال إفساد أحوال المؤمنين، وتوهين قواهم، وتمزيق صفوفهم، ومؤازرة أعدائهم ضدّهم، حتّى استئصال شأفتهم.

الصفة (١٥):

أنّهم يتمنّون أن ينزل بالمؤمنين كلّ بلاء وعنتٍ ومشقة وضرر، وهذا يدفعهم إلى اتخاذ الوسائل لتحقيق ما يتمنّون، وإلى تدبير المكايد ضدّهم.

الصفة (١٦):

أنّ أمارات بغضهم الشديد للمؤمنين تظهر فعلاً من أقوالهم وفلتات ألسنتهم، رغم شدّة حرصهم على إخفاء هوّيتهم.

الصفة (١٧):

أنّ منافقي اليهود هم أخطر المنافقين وأخبثهم وموجّهوهم، مع أن المفروض أن يكونوا بخلاف ذلك.

الصفة (١٨):
إنْ تمسّ المؤمنين حسنةٌ تَسُؤ المنافقين، وإنْ تُصِبِ المؤمنين مصيبةٌ بفَرِح المنافقون بها.

* * *

أخذاً من النص (٩) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً الآيات من (١٥٢ ــ ١٥٨)

الصفة (١٩):
إذا تحولت رياح النصر عن المؤمنين حين يكونون معهم في المعركة نزل بالمنافقين الهمّ والغمّ والخوف الشديد. واستولت عليهم الظنون التي هي من ظنون الجاهلية، وانطلقت ألسنتهم بالتلويم، مثل قولهم في معركة أُحُد: لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا هٰهنا.

وحين لا يكونون مع المؤمنين في المعركة انطلقت ألسنتهم بما يكشف كفرهم في الباطن، مثل قول المتخلّفين عن غزوة أُحُد والمنخذلين عن الرسول بشأن الذين قُتلوا فيها من إخوانهم: لَوْ كَانُوا عِنْدنا مَا مَاتُوا وما قُتِلُوا.

* * *

أخذاً من النص (١٠) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً الآيات من (١٦٥ ــ ١٦٨)

الصفة (٢٠):
تخلّف المنافقين عن مشاركة المؤمنين في قتال أعدائهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وتعلُّلهم بمعاذير كواذب، كقولهم في غزوة أُحُدٍ للمؤمنين:

﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾.

جواباً على دعوتهم لهم بقولهم:

﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾.

وكقول المنافقين بعد غزوة أُحُدٍ بشأن من قُتِلَ من إخوانهم فيها:

﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾.

الصفة (٢١):

حينما يقدّمون المعاذير الكواذب الّتي يظنّون أنّها ذاتُ قُوّةٍ يَمْلَؤُون بها أفواههم مُتَشدِّقين، كأنّهم أصحاب حقٍّ.

وهذا تابع في الحقيقة لصفة الفجور في الخصومة التي هي من أصول صفات المنافقين.

* * *

أخذاً من النص (١١) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً الآيات من (١٧٦ ـ ١٧٩)

الصفة (٢٢):

إنّ الذين يبدؤون خطوات النفاق، يسارعون في الكفر حين توجّه لهم امتحانات صعبة، كالقتال في سبيل الله، أو المصائب الشديدة في الأموال والأنفس، لأنّ الشيطان يستحوذ عليهم بوساوسه وتسويلاته حينئذٍ.

* * *

أخذاً من النص (١٢) من سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) الآيات من (٩ ـ ٢٧)

الصفة (٢٣):

التباطؤ لدى مشاركة المؤمنين في الأعمال الإسلامية العامة، كحفر الخندق في غزوة الأحزاب، والمراءاة بالعمل، والتستّر بالقيام بأهون الأعمال وأضعفها، والتسلّل إلى أهليهم بغير إعلامٍ ولا استئذان.

الصفة (٢٤):

إطلاق ألسنتهم بكلمات وعبارات الكفر عند الشدائد التي يتعرض فيها المسلمون لاحتمالات انتصار الكفّار عليهم.

كقولهم في غزوة الأحزاب: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً.

وكقول مُعَتِّب بن قُشَير، وكان من المنافقين: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط.

الصفة (٢٥):

إطلاق ألسنتهم بعبارات الإرجاف والتخذيل، والفرار من المعركة، والرجوع عن مواجهة العدوّ.

كقول طائفة منهم في غزوة الأحزاب: يا أهل يثرب لا مُقامَ لكم فارجعوا.

الصفة (٢٦):

التحايل للانسحاب من مواجهة العدوّ تعلُّلاً بأعذار كاذبة، وتوجيه طلبات الاستئذان بالرجوع إلى بيوتهم.

كقول طائفة منهم في غزوة الأحزاب مستأذنين بأن يرجعوا إلى المدينة، من أماكن المواجهة دون الخندق: إنّ بيوتنا عورة، مع أنّها في الحقيقة ليست بعورة، إنّما يريدون الفرار من المعركة.

الصفة (٢٧):

التخلّف والتثبيط والتعويق عن الخروج لمواجهة العدوّ، فهم لا يأتون للمشاركة في البأس إلاّ قليلاً، وحين يحضرون فإنّما يفعلون ذلك رياءً ومصانعة ومخافة أن ينكشف نفاقهم انكشافاً جليّاً لعموم المسلمين.

فقد كان المتخلّفون في غزوة الأحزاب يقولون لإخوانهم: هَلُمَّ إلينا، أي: تعالوا إلينا واتركوا مواقعكم، فعندنا الأمن والراحة والظلّ والطعام والشراب.

الصفة (٢٨):

كشف الله في هذا النصّ ممّا يكتمون في صدورهم أنّه لو دخل جيش المشركين المدينة وطلب منهم الكفر أو تسليم الرسول والمؤمنين لفعلوا ذلك، ولانحازوا إلى صفوف أهل الشرك والكفر من العرب واليهود.

وقد تحقّقت في الواقع هذه الظاهرة من صفات المنافقين في أحداثٍ كثيرة تاريخيّة، دخل فيها الغزاة الكفّار بلاد المسلمين، فكانوا أنصارهم وأعوانهم ومؤيديهم والمنحازين إليهم، وانكشفت فيها خياناتهم، وأنهم في الباطن كفّارٌ غير مؤمنين.

الصفة (٢٩):

أنّهم شحيحون على المؤمنين بأموالهم وأعمالهم ومعوناتهم وبكل شيء من أنفسهم وممّا يملكون، وأنّهم شحيحون عليهم أيضاً بمثل ذلك من غيرهم، فهم يكرهون أن يبذل أحدٌ لهم ماله أو عمله، أو شيئاً ما من نفسه أو ممّا يملك، وأنهم شحيحون على كلّ خير.

والسبب في ذلك أنّهم غير مؤمنين بجدوى البذل لصالح المؤمنين، أو البذل في سبيل الخير.

الشحيح: هو أشدُّ البخلاء بخلاً، فهو يبخل بماله وبمال غيره.

الصفة (٣٠):

أنّهم يُصابون بالذعر الشديد، إذا أقبلت الوسائل المخيفة، ولاسيما إذا كانوا في معارك قتالية.

ومن مظاهر ذعرهم الشديد أن تدور أعينُهم كدوران عيْني الذي يُغْشى عليه من خوف الموت، فيُغَطَّى وعيُه وإدراكه ذعراً وهلعاً بسبب انفعال الخوف في نفسه.

إنّهم في ساعات الخوف جبناء صامتون مُبْلسون منهارون، لا تتحرّك أسلحتهم ولا أيديهم بل تدور أعينهم ذعراً وهلعاً.

الصفة (٣١):

أنّهم إذا ذهبت أسباب الخوف واطمأنّوا وأحسّوا بالأمن، انطلقت ألسنتهم بجرأةٍ صائحين في وجوه المؤمنين بكلام شديد عنيف يؤذيهم، وتمادوا مبالغين في خصومتهم لأتفه الأسباب.

وهذا يرجع إلى صفة الفجور فيهم، فمن علامات المنافق أنّه إذا خاصم فجر.

وللمنافقين عندئذٍ موقفان:

(١) فإن كانت المعركة لصالح العدوّ أخذوا يوجهون اللّوم والتثريب للمؤمنين، ولقائد معركتهم، ولبطانته الصادقة المخلصة، ويتبجّحون بصحة آرائهم الانهزامية.

(٢) وإن كانت المعركة لصالح المؤمنين أخذوا يطالبون بأوفر النصيب من

الغنائم، وتَعْلُو أصواتهم، ويتبَجُّحُون ببطولاتهم، مع أنّهم كانوا جبناء انهزاميين.

الصفة (٣٢):

أنّهم لا فائدة تُرجَىٰ من مشاركتهم للمؤمنين في معارك القتال، لأنّهم لا يقاتلون إلّا قتالاً قليلاً.

الصفة (٣٣):

أنهم مرجفون خلال معارك القتال. والإرجاف هو الإخبار بالأكاذيب لإثارة الفِتَن والاضطرابات، وإحداث الرجفان من الخوف.

* * *

أخذاً من النص (١٣) من سورة (الأحزاب / ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) أيضاً الآيات من (٣٦ ـ ٤٠) والآية (٤٨)

الصفة (٣٤):

مشاركة الكافرين في ترويج مقالات السوء ضدّ الرسول ﷺ.

ففي زواج الرسول «زينب بنت جحش» مطلّقة «زيد بن حارثة» الذي كان الرسول قد أعتقه وتبنّاه، ردّد الكافرون والمنافقون معاً مقالة السوء حول شخص الرسول ﷺ، إذْ كانوا يقولون: إنّ محمّداً يحرّم نكاح نساء الأولاد، وقد تزوّج امرأة ابنه «زيد» الذي كان قد تبنّاه بعد أن أعتقه.

* * *

أخذاً من النص (١٤) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) الآيات من (٥٩ ـ ٧٠)

الصفة (٣٥):

إرادة المنافقين أن يتحاكموا إلى الطاغوت، استجابة لوساوس الشيطان الّذي يريد أن يضلّهم ضلالاً بعيداً، مع أنّهم مأمورون في تعاليم الدين أمراً صريحاً جليّاً أن يكفروا بالطاغوت، فلا شبهة لهم ولا عذر، لكن بواعث الكفر هي التي تدفعهم إلى إرادة التحاكم إلى الطاغوت في خصوماتهم.

* * *

أخذاً من النص (١٥) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) أيضاً الآيات من (٧١ ـ ٨٤)

الصفة (٣٦):

التباطؤ والتهاون والتواني عن الخروج مع المسلمين لقتال عدوّهم، وهذه الصفة من مكررات ظواهرهم السلوكيّة الدالة على نفاقهم.

الصفة (٣٧):

تثبيط من يستجيب لهم من الجبناء وضعفاء الإيمان، وهذه الصفة من مكرّرات ظواهرهم السلوكيّة الدالة على نفاقهم.

الصفة (٣٨):

تحدّث بعضهم بالفرح والمسرّة إذا أصاب الخارجين من المسلمين للقتال مصيبة أو مضرّة، ويرى أنّ الله قد أنعم عليه إذْ لم يشهد مع المؤمنين قتال عدوّهم، فنجا بذلك ممّا نزل بهم.

الصفة (٣٩):

التحسّر والنّدم على ما فاتهم من الفوز بالغنيمة، إذا انتصر الخارجون من المسلمين، وأصابوا من عدوّهم غنائم.

وهم مع هذا التحسّر والنّدم يحسُدونَ الخارجين على ما أصابوا من غنائم حسَدَ مَنْ لم يكُنْ ذا وُدٍّ سابقٍ، فيقول القائل منهم:

﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾.

الصفة (٤٠):

من ظواهرهم في السلوك أن بعضهم كان له موقفان متناقضان وهما ما يلي:

(١) قبل الإذن بالقتال كانوا يُطَالِبُون بأن يؤذن لهم به، فيُؤْمَرُونَ بأن يكفُّوا أيديهم.

(٢) وبعد أن كتب الله على المسلمين القتال دبّ الخوف في قلوبهم فصاروا يخشون الناس كخشية الله، أو أشدّ خشية، وقالوا:

* ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾؟
* ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

الصفـة (٤١):

من ظواهرهم في السلوك ما يلي:

(١) إنْ تُصِبْهُمْ حسنةٌ من نصرٍ أو غنيمـة أو أيّ أمْـرٍ قـدَرِيٍّ يسُـرُّهم، كغَيْث وخصب وسعة رزقٍ وصحة وبنين قالوا: هـذه من عند الله، أي: لم تـأتهم ببركـة دعاء الرسول وبسبب إكرام الله له.

(٢) وإنْ تُصِبْهُمْ سيئةٌ من مصيبة في الأنفس أو في الأمـوال، من أمـور قـدرية يبتليهم الله بها قالـوا: هذه من عنـد محمّد، أي: لم يُحْسِن التصرّف في إدارته أو في قيادته في السّلم والحرب.

(٣) أمّـا من كان منهم ذا كفـر وعنادٍ وقـد مَرَد على النفـاق، فإنّـه يقـول مقالة المشركين من قبل: إنّ ما نزل بنا من سيّئات ومصـائب إنّما كـان من شُؤْم دعـوة محمّد الّتي فرّقت قومه، وجَلَبت النزاع والخلاف والحروب.

الصفـة (٤٢):

من ظواهرهم في السلوك التناقض بين ما يُعْلِنـون للرّسول أو إمام المسلمين من بعـده من الطاعـة والخضوع عنـد المواجهـة، وبيْنَ ما يُبَيِّتُـونَ إذا خرجـوا من عنده من المعصية والمخالفة، والعمل بغير ما كانوا قد أعلنوه له.

الصفـة (٤٣):

ومن ظـواهرهم في السلوك ظـاهرة إفشـاء أمـور المسلمين مـا وجـدوا إلى ذلـك سبيلاً، والعمل على إذاعتها ونشرها، سواءٌ أكانت من أمور السلم أو أمور الحرب.

والسبب في هذا أنهم لا يشعرون في أنفسهم بالولاء للمسلمين، فهم لا يهتمّـون لكتمـان ما يضرُّ المسلمين إذاعته.

* * *

أخذاً من النص (١٦) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) أيضاً الآيات من (٨٨ ــ ٩١)

الصفة (٤٤):
أنّهم إذا تهيّأت لهم فرصة مظاهرة الكافرين من وراء المؤمنين ظاهروهم ضدّ المؤمنين.

الصفة (٤٥):
تَمنّي المنافقين أن يكْفُر المؤمنون حتّى يكونوا مثلهم سواءً في الكفر والسلوك.

وبذلك يتخلّص المنافقون من التناقض الذي هم عليه بين ظاهرهم وباطنهم.

وظاهر أنّ دوافع هذه الأمنيّة دوافع شيطانيّة خبيثة.

* * *

أخذاً من النص (١٧) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) أيضاً
الآيات من (١٠٥ ـ ١١٦)

الصفة (٤٦):
من ظواهرهم في السلوك ظاهرة ارتكاب الجرائم وإلقاء تهمة ارتكابها على البرآء من الناس.

* * *

أخذاً من النص (١٨) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) أيضاً
الآيات من (١٣٦ ـ ١٤٧)

الصفة (٤٧):
من صفات المنافقين المذبذبين بين الإيمان والكفر، أنّهم يؤمنون ثم يكفرون، ثم يؤمنون ثم يكفرون، وهكذا.

فهم في نوبة الإيمان يتطلّعون إلى الكافرين ذوي القوّة الظاهرة، فيبتغون أن يستندوا إليهم، ويتقوَّوْا بهم، ويوالوهم من دون المؤمنين. وهذا يدفعهم إلى أن يكثروا من مجالستهم في مجالسهم، ويغضوا النظر عمّا يسمعون منهم من كفر بآيات الله المنزّلات على رسوله، واستهزاءٍ بها، ويخالفون ما سبق أن نهى الله المؤمنين عنه.

وهم في نوبة الكفر يَظَلُّون محافظين على الانتماء إلى الإسلام في الظاهر نفاقاً.

وهـذا التردّد يجعلهم في حـالة تـربُّص دائم بين المؤمنين والكافـرين، يـراقبـون الأحـداث بين الفريقين، فمن غلب أو غنم منهمـا انقلبـوا إليـه مـطالبين بـالمشـاركـة، زاعمين له أنّهم منه، وهم يسلكون أسلوب المخادعة لسَتْر حقيقتهم.

ومن صفات هذا الصنف من المنافقين في ظاهـرات السلوك النفاقيّ، وهـو أيضاً من علامات سائر المنافقين غالباً، ما يلي:

(١) أنّهم مخادعون.

(٢) أنّهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالى.

(٣) أنّهم يراءون الناس في أعمالهم الإسلاميّة، والمرائي لا يسـتـطيع أن يكـون منفعلاً انفعالاً ذاتيّاً مع العمل الذي يؤدّيه رياءً ومخادعة.

(٤) أنّهم لا يذكرون الله إلاّ قليلاً.

(٥) أنهم مـذبـذبـون يتـأرجحـون بين المؤمنين والكـافـرين في ولائهم، وفي سلوكهم، فـلا هم في الحقيقـة منتمـون إلى هؤلاء المؤمنين، في أقصىٰ جهـة اليمين، ولا هم منتمون في الحقيقة إلى هؤلاء الكافرين في أقصىٰ جهة الشمال.

ويـظلّون في حياتهم قلقين لا ثبـات لهم، يتذبـذبون على أرجـوحـة التنقّـل بين الأضداد.

* * *

أخذاً من النصّ (١٩) من سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول)

الآيات من (١٢ ـ ١٥)

الصفـة (٤٨):

أنّهم بـاختيارهم الحرّ عـرّضـوا أنفسهم للفتنـة والعـذاب، بـالضـلال الإرادي، والْغواية، وإبطان الكفر، ورفض الحقّ.

الصفـة (٤٩):

أنّهم يتـربّصون أن تـدور الدائـرة على المؤمنين، حتّى يُعْلِنُوا كفـرهم، وينقضُوا عليهم مع الكافرين الصّرحاء.

الصفة (٥٠):
أنّهم ينظرون إلى براهين الحقّ الرّبّاني بالشّك والارتياب، في حين يتّبعون الباطل وضلالات الكفر بالأوهام والتقليد الأعْمَىٰ.

الصفة (٥١):
أنّهم يتّبعون الأمانيّ الّتي تُطْمِعُهم بالباطل، وكلّما ظهرت خيبتهم نقلوا أمانيهم إلى زمن آخر، وهكذا حتى تَجِلَّ بهم مناياهم دون تحقيق أمانيهم.

الصفة (٥٢):
أنّهم سَلّموا أنفسهم لوساوس الشيطان، فغَرَّهم باللّهِ رَبّهم، وأطْمَعَهُمْ بأنّ الله لا يُنْزِلُ بهم عذابه، وبأنّ أخبار رسُل الله عن يوم الدّين أخبار غير صادقةٍ عن ربّهم.

* * *

أخذاً من النصّ (٢٠) من سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول)

الآيات من (١٦ ــ ٣٢)

الصفة (٥٣):
أنّهم في مجالس العلم الديني يتصنّعون التظاهر بأنّهم يستمعون الأقوال ويُصْغُون إليها، لكنّهم في الحقيقة منصرفون عنها في نفوسهم، فلا يَصِلُ إلى أدمغتهم وقلوبهم منها شيء.

إنّ قلوبهم مطبوع عليها بسبب انصرافهم عنها، وعدم إيمانهم بها أصلاً وفرعاً.

وممّا يدُلُّ على هذا أنّهم حين يخرجون من مجالس العلم الدينيّ يقولون عقبها مباشرة: ماذا قال المحدّث في حديثه آنفاً.

الصفة (٥٤):
أنّهم كانوا إذا أُنزلت آياتٌ فيها الدّعوة إلى الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، وقتال الكافرين، أصابهم الْهَلَعُ والْجَزَعُ، فجعلوا ينظرون إلى الرسول ﷺ نظر الْمَغشِيّ عليه من الموت.

الصفة (٥٥):
أنّهم يقولون للكافرين سِرّاً: إنّنا لا نستطيع أن نُعْلِن ردّتَنا عن الإسلام، ولكن

سنطيعُكم في بعض الأمر، فندفع عنكم ونحن ضمن صفوف المؤمنين، ولا نكونُ جادّين في عداوتكم معهم، ولا في قتالكم إذا قاتلوكم، ونحن نوصل إليكم من المعلومات المفيدة لكم ما نستطيع إيصاله إليكم، دون أن ينكشف أمرنا عند المؤمنين.

الصفة (٥٦):

أنّهم يحملون في قلوبهم الأضغان والأحقاد ضدّ الإسلام والرسول والمؤمنين، وهذه الأضغان تشتمل على العداوة للإسلام والمسلمين ومن لوازمها إرادة الكيد، وتربُّص الفرص الملائمة لمحو الإسلام، واضطهاد المسلمين وتمزيقهم وإبادتهم.

الصفة (٥٧):

أنّ أهل الفراسة من المؤمنين يستطيعون أن يكتشفوا نفاقهم من علامات تظهر على وجوههم، وتبدو في بعض تصرّفاتهم.

الصفة (٥٨):

أنّهم لا بُدّ أن تظهر في فلتات ألسنتهم، وما يرمزون إليه في لحن القول، أماراتٌ تدلُّ على هُويّتهم الحقيقيّة، يُدرِكُ ذلك أهل الفطنة من الناس.

الصفة (٥٩):

طرحُهُم التشكيكات والشبهات بأسلوب أسئلةٍ يوجّهونها تتضمّن إلقاء الشكوك في قلوب ضعفاء الإيمان.

* * *

أخذاً من النص (٢١) من سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول)
الآيات من (١١ ــ ١٧)

الصفة (٦٠):

خيانتهم للمؤمنين بالاتصال بأعدائهم المحاربين لهم ووعدهم بأنْ ينصروهم ويَشُدّوا أزرهم، ويكونوا معهم، وأن لا يطيعوا أحداً في شأنٍ يضرُّ بهم.

الصفة (٦١):

جبنهم وعدَمُ وفائهم بوعودهم لإخوانهم من أهل الكفر، لأنّهم بنفاقهم

وتظاهرهم بأنّهم من المسلمين يخشون أن يكتشف المسلمون المؤمنون أمرهم خشيةً عظيمة، فينتقموا منهم بالعدل.

* * *

أخذاً من النص (٢٢) من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول)
الآيـة (١١)

الصفة (٦٢):

تصيُّد المناسبات لإشاعة الأكاذيب والافتراءات ونشرها، بغية تشويه صورة المؤمنين الطاهرين، والمؤمنات الطاهرات، بما يرمونهم به من ارتكاب الكبائر، حقداً على الإسلام والمسلمين.

ومن الأمثلة افتراء حديث الإفك وإشاعته ونشره.

* * *

أخذاً من النص (٢٣) من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) أيضاً
الآيـة (٣٣)

الصفة (٦٣):

الاستمرار على عادات الجاهلية دون اكتراث لنصوص الشريعة الإسلامية الّتي ألزمت بتغييرها، والاعتراض على التدخّل في الأمر من قِبَل القيادة الإسلاميّة، تذرّعاً بالمفهومات التقليديّة الجاهليّة القديمة.

ومن أمثلة ذلك استمرار «عبد الله بن أُبَي ابن سلول» على إكراه إمائه على الزنا، لتحصيل أجور فروجهنّ، مع أنّ الله قد حرّم على الإماء الزنا كما حرّمه على الحرائر، وجعل عليهنّ نصف ما على المحصنات من العذاب، ولم يرتدع حتى نزل صريح قول الله تعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ . . ﴿٣٣﴾﴾.

* * *

أخذاً من النصّ (٢٤) من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) أيضاً
الآيات من (٤٧ ــ ٥٤)

الصفـة (٦٤):

أنّهم لا ينفّـذون بالتـطبيق العملي مقتضيات إعـلانهم بـألسنتهم أنّهم آمنـوا بـالله وآمنوا بالرّسُل، والتزامهم بطاعة الأوامر والنواهي، بل يبتعدون ابتعاداً كاملاً عن مـواقع الإيمان والطاعة.

الصفـة (٦٥):

من الـظواهر السلوكيـة للمنافقين أنّهم لـدى خصـومـاتهم مـع غيـرهم أصحـاب سلوكين مختلفين:

(١) فـإنّ أحـدهم إنْ كـان يَعْلَمُ أنّ الحقّ لـه فـإنّـه يـأتي متـظاهـراً بـالإذعـان والاستسلام لحكم الله والرسول، ليحكم له الرسول، أو ليحكم لـه الحاكم المسلم من بعده.

(٢) وإنْ كـان يعلم أنّ الحقّ لخصمه أعـرض متحـايـلاً، وتهـرّب من التحـاكم لحكم الله ورسوله، وطلب التحاكم إلى غير ذلك.

وهذه صفة الذين يطلبون التحاكم إلى القانون المـدني، ويرفضـون التحاكم إلى حكم الشـرع الإسـلامي، حينما يـرون أنّ القـانـون يسـاعـدهم على هضم حقــوق خصومهم، وأنّ حكم الشرع الإسلامي لا يساعدهم على ذلك.

الصفـة (٦٦):

المبـالغة بـإعطاء الـوعود المؤكـدة بالأيمـان المشدّدة، وهم كـاذبـون في ذلـك، لا يطبقون من وعودهم شيئاً.

ومن الأمثلة أنّ بعض المنـافقين أقسموا للرسـول جَهْدَ أيمـانهم قـائلين لـه: لَئِنْ أمرتنا بـأن نخرج إلى القتـال في سبيل الله، أو بـأنْ نخرج منْ أمـوالنا وأهلينـا لنخرجَنَّ طاعةً لكَ، وإيماناً واحتساباً، لكنّهم لدى التطبيق العملي تبيّن أنّهم كاذبون.

* * *

أخذاً من النص (٢٥) من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) أيضاً الآيات من (٦٢ ـ ٦٤)

الصفة (٦٧):

أنّهم إذا حضروا المجامع العامّة ذات الأهميّة العظيمة للإسلام والمسلمين ضاقت صدورهم، وثقُل عليهم أن يتصنّعُوا الصبر على ما يجري فيها، ممّا لا يؤمنون به ولا بجدواه، وصَعُبَ عليهم أن يحبسوا أنفسهم مع المؤمنين طَوال مدّة الاجتماع، ولا سيما إذا كانت فيه واجباتٌ عمليّة يضطرّون أن يشاركوا فيها، وهم لا يريدون أن يكشفوا أنفسهم عن طريق الاستئذان بالانصراف لقضاء بعض شؤونهم، لأنّ مدّة الغياب ستكون محسوبة عليهم، ولأنّ كثرة تهرّبهم من مشاركة المسلمين في أمورهم قد تكشف نفاقهم.

ولذلك فهم يتسلّلون مُسْتَخْفِين خروجاً وغياباً وعودة إن رجعوا، دون استئذان.

الصفة (٦٨):

سوء أدب المنافقين لدى مخاطبتهم الرسول أو قائد المسلمين، لأنّهم لا يُكِنُّون له الحبّ والاحترام والتوقير والتعظيم.

لذلك فهم بالتلقائية العاديّة التي لا يتصنّعون فيها يخاطبونه كما يخاطب الناس بعضهم بعضاً، ويدعونه كما يدعو الناس بعضهم بعضاً.

* * *

أخذاً من النص (٢٦) سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول)
وآياتها (١١) آية

الصفة (٦٩):

تظاهرهم بإعلانهم أنّهم يشهدون أنّ محمّداً رسول الله، أي: يدّعون أنّ ما يُعْلنونه بألسنتهم من أنّ محمّداً رسول الله مطابق لما يعتقدون في قلوبهم، والله يَعْلَمُ إنّهم لكاذبون.

الصفة (٧٠):

يتّخذون حَلِفَ الأيمان المؤكّدة ستارةً يَسْتُرون بها نفاقهم ومكايِدَهم ضدّ الإسلام والمسلمين، وأحداثَهُم المريبة التي يُحدثونها، وعَدَمَ التزامِهم بسلوك سبيل الله كُلّما ابتعدوا عن أعين الرقباء من المؤمنين.

الصفة (٧١):

أنّ قلوبهم مقفلةٌ مطبوع عليها، لا تتلقّىٰ ما يُوجَّه لهم من تعليمٍ دينيٍّ ونصيحةٍ وترغيبٍ وترهيب.

الصفة (٧٢):

من المنافقين من هم ذوو أجسامٍ تُعْجب الناظر إليها، وأصحابُ أقوالٍ منمّقةٍ تجذب لاستماعها، فيخدع بأجسامهم وأقوالهم الذين تَغُرُّهم المظاهر، ولا يبحثون عن البواطن.

وهؤلاء إذا حضروا مجالس العلم الدينيّ والذكر مع المؤمنين اختاروا لأنفسهم الأماكن التي يُسْنِدون إليها ظهورهم، كالْجُدُرِ والسواري، لأنها مريحةٌ لهم، وذات وجاهةٍ.

لكنّهم لا يَعُونَ ممّا يُقَالُ في هذه المجالس من علم وذكر شيئاً، لانصراف أذهانهم وقلوبهم، فهم كالْخُشُبِ المسنَّدة على الْجُدُر لئلا تسقط، وهذا يَدُلُّ على أنّهم كالنائمين ظاهراً أو باطناً.

الصفة (٧٣):

أنهم في حالة خوف وحذَرٍ دائم، إذْ هم يخشون أن ينكشف أمْرهم، فيُؤْخَذُوا ويعاقبوا على كذبهم ونفاقهم وخياناتهم.

ولشدّة حَذَرِهم وتوقُّعِهم أن يفتضح كفرهم وينكشف أنهم منافقون، يحسبون كلّ صيحةِ تحذيرٍ مُريبةٍ صَيْحةً عليهم، ويحسبون أنّهم المعنيّون بها، وذلك بسبب ما يعرفون من أنفسهم في باطن أمرهم.

الصفة (٧٤):

أنّهم أشدُّ أعداء الإسلام والمسلمين، وإذا بحثنا عن السبب النفسيّ لهذا العداء الشديد، نلاحظ ما يعانون من آلام التناقض بين ما يتكلفون إظهاره وهم لا يؤمنون به، ويتكلّفون إبطانه وإخفاءه وهو عقيدتهم التي يؤمنون بها، والسلوك الذي يرتاحون لممارسته، فهذا هو السّبب.

لذلك فهم جديرون بأن ندعو الله أن يقاتلهم، إذْ لم يأذن للمؤمنين بأن يقاتلوهم

ما داموا يسترون كفرهم وعداءهم، ويظهرون إسلامهم وولاءهم.

الصفة (٧٥):

إذا ارتكب مستكبروهم ذنباً من الكبائر، أو أحدثوا حدثاً هو من مظاهر نفاقهم، ودعاهم بعض المؤمنين إلى الرسول ليعتذروا وليطلبوا منه أن يستغفر لهم، أعلنوا الرفض، بحركةٍ في رؤوسهم، وحركةٍ في أجسادهم، فهم يَلْوُون رؤوسهم، ويحجمون بأجسادهم.

والسبب في ذلك أنّهم غير مؤمنين بالرسول، وهم في نفوسهم مستكبرون.

الصفة (٧٦):

أنهم لا يألون جهدهم دواماً في التخذيل، والسَّعْي الدائب لصرف الناس عن مناصرة الإسلام والمسلمين، وتوهين قوة المؤمنين، وتقليل جماعتهم.

الصفة (٧٧):

تجرُّؤ زُعمائهم أحياناً وفي أحوال خاصة على إطلاق العبارات الّتي تدلُّ على عداوتهم الشديدة، ورغبتهم في إثارة فتنة، أو إقامة حرب، أو افتعال ثورة ضدّ جماعة المؤمنين وقائدهم.

ومن أمثلة هذا ما حصل من عبد الله بن أُبيّ ابن سلول إذْ قال في غزوة بني الْمُصْطَلِق: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينة لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ.

* * *

أخذاً من النص (٢٧) من سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول) الآيات من (٥ ــ ١٠)

الصفة (٧٨):

أنّهم يمارسون في معظم تصرّفاتهم الوقوف في حدود معارضة ومخالفة لحدود الله.

وذلك بما يرتكبون من إثم وعدوان ومعصيةٍ للرسول ﷺ، فيفعلون كما يفعلُ الكافرون الصرحاء، إلاّ أنّ المنافقين يستخفون بأعمالهم ومواقفهم.

الصفة (٧٩):
أنّ لهم مجالس ومجامع وأحاديث سرّيّة يتناجون فيها بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، مَعَ أنّ الله عزّ وجلّ قد نهاهم عن التناجي وحذّرهم منه سابقاً، وذلك في الآية (١١٤) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول).

الصفة (٨٠):
أنّهم يقلّدون اليهود في تحيّاتهم للرسول وللمسلمين، ضِمْنَ لَحْنِ القول الذي يمارسونه، كأن يقولوا في التحيّة: السّام عليك (أي: الموت) بدل: السلام عليك.

* * *

أخذاً من النص (٢٨) من سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول) أيضاً الآيات من (١٤ ــ ٢٢)

الصفة (٨١):
أنّهم يتخذون اليهود الذين غضب الله عليهم أولياء من دون المؤمنين، فهم ينصرونهم، ويستنصرون بهم، ويوادّونهم.

وهذه الصفة ملاحظة في المنافقين داخل الأمة الإسلامية منذ عصر الرسول ﷺ، حتى عصرنا الذي نعيش فيه الآن.

إنّهم يتّخذون اليهود الّذين غضب الله عليهم أولياء من دون المؤمنين، إذْ يجدون لديهم من الأهواء والشهوات ورغبات النفوس من الحياة الدنيا ما لا يجدونه لدى المؤمنين الصادقين.

الصفة (٨٢):
أنّ صفة الكذب واتّخاذ الأيمان الكاذبة ستارة يسترون بها كفرهم ونفاقهم ستلازمهم طوال رحلة حياتهم في الدنيا ما داموا منافقين، وسيُبْعَثُون إلى الحياة الأخرى وستظلُّ هذه الصفة ملازمةً لهم.

فهم إذا وقفوا في موقف الحساب بين يدي ربّهم يلجؤون إلى الكذب وحلف الأيمان الكاذبة أيضاً، لعلها تنجيهم عند ربّهم كما كانوا يصنعون في الدنيا، إذْ كانت

أكاذيبهم وأيمانهم الفاجرة تنجيهم من نقمة الرسول والمؤمنين عليهم، فقد كانُوا يُعَاملون ـ بمقتضى أَمْر الله ـ بحسب ظاهرهم.

لكِنَّ أكاذيبهم وأيمانهم الفاجرة يوم الدين ستزيد من نقمة الله عليهم، ولا تنفعهم بشيء.

* * *

أخذاً من النص (٢٩) من سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧نزول)

الآية (٩)

الصفة (٨٣):

وصول المنافقين إبّان نزول سورة (التحريم) إلى حالة من السُّوء تستدعي الأمر بمجاهدتهم بمختلف أنواع الجهاد التي تشمل في النهاية أقصاها الذي هو القتال.

* * *

أخذاً من النص (٣٠) من سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول)

الآيات من (١ ـ ١٧)

الصفة (٨٤):

شدّة غيظهم وحنقهم من انتصار المسلمين، ومن تهيئةِ الوسائل لانتشار دعوة الإسلام في الناس، وتكاثر المستجيبين لها.

الصفة (٨٥):

توقُّعُهم استئصال شأفة المسلمين، حينما يجدون أنّ قوى أعدائهم تفوق قوّتهم بنسبة كبيرة، ولا يحسبون حساباً للمقادير والمعونات الربّانية لهم، وما يحيطهم به من رعاية وحماية.

الصفة (٨٦):

ملازمة تلفيق المعاذير الكاذبة كلّما تخلّفوا عن واجبٍ من الواجبات الإسلاميّة العامّة.

الصفة (٨٧):

مطالبتهم أن يشاركوا المؤمنين الصادقين في الخروج معهم لغزو قوم ضعفاء، من السهل الانتصار عليهم، ولديهم غنائم كثيرة، تُنال بأضعف مواجهة.

ووقاحتهم في توجيه الانتقادات إذا لم يُسْمَحْ لهم بالمشاركة عقوبة لهم على تخلّفهم عن الخروج، حينما كانوا يَرَوْن أنّ القوم الذين سيخرجون إليهم أولو بأس شديد، ومن الصعب الانتصار عليهم، والظفر منهم بالغنائم.

* * *

أخذاً من النص (٣١) من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول)
بعض الآية (٤١)

الصفة (٨٨):
أنّهم يملؤون أفواههم تبجُّحاً بادّعاء أنّهم آمنوا، مع أنّ قلوبهم لم تؤمن، شعوراً منهم بأنّ المؤمنين يرتابون في صحة إسلامهم، فهم يملؤون أفواههم بالادّعاء مع رفع الصوت، وسيلةً من وسائل التغطية والتأثير على المؤمنين بغية نزع الارتياب فيهم من قلوبهم.

* * *

أخذاً من النص (٣٢) من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) أيضاً
الآيات من (٥١ ــ ٥٣)

الصفة (٨٩):
الذين في قلوبهم مرض الشكّ والرّيب وضعف الإيمان القريب من النفاق، ولم يَصِلْ بعْدُ إلى حضيضه، قد تظهر فيهم صفة مصانعةِ اليهود والنصارى، خشية أن تدور الدائرة على المسلمين، فتشملهم مصائبها.

وهم يتصوّرون أنّهم بمصانعة اليهود والنصارى التي يتخذونها يحمون أنفسهم، ويكون لهم عندهم يدٌ يكافئونهم عليها.

* * *

أخذاً من النص (٣٣) من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) أيضاً
الآيات من (٥٧ ــ ٦٣)

الصفة (٩٠):

مُسَارَعَة كثير من المنافقين في ارتكاب الإثم والعدوان وأكل المال الحرام، كالرّشوة وأكل الرّبا، ونحو ذلك.

والسبب في ذلك أنّ إسلامهم ظاهري فقط، لا يَعْتَمِدُ على قاعدة إيمانيّة.

* * *

أخذاً من النص (٣٤) من سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول)
الآيات من (٤٢ ـــ ١٢٩ آخر السورة)

الصفة (٩١):

المعاودة إلى اتّخاذ وسيلة الإرجاف لتثبيط جمهور المسلمين عن الخروج مع الرسول إلى القتال.

فقد برزت هذه الصفة حين الدعوة إلى غزو الروم فيما يُعْرَفُ بغزوة تبوك.

الصفة (٩٢):

من الظواهر السلوكية للمنافقين أنّ لهم موقفين حين الدعوة للخروج إلى القتال في سبيل الله.

(١) فحين يكون الخروج إلى القتال سَفَراً هيّناً سهلاً، وفيه طَمَعٌ بغنائم فإنّهم يخرجون مع المؤمنين طمعاً بالغنائم.

(٢) وحين يكون الخروج إلى القتال سفراً شاقّاً صعباً، واحتمال الظفر فيه وتحصيل الغنائم ضعيفاً، فإنهم يتخلّفون، مستأذنين مع تلفيق الأعذار، أو غير مستأذنين، وحين لا يستأذنون يأتون بعد المعركة فيلفقون الأعذار الكواذب، ويحلفون بالله على صدقهم فيها.

الصفة (٩٣):

مَعَ مرور السنين التّسع، وعيش المنافقين ضمن المسلمين، فقد بقي حالهم كما كان منذ بداية العهد المدني، وهو كما يلي:

(١) إذا نزل بالمسلمين ما يَسُرُّهم ويُفرحهم ساءَ المنافقين ذلك.

(٢) وإذا نزل بالمسلمين ما يسوؤهم ويُحزِنُهم سرّ المنافقين ذلك وأفرحهم.

(٣) وحين تكون مصيبة المسلمين بسبب خروجهم لقتال عدوّهم، وكان المنافقون قد تخلّفوا عن الخروج، فإنّهم يقولون: لقد كنّا حذرين أذكياء، فلم نُورّطْ أنْفُسَنا كما ورّط المسلمون أنفسهم، ويتولّوْن وهم فرِحون.

هذه الظواهر الثابت تكرُّرُها تَدُلُّ على أنّ الكافر في باطنه لا تتغيَّر حاله تُجاه المؤمنين، مهما طالت مخالطته لهم، ما لم يتحوّلْ باطنه إلى الإيمان بما يؤمنون به، وعندئذٍ يَصْفُو ولاؤه لهم.

الصفة (٩٤):

أنّهم لا يأتون إلى أداء الصلاة إلاّ وهم كُسَالَىٰ.

وقد سبق في النص (١٨) من سورة (النساء) بيان أنّهم إذا قاموا إلَىٰ الصلاة قاموا كسالى، فتكامل النّصان، وذلك أنّهم إذا حضروا لأداء الصلاة مع جماعة المسلمين من مواضع وجودهم فإنّهم يأتون وهم كُسالَىٰ، وإذا قاموا لأدائها بعد حضورهم قاموا كُسَالى أيضاً.

والسبب أنّهم كافرون لا يُؤْمنون بجدوى الصلاة.

الصفة (٩٥):

أنهم لا ينفقون نفقة واجبة أو غير واجبةٍ إلاّ وهم كارهون، لأنّهم إنّما ينفقونها تقيّةً غير مؤمنين بأنّ لهم مصلحةً من إنفاقها، إذ هم كافرون.

الصفة (٩٦):

حينما تبدر منهم بوادر تُثِير ريبة المؤمنين فيهم، فيُوجّهون لهم الأسئلة الاستفساريّة عن حقيقة هويّتهم، وصِدْقِ إيمانهم، يُسارِعُون إلى تغطية ما بدر منهم، بأن يَحْلِفُوا الأيمان للمؤمنين على أنّهم منهم، فيقولون لهم: والله إنّنا لمنكم.

وما هم في الحقيقة منهم، بل هم كافرون، قلوبُهم مع إخوانهم في الكفر، لا مع الذين آمنوا.

الصفة (٩٧):

أنّ المنافقين يتجدّد خوفهم الشديد إلى حدّ الجزع من أن يُنزل المؤمنون بهم

عقوبة الرِّدة، كلّما اكتشف المؤمنون بعض أمارات نفاقهم، وارتابوا بهم، ووجّهوا لهم عبارات الاستفسار عن هُوِّيتهم الحقيقيّة، أو نظرات الارتياب، فهم عندئذٍ يَفْرَقُونَ فرقاً شديداً، فيسترون أنفسهم بالأيمان الكواذب.

الصفة (٩٨):

أنهم من شدّة ذُعرهم عند ظهور أمارات نفاقهم للمؤمنين، يتمنَّوْنَ لو أنّهم يجدون أيّ مَخبأ يستترون به، ولو أنهم وجدوا ذلك لَوَلَّوْا إليه بسُرْعةٍ فائقةٍ كسُرعَةِ الْجَمُوحِ من الخيل.

الصفة (٩٩):

كان من المنافقين من يَلْمز الرسول في توزيعه للصدَقات، إذا لم يُعْطِهم منها، نظراً إلى أنهم غير مستحقّين، وهي زكوات تُصْرَفُ في الأصناف الثمانية، لكنّهم أهل طمع يرغبون في أن يأخذوا من الزكاة بغير استحقاق.

إنّهم إنْ أُعْطُوا منها رضوا ولو لم يكونوا من مستحقّي الزكاة، وإنْ لم يُعْطَوْا منها لعدم استحقاقهم، إذا هُمْ يسخطون.

وهذه الصفة ظاهرة في منافقة كلّ عصرٍ وأمّة ضدّ أولياء الأمور مهما عدلوا وأنصفوا.

الصفة (١٠٠):

من المنافقين من كان يؤذي النبيّ ﷺ باتّهامه بأنّه أُذُنٌ، أي: كالأذن التي تنقل ما تسمع، دون تمحيص وتثبّت ولا محاكمة عقليّة، فهو يتأثّر بما يَسْمَع ويُخْبِرُه به المخبرون.

وهذه الصفة متكرّرة أيضاً في منافقة كلّ عصر وكلّ أمّة، ضدّ أولياء الأمور، مهما كان أولياء الأمور أهل عقل وحكمة ورويّة وتثبُّتٍ وبصيرة.

الصفة (١٠١):

أنّ المنافقين صنف متميّز عن سائر أصناف الناس، إذْ هُمْ متشابهون في صفاتهم النفسية والسلوكيّة.

الصفة (١٠٢):

أنّ المنافقين يأمرون بالمنكر ويَنْهَوْنَ عن المعروف، وهذا الوصف يتلاءم مع كفرهم في الباطن.

الصفة (١٠٣):

أنّ المنافقين بخلاء شحيحون، يقبضون أيديهم عن البذل في وجوه الخير، والبذل في الفضائل الإنسانية العامّة، زيادةً على بخلهم عن البذل في مصالح الإسلام والمسلمين.

الصفة (١٠٤):

أنّهم هم الفاسقون المنفردون بالدركة السفلىٰ من الفسق، فلا يشاركهم فيها أحَدٌ، أخذاً من قوله تعالى في السورة:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

الصفة (١٠٥):

أنّهم ينقضُون عهودهم ووعودهم ولا يَفُونَ بها، ولو كانت مع ربّهم إذا عاهدوه أن يُطِيعُوا بشرط أن يحقّق لهم ما طلبوا.

الصفة (١٠٦):

أنّهم يلمزون المؤمنين الصادقين في بعض أعمالهم التي يعملونها كالصدقات، ويتّهمونهم بأن لهم أغراضاً دنيوية من أعمالهم.

إنّهم يقيسون المؤمنين على أنفسهم، كما قال المتنبي:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ   وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِن تَوَهُّمِ

الصفة (١٠٧):

أنّهم يفرحون بقُعودهم وتخلُّفهم عن الخروج مع المؤمنين إلى قتال الكافرين، وهذا الفرح من لوازم كفرهم في الباطن.

الصفة (١٠٨):

أنّهم يكرهون أن يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وهذه الكراهية من لوازم كفرهم في الباطن.

الصفة (١٠٩) :

إصرارهم في كلّ معركة على تثبيط من يستجيب لهم عن الخروج إلى قتال الكافرين.

الصفة (١١٠) :

من منافقي الأعراب من يرىٰ أن ما يُكَلّفُ أنْ يدفعه زكاة ماله، أو غير ذلك من الواجبات المالية، مَغْرَمٌ يغْرَمُهُ بغير حق، فلو كانت له قوّة تحميه لامتنع عن بذل ما يُضْطرّ لبذله.

والسبب في هذا أنّ الأعراب يشعرون بأنّهم سادة أنفسهم في الصحراء، فليس عليهم واجبات اجتماعية يبذلونها، بخلاف أهل الحضر فإنّهم يشعرون بأنّ على الأفراد واجبات نحو المجتمع، ولو لم يأمُرْ بها الدّين.

الصفة (١١١) :

من منافقي الأعراب من كانوا يتربّصون بالرسول وبالمؤمنين أن تدور عليهم الدوائر.

ويظهر أنّ هؤلاء قد كانوا من المرتدين الذي ارتَدُّوا عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ.

الصفة (١١٢) :

التآمر على الأمّة الإسلاميّة مع أعدائها، وقد دلّ على هذه الصفة أحداث بناء مسجد الضِّرار، إرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الراهب الذي تآمر مع دولة الروم في الشام ضدّ الرسول ودولة الإسلام في المدينة.

الصفة (١١٣) :

الاستخفاف والاستهزاء بما كان ينزل من القرآن، غير مكترثين لما نزل فيه من بيانات فاضحات لهم، وكاشفات لصفاتهم النفسيّة وآثارها في ظواهرهم السلوكية، مع أنّها من البراهين الدّالة علىٰ أنّ القرآن كلام الله المطلع على قلوبهم ونفوسهم وأسرارهم، وما كانوا يدبّرون في الخفاء.

فكان يسأل بعضهم بعضاً: أَيُّكُمْ زاده ما نزل من قرآنٍ إيماناً.

سؤال يتضمّن الاستهزاء بما نزل من القرآن، والاشمئزاز منه.

الصفة (١١٤):

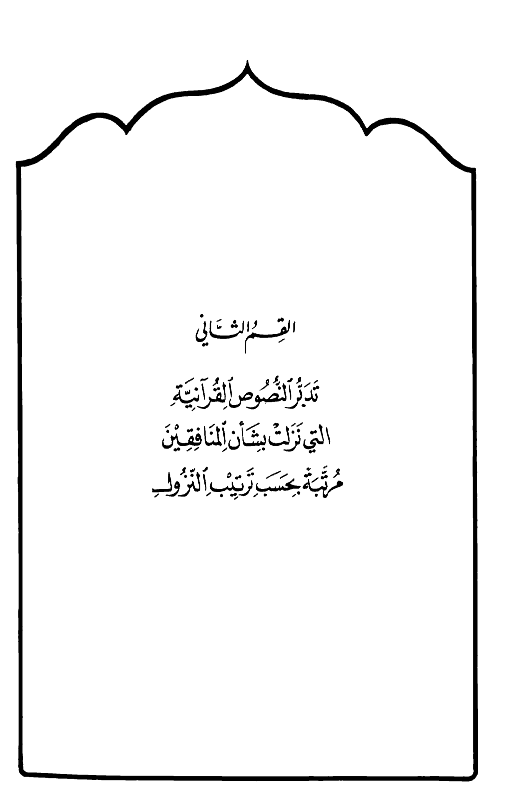
الانسلال من المجالس التي كانت تُتْلَى فيها سُوَرٌ جديدة، بَعْد أن تتحادث عيونهم بعضها مع بعض بما يدُلُّ على العبارة التالية: هل يراكُمْ من أحدٍ من المؤمنين إذا انصرفتم من المجلس.

حتّىٰ إذا شعروا بأنّهم قادرون على أن ينسَلُّوا واحداً بعد واحدٍ انْصَرَفوا تباعاً، لئلاّ يسمعوا تلاوة السورة الجديدة المنزّلة.

ويظهر أنّ هذا يكون مبنيّاً على اتفاق سابق فيما بينهم.

●●●





القسم الثاني

تدبر النصوص القرآنية التي نزلت بشأن المنافقين مرتبة بحسب ترتيب النزول



جدول النصوص الموضوعة للتدبّر

النص الأول: من سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) السورة (٨٥) من التنزيل المكي، الآيتان (١٠ ـ ١١).

حول بدايات ظاهرة النفاق في المجتمع الإسلامي.

النص الثاني: من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) السورة (١) من التنزيل المدني، الآيات من (٨ ـ ٢٠).

حول تعريف النفاق وذكر طائفة من صفات المنافقين وظواهر النفاق في السلوك.

النص الثالث: من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) السورة (١) من التنزيل المدني، الآيات من (٧٥ ـ ٨٢).

حول توجيه المؤمنين أن لا يطمعوا في أن يؤمن لدعوتهم منافقو اليهود وسائرهم.

النص الرابع: من سورة البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) السورة (١) من التنزيل المدني، الآيات من (١٤٢ ـ ١٤٥).

حول مشاركة المنافقين في إثارة الشبه بشأن تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة.

النص الخامس: من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) السورة (١) من التنزيل المدني، الآيات من (٢٠٤ ـ ٢٠٧).

حول بعض صفات فريق من المنافقين وظواهر من سلوكهم وهم من الجبارين.

النص السادس: من سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) السورة (٢) من التنزيل المدني، الآيات من (٤٩ ـ ٥٥).

حول قول المنافقين بشأن البدريّين من المؤمنين إبّان غزوة بدر: غرّ هؤلاء دينهم.

النص السابع: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) السورة (٣) من التنزيل المدني، الآيات من (٦٩ ــ ٧٤).

حول مكيدة اليهود بالدخول في الإسلام نفاقاً ثم الارتداد عنه، لإغراء غيرهم بالردّة.

النص الثامن: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) السورة (٣) من التنزيل المدني، الآيات من (١١٨ ــ ١٢٠).

حول نهي المؤمنين عن اتخاذ بطانة من المنافقين لأنهم مفسدون مبغضون مغيظون.

النص التاسع: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) السورة (٣) من التنزيل المدني، الآيات من (١٥٢ ــ ١٥٨).

حول ما جاء بشأن المنافقين وظواهرهم السلوكيّة بمناسبة أحداث غزوة أحد.

النص العاشر: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) السورة (٣) من التنزيل المدني، الآيات من (١٦٥ ــ ١٦٨).

حول بيان بعض مواقف المنافقين في غزوة أحد وإقناع المؤمنين بأنّ ما جرى لهم قد كان من أنفسهم.

النص الحادي عشر: من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) السورة (٣) من التنزيل المدني، الآيات من (١٧٦ ــ ١٧٩).

حول الذين بدؤوا خطوات النفاق إبّان غزوة أحد ومسارعتهم في الكفر وتربية الله رسوله والمؤمنين بشأنهم.

* عظات حركة النفاق اقتباساً من النصوص القرآنيّة المنزّلة في سورة آل عمران.

النص الثاني عشر: من سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) السورة (٤) من التنزيل المدني، الآيات من (٩ ــ ٢٧).

حول مواقف المنافقين وظواهرهم السلوكيّة إبّان غزوة الأحزاب.

النص الثالث عشر: من سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) السورة (٤) من التنزيل المدني، الآيات من (٣٦ ـ ٤٠) والآية (٤٨).

حول موقف المنافقين بشأن زواج الرسول من «زينب بنت جحش» ابنة عمته، بعد أن طلقها «زيد بن حارثة» الذي كان الرسول قد أعتقه وتبنّاه.

النص الرابع عشر: من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) السورة (٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٥٩ ـ ٧٠).

حول تحاكم المنافقين إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به.

النص الخامس عشر: من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) السورة (٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٧١ ـ ٨٤).

حول ظواهر من النفاق تبرز عند الدعوة إلى القتال وبعده.

النص السادس عشر: من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) السورة (٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٨٨ ـ ٩١).

حول السياسة التي ينبغي معاملة المنافقين بها بحسب اختلاف أحوالهم.

النص السابع عشر: من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) السورة (٦) من التنزيل المدني، الآيات من (١٠٥ ـ ١١٦).

حول ما يجب على القضاة والخصوم وأنصارهم بمناسبة حادثة سرقة المنافق من بني أبيرق.

النص الثامن عشر: من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) السورة (٦) من التنزيل المدني، الآيات من (١٣٦ ـ ١٤٧).

بشأن قسم المذبذبين من المنافقين وبعض صفات عموم المنافقين.

النص التاسع عشر: من سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) السورة (٨) من التنزيل المدني، الآيات من (١٢ ـ ١٥).

حول لقطات من مشاهد أحوال المنافقين يوم القيامة.

النص العشرون: من سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) السورة (٩) من التنزيل المدني، الآيات من (١٦ ــ ٣٢).

حول عدم تفهّم المنافقين لما يسمعون وهلعهم لدى سماعهم آيات الدعوة إلى القتال.

النص الحادي والعشرون: من سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول) السورة (١٥) من التنزيل المدني، الآيات من (١١ ــ ١٧).

حول موقف المنافقين وخياناتهم في أحداث إجلاء يهود بني النضير.

النص الثاني والعشرون: من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) السورة (١٦) من التنزيل المدني، الآية (١١).

حول موقف المنافقين من حادثة الإفك.

النص الثالث والعشرون: من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) السورة (١٦) من التنزيل المدني، الآية (٣٣).

حول موقف بعض المنافقين من إكراه الإماء على البغاء وفق العادة الجاهلية.

النص الرابع والعشرون: من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) السورة (١٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٤٧ ــ ٥٤).

حول كذب المنافقين في ادّعائهم الطاعة، ورفضهم التحاكم لله ورسوله.

النص الخامس والعشرون: من سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) السورة (١٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٦٢ ــ ٦٤).

حول تسلّل المنافقين من المجامع العامة بدون إذن، وسوء أدبهم في خطاب الرسول.

النص السادس والعشرون: سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول) السورة (١٨) من التنزيل المدني، وهي (١١) آية.

حول بيان حقيقة المنافقين وبعض صفاتهم الظاهرة والباطنة وبعض مواقفهم والتحذير منهم.

النص السابع والعشرون: من سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول) السورة (١٩) من التنزيل المدني، الآيات من (٥ ــ ١٠).

حول محادّة المنافقين لله ورسوله، وتناجيهم في السرّ بذلك، وتحيّتهم للرسول تحيّة منكرة.

النص الثامن والعشرون: من سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول) السورة (١٩) من التنزيل المدني، الآيات من (١٤ ــ ٢٢).

حول اتخاذ المنافقين اليهودَ أولياء لهم وتستّرهم بالأيمان الكاذبة واستحواذ الشيطان عليهم.

النص التاسع والعشرون: من سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) السورة (٢١) من التنزيل المدني، الآية (٩).

حول مجاهدة الكفّار والمنافقين والإغلاظ عليهم.

النص الثلاثون: من سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول) السورة (٢٥) من التنزيل المدني، الآيات من (١ ــ ٧).

حول أثر الفتح المبين الذي حصل في صلح الحديبية على نفوس المنافقين المخلّفين وموقفهم.

النص الحادي والثلاثون: من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) السورة (٢٦) من التنزيل المدني، بعض الآية (٤١).

حول تكليف الرسول أن لا يحزن من أجل المنافقين الذين يسارعون في الكفر.

النص الثاني والثلاثون: من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) السورة (٢٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٥١ ــ ٥٣).

حول اتخاذ الذين في قلوبهم مرض من النفاق اليهود والنصارى أولياء.

النص الثالث والثلاثون: من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) السورة (٢٦) من التنزيل المدني، الآيات من (٥٧ ــ ٦٢).

بشأن المنافقين من اليهود الذين دخلوا في الإسلام منافقين مكراً وكيداً.

النص الرابع والثلاثون: من سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) السورة (٢٧) من التنزيل المدني، الآيات من (٤١ ـ ١٢٩ آخر السورة).

حول عدة ظواهر سلوكيّة للمنافقين بمناسبة أحداث غزوة تبوك وأخرى إبّانها.

● ● ●

النص الأول

وهو من سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول)

الآيتان (١٠ ـ ١١)

حول بدايات ظاهرة النفاق في المجتمع الإسلامي

* قال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

* * *

(١)

موضوع النّصّ وسبب نزوله

سورة (العنكبوت) من أواخر التنزيل المكي، نَزَل بعدها قبل الهجرة سورة (المطففين) فقط، باستثناء الآيات من (١ ـ ١١) منها، فهي مدنيّة، فالنصّ الموضوع للتدبّر نصّ مدنيّ، هذا على أرجح أقوال أهل العلم بعلوم القرآن.

وقيل: السورة كلُّها مدنية، ورُوي عن علي بن أبي طالب أنّها نزلت بين مكة والمدنية.

فيظهر أنّ هذا النّصّ أوّلُ نصٍّ نزلَ في المنافقين، وتعرّض لهم ببعض بيان.

ما ورد في سبب النزول:

رُوِيَ مَا يَتضمّن أنّ هذا النّص نَزَل بشأن فريقٍ أَسْلموا بمكّة، وكان حالُهُمْ مع المشركين حَالَ من لا يَصْبِر على الأذى الذي يتعرّض له من قِبَلِهم، فكانُوا إذا لحقهُم

أذىً من المشركين تأثّروا بالأذى فأعْطَوْهم ما يُريدون منهم في الباطن، وحافظوا على انتمائهم للإسلام في الظاهر، ولم يُهاجروا في سبيل الله إلى دار الإسلام مع أنّهم أُمروا بالهجرة يومئذٍ.

ذكر هذا الضحّاك وجابر بن زيد، قال الشيخ «محمد الطاهر بن عاشور» في تفسيره: وذُكر أنّ من هؤلاء (أي: المشار إليهم في النص): «الحارثُ بنُ ربيعة بن الأسود ـ وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ـ وعليُّ بن أميّة بن خلف ـ والعاصي بن مُنَبّه بن الحجاج».

موضوع النص:

يتناول هٰذا النصّ بدايات ظاهرة النفاق في المجتمع الإسلامي، وكانت مع أواخر المرحلة المكيّة وبدْءِ ظروف المرحلة المدنية بعد الهجرة، وإلزام المؤمنين في مكّة بالهجرة إلى دار الإسلام في المدينة.

وكان سبَبُ هذا النفاق الذي نجمت بداياته في مكّة ضعفَ الإيمان، والحرصَ على الأموال والمساكِنِ والمصالحِ الدنيويّة في مكّة التي كانت يومئذٍ دارَ كفر، يُسيطر على شؤونها المختلفة المشركون.

فكان المسلمون فيها يتعرّضون للأذىٰ والاضطهاد، أمّا أهل الإيمان القويّ الراسخ، فقد زادهم ذلك صموداً وثباتاً وتحدّياً، ومعظمهم هاجر في سبيل الله.

وضعف آخرون فأعْطوا ما يريد المشركون منهم في ظاهر القول، أمّا قلوبهم فكانت مطمئنّة بالإيمان، وهؤلاء قد عذرهم الله، فقال تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

ومن الذين أعطوا المشركين ما أرادوا منهم في ظاهر القول تقيّة «عمار بن ياسر» لكِنَّ قلبه قد كان مطمئنّاً بالإيمان.

أخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابنُ جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم

وصحّحه، وابْنُ مردويه، والبيهقي، وابن عساكر، من طريق أبي عبيدة بن محمد بن عمّار، عن أبيه، قال:

(أخذ المشركون عمّارَ بن ياسر، فلم يتركوه حتّىٰ سبَّ النبيّ ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فتركوه، فلمَّا أتىٰ النبيّ ﷺ، قال:

«ما وراءَك؟».

قال: شرٌّ، ما تُرِكْتُ حتّى نِلْتُ منكَ، وذكرتُ آلهتَهُمْ بخير.

قال: «كيف تَجدُ قلبكَ؟».

قال: مطمئنّاً بالإيمان.

قال: «إنْ عَادُوا فَعُدْ».

فنزلت:

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

قال: ذلك عمّار بن ياسر:

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾.

عبدُ الله بن أبي سَرْحٍ).

وكان إيمانُ فئة ثالثةٍ ضعيفاً، فعادوا إلى الكفر باطناً، تحت تأثير ضغط المشركين، وفتْنَتِهم لهم، وأثَّر الخوْفُ من التعذيب فيهم تأثيراً بلغ عُمْقَ قُلوبِهِمْ، كما يُؤَثِّر الخوف من عذاب الله العاجل والآجل، في فريق من الناس، فيؤْمِنون، ولكنّهم مع كفرهم باطناً حافظوا على ظاهر إسلامهم، ولا بدّ أن يكون هذا بعلم المشركين الذين هم في مجتمعهم، وكان استبقاؤهم الانتماء إلى الإسلام ظاهراً له عدّة دوافع، منها:

(١) أنْ لا يُوصَمُوا بالارتداد عن الإسلام بعد دخولهم فيه.

(٢) أنْ يكونوا محسوبين مع المسلمين إذا انتصروا واستقرّت لهم دولةٌ في المدينة، وأخذت تتّسع.

(٣) أن يكونوا في حالة سِلْم وأمْنٍ من قِبَلِ دَولَةِ الكُفْرِ في مكّة، ودولة الإسلام في المدينة.

فجاء هذا النص من سورة (العنكبوت) كاشفاً موقف هؤلاء المنافقين، ومُلَوِّحاً لهم بالوعيد، أي: إذا لم يتوبوا، ويعودوا إلى الإيمان صادقين مخلصين، ويؤدّوا مقتضيات الإيمان الصحيح الخالي من النفاق.

* * *

(٢)
المفردات اللّغوية في النصّ

﴿أُوذِىَ﴾:

يُقَال لغة: آذاهُ يُؤْذِيهِ إيذاءً، أي: أنزل به ما يكرهُ. ويُقال: أذِيَ الرجلُ يأْذَى أذىً وَأَذاةً وأذِيَةً، إذا نَزَلَ به أذىً، والأذى هو الضرر غير الجسيم، قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً﴾.

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾:

أي: جعل التعذيب والأذى الذي يأتي من قِبَلِ الناس، فالمرادُ من الفتنة هُنَا التعذيبُ وإنزالُ الأذى.

* * *

(٣)
مع النصّ في التحليل والتدبّر

قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ... ﴿١٠﴾ ﴾.

مع بدايات ظهور النفاق في المجتمع الإسلامي من قِبَلِ بعض الذين أعْلَنُوا

إسلامهم في مكّة، ولم يُهاجروا مع المهاجرين، وكان ذلك إبّان هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، ومع أوائلها على ما يظهر.

في هذه الأثناء أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت) بياناً يكشف فيه للرُسول وللمؤمنين معه هذا الفريق من الناس، ويُبيّن فيه للمنافقين انفسهم أنّ ما في قلوبهم لا يخفى على الله منه شيء، فقال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾:

أي: وُوجِد فريقٌ من الناس مَنْ يقولون بألسنتهم: آمنّا بالله، فذكر سبحانه وتعالى أنّهُمْ من الناس، ولم يذْكُرْ أنّهم من المسلمين أو من المؤمنين، لأنّ كلمة «الناس» كلمةٌ عامّة تشمل جميع الناس من أهل الإيمان وأهل الكفر. وذكر تعالى أنّهم يقولون بألسنتهم، ولم يذكر أنّهم يؤمنون بقلوبهم، ليشمل أيضاً ضعفاء الإيمان الذين لم يتغلغل الإيمان في قلوبهم بَعْدُ، والّذين ظهرت منهم ظاهرة هي من أمارات النفاق أو تجرُّ إليه.

وكان هذا كما وضح لنا في أوّل بيان عن ظاهرات النفاق في المجتمع الإسلامي.

وهذه الظاهرة فيهم ذاتُ وجهين:

الوجه الأوّل: أنّهم إذا نالهم أذىً من جهة الذين كفرُوا ارتدُّوا إلىٰ الكُفر سرّاً، واسترْضَوْا بردّتهم هذه الكافرين، واتّفقوا معهم على أن يكتموها عن المؤمنين، ليدفعوا بذلك عن أنفسهم ما يتوعّدهم به الكافرون من تعذيب أشدّ.

ونلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ عبّر عن ردّتهم هذه بأنهم جعلوا أذى الكافرين لهم، وَوَعِيدهم إيّاهم بتعذيبٍ أشدّ من أجْلِ إيمانهم، مِثْلَ عذابِ الله الذي قد يُنْزِلُ الله طائفةً منْه أحياناً بالكافرين تأديباً وتربيةً ودليلاً على عذابه الأكبر، ومِثْلَ عذاب الله الذي يُنْذِرهم به إذا لم يؤمنوا، فيخافُ منهم من يخاف، فيؤمن ويُسْلِمُ، إيثاراً للسلامة، ودفعاً لعذاب الله الأشدّ الذي اشتملت عليه نصوص الوعيد للكافرين والعصاة المسرفين على أنفسهم بالفِسْق والبغي والظلم، فقال تعالى:

﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾:

أي: فإذا أُوذي من قِبَلِ الكافرين من أجل مَسِيرِهِ في سبيل الله، ليرتدّ عنه، ويسْلُكَ مسالِكَ الكافرين، ويتّبع خُطوات الشّياطين، جعل بتصوّره الفاسد الباطل، فِتْنَةَ الكافرين لَهُ بالتعذيب، مِثْلَ عَذَابِ الله الذي يُؤَدِّبُ اللّٰهُ بِهِ أَوْ يُعَاقِب، لِيَرْتَدِعَ الذي يتّقون عذابَ الله الشديدَ يوم الدين، مع أنّ الأَمْرَيْن مختلفان، فما يفعَلُهُ الناس من اضطهاد للمؤمنين إنما هو لإخراجهم من النور إلى الظلمات، ومن السّعادة إلى الشقاء الأبدي، وما يُجْرِيه الله من تأديبات للكافرين والعصاة، إنما هو لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الشّقاء الأبديّ إلى السعادة الخالدة.

إنّ التّعْبير بجعل هذا الفريق فِتْنَةَ الناسِ مِثْلَ عَذَاب الله كنايةٌ عَنْ رِدَّتهم عن الإيمان والإسلام سرّاً، هو تعبير عن السبب النفسيّ الذي جعلهم يَرْتَدُّون. وقد جاء فيه الاستغناء بالتعبير عن السبب ليكون كنايةً تدلُّ على ما نجم عنه من ظاهرة نفاق جمعت ردّةً معلومةً لأوليائهم من الكافرين، ومكتومةً عن جمهور المؤمنين، إذْ أَبْقَوْا انتماءَهُمْ إلى الإسلام مُعْلناً في الظاهر، برغبة المحافظة على كلمة الإيمان التي سبقت منهم تجاه المؤمنين.

وظاهرة النفاق هذه جاء في النصّ ما يدُلُّ عليها بوضوح، كما سيأتي في فقراته الآتيات.

الوجه الثاني: أنهم وَطَّنُوا أنْفُسَهُم على أن يقولوا للمؤمنين ببيان مؤكّد: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، فيما لو انْتَصَرُوا مستقبلاً على المشركين، وكانت لهم قُوَّةٌ ودولة.

لكنّ احتمال انتصار المؤمنين على أعدائهم قد كان في تصوُّر هؤلاء احتمالاً ضعيفاً مشكُوكاً فيه، ورغم ذلك فقد احتاطوا لأنفسهم في أمرهم، فاتّخذوا لهم من سلوكهم الظاهر وجهاً، وفي بيان هذا الوجه قال الله تعالى:

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾.

في هذا البيان نُلاحظ أنّه جاء ذكر النصر الذي سيأتي من الله للمؤمنين أمراً احتماليّاً مشكوكاً فيه، إذْ جاء التعبير عنه بكلمة ﴿إنْ﴾ الشرطيّة التي تُسْتَعمل غالباً في الأمر ذي الاحتمال الضعيف المشكوك فيه. والسّببُ في هذا أنّ البيان جاء معبّراً عن حالة هؤلاء المنافقين النفسيّة، فهم كانوا يومئذٍ يستبعدون أن ينتصر المؤمنون في

المدينة على المشركين في مكّة، فكانوا يُقدِّرون في نفوسهم أنّه إنْ حصل هذا الاحتمال الضعيف المشكوك فيه، فإنّ لديهم قولاً يقولونه للمؤمنين، بسبب انتمائهم إلى الإسلام الذي حافظوا عليه ظاهراً، ولم ينقضوه بألسنتهم كما نقضوه في سرِّهم، إذْ سيقولون للمؤمنين: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هو للرسول أوّلاً، ثُمّ لكُلّ صالح للخطاب من بَعْدِهِ بصورةٍ إفراديّة، والغرضُ فيما يظهر أن يكون التحذير من المنافقين تحذيراً إفرادياً لكُلّ المؤمنين، وأن يقوم كلّ مؤمن بواجب الحذر المطلوب من المنافقين، وواجب مراقبة الظواهر في السلوك للاستدلال بها على البواطن.

ونلاحظ أنّ الله تعالى أكّد هذه الظاهرة في هذا الفريق من الناس بالْقَسَم وما يَقْتَرِنُ به من مؤكّدات، فاللّام في: ﴿لَئِنْ﴾ هي الموطّئة للقسم، وجملة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بما فيها من نون توكيد ثقيلة هي جواب القسم المحذوف.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

بعد بيان الظاهرة النفاقيّة ذات الوجْهَيْن، في هذا الفريق من الناس الذين تَعَرَّض النّصُّ لبيان حالتهم ذَكَرَ الله عزّ وجل بصفةٍ من صفاته الثابتة له تبارك وتعالى، وهي صفة شمول علمه لكلّ شيءٍ ظاهر وباطن، ومن ذلك عِلْمُهُ بما في صدور العالمين، فقال تعالى بأسلوب الاستفهام الذي ليس له عند من يؤمن بالله ربّاً خالقاً إلّا جواب واحد:

﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: أَوَلَيْسَ اللَّهُ بأعلم من كلّ عليم بما في صدور العالمين جميعاً، ومنهم أصحابُ الصُّدُور أنفسهم، وممّا في الصدور الإيمان والكفر والنفاق، فمن أوّليّات القضايا الإيمانيّة المتعلّقةِ بالله الرّبّ الخالق أنّه عزّ وجلّ يُحيط بكل شيءٍ علماً، فهو يعلمُ السّرّ وما هو أخفى من السّرّ، لا تخفىٰ عليه خافية.

فالجوابُ على هـذا السؤال لا بُدَّ أن يكـون: بلى. أي: هو أعلم من كـلِّ عليم بما في صدور العالمين من الإنس والجنّ والملائكة وكلِّ ذي صَدْرٍ يحتوي شيئـاً ما من كلِّ كائن حيّ.

بعد التذكيـر بهذه الصفـة من صفات الله الجليلة، أبـان الله عزّ وجـلّ حكمته من تعريض الناس لفتنة المؤمنين والمسلمين بالكافرين، إذْ وضـع الناس مـوضع الامتحـان في ظروف الحياة الدنيا، ومن ذلك تمكين الكافرين ضِمْن أنظمة الكون السببيّـة، التي يتصـرّف الناس فيهـا باختيـاراتهم الحرَّة، من إيـذاء المؤمنين، أو تعـذيبهم في الحيـاة الدنيا.

إنّها حكمة الابتلاء الذي يَخْتَبِرُ الله به ما في قلوب الناس من إيمـان وكفر ونفـاق وغير ذلك، فقال تعالى:

﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾.

أي: ولَيَعْلَمنَّ الله ـ بما يتعرّضُ لـه الناسُ تبـاعاً من امتحـانٍ في ظروفِ الحيـاة الدنيا ـ علماً بعْدَ الـوقوع الفعلي مـطابقاً لعلمـه السابق قبـل الوقـوع الفعليّ، لَيَعْلَمَنَّ حقيقةَ أحوالِ الّذين آمَنُوا صادقين، وحقيقة أحوالِ المنافقين، وهكذا إلى سائـر أحوال الناس جميعاً.

فتمكينُ اللّهِ الذين كفروا من إيذاء المؤمنين أو تعذيبهم في ظروف الحياة الدنيا، يتمُّ به تمييزُ المؤمنين الصادقين، من ضعفاء الإيمـان، ومن المنافقين، وبـذلك يتحقّق العلْمُ الرَّبّاني الذي يتعلّقُ بما وقَعَ فعلاً، مـطابقاً للعلم الـرَّبّاني الـذي كان متعلّقـاً بما سيقَع، ويتحقّق أيضاً للمـلائكة المـوكّلين بأعمـال العباد مثـلُ هذا العلم المستنـد إلى مـراقبتهم لما يعْمَـلُ العباد، ثم تَتِمُّ محـاسبةُ النـاس على ما صـدر عنهم في الـواقـع، لا على ما كان معلوماً لله بأنّه سيَصْدُرُ عنهم.

والله أعلم.

● ● ●

النص الثاني

من سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أول سورة مدنية
الآيات [من الآية (٨) إلى الآية (٢٠)]
حول تعريف النفاق وذكر طائفة من صفات المنافقين
وظواهر النفاق في السلوك

بعد أنْ أبان اللّهُ عزّ وجلّ في مَطْلع سورة (البقرة) صفات المتقين، فصفات الّذِينَ كفروا مُصِرّين على كفرهم عناداً مع ظهور الحق لهم، حتّىٰ اسْتوىٰ بالنسبة إليهم الإنْذارُ وَعَدمُه مَهْما كان الإنْذار الموجّه لهم إنذاراً بعَاقبةِ إهْلاكٍ شديدٍ مَاحِقٍ، فإنّهم لا يؤمنون.

بعد ذلك ذكر الله عزّ وجلّ قِسْمَ المنافقين، وأبان حقيقتهم، وفصّل في بيانٍ دقيقٍ طَائِفَةً رَئِيسيَّةً من صفاتهم، وهي الصفاتُ التي برزت فيهم إبّانَ المرحلةِ المدنيَّةِ الأولى التي نزلت فيها سورة (البقرة) فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ

ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

* * *

ما في النصّ من القراءات المتواترة (من الفرش)

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: [يُخادِعُونَ اللَّهَ والَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخادِعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ وما يشْعُرُون].

وقرأ سائر القراء: [يخادِعُونَ اللَّهَ والَّذِينَ آمَنُوا ومَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ ومَا يَشْعُرونَ]، وسيأتي في الشرح الحكمة من القراءتين إن شاء الله.

(٢) وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: [وَلَهُمْ عذابٌ أليمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ].

وقرأ سائر القرّاء: [بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ].

وبين القراءتين تكاملٌ في المعنى، فهم يَكْذِبُونَ في ادّعاء الإيمان والإسلام إذْ هم منافقون، وهم يكذِّبُونَ الرّسول، ويُكذِّبُونَ بآيات الله وبكتابه.

* * *

مع النصّ في التحليل والتدبّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

فيه بيانُ أنّه يوجد صنف من الناس أعلنوا بألسنتهم إسلامهم، ودخلوا ضمن صفوف المؤمنين، وقالوا مثل مقالة المؤمنين الصادقين: «آمنّا بالله وباليوم الآخر» مع أنهم في حقيقة أمرهم ليسوا بمؤمنين، لأنّهم يقولُون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

إنَّ قلوبهم غير مُؤْمِنة، فالسنتهم بإعلانها تُقَدِّمُ ادّعاءً كاذباً، إذْ هُو غير مطابقٍ للواقع الذي هم عليه في دخيلة نفوسهم وقلوبهم.

ونلاحظ أنّ النصّ قد بدأ بتقديم تعريفٍ محدَّد لهذا الصنف من الناس: يقولُونَ:
﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

واقتصر النصّ في بيان مقالتهم على إعلان الإيمان باللّهِ وباليوم الآخِر، لأنَّ هٰذين الرّكنين من أركان الإيمان هما الرُّكنان الأساسيّان في قضية الإيمان لسائر الأركان، وهي لوازمُ لَهُمَا أو فروعٌ عنهما.

* * *

وبعد التعريف بهذا الصنف من الناس، أخذ النصّ يبيّن طائفةً من صفاتهم النفسيّة والسلوكية.

فبدأ ببيانِ الباعث المباشر لهم على إعلانهم الكاذب، وهو رغبة المخادعة، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

قرأ جمهورُ القراء: [وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ].

وقرأ نافع وابنُ كثير وأبو عَمْرو: [وَمَا يُخَادِعُونَ].

المخادعة: هي إظهار ما يوهم الصدق والسَّلامة والسَّداد، وإبطانُ ما فيه خلاف ذلك.

والمخادَعَةُ تتضمَّنُ اسْتِغْفَالَ مَنْ يُراد خَدْعُهُ لإيقاعه فيما يكره، بأنْ يُظْهِرَ المخادِعُ لَهُ مَا يُحِبُّ، ويُخْفِيَ عنه ما يكرَهُ، تغريراً به.

وأصل مادّة «خَدَع» فيها معنى الاستخفاء والتواري، ومنها المخدع.

وفعل «يُخادِع» بهذه الصيغة يدُلُّ في الأصل على المشاركة، ويدلُّ أيْضاً على المبالغة والاجتهاد الزائد في العمل ولو كان من طرفٍ واحد، لأنَّ مَنْ يُغَالِبُ غيره في عملٍ ما يُبالغُ مِن طَرَفِه ببذل غايَةِ الجَهْدِ الذي يستطيع بذله، والمنافقون يبالغون جدّاً

في استخدام الخداع، ويُمْعِنُونَ فِيهِ ببذل غايَةِ جَهْدهم، حتّى كأنّهم في معركةِ مُخَادَعَةٍ بَيْنَهُمْ وبين المؤمنين.

ويدلُّ الفعل المضارع في [يُخادِعُون] على تجديد الخدع وتكريره مع مرور الزّمن، وهو ما يحتاج إليه المنافقون باستمرار.

أمّا مُخَادَعَتُهُمْ للذين آمنوا فظاهرة، ولكن كيف يخادعون الله وهو العليم بسرائرهم، وبكلّ مَا يَمْكُرون؟

والجوابُ أنّهم إذْ يخادعون الذين آمنوا مع أنّ الله معهم ما التزموا تعاليمَهُ وهُوَ وليُّهم، إنّما يخادعون مَعَهُمُ اللّهَ رَبَّهم، الّذي يتولّاهم بتأييدِهِ ونَصْرِه، ويحميهم من مكر المنافقين وكَيْدِهِمْ، لذلك فهم بغفلتهم عن هذه الحقيقة أو بجحودهم لها لا يَخْدَعُون ولا يُخَادِعُون إلاّ أنْفُسَهُمْ، إذ إنّهم هم الواقعون في شرّ أعمالهم، والساقطون في الْحُفَر الّتي يحفرونها للمؤمنين، وهذا يُبيّن أنّهم همُ الْمَخْدُوعُونَ لا الخادِعُون، نظراً إلى أنّ خديعتهم مردودةٌ عليهم من حيث لا يشعرون، وسِهَامُهُم مُنْقَلِبَةٌ إلى نُحُورهم وهم لا يعلمون.

فهم في مخادعتهم للمؤمنين المؤيَّدين من الله العزيز الحكيم يَكْبُو بهم ذكاؤهم، فَيَسْقُطُونَ في حُفْرَةٍ سحيقةٍ مِنْ حُفَرِ الحماقةِ والغباء.

إنّ من يخدعُ من لا يَنْخَدِعُ به، بل يَرُدُّ مَكْرَهُ إليه، ويقلِبُ كيده عليه، إنّما يخدَعُ نفسه.

وَتُنْبِئُ القراءتان: [وما يُخادِعون ـ وَمَا يَخْدَعُون] على أنّ المنافقين فيهم مَنْ يَخْدَعُ بصورة عاديّة، وفيهم من يُخادع مبالغاً بحسب مقتضيات الأحوال، فتكاملت القراءتان في الدلالة على هذا الواقع، وجاء الاستغناء بقراءة [وما يَخْدَعُون إلاّ أَنْفُسَهُمْ] عن أن يَرِد في المقابل قراءةٌ فيها: يَخْدَعون الله. فالذين يخدعون الله لا يخدعون إلاّ أنفسهم، والذين يخادعون الله لا يخادعون إلاّ أنفسَهم.

* * *

وبعد ذلك بيّن الله عزّ وجلّ العلّة الأساسيّة التي جعلتهم ينافقون ويَخْدَعُون ويُخَادِعُون فقال الله عزّ وجلّ:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾.

إنّ العلّة الأساسيّة لظاهرة النفاق لديهم أنّ في قلوبهم مرضاً، فما هو هذا المرض؟

لدى التحليل الفاحص يتبيّن لنا أنّ هذا المرض النفسيَّ الذي وصل إلى داخل دائرة قلوبهم هو من نوع الأمراض الخُلُقيّة، وهو مرض مركّب من عناصر هي في هيئتها التركيبيّة تُشَكِّلُ مرضاً مكتسباً عملت إراداتُهم على اكتسابه، وهي:

(١) الجبن المصحوب بالخوف من نزول المكاره، وفوات المصالح.

(٢) الطمع الشديد بالمنافع والمغانم الدنيوية.

(٣) خلُق الجحود والكنود، مع معرفة الحق وظهور أدلته، وهذا من بواعث الكفر في الباطن.

(٤) خلُق كراهية الحقّ الذي يخالف الأهواء والشهوات ونزعات الكبر والحسد، ورغبات الفجور في الأرض، وهذا من بواعث الكفر في الباطن أيضاً.

(٥) الشعور بالقدرة على اتّخاذ حيَل الإخفاء والمصانعة والتظاهر بغير ما في النفس من مشاعر وأحاسيس، وهذا من بواعثِ اتخاذ مسلك النفاق في الظاهر.

لكنّ الذين يعيشون في حالة التناقض بين ظواهرهم وبواطنهم، يتعرّضون باستمرار لعذاب القلَق، والخوف من الفضيحة، والضغط على النفس، لتعمل ما لا تهوى، بُغْيَةَ المصانعة والظُّهور بما يتلاءم مع الإعلان الكاذب.

وهذا نوع من العذاب يَجْنُونَه على أنفسهم بأيديهم، لذلك قال الله تعالى:

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾:

أي: فزادهم اللّهُ ألماً وعذاباً، كلّما زادوا نفاقاً، وتوغّلوا في قبائحه، وممّا لا ريب فيه أنّهم كلّما توغلوا في النفاق، وطال عليهم الأمد، وهُمْ يُشاهدون أنّ شوكة المؤمنين المسلمين الصادقين تشْتَدّ، وقُوّتَهم تعظم وتمتـدّ، زاد عذابُهم النَّفْسيُّ هذا، حتّى يتغلغل إلى عُمْقِ قلوبهم.

وعلى هـذا فالمعنى: فـزادهم الله عذابـاً وألماً كلّما تطاول أمـدهم في النفاق، وهذا من سنن الله في عقوباته المعجلة.

وفي هـذا التعبيـر إيمـاءٌ إلى أنّ الله عـزّ وجـلّ سيَنْصُـرُ المؤمنين ويُمَكِّنُ لهم في الأرض، ويَخْذُل الكافرين، ويسلُبُهمْ أسباب القوة والتمكُّنِ في الأرض، وهذا أمـر من شأنه أن يَغيظَ المنافقين، لأنّهم مع الكافرين في الباطن، وهو يَزِيدُهم عذاباً وألماً.

ففي هذه الجملة إذاً: [فزادهم الله مرضاً] بيانٌ للعقوبة المعجّلة التي يُعانـون من آلامها، عن طريق مرض قلوبهم نَفْسِه، الذي جعلهم يسلكون مسالك النفاق.

إنّ عـذابَ النفس يكون من خلُق الخـوف الذي يتـولّد عن الجبن أوّلاً، ويـزيدُه دواماً توقُّعُ انكشافِ أمرهم، وهَتْكِ سِتْرِهم.

ويكـونُ أيضاً من القلق الـذي يُولِّـده الطمـعُ مَعَ تـوقُّعِ الحـرمان، وهـو الطمـع المتأرجح بين المؤمنين والكافرين المصحوبُ بالقَلَق والخـوف من الحرمـان، والخوف من هتك السِّتر والتعرّض للنقمة.

وقد يَمَسُّهُمْ عذابُ الضمير الذي قد يحدُثُ نتيجةَ جحود الحقِّ، مـع الاستمرار على تلفيق الأكاذيب، وتصنُّعِ الظَّواهرِ المخالفةِ لطبيعة الفطرة البشريّة.

وقـد يَنْزِلُ بهم عَـذابُ آلام نَفْسِيَّـةٍ شَـدِيـدةٍ نتيجةَ نَصْـرِ الله المؤمنين الصـادقين وتمكينِهِم في الأرضِ قُـوَّةً وَسُلْطاناً، ونتيجـةَ خِذْلانِ الكـافـرينِ، وسلْبِهِمْ شيئـاً فشيئـاً أسبابَ تمكُّنِهِم في الأرض.

كُـلُّ ذلك من العقـوبات المعجّـلاتِ اللّواتي يُعانُـون من آلامها المتفجِّـرَةِ داخل نفوسهم، وعن طريق المـرض نفسه، الـذي جعلهم ينافقـون، ظانّين أنّهم يَجْلُبـون به لأنفسهم خيراً وسعادةً وراحةً ولذّاتٍ ومنافعَ ومصالح، ويَدْفَعُونَ به عن أنفسهم مَخَاطِـرَ وَمَضرّات.

أمّا العقوبة المؤجّلة إلى يوم الدّين، فقد جاء بيانُها في قولِهِ تعالى:

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

قرأ الكوفيون: [يَكْذِبُون].

وقرأ باقي القراء العشرة: [يُكَذِّبون].

فدلَّ قولُه تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا﴾ مُسْتَخْدِماً صيغةَ الفعل الماضي، على أنّ سبب العذاب الأليم الذي هو لهم قد سبَق أيام حياة ابتلائهم، أي: فهم الآن في حياة الجزاء يوم الدّين.

وذكَرَ أنَّ السَّبَبَ الحقيقيَّ هو كُفْرُهم، إذْ كذَّبُوا رَسُول اللّهِ في سَرَائِرِهم، وكذَّبُوا بما جاءَهُمْ به من عند ربّهم، وكذَّبوا بالنُّذُرِ، وكَذَّبُوا بادّعائهم أنّهم مؤمنون صادقون في إعلانهم إسلامَهم، مع أنهم منافقون يُبْطِنُون الكفر ويُظهرون الإسلام، فتكاملت القراءتان في الدلالة، إحْداهما أبانت كذِبَهُم، والأخرى أبانَتْ تَكْذِيبَهُمْ بالحقّ، وهذا من إيجاز القرآن وإعجازه.

* * *

وبعد التعريف بهذا الصنف من النّاس، وبيان الباعث المباشر لهم على النفاق، وبيانِ العلّة النفسيّةِ الأساسيّة التي هي المرض الخلُقِيُّ الذي كان في هيئته التركيبيّة وآثاره من مُكتسباتهم الإراديّة، والذي وصل إلى عمق قلوبهم.

شرع النّص في بيان طائفةٍ من ظواهرهم السلوكيّة، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

فَسادُ الشيء: تحوُّله عن حالة النفع والفائدة إلى حالةٍ دون ذلك، ويكون الفساد كُلّيّاً أو جُزْئيّاً.

وإفساد الشيء: يكون بتحويله عن حالة النفع والفائدة، إلى حالةٍ دون ذلك.

فإفسادُ الزّرْع يكون بإتْلافه كلّه أو بعضه، وإفساد البناء يكون بالتهديم منه على وجهٍ يضرّ به، أو يُفوّت من منافعه.

وإفْسادُ النفوس يكونُ بتحويلها عن صحتها الطبعيّة أو الخلقيّة، إلى حالاتٍ تجرُّ لَهَا أو لغَيْرِها آلاماً ومتاعبَ.

والإفسادُ في الأرض يكون بممارسات الظُّلم والْعُدْوَان، وقَطْعِ الطّريق، والقتل،

واستعباد الناس، وأكل أموالهم بغير حقٍّ، وهَضْم حقوقهم، ويكون باستعمال المضارّ والمؤذيات ونشرها، وبمقاومةِ المؤمنين الصالحين، ونشر المعاصي والموبقات التي تجلُب للناس الشرورَ والآلام، والأمراضَ والأسقام، وأنواعَ العداوة والبغضاء والخصام، كَنَشْرِ الزِّنَا، والسَّرِقة، واللِّواطة، ونشر شُرب الخمور وتناول المخدِّرات المهلكات، ونَشْرِ القمار والرِّبا، ومنع مساجد الله أن يُذْكَر فيها اسمه، وكمعاونة الكافرين، ومناصرة الظالمين، وخذلِ المؤمنين، وتدبير المكايد ضدّهم، ومخادعتهم والتغرير بهم.

ولذلك جاء في وصف قوم لوطٍ وصفُهم بأنّهم قومٌ مفسدون، بعد ذكر طائفة من أعمالهم، منها إتيان الفاحشة، وقَطْعُ الطريقِ، وإتْيَانُ المنكرِ في ناديهم، فقال الله عزّ وجلّ في (سورة العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

وجاء في وصف فرعون وقومه، وصفُهم بأنّهم قوم مفسدون، بعد وصفهم بأنّهم قوم فاسقون، فدلّ على أنّ الفسْقَ ممّا يؤدّي إلى الفساد في الأرض، فقال الله عزّ وجلّ في معرضِ الحديث عنهم في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وأبان الله عزّ وجلّ أنّ الفساد إنّما يظهر في الأرض بسبب ما يكسِبُهُ النّاسُ بأعمالهم، بمخالفة تراتيبه وأنظمته في كونه، القائمة على ما تقتضيه الْحِكْمَةُ، وبمخالَفةِ شريعته ومنهاجِ السلوك اللّذَيْن أبانَهُما في الدّين الذي اصطفاه لعباده، فقال اللّهُ عزّ وَجلّ في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وبعد معرفة حقيقة الفساد والإفساد نلاحظ أنّ المنافقين يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون، لأنّ خطّتهم في المخادعة، ونقل أخبار المؤمنين سرّاً لأعدائهم، وتوهين قوى المؤمنين وتخذيلهم، والعبث بالدّين وإلقاء الشبهات حوله، والكيد للإضرار بالإسلام، والمسلمين داخل صفوفهم، كُلُّ ذلِكَ من الإفساد في الأرض، بل هو الإفسادُ الأكبرُ، فَهُمْ شرُّ المفسدين، أو من أشدّهم شرّاً، لأنّ ضررهم أنكى من ضرر الكافرين الصُّرَحاء، المجاهرين بكُفرهِمْ وعداوتهم.

لذلك يصحُ أن يُقال في شأنهم على سبيل المبالغةِ، للإشعار بأنّهم في قمّة فئات المفسدين:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾.

لكنّهُم لا يشعرون بهذهِ الحقيقة، وربّما يتصوّرونَ أنَّ نسبة إفسادهم أقلُّ من نسبة إفساد الكافرين الصُّرَحاء، باعتبار أنّهم يداهنونَ المؤمنين، ويشاركونَهُمْ في كثيرٍ من أعمالهم، ويَظْهَرُون بالمظاهر الإسلاميّة في معظم المناسبات العامّة.

وحينما يشعرون بأنّهم يفسدون إفساداً حقيقيّاً فإنَّهُمْ يُحاوِلُون ان يستُروا أعمالهم بأقوالِهُمُ الكواذب.

وأحياناً يَرَون أنّهم بأنواع سلوكهم على خطّة النفاق يُصْلِحون، بطريقةٍ ذكيّة، على خلاف طريقة الكافرين الذين يُواجِهُونَ أعداءهم من أهل الإيمان مواجهاتٍ صريحاتٍ مكشوفاتِ الوسائل والغايات.

من أجل ذلك، إذا قيل لهم: ﴿لا تُفْسِدُوا في الأرض﴾.

قالوا: ﴿إنّما نحن مصلحون﴾:

وقد يُعَلِّلُونَ مقالتهم هذه بأنّهم يُريدُون أن يُقَرِّبُوا وجهاتِ النّظر بين فريقي المؤمنين والكافرين، فيمنعوا وُقُوعَ كارثة الهزيمة المنكرة بالْكَافِرِينَ، إذا هم نقلوا

أخبار تحرُّكات المؤمنين وأسرارَهُمُ العسكريّة، فهم يعملون لصالح السِّلْمِ والأمن العامّ، ولصالح الأُخُوّةِ الإنسانيّة.

وربّما زعمُوا للمؤمنين أنّهم يُريدُونَ أن يتخذوا أياديَ لهم مع الكافرين، حتّى يُخَفِّفُوا عنهم نقمتهم، أو حتّى يكونوا وُسَطاء صُلْحٍ ومُعاوَنَةٍ في الشّدائِد.

إلى غير ذلك من التعلّات الّتي يَنْتَحِلُها المنافقون عادةً، وهي كثيرةٌ جدّاً، ولا تكادُ تُحْصَرُ.

ولكُلِّ لوْنٍ من ألوانِ النفاق، ولكل صُورةٍ من صُوَرِه دعاوى يتستّرُ بها المنافقون، ويزعمون فيها أنّهم مُصْلِحُونَ غَيْرُ مفسدين.

فمن ظواهر المنافقين السلوكية أنّهم يُفْسِدُون في الأرضِ بأقوالهم وأعمالهم.

فإذا قيل لهم: لا تُفْسِدُوا في الأرضِ، بَهَتُوا ناصحيهم، وكذبوا بكُلِّ وقاحة، وَجعلوا الباطلَ حقّاً والحقّ باطلاً، دونما حياءٍ ولا تلجلُج، وقالوا: إنّما نحنُ مصلحون، وأخذوا يعلّلون سلوكَهُمُ المنافق المفسد، بأنّه من الأعمال الإصلاحيّة، وربّما كانت غلبة أهوائهم عليهم تَجْعَلُهُمْ يتصوّرون أنّ ما يفعلونه إنما هو من قبيل الإصلاح، ولا إفساد فيه.

* * *

وبعد ذلك انتقل النّصّ إلى بيان ظاهرةٍ أُخرى من ظواهر سلوكهم، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

السفيه: هو ناقص العقل، قليل الإدراك للأمور، ضعيف التفكير.

فمن ظواهر المنافقين السلوكيّة أنّهم يزعُمون لأنفسهم الذكاء ورجاحة العقل، وحسنَ التصرّفِ في الأمور، للتّخلُّص من المآزق الحرجة التي يواجهونها، ويَرَوْنَ أنّ المؤمنين الصادقين في إيمانهم أناسٌ سفهاء، ناقصو العقل، قليلو التفكير، يتأثرون ببادي الرأي وبادئه.

فإذا قيل لهم: آمنوا كما آمَنَ الناس، أي: كما آمن جمهور المسلمين إيماناً صادقاً، قالوا: أَنُؤْمِنُ كما آمنَ السُّفهاءُ؟!

هكذا بأسلوب الاستفهام الإنكاري الاستكباريّ التعجّبي.

لكنّهم لو كشفوا عن حقيقة الأمر لَعَلِموا أَنَّهُمْ هُمْ أَنْفُسُهم السُّفهاء، ناقصو العقل، قليلو التفكير، لا يتدبَّرُونَ عواقب الأمور، بخلاف المؤمنين، فالمنافقون يدفعون بأنفسهم إلى مواقع الآلام المعجّلَة، والشقاء الأبدي، بما اختاروا لأنفسهم من طرائق، وأساليب، وحِيَلٍ ذكيّة، زعموا أنّهم يحققون بها لأنفسهم الخير والسعادة والأمن والسلامة والرفاهية.

ومن أكثر سفاهة ممن يَجْني على نفسه عاقبةً وخيمةً أليمة، وَعذاباً أبديّاً، وشقاءً مُقيماً؟.

إنّهم بانحرافهم واتّباعهم أهواءَهم وشهواتهم، لم يستخدموا ذَكَاءَهم فيما هو خيرٌ لهم في عاجلِ حياتهم وآجلها يومَ الدين، إنّما استخدموا ذكاءهم وما لديهم من قدرات جِبلةٍ، للوصول إلى ما يَهْوَوْنَ ويشتهون من الحياة الدنيا، التي تعلّقتْ بها كُلّ هِمَّاتهم، وارتبطت بتحصيل لذّاتها كلّ همومهم، باعتبار أنّهم لم يؤمِنُوا بالآخرة.

وهذه الظاهرة نلاحظها في كلّ الذين لا يكترثون للدّين، ولا يُقِيمُونَ له في نفوسهم وزناً، إنّهم يتصوّرون أنّ المتديّنينَ ضعفاء العقول، ناقصو التفكير، تؤثر عليهم الأوهام، وتستولي عليهم الخرافات الغيبيّة.

ولو عرف المنافقون الأذكياء، وسائِرُ الكفرة، حقائقَ الإيمان بالله واليوم الآخر، وسائر حقائق الدّين، ببصيرة عقلية واعية عميقة، وببصيرة وجدانيّة نقيّة سليمة من الغشاوات، لعلموا أنّ أكثر الناس ذكاءً ورجاحةَ عقلٍ همْ من المؤمنين، الملتزمين بشِرْعَةِ الدّين وَمِنْهاجه، لأنّهم يعرفون كيف يَبْنُونَ في حَاضِرِهم مستقبلَهُمُ السَّعيد، وكيف يَحْمون أنفسهم من المخاطر المرتقبة.

والأنبياء هم من أذكى الناس، وأرجحهم عقولاً، فهم في قمّة أهْلِ الذّكاء والفطنة والعقل في مدىً تاريخ البشريّة حتّى تقومَ الساعة.

أمّا جماهير الأتباع من المسلمين المؤمنين الصادقين ففيهم المستويات البشرية

كلُّها، فيوجد في بعض أهل التقوى منهم غفلات فكريّة، وسذاجات، إلّا أنهم بـدوافع سلامة فِطَرِهم قبلوا مسيرة الإيمان والإسلام على مقادير أفْهامهم وتصوّراتهم، فسلموا، وحقّقوا لأنفسهم الراحة والطمأنينة والسعادة والنجاة يوم الدين، والله عزّ وجلّ لم يكلّفهم أكثر مما وهبهم من قُدُرات.

إنَّ فِطَرَهُمُ السليمة قد أعطتهم شعوراً فطريّاً بالحقيقة، وهذا الشعور الفطري السليم قد صاحبه من التفكير السليم بمقدار ما لديهم من هبات فكرية، وهذا يكفيهم لإيمانهم وإسلامهم، وتحقيق ما يُريدون من سعادة عاجلةٍ وآجلة، وبذلك تكونُ رؤيتهم للحقيقة أو إحساسهم النفسيّ الوجدانيّ بها أصحّ من رُؤية أنصاف أو أرباع الأذكياء، الذين رفضوا الإيمان بالله واليوم الآخر، ورفضوا الإسلام والعمل بشريعته ومنهاجه.

ولدى التمحيص نُلاحِظ أنّ الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، يظلُّ الشَّكُّ والتَخوُّف يَمْلآنِ قلوبهم قلَقاً واضطراباً، فهم في الحقيقة السفهاء وناقصو التفكير والعقل، وإنْ كانوا في أعْمالِ الخبث، والمكر، والكَيْدِ، أذكياء، فذكاء المجرم لا قيمة له في ميزان العقلِ الصحيح، والفهم السديد.

من أجل ذلك وصف الله عزّ وجلّ المنافقين بأنّهم هم السفهاء، لا المؤمنون، وردّ عليهم الوصف الذي وَصَفُوا به المؤمنين، دون أن يزيد عليه شيئاً، حتى لا يَكُونَ في الزّيادة معنى الْجَنَفِ في الجزاء، فالسيئة تُرَدُّ بمثلها.

ولا تخفى نزعة العجب والكبر والاستعلاء والغرور بالنفس، واستنكارِ دعوتهم إلى الإيمان الصادق، في مقالتهم:

﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾؟!

لذلك ردّ الله عزّ وجلّ عليهم وصف السفاهة انتصاراً للمؤمنين بقوله تعالى:

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

وباستطاعتنا أن نفهم من استعمال حرف الشرط «إذا» في قول الله تعالى:

(١) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

(٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾.

أنّ على من اطّلع على أحوال المنافقين من المؤمنين الصادقين، أن يعظوهم وينصحوهم بترك الفساد في الأرض، وتَرْكِ خطّة النفاق، وبالإيمان الصادق الصحيح أُسْوةً بسائر المؤمنين الصادقين.

نظراً إلى أنّ حرف الشرط «إذا» يدخل على متحقق الوقوع، والمؤمنون من وظيفتهم العامّة أن يدعوا إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وأنْ يأْمُروا بالمعروف وينْهَوْا عن المنكر، وَبِمَا أنَّ الْمُنَافِقَ لا بُدَّ أن يَنْكَشف أمْرُه لبعض أصدقائِهِ من المؤمنين الصادقين، فإنّ صديقه أو أصدقاءه لا يتركونه منْ دَعْوَةٍ ونُصْحٍ وأمرٍ بالمعروف ونهي عن المنكر، إذ المؤمنون مَدْعُوُّون دواماً أن يقوموا بوظائف الدعوة إلى سبيل رَبِّهم، ووظائف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فدلّ استعمال «إذا» على توجيه المؤمنين لنُصْحِ من يرون فيه نفاقاً، وأنّ من المؤمنين من سَيَسْتَجِيبُون لهذا التوجيه، فهذا النُّصْحُ أمرٌ مؤكّدُ الوقوع، فلا تزال طائفة من المؤمنين ظاهرين على الحقّ حتى يأتي أمر الله.

وبما أنّ المنافقين لا يعلمون من أنفسهم أنَّهُمْ هُم السفهاء في الحقيقة دون المؤمنين، فإنّهم يُصابون نتيجة اعتدادهم بتفَوُّقِهِمْ في الذكاء بعُقْدَةِ الغرور بالنفس، إذْ يَنْتَفِخُ هذا الغرور حتى يملأ جوانب النفس، فيُغَشِّيَ عليها، فيُخْفِيَ عنها وجهَ الحقيقة، ويَحْجُبَ عن بصيرَتِها كلَّ المنافذ التي يُمْكِنُ أَنْ تَرَىٰ مِنْها الحقيقة، وبذلك يسقطون في أشدّ أوحال الغباء، من حَيْثُ يَتَصَوَّرُون أنهم أهْلُ الذَّكاء المتفوّق، والعقل الراجح.

إنّ مَقَالَة المنافقين هُنَا تُشْبِهُ مقالةَ الكفّار من قَبْلِهِمْ، فَمَلأُ وجُمْهُورُ قوم نوح قالوا له، كما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

وكذلك قال له الملأ الّذين كفروا من قومه كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

ونظير ذلك قال مشركو قريش لرسول الله محمد ﷺ إذْ طالبوه بطرد الفقراء المؤمنين عن مجلسه حتّى يتّبعوه، أو بأنْ يكون له بهم اجتماع طبقيّ خاصّ، فأنزل الله عليه قوله في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

* * *

وبعد ذلك انتقل النصّ إلى ظاهرة أخرى من ظواهر سلوكهم، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿خَلَوْا۟﴾:

يقال لغة: خلا به، وخلا معه، وخلا إليه، إذا اجتمع به منفرداً.

﴿مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾:

الاستهزاء: السخرية والاستخفاف بالمسخور منه.

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾:

أي: يَمُدُّهُم بالقوى والطاقات ضمن سننه الدّائمة التي بمقتضاها يمُدُّ كُلّ عباده، مُحْسنيهم ومُسِيئيهم، مؤمنيهم وكفارهم، لاستكمال ظروفِ امتحانهم في الحياة الدنيا، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

فالْمَدُّ على هذا المعنى هو كالإمداد، ويكُونُ بمتابعةِ العطاء بمطالب الحياة من

خير أوْ شرّ. ومِنْ فعل «مَدَّ» الثلاثي على هذا المعنى قوله تعالى:

﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ . . . ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان/ ٣١].

ويأتي المدُّ بمعنى الإمْهَال.

والله عزّ وجلّ يَمُدُّهم من المدد بالعطاء لاستكمال ابتلائهم، ويَمُدّهم مُمْهِلاً لهم ليستوفُوا كُلَّ الزمن المقدّر لابتلائهم، وعَسَىٰ أن يثوبوا إلى رُشْدِهم، ويتوبوا إلى بارئهم.

وجاء ذكرُ ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ لبيان أنّ الله عزّ وجلّ يُمِدُّهُمْ بعطاءاته ويُمْهِلُهُمْ، حالة كونهم منغمسين في طُغيانهم، لا أنّه يَمُدُّهُمْ بِعُنْصِرِ الطغيان.

﴿يَعۡمَهُونَ﴾:

أي: يتَرَدَّدُون مُتحيِّرين، لا يَدْرُونَ على أيّ منهج يَسيرون. ويكون الْعَمَهُ أيضاً بمعنى انطماس البصيرة، فهو في الفكر والبصيرة كالْعَمَىٰ في البصر، والمعنيان مقصودان في النصّ.

فالمعنى الأول ينطبق على المنافقين المذبذبين الذين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، والمعنى الثاني يناسب المنافقين الذين مردوا على النفاق وهم مستقرّون في مواقع الكفر جزماً.

فمن الظواهر السُّلوكية للمنافقين أنّ لهم أكثرَ مِنْ وجه:

* لهم وجه يستعلنون به أمام جمهور المؤمنين، فإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنّا.

والظاهر أنّهم يكرّرون هذه المقالة كلّما دعت المناسبة إلى ذلك، نظراً إلى أنّهم لا بُدَّ أنْ يُلاقوا المؤمنين كثيراً، فهم ضمن صفوفهم ويتكرّر لقاؤهم بهم.

ولعلّ الداعي إلى تكرير مقالتهم هذه أمام المؤمنين الصادقين شُعورُهم الداخلي بأنّ في تصرُّفاتهم ما يُكذِّبُ ادّعاء إيمانهم، فهم يحاولون سَتْر ذلك بتكرير قولهم: «آمنّا» إذا لَقُوا فريقاً من الذين آمنوا، ورأوا في نظراتهم تشكُّكاً في صدق إيمانهم.

وهذا نظير لجوء الكذّاب إلى حلف الأيمان المغلّظة، لتأكيد أنّه يَصْدُق في كلامه، ولا يكذب.

* ولهم وجه آخر يَتوارَوْنَ بِهِ وَلا يُظْهرونه إلاّ إلى شياطينهم، أي: إلى إخوانهم المنافقين أمثالهم، أو إلى أئمتهم في النفاق، أو إلى أئمة الكفر وقادته، أو إلى الموسوسين لهم بأن يَسْلكوا مسلك النفاق من شياطين الإنس، كاليهود، أو إلى كلّ أولئك، وهو الأرجح.

وتفسير ﴿شياطينهم﴾ بأنّهم الموسوسون لهم من قادة يهود قول رُوِي عن ابن عباس، وهو قوي.

فإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا لهم: إنَّا مَعَكُمْ، فَأَكَدُوا لهم أنّهم معهم في حقيقة الأمر، كافرون بمحمد وبدينه، ولم يؤمنوا مع المؤمنين إيماناً صادقاً، بل هم أعداءٌ حقيقيّون لهذا الدين وللمؤمنين به.

وفي تعدية فعل «خلا» هنا بحرف «إلى» معنى الميل النّفسي، أي: خلوا مع شياطينهم مائلين بقلوبهم إلى طريقتهم، يُسِرُّونَ إليهم بالمودّة.

ويُجِيبُ المنافقون على تساؤلٍ لا بُدّ أن يُوَجَّهَ لهم، وهو: ما سَبَبُ هذا التلَوُّنِ إذاً، فيعلّلون لشياطينهم سلوكهم هذا بقولهم:

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ١٤﴾:

أي: ما نحن إلاّ مستهزئون بالمؤمنين، وذلك بأن نُظْهِر لهم أنّنا معهم نؤمنُ بما يؤمنون به، فيَرْكَنُونَ لنا، ويطمئنّون إلينا، فنُصيبُ منهم خيراً، ونترصّد غِرّاتهم للإيقاع بهم، أو التخلّي عنهم عند حاجتهم إلينا، ونَنْصُرُ أعداءَهُم الصرحاء المجاهرين بعداواتهم لهم، ونحن ضمن صفوفهم.

وظاهر أنّ هذا هو الاستهزاء من الدّرجة القصوى، أما صور الاستهزاء الكلامي ونحوه التي تجري بين الناس فهي دون هذا النوع من الاستهزاء بدرجات متعدّدات.

يتكلم بعض الناس بكلامٍ سخيف في محفل، فيُرِيدُ به أخذُ خصومه كيداً، فيظهر له الإعجاب بما يقول، ليتمادى فيما هو فيه، حتّى يَفْضَحَهُ، ويسقطه في أعين السامعين، ويُدْرِكُ الأذكياء أنّ هذا الذي أظهر له الإعجاب قد كان يُغَرِّرُ به استهزاءً

ليورّطه، فيندفع مُسْرعاً في الاتجاه الذي دفعه شطره، حتّىٰ يسقط في النهاية ويَسْخر منه الناس.

كذلك بفعل من يُريد تَوْرِيطَ مغرور بنفسه ليصارع رجلاً قوياً لا يقوى على مصارعته، فيقول له: أنت أقوى منه وأقدر، وستصرعه وتَغْلِبُهُ بقوتك وحيلتك وذكائك، وهو في ذلك يستهزىء به ويستخفُّه لِيُسرِعَ في التورّطِ.

فإذا اغترّ وتورّطَ، سقط طريحاً كلمحٍ بالبصر، فسخر منه المشاهدون واستضحكوا.

على مثل ذلك تأتي صور الاستهزاء الماكر المستخفي المقنّع.

لكنّ لعبة الاستهزاء الكبرى إنّما يمارسُها المنافقون القادة، لأنها في تصوُّرِهِمْ لعبةُ توريطٍ لأمّةٍ كاملة، ولا تقتصر على مجلسٍ من المجالس، ولا على فردٍ أو أفراد، إنّها لعبة استهزاء طويلة المدىٰ، واسعةِ الساحة البشريّة، شاملة لعمل أمّة كاملة، بكلّ تصرّفاتها، وكُلّ أنظمتها، لتوريطها وإسقاطها فيما تكره، وهي تظُنُّ خلافَ ذلك، ولا تعلم من أين أُتِيَتْ.

وطريقة المنافقين في الاستهزاء طريقة منافقة مستخفية غير مستعلنة، وليست مثل طريقة استهزاء الكافرين الصرحاء، فللكافرين الصرحاء طريقةٌ أخرى في الاستهزاء، هي طريقة الذي يواجه خصمه بهزئه.

وقد يدرك المؤمنون أنّ المنافقين يستهزئون بهم، ويخدعونهم، ويستخفّونهم ليتورّطوا، وذلك من خلال تصرّفاتهم، وفلتات أَلْسِنَتِهِمْ، فمن الملاحظ أنّ المنافق إذا كان في مجلس من يخدعهم بنفاقه، ورأى أو سمع ما لا يُعْجِبُه مّما لا يؤمن به باطناً، انفعلت نفسه تجاهه بحركة خفيّة من حركات الهزء والسخرية دون أن يملك نفسه، فإذا شعر بما جرى منه سارع إلى كتمه وإخفائه وإظهار خلافه لئلا يدلّ على حقيقته.

ومهما يكن من أمرٍ فإنّ الله عزَّ وجَلَّ مطّلع عليهم، وهو ينتصر لأوليائه، فيستهزىء من أعدائه، فيملي لهم، ويمدّهم بإمدادات الحياة كالمال والصحة والبنين وأنواع القوى التي هي من عطاءات الله لعباده، حالةَ كَوْنِهِمْ منغمسين في طغيانهم يَعْمَهُون، أي: يتردّوون متحيّرين، لا يَدْرُون على أيّ منهاج يسيرون، وفي أي سبيل

يسلكون، بسبب عمًى بصائرهم، ويُبْقِي الله لهم إمداداته في الحياة ليستكمل لهم ظروف امتحانهم فيها، حتّى آخر نقطة من أملٍ برجعتهم إلى الصواب، وتوبَتِهِمْ من الكفر والنفاق.

إنّ المنافقين يتصوّرون أنّهم بمسايرتهم الظاهرة المنافقة للمؤمنين إنّما يستهزئون بهم، لينتفعوا منهم، وليَتَّقُوا سلطانَهم ذا البأس، وليُوقِعُوهُمْ حين غِرّاتهم بما يكرهون، وليتخلّوا عنهم عند الشدائد.

لكنّهم في الحقيقة هم الواقعون بما يكرهون في عاقبة أمرهم، لأنّ الله عزّ وجلّ عليم بكل حركاتهم وتَصَرُّفَاتِهِمْ، فهو سبحانه يُمْلِي لهم، ويَمُدُّهم وهم سائرون منغمسون في طغيانهم، ومع هذا المدّ الذي يَرَوْن فيه أنْصِبَتَهُمْ من المنافع والحماية وبعض أنواع الكيد متحقّقةً لهم، تتكاثف الغشاوة على بصائرهم، فيسيرون في تصرُّفاتهم على عَمَهٍ، ومع تعاظم الطُّغْيَان يَتَعَاظم الْعَمَهُ، حتّى تنطمس بصائرهم تماماً عن رؤيَةِ مصائرهم، ويكونون بذلك قد مَرَدُوا على النفاق، فيتخبّطون في أوديته بجُرأةٍ، دون أنْ يُحِيطُوا أنفسهم بحذر.

ويدركهم عدل الله، فيسقطون في شرّ ما يكرهون، وينالون عقوبة استهزائهم بالمؤمنين، عندئذٍ يظهر أنّهم هُمُ المستهزأُ بهم حقيقة.

فمن استهزأ بمن يكون الله معه، فَيُمْلِي الله له، ويَمُدُّه بوسائل حياته، ووسائل ممارسته لأعماله، حتّى يوقعه في مَهْلكتهِ، عقاباً له على عمله، وينجي أولياءَهُ مِنْ مَكايِده، يكون في الحقيقة هو المستهزأ به.

ألا نفهم ذلك من قول الله عزّ وجلّ بشأنهم:

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾:

أي: حتّى يجدوا أنفسهم ساقطين بِخَبْيَاتهم في أوحال ما يكرهون، عندئذٍ ينظر المؤمنون إليهم نظر الكاشف لخباياهم المستهزىء بهم.

* * *

بعد ذلك جاء في النصّ الحكم عليهم، وتقويم سلوكهم في الحياة، وبيان أنّهم آثَرُوا الضلالة على الهدى، فبذلوا الهدى ثمناً، واشتروا الضلالة ﴿فما ربحت

تجارتهم﴾ الدنيوية، إذْ جرّ النفاق عليهم عاقبة وَخِيمَةً في الدُّنيا ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ هداية تنفعهم في آخرتهم، فوزاً بالجنة وخلاصاً من عذاب النار، فخسروا بما اختاروا لأنفسهم ثواب الهدى العظيم الذي أعدَّه الله للمؤمنين الصادقين، وخسروا أنفسهم إذْ جَرُّوا لها العذابَ في الجحيم يوم الدين، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

شبَّهُ الله عزّ وجلّ تركهم لهدى الإيمان الصادق الذي كان في أيديهم، وباستطاعتهم أن يحتفظوا به ملكاً، هو وثمراتُه في جنات النعيم، وأخذهم لضلالة النفاق بَدَلَهُ، وما تجنيه عليهم من خيبةٍ وعذاب، بمن استبدل شيئاً بشيءٍ عن طريق الشراء والبيع.

ولمّا كان غرضهم من ذلك تحقيقَ الرّبح الدنيوي، فإنّ هذا الرّبح الذي هو غرضهم لم يَصِلُوا إليه، ولم يُحَقِّقوا منه ما كانوا يطمعون في أن ينالوه، لا من جهة المؤمنين، ولا من جهة الكافرين.

لذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿فما ربحت تجارتُهم﴾ ولم يقلْ: فكانت تجارتهم خاسرة، لأنّ الغرض بيان عدم حصولهم على ربحٍ دنيويّ من نفاقهم، وهذا الربح لم يظفروا بشيءٍ منه.

لكنّ خسارتهم العظمىٰ هي خسارتهم الأخرويّة، إذْ يُحْرَمُونَ في الآخرة من ثواب المهتدين، ويكونون فيها من المعذبين في الدرك الأسفل من النار، وهذا هو الخسران العظيم، الذي يخسرون به أنفسهم، وقد أشار إلى هذا الخسران العظيم قول الله عزّ وجل:

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

* * *

وبعد ذلك ضرب الله عزّ وجلّ للمنافقين مَثَلَيْن، يَدُلّانِ على أنهم صنفان لا صنفٌ واحد.

فالأول: صنف مرد على النفاق.

والثاني: صنف ما زال مذبذباً، لا متجهاً بكليّته إلى هؤلاء الكافرين، ولا متجهاً بكليته إلى هؤلاء المؤمنين، لكنّه إلى الثبات في موقع الكفر أقرب.

فقال الله عزّ وجل في المثل الأول:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

وقالَ اللَّهُ عزَ وَجَلَّ في المثل الثاني:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

مثلان ضربهما الله عزّ وجلّ لمجموع المنافقين، ولدى تحليلهما بنظرات ثاقبات يتبيّن لنا أنهما يدُلّان على أنّ المنافقين صنفان، وأنّ كُلَّ مَثلٍ منهما يُلْقِي الضوء الكاشف على صنف من صنفي المنافقين:

* فالمثل الأوّل منهما تضمّن تشبيهاً لحالة الصنف الأشدّ من صنفي المنافقين، وهو الصنف الذي مرد على النفاق، بَعْدرؤيته أضواء هداية القرآن، وسماعه إنذارات عذاب الله للكافرين، ولمّا مرد على النفاق ملتزماً الثباتَ في موقع الكفر، طَمَس الله بصيرته، بقانونه القَدَري في سُنَنِه الجاريات الثوابت.

* والمثل الثاني منهما تضمَّن تشبيهاً لحالة الصنف الآخر المذبذب الذي ما زال متردّداً مُحْتاراً بين الإيمان والكفر، وهو إلى الثبات في موقع الكفر أقرب، فهذا الصنف لم يطمس الله بصيرته إمْهالاً له، وليَمْنَحَهُ آخِرَ نقطة في كأس بصيرته، ولو شاء الله لطَمَسَ بصيرته، حُكْماً عليه بالجانب الغالب الأرجح من واقعه.

(١) فالصنف الأوّل، مَثَلُهُ (أي: وصفه) كمثل (أي: كوصْف) الذي استوقد ناراً في مفازة مظلمة مُوحِشَةٍ ضِمْن ليلٍ دامسٍ، فلمّا أضاءَتْ هذه النار ما حوله من أرض المفازة، ورأى صراطه، وعرف سبيل هدايته، ووَجد أنَّهُ على غير ما يهوى وما يشتهي، اتّخذَ وسيلة أبعد عنه بها شُعاع الضوء، رافضاً الاهتداء بالنور، متأبيّاً ان يَسْلُكَ الصراط المستقيم، إصراراً على الْبَاطِل، ومعاندةً للحقّ، فوقع عليه قانون ذهاب النُّور، الذي تسبّب هو في إذهابه، فأمْسَى كالأصمّ الأبكم الأعْمَىٰ، غير مستعدٍّ لأن يرجع إلى مواطِنِ النور.

وفي بيان حال هذا الصنف من صنفي المنافقين، قال الله عزّ وجل:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾.

مِنْ هذا الإيجاز الخاطف في هذا المثل، يستطيع المتدبّر اللّمّاح، أنْ يفهم قصّة طويلة للممثَّل به، مطابقة لحالِ المنافقِ الممثّل له، وهو المنافق الذي اختار بإصرار موقع الكفر في الباطن، ومرَدَ على النفاق في الظاهر.

مَنِ الّذِي يستَوْقِدُ النارَ ثُمّ يُطْفِئُها ويبقىٰ في الظُّلُماتِ لا يُبْصر، فيكونُ كالأصمّ الأبكم الأعْمَىٰ، الذي يتخبَّطُ في ظلماته؟

لا بدّ أن يفهم المتدبّر الذكيّ اللّماح أنّه إنسانٌ في مَفَازةٍ مُوحشةٍ مُظْلِمَةٍ، يتخبَّطُ في ظلماته على غير هدى.

ثُمّ أدْرَكَ أنّ بإمكانه أن يجمع حطباً، وَيقدَحَ زِناداً، ويستوقِدَ بذلك ناراً، تُضِيءُ لَهُ ما حَوْلَهُ مِنَ الأرض، فتُنيرُ له طريقه، وتَهْدِيه إلى صراط نجاته.

ففَعَلَ ذلِك، واستوقد النار التي أراد، وأضاءت له النار ما حَوْلَهُ من الأرض، على محيط دائرة بِمِحْوَرِ مَكانه، لكنّه رأىٰ أنّ صراط نجاته على خلافِ مَا يهوى ويشتهي في رحلته، ففيه تكليفٌ إيجابيٌّ بعمل لا يُحبُّ أنْ يعمله، وفيه تكليفٌ سلبيٌّ بترك عملٍ لا يحبُّ أن يتركه، فاتَّخذَ وَسيلة للتخلّص من النور الذي كشف له الصراط، بإطفاء النّار، أو بغير ذلك، فأجرىٰ الله قوانينه الجبريَّةَ القدريّة، فذهَبَ بنوره ضمن ثوابت سُنَنه.

وهكذا كُلُّ من اتَّخذَ بإرادتِه وسيلةً ذاتَ أثرٍ في سُنَنِ اللّهِ لأمْرٍ ما، أجرى الله له قوانينه الجبريّة القدريّة، فحقّق لَهُ مَا أراد من أمْرٍ، سواءٌ أكان فيه نفعٌ له أو ضرّ.

فصار هذا المتخبِّط في مفازته يتحسَّس باللَّمْس مَواقِع مفازَتِهِ، ويتنقّل من مَوْقعٍ إلى موقعٍ، كُلّما وجدَ في بعض ما تقع عليه لامِسَاتُه ما يُمتعُه وَيَلَذُّ له.

وَمَعَ كُلِّ تنقُّلٍ تخبُّطٌ وأشواكٌ وحُفَرٌ وعوارضُ مؤلمات. وهكذا ظلّ في متاهاته، حتى انحدر إلى تهلكته وعذابه الأليم المقيم.

لكِنْ كَلِمات المثل في القرآن اقتصرتْ من الممثَّلِ بِهِ على عبارة:

﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾.

ووقف النصّ هنا في إيجاز بديعٍ، وترك لذكاء المتدبّر الحصيفِ أنْ يملأ بقايا هٰذِهِ اللّقطة من الممثَّلِ به.

إنّ مُسْتَوقِدَ النّار إنّما استوقدها للإضاءة، بدليل:

﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ﴾.

والصورةُ تُوحي بأنّه في ليلٍ دامسٍ، وفي صحراء موحِشَةٍ، وهذا ما دعاهُ إلى أنْ يتكلّفَ بحثاً عن الوسائل، ويطلُبها ليُوقِدَ النار التي يُريدُ، بدليل استعمال فعل: ﴿اسْتَوْقَدَ﴾ دون فعل «أوقد» وبدليل حال الممثّل لَهُ، الذي جاء في وصفه:

﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

لكنّ هذا الذي اسْتَوقَد النار قد اتّخذَ وسَائِلَ ليتخلَّصَ مِنْ ضوئها، الّذِي كشفَ لَهُ مَا حَوْلَه، فَدَلَّهُ عَلَىٰ خِلافِ ما يَهْوىٰ، إمّا بعَصْبِ عيْنَيْهِ، وإمّا بإطفاء النّار، وإمّا بالفرار من موقعها إلى مَوْقع آخر.

إنَّ تحديد وسيلةِ التخلُّصِ من ضوء النار لا تتعلّق به أهَمّيَّةٌ حَتّىٰ تُذكر، والتَّعْميمُ أولى، ليشمل كُلَّ الصُّور.

وقوانين الله عزّ وجلّ في الخلق تقضي بأنّ من اتخذ وسيلةً من الوسائل المحقِّقةِ في نظام التكوين الرّبّانيّ لأمْرٍ منَ الأمور، فإنّ الله عزّ وجلّ يُحقّق هذا الأمْر، فَمَنْ رَمَىٰ

نفسَه من شاهقٍ على صخْرٍ حطّمه اللّهُ وكسّر عظامه وقتله، كذلك من اتّخذ وسيلةً لإطفاء النّار ذهبَ اللّهُ بنورِه.

كلُّ هذا يُدرِكُهُ المتدبّر الذكيّ اللّمّاحُ، دُونَ أنْ يُذْكر في العبارة.

وينْتَقل النّصُّ مِنَ الممثَّلِ بِهِ إلَىٰ الممثَّلِ له، فيأتي بناءُ الحكْم علَىٰ المثَلِ كأنَّهُ عَيْنُ الممثَّلِ له، على طريقةِ القرآنِ في أمثاله.

والممثَّلُ له هُو الصنف الأوَّلُ من صنفي المنافقين كما سبقَ بيانه.

وقدْ دَلَّ هذا الحكْمُ على هُوِّيَّةِ هذا الصنْف، فَهُو صنفُ رفضِ الحقّ، واصْرُّ على الكُفر، ومَرَدَ على النفاق، فقالَ اللّهُ عَزَّ وَجلَّ غِطَاءُ لِقَوْلِهِ: [فلمَّا أضاءَتْ مَا حَوْلَهُ]:

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ۝١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝١٨﴾.

إنّ عبارة: [فلمَّا أضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ]، هِيَ مِنَ الممثَّلِ به، أمَّا مَا جاء غطاءً لَها فَهُو حكْمٌ يتعلَّقُ بالممثَّل له، وهم المنافقون المبطنون للكفر جازمين مُصِرِّين، المتظاهرون بالإسلام قناعاً كاذباً، وقد مَرَدُوا على النفاق، فهم غير مستعدّين للرجوع إلى حديقة الإيمان، بعْدَ اختيارهم طريق الكفر باطناً، والنفاق بالإسلام ظاهراً.

إنّهم لمّا اختاروا لأنفسهم هذا الاختيار الآثم بإراداتهم، أجرىٰ الله فيهم قانونه، فذهبَ بنور بصيرتهم الذي يوجّه مسامعهم لاستماع آيات الله، وبيانات الرسول ﷺ، ومواعظ الهداية، ويوجّه ألسنتهم الصادقة للاعتراف بالحقّ الدينيْ، والدّعوة إليه عن إيمانٍ وصدقٍ، ويوجّه أبصارهم لمشاهدة آيات الله في كونه دواماً، والانتفاع منها بتمكين الإيمان وتعميقه.

لذلك فهم بالنسبة إلى قطاع الهداية الرّبّانية التي تُقدّم لهم دلائل السعادة الأخرويّة الخالدة:

﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾.

كيف لا يكونون كذلك، وقد ذهبَ الله بنور بصيرتهم، إذ اتّخذوا باختيارهم الحرّ

الوسائلَ إلى ذلك، بإصرارهم على الكفر، بعد معرفتهم دلائل الإيمان، ورؤيتهم أضواءَ آيات الله وبيانات الرّسولِ ﷺ، وابتغائهم تحصيل الأمن والمنافع من جهة جماعة المؤمنين، بإعْلانِ الإسلام نفاقاً.

ثمّ إنّ من اختار بإرادته الجازمة الواعية مثْلَ هذا الاختيار، لا يمكن في العادة أن يَرْجع إلى مواقع النّور والهداية وصِدْقِ الإسلام، فقال الله عزّ وجل:

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

* * *

(٢) أمّا الصنف الآخر من صنْفَي الْمُنَافِقين، فمثَلُهم كمثل جماعةٍ في مَفَازَةٍ مظلمة بليلٍ دامسٍ، جاءَهُمْ سحابٌ مُمْطر، فأمطر عليهم مطراً غزيراً، فأصابتهم الحيْرَةُ يبتغون النجاة، ورافق ذلك رعْدٌ وبرق، فكانوا ضِمْنَ هذا الحدَثِ على مفازتهم، في مَطرٍ غزيرٍ مخيف، وفي ظُلُماتٍ مُوحِشات، وفي رعْدٍ يُثِيرُ الرُّعبَ، وفي برقٍ يتلامع بالضوء.

فهم كلّما تواتر عليهم الرَّعْدُ الشديدُ المخيف القاذف بالصواعق، يجعلون أصابعهم في آذانهم خوْفاً من الصواعِقِ أنْ تأتيهم بالموت، وكُلّما أضاء لَهُمُ البرْقُ مَشَوْا في ضوْئِه على مقدار ما يكْشِفُ لهم وَمِيضُه، فخُطُواتُهُمْ على طريقِ الهُدَىٰ قليلة بِقَدْرِ الْوَمَضَات، وكلّما انتهتْ ومَضَاتُه السَّريعاتُ الخاطفاتُ توقَّفُوا في مواقعهم حَيارَىٰ، لا يَدْرُونَ كيف ينصرِفُون.

إنّ أهل هذا الصنفِ من المنافقين لم يَصِلُوا بَعْدُ إلى مرحلة العنادِ والإصرار على الكُفْرِ، ورَفْضِ قَبُولِ الحقّ الذي جاء به كتابُ الله، وبيّنَهُ رسُولُ الله ﷺ، بل ما زالتْ لديْهم بقيَّةُ خيرٍ تنْزِعُ في داخلهم إلى الاستجابة، لكنّها بقيَّةٌ ضعيفة.

إنّهمْ لم يَفْقِدوا القدرة على رؤية طريقِ الهداية، كما فقدها أفرادُ الصنف الأول، لكنّها بقيت لديهم في مستوى نزعاتٍ تشبه خواطِفَ البرق، وهي قويّةٌ باهرة، إلاّ أنّها قصيرَةُ الزّمن، بينما هُمْ بحاجَةٍ لالتزام طريق الهداية إلى نور دائم الإشراق، أو طويل مُدّةِ الإشراق، حتّىٰ يملكوا دوام الهداية.

ولَمْ يفقدوا أيضاً القدرةَ على سماع إنذارات العقاب الأليم جزاءً وفاقاً، لكنّها

بقيت لديهم في مستوى نزعات قليلات، تُشْبه الوحداتِ الزمنيَّةَ القليلةَ الَّتي يأتي فيها مع المطر الغزير رعْدٌ يقذف بالصواعق، وهم بحاجة لاجتناب سلوك سُبُل الكُفْرِ والضَّلال إلى خوفٍ دائم، أو طويل البقاء من عقاب الله الأليم، حتَّى يملكوا دوام اجتناب سُبُلِ الكُفْرِ والضلال.

فهم حيارى بَيْنَ بَيْن، ما زالَ يتجاذَبُهُمُ النقيضان: الكُفْرُ والإيمان. وهم إلى الثبات في موقع الكُفر أقرب. ويَصْدُقُ في شأنهم على وجه العموم أنهم متردِّدُونَ مُذَبْذَبُون.

إنَّهم يَسْمَعُونَ أحْياناً آياتِ الْوَعِيد التي تهزُّ قُلُوبَهُمْ هَزّاً عَنِيفاً، فيخافون، وتَنزع قُلُوبُهم إلى اختيار الإيمان والثبات فيه.

وتتلامع أحياناً لعقولهم وألبابهم أضواءُ الحقّ الشديدة القويَّةُ، الَّتي تشبهُ أضواءَ البرقِ الَّذي يخطف الأبصار لقوّته وشدّته، فتنزعُ قُلوبُهُمْ لاختيار الإيمان والثبات فيه، واجتناب سُبُلِ الكُفر والعصيان.

لكنّهم سرعان ما تغلبهم أهواؤهم وشهواتُهُمْ، فيقمعُونَ نوازعَ الخير في قلوبهم، ويُحْجِمُونَ عن قبولِ الحقّ، ويُعْرِضُونَ مائلين ميلاً شديداً إلى اختيار الثبات في موقع الكفر والعصيان.

فهم في وَسَطٍ بين السَّمع والصَّمم، بين البصر والعمى، وهم إلى الصُّمم والعَميْ أقرب، دلّ على هذا المشهد التمثيلي قولُ اللّهِ عزّ وجلّ في المثل الثاني:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾.

﴿كَصَيِّبٍ﴾: الصَّيِّبُ المطرُ الغزير. والسحابُ الْمُمْطِرُ مَطراً غزيراً. اي: أو المنافقون كجماعَةٍ في مَفازةٍ عَمَّهُمْ وأَحاطَ بهم صيِّبٌ فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ، وهذا الرَّعْدُ قَدْ يقذف بالصواعق.

وحرف (أو) هو للتقسيم في التمثيل، المناظر للقسمَيْن اللَّذيْن يَنقسمُ إليهما

المنافقون، كما تقول: الكلمةُ مثلُ: أكلَ يأكُل، أو سعيد وسماء وماء، أو في ولمّا وثمّ، أي: الكلمة: إمّا فعلٌ أو اسمٌ أو حرف. فليست كلمة (أو) في النصّ هنا للتشكيك، ولا للتنويع في ضرب المثل، إنما هي للتقسيم.

وهؤلاء الجماعة الذين هم في مفازةٍ مَغْمُورَةٍ بسحابٍ مُمْطِرٍ مطراً غزيراً فيه رعدٌ وبرقٌ، يملكون أن يسمعوا صوت الرَّعْدِ الذي قَدْ يقذفُ بالصواعقِ، فكُلَّمَا سَمِعُوا الرَّعْدَ وأحسُّوا بمقدِّمات الصواعقِ جعلوا أصابعهم في آذانهم من أثر قَعْقَعَةِ الصواعق، وفزْعِها الشديد، والدَّافعُ إلى ذٰلِكَ خوْفُ الموت.

وجاء التعبير بالأصابع بدَلَ الأناملِ، لأنّ مَشاعِرَهُمْ تَنْدَفِعُ لو اسْتطاعوا أن يُدْخِلوا كُلَّ أصابعهم في آذانهم، ليسُدُّوا عَنْهم وقْعَ الصوْت الشديد، الذي قد يكونُ مصحوباً بالصواعقِ التي تأتي بالموت، وهذا من الصدق الفنيّ.

وهؤلاء كلّما أضاء لهم البرقُ مَشَوْا في ضَوْئه، وإذا انْقطَعَ فأظلم عليهم الجوُّ قامُوا، أي: وقفوا في موقعهم في الظلماتِ حيارى.

ودَلَّ النصّ على أنّ هذا الصِّنْفَ من صنفي المنافقين، يُحْكَمُ عَليْه أيضاً بالكُفْر، وإنْ كانَ لديْه بقيّةُ أمَلٍ بالرَّجعة إلى الإيمان الصادق، لأنّ الإيمان لا يقبل التنصيفَ ولا التجزئة، فكيف بهم وهم أكثر مَيْلاً إلى جانب الكفر الجازم، وإلى الثبات الدائم في موقع الكفر، دون رجعة عنه، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ١٩﴾.

وما دام لدى هذا الصنف بقيّةُ أمَلٍ، فإنّ الله عزّ وجلّ في قوانينه القدريّة التي تتمّ نَتيجة إراداتِ عباده الاختياريّة، يترُكُ لَهُمْ هذا المقدار القليلَ من الرغبات الضعيفات الضئيلات، الباعثات على استماع آيات الوعيد، ورؤية أنوار الحقّ، مهما قلّ هذا المقدار، إمْهالاً لهم، وليتْرُكَ لَهُمْ كلَّ فرصةٍ في الحياة الدّنيا قد تَسمَحُ لهم ولو في أضعف الاحتمالات، بأنْ يتماثلُوا إلى العافية والشفاء، مع أنه لو شاء عزّ وجلّ لَمَا تَرك لديهم هذه البقايا، على اعتبار أنّها بقايا ضعيفة، غير صالحةٍ بحسب العادة للتماثل إلى العافية، فإراداتُهُمْ ميّالَةٌ برُجْحانٍ إلى جانب الكفْرِ الجازم، لكنّ اللّٰهَ عزّ وجلّ لا يفْعَلُ ذٰلكَ رَحمةً بهم، واستيفاءً لظروفِ امتحانهم، حتّى آخِرِ قطرةٍ من

الإمْهالِ الحكيم، دلّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في النص:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ولو شاء الله لجعَلهُم مثل أهل الصنف الأوّل صُمّاً بُكماً عُمْياً.

ولم يَدْمَغِ الله عزّ وجلّ هذا الصنف الثاني بـأنّهم لا يرجعـون، كما ذكـر بجانب أهـل الصنف الأوّل، نظراً إلى أنهم لم يَصِلُوا بَعْـدُ إلى مستـوى التصميم الجـازم على الثبات في موقع الكفر، عن وعيٍ كامل لمَا قرّروه لأنْفُسِهم بالاختيار الحرّ، لذلكَ فهم لم يَصِلُوا إلى حضيض:

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

إنّ هذا الصنف لم تنطَمِسْ بصيرتُهُ انطِمَاساً تامّاً، بل يتلامع لـه نور الحقّ أحيـاناً فيراه، فيسير فيـه قليلاً، ويَسْمَـعُ إنْذَاراتِ آيـاتِ اللّهِ أحيانـاً فَيَرْهَبُ، لكنّـهُ إذا اشْتَدَّتْ عليْهِ سَدَّ سمعه عنها، وهو بعد ذلك يعودُ إلى حالَتِهِ الأولى.

وهكـذا نـلاحظ أنّ لـوحَـةَ المثـل بجملتهـا تُمثّـلُ صـورةَ هـذا الصنف المتـردّدِ المذبذب الحيران من صنفي المنافقين.

* * *

خـاتـمـة

تحدّث هذا النصّ عن المنـافقين الـذين سلكـوا سبيـل النفاق من عـرب أهـل المدينة، وعمّا ظهر من صفاتهم وخلائقهم وأنـواع سلوكهم مع المؤمنين، خـلال المدّة التي سبقت نزول هذا النصّ من المرحلة المدنيّة.

ويظهر أنّ الصفات التي تحدّث عنهـا هذا النصّ من صفـات المنافقين، هي من أولى الصفات التي تبرز فيهم.

فهم بعد إعلانهم الكاذب، وسلوكهم مسلك المخادعة الملازمـة لهذا الإعـلان، استجـابةً لمـا في قلوبهم من مرض الانحـراف الخلقيّ الشائن، تـظهـر منهم القبـائـح التالية:

(١) يبهتون الناس، فيدّعون مؤكّدين أنّهم مصلحون، ولا يشعرون بأنهم من أكثر الناس فساداً وإفساداً.

(٢) ويزعمون أنهم هم الأذكياء الفطناء الذين يعرفون مصلحةَ أنفسهم، فيحتالون لتحقيقها، ويَسِمُونَ المؤمنين الصادقين بالسفاهة، وضعف التفكير، وقلّة العقل.

ولا يعلمون أنهم من أكثر الناس سفاهةً، بالنظر إلى أنّهم يَسْعَوْنَ إلى شرٍّ مصير يصيرُ إليه الناس، وهو الدرك الأسفل من النار، أمَّا ذكاؤهم فيستخدمونه في الحِيَلِ الماكرة، لإخفاء هُوِيّتِهم الحقيقية، وهُمْ غافلون عن حقيقة ما هم إليه صائرون.

(٣) ثمّ هم في تحرّكهم في المجتمع يظهرون للمؤمنين دائماً بوجهِ ادّعاءِ الإيمان، فإذا خَلَوْا إلى قادتهم منهم، أو إلى زعماء أهل الكفر الذين يشجعونهم على النفاق من العرب أو اليهود، كَشَفُوا لهم هوّية أنفسهم، وحقيقة ما في قُلوبهم، ويُبَيِّنُونَ لهم أنَّ مَا يَظهرونَ به أمام المؤمنين الصادقين، إنّما هو لُعْبَةُ استهزاءٍ بهم، وتغريرٍ لهم.

● ● ●

النصّ الثالث

من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول)
الآيات من (٧٥ ـــ ٨٢)
حول توجيه المؤمنين أن لا يطمعوا في أن يؤمن لدعوتهم منافقو اليهود وسائرهم

من الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً منذ أوائل المرحلة المدنية، فريق من اليهود، اشتركوا في خطة النفاق مع المنافقين من عرب يثرب، وربّما كان لهم في هذا دور المستدرِج والموجّه والمدير والمدبِّر لحَرَكةِ النفاق.

فأنزل الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة) توجيهاً عامّاً للمؤمنين، يصرف فيه طمعهم عن التعلّق بإيمان اليهود، ويصف فيه لهم واقع حال اليهود، ويبيّن لهم فيه أقسامهم، ويذكر من ضمن هذه الأقسام قِسْمَ المنافقينَ منْهم، الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً وهم غير مؤمنين، فقال الله عزّ وجلّ خطاباً للمؤمنين بعد كلامٍ طويلٍ عن اليهود:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ

﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

* * *

ما في النصّ من القراءات المتواترة (من الفرش)

أَمَانِيَ: بياء غير مشدَّدة قراءةُ أبي جعفر.

أمانيَّ: بياء مُشَدَّدَة قراءةُ باقي القُرّاءِ العشرة.

وهما وجهان لُغويّان للكلمة قُرِىء بهما في المتواتر.

خَطِيئَاتُهُ: بالجمع قراءةُ المدنيّين: نافع وأبي جعفر.

خطيئَتُهُ: بالإفراد قراءةُ باقي القُرّاء العشرة.

وفي هاتَيْنِ القراءتَيْن تكاملٌ فِكْرِيٌّ فقد تُحيطُ الخطِيئَةُ الوَاحِدَةُ إذَا كانت من العقائدِ أو الأعمال التي تُسْقِطُ في الكفر، وقَدْ تحيطُ عدّةُ خطيئاتٍ هي بمجموعها تُسْقِطُ في الكفر، لا أنّ الواحدة منها أو مادُونَ مَجْموعِهَا يُسْقِطُ في الكُفْر.

* * *

(١)
المفردات اللغوية في النّصّ

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾:

الطَّمَعُ بالشيء الرَّغبة فيه، وتشهّيه إذا كان مِمّا يُشْتَهى. يقال لغة: طمِع فيه، وطَمِع به.

﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾:

التحريفُ الإمالةُ والتغيير. ويكُونُ بتغيير الألفاظ، أو بتغيير المعاني.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾:

عَقْلُ الشَّيْءِ يكونُ بربطِهِ بعقالٍ للمحافظةِ عليه، وفي الألفاظ والمعاني، يكونُ بحفظ الألفاظِ وتَدْوينِها، وفَهْمِ المعاني وضَبْطِها وإِدْرَاكِ حدُودِها، وقد يُصَاحِبُ ذلك تَسجيلُها في الشّروحِ والتفاسير، والكتب.

﴿خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾:

يقالُ لُغَةً: خلا به، وخلا معه، وخلا إليه، إذا اجتمع به منفرداً، وفي: «خَلَا إليه» معنى خلا به مائلاً إليه، على سبيل تضمين خلا معنى مال.

﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

أي: بما فتح الله عليكم من فهم في معاني نصوص توراتكم الدالّة على البشائر بمحمّد رسول اللّهِ ﷺ.

﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ﴾:

أي: غير متعلّمي القراءة والكتابة، فلا يَدْرُسُونَ نصوص الدين بتدبّر، والأُمّيُّ هو المنسوبُ لأُمِّه، أي: هو كما ولدته أُمّه بالنسبة إلى تعلّم القراءة والكتابة، ومتابعة الدراسة في الكتب، ويُطْلَقُ الأميّ على غير المتعلّم وإن كان يقرأ ويكتب، فالأمية ذات نِسَب.

﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾:

أي: إلّا قراءة بدون فهم ولا تدبّر، أو إلّا تلاوة عن طريق السماع.

﴿أَمَانِيَّ﴾:

بتشديد الياء وتخفيفها، جمعُ أمنيّة، والفعل «تَمَنَّى»، والمصدر «التَّمَنّي» وهو حركة النفس بما تشتهي وترغب، ويغلب أن يكون مستبعد الحصول عليه. ويأتي بمعنىٰ القراءة والتلاوة، ويأتي بمعنى اختلاق الكذب.

ويأتي تفصيل ذلك عند الشرح التحليلي إن شاء الله.

* * *

(٢)
المعنى العامّ للنّصّ

إنّ معرفة إمكان تحقق غاية من الغايات في مجتمع ما من المجتمعات البشريّة، تتوقّفُ على دراسة واقع حال هذا المجتمع.

فإذا كانت ظاهرات هـذا المجتمع بفِرَقِهِ وأقسامه، تـدلُّ بحسب سُنَنِ الاجتماع البشريّ، على أنّه لا مطمَع في إصلاح النسبة الكبرى منه، كان الطمع بإصلاحه واستجابة أفرادِه للهداية، تعليقاً لرغبات النفوس والقلوب بأمْرٍ غير ذي جَدْوَىٰ سارّة.

فمن الحكمة السياسية في سير الدعوة ـ والحالُ كذلك ـ أن تُصْرَف الجهودُ إلى مجالاتٍ ومجتمعاتٍ تكونُ الدّعوة فيها ذات جدوىٰ سارّة، أو جدواها أعظم وأكثر، وأن يقتصر توجيه الاهتمام في المجتمعات التي تدلّ ظاهراتها على أنّها ميؤوس من إصلاح جماهيرها ولا مطمع فيه، على تصيُّدِ الأفراد الذين يكون الأملُ بهدايتهم قويّاً، أو تكون هدايتهم أمراً غير ميؤوسٍ منه بعد.

ومجتمع اليهود في عصر الرسول ﷺ، ومنذ أوائل العهد المدنيّ، قد دلّت ملاحظة واقع حالهم مع تكرار التجربات، على أنّ الطمع بهداية النسبة العظمىٰ منهم طمعٌ في غير محلّه. وذلكَ لأنّ الظّاهرات الاجتماعية التي تَكْشِفُهَا الملاحظة في مختلف فرقهم وأقسامهم وطبقاتهم، وتُثْبِتُها التجربات المتكرّرات لهم، تدلُّ على أنّ هداية جمهورهم هي بمثابة الأمر الميؤوس منه، أوالذي لا مطمع فيه. فينبغي إذاً التعامل معهم على هذا الأساس، توفيراً للْجَهد، واستغلالاً له فيما هو أجْدَىٰ.

ومن البدهيّات أنّ التعامل مع مطموع بهدايته، غير التعامل مع ميؤوس من هدايته بحسب الظواهر الاجتماعية المعتادة، أو الطمع في هدايته ضعيفٌ جدّاً.

هذه قاعدةٌ من قواعد الدعوة إلى الله، علّمها الله عزّ وجلّ للمؤمنين، بقوله في سياق الكلام عن اليهود:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾؟!.

بصيغة الاستفهام التعجيبي.

أي: أفتطمعون أيها المؤمنون أن يؤمن جمهور اليهود، لأجل دعوتكم، وحرصكم على هدايتهم، واتخاذ مختلف الأساليب لإقناعهم واسترضائهم؟!

هذا الطمع في غير محلّه، لأنّ الظاهرات الاجتماعيّة التي برزت في مجتمع اليهود تدلُّ على أنّ هداية معظم أفرادهم أمْرٌ لا يصحّ أن يكون مطموعاً به، فالتعامل معهم على أساس الطمع بهدايتهم يبدّدُ جهودكم، ويصرفها عمّا ينبغي أنْ تُوَجّه له، ومن ذلك توجيه الجهود لدعوة من يرجى من أفرادهم أن يستجيب، وتوجيه الجهود لدعوة مجتمعات أخرى يكون بذل الجهود فيها أنفع وأجدى، إذْ هي للهداية والاستجابة والإصلاح أرْجى.

وفي صيغة هذا الاستفهام التعْجيبيّ [أفتَطْمَعُونَ أنْ يُؤْمِنُوا لَكُم؟!] توجيهٌ من الله للمؤمنين كي يصرفوا طمعهم عن استجابة جمهور اليهود لدعوتهم، ليوفّروا جهودهم التي يبذلونها بينهم لدعوة جماعات أخرى هي أرجى استجابةً للدعوة.

ثُمّ بيّن الله عزّ وجلّ بالتّحليلِ التفصيليّ واقع حال هذا المجتمع الذي يدلُّ على أنّ الأمل بهداية نِسْبَةٍ كبيرةٍ من أفراده أملٌ ضعيف، إذْ هُمْ:

* إمّا علماء، وأئمة وقادة، يحرّفون كلام الله عامدين متعمّدين، اتباعاً للهوى، والأملُ بهداية هذا القسم ضعيفٌ جدّاً، كما تدلّ سُنَن الاجتماع البشري.

* وإمّا منافقون، دخلوا في الإسلام نفاقاً، ومعظم هؤلاء هم من علماء اليهود الذين يعرفون الحقّ، وينحرفون عنه، فهم لا ينقصهم تعريف بالحقّ وبيان له، والأمل بهداية هذا القسم، واستجابته القلبية ضعيف جدّاً أيضاً، كأفراد القسم الأول.

* وإما وضاعون كذّابون، يكتبون الكتب من عند أنفسهم، ثم يزعمون لجماهيرهم أنّها مِن عند الله، ويتاجرون بهذه الكتب، فيبيعونها بثمن مهما كثر فهو قليل بالنسبة إلى ما سيلاقونه من عذاب عند الله على افترائهم عليه، والأملُ باستجابة هذا القسم للحقّ ضعيف جدّاً، لأنّه مُلْحَقٌ بقسم الذين يحرفون كلام الله، بل هو أبلغ جريمةً، وأعظم إثماً، وأشدّ جرأة على افتراء الكذب على الله، فأفراده يعرفون الحقّ ويتعمدون التزوير في أقبح صوره، ويتعمّدون الكذب على الله، اتّباعاً لهوى النفس، والمنافع العاجلة الدنيوية.

* وإمّا أُمّيّـونَ جهلة، إلاّ أنّهم مُقلّدون متعصّبُونَ، يَتّبعـونَ أئمّتهم من اليهـود اتّباعاً أعمى، ثقةً بهم، وتعصُّباً لهم، لأنهم من قومهم بني إسرائيل فيما يتصوّرون.

وما دام هؤلاء مرتبطين بأئمتهم هذا الارتباط الشـديد على غيـر بصيرة، فـلا أمل بهداية جمهورهم. هذا ما تدلُّ عليه سنن الاجتماع البشريّ.

وتأتي الآياتُ فتُبيِّن هذا الواقع الذي يكشفُ بالتفصيل أقسام مجتمع اليهود بصفة عامّة، أمّا الخارج عن هذه الأقسام فنادر قليل، حتّى كـأنه لا يعتبـر قسماً لقلّة أفـراده، ونُدْرَتِهم، كالذين آمنوا صادقين، ومن الصادقين: «مخيريق» و «عبد الله بن سلام».

* * *

(٣)
مع النّصّ في التحليل والتّدبّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

أي: يسمعون كلام الله ويعقلونه، ثم يحرّفـونه من بعـد ما سمعـوه وعقلوه، وهم يعلمون.

ففي هذه الآية بيان لقسم من أقسام اليهود، وهم فريق الأئمة والقادة والـزعماء، وفيهم العلماء بالكتاب المنزّل عليهم.

وقد غدا من عـادة هذا القسم أن يسمعُوا كلام الله من قـرّائهم، فيعقلوه بالحفظ والاستذكار، ثمّ يحرّفوه بالتأويـلات الباطـلات، وبالـزيادة والنقص والتغييـر والتبديـل، وذلك من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون من أنفسهم أنّهم يحرّفُون كـلام الله، وإذْ يُمِيلُونه بالتأويلات الباطلات عن وجه دلالاته إلى معانٍ أخرى تُوافِقُ أَهْـوَاءَهم، ويغيّرون بعض كلامه بقصد تغيير المعنى، أو يزيدون أو ينقصون ويقتطعون النُصوص، كلُّ ذلك بقصد تغيير المعاني بحسب أهوائهم.

إنهم لا يقعون في خطأ التحريف نسياناً للنصّ، أو جهلاً بـطرق التدبّـر والفهم،

بل هُمْ يتعمّدون هذا التحريف استجابةً لأهوائهم الخاصّة، أو استجابة لرغباتِ ملوكهم أو ذوي السلطان أو الجاه أو المال فيهم.

ومن بلغت به الجريمة الدينيّة إلى هذا المستوى من تحريف كلام الله الذي يؤمن هو به، وقد ورثه عن قومه كابراً عن كابرٍ ويفعلُ ذلك عن تعمّد وسابق إصرار، فإنه لا مطمع في هدايته واستجابته لدعوة دين جديد حقّ مُنزّلٍ من عند اللّهِ تخالف شرائعُهُ وأحكامُه أهواءه، ورسولُ هذا الدِّين من غير بني إسرائيل.

أو الطمعُ فيه ضعيف جدّاً، لا يستحقّ بَذْلَ الجهود الكبيرة، أو الكثيرة، وحسبه إقامة الحجّةِ عليه بالتبليغ وتأكيد التبليغ، حتّى لا يكون له عذرٌ عند الله.

إنّ هذا القسم يَرْكَبُ مركب الباطل مع علمه بأنه باطل، ومع علمه بوجه الحقّ، ويتحدّىٰ قضيّةً كُبرىٰ من القضايا التي يُؤْمن هو بها، في دينه الذي يعتزُّ به، ويتعصّبُ له تعصباً لقومه، لا للحقّ الذي فيه.

فكيف يقبل اتّباع دين آخر، رسولُه عربيّ، والصفُّ الأوّلُ من الذين آمنوا به هم من العرب؟!

بعد بيان هذا القسم الأول جاء قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

فكشفَ اللّهُ عزّ وجلّ بهذا عن قسم آخر من واقع حال مجتمع اليهود، وهو قسم الذين تظاهروا بالدّخول في الإسلام مِنْهُم، وهم في حقيقة حالهم منافقون.

وقد اقتضىٰ البيان البلاغيّ الرفيع التّلْوينَ في عرض الأقسام فطُويتِ الإشارة إلى أنّهم فريق آخر، للإشعار بأنّ هؤلاء المنافقين ليسوا إلّا قسماً قليلاً من اليهود، ويحمل هذا الطيّ معنى أنّ هؤلاء المنافقين هم في الأصل من قسم العلماء والقادة والأئمة المحرّفين لكلام الله، فقد دلّ هذا النّصّ على أنهم في الأصل من طبقة علمائهم وأحبارهم الذين يعرفون دلالات النصوص ويفهمونها، ويستطيعون أن يَسْتَنْبِطوا منها

معاني دقيقة، إذ جاء فيه قولُ من لم ينافق منهم لمن نافق:

﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟!.

إنّ هؤلاء المنافقين من علماء اليهود، كانُوا إذا لقُوا الذين آمنُوا من المسلمين الصادقين، قالوا لهم: آمنّا مثلكم، فمحمّد رسول الله حقّاً، وهو الذي بشرت به كُتُبُنا، فقد عرفناه بأوصافه المبيّنة لدينا، وقَدْ أُخِذ علينا العهدُ بأنْ نُؤمِنَ به إذا حان حِينُه وبعثه الله.

دلّ على مقالتهم هذه التي طواها النصّ فلم يصرّح بها، أنّ النّصّ قد بيَّنَ أنّهم كانُوا إذا خلا بعضهم إلى بعض (أي: خلا المنافقون منهم إلى غير المنافقين منهم)، قال غير المنافقين منهم للمنافقين مُلَوِّمينَ: كيف تحدّثون المسلمين بما فتح الله عليكم من فهم في كتبكم حول البشائر بمحمّد في التوراة وسائر كتب العهد القديم، إنّ هذا أمْرٌ سيتَّخِذُهُ المؤمنون حجّةً عليكم يوم الدين عند ربّكم، فلا يبقى لكم عُـذْرٌ تعتذرون به في جحود محمّد، وعدم الإيمان به.

إنّ إخوانهم لا يلوّمونهم من أجْلِ خطّة النفاق، فخطّة النفاقِ مَكِيدَةٌ متّفق عليها بينهم، لهدم الإسلام من داخله، إنّما يلوّمونهم على التصريح للمسلمين بما في كتب اليهود من بشائر تنطبق على محمّد ﷺ.

ولمّا كان العلم بهذه الحقيقة في كتب اليهود إنّما وصلوا إليه عن طريق الفهم والتدبّر والاستنباط، لا عن طريق نصٍّ صريحٍ غير قابلٍ للتأويل، سَمُّوا ذلك فتحاً، أي: هو باب من أبواب العلم فُتِحَ لهم عن طريق الفهم والتدبُّر والاستنباط، لذلك قالوا لهم:

﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾؟!.

والمراد: كان عليكم أن تكتُموا هذا الفهم في أنفسكم، لئلاّ يكونَ مستنداً ضدّكم عند ربكم يوم القيامة.

ولكن من أعجب العجب أمر اليهود، إنّهم يتعاملون مع ربّهم كتعاملهم مع ملوكهم وعظمائهم من البشر. إنَّهُم يتوهَّمُونَ أنّهم إذا كتموا هذا الفهم الذي فهموه من دلالات النصوص وأماراتها، والذي فتح الله به عليهم، كان لهم يوم الدين مهربٌ بأنّ

ما في كُتبهم غير قاطع الدلالة، فجحودُهم رسالةَ محمّد ﷺ لا يُشكِّلُ نقضاً لصريح دلالات نصوص كتبهم، ويتوهَّمون أنّهم ربّما يجدونَ بذلك عذراً لهم عند ربّهم.

لذلك قال الله عزّ وجلّ في توبيخهم وإسقاط ذريعتهم التوهميّة هذه:

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؟!.

أي: سواءٌ عنده سبحانه أسَرُّوا ما وصلوا إليه من علم أو أعلنوه، فهو يعلَمُ ما يُسِرُّون وما يعلنون، لا تخفىٰ عليه خافيةٌ على غيره في السماوات ولا في الأرض ولا في أنفسهم، واليهود يعلمون هذه الحقيقة عن الله عزّ وجلّ ولا يجهلونَها، لذلك وبَّخهُم الله بأسلوب الاستفهام، مستنكراً تجاهلهم، أوَتَنْطلي حيلتهم على الله؟!

ثمّ إنّ علْمَ اللّهِ عزّ وجلّ بكتمانهم للحق، مع ملاحظة الإثم الذي يترتب عليهم بسببه، والذي يستلزم المحاسبةَ والجزاء، يدلُّنا عن طريق اللّوازم الذهنيّة على أنّ الله عزّ وجلّ سَيُحَاسبهم، وسيجازيهم بالعدل على كتمانهم ما يعلمون من أمور الدّين، ومن حقِّ الرَّبِّ الخالق عليهم، وهذا مَا أنذرتهم به دلالات النصّ.

وتتّضحُ هُنا مَسْؤوليَّةُ الذين يفتح الله عليهم أبواب معارف ومفهومات يستنبطونها، وتجزم أفكارهم بصحتها، أو تترجّح لديهم صحتها، ثم لا يعملون بها، أو يكتمونها فلا يعلّمونها الناس، وهي من الأمور التي يجب بيانها ويحرُمُ كتمانها، إذْ هي من أمور الدين الأساسية، أو من أمور الشهادات بالحقوق، أو من ضروريات الحياة.

أمّا القسم الثالث من أقسام اليهود فقد جاء بيانهم في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾.

فذكر الله في هذه الآية قسم الأمّيّين، ولا أرىٰ أنْ يكون المرادُ بالأميّة هنا قاصراً على الذين لا يَقْرؤُون ولا يكتبون، بل الأميّةُ هُنا يدخلُ فيها الجاهلون بالدّين، والجاهلون بدلالات نصوص الكتب الدّينيّة، ولو كان هؤلاء يقرؤونَ ويكتبون، لأنّ من يقرأ ولا يفهم ما يقْرَؤهُ هوَ بمثابة الذي لا يقرأ ولا يفهم، كلاهما جاهل بالمعاني المرادة، فكلاهُمَا أميٌّ.

وبناءً على هذا نستطيع أن نفهم معنى كلمة ﴿أمانيّ﴾ في الآية. فالأماني كما

سبق بتشديد الياء وتخفيفها جمع «أُمْنِيَة» والفعل «تمنّى» والمصدر «التمنّي» والتمنّي في اللّغة يأتي دالاً على عِدّةِ معانٍ:

أولاً:

* فيأتي بمعنى تشهّي حصول أمرٍ مرغوب فيه.
* ويأتي بمعنى حديث النفس بما يكون وبما لا يكون من مرغوب.
* ويأتي بمعنى سؤال الله في الحوائج.

وهذه المعاني الثلاثة تدور حول حركة النفس بما تشتهيه أو ترغب فيه، سواءً أبقيَ تشهياً، أو ارتقىٰ إلى مستوى حديث النفس، أو ارتقىٰ إلى مستوىٰ الطلب والتعبير اللساني.

والغالب في التمنّي أن يكون لأمور بعيدة المنال، بخلاف الرجاء.

ثانياً:

* ويأتي التمنّي في اللّغة بمعنىٰ القراءة والتلاوة، يقالُ لُغةً: تَمَنَّىٰ الكتابَ إذا قرأه، أو تلاه، قال الشاعر كعبُ بن مالك في مرثيته لعثمان بن عفّان رضي الله عنه:

تَـمَـنَّـىٰ كِـتَـابَ الـلّٰهِ أَوَّلَ لَـيْـلِهِ وَآخِـرَهُ لاَقَـىٰ حِـمَـامَ الْـمَـقَـادِرِ

أي: تَلَا كتابَ الله.

وفي لسان العرب لابن منظور: «تمنّىٰ الْكِتَابَ قَرَأَهُ وكَتَبَه». فأضاف معنىٰ الكتابة.

وعلى معنى القراءة والتلاوة فُسِّرَتْ كَلِمَةُ «تَمَنّىٰ» وكلمةُ «أُمنيَّة» في قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾.

إذا تَمَنّىٰ: أي: تَلا وقرأ كتاب الله.

أَلْقَىٰ الشيطانُ في أمنيّته: أي: في تلاوته وقراءته.

ثالثاً:

* ويأتي التمنّي في اللّغة بمعنى اختلاق الكذب، يقال لغةً: فُلانٌ يَتمنّى الأحاديث، أي: يفتعلها ويختلقُها. ويقولون: تَمنّى الحديث إذا اخترعه.

ويقول الرجل: والله ما تمنّيْتُ هذا الكلام ولا اختلقته. وقال رجلٌ أعرابيٌّ لابن دابٍ وَهُو يحدّث: أهذا شيءٌ رَوَيْتَه أم شيءٌ تمنّيْتَهُ، أي: افتعلته واختلقته. ورُوِيَ عن عثمان رضي الله عنه قولُه: «ما تمنيتُ منذ أسلمتُ» أي: ما كذبت.

ومن التمنّي هذا أن يقول الإنسانُ ما لا حقيقة له، وما ليس له به علْمٌ وهو يحبُّهُ، فإذا حدّث بِهِ قال الناس: هذه أُمنيَة، أي: شيءٌ لاَ صِحَّةَ لَه، ومن التّمنّي أنْ يدّعي الإنسان الإيمان قولاً باللسان، دون أن يكون لهذا الادّعاء حقيقة راسخة في القلب، وأثرٌ في السلوك، وعليه يفهم ما رُوي عن الرسول ﷺ:

«ليسَ الإيمانُ بالتّمنّي، ولا بالتّحَلّي، ولكِنْ ما وقَرَ في القلب، وصدّقه العمل»[1].

أي: ليس الإيمانُ بالقول الذي يظهره الإنسان بلسانه فقط، ولكنّه حقيقة تكون راسخة في القلب، ويكون لها آثارٌ في العمل دالّةٌ عَلَيْها.

هذه هي المعاني التي تدور عليها كلمة «أمانيّ» وحين ننظر إلى قسم اليهود الأمّيين في الدين وفي فهم النصوص المنزّلة، المقلّدين لعلمائهم، أو قادتهم وأئمتهم وزعمائهم، والمتعصبين لهم، ونسبُر واقع حالهم نُلاحظ أنّهم يدورونَ حوْلَ الأمور التالية:

(١) فالذين يقرؤون ويكتبونَ لا يعلمونَ كتابَ اللّهِ إلاّ عِلْمَ قِرَاءَةٍ وكتابةٍ فقط، وهم لا يفهمون دلالات نصوصه. فحالهم حال المقلّد الأعْمَى بتعصُّبٍ لِمَنْ يُقلّده.

ويقال في شأنِ هؤلاء:

﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾:

(١) عن الجامع الصغير عن الديلمي في مسند الفردوس وأشار إلى أنه ضعيف.

أي: لا يعرفونه إلاّ معرفة قراءة وكتابة، دُونَ علم بدلالاته.

(٢) والـذين لا يقرؤون ولا يكتبـون، قد يحْفـظُونَ عن طَرِيقِ السَّمَـاعِ شيئاً من الكتاب فيتْلونه تلاوةً دُون فهم ولا تدبّر.

ويقال في شأن هؤلاء أيضاً:

﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾:

أي: لا يعلمونه إلاّ علم تلاوة فقط دون علم بدلالاته.

(٣) ومن هؤلاء فـريق لا يقرأ ولا يَكْتُبُ ولا يحفظ شيئاً من الكتاب، لكنّه قـد يسمَعُ مَا يُتْلَىٰ مِنْهُ، وهؤلاء أشدُّ حَالاً في الأميَّة من القـارئين ومن التالينَ، فهم عميانٌ مقلّدون، لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانيَّ، أي: إلاّ سَمَاعَ تلاوَةٍ أو قراءة.

وهؤلاء جميعاً قد تدخل عليهم التحـريفات المختلقـات التي افتراهـا المحرّفـون والوضّاعون الكذّابونَ، فيردّدُونهـا كمَا أُمْلِيَتْ عليهم، أوْ كُتِبَتْ لَهُم، تَرْدِيد الْبَبْغَـاواتِ، وحين يردّدونها إنّما يُردّدونَ أكاذيب وَمفتريات.

وفي هذه الحالة أيضاً يصحّ أن يقال بشأنهم:

﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾:

أي: لا يعلمونَ إلاّ أكاذيب ومفترياتٍ على الله، وهم يظنُّونَ ظنّاً باطـلاً أنّها من كلام اللّهِ المنزّل، وتكونُ الأماني عَلَىٰ هذا بمعْنَىٰ الأكاذيب والمفتريات.

وهؤلاء الأميُّونَ اليهود يسيطر عليهم اتجاهان:

الاتجـاه الأوَّلُ:

اعتقادهم بأنّ اصطفاء بني إسرائيل بإنزال التوراة والزبور وسائر ما في كتب العهد القديم على رُسُلٍ منهم قد جعل لهم الاستحقاق المنفرد بـدخول الجنّـة، وهذه فكـرة باطلة اختلقها لهم محرّفو كتبهم ومغيرو مفهومات دينهم، ووافقت أهواءهم وما يشتهون. وأرْضَت في نفوسهم العقدةَ القبيحة التي ورثُوها جَانِحاً عَنْ جَانِحٍ، والّتي يُعَبِّرون عنها بأنّهم أبناء الله وأحبّاؤه.

واعتقادهُمْ بأنَّ لهم الاستحقاق المنفرد بدخول الجنّةِ قَدْ عبّر القرآن عنه بقول الله عزّ وجَلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾.

أي: تلك أكاذيبُ ومفترياتٌ يفترونها، وهي تُوافقُ ما يشتهون ويرغبون فيه.

وهذا الاعتقاد الفاسد الذي يعتقده الأُمِّيُّون من اليهود اتّباعاً لتضليلات محرّفيهم والمفترين مِنْهُمْ على الله، يدخل في عموم قول الله تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

إذْ هُمْ لَا يعلمونَ الكتَابَ المنـزّل عليهم إلاّ أنّه تضمّن مـا يدلُّ على تحقيق أمانيهم بأنّ لهم وحدهم الجنّة، وهي الفكرة التي اختلقها لهم الوضّاعون والمحرّفون لكتبهم من أحبارهم والذين يكتبون الكتاب بأيْديهم ويزعمون لهم أنّه من عند الله وما هو من عند الله.

الاتجـاه الثاني:

اتّخاذُهُمْ آيات الكتاب المنزّل على بني إسرائيل تمائم وتعاويذ ورُقًى، لتحقيق أمانيهم في الحياة الدُّنيا، كمطالب الشفاء، والشراء، والإنجاب، والزواج، والذّرّيّةِ، والجاه، والسلطان، والنّصر، وغير ذلك.

أمّا ما في الكتاب من شريعة، ومنهاج، وتكاليف، وأحكام، ووصايا، ومفهومات دينيّة، فهم عنْها ناؤون، ولَهَا مُجافونَ، وبها زاهدون.

وهذا الواقع يدخل أيضاً في عموم قول الله تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾:

أي: لا يعلمون الكتاب إلاّ أنّه وسيلة تتضمّن مؤثراتٍ غيبيّة تتحقّق بها أمانيهم الدنيوية.

هـذا هو حـال الأمّيّين منهم، فهمْ لاَ عِلْمَ لهم بـالـدِّين، ولا بـدلالات كتب ربّ العـالمين، إنّهم لا يعلمونَ الكتـاب إلاّ أمانيّ، يقرؤون بغير علم أو يتلون بغير علم،

ويتلَقَّوْنَ عن قادتهم الدُّينيِّينَ مُفتريات وتحريفات، ويحسبونها من كلام الله، ويعتقدون أنّ الله اصطفاهم بالكتاب، وجعلهم أبناءه وأحباءه، وخصّهم بالجنّة، وإذا تعلّقوا بالكتاب اتّخذوهُ للتمائم والتعاويذ والرقى فقط، من أجل بلوغ أمانيهم في الحياة الدنيا.

ومستندهم في كلّ ذلك الظَّنُّ الضعيفُ، الّذي لا ينفع في إثبات الحق، ولا يُعْذَرُ به صاحبه، لأنّه قائم على الثقة بأئمتهم الذين ليسوا أهلاً للثقة، وعلى التقليد الأعمى، والتعصُّب الذميم المقيت، وعلى الأوهام التي لا سَنَدَ لَها، وتُقدِّم مع ذلك عقائد باطلة تتنافى مع كمال صفات الله عزّ وجل، في عِلْمِهِ وعَدْلِه وحِكْمَتِه، دلّ على ذلك قولُهُ تعالى في الآية: ﴿وإنْ هُمْ إلاّ يظنُّونَ﴾.

أي: ما هُمْ في كلّ اتجاهاتهم الاعتقادية والفكرية والسلوكية إلاّ يَظُنّونَ ظنّاً ضعيفاً، ويعتمدون على هذا الظنّ في كلّ أبنيتهم الفكرية والسلوكية.

وما دام هؤلاء الأميّون من اليهود على وضعهم هذا من التقليد الأعمى مع الجهل المطبق، والتعصّب المتحجّر الذميم، فالأمل بهداية النسبة العظمى منهم ضعيف جدّاً.

بعد بيان قسم الأميّين من اليهود جاء قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

قد يكونُ المشار إليهم في هذه الآية قسماً رابعاً من أقسام اليهود، وهم قسم الكتبة الوضاعين، الذين يتاجرون بكتابة الكتب، فيكتبونَ الكتب المفتراة على الله، ليبيعوها من عامّة اليهود، فيزعمون لهم أنّها من عند الله، وما هي من عند الله، ليكسبُوا بذلك مالاً قليلاً، وعرضاً يسيراً من أعراض الحياة الدنيا.

وقد اقتضىٰ الأسلوب البلاغيّ الفنّيّ التّلوين في عرض الأقسام، فجاء ذكر قسم هؤلاء الْعَاتِين في ارْتكاب جريمةِ الافتراء على اللّهِ من أجْلِ ثَمَنٍ ماليٍّ يسيرٍ، بأسلوب توجيهِ الإنذار القويّ لهم بعذابٍ شديدٍ، وهُو عَذابٌ يُعَبِّرُ عنْهُ بعبارة «ويل» وهذه الكلمة

قد تكون اسماً علماً على وادٍ في جهنم، جاء وصفه في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) مع ترديد آية:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ فيها.

وقد أبان الله عزّ وجلّ الجريمة العظيمة لقسم هؤلاء الكَتَبَةِ من اليهود، فذكر أنّهم يكتبون الكتاب بأيديهم، أي دون أن يستندوا في كتابته إلى أدلّة نقلية موثقة بالفكر السليم، فعملهم صناعةٌ يدويّة، ثمّ يقولون لعامّة اليهود الذين لا علم لهم بوسائل إثبات النُّصوص: هذا من عند الله ليشتروا به ثَمَناً قليلاً[1].

ولمّا كانت جريمتُهُمْ هذه تنحلُّ إلى كبيرتَيْنِ هما:

الأولى: الافتراء على الله.

الثانية: المكسب الحرام عن طريق الافتراء على الله.

بيّن الله عزّ وجلّ أنّ عذابهم الشديد مفصّل إلى عَذَابَيْنِ كلُّ منهما شديدٌ إلى دركة «ويل».

(١) فويلٌ لَهُمْ ممّا كتبتْ أيديهم، أي: من مفتريات على الله.

(٢) وويلٌ لَهُمْ ممّا يكسبُون، اي: من مالٍ حرام.

* * *

وبعد بيان أقسامهم ذكر القرآن من أقوالهم ما يتضمّن بعض أوهامهم التي خَفَّفتْ لديهم قيمة جرائمهم الكبرى، منها الافتراء على الله، ومنها الكفر بالإسلام، وبالرسول محمد ﷺ، ومنها النفاق في دين الله، إذْ يزعمون أنّها جرائم لا تصلُ إلى تخليدهم في النار بَلْ يعذَّبُونَ عليها في النار عذاباً يسيراً أيّاماً معدودة، وذلك في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٠﴾.

---

(١) يقال لكلُّ مِنْ بَاذِلِ القيمة وباذِلِ السلعة من المتبايعين شارٍ، فباذلُ القيمة شارٍ للسلعة، وباذل السلعة شارٍ للقيمة، وذلك لأنّ العمليّة هي تبادل بين الطرفين، فكلٌّ منهما شارٍ وبائع.

لقد افتروْا على الله إذْ زعموا أنّ الله يُكَرِّمُهُمْ كرامةً خاصّةً بهم لأنهم بنو إسرائيل، فمهما أجرموا، واستحقوا النار، والخلودَ فيها على جرائمهم الكبرى، فإنّ الله عزّ وجلّ لن يعذّبهم في النارِ إلاّ أيّاماً معدودة.

ومعلومٌ أنّ مثل هذا الأمر لا يمكن أن يُعرَفَ إلاّ عن طريقِ بيانٍ ربّانيٍّ خاصٍّ، وعهْدٍ تَعَهَّدَ اللَّهُ بهِ لَهُم، وهذا أمْرٌ لَمْ يحصُلْ في أيِّ نصٍّ مُنزَّلٍ، أوعلى لسان أيِّ نبيٍّ أو رسول.

ولذلك علَّم الله رسوله وكلَّ مؤمنٍ أهلٍ لمناظرتهم أن يُناظِرَهُمْ بِطَرْحِ السؤال التالي عليهم:

﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾؟.

وبعد طرح هذا السؤال عليهم لا بُدّ أن يكون موقفهم كما يلي:

الأول: إمّا أن يقولوا: نعم، وعندئذٍ يطالبون بالنّص عليه من كتبهم، ولن يجدوا ذلك في نصٍّ صحيح النسبة إلى الله.

الثاني: وإمّا أن يأتوا بأدلّةٍ ذهنيةٍ أو استنباطيّةٍ ضعيفة، لا تقوىٰ على إثبات دعواهم، وباستطاعة المناظر الكفْءِ أنْ يُدحِضها لهم.

الثالث: وإمّا أن لا يجدوا دليلاً يستدلّون به، فينقطعون.

وفي كلّ ذلِكَ تنتهي مناظرتهم بإفحامهم، أو مراوغتهم وتهربهم، وتدمغهم الحجّة، وتسقط دعواهم.

وفي هذا التعليم قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾؟.

وبعد انقطاعهم في المناظرة، أو إفحامهم ودمغهم بالحجّة، يحسُنُ في نهاية الموقف نُصْحُهم، أو تلويمُهم وتبكيتهم، والتعبيرُ الذي دلّ على الأمرين معاً، قول الله عزّ وجلّ في الآية التعليمية:

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾؟!.

أي: ثبت أنه لا دليل لكم، بل تقولون ما لا علم لديكم به، أَتقُولُونَ على الله ما لاَ تعلمون؟! أي:

* اتَّقُوا الله واحْذَرُوا عاقبة الافتراء عليه. (في النّصح).
* كيفَ تفترون مثل هذا الافتراء على الله؟ (في التلويم).
* أتتجرّؤونَ على الله فويل لكم. (في التبكيت).

والتعبير الوارد في النصّ بصيغة الاستفهام يصلح لكلّ ذلك، فما أبدع البيان القرآني!.

وبعد ذلك أبان الله عزّ وجلّ قضاءه الجازمَ في موضوع الجزاء بالعدل على الخطايا وكَسْب السيئات، وعلى الإيمان وعمل الصالحات، وهو من القضايا التي لها صفة الثبات في كلّ رسالات الله لعباده المنزّلة على كلّ رُسُله، وذلك في قول الله عزّ وجل:

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

بلىٰ: جوابُ سؤالٍ مُقدَّرٍ، يمكن تقديره كما يلي: ربّنا ألَسْتَ تُعذّب اليهود ضمن قانون موحّدٍ شاملٍ لكُلّ عبادك؟

فقال تعالى: ﴿بلى﴾ والقانون الموحّد الشامل لكلّ العباد هو: ﴿مَنْ كسب سيئة وأحاطت به خطيئته...﴾.

فقول الله عزّ وجل: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾.

وفي القراءة الأُخرى:

﴿وأحَاطَتْ بِهِ خَطِيئاتُهُ﴾: أي: كفر فأحاطتْ به خطيئته التي أسقطتْهُ في الكُفْر، أو أحاطت به مجموعةٌ من الخطيئات التي أسقطته في الكفر.

فأولَئِكَ الْبُعَداءُ عَنْ مجالات الرحمة بسبب كفرهم، هم أصحاب النار الذين هم فيها خالدون.

وذلك لأنّ من كفر بما يجب الإيمان به، أو ارتكبَ عدّة خطِيئاتٍ اعتقادية وسلوكية أوقعته في الكفر، فقد سدّ عن نفسه كلّ منافذ النّجاة، وكلّ منافذ وصول رحمة الله الشاملة إليه، فلا بُدّ أنْ يكون خالداً في النار بمقتضىٰ قضاءِ الله الجازم، في قانونِ العقوبات الربّانية، فالكُفْرُ لا تشملُهُ رحمةُ الغفران، لذلك فهو من أصحاب النار الخالدين فيها أبداً.

هذه حقيقة قطعيّة من حقائق الدّين، في كلّ ما أنزل اللّهُ مِنْ شرائعَ لعباده، وقد دلت عليها نصوص قرآنية كثيرة، ودلّ على أنّها هي المرادَةُ هنا في هذه الآية، مقابلتها بما في الآية التالية لها، وهي:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

إنّ الكفر وحده موجبٌ للخلود في النار، ولكن لمّا كان موضوع النقاش مع اليهود حول ادّعائهم أنّهم لن تمسَّهم النار على كسبهم السيئات إلاّ أياماً معدودة، ردّ الله عليهم فأبان لهم أن من كسبَ سيئة وكان كافراً قد أحاطت به خطيئته فهو مقضيٌّ عليه بالخلود في النار.

أمّا من كسب سيئةً ولم يكفر فلم تُحِطْ بِهِ خطيئته، فقد سكت النصّ هنا عن بيان قضاء الله في شأنه.

ودلّت نصوص أخرى على أنّ من ماتَ على معصيته من غير توبة، وكان مؤمناً، استحقّ العقاب على قدْر معصيته، ولكنّ أمر معاقبته فعلاً متروكٌ إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء غفر له، وهو سبحانه العَليم بعباده، الحكيم في قضائه وقَدَرِهِ، وَفي عِقَابِه وعَفْوِه.

● ● ●

النصّ الرابع

من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول)
الآيات من (١٤٢ ـ ١٤٥)
حول مشاركة المنافقين بإثارة الشُّبَهِ
بشأن تحويل القبلة إلى الكعبة المشرّفة

قضيّةُ تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة عن جهة الشّام حيث مسجد الصخرة في القدس، قضيةٌ دينيّةٌ شاركَ المنافقون بإثارة الشبهات حولها، لفتنةِ المؤمنين عن دينهم، كما شارك فيها اليهود، وعربُ مكة المشركون، وبعض المسلمين من ضعفاء الإيمان.

وبشأنها أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (البقرة):

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

وفيما يلي البيان والتحليل مع تدبّر النصّ:

(١)
موقف الناس إبّانَ تحويل القبلة
إلى الكعبة المشرفة في عَهْدِ التنزيل

السُّفَهاء: جمع سفيه، والسفيه هو الجاهل الطائش، ذو العقل الضعيفِ والخفَّةِ، الـذي لا رَزانةَ لـه ولا وَزْنَ لرأيـه. وهو صفـة مشبهة من فعـل «سَفُهَ» أي: صـار السفه سجيّةً له.

وأصل السفه في اللّغة الخفّة وسـرعة الحـركة، وخفـة العقل والـرأي. ومن كان سفيهاً كان طائشاً سَيِّىء التصرّف، لا يُحْسِنُ إدارةَ أمواله، ويتأثر ببادي الـرأي وبادئـه، دون رويّةٍ ولا تثبّت، فيقع في أخطاءٍ فاحشة.

ومن يكونُ فيه سفَهٌ يحكم على الأشياء بسرعة، وتثيرُهُ العوارض الخفيفة، فتُفْقِدُه صـوابه، وربّمـا دفعه ذلـك إلى ارتكاب حمـاقـات مختلفـات، منهـا سـلاطـة اللّسـان بالشتائم، ومنهـا المقاتلة دون داعٍ لهـا، ومنها الإسـراف والتبذيـر وسُوء إدارة الأمـوال بدون عقل، ومنها التهوُّر والتورّط في المضايق والمهالك. إلى غيـر ذلك من تصـرّفات بالغة الحمق والجهل.

وقد جاء وصف المنافقين في أوائل سورة (البقرة) بأنّهم هم السُّفَهاءُ، في مقـابل اتّهامهم المؤمنين بأنّهم سفهاء، ومن سفاهة المنافقين تعريضهم أنفسَهم للدرك الأسفل من النار.

ووصف الجنُّ إبليس بـأنّه سفيههم، فقـالوا كمـا أخبـر الله عـزّ وجـلّ في سـورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾.

وذلك لأنّه تطاول على ربّه بحمـاقة بـالغة، وخفّـةٍ وطيشٍ، وعدم تقـديرِ عـاقلٍ لسوء المصير، فكان ذلك سبباً في طرده من رحمة الله، وحلولِ اللعنة عليـه، والحكم عليه بالخلود الأبديّ في جهنّم.

ووصف الله عزّ وجلّ الذين لا يحسنون التصرف في أموالهم، وهم الصغار والمبذّرون المبذّدون لأموالهم، ومن لا عُقولَ لهم، بأنّهم سفهاء، فقال تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾.

ووصف موسى عليه السلام الذين أشركوا من قومه فعبدوا العجلَ في غيبته عنهم بأنهم سفهاء، فقال لربّه كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟!.

أمّا المرادُ من السُّفهاء في هذا النصّ، وهم الذين صدر عنهم ما كان متوقّعاً منهم مقالة:

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ... ۝١٤٢﴾:

أي: ما صَرَف المسلمين عن التوجُّهِ لقبلتهم الّتي كانوا يتوجّهون في صلاتهم لها، وهي بيت المقدس؟!

ففيه للمفسرين عدّة أقوال:

* فقيل: هُمُ اليهود، وهو مرويٌّ عن البراء بن عازبٍ، وابن عباسٍ، ومجاهد.
* وقيل: هم المنافقون، وهو مرويٌّ عن السُّدّي.
* وقيل: هم المشركون من أهل مكة، وهو مرويٌّ عن ابن عباس والبراء بن عازب أيضاً، والحسن، وهو ما ذهب إليه الزجاج.

روى ابن جرير بسنده عن السّدّي قال: كان النبيُّ ﷺ يُصَلّي قِبَلَ بيت المقدِسِ، فنسختها الكعبة، فلمّا توجّه الناسُ قِبَلَ المسجد الحرام اختلف الناس فيها فكانُوا أصنافاً:

* فقال المنافقون: ما بالُهُمْ كانوا على قبلةٍ زماناً، ثُمّ تركوها وتوجّهوا إلى غيرها.

* وقال المسلمون: ليت شِعْرنا عن إخواننا الذين مَاتُوا وهم يُصَلُّونَ قِبَلَ بيت المقدس، هلْ تقبّلَ اللّهُ مِنّا ومِنْهُمْ أو لا؟

* وقالت اليهود: إنّ محمّداً اشتاق إلى بلد أبيه ومولده، ولو ثبت على قبلتنا لكنّا نرجو أن يكون هو صاحبنا الذي ننتظر.

وقال المشركون من أهل مكة: تحيّر على محمّد دينُه، فتوجّه بقبلته إليكم، وعلم أنكم كنتم أهْدَىٰ منه، ويوشك أنْ يدخُل في دينكم.

فأنزل الله جلّ ثناؤه في المنافقين: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ وأنزل في الآخرين الآيات بعدها.

* * *

أقول:

الذي أراه أنّ المنافقين واليهود والمشركين وكلّ الكافرين يَصِحُّ أنْ يقالَ في وصفهم: سُفهاء، لأنهم بحماقاتهم، وضعف إراداتهم، وخفتهم وطيشهم في أيدي أهوائهم، سَبَّبُوا لأنْفُسِهِمُ الطرد من رحمة الله، والخلودَ في عذاب جهنّم.

فلا مانع من أن تستخف حادثةُ تحويلِ القبلة أصناف الكافرين جميعاً، وتستخفّ معهم أيضاً بعض المسلمين الذين لم يتمكّنُوا في الإيمانِ الراسخ بَعْدُ، لإطلاق مثل هذه المقالة، اعتراضاً على هذا التبديل في القبلة، أو تساؤلاً واستفهاماً لإزالة الشُّبْهَة التي قد تمسُّ النفوس الضعيفة بشكٍّ.

وقد سبق في آيات سورة (البقرة) ما يدلّ على أنّ اللّهَ عزّ وجلّ قد ينسخ بعض آياته بِبَدِيلٍ مثلها أو خير منها، ليمتحن طاعة المسلمين وصِدْقَ إيمانهم.

وكانت حادثة تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة امتحاناً صعباً للمسلمين، وأسلوباً تربويّاً رائعاً لتأصيل المفهومات الصحيحة لقضيتي الإيمان والطاعة، وَإِنْ تعرّض هذا التبديل لسهام الشبهات الباطلات، التي لا بدّ أن يُطلقها أعداء الإسلام وخصومه.

إنّ تأصيلَ مفهومات الإيمان والطاعة في الإسلام ضرورةٌ تستدْعِي إثارةَ جَدَلٍ مع

الخصوم حول قضيَّةٍ قد تُشْكل عليهم، فيثيرون حولَها شبهاتهم.

وبعدَ إثارة الشبهات لا بُدَّ أنْ ينتصر الحق، وتتكشَّفَ المفهومات الصحيحة وتتأصَّل، وتُصَحَّح المفهومات الخاطئة التي قد تسيطر على بعض المنتسبين إلى الدين.

* * *

هذه الحادثة وأمثالُها لا بُدّ أن يُسَاهِمَ في إثارة الشبهات حولها جميع أعداء الإسلام وخصومه، سواءٌ من كان منهم مُظْهِرَ العداوة، كاليهود والمشركين، وغُلاةِ النصارى، أو كان مُبْطِنَ العداوة كالمنافقين.

ومع إثارة الشبهات:

* فقد يتساءل عن سبب التحويل، وعن حكم الصلوات السابقات إلى جهة بيت المقدس بعض المسلمين، الذين لم تتوضحْ لديْهم بَعْدُ ولَمْ تتعمَّقْ مفهومات الإيمان والطاعة، إذْ مازالت بعض مفهومات الجاهلية الوثنيّة عالقةً في أذهانهم ونفوسهم.

* وقد يتزلْزلُ إسلام بعض المسلمين الذين لمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قلوبهم، فيرتدّون عن الإسلام، وهؤلاء إمّا أن يُعْلِنُوا ردّتهم، وإمّا أن يُخْفُوها، فيكُونُوا مِن الّذِينَ طرأ عليهم النفاق بعد أن كانوا مسلمين.

وبذلك تظهر لنا جوانب من حكمة الله العليم الحكيم في امتحان قاسٍ مثل هذا الامتحان، حول القضيَّتَيْن الأساسيَّتَيْن من قضايا الدين، هما:

* قضيَّةُ الإيمان.

* وقضيَّةُ الطاعة.

* * *

أمّا اليهود: فقد كان منهم ما رواه الطبريّ بسنده عن ابن عباس قال: «لمَّا صُرفت القبلةُ عن الشام إلى الكعبة ـ وصُرِفتْ في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينةَ ـ أتى رسولَ الله ﷺ: رِفَاعَةُ بنُ قيس، وقَرْدَمُ بْنُ عَمْرٍو، وكعبُ بْنُ الأشْرَف، ونافِعُ بن أبي نافع، أو رافِعُ بنُ أبي رافع (روايتان عند الطبري)[1] والحجَّاجُ بْنُ عَمْرو حليفُ كعبِ بْنِ الأشْرَف، والرُّبيعُ بن الربيع بن

(١) رواية ابن هشام عن ابْن إسحاق: رافعُ بن أبي رافع.

أبي الْحُقَيْقِ، وكِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيع بْن أبي الْحُقَيْق، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، مَا وَلَّاكَ عَنْ قبلتِكَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا، وأنت تَزْعُمُ أَنَّكَ عَلَىٰ مِلَّةِ إبراهيمَ ودينه؟! ارْجِعْ إلى قبلتِك الَّتي كنتَ عليها نَتَّبِعْكَ وَنُصَدِّقْكَ.

وإنَّما يُريدون فتنته عن دينه. فأنزل الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ: مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾....».

وهؤلاء الذين جاء ذكرهم في هذه الرواية كلّهم من اليهود.

وقال اليهودُ أيضاً فيما رواه الطبريُّ عن السُّدّي: «إنّ محمّداً اشتاقَ إلى بَلَدِ أبيه وَمَوْلِدِه».

وَروى البخاري عن البراء بن عازب أنّ اليهود وأهل الكتاب أنكروا ذلك[1].

وَأمّا المنافقون: فقد كان منهم ما رواه الطبريّ بسنده عن السُّدّي، أنّهم قالوا:

«ما بالُهُمْ كانُوا على قِبْلَةٍ زَمَاناً، ثُمّ تركوها وَتوجّهوا إلى غيرها؟!».

وأمّا المشركون: فقالوا كَما رواه الطبري بسنده عن السُّدّي:

«تحيَّرَ علىٰ محمّد دينُهُ، فتوجّه بقبلته إليكم، وعلم أنّكُمْ كنْتُمْ أَهْدَىٰ مِنْهُ ويُوشِكُ أنْ يدخُلَ في دينكم».

وأمّا المسلمون: فقال ابْنُ جُرَيج: بلغني أنّ ناساً ممّن أسلم رجَعُوا فقالوا: مرَّةً هَـهُنَا ومرَّةً هـهُنا.

(عن الطبري)

أقول: وقد أشار النصّ إلى هؤلاء بقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ... ﴿١٤٣﴾﴾.

(١) انظر الحديث رقم (٤٠) في فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر.

وتساءل مَنْ تَساءلَ منهم عن حكم الصلوات السابقات إلى بيت المقدس: هلْ ذهبتْ ضائعةً؟ وقالوا: ليتَ شِعْرَنَا عنْ إخواننا الذين ماتوا وهُمْ يُصلُّونَ قِبَلَ بَيْتِ المقدس: هلْ تقبَّلَ اللَّهُ منّا ومنهم أم لا؟

(ابن جرير الطبري عن السدّي)

فأجاب الله عزّ وجلّ عن هذا التساؤل بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾:

أي: ليس من شأنِهِ سبحانه، ولا من حكمته، ولا من قانون جزائه على الصالحات، أنْ يُضيع ثوابَ صلواتكم التي توجّهتُمْ فيها شطر بيت المقدس، والتي هي ثَمَرَةٌ منْ ثمراتِ إيمانكم، فالأساس في عبادة اللّهِ هو الإيمانُ، ومن لوازم الإيمان الطاعَةُ في الأمْر، فَمَنْ أطاع أمْرَ البارىءِ مؤمناً به ثَبَتَ له الأجْرُ، ولو أنّ الله وجّههُ في كلّ يوم لقبلَةٍ ما في صلاته، فتوجُّهُ على وفق الأمر لكان ثوابُ الصلاة ثابتاً، لتحقُّقِ الإيمان والطاعة، وفي التعبير بالإيمان الدّال على الطاعة التي هي من لوازمه إشعارٌ بأنّ الجهات والأماكنَ لَيْسَ لَهَا في ذواتها صفاتٌ تستَحِقُّ ارتباط طاعة اللّهِ بها، ولولا الأمْرُ الرّبّانيُّ بتخصيصها لما تفاضل مكان على مكان، ولا زمان على زمان، فهِيَ جميعها تستَوِي في أنها خَلْقٌ من خلق الله، والذي يُمَيِّزُ بعضها من بعض هو الأمْرُ الرّبّاني، والتخصيصُ الرّبّاني، والعبادةُ في كلّ الأحوال للّهِ وحده لا شريكَ له.

وبناءً على هذا فالعباداتُ ومنها الصلواتُ التي لا تكونُ ثمرَةَ إيمانٍ صادقٍ صحيح ـ كالتي تكونُ نفاقاً، أو رياءً أو عادةً لا تُقصَدُ منها عبادة الله، أو خاليةً من مضمونها الحقيقي ـ عباداتٌ ضائعاتٌ، يجعلها الله هباءً مَنْثوراً.

ومن أجل الدلالة على هذه الحقائق جاء التعبيرُ بالإيمان، بدلَ الصَّلاةِ، في مقام تحقُّق الأجْرِ وعَدَمِه، باعتبار أنّ الأصل في الدين هو الإيمان، وأمّا العملُ فيُقْبَلُ عِنْدَ اللّهِ منْهُ مَا كان أثراً من آثاره، وثمرةً من ثماره.

وأمّا المسلمون المؤمنون الصادقون: فاستجابوا وأطاعوا، ولم يكُنْ مِنْهُمْ إلاّ التسليم التّامُّ، لأنّهم يعلمون أنّ الطاعة ثمرة الإيمان، والإيمانُ موصولٌ بالله لا بالأشياء المادّيّة.

وقد أشار الله عزّ وجلّ إلى سلوك هؤلاء بقوله تعالى في النصّ:

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾.

والَّذينَ هداهُمُ الله، أي: حكم لهم بـأنّهم مَهْدِيُّونَ وعَلِمَ أنّهم مَهْدِيُّونَ، هُمُ الذين صَدَّقُوا في إيمانهم، والتزموا طاعةَ أوامر ربّهم في أعمالهم وعباداتهم.

* * *

(٢)

قصّة القبلة قبل التحويل إلى الكعبة المشرّفة وبَعْدَهُ

رُوِيَ أنّ رسول الله ﷺ كانَ يُصلّي إلى الكعبة أوّل الأمْر، ثُمّ أَمَرَهُ اللّهُ أن يتوجّه شطر بيت المقدس، ودَلّ على أنّ هٰذا أمْرٌ من الله عزّ وجلّ قولُه تعالى في النصّ:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ . . . ﴿١٤٣﴾﴾.

فهذه القبلة هي بجعل الله، أي: بأمره التكليفيّ.

وفي الصلاة إلى بيت المقدس رُوِيَ أنّ الأنصار في المدينة صَلَّوْا إلى بيت المقدس ثلاث حِجَجٍ قبل هجرة الرَّسُولِ ﷺ إليها. ورُوِي أنّهم صَلَّوْا إليه سنتين.

(روايات ساقها الطبري)

وأمّا بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، فوردت بشأنها عدّة روايات، أشهرها أنّ المسلمين صلَّوْا إلى بيت المقدسِ سبعة عشر شهراً، وقيل: صَلّوا ستّةَ عشر شهراً، وقيل: ثمانية عشر شهراً.

قال ابن حجر في فتح الباري[1]:

«إنّ العلماء اختلفوا في الجهة الّتي كان النبيّ ﷺ يتوجّه إليها، للصلاة وهو بمكة، فقال ابن عبّاسٍ وغيرُه: كان يُصلّي إلى بيت المقدس، لكنّه لا يَسْتَدْبِرُ الكعبة، بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس. وأطلقَ آخرون أنّه كان يُصَلّي إلى بيت المقدس، وقال آخرون: كان يُصَلّي إلى الكعبة، فلما تحوّل إلى المدينة استقبل بيت المقدس،

(١) انظر فتح الباري الجزء الأول الصفحة (٩٦).

وهذا ضعيف، ويلزم منه دعوى النسخ مرّتين، والأوّل أصحّ، لأنّه يجمع بين القولين، وقد صحّحه الحاكم وغيره من حديث ابن عبّاس».

وحين كانت الصلاة إلى جهة بيت المقدس قال اليهود: ما بالُ مُحمّد يُصَلّي إلى قبلتنا، ولا يتّبعُ ديننا.

وكره رسول الله ﷺ أن يسمع مثل هذه المقالة، فجعل يُقَلِّبُ وجهه في السماء بعض الأوْقاتِ، مُشْعراً في نفسه برغبته في أن تكونَ الكعبةُ هي قبلة المسلمين في الصلاة، وربّما يكونُ في ذلك إشارةٌ إلى أنّ الرسول ﷺ دعا ربّه في هذا الأمر، كما جاء في بعض الروايات عن ابن عبّاس. أو يكون الأمر مجرّد رغبة داخليّة، وحركة بوجهه نحو السماء أحياناً، والرغبة دون دعاء أكثر دلالة على التأدّب مع الله فيما يقضي به من أحكام دينه.

فقول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾.

يَدُلُّ علىٰ الرَّغبة صراحةً، وليس فيه دلالة صريحة على الدُّعاء.

ومعنى: ﴿قَدْ نَرَىٰ...﴾ أحياناً نَرَىٰ تقلُّبَ وجهكَ في السماء راغباً في تحويل القبلة إلى الكعبة.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾.

هي الكعبة المشرفة.

وبعد ذلك أمر الله الرسول والمسلمين باتّخاذ الكعبة قبلتهم، وبتوجّههم في صلواتهم شطر المسجد الحرام، حيثما كانوا من الأرض بعيداً عنه، فقال تعالى:

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾:

أي: فأتبع وجْهَكَ جِهَةَ المسجدِ الحرام في الصلاة، وحيثما كُنْتُم أيُّها المؤمنون المسلمون لله فأَتْبِعُوا وجُوهَكُم جِهَةَ المسجدِ الحرام في صلواتكم، ويرى الجمهور أن المراد من المسجد الحرام الكعبة المشرفة، لكثرة الأخبار الدالةِ على أنّ القبلة صُرِفت للكعبة.

شَطْرُ الشيء: نِصْفُه، وجهتُه وناحيته، وقد يُرادُ الجزءُ منهُ. فالمتوجّهُ للشيء يكفي أنْ يُواجِهَ بكُلِّهِ جزءاً منه، وعلى هذا فيكْفِي أن يكون الْوَجْهُ مواجهاً لجزءٍ من الكعبة أو جهتها عند الْبُعْدِ في الصلاة.

* * *

وقبل توجيه الأمر بالتحويل إلى جهة المسجد الحرام أخبر الله رسوله بما سيقوله السفهاء من الناس حول حكم هذا التحويل، وبما سَتُثار حوله من اعتراضات وتساؤلات، فهيّأ الله رسوله والمؤمنين معه تهيئةً نفسيَّةً مستعدّة لتلقّي الاعتراضات والتساؤلات.

فبدل أن تأتي آية: ﴿قد نرى تقلُّبَ وجهك فِي السَّمَاءِ...﴾ أولاً، وبعدها تأتي آية: ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولّاهم...﴾ حسب المتبادر للأذهان من الترتيب، بدأ الله بآية: ﴿سيقول السفهاء...﴾ مراعاةً للبدء التربوي بإعداد النفوس وتهيئتها لتلقي أحداث ما بعد التكليف الجديد قبل تَوْجِيهِ التَّكْلِيف.

وهو أسلوبٌ تربويٌّ رفيع، قاعدته إعداد النّفس قبل توجيه التكليف، نظير أن يقول الرئيس الأعلى لعامل من عُمّاله اختاره لحلّ مشكلاتِ ولايةٍ من ولاياته: سوف تلاقي متاعب كثيرةٌ أنت أهلٌ لها، وقادر على حلّها في ولاية كذا، اذهبْ إليها فأنت والٍ عليها منذ الآن.

وعلّم الله رسوله والمؤمنين معه كيف تكونُ أجوبتهم لدفع شبهات مثيري الشبهات، حول الأمر بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام، ولتصحيح مفهومات المسلمين حول قضيتين أساسيتين من قضايا الدين، هما:

* قضية الإيمان.
* وقضية الطاعة لأمر الله كيف كان الأمر.

وروايات أسباب النزول تقصُّ قصة اعتراضات اليهود والمنافقين والمشركين وتساؤلات بعض المسلمين حول حادثة تحويل القبلة، ثُمَّ يأتي في آخرها، فأنزل الله قوله: ﴿سيقول السفهاء من الناس...﴾ فأشعر هذا بأنّ نزولَ هذه الآيةِ كان بعد الاعتراضات والتساؤلات. وأخذ بعض المفسرين في تأويل حرف المستقبل في:

﴿سيقول﴾ باعتبار أنّ الروايات تشعر بأنّ مقالة هؤلاء السفهاء حدَثَتْ مضى قبل نزول الآية.

وأرى أنّ تأويل الروايات أولى من تأويل النصّ القرآنيّ وإخراجه عن أصل دلالته.

فأصحاب الروايات قد لا يريدون ترتيب نزول النصّ بعد ورود مقالة السفهاء من الناس، وإنما يكشفون فقط عمّا جرىٰ منهم، وعمّا نزل بشأنهم، وبشأن مقالاتهم، دون تحديد السابق واللّاحق.

ومعظم روايات أسباب النزول الواردة في هذا الموضوع تعوزها الدقة، وأسانيدها ضعيفة، وعمدتها فهم صحابي، أو خبر تابعي.

وتظلّ دلالات النصّ القرآني هي الأقوى، ولا داعي لتأويله وصرفه عن ظاهره.

* * *

(٣)
إسقاط الشبهات والتساؤلات حول تحويل القبلة

إنّ تحديد القبلة في عبادة الصلاة ونحوها أمرٌ هو في الأصل من أمور التكاليف التعبُّديّة المَحْض، التي تَقْبَلُ في مسائل الدّين التغيير والتبديل، والغرض منها مُجرَّد امتحانِ الطاعة، فإنِ اقْتَرن بها حكمةٌ ما فهي نافلةٌ ومزيدُ عنايةٍ من الحكيم الخبير.

والقيامُ بالتكاليف التعبُّدِيَّة كلِّها إنَّما هُو مظهر من مظاهر الطاعةِ لمن له الأمر والنهي.

والطاعةُ في الدين أثرٌ من آثار الإيمان بحقِّ الخالق علينا في أنْ نَعْبُدَه ولاَ نُشرِك بعبادته أحداً.

فليس لمكان العبادة حقيقةٌ ذاتيَّةٌ خاصةٌ به تُميِّزهُ من غيره من الأمكنة، مُنفكَّةٌ عن أوامر مَنْ لَهُ حَقُّ الأمر بالعبادة، حتّى يكون تَعلُّقُ العابدين بالمكانِ لذاتِ المكان.

ومن لَهُ حقُّ الأمر والنهي، وعلينا واجب طاعته، إذا أمرنا بفعل الشيء إيجاباً

وجب علينا فِعْلُه، وإذَا نَهانَا عن فعل ذلك الشيء تحريماً حرُم علينا فعله. وإذا أذن لنا بأن نفعل أو نترك ذلك الشيء جاز لنا أنْ نَفْعَلَهُ أوْ نتركه.

ومَنْ لهُ حقُّ الأمْرِ والنَّهْي، وتجب علينا طاعته، إذا أمرنا بأن نتوجّه في صلاتنا إلى بيتِ المقدسِ أوْ أيّةِ بقعة من الأرض، وجب علينا ذلك، وإذا غيّر أمره فأمَرنَا بأن نتوجّه شطر المسجد الحرام في مكة، أو أيّةِ بُقْعَةٍ من الأرض، وجب علينا ذلك، ولم يَجُزْ لنا أنْ نتوجّه في صلاتنا كَما كُنّا نَتوجّهُ بحسَبِ أمره السّابق.

وإذا أذِنَ لنا بأن نتوجّه لأيّة جهةٍ نُريدُها كان لنا ذلك دون حرج، كما أذِنَ لنا بأن ندعوه في غير الصلاة متوجهين لأيّةِ جهةٍ من الجهات كلها، والأصْلُ أنَّ السماء في حالة رفع الرّأس هي قبلة الدعاء، أمّا في حالة القيام في الصلاة والركوع والسجود فموضع السجود هو قبلة الدعاء.

وهكذا سائر الأمور التعبّديّة التي يُقْصَد منها في الأصل امتحان الطاعة، والطاعةُ للّهِ دون ملاحظة مصلحةٍ دنيوية من ممارستها، أصْدَقُ مُعَبّر عن صِدْقِ الإيمان بالله وباليوم الآخر، وسلامته من الشوائب.

هذا هو المفهوم الإسلاميُّ الصحيح حول التكاليف التعبُّدِيَّةِ المحْضِ، وارْتباطها بقضيتَي الإيمان والطاعة.

ولكنّ كثيراً من الناس لا تتّضحُ لديهم هذه الحقيقة الكبرى من حقائق الدين، فيقعون في أخطاءٍ كثيرة، وأكثر هذه الأخطاء شيوعاً ارتباطُهُمْ بأمكنة العبادات التي جعل الله لها خُصُوصِيّاتٍ بالأمر التعبُّديّ ارتباطاً وثنيّاً، أو فيه رائحةُ الوثنيّة، وكذلك الأزمنة، والأشخاص، فيتوَهَّمُونَ أنّ الأمكنة أو الأزمنة أو الأشخاص ذواتُ قدسيّة ذاتيّة، تستَحِقُّ أن يكونَ لَهَا نصيبٌ من العبادة، وهذا من الشرك، ويتوهَّمُونَ أنّ ارتباط أعمال العباداتِ بها ارتباطٌ لذواتها، لا من أجل أوامرِ مَنْ لَهُ حَقُّ التكليف.

فإذا غَيّر الآمر أمْرَهُ ظَنُّوا انّ خطأً ما قد حصل، إمّا في أمره السابق، أو في أمْره اللاّحق، وتقومُ من أجل ذلك في نفوسهم الشُّبُهات.

ولمّا كان الرسولُ ﷺ يعلَمُ تَساوِيَ الأمكنة في أصل المفهوم الديني، دون ملاحظة العوارض التي تجعل لها اعتبارات خاصّة، فقد كانَ يُرضيه صلوات الله عليه

أنْ يكون للمسلمين قبلةٌ متميّزة، لا أن تكونَ قبلتُهم قبلةَ أهل الكتـاب، وكان يسُـرُّهُ أن يُخلِّدَ ذِكْرَىٰ أبويـه إبراهيم وإسمـاعيل عليهمـا السلام، اللّذَيْنِ رفعَـا قـواعـد الكعبـة المشـرفة، بيت اللّهِ الحـرام، وأنْ تكونَ القبلةُ في هـذا الدين الخـاتم أوّلَ بيت وُضِـع للناس، فحقَّق اللّهُ رغبته، وكان له بذلك قضاءٌ سابقٌ وافقَهُ ما رَغِبَ فيه الرّسولُ ﷺ.

* * *

إنّ ارتباط النفوس التي تظلُّ فيها عوالقُ وثنيّةٌ، بالأماكنِ على تَـوَهُّمِ أنّ للأمـاكن قُدْسيَّاتٍ من ذوات تكويناتها، سيدفع أصحابَهـا للاعْتِراضِ على تَغْيير أمـاكن العبادات، ومن ذلك تغيير القبلة.

ولكنَّ ذلـك لا يكونُ إلّا عن سَفَـاهَةٍ، بِطَيْشٍ وسُرْعَـةٍ في إصْدارِ الأحكـام دون رَوِيَّة، وعن قِلَّةِ عقْلٍ، وعدم بصيرةٍ بحقيقة الدين.

فالطاعةُ في الدّين النابعةُ من قاعدة الإيمان بمن له حقُّ الـطاعة والعبـادة وحده، هي الأثـرُ الأوّلُ المباشـرُ للإيمـان، وليس للأمكنـة ولا للأزمنـة أيُّ موقـعٍ في مـاهيَّـةِ الـدِّينِ، وَإن اقتضت الحكْمَةُ بَعْـدَ ذلك في أوامـر الدّين ونـواهيه ربط بعض العبـادات بأمكِنَةٍ خاصَّةٍ أو أزْمِنَةٍ خاصَّة.

مع العلم بأنَّ الأمكنة والأزمنة ونَحْوها من الأمـور القابلة للتغييـر والتَّبْدِيـل، وفْق حكمة مَنْ لَهُ حَقُّ الطّاعة، فهي تدخل في فئة: «ما يقبـلُ التغيير» لا في فئـة: «الثوابت التي لا تقبل التغيير» كالعقائد، والأسس الأخلاقيّة، وأسس الحقوق.

ومقالة هؤلاء السفهاء في موضوع تحويل القبلة تتمثّل بعبارة الاستنكار التي لا بُدَّ أنْ يطلِقُوها فيقولوا:

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ... ﴿١٤٢﴾﴾؟!!

وفي طرح التشكيكات حول صحّة الصلوات التي صلّوهـا سابقـاً مُتَوجهين شـطر بيت المقدس.

والمعنى: أيّ شيءٍ صَرَفهم عن قبلتهم الّتي كانُوا عليها؟!! هلْ كانُـوا على خطإٍ فـرأَوُا الصوابَ فتحـوَّلُوا إليـه؟! أو الدّينُ لعبـةٌ في أيديهم يغيّـرونَ فيه ويُبَـدِّلُونَ حسبَ أهوائهم؟! أو الدّينُ من مبتدعاتهم فَهُمْ يقرّرونَ فيه الأحكام على ما يشاءون؟!

ويتضمَّنُ هـذا التساؤلُ جحـودَ هذا الـدّين كلّه، وجحودَ أن يكـونَ من عنْد الله، إذْ لـوْ كان من عنـد الله ــ بحسب زعمهم ــ لما تعرّض لمثل هـذا التغيير الجـوهريّ، الذي يمَسُّ مُقدَّساً عظيماً من مُقدَّسات الدِّين، ألا وهي القبلة.

وجاء الجواب التعليميُّ العقليّ البرهانيُّ الهادىء، الذي يهدم كلّ البناء التهويليّ الاعتراضيّ، الذي يَنْفُخُ في تكبيره وتعْظيمه السّفهاء، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ . . . ﴿١٤٢﴾ ﴾:

أي: إنّ العبـادة لله وحْدَهُ، والتـوجُّهَ في الحقيقـة لله وحْدَه، ولمّـا كـان الله غيـر منظور حتى نتوجّه بوجوهنا لَهُ مُباشَرَةً، كانَ من الحكمة تحديـدُ جهَةٍ مـا، في أيِّ مكانٍ من الأرض، ومَشْرِقُ الأرض ومَغْرِبُها وسائرُ جهاتهـا وكُلُّ مكـانٍ في العالم هـو مِلْكٌ لله عزّ وجلّ، وخَلْقٌ من خلقه، وجاء ذِكْرُ المشرق والمغرب اكتفاءً بهما عن ذكر غيـرهما، أوْلأنّ كُلَّ مَكانٍ في الأرض تُشْرِقُ من جهته الشمسُ هو مشرق، وكلّ مكانٍ تَغْـرُبُ من جهته الشمس هو مغرب، فعمُّ المشرقُ والمغرب كلَّ مَكانٍ في الأرض.

فحيثُ يأمُرنا اللّهُ عزّ وجلّ أن نتوجَّهَ في عبادته يكونُ ذلِكَ قِبْلَتَنا، إذاً فَلَيْسَ لبيتِ المقدسِ، ولا للكعبة المشرَّفةِ خصـوصيَّةٌ ذاتيَّـةٌ من ذاتيهما، وإنّمـا أتاهمـا التشريف والتخصيص بتشريف الله لهما، وَبِجَعْلِهما قبلةً، وأماكن عبادة تُضَاعف فيها الحسناتُ، والأجر علَيْهَا.

ولله أنْ يأْمُر في وقتٍ ما بالتوجُّهِ لمكانٍ ما، وفي وقت آخر بالتوجُّه لمكـانٍ آخر، فالأماكن كلُّها خلقٌ من خلْقِ الله.

هذا هو الصراط المستقيم في فهم الدِّين، حول موضـوع القبلة، فمن فهمه حقّ فهمـه، واسْتَسْلَم لله عزّ وجـلّ في كلّ أوامره ونواهيـه، وأطاع دون اعتـراض، كان من الذين اهتدوا إلى صِراطٍ مستقيم.

ولذلك أتبع الله قوله:

﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ . . . ﴿١٤٢﴾ ﴾.

بقوله تعالى:

﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾:

أي: فهو سبحانه يُرْشِدُ أصحابَ المشيئة، الذين منحهم في تكوينهم جهاز المشيئة، إلى صراطٍ مستقيم.

فَمَنْ قَبِلَ هدايَةَ اللّهِ عزّ وجلّ سلك الصراط المستقيم، وأطاع الله مُسْتَسْلِماً دُونَ اعتراض، ومن أبىٰ تنكّب الصراط المستقيم، وَعَدَلَ عنه، فضلَّ وغوىٰ.

وقد سبَقَ التمهيدُ في سورة (البقرة) أيضاً ببيان هذه الحقيقة من الحقائق الدينيّة، قبل آيات تحويل القبلة، إذْ قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾:

أي: فأينما تُوجِّهوا وُجُوهَكُم في صلواتكم فَهُنَاكَ يُقَابِلُكُمْ وَجْهُ اللّهِ إذا قَصَدْتُمُ التَّوَجُّهَ لَهُ.

وجاء في الآية التكميلُ بمثابة التعليل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

أي: فهو بسعته محيط بكلّ شيء، فأينما وجّهْتُمْ وجوهَكم كانَ اللّهُ في مُواجهتها، فتحقَّق بذلك التوجُّهُ له، وهو بشمُول عِلْمِهِ يَعْلَمُ مَقَاصِدَكم من توجُّهِكم له في العبادة. فهو يُجَازِيكم على عباداتكم بفضله الثوابَ الجزيل الَّذي وَعَدَكُمْ إيّاه.

ثم جاء في السورة بعد هذه الآية بَيَانُ قِصّة بناء الكعبة، وما لهذا البيت من سوابق تاريخيّة، وكيف جعله الله مثابةً للناس وأمْناً، وكيف عهد الله إلىٰ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلامُ بأنْ يُطَهِّرَاهُ للطائفين والعاكفين والرُّكَّعِ السُّجُودِ، وكيف رفع إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام القواعد منه. فدلَّ ذلك علىٰ أنّ هذا البيت الرّبّاني بيتٌ تاريخيٌّ عتيقٌ له ذكرياتٌ دينيّة قديمة.

وكانت هذه التمهيداتُ بمثابة الإعداد النفسيّ، والأمارات المشعرات بأنّ أوامر ستَتَنزّلُ بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام، في مكة، والكعبةِ بيت الله فيها. مع ما فيها مِنْ بيانٍ للمفهومات الدينيّة في هذا الموضوع، المتضمّنة الإقناعَ بأنّ قضيّة القبلة من

القضايا التي تقبل التغيير والتّبديل، وليست من الثوابت التي لا تقبل التغيير ولا التبديل، وأنَّ أيَّ مكانٍ متَى نزل الأمر الربّانيُّ بتعيينه قِبلةً وجبَ على النّاس اتّخاذُهُ قبلةً حسب الأمر، فللَّه مِلْكُ المشرق والمغرب، والعبادةُ الصادقة لله تتحقّق بالتوجُّهِ القلبيّ والنفسِيّ لله، أمّا الوجوه فأينما تولّت فثمَّ وجْهُ اللَّهِ متَى تحقّق التوجُّه القلبيّ والنفسيُّ له سبحانه.

ومع ذلك فطاعة الأمر لقبلةٍ يُعيِّنُها الباري سبحانه وتعالى واجبةٌ، لأنَّ حكمة توحيد اتّجاه المسلمين لقبلة واحدة تستدعي تعيين مكانٍ معيَّنٍ يتوجّهونَ له.

وفي هذا تحريرٌ للنفوسِ المؤمنة من كلِّ شوائب الوثنيات، وتجريدٌ لها وهي تتوجّه للقبلة من القبلة ومن غيرها، لتخلُصَ العبادةُ لله الخالق وحده، الذي لا يتجسَّدُ في شيءٍ من الكون، ولا يَحِلُّ في شيءٍ من الكون.

* * *

(٤)
مقاصِدُ الشارعِ الحكيم من تحويل القبلة

كلُّ ما يُجْرِيه الله عزّ وجلّ في خلقه، وفي أحكام دينه لعباده بما في ذلك النسخُ والتبديلُ، مَشْمُولٌ بعلم الله المحيط بكلّ شيءٍ، وبحكْمَتِهِ العظيمة.

فمن حِكَمِ الله عزّ وجلّ في النسخ مُراعاةُ التدرُّجِ في التكاليف، وهو من القواعِدِ التَّرْبَوِيَّةِ العظيمة.

ومنها بيان أنّ الطاعةَ مُرتبطَةٌ بالأمر الرّبّاني لا بالمصالحِ التي يُحقّقُها تطبيقُ التكاليف الرّبّانية، مهما كانت مصالحَ عظيمة وضروريّة.

ومنها تعليمُ الْعِبَادِ عَدَمَ الإصرار على اختيارٍ اختاروه في أوامرهم ونواهيهم، ونُظُمِهِمْ، وكُلِّ ما هو مَتْرُوكٌ لَهُمْ من أُمورِهِمْ، بل عليهم أن يُطَوِّرُوا اختياراتهم إلى الأفضل والأحسن والأكمل دواماً، دون عنادٍ ولا استكبار.

فإذا رأوْا أمراً أفضلَ من أمرهم السابق بعد التجربة والملاحظة نسخوا الأمر السابق وعدَّلُوا إلى الأمر الأفضل.

وإذا رأوا نظاماً أفضل أو مادَّةً في نظام من الأفضل تعديلُها إلى ما هو خير نَسَخُوا السابق وعدَّلُوا، وقرَّرُوا العمل بما هو أصلح وأفضل وأحسن.

وهكـذا يفعلون دواماً في كـلِّ ما هـو متروك لهم من أمـور حياتهم، تـرقيـاً شـطر الأفضل والأحسن والأكمل دواماً.

وقد ضرب الله لنا من نفسه مثلاً في ذلِكَ لِيُعَلِّمَنا، مع أنَّهُ عزَّ وجـلَّ قادرٌ على أن يَخْتار الأَحْسَنَ ابتداءً.

ودلَّنا على هذه الحكمة بقوله تعالى في سورة (البقرة):

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

أي: فمع قدرته على كُلِّ شيءٍ ابتداءً يَنْسَخُ إلى خيرٍ ممَّا نَسخ أو إلى مثله، لكنَّه لا ينسخ إلى ما هو دونَ ما نَسَخ.

لكنَّ كثيـراً من النـاس يُعـانـدون استكبـاراً، فيصرُّون على آرائهم واختياراتهم السابقات، ويُصِرُّون على أوامرهم ونـواهيهم إذا كانَ لهم أوامـر ونواهي في أقوامهم، مهما ظهر لهم أنَّ النسخ والتبديلَ أو التعديل هو الأفْضَلُ والأحْسَن والأكمل.

وقـد أبان الله عـزَّ وجلَّ الحكمـة من أمره السـابق بالتـوجُّه في الصـلاة جهة بيت المقدس، الذي نسخه بالأمر بالتوجُّهِ إلى الكعبةِ المُشرفَةِ في حالة القرب منهـا، وشطر المسجـد الحرام في حـالة البعـد، ألا وهي امتحانُ المسلمين الـذين اتَّبعوا الـرَّسُول، وهذا الامتحان يهدف إلى اختبار صدقِ إيمانهم بالله وحده، وفَهْمِهم لمعنَى الطاعة في الدين، وهل ارْتِباطُهُمْ بالقِبْلَةِ ارتباطُ فيه وثنيَّةُ المُشركين، حين كانوا يتعلَّقُونَ بأوْثانهم، ويتمسَّحُـونَ بأجسـادها، ويُقـرِّبون لهـا القرابينَ، فقـال الله عـزَّ وجـلَّ في النصّ الـذي نتدبَّره:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ... ﴿١٤٣﴾ ﴾.

فالمؤمنون الذين فَهِمُوا حقيقةَ الإيمان يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ في بلاغاته عن ربِّـه، وفي

سُنَنِه الّتي يَسنُّها، وبالنسبة إلى تحويل القبلة فإنُّهم لا يَرَوْنَ فيه إلاّ ما عليهم من واجب الامتثال والطاعة، فهُمْ عبادُ الله، وعليهم أن يُطيعُوهُ في كُلِّ أوامره ونواهيه، وعليهم أن يتحوّلُوا فوراً إلى القبلة الجديدة الّتي وجُّهَهُم لها، إنّهم لا يعبدون القبلةَ أيّاً كانت تلك القبلة، حتّى يكبُر في نفوسهم التحوُّلُ عَنْها.

أمّا المسلمون الّذين لمّا يدخُلِ الإيمان في قلوبهم، فقد يكون تحويلُ القبلَةِ سَبباً في توضيح حقيقة الدِّين في نفوسهم، وفي تصحيح إيمانهم. وقد يكون سبباً في ردّتهم، لأنّهم في الأصل لم يبتعِدُوا عن مفهوماتهم الوثنيّة السابقة، فينقلبون على أعقابهم مرتدّين.

الأعقاب: جمع عقب، وهو عظم مؤخر القدم، يقال: رجع على عَقِبه، إذا رجع على الطريق الذي جاء منه.

وأما المنافقون فقد يكون سبباً في كشف نفاقهم، وإظهار حقيقة حالهم.

وأبان الله عزّ وجلّ أنَّ قضيَّة تحويل القبلة قضيّةٌ كبيرة في نفوس الذين ما زالت مفاهيم الوثنيّة عالقةً في أفكارهم، إنّها الجهةُ الّتي يتوجّهُونَ لها في أعظم عباداتهم، وهي الصلاة، فكيف يُمْكِنُ أنْ تتعرَّضَ للتَّغْيير والتبديل، لكِنَّ الذين اهتدَوْا إلى حقيقة الإيمان الصافي من كلّ شوائب الوثنيّات، لا يَرَوْنَ في تحويل القِبلَةِ شيئاً، ولو نزلَ الأمر في كلّ يوم بأنْ يتوجَّهوا شطْرَ قِبْلَةٍ جديدة، وفي بيان هذا قال الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ... ﴿١٤٣﴾﴾:

أي: وإنْ كَانَتِ الطّاعَةُ في التَّحوُّلِ عَنِ القِبْلَةِ السَّابقَةِ إلى القِبلَةِ الّتي نزل بها الأمْرُ الجديد، لكبيرَةً صَعْبَةً ثَقيلَةً شديدَةً، إلاّ علَىٰ الّذِينَ أدْرَكُوا حقيقةَ مَفْهوم الإيمان، ومَفْهوم الطاعة لله، ومَفْهومِ العبادة، ومَفْهُومِ القِبْلَة، فوجدهم اللّهُ مَهْديين فحكَمَ لَهم بالهداية، فهم الذين هدى الله، وهؤلاءِ لا يجدون الطاعة في ذلك صعبةً على نفوسهم، بل يجدونها صَغيرَةً هيّنة سهلة، بخلاف الذين ما زالوا مُتأثِّرِينَ برَواسِبَ وَثَنِيَّةٍ، فإنّهم يجدون الطاعة في هذا الأمر كبيرةً صَعْبَةً، وقد تَفْتِنُهُمْ عن دينهم، فينقلبونَ على أعْقابِهِمْ مُرْتَدِّين عن الدين.

ومن الحِكَم الإضافية الّتي تأتي متأخرةً في الحسبان، أن تكونَ القبلَةُ وسَطاً في معمور الأرض، وهو أمرٌ تنفرد به الكعبَةُ المشرَّفة.

وربّما نجد الإلماح إلى هذه الحكمة من طرفٍ خفيٍّ في الحديث عن وسطيّة هذه الأمّة المحمّدية بين الأمم، ضِمْنَ عَرْضِ موضوع تحويل القبلة، وما سيثار عليه من اعتراضات يطرحُها السفهاء من الناس، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿أمّةً وسطاً﴾: أي: أُمّةً عُدولاً، تُبَلِّغُونَ دين الله للناس كَما تَلَقَّيْتُموه من الرسول محمد ﷺ، لتكونوا إذا بَلَّغْتُمْ شُهداءَ على من لم يستجب لكم في بلاغ الدين من الناس يَوْمَ الدِّينِ، كما يَكُونُ الرَّسُولُ شهيداً على من بلّغَهُ دينَ اللّهِ من أهْلِ عصْرِه، وأنتم منهم، إذ حمّلكُمْ مسؤوليّة التبليغ، مع مسؤوليّة عملكم في ذواتِكُمْ مَا علمتم من بلاغ الرسول، فمسؤوليَّةُ تَبْليغِ هذا الدين تحملها الأمّة الإسلامية.

هذا ما دلّ عليه النصّ في صريح ألفاظه.

ولا يبعُدُ أن يكون المشارُ إليه في قول الله تعالى: ﴿وكذلِكَ﴾ كلاماً مطويّاً تَدُلُّ عليه سوابق النّصّ ولواحقُه.

أي: وإذْ جعلنا الكعبةَ القبلةَ في مكانٍ وسطٍ من الأرض، جعلناكم أيها المسلمونَ أتباعَ محمّدٍ بهذا الدين أمّةً وسَطاً، عدولاً في التّبليغ، وعدولاً في الشهادة، وجعلنا مجتمعكم الرائد في مكانٍ متوسّطٍ من الأرْضِ، وجعلناكم بهذا الدين الوسَط الذي تحملونه للناس مُبلِّغين وسَطاً بين الناس، لا غالين، ولا مُفْرطين، فلا أنتم تَغْلُونَ في التّعلُّقِ بالماديّات، تعلُّقَ اليهود والوثنيين، بَلْهَ المادّيين الدّهريين، ولا تَغْلُونَ في البُعْد عن المادّيّات، وفي قَهْرِ مطالب الجسد وشهواته، غلُوَّ مُتصوِّفَة الهُنود، ورُهبانِ النصارى، وأشباههم.

وعدالةُ هذه الأمّة مكتسبةٌ من وضوح قاعدة الإيمان في الإسلام، بعد تجارب الأمم السابقة، ومِنْ تَمَثُّلِ الأخلاق الإيمانية الإسلامية القائمة على الصدق والأمانة،

وأُذكِّر بأنَّ مُعظَم فضائل الأخلاق هي وسَطٌ بين أقصيَّين غيرِ حَسَنَين، فيُلحق هذا بعموم وَسَطِيَّةِ هذه الأمّة المحمّديّة.

* * *

(٥)
ما جاء في النصّ حول مشاركةِ أهل الكتاب في إثارة الشبهات بشأن تحويل القبلة

إنّ علماء أهل الكتاب الذين شاركوا في إطلاق الشبهات حول تحويل القبلة، يعلمون أنّ تحديد القبلة أمر تكليفيّ، لامتحانِ الطاعة، وهو قابل للتغيير والتبديل، فَبَنُو إسرائيل في مصر حين بعث الله فيهم موسى وهارون عليهما السلام، قد جعل الله لهم بيوتَهُمْ قبلَةً، وهو ما بيَّنه الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) الآية (٨٧) أي: أن يجعلوها مفتوحة إلى جهة القبلة وهي الكعبة في الأرجح.

ثمّ تحوّلتْ بعد ذلك قبلتهم إلى بيت المقدس، فهم يعلمون أنّ الله عزّ وجلّ إذا أمر بالتوجُّه لجهةٍ ما في الصلاة، كان الحقُّ في التوجُّه لتلك الجهة، ثمّ إذا أمر بالتوجُّهِ لجهةٍ أُخرى كانَ الحقُّ في التوجُّه للجهة المعينة في الأمر اللاّحق.

ويرجّح هذا الرأي ما روي عن ابن عباس: أنّ موسى عليه السلام كانت الكعبة قِبْلَتَهُ، وروي عن الحسن، أنّه قال: الكعبة قبلة كُلِّ الأنبياء.

فإنْ صحَّ هذا فإن علماء أهل الكتاب يعلمون أنّ التوجُّه في الصلاة للكعبة أمرٌ دينيٌّ قديم فهو حقٌّ من ربّهم.

وقد يفهم ذلك من قول الله عزّ وجلّ في النصّ الذي نتدبّره:

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

وبما أنّهم يعلمونَ أنّه الحقُّ من ربّهم، فإنّ مُشاركتهم في إثارة الشبهات يستحقُّونَ عليه المؤاخذة الخاصّة والعقاب الخاص، فقالَ تعالى في الآية:

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾:

أي: وعلم الله الملازم لحكمته وعَدْلِهِ يقتضي معاقَبَتهمْ على أعمالهم.

وفي هذا البيان معنى التحذير والوعيد، من محاربة هـذا الدين بـإثارة الشبهـات الباطلاتِ حول شريعته ومنهاجه وأحكامه.

* * *

(٦)

حول مـزالـق الاستـدراج الماكرة
التي قام بها فريق من أحبار اليهود

سبق في المقولة (١) ما رُوِي عن ابن عبّاس من أنّه لمّا صُـرِفتِ القبلَةُ عن الشام إلى الكعبة أتىٰ رسولَ الله سبعةٌ من أحبار اليهود وكبرائهم فقـالوا: يـا مُحمّد، مـا وَلاَّكَ عن قبلتك الّتي كُنْتَ عَلَيْها وأنتَ تَزْعُمُ أنّكَ على مِلّةِ إبراهيمَ ودينه؟! ارجعْ إلىٰ قبلتك الّتي كُنْتَ عليها نتّبِعْكَ ونُصَدِّقْكَ.

قال ابْنُ عبّاس: وإنّما يُريدون فِتْنَتَهُ عَنْ دينه.

ونُـلاحظُ أنّ في النّصّ الّذي نـدبّرُهُ تَعْقِيباً على هـذِه المُفَـاوضـةِ الاسْتِـدْراجِيَّـةِ المَاكِرَةِ من اليهود.

فقد أبان الله عزّ وجلّ فيه لرسوله أنّ قصّـة رفض أهل الكتـاب لاتّباعـك لا تنتهي بأن تَتّبِعَ قبلتهم، فهم سيظلون على رفضهم الحقّ الذي جِئْتَ به.

وذٰلِـك لأنّ رفضهم ليس ناشئـاً عن جَهْـلٍ حتّى تُعلِّمَهُمْ، ولا عن حـالـةٍ نفسيّـةٍ عارضةٍ حتّىٰ تَسْتَرْضِيَهُمْ، وإنّما هُوَ عن إصرار على معاندةِ الحق بالباطل تعصُّباً وأنـانيّةً واستكباراً واتّباعاً للهوى.

فلو أتيتهم بكل آيةٍ منْ شأنها إقناعُهم بالحقّ الـذي جِئْتَ به، مـا استجابـوا لك، وما اتّبعُوا مِلّتَك ولا قِبْلَتَكَ، ما دامت أسباب رفضهم ليست نـاشئةً عن جَهْلِهِمْ، وعَـدَم قناعتهم، وإنّما هي ناشئةٌ عن عوامل نفسيّةٍ أُخْرى.

إنّ اتّباع القبلة مظهرٌ من مظاهر اتّباع الملّةِ والدّين، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾:

أي: ما تَبِعوا مِلَّتكَ الّتي يلزم من اتباعهم لها أن يتّبعُوا قِبْلَتكَ، فأُطْلِق اللازمُ، مُراداً مع إرادة الملزوم ضمناً بالاقتضاء العقلي.

والمعنىٰ: سوف لا يستجيبون لك إذا جاريتهم فرجعْتَ إلى قبلتك السابقة، فلقد كُنْت عليها ولم يَسْتَجيبُوا لك، ولم يصدّقوك، فكيْفَ إذا انزلَقْتَ معهم في عَرْضِ الاستدراج الذي عرضوه عليك؟!. إنّهم سَيَتّخِذُون ذلك ذريعةً للتشكيك في دينك، ولفتنة المسلمينَ عن دينهم.

واتّباعُكَ قبلَتَهُمْ لا يكفي لإزالة الموانع التي تمنعهم من الإيمان بك واتّباعك.

إنّهم لنْ يَرْضَوْا حتّىٰ تَتْبع ملّتهم وأنْتَ لَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ، فما أنت بتابعٍ مِلّتَهُمْ وَلاَ قِبْلَتَهُمْ، إذْ لا تتْبعُ قبلَتَهُمْ دُونَ أمْرٍ رَبّانيّ حتّىٰ تَتْبعَ ملّتَهُمْ، وهذا أمر لا يمكن أن تفعله، فأنْتَ رسُولُ على الحق، وهم على الباطل.

وفِرَقُ أهل الكتاب لا يَتْبَعُ بعضُهُمْ قبلةَ بعض أيضاً، لأنّ اتباع القبلَةِ مظهرٌ من مظاهر اتّباع المِلّةِ، وكلُّ فريقٍ منْهُمْ ملازِمٌ مِلّته، لا يُفارق قبلته حتى يفارق ملّته.

فقال الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ﴾.

وبعد ذلك قال اللّهُ عزّ وجلّ لرسوله:

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

إنّ الرّسُولَ صلوات الله عليه لا يمكنُ أن يتّبعَ أهواء أهلِ الكتاب، ولا أهْوَاءَ غَيْرِهِمْ من مِلَلِ الكفر، ولكنّ قواعدالتكليف والتّحْذِير والتربية الرّبّانية قواعدُ عامّةٌ، يُخاطِبُ الله بها جميع عباده من أفْضل المرسلين حتّىٰ أشدّ الناس كُفْراً وعناداً وبُعْداً عن رحمته، فما أحَدٌ يُعْفَىٰ من الحكم عليه بالظُّلْمِ إذا ظلم، وما أحَدٌ يُعْفَىٰ من الحكم عليه بالكفر إذا كفر، ولا مِنْ مُعَاقبته عقاب الكافرين، وما أحدٌ يُعْفَىٰ من الحكم عليه بالشّرْكِ إذا أشرك،وهكذا إلى سائر قواعد الابتلاء والجزاء.

وتَمَشّياً مع هذه الكليّات العامّة نَجِدُ النصوصَ الرّبّانيّة تُسوّي في الخطاب بها

الجميع، ولا تَسْتَثْني إلاّ فاقِدي أَهْلِيَّةِ التكليف، ولو كان المخاطبُ بها معصوماً.

وفي هذا تحقيقٌ شامل لقانون العدل، المبنيّ علَىٰ سنَّةِ اللّهِ الثابتة في الابتلاء والجزاء.

وحين يُدْرِكُ آحادُ الناس أنّ الرّسول بل أفضل الرُّسل سيكونُ من الظالمين بحكم الله لو اتّبع أهواء أهْلِ الكفر، فإنّه يقول في نَفْسه: كيْفَ إذاً حَالُ الّذين ليس لهم عند الله تفضيلٌ ولا تمييزٌ ولا تخصيص؟!

●●●

النـصّ الخامـس

من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول)
الآيات من (٢٠٤ ــ ٢٠٧)
حول بعض صفات فريق مـن المنافقين
وظواهر من سلوكهم وهم من الجبّارين

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

من الظاهر في الآيات الثلاث الأولى من هذا النّصّ أنها نـزَلَتْ لبيان حـال صنفٍ من المنافقين بوجه عام.

* * *

(١)
حول أسباب النزول

من حكمة الله في تنزيـل القرآن مُنَجَّماً، تَرَقُّبُ أدنى المنـاسبات لإنـزال بيانَـاتٍ ومفهومات وكُلِّيَّاتٍ عامَّات، وقد لا يَنْطبق النّصّ بكلّ عناصره على كلّ عناصر المناسبة.

كالأب المربّي المعلّم لأولاده، إذا مرّ بهم حيوان أعطاهم درساً من دروس عالم

الحيوان. وإذا مرّوا بشجرٍ ما أعطاهم درساً من دروس الأشجار وسائر النباتات، وإذا قُدِّمَتْ لهم باقةُ ورد أعطاهم درساً من دروس الورود والأزهار، وهكذا.

وقد استبصر علماء أصول الفقه هذه الحقيقة فقالوا: العبرة بعموم النّصّ لا بخصوص السبب.

وقد رُوي في أسباب نزول هذا النّصّ روايتان ضعيفتا الإسناد:

* إحداهما عن ابن عباس، قال: لمّا أصيبت هذه السّرية أصحاب خُبيب بالرجيع بين مكة والمدينة، قال رجالٌ من المنافقين: يا ويحَ هؤلاء المقتولين، أو المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هُمْ قعدوا في بيوتهم، ولا هُمْ أدَّوْا رسالة صاحبهم، فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾ الآيات.

وهذه الرواية موقوفة على ابن عبّاس.

* والأخرى عن السدّي، قال: نزلت في الأخنس بن شُرَيقٍ الثقفي، وهو حليف لبني زهرة، أقبل إلى النبي ﷺ في المدينة، فأظهر له الإسلام، فأعْجَبَ النبيَّ ذلِكَ مِنْهُ، وقال: إنّما جئتُ أريدُ الإسلام، والله يَعْلَمُ أنّي صادق، ثُمَّ خرج من عند النبي ﷺ، فمرّ بزرعٍ لقومٍ من المسلمين، وحُمُر، فأحرقَ الزَّرْعَ وعقرَ الحُمُر، فأنزل الله عزّ وجلّ: (الآيات). وهذه الرواية موقوفة على السدّي.

وقصة أصحاب الرجيع كما رواها ابن هشام عن ابن إسحاق خلاصتُها أنّه قدم على رسول الله ﷺ بعد أُحُدٍ رهْطٌ من عضَلٍ والقَارة[1]، فقالوا: يا رسولَ الله، إنّ فِينَا إسْلاماً، فابْعثْ نفراً من أصحابك يُفَقِّهُوننا في الدين، ويُقْرِئُوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسولُ الله ﷺ نفراً ستّةً[2] من أصحابه، وهم: مَرْثَدُ بن أبي مَرْثَد الغنوي، وخالدُ بْنُ البُكَيْر اللّيثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وخُبَيْبُ بْنُ عَدِيّ، وَزَيْدُ بْنُ الدَّثِنَّة، وعبد الله بن طارق.

---

(١) عضَل والقارة: قبيلة جدّها عضَلُ بن الهُون بن خُزَيمة بن مدركة من كنانة من مُضَر. وسُمُّو القارة لاجتماعهم والتفافهم، وكانوا يجيدون الرمي بالسهام.

(٢) وروي أنهم عشرة، ستةٌ من المهاجرين، وأربعةٌ من الأنصار.

وأمّر رسُولُ الله ﷺ على القوم مَرْثَـدَ بن أبي مَرْثـد الغنوي، فخـرج مع القـوم، حتى إذا كانُوا على الـرجيع (وهـو ماء لهـذيل بناحية الحجـاز على صدور الهـدْأة وهو موضع بين عسفان ومكة) غدَرُوا بهم، فاستصرخوا عليهم هُذَيْلاً، فَلَمْ يَـرُع الْقَوْمَ وهم في رحالهم إلّا الرجـالُ بأيـديهم السيوف، قَـدْ غشُوهم، فـأخذوا أسْيـافهم ليقاتلوهم، فقالوا لهم: إنّـا والله ما نـريد قتلكم، ولكنّـا نُريـد أن نُصيبَ بكم شيئاً من أهـل مكة، ولكُمْ عهدُ الله وميثاقُه أن لا نقتلكم.

فـأمّا مَرْثَدُ بن أبِـي مَـرْثَد، وخـالدُ بن البُكَيـر، وعَاصِم بنُ ثـابت، فقالـوا: والله لا نَقْبَلُ من مُشركٍ عَهْداً، ولا عَقْداً أبداً.

وقاتل القومَ عاصمٌ، ومرثدٌ، وخالدٌ، حتىٰ قُتِلوا.

وأمـا زَيدُ بن الـدَّثِنَة، وخُبَيْبُ بْنُ عَـدِيٍّ، وعبدُ اللَّهِ بْنُ طـارقٍ، فـلانُـوا ورَقُّـوا، ورغِبُوا في الحياة، فأعْطَوْا بـأيديهم، فـأسَرُوهم، ثُمَّ خـرَجُوا إلَىٰ مكَّـةَ لِيَبِيعُوهُمْ بِهَـا، حَتَّىٰ إذا كـانُوا بـالظهـران انْتَزَعَ عَبْـدُ الله بن طـارق يَـدَهُ مِنَ القِـرانِ، ثُمَّ أخـذ سيفـه، واستأخر عنه القوم، فرمَوْهُ بالحجارة حتّىٰ قتلوه، وقدِموا بـزَيْدٍ وخُبَيْبٍ مكـة، فباعـوهما من قريشٍ بأسيرين من هذَيْلٍ كانَا بمكّة.

أمّا زَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ فاشتراه صفوان بنُ أمية ليقتله بأبيه، وأمر بقتله.

وأمّـا خُبَيْبٌ فاشتـراهُ حُجَيْرُ بن أبي إهـاب التميمي، ثُمَّ خَرَجُـوا بـه إلى التنعيم فقتلوه[١].

* * *

(٢)
المفـردات اللُّغَويّـة

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

أي: وبعضُ الناس فحرف (مِنْ) للتبعيض، وظاهرٌ في النصّ أنّ المـراد من هذا

---

(١) للقصة تفصيلات عند ابن هشام لم أذكرها اختصاراً.

الفريق قسم من المنافقين لأنه يُظهر شيئاً، ويُبطِنُ ويعمل خلاف ما يظهر ويدّعي بأقواله.

﴿مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾:

أَعْجَبَ الشيءُ يُعجِبُ، إذا أوجد في النفس العَجَب، والعَجَبُ: انفعالُ استحسانٍ يعرضُ للنفس من مثيرٍ لهذا الاستحسان، وكثيراً ما يكونُ من أمرٍ غير مألوف ولا معتاد.

ويُسْتعملُ العَجَبُ بكثرةٍ في استنكارِ غير المألوف.

والنُّصوصُ فيها أحياناً معنى الاستحسان، كقول القائل: أعجبني هذا الأمر، أي: أرضاني حسنُهُ. وفيها أحياناً معنى الاستنكار أو الإنكار لأنّه غير مألوفٍ ولا معتاد.

ومن الفهم الدقيق في هذه المادة قول الكواشي[1]: يقال في الاستحسان: أعجبني كذا، ويقال في الإنكار: عجبتُ من كذا.

﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾:

أي: يحلف بالله على أن سريرته مطابقة لعلانيته، أو يقول: الله يشهد أني صادق، أو نحو ذلك.

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾.

الأَلَـدّ لغةً: هو شديد الخصومة الْخَصِمُ الْجَدِلُ الشحيح الذي لا يميل إلى الحقّ. وجَمْعُه: «لُدّ» و «لِدَاد».

قال السُّدّي: أَلَدُّ الخِصَام، أي: أعوج الخِصَام.

يُقالُ: رجُلٌ أَلَدُّ بيّن اللَّدَد، أي: شديد الخصومة. ويقالُ: امرأةٌ لَدّاءُ، وقَوْمٌ لُدٌّ.

واللَّدَدُ: الخصومة الشديدة.

---

(١) أحمد بن يوسف الشيباني الموصلي (٥٩٠ ــ ٦٨٠هـ) من أهل الموصل، فقيه شافعي، وعالم بالتفسير، له عدة كتب مخطوطة، نقل بعض المفسرين عنها.

وقول الله عزّ وجل: ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قوماً لُدّاً﴾: أي: وتُنْذِر بالقرآن قوماً خُصَمَاءَ عُوجاً عن الحقّ.

﴿الْخِصَامِ﴾: قال الخليل: هو مصدر بمعنى المخاصمة، كالقِتال، والطِّعانِ، بمعنى المقاتلة والمطاعنة.

وعليه فقول الله تعالى: ﴿وهو أَلَدُّ الخصام﴾: أي: شديد الجدل مجانب للحقّ في المخاصمة، حريص على الغلبة بالباطل.

وقال الزجاج: الخِصَامُ جمعُ خَصْمٍ، كصِعَابٍ وَصَعْبٍ، وضِخَامٍ وضَخْمٍ. وعلى هذا فمعنى: ﴿أَلدُّ الخصام﴾، مُخَاصِمُ الْمخاصِمين بشدّة.

قال السُّدّي: ﴿أَلدُّ الْخِصام﴾: أي: أَعْوَجُ الخصام. وقال قتادة: معناه أنه جَدِلٌ بالباطل.

وأرى أنّه لا مانع من اعتبار كلمة «ألدّ» أفعل تفضيل بمعنى: الأشدّ، والأكثر خصومة بالباطل، لأنَّهُ يُقالُ لُغَةً: لَدَدْتُ فُلاناً أَلُدُّهُ، أي: جادلته فغلبته. ويقالُ: أَلَدَّهُ يلدُّهُ، أي: خَصَمَهُ، واسم الفاعل من لَدَّ، لَادّ، ومبالغته: لَدُود.

أقول: فيجوز قياساً أن يُشْتَقَّ من «لَدَّ» الثلاثي أفعلُ تفضيل، فيقالُ: «ألَدُّ» وعلى هذا فمعنى ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الخصام﴾: وهو أشَدُّ الخصومة بالباطل من غيره، وأكثر المخاصمين جدلاً، وأغلَبُهُمْ لأقرانه بغير حقّ، وهذا فيما أرى هو الأقرب، ولا حاجة معه إلى أيّ تأويل.

﴿الْخِصَامِ﴾: يأتي مصدراً لخاصَم، يقال: خاصمه مخاصمة وخصاماً، إذا جادله ونازعه، والإضافة على مَعْنَى في.

﴿وإذا تَوَلَّى﴾: التولّي الإدبار والانصراف، والمعنى: إذا أدبر وانْصرف، ويقال لغة: تولّى الأمرَ إذا قام به، وحَمَلَ مُهِمَّةَ شؤونه، وذو الولاية العامّة كالسلطان والحاكم والقاضي يتولّى أمور من هم تحت ولايته.

ومن أسماء الله الوليّ، بمعنى الناصر، وقيل: بمعنى المتولّي لأمور العالم والخلائق القائم بها، المتصرّف فيها.

فهذا المنافق الذي يُعْجِبُكَ قولُهُ في الحياة الدّنيا، لأنّه مُمكَّنٌ فيها من أن يدَّعي بلسانِه خِلافَ ما في قلبه ونفسه، وخلافَ ما يعملُ في سرّه، أو ما ينوي أن يَعْمله في مستقبل أمره، يقولُ لكَ في حديثه ما يُعْجِبكَ عن إيمانه وصدقه وإخلاصه، أو ما يعجبك من مواعيده وما يعزم أنْ يَعْمَلَهُ، فإذا انْصرفَ عن مجلسك وأدْبر، وكذلك إذا تولَّى وِلاَيةً مَا يستطيعُ أنْ يقوم بشؤونها ويتصرَّفَ فيما هو تحت سلطانه بها، سَعَىٰ في الأرْض ليُفْسِدَ فيها. أمّا في الآخرة فلا يستطيع أن يقول غير الحقّ.

﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

السَّعْيُ المشيُ الحثيثُ بهمَّةٍ ونشاط واجتهاد، ويطلق على كلّ عمل وكسب بهمة وخفّةٍ ونشاط واجتهاد، وجاء ذكر: ﴿في الأرض﴾ لبيان مُتعلَّق هِمّته وَمطامعه، فأهواؤه وشهواتُه ومطامعُه كلُّها أرْضيات، لا عُلْويَّ فيها: إنّه أرضيٌّ دُنياوي.

﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾:

في هذا بيانُ بعْض آثار سعيه، وبالتأمُّل نُدْركُ أنَّه يسعىٰ لتحقيق أهوائه وشهواته ومطامعه ولذّاته وسائر مطالب نفسه وجَسدِه، فتعترضه عقباتُ حُقوقِ الآخرين ومصالحهم، وواجباتُ ربِّ العالمين عليه، ومحظوراتٌ كثيرات، وهذه العقبات لا تُجتاز إلّا بالإفسادِ في الأرض، وإهلاك الحرث ــ الحرثُ كنايةٌ عن الثروة النباتية ــ وإهلاك النَّسْلِ ــ النَّسْلُ كنايةٌ عن الثروة الحيوانية التي تتكاثر عن طريق التناسل ــ فيتّخذُ الوسائل المفضية للإفساد في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل، ليصل إلى مطالب نفسه وجسده.

وعلى هذا فمُتَعلَّقُ ﴿لِيُفْسِد﴾ محذوف، ويمكن تقديره كما يلي: إذا تولّى سَعَىٰ يبتغي الوصولَ إلى مطالبه الأرْضية، فتعترضه العقبات، فيتّخذُ مُخْتلفَ الوسائل لِيُفْسِدَ في الأرض، ويُهْلِكَ الحرثَ والنسل، ممّا يهيِّىءُ له في تصوره مطالبَ نفْسه وجسدِه.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾:

الفساد ضدّ الصلاح، ويكون بإتلاف ما هو نافع، أو ما نفعه غالبٌ راجح، دون الاستفادة بذلك في نفع مكافىء أو راجح.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾:

أيْ: اتّقِ عِقابَ اللّهِ على إفسادك في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل، وعلى معصيتك له. وعبارةُ ﴿اتّق الله﴾ ضُمِّنَتْ معنى: خف الله، والزم المواطن التي تقيك من عذابه، وهي مواطن طاعته.

﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾:

العزّة هي القوة الغالبة، فهو يَغْتَرُّ بقوّته الغالبة التي يتمكن بها في تصوّره من تحقيق مطالبه في الحياة الدنيا، غيرَ مكترثٍ لما يَجْنِيه من إفسادٍ في الأرض وإهلاكٍ للحرث والنَّسْلِ ومعصيةٍ للباري عزّ وجل، وغيرَ عابىءٍ بالعواقبِ الوخيمة التي أُعدّتْ للآثمين.

ومشاعر هذه العزّة الرّعناء الحمقاء تأخذُهُ بعيداً عن المواطنِ الواقية من عذاب الله مُكَبَّلاً بسلاسِلِ الإثم.

وإذا أخذَتْهُ عِزَّتُهُ الحمقاءُ مُكَبَّلاً بسَلاسِلِ الإثم بعيداً عن مواطن تَقْوىٰ الله، أخذتْهُ العزّةُ الحقيقية التي هي لله فألقته في جَهنَّم يَوْمَ الدين بجريرة الإثم الذي ارتكبه، والتعبير بهذا نظير قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

وبهذا الفهم نكونُ قد هُدِينا بتوفيق الله إلى فَنٍّ بديعٍ من فنونِ الإعجاز البلاغي في القرآن، وهو استخدام جُمْلةٍ كاملةٍ بمَعْنَيَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ في الواقع، ومن دون ذلك كان التعبير يجري كما يلي: وإذا قيل له اتّق الله أخذتْهُ عزَّتُهُ التَّوَهُّمِيَّةُ مُكَبَّلاً بحبال الإثم وسلاسله، فأخذتْهُ عزّة الله الحقيقية فقذفته في جهنّم بجريرة الإثم الذي ارْتَكَبه. واختُصِرت الجملة الأولى، فصارت: أخذَتْهُ الْعِزَّةُ بالإثم، واخْتُصِرَتِ الجملةُ الثانية فكانت كذلك: أَخَذَتْه الْعِزّةُ بالإثم، فجاء في النصّ القرآنيّ الاكتفاءُ بإحدىٰ الجملتين المختصرتين، مع إرادة الدلالة على ما دلّت عليه كلٌّ من الجملتين المطوّلتين.

ودَلَّ على معنى الجملة الأولى ارتباط العبارة بما قبلها، وهو:

﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

ودَلَّ على معنى الجملة الثانية ارتباطُ العبارة بما بعدها، وهو:

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

وشبيهٌ بهذا خطابُ اللّهِ لِلْكافرين بعد أحداث موقعةِ بَدْر، وكانُوا قد طلبوا الفتح من الله على المسلمين، وذلك في قوله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

أي: إنْ تَطْلُبُوا الفتْحَ لكم أي النّصرَ على المسلمين، فقد جاءكُمُ الفتْحُ وهو النصر للمسلمين عليكم، فبحذف المتعلّقات صحّت العبارة للضدّين.

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾:

أي: فكافيه جَهنّمُ. حَسْبُ هنا مبتدأ بمعنى كافٍ وخبرُه جَهنّم. والضمير في فَحَسْبُهُ مضاف إليه، والفاء فيها معنى الترتيب والتفريع على ما سبق.

﴿جهنّم﴾: اسم علم من أسماء النار التي أعدّها الله لِيُعَذِّبَ بها الكافرين والعصاة، وهو ممنوع من الصرف للعلميّة والتأنيث.

ويقال للقعر البعيد جَهَنّمُ وجِهِنّام، وبئرٌ جهنّم وجِهِنّام بكسر الجيم والهاء وتشديد النون، أي: بَعِيدَةُ القعر.

وبعضُ اللُّغويين يَرونَ لفظ جَهَنّم أعجميّاً، فقيل: فارسيٌّ مُعرّب، وقيل: عِبريٌّ، وأصله بالعبرانيّة كِهِنّام، وعلى هذا فالمانع له من الصرف العلمية والعجمة.

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾:

اللّام هي لام الابتداء، وتفيد توكيد مضمون الجملة: بِئْسَ: فعلٌ جامدٌ لإنشاء الذّم، وهو منقولٌ للدلالة على معنى الذّمّ من بَئِسَ إذا أصاب بُؤْساً.

﴿الْمِهادُ﴾: المكان الممهّد الْمُوَطّأ، وأُطْلِق على مكان المعذبين في جهنّم بمهاد على سبيل التّهكُّم، لأنّ الشيءَ الممهّدَ المفروش لهم في النار هو أماكن التعذيب الشديد، وهذا ليس من التمهيد ولا التوطئة، بل هو ضدُّ ذلك تماماً.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾:

الشراء والبيع سواء، فكلاهما تبادل، أي: وبَعْضُ الناس وهم أهل الإيمان والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدّعوة إلى الله، يبيعُ نفسه في الحياة الدنيا مجاهداً في سبيل الله ابتغاء مرضاته، ليَكُونَ عوض ذلك سعادة نفسه يوم الدين في الخلود بجنات النعيم.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾:

﴿رؤوف﴾: مأخوذٌ من الرأفة، وهي شدّة الرحمة، فالمراد من الرؤوف أنّه سبحانه هو المنعم بجلائل النّعم ودقائقها. والرأفة كالرحمة من صفات الله عز وجلّ.

وفي الإتيان باسم الله الرؤوف هُنا إشعارٌ للصنف الأول المنافق المغترّ بعزته بأنّ باب رحمة الله ما زال مفتوحاً له يستقبله إذا تاب إلى ربّه وأناب، وهو في حياة الابتلاء في الحياة الدّنيا. ففي ذكره دعوة إلماحيَّةٌ للتوبة والإصلاح، فالله تعالى رَؤُوفٌ بالعباد كلِّ العباد، ضمن القواعد العامّة للابتلاء والتوبة والجزاء.

وفيه أيضاً إلماح للمجاهدين في سبيل الله بصدق ضمن ما أذن لهم، بأنّ الله سيكون رؤوفاً بهم، فينصرهم، ويؤيّدهم، إذا التزموا شريعته ومنهاجه، وسُنَنَهُ التكوينيّة والبيانية.

* * *

(٣)

مفهومات مأثورة حول النَّص

(١) روى الطبرّي بسنده أنّ عليّاً رضي الله عنه قال بشأن الفريقين الّذَيْن ذكرهما الله في هذا النص: اقتتلا وربِّ الكعبة.

(٢) وروى الطبري عن ابن زيد قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا صلّى السُّبْحَةَ (هي صلاة التطوّع ـ ولعلها هنا سنة صلاة الظهر) وفرغ دَخَلَ مِرْبَداً له (المِرْبَدُ موقف الإبل ومَحْبِسُها) فأرسَلَ إلى فتيان قد قرؤوا القرآن، منهم ابن عباس، وابنُ أخي عُيَيْنَة.

قال: فيأتون فيقرؤون القرآن ويتدارسونه، فإذا كانت القائلة (أي: وقت نوم القيلولة) انصرف.

قال: فمرُّوا بهذه الآية:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ . . .﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

فقال ابن عباس لبعض من كان إلى جَنْبه: اقتتل الرّجلان.

فسمع عمر ما قال. فقال: وأيّ شيء قُلتَ؟

قال: لا شيء يا أمير المُؤْمِنين.

قال: ماذا قُلتَ؟ اقْتَتَل الرَّجُلان؟

قال: فلما رأى ذلك ابن عبّاس قال: أرى ههُنا مَنْ إذا أُمِرَ بتقوى اللّهِ أخذَتْهُ العزَّةُ بالإثم. وأرى مَنْ يَشْرِي نفسه ابتغاء مرضاة الله، يقومُ هذا فيأمُرُ بتقوى الله، فإذا لَمْ يَقْبَلْ وأخذتْهُ العزّةُ بالإثم، قال هذا: وأنا أشتري نفسي، فقاتله، فاقْتَتَل الرَّجُلان.

فقال عمر: للّهِ تِلادُكَ يا ابْنَ عبّاس. (أي: لله قديمُكَ وأَصْلُكَ ــ التلاد في اللغة: المال القديم أورده عمر رضي الله عنه على التَّشبيه).

(٣) معظم السلف فهموا أنّ هذا النصّ نزل في المنافقين، وفيمن يجاهدهم بلسانه، ثم بسلاحه إن استطاع.

* * *

(٤)

البيان التحليليّ العامّ

في هذا النص بيان لطائفة من صفات صنف من المنافقين، وهو صنفٌ ذو مكانة في قومه، وذو بيانٍ ولَسَنٍ وذكاء، تعجبُ السامعينَ أقوالُه في أمور الحياة الدنيا، ويستطيع التّصنُّع والتظاهر بغير ما يُبْطِن، ويستطيع الواحد منهم أن يستولي في المجلس على جلسائه بزخرف القول، والكلام المجوّد المنمّق، الذي يوهم أنه صدق، وهو كذّابٌ يخالف باطنُه ظاهِرَه، وتُخالف حقيقة أمرِه ما يَدَّعيه بلسانه، ويلجأ لتغطية كذبه إلى تأكيد أقواله بالحلف بالله. وبإشهاد الله على صدق إيمانه، أو صدق

حبّه وولائه، أو صدق أقواله، أو نحو ذلك، وهو في حقيقة أمره كذّاب مخادع منافق.

ثم إذا تولّى مدبراً منصرفاً، وانطلق إلى شؤونه وأعماله كذّبت أعماله أقواله، فكشفت أعماله عمّا في خبيئة نفسه وقلبه.

إنّه يسعى بهمة ونشاط واجتهاد في سُبُل الأرض المختلفة، ليحقّق ما يهوى ويشتهي وما يَطْلُبُ لنفسه أو جَسَده، من مطالب الحياة الدنيا، كالمال، والنساء، وأنواع متاع الحياة الأخرى، وكالجاه والسلطان والعلوّ في الأرض، فإذا اعترضته عقباتٌ في سُبُله لا تُجْتاز إلّا بالإفساد في الأرض، بتضليل النّاس، وصَدِّهِمْ عن صراط الله المستقيم، ودينه الحقّ القويم، ونَشْرِ الفاحشة فيهم، ودفعهم إلى ارتكاب المهلكات الموبقات، فعل ذلك بجرأة إبليس اللّعين، غيرَ مكترث لِعاقبةٍ، ولا متحسّس بعاطفةٍ نبيلة.

وإذا اعترضته عقباتٌ في سُبُله لا تُجْتاز إلّا بإهلاك الثروات من الزراعة، والثروات من الأنسال الحيوانية، أو بإهلاك الناس بقتل الرجال وذبح الذراري وتعقيم النساء فعل ذلك طاغياً باغياً مُجْرماً، غير مكترث لعَاقبةٍ وخيمةٍ وعذابٍ من الله شديد، ولا متحسّس بعاطفة إنسانيّة نبيلة كريمة.

إنّ هذا الصنف من الناس يوجد في مختلف مستوياتهم وطبقاتهم، فمنهم الطغاة البغاة المتجبّرون في الأرض، الذين يحاولون فرض سلطانهم على الشعوب بالقوّة، وبقمع كلّ من يتحرّك مطالباً بالحرّيّة ورفع الظلم، والتخلّص من الاستبداد. ويوجد في أعوانهم ونصرائهم ومؤيديهم وجنودهم.

ويوجد هذا الصنف في طبقة طالبي جمع الثروات والاستكثار من الأموال على اختلافها، واتّخاذ أعظم القصور، وأفخم المراكب، والاستمتاع بألوان المطاعم والمشارب وغير ذلك من متاع الحياة الدنيا.

ويوجد في سائر طبقات الناس على مقاديرها، وإمكانات الإفساد فيها وإهلاك الحرث والنُّسْل، كلٌّ على قَدْر مستواه، وفي حُدود إمكانات تحرُّكه في المجتمع البشري، وفي حدود ما أوتي من ذكاء وحيلة، وقدرة على مخادعة الناس، وختل ما يريد الوصول إليه بالحيلة أو بالقوة.

وهذا الصنف من أهل النفاق من الناس، حين يشعر بأنّه قد غدا ذا قوّة وسلطانٍ في الأرض، امتلأ غروراً بنفسه، وانتفخ كبراً، وصار يأبَىٰ أن تُوجّه له أيّةُ ملاحظة،

وأيَّةُ نصيحة تحذّره مغبّة طغيانه وبَغْيه وإفساده في الأرض.

فإذا قال له ناصح مؤمن ذو جرأةٍ أدبيّةٍ: اتّقِ الله، وكُفَّ عن الطغيان والبغي، والإفساد في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل، أخذتْهُ العزّةُ أي: القوة الغالبة التي يشعر بأنه قد استغنى بها، ومَلَكَ كلَّ أمْرِه، والمقترنةُ برغبة الإثم، فاستحوذت على كلّ تفكيره، وكلِّ مشاعره، وأصابتْ سائر جوانب الخير في فطرته بالشّلل، فاندفع مع أهوائه وشهواته كالأعمى الأصمّ الأبكم.

ومن استحوذت عليه مشاعر الاستغناء بالقوة المقرونة بابتغاء الإثم، لم يكن منه إلّا البغي والطغيان، والظلم والعدوان، فربما قتل من قال له: اتّق الله وربّما زاد في طغيانه وبغيه على الناس، وربّما أمعن في الإفساد في الأرض ومحاربة دين الله والمؤمنين به، كما هو مُشاهد في أحوال الطغاة البغاة، الّذين يكونون في أوائل أمورهم مُعْجِبين بأقوالهم، ويُشْهِدُونَ الله على ما في قُلوبهم من خيرٍ ورغبة في الإصلاح والنفع العامّ.

لكنّهم ينصرفون ويعطون أدبارهم لكل أقوالهم المُعْجِبة الجميلة الحلوة، فيسعون في الأرض فساداً وَيُهْلِكُون الحرث والنَّسْلَ لتحقيق مآربهم ومطامعهم وأوطارهم.

فإذا كان لهم سلطانٌ في الأرض استكبروا وطغوا وبَغَوْا، وإذا نصح أحدَهُمْ داعٍ مِنْ دُعاة الحقّ بتقوى الله استحوذتْ عليه مشاعر اعتزازه بقوّته، واستغنائه بما يملك التصرّف فيه، فطغى وأخذته عزّته مكبّلاً بسلاسل الإثم الكبير بعيداً عن مواطن تقوى الله، إلى أودية الجرائم العظيمة، وأنواع البغي والطغيان، حتّى تقْبِضَ عليه يدُ العزة الحقيقية الرّبانية فتأْخُذه بآثامه، أخْذَ عَزِيزٍ مقتدر، فتُهْلِكَهُ، ثُمّ تدفع به إلى مصيره في جهنم، حيثُ يَلْقَى فيها ذُلّاً وهواناً وصَغاراً، وعذاباً أليماً بما يَمسُّه من سَقَر.

ويتسلّطُ هذا الصنف الطاغي، وهو في أوْجِ سُلْطَانِهِ وطُغْيانِه على الدُّعاة إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، فَيُنَكِّلُ بهم، قَتْلاً ونفياً وتشريداً، وحرباً بالأقواتِ وسائرِ ضروريّاتِ الحياة.

فلا سبيل حينئذٍ للخلاص إلّا بإعداد العدّة المكافئة للثورة عليه، ومقاتلته،

ومُجاهدته في سبيل الله، لإسقاط تسلُّطِه، وتخليص الناس منه، ومن بَغْيِه وطُغْيانه، دون تورّط بأعمال غِيْر مكافئة في سُنَن اللَّهِ السببيّة، لئلا تنتهي بالخيبة والفشل، فتُعْطِي عَكْسَ الأثر المرجوّ، وتزيد الطاغي في طغيانه وبغْيِه وتَسَلُّطِهِ وعُدْوانِه.

وفي الإشارة إلى هذه الوظيفة من وظائف المؤمنين قال الله عزّ وجلّ في النص:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ٢٠٧﴾.

فهو ناصر المجاهدين في سبيله ما التزموا طاعته، وقابل توبة التائبينَ من أهل الطغيان والبغي إذا صدقوا وآمنوا وأصلحوا.

وقد أدركَ المرادَ مِنْ ذكر هذا الفريق المجاهد في سبيل الله عقب ذكر ذلك الصنف المنافق الطاغي الباغي: عليٌّ بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، فقال كلٌّ منهما: اقتتلا وربِّ الكعبة.

* * *

(٥)

مع النصّ في التحليل والتدبّر

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وبعضُ النّاسِ صنفٌ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ الإيمانيُّ الإسلاميُّ في الحياةِ الدنيا، التي يجْري حكم الناس فيها على الظاهر، ويعجبُك قولُهُ في أُمور الحياة الدنيا وشؤونها، إذْ هو فيها ذكي ألمعيٌّ مُبين، يقدّم آراءً وأفكاراً تُرضي وتُثير الإعجابَ بما فيها من حكمة وعلم وفهم سديد للأمور، في السِّلم والحرب، وتصريف أمور المال والمجتمع.

﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾:

أي: ويُؤكِّدُ دَعاوَاه الْعَريضَةَ بالأيمان المغلظة، وبقوله: واللَّهُ على ما أقولُ شهيد، إذْ يزعم بأقواله أنَّهُ مؤمن تقيٌّ نقيٌّ يَبْتَغِي الخير، ونُصْرَةَ المجتمع، أو نصرةَ الإسلام والمسلمين، ويريدُ الإصلاح والنفع العام، ويُريد، ويُريد، ممّا يسُرُّ الناس، ويُقَدِّمُ كثيراً من زُخْرُف القول، لِيَثِق بِهِ النَّاسُ، ويطمئنوا له، ويُسلِّموه مقاليد أمورهم.

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤﴾:

أي: وهو أشدُّ المخاصمين خصومة ومجادلةً بالباطل، فمن صفاته أنّه قوي المجادلة، قويُّ الحجّة غلاّبٌ لمن يخاصمه، يجادل بالباطل، فيغالط، ويزوِّر، ويُزخرف الأقوال، ويُنمِّق بياناته وأدلته، ويُظْهِرُ ويَطْوي، ويكذبُ ويكتم، ليُهَيْمِنَ على الناس، ويُقنعهم بآرائه، وأفكاره، التي له منها مصالح خاصّة، ويُلْبِسها زوراً وتزييفاً أثواب ابتغاء الخير والمصلحة العامّة، أو مرضاة الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾.

أي: ومن صفاته أنه بَعْدَ أن يخدع الناس بزخرف أقواله وآرائه، ويُقنِعَهُمْ بسلامَةِ نيّاته وما يبْتَغِي لهم من خيرٍ ونفع وصلاحٍ وإصْلاحٍ أو مرضاةٍ للّهِ عزّ وجلّ، ينصرف عنهم فيسْعَىٰ سعْياً حثيثاً بهمّة ونشاط لتحقيق أهدافه الخاصّة في المال والشهوات والأهواء والسلطان والاستعلاء في الأرض بغير حقّ، وذلك لا يتمّ له إلّا بأنْ يُفسد في الأرض بتضليل الناس وصدّهم عن سبيل الحقّ، وطاعة الله عزّ وجلّ، ودفعهم إلى الموبقات المهلكات من كلّ خلق أو سلوك أو مذهب فكريّ أو عملي.

ولكنْ لا بدَّ أن يعترض سُبلَهُ الضالّةَ مناصرون للحقّ، كاشفون لزيوف تضليلاته، فيراهم عقبة في طريق تحقيق أهوائه وشهواته ومطامعه، فيدفع أنصاره وأعوانه لمقارعة أنصار الحق، وقمعهم، ومقاومة دعوتهم فلا يتمّ له ذلك إلّا بأن يُهلك الحرث والنَّسْلَ بحروب ظالمة آثمة طاغية باغية، أو بأشكال من الفتن يحصل بها إهلاك للحرث والنسل.

فإذا صمَد أنصار الحقّ، وكانُوا قُوّةً قادرة على مقاومة قوى الطغيان، واتَّبعُوا منهج الله في الدعوة إليه، والجهاد في سبيله ونصرة دينه حقّاً وصِدْقاً، نصرهم الله، لأنّه سبحانه لا يُحِبّ الفساد، وبما أنّه لا يحبُّ الفساد فإنّه يُمدُّ عباده المجاهدين في سبيله المؤمنين الصادقين، بالنّصر، ضمن سننه الثابتة، المبيّنة في دلالات كتابه المجيد، وسنّة رسوله الأمين، والّتي حقّقتْها التجارب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾:

أي: وقد يتغلّبُ هذا الصنف الطاغي الباغي لقلّةِ أنصار الحقّ وضعفهم وتفرُّقِهم، أو لأنهم لم يُحقّقُوا في أنفسهم الشروط المطلوبة لنصر الله لهم بحسَب سُنَنِه الثابتة.

عندئذٍ تقتصر أعمال الدعاة إلى الحقّ على مستوى الجرأة الأدبيّة، ومقابلة الطاغي بالنصح، فإذا قال له مؤمن ناصح: اتق الله، أخذتْه العزّة ـ أي قوّتُهُ الغالبة ـ المقترنة بابتغاء الإثم، فسارت به في طريق الكبر والطغيان والفجور، بعيداً عن مواطن طاعة الله ورحمته وغفرانه وعفوه، فرفض دعوة الناصح الصادق الأمين، وربّما سطا عليه وبغى، وربما زاد فساداً في الأرض وطغياناً، وإهلاكاً للحرث والنسل. ويظلُّ هكذا حتّى تأخُذَهُ عزّةُ الله وقدرته بجرائر آثامه، فتهلكه، ثُمّ تقذف به في جهنم.

ولكن هل من سبيل لأنصار الحق ودعاته، قبل أن يأخذه الله بحكمته أَخْذَ عزيز مقتدر؟

الحلّ: تركُه في الحالة الراهنة لله عزّ وجل، فالله هو الذي يتولّى الأمر بحسب حكمته في عباده في الحياة الدنيا، أمّا في الآخرة، فحسبُ هذا الطاغي الباغي جَهَنّمُ وبِئْسَ المهاد.

أمّا على المدى البعيد فعلى المؤمنين الصادقين أن يُعِدُّوا الْعُدَّةَ المكافئة لنُصْرَةِ الحق، وإزهاقِ الباطل، وإسْقاط أهْلِهِ من ذوي السلطان، وقَمْعِ جنودهم وأنصارهم، وتبديد قواهم.

وعندئذٍ يظهر فريق مجاهد في سبيل الله باللّسان والقوة فيبيعون أنفسهم لله مجاهدين، ابتغاء مرضات الله.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

في هذه الآية إيماءٌ ضمنيٌّ إلى ضرورة إعداد العدّة الكافية الوافية للقيام على الطاغي المتسلّط.

فإذا استكملوا الشروط اللازمة لتحقيق النصـر، وإسْقَاطِ الـظلم، وَإقامـةِ العدل، وقاموا متوكلين على الله ذي العزّة الحقيقية الدائمة، نظر الله إليهم بعين الرأفة، فأمدّهم بتأييده ونصره، وخذل الطاغي وأنصاره وأعـوانه، وجعـل لأوليائـه التمكين في الأرض، واستخلفهم استخلافاً محفوفاً بالعناية والتأييد، كما استخلف الذين من قبلهم.

● ● ●

النصّ السادس

من سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) ثاني سورة مدنية

الآيات من (٤٩ ـ ٥٥)

حول قول المنافقين بشأن البدريّين من المؤمنين

إبّان غزوة بدر: غرّ هؤلاء دينهم

نزلتْ سورة (الأنفال) بعد غزوة بدر الكبرى، وقد اشتملت على تعقيبات وبيانات وأحكامٍ وإرشادات وتوجيهات ومُسْتَخْلَصات، حول أحداث هذه الغزوة.

وكان لا بُدَّ أن تَتعرّض هذه السورة لبيان ما كان من المنافقين، ومن الذين في قلوبهم مرض دون النفاق، ومن التعقيب عليه بما يُعمِّق المفهومات الدينيَّة، ويَرُدُّ الشُّبهات.

إنّ المنافقين، والذين في قلوبهم مرض دون النفاق، كالشّك، لم يخرج منهم أحد مع الرسول ﷺ لهذه الغزوة، وذلك لأنّ الرسول ﷺ ندب المسلمين ندباً لاعتراض قافلة قريش، ومصادرتها، بتخيير دون إلزام، وما كان ظنُّهم أنهم سَيَلْقَوْنَ حرباً مع جيش خرج للقتال من مكة، فخرج من خَفّ للأمر ونشط له.

والمنافقون والذين في قلوبهم مرض لا يخفّون ولا ينشطون ما دام الأمر ندباً لا إلزام فيه.

بيد أنَّ الأنباء كانت تَصِل تباعاً إلى المدينة وإلى مكة وإلى غيرهما، على ألسنة الغادين والرّائحين.

وقد خرجت قريش بجيش قوامه قرابة ألف مقاتل لمنع المسلمين من مصادرة قافلتهم، واتّجهوا شطر ماء بدر.

وانْحرفَ قائد القافلة أبو سفيان بن حرب عن الطريق الذي يترصَّدُهُ المسلمون، فنجا بها.

وتحوّل الأمر من مصادرة القافلة إلى مواجهة جيش مقاتل مختالٍ بعدده وعُدَّته، فقد كان المسلمون قلّةً في عددهم وعُدّتهم، وكان المشركون كثرة بالنسبة إلى المسلمين، في عددهم وعُدّتهم.

ولمّا كانت الأنباء تسري، وتصل تباعاً إلى المدينة وإلى مكة، فلا بُدَّ أن يكون للناس على اختلاف عقائدهم وولاءاتهم مواقف مختلفة.

* فالمؤمنون المسلمون يدعون الله ويتضرّعون إليه أن ينصر الرسول والذين معه في مواجهة العدوّ عند ماء بدر.

* والمشركون مطمئنون إلى قُوّتهم، وتَفوُّقِهِمْ في عَدَدِهم وعُدَّتِهم.

* أمّا المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، فقد أبان الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال) موقفهم الذي دلّت عليه عبارتُهُمُ التالية:

﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ . . .﴾.

فقال الله عزّ وجلّ:

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

* * *

(١)
الفكرة العامّة للنصّ

قال المنافقون، وقال الذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق، وهو مرض الشّك والتردُّد مع أنّهم منتسبون إلى الإسلام لكنْ لمّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قلوبهم: غَرَّ هؤلاء الذين خرجوا لاعتراض قافلة قريشٍ ومصادَرَتِها، غَرَّهُمْ دِينُهُم، فتورطوا وألْقَوْا أنفسهم بأيديهم إلى التهلكة، ودفعوا بأنفسهم إلى مواجهة جيشٍ قويٍّ لا قِبَلَ لهم بِه، ولَيْسَتْ قُوّتُهم مكافئة للصمود له، فضلاً عن الانتصار عليه.

فأبان الله عزّ وجلّ أنّ مقالتهم باطلةٌ ساقطة، ببرهان الواقع، ولا أدلَّ على الحقيقة من برهان الواقع.

فالرَّسُولُ والذين خرجوا معه إلى بدر قد انتصروا مَعَ قلّتهم عدداً وعُدَّةً، ومَعَ كَثْرةِ عدوّهم عدداً وعُدَّةً وتموينًا، ومَعَ اعتزازهم وكبريائهم وخُيَلائهم وجبروتهم.

وقد أمّد الله القلّة المؤمنة بجنودٍ من الملائكة يضربون وجوه الكافرين وأدْبَارَهم، فيذوقون العذاب على أيديهم، حتّىٰ يُوقِعُوهم صَرْعىٰ قتلىٰ، فَيَتَوَفَّوْهم، ويقال لهم: ذُقْتُم في المعركة عَذَابَ الضربِ والقتلِ، وذُوقُوا يومَ الدّين عذابَ الحريق، في جهنّمَ وبئسَ المصير، ذلك بسبب ما قدَّمَتْ أيديكم الكاسبةُ من أعمالٍ ظالمة آثمة، عوقبتم عليها بالعدل والقسطاس المستقيم، ومَا ظلمكم ربُّكم مثقال ذرة، فالله عزّ وجلّ لا يظلم أحداً شيئاً، وليس هو بظلّام للعبيد في أيِّ شيءٍ يتعلّقُ بهم، بل هم الظالمون لأنفسهم في الحقيقة، لأنهم جَنَوْا على أنفسهم بمعاندة الحقّ، ومقاوَمَتِه، وبارتكاب الظلم والبغي والعدوان ومعصية الرسول.

وهذا الذي جرىٰ للمشركين في معركة بدرٍ إنّما هو تطبيقٌ لسُنّةٍ من سُنَنِ اللّهِ الدّائمة التي لا تبديل لها ولا تحويل.

فَشَأْنُ الله في عباده كذلك، إنّ مظهر سُنّتِهِ الّتي جرَتْ لمشركي قريشٍ على قَدْرِ حاجَةِ العقوبةِ يومئذٍ، وعلى قدر ما تقضي به الحكمة، يُشبِهُ مَظْهرَ سنّتِهِ الّتي جَرَتْ فيما مضىٰ من القرونِ الأولى لآلِ فرعون والّذين كفروا بآياتِ اللّهِ البيانية بسبب كفرهم

بها، فأخذهم اللّٰهُ بذُنُوبهم بألوانٍ من العذاب الجزئي غير الشامل، والذي كان على قدر حاجة العقوبة التأديبية، وعلى قَدْرِ ما تقضي به الحكمة.

وما ينتظرهم من إهلاك شامل عامٌ إذَا وَصَلُوا إلى مرحلة اليأس من صلاحهم أو صلاح بعضٍ منهم تِباعاً يُشْبِه مظهرَ سُنَّتِهِ التي جرتِ لِهؤلاء المهلكين الأولين أنفسِهِمْ بِسَبَبِ تَكذِيبِهم بآيَاتِ اللّٰهِ التكوينيَّة الجزائية العقابيَّةِ وغيرِها من الخوارق والمعجزات، فاستَحَقُّوا الإهلاكَ الشاملَ بسبب ذُنُوبِهم، وعدمِ اتّعاظِهم بألوان العقاب الجزئي المماثل لما حصل للمشركين في بَدْر.

أي: فإذا لم يَتَّعِظْ المشركون بما جرى لهم في بدرٍ من عقاب جُزْئِيّ تأديبيّ غيرِ شامل، وكذَّبُوا بهذه الآيات الجزائية، واستمرُّوا على مقاومتهم لرسالة الرَّسُول، فإنّ الله يُهْلِكُهُمْ إهلاكاً عامّاً شاملاً، كما أَهْلَكَ عاداً بالريح الصرصر العاتية، وكما أهلك ثمودَ بالصيحة، وكما أهلك آل فرعون بالإغراق في البحر.

ومع أنّ الله عزّ وجلّ لَمْ يخلُقْ عباده ليهلكهم، بل ليبلوهم، لكنَّهُمْ إذا وصَلُوا إلى حالةٍ صاروا فيها شرّاً حقيقيّاً مدمّراً حتّىٰ لَا تُرجَىٰ مِنْهم تَوْبَةٌ ولا استغفار، ولا صلاح، كان إهلاكُهم في الحياة الدنيا إهلاكاً شاملاً هو الحكمة، وعندئذٍ تتحقق فيهم سُنَّةُ اللّٰهِ في الإهلاك الشامل، كشأنِ الله عزّ وجلّ في إهلاكِ أُمَّةٍ من دوابِّ الأرض يَكْثُرُ شرُّها وفسادها، وتدميرها، وتخريبها، وتَسلُّطها عَلَىٰ الحرث والنسل، فَيُسَلِّطُ عليها ما يُبيدها، حتى يرجع ميزان الكائنات إلى حالة الاعتدال المتوازن، الذي لا يطغى فيه نوع على نوع، ولا جنسٌ على جنس، ممّا قضى الله ببقائه، ولم يأتِ أجلُ إنهاءِ أُمّتِهِ.

لكنَّ شرَّ الدّوابِّ التي تستَحِقُّ هذا الإهلاكَ العامّ الشامل هُمُ الكافرون من الناس، الذين وصلُوا إلى حالةٍ من العناد والإصرار والظلم والطغيان ميئوس من صلاحها عن طريق إراداتهم بتوبتهم واستغفارهمْ وإنابتهم إلى ربّهم بالإيمانِ الذي يُرجَىٰ معه إصلاح العمل، وتركُ الظُّلم والطغيان والبغي في الأرض بعد ذلك.

وإذا كان هؤلاء هم شرّ الدواب فهم أحقُّ بأن يُسلّط الله عليهم ما يكون به هلاكُهُم الشامل.

هذه هي سُنَّةُ الله، فاعتبروا يا أولي الألباب.

* * *

(٢)
المفـرداتُ اللُّغويـة

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾:

هُمْ فئة غير المنافقين بدليل عطفهم على المنافقين، مع أنّ المنافقين في قلوبهم مرض، لكنّ المرض الذي في قلوب المنافقين مـرض خُلُقِيٌّ شَنيعٌ أوصلهم إلى ركـوب مركب النفاق جازِمين بأن يكون ظاهرهم على خلاف باطنهم.

أمّا هذه الفئة فلم تنافق ولكنّ منهم من كان لَدَيْهم ميل إلى الإسلام، وقد انْتَمَوْا إلى الإسلام صَادِقين، غير أنّ الإيمانَ لمّا يدخلْ في قلوبهم، فمرضُهم إذاً هو من قبيـل مرض الشّكّ في صحّة القاعدة الإيمانيّة، ومرضُ عـوارض الشبهاتِ الّتي تُـورِثُ القلَقَ والحيـرة، مع الـرغبة في الـسلامة والحـرص على النجاة من عـذاب الله، والرغبـة في الحصول على الأجْرِ الموعود به لأهلِ الإيمان والإسلام، إذا كان الأمر حقّاً.

وقد جاء ذكر هذه الفئة في عدّة نصوص قرآنية منها مـا في الآية (١٢) من سـورة (الأحزاب/ ٣٣) والآية (٦٠) منها والآية (٥٣) من سورة (الحج/ ٢٢).

وجاء ذكرهـا ضمن عموم الـذين في قلوبهم مرض، وهـو المرض من المستـوى الشديد، والمستوى الذي من دونه، كما في الآية (٥٢) من سورة (المائدة/ ٥).

﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾:

يقال لغة: غَرَّه يَغُرُّه غَرّاً وَغُروراً وَغِرَّةً، فَهُو مَغْرُورٌ وغريـر، أي: خَدَعَـهُ وأطْمَعَهُ بالباطل.

والمعنى: خـدعَ هؤلاء الذين خـرجـوا إلى بـدر من المسلمين دينُهم، وأطمعهم بالباطل، فاندفَعُوا إلى تهلُكَتِهِمْ.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾:

الأدبار جمع الدُّبُر، وهو في اللُّغة الظهرُ، والاسْتُ (وهو العَجُزُ، وقَدْ يُرادُ به حلْقَةُ الدُّبُر).

وعن مجاهد، وسعيد بن جبير أنّ المراد من أدبارهم أستاههم، ولكنَّ الله كريمٌ يُكَنّي.

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾:

ظلَّام: صيغة مبالغة، والأصل أنَّ نفي صيغة المبالغة لا يُفيد نفي الوصف من دون مبالغة، فحصل في هذا إشكال عند بعض المتدبرين لكتاب الله.

وأقول: لقد جاء في النصوص القرآنيّة نفي الظلم عن الله ولو كان بمثقال ذرّة، وجاء فيها أنّ الله لا يظلم الناس شيئاً، ولكنّ الناس أنفسهم يَظْلِمُون، فَنَفْيُ كُلِّ الظلْم عن الله عزّ وجلّ منصوصٌ عليه حتماً.

بقي أن نفهم السرّ في استعمال صيغة «ظَلَّام» هنا، وفي أربعة مواضع أخرى من القرآن: (١٨٢) آل عمران/ ٣ ـ (١٠) الحج/ ٢٢ ـ (٤٦) فصلت/ ٤١ ـ (٢٩) ق/ ٥٠ ـ (٣٣) الإسراء/ ١٧.

والجوابُ الأحسنُ هو أنّ مَنْ يظلم مَجْمُوعَةً من النّاس بأدْنَىٰ ظُلْمٍ لكلّ واحدٍ منهم أو لعَدَدٍ كبير منهم، فَهُو يَسْتَحِقُّ أنْ يُقال بشأنه «ظَلَّام». وللدّلالة على هذه الفكرة، وتحذير كلّ ذي سلطان، وكُلِّ من يستطيع أن يَظلم عدداً كبيراً من النّاس، بسلطانه أو بحيلته ووسائلِ مكْره، من أنّه إذا فعل ذلك كان ظلّاماً، واستحقّ بعمله عُقُوبَةَ الظَّلَّامِينَ، لا مجرّد عقوبة الظالمين، استخدم القرآن كلمة [ظلّام] مضافة إلى الجمع.

فجاء الأداء التعبيري مطابقاً في دلالته للواقع بالتكافؤ، فهو سبحانه لا يظلم أحداً شيئاً، وليس بظلّام للعبيد الذين هم جمع، وسوّى سبحانه في هذا الموضوع نَفْسَهُ بخلقه، وفي هذا غاية العدل، وغاية الروعة في الأداء البياني.

﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾:

الدأْبُ: العادةُ والشأن. والمرادُ: كشأن الله وعادته الثابتة المعروفة عنه في عقوباته للأمم السابقة.

أي: كَسُنَّتِه فيهم، وهي سُنَّةٌ متكرّرةٌ في كُلِّ الأمم.

والمعنى: عاقب الله المشركين في غزوة بدرٍ بأيدي المؤمنين، وبجنود من الملائكة مُسَوِّمين، على مجرى سنته التي سبقت أمثالُها في آل فرعون والذين من قبلهم حتى قوم نوح عليه السلام.

والكلام على تقدير: كدأب الله في عُقُوبَةِ وإهلاك آل فرعون والذين من قبلهم، باعتبار أنها ظواهر جزائيَّة متكرّرة.

فالعقوبة والإهلاك من الله عزّ وجلّ، فالأمرُ إذاً سُنَّةٌ من سُنَن الله التي لا تعطيل لها ولا تبديل ولا تحويل.

فالتعبير هنا يفيد ما يفيده قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾:

الهلاكُ: الموت. والمرادُ إماتَتُهُمْ إمَاتَةً جماعيَّةً بوسائل فيها تعذيب لهم، وإهانةٌ وإذْلالٌ، ومَحْقٌ.

﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾:

جاءَ في هذا بيانُ وَسِيلَةِ إهلاكهم، لأنَّهُمْ ذُكِرُوا بصَريح العبارة فيما سبق، بخلاف الْمُهْلَكِينَ الآخرينَ، فإنَّهُمْ لَمْ يُذْكَرُوا بصريح العبارة، وإنّما ذُكِرُوا بِوَصْفٍ عامّ شامل هو:

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

* * *

(٣)
ما رُوي في سبب النزول

(١) روى الطبريّ بسنده عن عامر حول الآية الأولى من هذا النص، قال: كان

نـاسٌ من أهل مكّـة تكلّموا في الإسـلام (أي: تكلموا في رغبتهم في الإسـلام واتّبـاع الرسول ﷺ) فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلمّا رأوْا قلّة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾.

(٢) وروى الطبريّ بسنده عن مجاهد قال في الآية: «فئةٌ من قـريش: قيْسُ بن الوليد بن المغيـرة، وأبو قيس بن الفـاكه بن المغيـرة، والحارث بن زمعـة بن الأسود بن المطلّب، وعليّ بن أمية بن خلف، والعاصي بن منبّه بن الحجاج، خرجـوا مع قـريش من مكّـة، وهم على الارتيـاب، فحبَسَـهُمْ ارتيـابُهـم، فلمّـا رأوْا قـلّةَ أصْحـابِ رَسُولِ الله ﷺ قالوا: غَرَّ هؤلاءِ دينهم، حتى قَدِموا على ما قدِموا عليه، مع قلّة عددهم وكثرة عَدُوّهم».

من الـظاهر أنّ مـا ذُكر في هـاتين الـروايتين يشيـر إلى مقـالـة الـذين في قلوبهم مرض، لا إلى المنافقين.

ومن البدهيّ أن ندرك أنّ المنـافقين في المدينة، والذين في قلوبهم مـرض فيها أيضاً، قد قالُوا هذه المقالةَ نَفْسَها، أو عبارةً بمعناها، لأنَّ الكافـر في باطنـه، وكذلـك الشـاكُّ لا بُدَّ أنْ يقـولَها إبّـان المعركـةِ القائمـة، فالدّلائلُ المـاديّة في كُلٍّ من الفئتَيْن المتقاتِلَتَيْن تدلُّ على أنَّ النصر سيكون لصالح من يملكون القوّةَ عَدَداً وعُدَّةً حتْماً، وإذا كان الأمر كذلك فالمسلمون متورطون، وقد غرَّهم دينُهم.

هذه الكلمة لا بدّ أن يقولَها المنافقُ، بلسانه أو بقلبه، إنّ طبيعة نفـاقه ومـا يُفْرِزُهُ النفاق عادةً، سيَدْفعه تلقائيّاً إلى أن يقولَها.

* * *

(٤)

مع النّصّ في التحليل

في هذا النّص بيانٌ لموقف من مواقف المنافقين، يشاركهم فيه الذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق، وهو في قضية الإيمان مرضُ الشّكّ، وعَدَم ثباتِ الإيمان واستقراره في القلوب.

هذا الموقف يظهر عند مُواجَهة المؤمنين للكافرين في قتالٍ جادّ، وتكون قُوى المؤمنين في المقاييس السببيّة الماديّة أقلّ من قُوى الكافرين، كما كان الحال في غزوة بدرٍ الكبرى، إذْ كانَ المؤمنين (٣١٣)[1] وكان الكافرون قرابة الألف، وكانت فوارق القُوَىٰ العتادية والتموينيّة أكثر من هذه النسبة.

في مثل هذا الموقف لا بدّ أن يقول المنافقون وأشباههم، الذين لا يؤمنون بالقوىٰ المعنويّة الإيمانيّة، ولا بالقُوىٰ الغيبيّة التي يؤيّد الله بها أولياءه، وينصرُهُمْ بها على أعدائه، ويُعَدِّلُ بِها ميزان تفاوُتِ القوىٰ الماديّة التي يَرْجَحُ بها الكافرون رُجحاناً ظاهراً، لا بُدَّ أن يقول المنافقون وأشباهُهم عندئذٍ مقالةً تنسجم مع نظرتهم غير الإيمانيّة.

إنّهم بحساباتهم الماديّة يُقدِّرونَ أنَّ الكثرةَ ستنتصر على القلّة لا محالة، إذاً فما الذي يدفع هؤلاء المؤمنين لإلقاء أنفسهم بالتهلكة الواضحة الّتي لا أمَلَ فيها بالظفَر والنّصر؟

بالتفكير الماديّ يَرَوْنَ أنّ المؤمنين في غُرورٍ من أمرهم، ويقولون في أنفسهم: ما الذي غرّهم، وقد كانوا مِثْلَنا بالأمس القريب وقبل أن يؤمنوا بهذا الدّين، فقد كانُوا يفكّرون بمثل ما نفكّر به، ويقدّرون الأمور مثلَ تقديرنا؟

إنّ الجديد في الأمر عليهم هو دينهم الذي آمنوا به، فوعدهم بإحدى الْحُسْنَيَيْن في اعتقادهم، إمّا النصر في الدنيا مع الأجْرِ والثواب، وإمّا الشهادة والظفر برضوان الله والجنّة.

وبما أنّ هذه المفهومات لا يؤمن بها المنافقون، ولمّا يؤمنْ بها الذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق، فلا بُدَّ أن يعتبروها من قبيل الغرور، أو التغرير بهم، فهم بها يندفعون إلى تهلكتهم.

إذاً: فهم يقولون بعد هذه التحليلات الماديّةِ الصِّرْف: غَرَّ هؤلاء دينهم. أي:

---

(١) أو أكثر من ذلك قليلاً: (٣١٤) أو (٣١٧) أو (٣١٩)، والعدد الأخير جاء في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب.

خدعهم وأطمعهم وورطهم في التهلكة ما آمنوا به من هذا الدين الذي لا أساس له من الحقيقة، أو هو أمْرٌ مشكوك فيه.

إنّ حساباتهم وتقديراتهم مادّيّةٌ سطحيّةٌ ظاهريّة بحت، بعيدة عن المفهومات الإيمانيّة، وبعيدةً أيضاً عن شواهد التاريخ التي سبقت للمؤمنين أتباع الرُّسل، وبعيدةً عن الاعتبار بها، فقد أثبتت هذه الشواهد أنّ المؤمنين بالله واليوم الآخر، الملتزمين بِسُنَنِ الله التكوينيّة، وبياناته التعليميّة، لَدَيْهِمْ مَزيدٌ على قوى غيرهم من جهتين:

الأولى: شِحْنات القوى المعنوية الإيمانيّة التي تُضيفُ إلى القوى المادّيّة قُوىً احتياطيّة كمينةً في الإنسان، وتحجُبُ المثبّطات والمضعفات كالجبن والخوف والشكّ والحيرة والتردّد، عن أن تتحرّك وتنشط أثناء معارك القتال فتُلغِيَ أثَرَ نِسْبَةٍ كبيرة من القوى المادّيّة التي كانت حاضرةً منظورة داخلةً في الحسبان.

الثانية: القوىٰ الغيبيّة الرّبّانية المؤيِّدة والمثبّتة، وقد أبان الله عزّ وجلّ أنّه قد أيّدَ المؤمنين في بدر وأمدَّهم بآلاف من الملائكة، للمعونة والتثبيت، لا للقيام بكلّ المهمّة.

لقد قال المنافقون والذين في قلوبهم مرض: «غَرَّ هؤلاءِ دِينُهُمْ» وكرّروا هذه المقالة بدليل الفعل المضارع في: ﴿إِذْ يقولُ المنافقون...﴾ قبل أن تنتصر القلة المؤمنة في بدر على الكثرة الكافرة، تقديراً منهم بأنّ النّصر سيكون للكافرين، وأنّ الهزيمة والهلكة ستحلّان بالمؤمنين، وهو حُكْمٌ منهم مبنيٌّ على الظواهر السببيّة المنظورة.

فكان الردّ الرّبّانيُّ العملي بقلب موازين القُوىٰ لصالح المؤمنين، ونصرهم نصْراً مؤزّراً عظيماً على مُشْركي قُرَيش، وجيشهم المستكبر المختال.

وكان الرّدّ الربّانيُّ القوليّ عقب حكاية مقالة المنافقين والّذين في قلوبهم مرض، يتلخّص بثلاثة عناصر:

الأوّل: بيانُ العقيدة الإيمانية الفكرية بالنسبة إلى هذا الموضوع، وهي: أنّ من يتوكّل على الله صادقاً في توكُّله، ملتزماً مناهجه وصراطه المستقيم، تولّاهُ الله بتأييده ونَصْرِه، وما النصْرُ إلّا من عند الله، واللهُ عزيزٌ قويٌّ غالب، حكيمٌ في تصاريفه

بمقاديره، يضعُ النَّصرَ بحكمتِهِ في الجهةِ التي تستحقّ النصرَ على ما يَعْلَمُ مِنْ بَـواطِنِ الأمُورِ، وغاياتها، وآثارها التربوية، أو التأديبيّة، أو الجزائيّة.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النص:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

الثاني: بيانُ نتيجة المعركة التي ظنّ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون المجاهرون بكفرهم، قَبْلَ بَدْئِها وأثْناء قيامها، أنَّ الهلكة ستكون فيها للقلّةِ المؤمنة، وأنَّ النصرَ سَيَكُونُ للكَثْرَةِ المشركة.

إذْ قَلَبَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيها بتأييدٍ مِنْ عنده مَوازِينَ القوى فنصَرَ المؤمنين على المشركين، وأمَدَّ المؤمنين بجنُودٍ من الملائكة، فقاتلوا أعداء الله مع أوليائِهِ بِنِسَبٍ مِن القُوى القتاليّة محدودة، لا بقُوىً ملائكيّةٍ كقُوى الملائكة الْمُرْسَلَةِ لإهلاكِ قوم لوط.

دلَّ على هذا من النصّ قول الله عزّ وجلّ فيه:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

ودلّ عليه أيضاً بعض ما جاء في السورة قبل هذا النصّ، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

فحدَّدَ الله للملائكة مَقَادِيرَ أعمالهم في نُصْرة المؤمنين، فهي مقادير للتّثبيتِ، لا لِلْقِيَامِ بكُلِّ المهمَّة، وفي حدود ضَرْبٍ فَوْقَ الأعْنَاقِ، لإضْعَافِ الرؤوسِ وإلقاءِ الرُّعْبِ، وضَرْبٍ عَلَى الْبَنَانِ لإضعافها عن قبض الأسلحة، ويرى بعض أهل التأويل أنَّ الخطاب في (فاضربوا) موجّه للمؤمنين.

أمّا عند قبض الأرواحِ وَتَوَفِّي أَنْفُس الصَّرْعَىٰ مِنْهُم فالملائكةُ يَضربُونَ وُجُوهَهُم

إهانَةً وإِذْلالاً، لأنّهم صَرفوها عن الحق ويَضرِبُونَ أدبارَهُمْ إيلاماً وتعذيباً، فآلام الأدْبار من أشدّ أنواع الآلام، ولأنهم أعْطَوْا أدبارهم للحقّ بدل وجوههم.

ويقال لهم: وذوقُوا عَـذابَ الْحَرِيق، أي: ذوقُوا هـذا العـذابَ وذوقـوا عـذابَ الحريق أيضاً.

فَهَلْ هم مع الضرب يمسُّهم عذابٌ فـوقَ الضَّرب هـو من نَوْع عـذاب الحريق، كحريقِ الشّراراتِ الكهربائية، وهذا هـو الأظهر فيمـا أرَىٰ، أو: وذوقوا بعـد الموت في مُـدَّة البرزخ عـذاباً هـو من نوع عـذاب الحـريق. أو: وذوقُـوا يـوم الـدّين بعـد البعث والحساب عذاباً في جهنم هو عذابُ حريقٍ فيها.

كلُّ ذلكَ محتمل، وقد يكون كلُّ ذلكَ متحقّقاً والله أعلم.

الثالث: بيانُ أنّ هـذه العاقبـة للكافـرين ليست هي من قبيل المصـادفة، ولا هي حَدَثٌ شاذٌّ لا نظير له في مجرىٰ التاريخ الإنساني، بل هي سنَّةُ اللّٰهِ في عباده.

ألَمْ يُهْلِكِ اللّٰهُ عزَّ وجلَّ آل فـرعون، والّـذين كفروا من قبلهم، انتصـاراً لرسُله، وللمؤمنين معهم؟

لقد أخذهم اللّٰهُ بذنُوبِهِمْ إنَّ اللّٰهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ العقاب.

فلقد كانُوا في نعمة المال والسلطان والقوةِ في الأرض، ثمَّ جاءتهم نعمة الـرُّسُل والدّعوةِ إلى الإيمان بالحقّ الـذي يمنح الـطمأنينـة، والدّعـوة إلى صراط الله المستقيم الذي يُحَقِّقُ لهم الراحة وطمأنينة القلب والعافية في الدنيـا، ثمّ النجاة من عـذاب الله، والفوزَ والسعادة بجنّاتِ النعيم يوم الدين.

فغيَّـرُوا ما بـأنفسهم تُجاه هـذه النعمة، إذْ عَمِلوا بنقيض مـا هدتهم إليـه بيـانـاتُ الـرسول ومعجـزاتُه ودامغـاتُ حُجَجه وبـراهينه، وعَمِلوا بنقيضِ مَـا هدتهم إليـه دلائلُ عقولهم وموازين أفكارهم التي فطرهم اللّٰهُ عليهـا، والتي يُدْرِكُـونَ بها الحقَّ إذَا أُقِيمَتْ لَهُمْ أدلّتُه وبراهينـه، وعَمِلوا بنقيض ما فُطِرتْ عليه نفـوسُهُم من نُزوع ضمـائرهم إلى الإيمان باللّٰهِ وعبادته.

وإذْ غيَّروا بذلـك ما بـأنفسهم، من سلامـة الفطرة الـرَّبَّانيـة، ومسخوا إنسـانيَّتهم

المكرّمة بأصل الخلق، ووضعُوا بدلَ قواعد الفضيلة في فطرتها، جحوداً وكِبْراً وَرغْبَةً في الْفُجور، ونكُسُوا فطرتهم، وانْحَدَرُوا بتكوينهم النَّفسِيّ إلىٰ أسْفَل سَافلين، حَتَّىٰ صَارُوا شَرَّ الدَّوَابّ عند الله، وأضلَّ سبيلاً من الأنعام، لأنّ كفرهم قد كان نتيجة إرادةٍ للكفر والجحود، لا جهلاً بدلائل الإيمان، ولا جهلاً بأنَّ الله حق، والرَّسُولَ حق، وما أُنْزِل من عند الله على لسانِ رسُلِه حقّ، لذلك فهم لا يؤمنون مَهْمَا قُدِّمَتْ لهم من أدلّة وَبيانات.

فاستحقُّوا أولاً بمقتضى حكمةِ اللّهِ وعَدْلِه، أنْ يسلُبَهُم الله بَعْضَ النّعم الَّتِي كان قد أنعم بها عليهم، وأن يسلّط الله عليهم بعض أسْواط التأديب والتربية والتذكير والإنذار، ليرجعوا عن غيّهم، ويتوبوا إلى بارئهم، فلَمْ يَرجعوا وعلّلوا ما جرىٰ لهم من عقوبات جُزْئيّة، وجزاءات تأديبيّة منذرة، بأنّها ظواهر طبيعيَّةٌ تجري نظائرها دواماً وتكراراً في مجرى الأحداث الكونيّة، وليست عقوبات وجزاءاتٍ ربّانية مقصودة للتأديب والإنذار، دلَّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

ولمَّا لَمْ يَتَّعِظوا بالعقوبات والجزاءات الرّبّانيّة التأديبيّة الإنذاريّة، التي لم تصلْ إلى الإهلاك العامّ الشامل، واستمرُّوا على كفرهم وظُلْمِهم، وكذَّبُوا بهذه الآيات من آيات الله التأديبيّة كآيات الدّم والضفادع والقُمَّل والأخذ بالسنين العجاف الَّتي كانت لآل فرعون، أنزل الله عليهم ما تَمَّ بِهِ إهْلاَكُهُمْ إهلاكاً عامّاً شاملاً، كالريح الصرصر العاتية على عاد، والصيحة المهلكة على ثمود، والحاصب المدمّر على قوم لوط، والاسْتِدْراجِ إلى البحر فالإغراق لآل فرعون وجنوده.

دلّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

ويتساءل المتدبّر: لِمَ أنْزَلَ اللّٰهُ عليهم هذا الإهْلاكَ الْعَامَّ الشّامِلَ، وهُمْ خَلْقٌ من خلقه، وعبيدٌ من عبيده؟

ويأتي البيانُ القرآنيُّ دالاً على أنَّ سُنَّةَ اللّٰهِ في الأحياء واحِدَةٌ، ومن سنّته في الأحياء أنَّهُ إذا وصلتْ أُمَّةٌ مِنْهَا في موقع من الأرض إلى مستوى من الإفساد العامّ الشامل، حتّى صارتْ طُغْياناً، وصار رجاء الخير في مقدار صالح للبقاء منها أمْراً ميؤوساً منه، كان من الحكمة التخلُّص منها بالإهْلاكِ العامّ الشامل.

ومن هذه الأحياء الأقوامُ من البشر، بل هم إذا فسدوا فساداً عامّاً، وطغَوْا طُغْياناً عامّاً، ووصلوا إلى مرحلة اليأس من صلاحهم أو إصلاحهم بألوان التربية والتأديب، عن طريق اختياراتهم وإراداتهم الحرَّة، كانُوا شرَّ الدَّوابِّ على الأرض عند الله، بحسب علمه وحكمته وقضائه وقدَره، فكانُوا أحقَّ بالإهلاك العامّ الشامل من الحشرات والفواسق التي تتكاثر حتى تصل إلى مستوى الإفساد والتدمير، وتغيير موازين بقاء الكائنات، بأجناسها وأصنافها المختلفات.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٥﴾.

* * *

(٥)
تـدبُّر النّـصّ

* قول الله عزّ وجل:

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ...﴾.

جاء الحديث في سورة (الأنفال) عن عدّة مواقف كلٌّ منها مُصَدَّرٌ بكلمة «إذْ» ولفظ «إذْ» ظرف زمان، وهو أقلّ لفظ بعدد حروفه من ظروف الزمان، ويَسْهُل النُّطْق به، وهو يدلُّ على وقْتٍ مَا أو أوقات ما، دون تحديدٍ بقلَّةٍ أو بكثرة.

قال النحاة: وهو ظرف للزّمن الماضي، ويجب إضافته إلى الجمل.

أقول:

ولعمومه وقلّة حروفه وسهولة النطق به كثر استعماله في القرآن.

ويظهر من سبْر النّصوص القرآنيّة أنّ الغرض من ذكر الزمن بحرف «إذْ» بيان ما جرى فيه، وجاء ذكر الزمن للدّلالة على أنّ الأمر حدَثٌ جرى، وليس أمراً ثابتاً دواماً.

وبالتدبُّر العميق نُدْرِكُ أنَّ متعلّق هذا الظرف في القرآن ـ أي: العامل فيه ـ يختلف باختلاف المواطن، وقد يكون أحياناً محذوفاً، ويقدِّرُه المفسّرون بفعل «اذكر» أو «اذكُروا» إذْ قد جاء مصرّحاً به في بعض المواضع، مثل قول الله تعالى في سورة (الأنفال) خطاباً للمهاجرين:

﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

لكن قد يكون تقدير فعل «اذكر» في بعض المواطن التي لا يكون فيها المتعلّقُ مذكُوراً غير ملائم.

والمواقفُ الّتي صُدِّرَتْ بحرف «إذْ» قبل هذه الآية من سورة (الأنفال) هي ما يلي:

(١) ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ... ﴿٧﴾﴾.

(٢) ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ... ﴿٩﴾﴾.

(٣) ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ... ﴿١١﴾﴾.

(٤) ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ... ﴿١٢﴾﴾.

(٥) ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴿٢٦﴾﴾.

(٦) ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ .. ﴿٣٠﴾﴾.

(٧) ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا .. ﴿٣٢﴾﴾.

(٨) ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا ... ﴿٤٢﴾﴾.

(٩) ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا . . . ﴿٤٣﴾﴾.

(١٠) ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا . . . ﴿٤٤﴾﴾.

(١١) ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ . . . ﴿٤٨﴾﴾.

ولكلّ مِنْها الْمُتَعلّق المناسبُ لَهُ، مذكوراً أو محذوفاً، والمحذوف يمكن إدراكه وتقديره بالتدبّر والتأمل.

والمناسبُ فيما أرى بالنسبة إلى قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ . . ﴿٤٩﴾﴾.

أن يكون تقدير الكلام كما يلي: لَقَدْ نصرَكُمُ اللَّهُ إِذْ يقول المنافقون. . .

. . . بدليل قول الله في آخر الآية:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: فإنّ الله نَاصِرُهُ وإنَّهُ عَزيزٌ حكيم.

وقَدْ جَاءَ بيـانُ هذا الكـلام الْمَطْوِيّ، والَّـذي يمكن أنْ يُقدَّر فَهْمـاً، في قول الله تعالىٰ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) تعقيباً على أحداث غزوة أحد:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

والمشار إليه باسم الإشارة ﴿هؤلاء﴾ هم المؤمنون مع الرسول في بدر.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

في هـذه الجملة بيان لِبُـطلان مقولـةِ المنافقين والـذين في قلوبهم مرض، فكـراً واعتقاداً.

﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم يجزم فعلين أوَّلُهما فعل الشرط، والآخرُ جوابُه وجزاؤه.

وقد ذُكِرَ في الآية هُنا فعلُ الشرط فقط، وهو ﴿يَتوكَّلْ عَلَىٰ اللَّهِ﴾ وهو مجزوم.

والتوكُّلُ: تفويضُ القلْب واستسلامُهُ الكاملُ لله عزّ وجلّ، مع القيام بكل الأسباب الّتي أمر الله باتّخاذها لتحقيق المطالب ضمن سُنَنِهِ التكوينيَّة، فهو وظيفة قلبيّة فقط من الوظائف الإيمانية للقلوب، وليس وظيفة من أعمال الجوارح الظاهرة، والتخطيط لها، والتفكير فيها، واتّخاذ التدابير اللازمة للقيام بها، فهٰذه لها واجبات عمليّة غيرُ التفويض والاستسلام، واللَّهُ يأمر بها، والمفرّطُ بها عاصٍ لأمر الله.

هذا فعلُ الشرط، فأينَ جوابُه؟

بالتدبُّرِ نَرَىٰ أنَّه حُذِفَ لفظه، ولكن أشير إليه بالجملة المصدّرة بالفاء الّتي تدخُلُ عادةً على جملة الجواب التي يمتنع أنْ تكون شرطاً، ومن هٰذه الجمل الجملة الاسمية، كجملة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حكيم﴾، فدلّ كونُ اللَّهِ عزيزاً، أيْ قويًّا غلاّباً، وكَوْنُ اللَّهِ حَكيماً يضَعُ الأمور في مواضعها، على أنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ مَنْ يتوكّلُ عليه، متّخذاً الأَسْبابَ الّتي أمر بها، وهذه سُنَّةٌ ثابتةٌ من سُنَنِ اللَّهِ في عباده، ومن تطبيقاتها، ما حقّقَ للمؤمنين في بدر من نصْرٍ مؤزّر مَعَ قلّتهم وذِلّتِهِمْ.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

وقرأ ابن عامر: [إِذْ تَتَوَفّى].

في هٰذه الآية بيانُ لبُطْلان مقولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض، بحدثٍ مَشْهودٍ هو قَتْلُ من قُتِل من المشركين في بدر، وحَدَثٍ غير مشهودٍ للنّاس، وهو ضربُ قتلاهُمْ على وجوههم وأدبارهم من قِبَلِ ملائكةِ قبضِ الأرْواح حينَ يَتوفَّوْنَهُمْ لتذُوقَ أنفسُهم الموتَ، والإهانَةَ والعَذابَ، وما تمّ بعد ذلك من تحقيق النصر للمؤمنين.

وجاء التعبير عن الحدث غير المشهودِ للناس بعبارة: ﴿لو تَرَىٰ﴾ أي: لو ترىٰ أيُها الرائي أيّاً كنتَ، لأذْعَرَكَ الْمشهَدُ، ولَهالَكَ الأمر، لشدّته وما فيه من هَوْلٍ تَنْفطِرُ منه القلوب، وهو أسلوبٌ للدلالة على هولِ المشهد.

وجواب الشرط «لو» محذوف، يُعْلَمُ مضمونُه من حالة حَدثِ ضرب الملائكة لهم على وُجوههم وأدبارهم، ويمكن تقديره بنحو، لهالَكَ المشهد. أو لرأيت مشهداً عجباً مخيفاً.

يتوفَّى: التَوَفِّي: قَبْضُ الرُّوح، مع ملاحظة بلوغِ أعمارِهم غاية آجالها المقدّرة المقضيَّة، لأنَّه يُقَالُ: تَوَفَّى المدَّةَ إذا بلغ نِهايتَها، وتوفَّى المالَ، إذا أخذه فلَمْ يُبْقِ منه شيئاً، وقضاء الله بإماتتهم في مصارعهم مقرونٌ بإنهاء آجالهم.

﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾:

﴿الّذين كفروا﴾ مفعول به مقدّم، و ﴿الملائكةُ﴾ فاعلٌ مُؤخر، وقُدِّمَ المفعولُ به هُنا لأنَّ الغرضَ التَّنبيهُ على حالةِ قَتْلَى المشركين في بدر، فهم الأحقُّ بأولويَّة الاهتمام، لا قابضو أرواحهم من الملائكة.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾:

جملةٌ في موضع الحال، أي: يتوفونهم حالة كونهم يضربُونَ وُجُوهَهم وأدبارهم إهانَةً وإذلالاً وتَعذيباً.

واسْتُعْمِل الفعلُ المضارعُ في الجملتين لإحضار صورة الحدث الماضي في الذهن، كأنَّه حدَثٌ يجري متكرّراً، امّا تجديدُ الضَّرب وتكريرُه فهو لكل فردٍ منهم، إذْ كانت تتوالَى عليه الضربات، وأمّا تجديد التوفّي وتكريرُه فهو أمر يُلاحَظُ تتابُعُهُ بالنسبة إلى مجموع الأفراد، إذْ لم يَحْدُثْ دُفعةً واحدة، وإنَّما جاء تَوَفِّيهم متتابعاً، فحدَثُ التوفّي مُتكرِّر بالنسبة إلى الجميع ، وإنْ كان بالنسبة إلى كلّ واحدٍ منهم واحداً غير متكرّر.

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾:

أي: ويقال لهم مع حَدَثَيْ الضَّرْب والتَّوفّي: ذوقوا عذاب الحريق. **الحريقُ**: اضطرام النار، واللّهب، واسم من الاحتراق.

واستُعْمِلَ الذوقُ للدلالة على الإحساس الكامل بالشيء، لأنّ اللّسان أكثر الحواس إدراكاً مباشراً لأكثر المختلفات من الأشياء التي تُدْرَكُ بالحسّ.

وقد سبق بيان احتمالات معنى هذه الجملة:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾:

المشار إليه هو ما جرىٰ لهؤلاء القتْلَىٰ من المشركين في بدر، والخطابُ لهم، وهو تابع لما يُقال لهم، واستُعْمِلَتْ إشارة البعيد للدلالة على عظم شأنه، وأنه جاءهم من ربّهم العليّ الأعلى.

أي: هذا الذي جرى لكم هو بسبب ما قدّمت أيديكم، أي: من عمل إراديٍّ كان من كسبكمْ، وهو كفرهم وتكذيبهُمْ وظُلْمُهم، وحربُهُمْ للرسول والمؤمنين معه.

وجاء في القرآن التعبير عمّا يكسِبُه الإنْسان بعمله في الحياة الدنيا من خيْرٍ أو شرٍّ بفعل «قدَّم» وتصريفاته، لأنَّ كسْبَ الإنسانِ هو الذي يقدّمه أمامه لآخرته.

وفي مقابله جاء التعبير عمّا تركَ الإنسان من عمل في الحياة الدنيا، ومنه واجباتٌ يتركها بفعل «أخّر» وتصريفاته، لأنَّ ما لم يعمله الإنسان في الحياة الدنيا قدْ أخَّرَهُ وأبقاهُ هُو وزَمَنهُ في الماضي، فإنْ كان واجباً حُوسِبَ على تأخيره له.

وجاء استعمالُ «اليدين» و«الأيدي» كنايةً عن كُلِّ كسبٍ إراديٍّ يكسِبُهُ الإنسانُ بإرادته الحرّة، لأنَّ عملَ الأيدي هُو أبرزُ مظهر ماديّ للكسب الإراديّ، فيدخُلُ في عموم الكسب الإراديّ أعمالُ القلوبِ والنفوسِ الإراديّة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾:

أي: وهذا الذي جرى لكم هو بسبب صفةِ العدل الربّاني، ومظاهرها من الجزاءِ بالعقاب. وجاء التعبير عن العدل بنفي الظلم عن اللَّهِ عزّ وجلّ، لأنَّ نَفْيَ الظُّلْمِ يشْمَل الجزاء بالعدل، ويشملُ أيضاً الجزاء ببعض حقِّ العدل، وهو المقرون بشيءٍ من الغفران والعفو والتسامح.

فدَلَّ النَّصُّ ببيان السَّبَبَيْن على أنَّ تطبيقَ الجزاء بالعقاب له سببان:

السبب الأول: كسْبُ الجاني.

السبب الثاني: عَدْلُ المجازي.

فلو لم يكن كَسْبٌ فيه جناية وظلم لما حصل الجزاء بالعقاب. ولو لم يكن في الوجود مُجازٍ قادرٌ عادلٌ لما حصل الجزاء بالعقاب أيضاً.

فكان من دقّة البيان وروعته بيان السَّببَيْن معاً في قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

وقد سبق بيان ما يتعلّق بصيغة ﴿ظلَّام﴾.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

البيان في هاتين الآيتَيْن يُنبّه على العقوبات الجزائيّة الْجُزْئية دون الإهلاك العامّ الشامل للقوم، وهي عقوباتٌ يراد منها التأديب والتبصرة والتذكير بعدلِ الله، والإنْذارُ بما هو أشدّ، كعُقُوباتِ الرِّجز الّتي أنزلها اللّهُ على فرعون وشعبه آياتٍ لموسىٰ عليه السلام وهي: رِجْز السنين، ورجز نقص الثمرات، ورِجزُ الطوفان، ورِجْز الجراد، ورجزُ القُمَّل، ورجزُ الضفادع، ورِجْز الدّم، وكان لكلّ أمّةٍ أجرمَتْ عقوباتٌ تلائم جرائمها.

وأشار إلى أنّ أخذهم بذنُوبهم قد كان بحدود هذه العقوبات الجزئية، ما جاء في الآية الثّانية من التعبير بتغيير النعمة، أي: إلى مصائب في الأموال والأنفس، ومؤلمات من العوارض العامّة التي فيها صور مختلفات من العقاب، وكلُّ ذلِكَ دون الإهلاك العامّ الشامل.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾:

أي: كسُنَّةِ اللّهِ في عِقاب كُفّارِ الأُمَم الغابرة.

والمشَبَّهُ حَالُ مُشركي قريشٍ وتطْبيقُ سُنَّةِ اللّهِ فيهم، كما طُبِّقَتْ في كُفَّار الأمم

من قبلهم، فالمشبّه به حال كفّار الأمم السابقة، وتطبيقُ سنّة الله فيهم.

وسُنَّةُ الله هذه فيها أوّلاً عُقُوباتٌ جزئيّةٌ محدودة، وفيها أخيراً إهلاكٌ كُليٌّ شاملٌ، حين تنتهي ظروف امتحان القوم مع الإمهال الطويل، ويصلُون إلى درجة اليأس من تأثير وسائل إقناعهم وإصلاحهم.

والمعنى: دَأْبُ اللَّهِ وسُنَّته في مُعَالجة ومُعاقبة كُفّارِ قريشٍ كدأبه في مُعَالَجةِ ومُعَاقبة كفّار أهل القرون الأولى.

فنصر الله المؤمنين عليهم في موقعةِ بدرٍ، وقَتْلُ بعضٍ قادتهم وسادتهم، وأَسْرُ فريقٍ منهم، وجعل ما ساقوا من أموالٍ وسلاح غنيمةً للمسلمين، هو من صور العقاب الجزئي التأديبي الرَّبّانيّ لهم.

والإضافة في: ﴿كَدأبِ آل فرعون﴾ على تقدير محذوف بين المضافِ والمضافِ إليه، وبالتأمل استطعنا اكتشافه، وهو كدأب: أيْ كشأنٍ وعادةِ وسُنَّةِ اللَّهِ في عقاب آل فرعون والذين من قبلهم.

وهذا العقاب الْجُزْئيُّ قد كان بسبب أنَّهم كَفَرُوا بآياتِ الله، ولا بُدَّ أن تكونَ هذهِ الآيات هي ما يلي:

(١) الحجج والبراهين المثبتة لقضايا الدّين، وصدق رسالة الرسول.

(٢) المعجزات وخوارق العادات التي أيّد الله بها رسُلَه.

(٣) آيات الله البيانية المنزّلة على رُسُلِه.

(٤) آيات الله التي فطر الله النفوس عليها، والتي تنزع بالنّفس الإنسانية من داخلها إلى الإيمان بالله وعبادته.

هذه الآيات كُلُّها قد كفرُوا بها مع إدْراكهم لدلائلها، فكفرهم بها كُفْر جُحودٍ لا كفرُ جهل، ومارسوا الأعمال التي هي من آثار كفرهم، وهي ذُنُوبٌ ومعاصٍ تدفعهم إليها أهواؤهم وشهواتهم.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾:

أي: فأخذهم الله من مواقع النِّعَم، ونَقَلَهُمْ إلى مواقع المصائب والآلام، بسبب ذُنُوبِهِم، الّتي رَتَّبَ اللَّهُ عليها أنواعاً من العقاب المعجل في الدنيا.

والمعنىٰ: أنّ اللّٰهَ قد غير أحوالهم بهذا الأخذ، من أحوال الموسَّع عليهم بالنِّعَم، إلى أحوالٍ من الشّدائد المؤلماتِ، تأديباً وعقوبة وإنذاراً بما هو أشدّ، وتبصرةً وذكرى، لعلهم يتوبون ويستغفرون من ذنوبهم، ويؤمنون برسول ربّهم، وبما أنزل الله عليه.

﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾:

في هذه الجملة الختامية للآية تذكيرٌ ببعض عناصر القاعدة الإيمانية بالله، وتثبيتٌ لها، من خلال ظواهر الأحداث التي تدلُّ عليها.

فكونُ الله قد أخذ هذه الأمم بذنوبها، فأنزل عليها ألواناً وصوراً من العذاب، وقلّبهم في المصائب والآلام ليَتُوبوا ويستغفروا، إنّما هو مظهرٌ لصفة قوّته وحكمتِه وعدلِهِ وشِدَّةِ عقابِه إذْ كان من مقتضيات علمه وحكمته أن يعاقبهم عقاباً شديداً.

وهو دواماً قويٌّ شديد العقاب فليحذر الكفّارُ وأهل كبائر الذنوب.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.

دلّت هذه الفقرة على سُنَّة مِنْ سُنَنِ اللّٰهِ الدائمةِ في خلقه، وهيَ أنّ الأصلَ إبقاءُ مجاري النِّعم الّتي يُنْعِم الله بها على أيِّ قوم، بسبب مكافأتهم، أو امتحانهم وابتلائهم، ما دامت أحوالُ أنفسهم متمشّيةً مع فطرتها السليمة التي فطرها الله عليها، لم يُشوّهوها، ولم يَمْسَخُوها، ولم يعملوا على إفسادها، فإذا فعلوا ذلكَ التغييرَ في أنْفسهم غيَّر اللّٰهُ لَهُمْ في مجاري نعمه، فسلبَ منها، وأنزلَ المصائب، ومسَّهُمْ بالضُّرِّ، جزاءً وتذكيراً وإنذاراً.

﴿ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ . . . ﴾:

أي: ليس من شأن الله سبحانه وتعالى أن يُغَيِّر نِعْمَةً أنْعمها على قوم ما. إنّ هذا سُنَّةٌ من سننه عزّ وجلّ. لَمْ يَكُ: أي: لم يَكُنْ، ففي اللّسان العربي حذفُ هذه النون إذا كان الفعل مجزوماً بالسكون غير متصل بضمير نصب ولا بساكن.

﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾:

أي: فإذا غيّروا ما بأنفسهم كما سبق في الشرح آنفاً غيَّرَ اللَّهُ في النِّعَم الّتي كانت مستمرّةَ الْمَدَدِ والعطاءِ فيهم، وهذا أيضاً سُنَّةٌ من سُنَنِ اللَّهِ عزّ وجلّ في الناس.

فهما ستتان:

(١) سُنَّةُ ثَباتِ النِّعم ما دامت الأَنْفُسُ على فطرتها.

(٢) سُنَّةُ التغييرِ إلى الأَدْنىٰ وإلىٰ الضُّر إذا غيَّر القوم ما بأنفسهم، بإفسادهم فِطَرَها، أو عَدَم استجابتهم لنداءاتها الوجدانيّة الْفُضْلَىٰ.

ذلك: المشار إليه بهذا الاسم من أسماء الإشارة في الفقرة، هو أَخْذُ الله لَهُمْ بذنوبهم، والمعنى: حصَلَ لهم ذلك:

بأنَّ الله. . . أي: بسبب تطبيق هذا القانون من قوانين الله فيهم، وهو المشتمل على سُنَّتَي الثبات والتغيير.

أَنْعَمَها: الفاعل ضمير مستتر يعود على «الله» والضَّمير الظاهر مفعول به، يقال لغة: نعمةٌ أنعَمَها اللَّهُ عليه، ونِعْمَةٌ أنعم الله بها عليه.

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾:

أي: وهذا التغيير في مجاري النعم، وتبديلها ببعض مجاري الضَّرّ والبؤس والنِّقم بسبب أنَّ الله سَمِيعٌ عَليمٌ.

أي: سميعٌ لكل ما يصدُر عنهم من أقوال وأصوات، عليم بكلّ ما يصدُرُ عنهم من أعمال إراديَّة ظاهرة وباطنة، من أعمال السوء والشرّ والضرّ.

وسميع أيضاً لدعاء رسُلِهِ، ودُعاء المؤمنين، وعليم بما ينالُهم من أذى أقوامهم الكافرين لهم، وعليم بأحوالهم الداعية إلى معاقبة مضطهديهم.

فدلّ قولُ الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وقولُهُ تعالى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عليم﴾ على أنَّ التغيير المذكور في النَّصّ له سببان:

السبب الأول: ذنوبُ الأقوام الّتي وصلت إلى المستوى الداعي إلى العقوبة في

الحدود التي لا تصلُ إلى الإهلاك العامّ الشامل.

السبب الثاني: عدلُ اللهِ وحكمتُه الملازمان لكونه سميعاً عليماً، وقد سبق قبل هذا في النّصّ بيان عزّة الله وحكمته، وبيان قُوّتِه وشدّة عقابه، والإشارة إلى عدله، وجاء هنا بيان كونه سميعاً عليماً، فاكتمل بيان كلِّ صفاتِ الله التي من ظواهرها مُعاقبته للكافرين والظالمين والمجرمين وسائِر المذنبين.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

البيان في هاتين الآيتين يُنَبِّهُ علىٰ خاتمة العقوبات الدنيوية، وهي عقوبَةُ الإهلاك العامّ الشامل، للأقوام التي تصلّبَ فيها الكفْرُ والعنادُ، واستشرىٰ فيها الظلْمُ والفساد، حتى صارت أقواماً ميؤوساً من صلاحها بإراداتها الحرّة، عن طريق الإقناع، أو وسائل التأديب والتربية، أو العقوبات الجزائية الجزئية دون الإهلاك الشامل.

فالأقوام الذين عُوقبوا بالعقوبات الجزئية فلم يرتدعوا بها، ولم يَرَوْا أنّها آياتٌ من آيات الله الهاديات إلى الإيمان، وإلى الاستقامة على طريقة الرحمن، بل كَذّبُوا بها، وفسَّرُوها بأنّها ظواهر طبيعيّة من ظواهر أحداث الكون، وأنّها تجري دون قَصْدٍ وإرادةٍ علويّة، هُمْ أنفسُهم الذين استحقوا بما وصلوا إليه الإهلاك العامُّ الشاملَ، فأهلكَهُمُ اللّهُ بذنوبهم.

فاقتضىٰ البيان إعادة ذكرهم بِفَنِّيَّةٍ بديعة فقال تعالى:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

هذه العبارة قد سبق شرحها، ولكنّهم بعد المعالجة بالعقوبات الجزئيّة أضافوا إلى كفرهم السابق، تكذيبهم بأنّ ما جرىٰ لهم من أحداث هو من عقوبات الله لهم،

وهو من آيات الله الدالّات على عزّته، وحكمته، وقوّته، وشِدَّةِ عقابه، وعَدْلِهِ، وأنّه سميعٌ بصير، فقالَ تعالَىٰ مبيّناً هذا التكذيب الذي أضافوه إلى كفرهم السابق:

﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾.

وإذْ قَدْ وَصَلُوا إلى هذه الحالة الميئوس من صلاحها بإراداتهم الحرَّةِ، فإنّ أمر إهلاكهم العامّ الشامل، هُوَ مَا تقتضيه الحكمة، فقال تعالى:

﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾.

أي: أهلكْنَا آلَ فرعَوْن والَّذِينَ مِنْ قبلهم من الأقوام التي أهلكت بسبب ذُنُوبهم.

ولمَّا كانَ آل فرعون مَذْكورين بـاسمهم على وجه التَّعيين، كـان الأداء البيانيّ الأتمّ يقتضي ذكر الوسيلة التي تَمَّ بها إهلاكُهُم، فقال تعالى:

﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾.

وبعد ذلك أبان الله عزّ وجلّ أنّ ذُنُوبَ هؤلاء الأقـوام المهلكين لم تكن من الذنوب الّتي تكثُرُ في الأمم، فلا تقتضي الحكمة إهلاكهم إهلاكاً شاملاً، بل كانُوا ظالمين بجملتهم، فالحكمة تقتضي إهلاكهم، فقال تعالى:

﴿ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝٥٤ ﴾:

أي: فهم جميعاً قد اشتركوا في مقتضى واحد وهو الظلم فتناظروا في الهلاك وإن اختلفت وسائل الإهلاك.

وأبان الله بعد ذلك أنّهم قدْ وصلُوا إلى مرحلةِ اليأس من صلاحهم بإراداتهم الحرّة، فكان من الحكمة في عالم الابتلاء إهلاكُهُمْ وإبادتهم.

وأبان أنّهم قد صاروا شرَّ الدّوابّ عند الله، الّتي تستحِقُّ في عالم الأحياء الإبادة، فقال اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ﴾:

أي: إذا كانت الحشرات والفواسق الضارة قد وصلت إلى نسبة تستحقُّ معها الإبادة لشرِّها وضرِّها، فإنّ شرّاً منها دوابُّ بَشَرِيّة وصلَتْ في كفرها وشرّها إلى حالةٍ

ميئوس من صلاحهم معها، وقد دلّ على أنّ صلاحهم بإراداتهم غير متوقَّع ولا مرجُوّ، قولُهُ تعالى في الآية:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

أي: فهم لا يؤمنون في المستقبل مهما عُولجوا بالوسائل، فقد جُرّبُوا بكلّ الوسائل النافعة المؤثِّرة فيمن لديهم أقلُّ استعداد للهداية والاستجابة، فلم يهتدوا ولم يستجيبوا، فمن الْخَيْر للبشريّة إهلاكهم إهلاكاً شاملاً، تخليصاً للمجتمع الإنسانيّ منهم، إذْ تجاوز ظلمهم وطغيانهم حدود الضرر المعتاد في المجتمع البشري، وصمَّموا على أن يسلكوا مسلك المقاومة للحق، والتصدّي لمنع دعوة الحقّ، واضطهاد المؤمنين.

إنّهم لم تنقصهم القناعة، ولكنهم فقدوا السلامة النفسيّة والصحة الأخلاقية، فهم مرضىً في نفوسهم وأخلاقهم، ويحملون الوباء للناس والذراري، فاقتضت حكمة القضاء والقدر أن تتدخّل للإنقاذ بإفناء حملة الوباء.

هذا ما تقضي به حكمة الحكيم، وهذا هو الذي أجراه الله عزّ وجلّ في المهلكين الأوّلين.

وهو سنَّةٌ للّهِ دائمة، فليتعظ بها أولو الألباب، ولْيَعْتَبِرْ بما جرى للأوّلين المعتَبِرُونَ، من المخاطَبين في النصّ، ومن معاصِريهم، وممن سيأتي بعدهم.

انتهى تدبُّر النص والحمد لله على فتحه.

● ● ●

النصّ السابع

من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنية
الآيات من (٦٩ ــ ٧٤)
حول مكيدة أخباث اليهود بالدخول في الإسلام نفاقاً
ثم الارتداد عنه لإغراء غيرهم بالردّة

سورة (آل عمران) ثالث سورة مدنية، وقد جاء فيها بيان عدّة أمور تتعلّق بأهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، باعتبار أن العهد المدني للرسول ﷺ قد كثرت فيه علاقة الدعوة الإسلامية بأهل الكتاب.

وممّا جاء فيها بيانُ مكيدة يهوديّة تواصىٰ بها طائفة من اليهود، وهي أن يتظاهروا بالإسلام والدخول فيه نفاقاً، ثُمّ يرْتَدُّوا عنه مفتعلين أيّ سبَب للارتداد عنه، بغية التأثير على بعض من دخل في الإسلام من عرب يثرب، فيرتدوا عنه كما يرتد عنه هذا الفريق الماكر من اليهود.

وبهذا الأسلوب يفتحون طريق الارتداد لأمثالهم من منافقة عرب يثرب، ويُهوِّنون على من يصعُبُ عليهم الالتزام بأحكام الإسلام وتكاليفه أمْر الارتداد عنه.

نجد بيان هذه المكيدة في أحدِ دُروس السّورة، وهو قولُ الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن

تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

وقرأ ابن كثير المكي: [أَأَنْ يُؤْتَى] بزيادة همزة للاستفهام وتسهيل همزة (أن) من غير إدخال.

* * *

(١)
الفكرة العامّة للنّص

اشتمل هذا النّص على بيان حركة تضليل للمسلمين قام بها طائفةٌ من أهل الكتاب، وقد كانُوا من اليهود، على أنّ النّص يعطي بظلاله دلالةً على وجود هذه الطائفة دواماً في كلّ أهل الكتاب، وفي المقدّمة منهم من كانوا من اليهود، ثم من كانُوا من النصارى.

هذه الطائفة المقصودة قصداً أوّليّاً في النصّ قد ودّت لو تستطيع إضلال المؤمنين، وإخراجهم عن دينهم.

ولمّا اشتدّت لديها هذه الرغبة الآثمة، الدالّة على مبلغ ضلالهم عن الحق بإرادةٍ منهم، وإمعانهم في التوغُّلِ في أوحال الضلال بارتكاب جريمة إضلال الناس عن الحقّ، وعن صراط الله المستقيم، بدأت تتّخذ الوسائل لذلك:

الوسيلة الأولى: التضليل الفكريُّ بلَبْسِ الحقّ بالباطل، أي: بخلط الحقّ بالباطل، ودسّ عناصر الباطل ضمن عناصر الحقّ.

وهذه الوسيلة هي من أخبث وأخطر وسائل التضليل في كلّ العصور، لأنّ عناصر الحق في مجموع الأفكار المعروضة توهم أنّها كلّها حقّ، فيغلط النّاظر إليها، فيعتنق الباطل المندس ويعتقدُه على توهُّم أنه حقٌّ.

الوسيلة الثانية: كتمان الحقّ الذي يعلمونه من كتبهم، فكتمانُ الحقّ من وسائل التضليل، ككتمان الشهادة التي يُضلّل كتمانُها قضاة العدل.

الوسيلة الثالثة: هي وسيلة الدخول في الإسلام نفاقاً، والارتداد عنه بسرعةٍ سخطةً عليه.

والغرض فتنة المسلمين الصادقين عن دينهم، وتشجيع الذين في قلوبهم مرض النفاق، أو مرض دون النفاق كالشكّ والتردّد وعدم الاقتناع بعناصر القاعدة الإيمانيّة، مع صدق الانتماء إلى الإسلام، أو الميل إلى هذا الانتماء الصادق.

وهذه الوسيلة هي الوسيلة التي تدخلُ في موضوع بحث النفاق، وأعمال المنافقين، وهي تشبه وسيلة لصوص الحمام وهو يطير في السماء، إذْ يبعث أحدُهُمْ سِرْباً من طيوره، ليقوم بجولة طيران يستمتع بتحليقه وتحويمه ثم هبوطه في بُرْجه، وعودته إليه بعد جولة رياضيّة من جولات الطيران.

فيأتي آخر من أصحاب هذه المهنة، وهو لصٌّ من لصوصها، فيرسل حمامةً من حمامه، فتختلط بذلك السِّرب، وهي معلَّمة بإتقانٍ أن تعود إلى برجها، ولهؤلاء في اللُّصوصيّة والصيد وسائل استدراج.

حتّى إذا حان وقت الهبوط والعودة، عادت المختلطة إلى صاحبها، فتغلط معها حمامات من السِّرب، أو تستدرج بوسيلة شيطانية، فتهبط معها، وتصلُ إلى بُرْج اللّص صاحب الحمامة الواحدة، فيصيد منها بشبكته ما يصيد، ويخسر صاحب السِّرب عدداً من طيوره.

فهذه حيلة من حيل التضليل، ووسيلة شيطانية من وسائل المضلِّلين، وهي من الحيل اليهوديّة التي لهم منها عدّة أغراضٍ خبيثة.

* فمنها أن يصيدوا عند ردّتهم بعض المسلمين فيفتنوهم عن دينهم، ويرتدوا معهم.

* ومنها أن يشجعوا منافقي العرب، والذين في قلوبهم مرض دون النفاق على الارتداد.

* ومنها أن يُحدِثوا في صفوف المسلمين تصدُّعاً، فيفقدوا ما هم عليه من تماسك وترابط وتلاحم وطمأنينة، ويخسروا قدراً عظيماً من طاقاتهم القائمة على مبدأ التلاحم في جسدّيةٍ واحدة.

* ومنها أن يقذفوا في قلوب المسلمين الشّكّ والحيرة، فينتج عن ذلك القلق والاضطراب.

* * *

وخاف أصحابُ هذه الحيلة الشيطانيّة الخبيثة على جماعتهم من اليهود إذا دخلُوا في الإسلام نفاقاً أنْ يتأثّروا به، فيُؤْمنوا به إيماناً صادقاً، فأوصى بعضهم بعضاً فقالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾:

أي: ولا تؤمنوا منقادين حقّاً مسلّمين صدقاً إلّا لمن تبع دينكم، وهو اليهودية.

* * *

ولكن ما السبب الداعي إلى إصرار اليهود على أنّ دينهم هو الدين الحق، وأنّه لا يأتي بعد موسىٰ دينٌ حقٌّ من عند الله، وإصرارهم على كتمان ما لديهم من بشائر بالنبيّ الرسول محمّد ﷺ؟

والجواب: يوجد احتمالان:

الاحتمال الأول: أن يتوهَّمُوا أنَّ موسىٰ عليه السلام هو صاحب الهدى بنفسه.

والرّدّ على هذا الاحتمال قد جاء ببيان أنّ الْهُدَىٰ هدى الله، وليس هدى موسىٰ حتّى ينحصر به الْهُدَىٰ.

الاحتمال الثاني: أن يكون رفضهم للإيمان بمحمّد ﷺ، وللإيمان بما جاء به عن الله، ناشئاً عن حسَدٍ له وللعرب، إذْ جاء الرسُولُ المخلّص الموعود به، من غير اليهود، أو من غير سلالة بني إسرائيل.

والردّ على هذا الاحتمال قد جاء بتوجيه الإنكار عليهم، لجحودهم الحقّ بغياً وحسداً من عند أنفسهم، أنْ يُؤْتَىٰ أحدٌ مثلما أوتوا.

أي: أتريدون أن تستأثروا وحدكم دون عباد الله أجمعين بفضل الله عزّ وجلّ ذي العطاء الواسع، والعلم الشامل، وهو بحكمته يختصُّ برحمته من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

* * *

أمّا كتمانُهم ما عندهم من بشائر وما أُخِذ عليهم من عهد، بشأن رَسُولِ الله محمد ﷺ، فالدوافع له أن لا يكون ذكره والإعلان به حجَّةً عليهم عند المناظرة، ولا حجّةً عليهم عند ربّهم، ولئلاّ يعْلَم به عامّة اليهود والأمّيّون فيهم فيتأثر به ذوو العقل والإنصاف والخشية من الله عزّ وجلّ، فيؤمنوا ويُسلموا ويتّبعوا الرسول.

وقد جاء في النصّ بيان بعض هذه الدوافع، وتُرِكَ بيان بعضها، لأنّ المتدبر الحصيف يسهلُ عليه إدْراكُهُ.

* * *

(٢)
المفردات اللّغويّة للنّص

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾:

﴿ودَّتْ﴾: يقال لغةً: وَدَّهُ يَوَدُّهُ وُدّاً، ووِداداً ومَوَدَّةً، إذا أحبَّه، والودّ من الحبّ هو ما كان هادئاً ثابتاً كالمودّة بين الأصدقاء.

ويأتي الودّ بمعنى التّمني والرّغبة الشديدة، وما في النّص هنا على هذا المعنى، فهو المناسبُ لما جاء فيه.

﴿طائفة﴾: الطائفة هي الجماعة والفِرْقة، وجماعة من الناس يجمعهم مذهب واحد، أو رأيٌ يمتازون به. وقد يُطْلَق اللفظ على واحد يمثل رأياً انفرد به، أو عملاً انفرد به.

﴿من أهل الكتاب﴾: المرادُ بالطائفة من أهل الكتاب هنا جماعة من اليهود، لأنّ النصّ نزل بشأن جماعةٍ منهم، والكلام عن حدث سبق نزول النص.

بيد أنّ هذا الحدث هو من الأحداث التي تكرَّرتْ نظائرُها فيما بَعْدُ وتتكرّر دواماً، فالعناية بذكره في القرآن تدُلُّ على أنّ له نظائرَ ستحدث في المستقبل، وأنّ على المسلمين أنْ يكونُوا على بصيرة بها، وحذَرٍ منْها.

﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾:

﴿لو﴾: هنا للتمنّي، وهي لا تحتاج جواباً، واعتبارُها هكذا أهون من اعتبارها شرطيّةً مستعملةً في التمنّي وجوابُها محذوف.

﴿يُضِلُّونكم﴾: يخرجونكم من الهداية الّتي أنتم فيها إلى الضلال، وهو الضياع في متاهات الباطل، وأودية القبائح والسيئات والمعاصي والمنكرات، إلى سائر ما يُوبق ويُهلك، من فكر أو خلق أو سلوك.

﴿لِمَ تَكْفُرُونَ ؟﴾:

استفهام إنكاريٌّ توبيخيّ.

﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ؟﴾:

اللَّبْسُ: هو خلط الشيء بالشيء، تقولُ لغة: لَبَسَ فلانٌ الشيء بالشيء يَلْبِسُهُ لَبساً، أي: خلطه به، للتّمويه، والتّغرير، والتّضليل.

﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾:

أي: أولَ النهار، والأصل في وجْه كلّ شيءٍ أوّلُ ما يُقابلك منه، وما يُقْبِل من كلّ شيء، فهو من الدهر أوّله، ومن النهار أوّلُه، ومن النجم ما يبدو لَكَ منه، ومن الثوب ما ظهر لك منه، ومن المسألة ما ظهر لك منها، وهكذا.

* * *

(٣)

ما روي في سبب النزول

(١) روى الطبري بسنده عن ابن عباس، قال: «قال عبد الله بْنُ الصيْف، وعديّ بن زيد، والحارثُ بن عوف، بعضهم لبعض: تعالَوْا نُـؤْمِنْ بماأُنْزل على محمّد وأصحابه غُدْوَةً، ونكْفُرْ به عشيّةً، حتّى نَلْبِسَ عليهم دينهم، لَعلّهم يصنَعُون كما نَصْنَعُ فيرجعوا عن دينهم، فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿يا أهل الكتابِ لِمَ تلبسُونَ الحقّ بالباطل...﴾ إلى قوله: ﴿واللّهُ واسعٌ عليم﴾...».

(٢) وروى الطبريّ بسنده عن قتادة في قول الله عزّ وجل: ﴿آمِنُوا بالّذِي أُنْزِلَ علىٰ الّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النّهارِ واكْفُرُوا آخِرَهُ﴾، فقالَ بعضهم لبعض: أعطُوهُمُ الرِّضا

بدينهم أوّلَ النهار، واكفُروا آخره، فإنَّه أجْدَرُ أن يصدّقوكم، ويَعْلَمُوا أنَّكُمْ قد رأيتُمْ فيهم ما تكرهون، وهو أجدَرُ أنْ يرجعُوا عن دينهم.

(٣) وروى نحوه عن أبي مالكٍ الغفاري، قال: قالت اليهود: أَسْلِمُوا أوّلَ النهار، وارتدوا آخره، لعلهم يرجعون، فأطْلَعَ اللَّهُ على سرّهم.

(٤) وروىٰ الطبريّ أيضاً بسنده عن السُّدّي قال: كان أحبار قرى عَرَبِيّة، اثْنَيْ عشر حبراً، فقالوا لبعضهم: ادخلوا في دين محمّد أوّل النهار، وقولوا: نشهدُ أنّ محمّداً حقٌّ صادقٌ، فإذا كان آخر النهار فاكْفُروا وقولوا: إنَّا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا، فحدَّثُونا أنّ محمّداً كاذب، وأنكم لَسْتُمْ على شيءٍ، وَقد رجعنا إلى ديننا فَهُو أعْجَبُ إلينا من دينكم، لعلّهم يشُكُّونَ، يقولون: هؤلاءِ كانُوا مَعَنَا أوّلَ النّهار، فما بالُهُمْ؟

فأخبر اللَّهُ عزّ وجلّ رسوله ﷺ بذلك.

(٥) وروى عن ابن عباس أيضاً: «أنّ طائفة من اليهود قالوا: إذا لقيتم أصحاب محمّد ﷺ أوّل النهار فآمِنُوا، وإذا كان آخره فَصَلُّوا صلاتكُمْ لعلّهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب، وهم أعلم منّا، لعلّهم ينْقَلِبون عن دينهم، ولا تؤمِنُوا إلاّ لِمَنْ تبعَ دِينَكُمْ».

(٦) وجاء في سيرة ابن هشام: أنّ طائفةً من اليهود تذاكَرُوا فيما بينهم لتدبير مكيدة الدخول في الإسلام صباح النهار، والخروج منه آخره، ليقلّدهم العرب المسلمون في ذلك.

وذلك أنه اجتمع عبد الله بن الصيف، وعَدِيُّ بن زيد (وهما من يهود بني قينقاع) والحارث بن عوف (وهو من يهود بني قريظة) فقال بعضهم لبعض: تعالَوْا نؤمن بما أنزل على محمّد وأصحابه غدوة، ونكفُرْ به عشيّة، حتّى نَلْبِسَ عليهم دينهم لعلهم يصنَعُون ما نصنع، ويرجعون عن دينه، ففضح الله مكيدتهم هذه، وأنْزل فيهم قوله: ﴿وَقالت طائفة من أهل الكتاب. . .﴾ الآية.

ورُوِي غير ذلك، وكلّها روايات تدور حول مَكْرٍ مَكَرَهُ طائفة من اليهود، جاء بيانه في النصّ القرآنيّ الذي نتدبّره.

* * *

(٤)
مع النّص في التحليل والتدبّر

قال الله عزّ وجلّ خطاباً للمؤمنين أصحاب الرسول ﷺ:

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: تَمَنَّتْ طائفة من أهل الكتاب، وقد كانُوا فريقاً من اليهود لو يُضلُّونكُمْ عن طريق هدايتكم، فَيُخْرِجُوكم عن دينكم، إلى متاهات الضياع، وأودية الكفر، والفسق والفجور.

وقيل: إنّ جماعة من يهود بني قُريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، دَعَوْا عمَّارَ بْنَ ياسر ومعاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان إلى الرجوع إلى الشرك.

هذا التمنّي مع محاولات الإضلال، والإخراج من دين الإسلام ظاهرة متكرّرةٌ لدى جميع أهل الكتاب في كلّ عصور تاريخ الأمة الإسلامية، وهذه الطائفة موجودة دواماً في اليهود وفي النصارى، وموجودة أيضاً لدى غيرهم من ملل الكفر، ولا سيما قادة المذاهب الماديّة الإلحادية كالشيوعيين.

وقد نزل قبل هذه الآية قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾.

وهذا التَّمنّي جاء التعبير عنه من قبل بعضهم بهجاء النبيّ ﷺ، كما كان يفعل الشاعر اليهوديُّ كعبُ بنُ الأشرف.

ويَظْهرُ أنَّ تمنّيهم كانَ في حدود حركاتٍ نفسيّة، وتعبيراتٍ كلاميّة، كانت فيما بينهم، وأقوالٍ هجائية يطلقها شعراؤهم، وهو ما جاء بيانه في آية «البقرة».

ثمّ تحوّل تمنّيهم إلى اتّخاذ وسائل مع بعض المؤمنين لإضلالهم، وإخراجهم عن دينهم، وهو ما جاء بيانُه في النّصّ الذي نتدبّرُه من سورة (آل عمران)، ويدلُّ على هذا قول الله عزّ وجلّ فيه: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إلَّا أنفسهم﴾ أي: إنَّ ما يحاولونه بوسائلهم الْمُضِلَّةِ لإخراجِ المؤمنين الصادقين عن دينهم لا يؤثّر فيهم، فمن آمَن بالإسلام عن اقتناعٍ وبصيرة وصدّق لا يرتدُّ عنْهُ إلى الشّرْك، أو إلى أيّ مذهب من مذاهب الكفر، أو إلى أي دين باطل محرّف.

إذاً فهم لا يُضِلُّونَ إلّا أنفسهم، إذْ يُضِيفُون إلى كفرهم الذي سيعاقبون عليه، شرّاً آخَرَ يستحقُّونَ عليه عقاباً آخر عند الله، ألا وهو رغبتهم بإضلال المهتدين، وممارساتهم العملية لإضلالهم، فيكونون بذلك قد أضلّوا أنفسهم إضلالاً جديداً مضافاً إلى ضلال كفرهم في أنفسهم.

وما يحاولونه من إضلال الّذين آمنوا حقّاً وصدقاً، لا يتحقّق لهم، وذلك لأنّ من آمن وصدَق في إيمانه عن اقتناع وبصيرة، لا يتأثّر بوساوس ودسائس الْمُضلِّين، بل تزيده هذه إيماناً وشدّة تَمسُّكٍ بما يؤمن به من الحقّ.

إنّما قد يتأثّر بوساوس ودسائس ووسائل المضلّين، الذين في نفوسهم نزغات الضلال، والاستعداد له، وأعمال المضلّين تضيف إلى ما في نفوسهم من نزغاتٍ قوىً مساعدةً للسَّيْرِ في طريق الضلال، وليست هي المؤثر الحقيقيّ، لذلك تكون مسؤوليّات من ضلّوا متأثرين بوسائل المضلّين مسؤوليات كاملات.

هذا ما نستطيع أن نفهمه من قول الله تعالى في الآية:

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أمّا أنهم لا يشعرون فنفهم منه أنّهم لا يشعرُون بأنّهم لا يُضِلُّونَ إلّا أنفسَهُمْ، والشعورُ هو أوّلُ إدْراكٍ للشيء، فنفيُه يُفيدُ نفيَ أدْنَى دَرَجاتِ الْمَعْرِفَة، فهم غافلون عن الحقيقة سادِرُونَ في غَيِّهم، يقومُونَ بأعمالِ إضْلالِ المهتدين، كأنَّهُمْ يُمارسُونَ هِدَايَتَهُمْ إِلَى الحقّ.

بعد بيان هذا التمنّي لدى طائفةٍ من أهل الكتاب خاطَبَ اللَّهُ أَهْلَ الكتاب جميعاً

بقوله:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٧٠﴾؟؟.

في هذا الاستفهام الذي اشتملت عليه الآية مواجهة لهم بالاستنكار والتوبيخ على كفرهم بآيات الله الكافيات لإثبات الحق، ويزيد في دواعي التوبيخ كَشْفُ أنَّهُمْ يعلمون أنها حقٌّ علْماً بلَغ مرتبة من يشهد الشيء شهودَ عِيان، إذْ قال لهم: ﴿وأَنْتُمْ تَشهَدُونَ﴾ أي: والحال أنتم تشهدون الأدلّة الدامغة لكم بأنَّها حقٌّ.

وآيات الله تَشْمَلُ الآيات العقليّة، والآيات الوجدانية، وآيات الله الجزائية، والخوارقَ والمعجزاتِ، والنصوصَ القرآنية، وما لديهم من بشائر عن محمّد ﷺ، وما أُخذ عليهم من عهود ومواثيق أن يؤمِنُوا به حين يبعثه الله، وَيتَحقَّقُوا من أنه هو المبشَّرُ بِهِ الموصوف في كتبهم.

ويدخُلُ في عموم هذا الخطاب الطائفةُ الّتي تودُّ إضلال المؤمنين المسلمين، دخُولاً أوّليّاً.

وقد خاطَب اللّهُ عزّ وجلّ بمضمون هذه الآيةِ أهل الكتاب خطاباً مباشراً بنفسه، لشدّة الأهمية، باعتبار أنّ المضمون يتعلّق بأصول الإيمان بالله، وهم يزعمون أنّهم يؤمنون به وبآياته.

وبعد ذلك خاطبهم أيضاً خطاباً مباشراً بقوله لهم:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٧١﴾؟؟.

وفي هذا الاستفهام أيضاً الذي اشتملت عليه هذه الآية مواجهة لأهل الكتاب بوجهٍ عامٍّ ـ والمقصودُ علماؤُهم وأحبارهم العالمون بالحق والباطل ـ بالاستنكار والتوبيخ على عَمَلَيْنِ من أعمال التضليل التي يمارسونها.

الأوّل: لَبْسُهُمُ الحقّ بالباطِلِ، أي: خلطهم الحقّ بالباطل، للتمويه والتضليل، والإيهام بأنّ الباطِلَ المندسَّ هو من قضايا الحقّ.

وهم يعلمون أنّهم يفعلون ذلك تضليلاً للناس، وتغريراً بهم.

الثاني: كتمانُهم الحقّ، ومن الحقّ الذي يكتمونه ما في كتبهم من البشائر بنبيِّ اللهِ ورسوله محمد ﷺ، وهمْ يعلَمُون انْطباقها عليه تماماً، لتعدُّدِ صفاته في كتبهم، وانطباقها جميعاً عليه ﷺ.

وهكذا ظهر لنا كيف خاطبهم الله عزّ وجلّ بطريقةٍ مباشرةٍ، موبّخاً لهم على أمور ثلاثة:

الأمر الأول: كُفْرُهم بآيات الله وهم يشهدون أنّها حقّ.

الأمر الثاني: لَبْسُهُم الحقّ بالباطل، وهذا من وسائل تضليلهم للناس.

الأمر الثالث: كتمانُهُم الحق، وهدفُهم من كتمان الحق ما يلي:

* أن لا تقومَ عليهم الحجّة بأنّهم يرفضون الحقّ مع علمهم به.

* وتضليل من يتأثّر بهم من أتباعهم وعوامّهم، أو من غيرهم من العرب الذين لم يسلموا بَعْدُ، أو أسلموا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم.

بعد ذلك كشف الله مكيدتهم التي تعتمد على الدخول في الإسلام نفاقاً، فالخروج منه سخطةً عليه، وفضحهم فيما تآمروا عليه قبل التنفيذ فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ...﴾:

أي: وقالت طائفة من أهل الكتاب بعضهم لبعض: أعْلنوا إيمانكم بالّذي أُنزل على الّذين آمنوا أوّل النهار، واكْفُروا آخر النهار، رجاءَ أن يرتدَّ معكُمْ بعض المؤمنين بمحمّد عن الدين الّذي جاء به. ولكنْ إيّاكم أن تؤمنوا إيماناً صادقاً، أو تتأثّروا إذا دخلتم في الإسلام نفاقاً بما فيه من آيات، فتؤمنوا بعد ذلك إيماناً صادقاً، وإيّاكُمْ أنْ تنقادوا أو تُسْلِمُوا للمؤمنين.

وقال قادتهم من أحبارِهم وعُلَمائهم لمن وجَّهُوهم للقيام بمكيدة النفاق: ولا تُؤْمِنُوا مُنْقادِينَ أو مُسْلِمِينَ إلا لمن تَبِعَ دينكُمْ من اليهود المحافظين على يهوديّتهم.

هذا ما تدلُّ عليه تعدية فعل «ولا تُؤْمِنُوا» باللّام، وذلك لأنَّ فعل «آمَنَ يُؤْمِنُ»

يُعدَّىٰ بحرف «الباء» فتقول: آمَنَ بِهِ، ويؤمن به، فإذَا عُدِّيَ باللَّام فهو على تضمين فعل «آمن» معنى فِعْلِ «أسْلَم» أو «انقاد» فيُعدَّىٰ حينئذٍ تَعْدِيَتَهُ، وهذا من الإيجاز القرآنيّ الَّذي يُستفاد مِنْهُ معنىٰ كُلٍّ مِنَ الفعلَيْنِ، فيُذْكَرُ الفعلُ الأوّل بلفظه، ويقدَّرُ الفعلُ الآخَرُ بدلالة تعديته، فالمعنى: ولا تُؤْمِنُوا بغير دينكم، ولا تُسْلِمُوا إلاّ لِمَنْ تَبِعَ دِينكم، أي: وكونوا على حذر شديدٍ حينما تعلنون إيمانكم نفاقاً بالَّذي أنزل على الذين آمنوا.

وبعد أن فضح الله مكيدتَهم التي كانت سرّاً فيما بينهم كلّف اللَّهُ رسولَهُ أنْ يتولّىٰ مجادلتهم، وإقناعهم، وإقامة الحجّة عليهم، تُجاه هذه المكيدة القائمة على خطّة النّفاق، وعلّمه طريقة مجادلتهم، فأعطاه رُموزها.

وهذا التعليم هو في مضمونه مناظرةٌ غير مباشرة لهم، وتعليمٌ لأهل المناظرة والمجادلة من المؤمنين، تبعاً لتعليم الرسول.

فقال الله عزّ وجلّ لرسُوله:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

في هذا النصّ مقتطعات هي بمثابة الرّموز من مقولات فيها ردود وإقناعات وحُجَجٌ دوامغ ضدّهم، وكشْفٌ لدوافع نفسيّةٍ تدمغُهم بالانحراف عن الحقّ، والخروج عن دين الله للناس.

(١) فالمقولة الأولى: اخْتُزِلَ مِنْهَا:

﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾.

(٢) والمقولة الثانية: اخْتُزِلَ مِنْهَا:

﴿ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ ﴾.

وفي قراءة المكي: [ءَأَنْ يؤتَىٰ أحدٌ مِثْلَما أُوتيتم].

(٣) والمقولةُ الثالثة: اختزل منها:

﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ .

(٤) والمقولةُ الرابعة: خلاصتها:

﴿ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) ﴾ .

(٥) والمقولة الخامسة: خلاصتها:

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

إنّ موقف اليهود يتلخّص برفض كلّ دينٍ جديد جاء بعد موسى عليه السلام، ما لم يكن تابعاً له، ومعتمداً على ما جاء في نصوص التوراة.

فما هي أسبابُ هذا الموقف المتعنّت؟

بالتفكير المتعمّق ينكشف لَنَا أنَّ موقفهم يشتمل على ثلاثة عناصر:

العنصر الأوّل: دعوى باطلة لا دليل عليها.

العنصر الثاني: دوافع نفسيّة من وراء الدعوى الباطلة.

العنصر الثالث: كيدٌ تَضْليلي، لصدِّ الناس عن الدين الحقّ، وصراط الله المستقيم، وإيهام الناس بأنّهم على الحقّ.

* **أمّا الدعوى التي لا دليل عليها**: فهي ادّعاؤهم أنّه لاَ هُدىٰ إلاّ هُدىٰ موسى عليه السلام.

وفي هذا حصرٌ للهداية به، بقَطْع صِلَتِها بالله منَزِّل الهدى على موسى، ومن له أمرُ الْهُدىٰ كلّه، أو بإلزام الله بأنْ لا يُنَزِّل هُدىً على أحدٍ بعد موسى، أو بادّعاءِ أنّ الله التزم بأن لا يُنَزِّلَ هدى على أحدٍ بعده، وأَخْبَرَ بذلِكَ في التوراة أو على لسَانِ موسى عليه السلام.

والرَّدُّ على هذا الادّعاء الكاذب الباطل يكونُ بِبَيَانِ أنَّ الْهُدىٰ هُدىٰ الله، فهو الذي أوحى إلى موسى وكلّمه، وهو الذي أنزل عليه التوراة، وهو الذي اصطفاه رسولاً.

وبما أنّ الأمر كذلك فالمناظرة لأصحاب هذه الدّعْوىٰ تكون بطرح الأسئلة التالية، ومناقشتهم على أساسها:

(١) هلْ يمتنع على الله أن يُنزِّل هدى آخر على من يصطفي من عباده، بعد الهدىٰ الذي أنزله على موسى؟

(٢) هل يمتنع على الله تعالى أن يبعث رسولاً أوْ رُسُلاً بالدّين الحقّ للناس، وبأحكام وتكاليف فيها تعديل ونسخ وزيادات؟

(٣) هل يتنافىٰ مع حكمته سبحانه شيءٌ من ذلك؟

(٤) هل أبان الله في التوراة أو على لسان أيّ نبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل أنّه قطع الرسالات وختمها بموسى، فلا رسول بعد موسى؟

والجواب في كلّ هذه الأسئلة هو النفي حتماً، فإذا لم يُجيبُوا بالنفي فالحجج البرهانيّة تدمغهم كما يلي:

أوّلاً: البرهان العقلي يُثْبتُ أنّ لله أن يُنَزِّلَ هدى آخر بعد الهدى الذي أنزله على موسى، وأنّ لله أن يبعث رسولاً ورُسُلاً بعد موسى، وأنّه لا يتنافى شيءٌ من ذلك مع حكمته عزّ وجلّ.

ثانياً: إنّهم يُثْبِتُونَ في كتُبهم عدداً كثيراً من أنبيائهم أوحى الله إليهم بكلام من كلامه، وأنزل عليهم هُدىً زائداً على الهدى الذي أنزلهُ على موسى.

ثالثاً: الدليلُ النقْليُّ يُثْبتُ أنّ الله عزّ وجلّ قد بيّن لأهل التوراة أنّه سَيُرْسِلُ النبيّ الخاتم، وأخذ العهد والميثاق عليهم أن يؤمنوا به إذا جاء، وأن يتّبعوه، ويعملوا بما يأتيهم به عن ربّهم.

ولكنّ اليهود كَتَمُوا ما في كتبهم من بشائر بالنبيّ المنتظر، وجحدوها بعد بعثة النبيّ محمّد ﷺ، أمّا قبل بعثته فقد كانوا يظهرونها، ويتحدَّثُونَ بها.

هذه الحجج الدامغات قد رمزت إليها الفقرة المختزلة من المقولة الأولى من التعليم الرّباني:

﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

أي: وبما أنّ أصل الهدى هُدىٰ الله لا هُدىٰ موسى أو غيره، فللّه أن يرسلَ غير موسى رسُلًا يحملون للناس هُدىٰ الله، ولله أن يكلّف الناس باتّباع من يختارهم ويصطفيهم لحمل رسالاته.

إنّ مَثَل مَنْ يرفض الرّسُول اللاحق متعصباً للرّسُولِ السّابق، كمثل من يرفُضُ مبعوث الملك القائم تعصباً لمبعوثه السّابق الذي مضى زمانه، والمبعوث إنّما يُمثّلُ مَنْ بعثه، ويُبَلِّغ كلامه، وليس يمثّل نفسه، ولا يعبّر عن إرادته الخاصة.

* **وأما الدافعُ النفسيّ**: فهو يرجع إلى أنانيّة اليهود المفرطة، ورغبتهم الشديدة في حصر كلّ الخير الرّبّانيّ ببني إسرائيل، وحسَدِهم العربَ إذْ بعث الله النبيَّ الرسول المنتظر منهم لا مِنْ بني إسرائيل.

يضاف إلى ذلك إرادتُهم العمل بالتحريفات التي أدخلوها على دين الله، لأنها توافق أهواءهم وشهواتهم، وليس فيها تكاليفُ شاقّةٌ تصطدم مع ما يَهْوَوْنَ من فجور وظلم وعدوانٍ على الناس، ورغبةٍ في التسلّط على شعوب الأرض.

* **وأمّا الكيدُ التضليليّ**: فقد تمثّل بعنصرين كما سبق:

الأول: لَبْسُ الحقّ بالباطل وهم يعلمون.

الثاني: كِتْمانُ الحقّ وهم يعلمون.

وهذا لا يحتاج من المناظر أكثر من التوبيخ على لَبْسِ الحقّ وكتمانه، بعد تمييز عناصر الباطل من عناصر الحقّ، وبعد كشف ما لَدَيْهم من علمٍ يكتمونه، وإقناعهم بأنّ كلا طريقتي التضليل ممّا يزيدهم ضلالاً عند الله ولا يُفِيدُهم في الوصول إلى ما يَهْوَوْنَ ويشتَهُون من إضلال المؤمنين الصادقين الفاهمين لعناصر إيمانهم.

والأسْلُوبُ الإقناعيّ حول الدافع النفسيّ والكيد التضليلي يتلخّص بما يلي:

(١) إنَّكُمْ تكرهون حسداً وبغياً من عند أنفسكم أن يؤتى أحد مثْلَما أُوتيتم، وهذا لا ينفعكم عند الله بشيء بل تُضِلُّونَ به أنفسَكم.

(٢) هل تملكون أن تمنعوا أنْ يُؤْتى أحدٌ مِثْلَما أوتيتم من اصطفاء موسى وعدد من الأنبياء منكم، وأنتم تعلمون أنّ الأمر تابع لإرادة الله، ولحكمته في عطائه واختياره

واصطفائه، وتعلمون أنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء؟

(٣) هل ينْفَعكم أن تلبسوا الحقّ بالباطل، وأنتم لا تُضلُّون به إلاّ أنفسكم، أمّا من تقصِدُون إضلالهم من المؤمنين الصادقين فإنكم لا تستطيعون التأثير عليهم؟

(٤) هل ينفعكم في محاولة تضليل المؤمنين الصادقين أهل البصيرة أن تنافقوا أوّل النهار بإعلان الإيمان، وترتدوا عن الإسلام آخره؟

إنّكم لا تُضلّون بهذا النفاق إلاّ أنفسكم، إذْ تزيدون جرائمكُمْ عند ربكم.

(٥) هل ينفعكم عند الله أن تكتموا الحقّ الذي تعلمونه من دينكم، متوهّمين بهذا الكتمان أنّكُمْ لا تعطون المؤمنين، ما يتخذونَهُ حُجّةً عليكم يُحاجّونكُمْ به عند ربّكم؟ ويقيمون به الحجّة عليكم في الدنيا؟

أليس الله عليماً بما تكتمون؟!

(٦) اعلَمُوا أنَّ من الحقائق الثابتة التي لا تملكون بمحاولاتكم وألوان مكركم وكيدكم وحيلتكم ومغالطتكم تغييرها:

* أنَّ الفضل بيد الله وحده، فلا تملكون أن تمنعوا فضل اللّهِ عن أحدٍ أراد الله أن يمنَحَهُ من لَدُنْهُ فضلاً، فهو سبحانه يؤتيه من يشاء، من كلّ قوم، ومن كلّ شعب، كلُّ الناس عباده، وهو سبحانه عليم حكيم، يختار بعلمه وبحكمته من هو أهلٌ لأن يمنحه فضله ويختصه به.

وهو سبحانه إذْ يعلَمُ أنّ بعضَ عباده من أيّ قوم من الحكمة أن يختصه برحمةٍ من رحماته، أو نعمةٍ من نعمه، فإنّه يختصُّه بها، وهو سبحانه ذو الفضل العظيم على كلّ عباده، لا أحد منهم له حقٌّ ذاتيٌّ بفضل من فضل الله، سواءٌ منهم من اختصّه برحمة زائدة، أو من لم يختصه.

هذه العناصر الجدليّة والإقناعية قد أشارت إليها أو دلّت عليها المختزلات والملخصات التي اشتمل عليها النصّ بياناً وتعليماً، وهي:

(١) ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾:

أي: لا يؤثرون بوسائل إضلالهم على المؤمنين الصادقين، إنّما يُمعِنون في إضلال أنفسهم، بارتكاب آثام يستحقون عليها عقاباً فوق عقاب كفرهم وتولّيهم عن دعوة الرّسول محمّد ﷺ.

(٢) ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾؟؟:

أي: لمَ تُعَرِّضون أنفسكم لعقاب الله بالكفر الإراديّ بآياته الّتي تَشْهَدُونَ بُرْهَانَ أنّها آياتُ الله حقّاً وصدقاً، فلا عُذْر لكُمْ عنده في أن تكْفُروا بها.

(٣) ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟؟:

أي: لَبْسُكُمْ لا ينفعُكُمْ، بل يَدْمغُكُمْ عند الله بجريمة تحريف الدّين، وكتمانِ الحقِّ الذي فيه، وهذا يُضِيف إلى عقابكم عقاباً آخر.

(٤) ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

أي: فليس هُدَىٰ موسى أو أحدٍ من بني إسرائيل حتى تتعصّبُوا له تَعصُّباً قوميّاً، والله يصطفي لتبليغ هُداه من يشاء، من بني إسرائيل أو غيرهم.

(٥) ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾:

أي: أترفضون هدى الله الّذي أنزله على رسوله محمد حسداً من عند أنفسكم، وكراهية أن يؤتى أحَدٌ من خلق الله مِثْلَما أُوتيتم من اصطفاء رسُل منكم، وإنزال هُدى الله عليهم؟ أو أتكفرون بما أنزل من عند ربكم وتتخذون وسائل الإضلال عنه لأجْل أنّه غاظكُمْ ان يُؤْتَىٰ أحدٌ مثلما أُوتيتُمْ؟

(٦) ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾:

أي: أتكتُمُونَ الحَقَّ الذي عندكم عن المسلمين وأنتم تعلمونه، خشية أن يُحاجُوكُمْ عنْدَ رَبكم، أليس الله عليماً بكلّ ظواهركم وبواطنكم، وبكل ما تُعْلِنُون، وما تُسِرُّون؟ إنّه لا تخفى عليه خافية، وسيعاقبكم على كتمان الحق.

وترابط الجملتين كما يلي: أتحسدون فتجحدون وتُضِلُّون، أو تتّبعون أهواءكم فتجحدون وتكتمون ما عندكم خشية أن يحاجوكم به عند ربكم.

(٧) ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

أي: إنَّ العطاء الزائد الذي يتفضَّل الله به على عباده، ليس لأحد به حقٌّ، وليس لأحدٍ أن يُطالِبَ به الله، ولكنَّ الله هو الذي يؤتيه بحكمته مَنْ يشاء.

على أنّ الله عزّ وجلّ قد منَحَ مِنْ فضله كلَّ عباده، إذ هو سبحانه واسع الجود، واسع العطاء، واسع الفضل، يمنح منه عباده بحكمته المقرونة بعلمه المحيط بكلّ شيء، ما يشاء على ما يشاء.

الفضل: هو الزيادة، ويأتي بمعنى الإحسان والعطاء، ابتداءً دون علة ولا جزاء.

(٨) ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾:

أي: وبما أنَّ الاصطفاء بالنبوّة والرّسالة فضلٌ يتفضّل به الله بمقتضى علمه وحكمته على من يشاء من عباده، وهو من الله رَحمةٌ، فهو عزّ وجلّ يختص بفيض فضله ورحمته من يشاء من عباده، على أنّ مشيئة الله عزّ وجلّ مقرونةٌ بواسع علمه، وعظيم حكمته.

(٩) ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾:

أي: والله ذو الفضل العظيم على كلِّ عباده، من اختصه منهم برحمة خاصّة، ومن لم يختصه منهم بها، أليس من فضل الله تكريم بني آدم وتفضيلهم على كثير ممّن خلق تفضيلاً عظيماً؟ ألا يكفي بني إسرائيل أن جعل الله منهم أنبياء ورُسلاً وملوكاً؟ أيرون أن يحتكروا لأنفسهم كُلَّ فضل الله، فهم يكرهون أن يأتي من غيرهم الرسول الخاتم الموعود به؟ أفيَتّبع الحقُّ أهواءهم؟ هذا مرفوضٌ حتماً.

* * *

وبعد بيانات عديدة تتعلّق بأهل الكتاب من اليهود عقب هذا النصّ الذي تدبّرناه من سورة (آل عمران) ومناقشات لهم متعدّدة، قال الله عزّ وجلّ لرسوله فيها:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

• • •

النصّ الثامن

من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنية
الآيات من (١١٨ ــ ١٢٠)
حول نهي المؤمنين عن اتخاذ بطانة من المنافقين
لأنهم مفسدون مبغضون مغيظون

في هذه السُّورة حذَّر الله المؤمنين الصادقين من اتّخاذ المنافقين الّذِينَ تَبْدُو عليهم أماراتُ النفاق وعلاَمَاته، بِطَانَةً مُداخِلَةً مُخَالطة، تطَّلِعُ علىٰ الأسرار، وتَعْمَلُ على ضُرِّ المسلمين المؤمنين، وإفساد خططهم، ونَقْلِ المعلومات إلى أعدائهم المجاهرين بعداواتهم، وتثبيط المؤمنين عن الخروج مع الرسول في الغزوات، وعن المشاركة الجادة في القتال، إلى غير ذلكَ من أعمالِ فسادٍ وإفساد. فصّلَتْ وقائعها نُصوصٌ قرآنية متعدّدة، وأطلَقتِ الأفكارَ للحذر من نظائرها وأشباهها، وتقديرِهَا ذِهْناً، ومتابعةِ تحرُكَاتِ المنافقين بمقتضاها.

فقال اللّهُ عزّ وجلّ خطاباً للمؤمنين الصادقين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾.

(١)
القراءات المتواترة في هذا النص (من الفرش)

* في الآية (١٢٠):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة [لا يَضُرُّكُم] من ضَرَّهُ يَضُرُّه.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عَمْر ويعقوب [لاَ يَضِرْكُمْ] من ضَارَهُ يَضِيرُهُ إذَا أضَرَّ به.

والمعنى في القراءتين واحد، واللفظتان مادّتان لغويتان متكافئتان.

* * *

(٢)
الفكرة العامّة للنصّ

اشتمل هذا النصّ على تحذيرٍ شديدٍ للمؤمنين، من اتّخاذ بطانَةٍ تَطّلِعُ على أسرار المؤمنين، من المنافقين المخالطين للمؤمنين في الأعمال العامّة، ومختلِف أنواع الحركات والنشاطات اليوميّة، فضلاً عن الكافرين المجاهرين بكفرهم وعداواتهم، ويُلْحَق بهم الذين لا يُؤْمَنُون على أسرار المسلمين من الذين في قلوبهم مرض دون النفاق، ومن الفاسقين الذين يَسْهُلُ عليهم بيع ضمائرهم للأعداء.

وقد بيَّن النَّصُّ أسباب هذا التحذير الشديد، فالمنافقون في هذه المرحلة التي نزلت فيها سورة (آل عمران) وهي مرحلة ما بعد غزوة أحد، التي انْخَذَل فيها المنافقون عن الرسول والمؤمنين معه، بقيادة عبد الله بن أبي ابن سلول، وهي مرحلةٌ بلغ المنافقون فيها مبلغ التكتُّل المستور، وتدبير المكايد ضدّ المؤمنين في الخفاء، وقد طال بهم الانتظار، واشتدّ غيظهم من الرسول ﷺ ومن المؤمنين الصادقين معه.

* أمَّا أسبابُ التحذير الشديد من اتّخاذ بطانةٍ من المنافقين فهي كما يلي:

الأوّل: أنَّهم لا يُقَصِّرُون ولا يبطِّئون في إفساد أحوال المؤمنين، وإنزال الضَّرَر بهم، وتوهين قواهم، وتمزيق صفوفهم، ومؤازرة أعدائهم ضدّهم، حتّى استئصال شأفتهم.

الثاني: أنّهم يتمنَّوْنَ أَنْ ينزل بالمؤمنين كُلُّ بلاءٍ وعَنَتٍ ومَشَقَّةٍ وضررٍ، وهذا يدفعُهم إلى اتّخاذ الوسائل لتحقيق ما يتمنَّوْنَ، وإلى تدبير المكايد ضدّ المؤمنين.

الثالث: أنّ أمارات بُغْضِهم للمؤمنين قد ظهرت فعلاً مِنْ أقوالهم وفلَتَاتِ ألسنتهم، والخبير الذكي الْفَطِن يستطيع أن يكتشف ما في خبايا القلوب والنفوس، من معاريض الأقوال وفلتات الألسنة.

هذا مع أنّهم يُبالغون جدّاً في كتْم ما في قلوبهم ونفوسهم، لئلا ينكشف للرسول ﷺ أو للمؤمنين الصادقين نفاقُهم فيحاسبوهم على كفرهم في باطنهم الذي تظهر دلائل الإدانة به.

الرابع: أنّ ما تُخفيه صدورُهم من بَغْضَاء للمؤمنين، وما تَدْفَعُ إليه هذه البغضاء من مكرٍ وكيدٍ، واتّخاذ الوسائل للإضرار بالمؤمنين، هو أكبرُ ممّا ظَهَرَ من أمارات البغضاء علَى ألسنتهم.

الخامس: أنّ منافقي اليهود مِنْهُمْ وهم أخطرُهُم وأخبثُهُمْ ومُوَجّهوهم كان المفروض فيهم أن يكونوا أخفّ شرّاً وضرّاً من منافقي المشركين، بسبب أنّ المسلمين المؤمنين الصادقين يؤمنون بكتُب الله كلها، ومنها التوراة، وبسبب أنهم يُحبُّونَ هؤلاء المنافقين بدافع الأخوّة الإيمانيّة، وبراءةِ قلوبهم ونفوسهم تجاههم، إذْ يعاملونهم بحسب ظاهرهم.

لكنّ هؤلاء المنافقين من اليهود يقابلون محبّةَ المؤمنين لهم بالبغض إلى حدّ أنّهم إذَا خَلَوْا عَضُّوا أَنَامِلَهُمْ مِنَ الغيظ من المؤمنين، فلو أمكنَهُم أن يَعَضُّوهم عضّ افتراسٍ للفتك بهم لفعلوا ذلك، فَعَبَّروا عن مشاعرهم هذه بعضّ أناملهم، دلّ على هذه المشاعرِ قوله تعالى في النصّ خطاباً لمؤمنين:

﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾.

ودلّ هذا أيضاً على كفرهِمْ في قُلُوبهم على نقيض ما يتظاهرون به من إيمانٍ وحبٍّ للمؤمنين، فإذا لَقُوا المؤمنين قالوا لهم: آمَنَّا، أي: ونحنُ نحبُّ إخواننا المؤمنين، وإذا خلوا كشفوا كفْرَهم وبُغضَهُم للمؤمنين المصحوبَ بإرادة الفتك بهم.

ولا بُدَّ أن يدفعهم غيظُهُمُ الشديدُ من المؤمنين إلى تدبير المكايد ضدّهم.

السادس: أنهم يرقبون أحوال المؤمنين وما ينزل بهم تباعاً يوماً فيوماً، بعين عدوٍّ حاقدٍ ماكر. فإنْ تَمْسَسْهُم حسنةٌ ما ولو كان مسّاً رفيقاً، وبنسبة قليلة، ساءهم ذلك، وإنْ تُصِبْهُمْ سيئة ما يفرحوا بها، لأنهم في قلوبهم ونفوسهم أعداءٌ للمؤمنين، ممتلئونَ غيظاً منهم، وبغضاً لهم.

هذه هي أسباب التحذير من المنافقين عامّة، ولاسيما منافقو اليهود، فهم الأخبث والأشدّ كيداً ومكراً، وغيظاً وحنقاً، وعداوةً وبُغضاً.

* وأمّا المنهج الرّباني الّذي وجّه الله المؤمنين أن يسلكوه في هذا النّصّ، لاتّقاء شرورهم، فيتلخّص بالأعْمالِ التالية:

أوّلاً: ألاّ يتّخذ المؤمنونَ بطانةً من المنافقين، أي: ألاّ يُقرِّبُوهم إلى أماكن أسرارهم، ولا يُطْلِعُوهم على ما يُدبّرون ويُخطّطون، ولا على ما يُعِدُّون من قُوى يجب إخفاؤها عن العدوّ.

فمن الواجب على المؤمنين ألاّ يجعلوا أحداً من المنافقين بعض خاصّتِهم، أو مستشارينَ لهم، أو وُلاةً أو أمراء أو موظّفين وعُمّالاً في المواطن التي يَطّلِعُون فيها على أسرار المؤمنين، وبواطن أمورهم وتدبيراتهم وخُطَطِهم.

ثانياً: أن يثقوا بالله ويتوكّلُوا عليه، فهو الذي سيَنْصُرُهُمْ ويحميهم من مكايد المنافقين وشرورهم، إذا اتّبعوا أوامره واجتنبوا نواهيه، والتزموا منهاجه في السّلم والحرب، ومنها أن لا يتخذوا بطانةً من غير المؤمنين الصادقين الأكفياء لحمل أمانة أسرار المسلمين.

وأن يعلنُوا للمنافقين بوجه عامّ، دون تعيين أسمائهم، أو تحديد أعيانهم بالخطاب، فيقولوا لهم: موتُوا بغيظكم، أي: استمروا على غيظكم حتّىٰ تأتيكم آجالكم، أو ليشتَدَّ غيظكم حتّىٰ يكون سبباً قاتلاً لكم مُميتاً، فإنّكُمْ لنْ تُحقّقُوا ما تَتَمَنّوْنَ في المؤمنين، إذ سينصرهم الله ويؤيّدهم بتأييد من لدنه، ويخذُل أعداءهم المجاهرين بعداواتهم وأعداءهم المستخفين بعداواتهم من المنافقين، وسيُحْبِط الله مكايد المنافقين وكلَّ تدبيراتهم ضدُّ المؤمنين، أو ضدّ انتشار الدِّين وظهوره، وسيزداد بذلك غيظُهم، وسيستمرّ فيهم حتى يكون قاتلاً لهم، أو مصاحباً لهم بآلامه حتّىٰ

يموتُوا وهم مغتاظون أشدَّ الغيظ.

واكْتَفَىٰ النصُّ بـإشارَةِ عبـارة: ﴿قل: مُـوتُـوا بغيظكم﴾ للدِّلالـة علىٰ كُـلِّ هـذه المعاني.

والخطاب بوجـهٍ عامٍّ دون تعيين أشخـاص، فيه من الحكمـة أن تبقىٰ لهم ذرائع الاستخفاء بكُفْرهم والتبرّي من أنّهم مقصودون بالخطاب، والتبرّي من معرَّةِ النفاق.

ثالثاً: أن يصبـروا عليهم، ولا يُنْزِلـوا بهم نِقْمَتَهُمْ قبل أنْ يـأذن الله لهم، أو تَثْبتَ إدانَتُهمْ صراحةً بـالكفر والـرِّدّة، كما هـو معلومٌ من أحكـام الـدين، دلَّ على هـذا في النصّ: ﴿وإنْ تَصْبِرُوا﴾.

رابعـاً: أنْ يتَّقُوا اللّهَ ربَّهم في كـلِّ أعمالهم، وأن يكـونُوا على حَـذَرٍ شديـدٍ من المنافقين، وفي حالة مراقبةٍ تامّـةٍ لهم ولتحرّكـاتهم، ولما يـدبّرون في الخفـاء، ليتَّقوا شُـرورهم، وليُبادِرُوهم بـإحباط أعمـالهم ضدّ المؤمنين أو ضـدّ الإسـلام قبـل أن تبلُغَ مَداها. دلّ على هذا في النَّصّ: ﴿وَتَتَّقُوا﴾.

النـتـيـجـة:

فإذا حقّق المؤمنون التوجيهات الرّبّانيّة التي جاءت في هذا المنهج، لَمْ يضُـرَّهُمْ كيـدُ المنـافقين شيئـاً، لأنَّ الله سيكـون معهم ونـاصِـرَهم ومؤيِّـدَهم، ومُحْبِطَ مكـايـد أعدائهم، ومنهم المنافقون المندسون في صفوفهم والمخالطون لهم. فالله واسع قدير، محيط بمـا يعملون، فلا يسمـح لمكايـدهم بأن تصـل إلى غايتهم منهـا. دلّ على هذه النتيجة في النصّ:

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

* * *

(٣)
المفردات اللُّغويّة للنّصّ

﴿لا تتّخذوا﴾: اتّخَذَ: افتَعل من «أخذ» ويأتي الأخذ والاتّخـاذ في اللُّغة بمعـانٍ كثيرة، منها: حيازة الشيء، والحصولُ عليه، وتناولُه، وقَبُولُـه، ولَوازِمُهـا، ومع اللُّوازم

تكثر المعاني وتتشعب، فأخذ ذي السلطان لأحد الناس يأتي بمعنى حبسه، أو معاقبته، أو قتله، أو إهلاكه، أو نحو ذلك، وفي كلّ نصٍّ يُحمَل على المعنى الملائم له.

وأخذ الشيء للشيء يأتي بمعنى تغلُّبه عليه، وإحاطته به، ومصاحبته له، ونحو ذلك.

ويُعدَّى فعل «أخذ» بالباء فيكون بمعنى الإلزام، أو المعاقبة. ويُعدَّى بعلَىٰ فيكون بمعنى المنع والتضييق، وهكذا تكثر المعاني.

فأخذ المذهب واتّخاذه هو بمعنى اعتقاده والتزامه والسير على منهاجه.

واتّخاذُ الصديق، أو الخليل، أو البطانة، هو بمعنى الموافقة والقبول، أو مباشرة الأسباب المؤديَة إلى أن يكون صديقاً أو خليلاً أو بطانة.

إلى غير ذلك مما يكون من لوازم الأخذ والاتّخاذ باعتبار أنّ الأخذ هو من المعاني الكلية العامّة الأولية.

﴿بِطَانَةً﴾: بطانَةُ الثوب هي ما يلي البدن منه، وهي خلاف ظِهارته، مأخوذة من الْبَطْن، فبطْنُ كُلّ شيءٍ جَوْفُه، أو مأخوذ من فِعْلِ: «بَطَنَ» بمعنى خَفِي، وضِدُّهُ «ظَهَرَ».

واستعمل لفظ «بِطانَة» بمعنى الأخِلَّاء المداخلين المطّلعين على الخفايا والأسرار الباطنة، والمستشارين المستَخْلَصِين، إذْ تُكْشَفُ لهم الأسرار، وما يُحْرَصُ على إبقائه باطناً غيْرَ ظاهر لعموم الناس، باستثناء الأمناء عَلَيْها، من أخِلَّاء، أَوْ أهل دينٍ وعقل يَصْلُحُون للمشورة.

وأُطلق على هؤلاء بطانة تشبيهاً لهم ببطانة الثوب، ودرج عليهم لفظ البطانة على سبيل الاستعارة، لأنّهم أقرب من غيرهم إلى معرفة الأسرار والخفايا.

﴿مِن دونكم﴾: أي: من غيركم، وكلمةُ «دُون» هي في الأصل ظرف مكان صالحٍ لكل الجهات ما عدا المكان الذي يكون فيه ما تضاف إليه، لكنّ جَذْر معناها يُفيد معنى المكان التَّحْتِيّ حسّاً أو معنًى، وقد تُهمل ملاحظة هذا المعنى لدى الاستعمال.

واشتُقَّ من معنى المكان التّحتِيّ كلمةُ «الدُّون» بمعنىٰ الْخسيسِ الحقير.

لذا أُلاحظ في معنى «مِنْ دُونِكُمْ» من غيركم ممّن هم سَافِلون بكفرهم أو نفاقهم أو تردُّدِهم وعَدَمِ ثباتِ إيمانهم من الذين في قلوبهم مرض، وقد يُلْحقُ بهم الفاسقون الّذينَ لا أمانة لهم على الأسرار، فهم ليسوا في مرتبة المؤمنين الصادقين القائمين بمقتضيات إيمانهم.

وكلمة (من) في هذا التعبير هي بمعنى التبعيض، وهو أحد معانيها، أو بمعنى الجنس، أي: لا تتخذوا بطانةً كائنة بعض غيركم السافلين عن مرتبتكم في الإيمان، أو: لا تَتّخِذُوا بطانةً هي من جِنْسِ غيرِكُمُ السافلين عن مرتبتكم في الإيمان.

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: أي: لا يُقَصِّرون مُجْتهدين، ولا يُبَطِّئون في إلقاء الإفساد والإضرار بكم.

يألو: مضارع فعل: ألا، يألُو، ألْواً، وأُلُوّاً، وأُلِيّاً، وهو يأتي بمعنى اجتهد، وبمعاني فَتَر وضعُف، وقصَّر، وأبطأ.

تقول لصديقك: لَا آلوك نُصْحاً، أي: لا أَنْقُصُكَ نُصْحاً، فأنا أبذُلُهُ لك مجتهداً غيرَ فاترٍ ولا ضعيفٍ ولا مُقَصِّرٍ ولا مُبَطِّىء.

وتقول لعدوِّك: لَا آلوهُ خَبالاً، أي: لا أنقصُهُ ما أستطيع من فسادٍ وإضرارٍ به، فأنا أجتهد في ذلك فلا أفترُ ولا أضعُفُ ولا أُقصِّر ولا أُبَطِّىء.

خبالاً: الخبالُ النقصان، والهلاك، والسُّمُّ القاتل، والخبالُ فساد العقل، والجُنون، وفسادُ عضو من الأعضاء من داءٍ أو قرح، أو قطع أو نحو ذلك، وهو مصدر خَبِلَ يَخْبَلُ خَبْلاً، وخَبالاً.

ويُقال: خَبِلَتْ يَدُهُ إذا شَلَّتْ، فَهُو خَبِلٌ وأَخْبَلُ، وهي خَبْلاء، والجمع «خُبْل».

ويأتي الْخَبْلُ بمعنىٰ الجراحِ، والفتنةِ من جراحٍ أو قتل.

فمادةُ الكلمة تدور حول أنواع الإفساد والإضرار.

﴿ودُّوا مَا عَنِتُّم﴾: أي: تَمَنَّوْا عنَتَكُمْ، اي: مشقتكم والإضرار بكم، وإفساد أعمالكم.

الْعَنَتُ: المشقَّةُ، والتَّعبُ، وشِدَّةُ الضَّرَرِ وتَحمُّلِ الآلام والفسادُ.

يقالُ لغةً: عنِتَ الشيءُ يَعْنَتُ عَنَتاً، إذَا فَسَدَ. وعَنِتَ فُلانٌ يَعْنَتُ إذا وقَعَ في مَشَقَّةٍ وشدّة. وعَنِتَ الْعَظْمُ إذا انْكسَرَ بعد الجبر. ويقال: أعْنَتَ فُلانٌ فلاناً إذا أوقعهُ في مشقةٍ وشِدَّةٍ. وأعْنَتَ المريضَ، إذا أضرَّ به، وأفسَدَهُ.

﴿البغضاءُ﴾: شِدَّةُ البغض.

﴿من الغيظ﴾: الغيظُ أشدّ الغضب من أمرٍ مكروه، مع عدم التعبير عنه بما يُهَوِّن من ضغطه على النفس، ولكن يُلازمه غالباً الرغبة بالانتقام.

﴿بذَاتِ الصُّدور﴾: أي: بصاحبة الصدور، وهي ما يكون في القلوب والنفوس من خواطر، وانْفعالات، وحركاتٍ وجدانية، ونيّاتٍ ونحو ذلك. فذاتُ الصدور هي صَاحبة الصدور المختصّةُ بها، والتي لا تكون في غيرها، وقد تظهر في السيما الظاهرةِ أماراتُها، وفي الأعمال آثارُها.

﴿إنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾: المسُّ هو الالْتصاق السطحيّ الخفيفُ بين الشيئين. والحسنَةُ: ما يسُرُّ من خير.

﴿وإنْ تُصِبْكُمْ سيئَةٌ﴾: يُقَالُ: أصابَ الشيءَ، إذا أدْركه أو نَزَل به، وهو أبلغ من المسّ لأنّه قد ينفذ إلى العُمْقِ، كإصابة السّهم الهدف.

والمصيبة: من فعل أصابَ، وهي تُطْلَقُ على كُلِّ مَكْرُوهٍ يحلُّ بالإنسان، جمعها مصائب. والْمُصَابُ: الشّدَّةُ النازلة.

والسيئَةُ: ما هو مكروهٌ مِنْ شرّ أو ضُرٍّ أو أيّ مؤلم.

﴿كَيْدُهم﴾: الكَيْدُ: الاحتيال، والاجتهاد، والحربُ، وكلُّ تدبير لأمرٍ ما، والمادّة تدور حول اتخاذ أعمال وتدبيراتٍ تُوقع المقصودين بالكيد بما يكرهون، وهو يكون في الشرّ، ويكون في الخير، لكنّ كَيْدَ المنافقين للمؤمنين لا يكون إلاّ شرّاً.

* * *

(٤)
حول سبب النزول

لم يأت في أقوال شيوخ المفسّرين من الصحابة والتابعين روايات تبيّن سبب نزول هذا النّص.

لكن تواردت أقوال أكثرهم على أن المراد بما جاء فيه المنافقون، ولا سيما اليهود منْهُمْ، فالآيات قبل هذا النّص تتحدّث عن اليهود من أهل الكتاب، وفي هذا النصّ إشارةٌ إليهم في قوله تعالى: ﴿وتُؤْمِنُونَ بالكتابِ كُلِّه﴾ أي: وتؤمنون بكلّ الكتب الرّبّانية ومنها التوراة التي يؤمنون هم بها، ولا يؤمنون بالقرآن كتاب الله الخاتم للكتب الربّانيّة.

والقولُ بأنّ هذا النصّ قد نزل في المنافقين. رواه الطبريّ بأسانيده عن مجاهد، وقتادة، والربيع، والسدّي، وابن جريج، وابن زيد، وهو إحدى روايتين عن ابن عبّاس، ويدلّ على هذا من النصّ قوله تعالى فيه:

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ... ﴿١١٩﴾﴾.

* * *

(٥)
مع النص في التحليل والتدبّر

قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾.

أي: يا أيّها الذين آمنوا صادقين في إيمانكم، لا تتّخذوا أخِلّاء، أو أصفياء، أو أصدقاء، أو أولياء، أو عُمّالاً في أعمال يطّلعون فيها على أسرار المسلمين، وخفايا أمورهم، وما يُدبّرون من خطط للسلم والحرب، من دون المؤمنين الصادقين في إسلامهم، أي: من غير نوعهم وصنفهم وجنسهم، لئلا يتمكّنوا بذلك من مخالطتكم ومداخلتكُمْ في أموركم المهمّة، فيطّلعوا بذلك على أسراركم، وبواطن أحوالكم وشؤونكم، ثمّ يتّخذوا من مواقعهم أسباباً للإضرار بكم، وإفساد أموركم.

إنّ على المؤمنين الصادقين ألّا يتخذوا من غير المؤمنين الصادقين في إيمانهم وإسلامهم أصدقاء ولا وُلاةً ولا أمراء ولا مستشارين ولا عُمّالاً وموظفين يطّلعون على أسرارِ الدولة الإسلاميّة وبواطن أمور المؤمنين.

ولمّا كان الخطاب في هذا النصّ للذين آمَنوا، فالذين هم من دونهم يشمَلُ كلَّ غير المؤمنين الصادقين في إيمانهم وإسلامهم، ويتناول أوّل ما يتناول المنافقين وأهل الرّيب الذين في قلوبهم مرض، لأنهم المخالطون الداخلون في صفوف المسلمين، بمقتضىٰ ظاهر إسلامهم، وهم الذين قد يتّخذ المؤمنون بطانةً منهم، اغتراراً بهم، وعملاً بظاهر أحوالهم، إذْ قد أعْلَنوا انتماءهم إلى الإسلام.

أمّا الكافرون الصُّرَحاء المجاهرون بكفرهم وعداواتهم من المشركين أو أهل الكتاب أو غيرهم، فالتَّحذيرُ من اتّخاذ بطانَةٍ مِنْهُمْ أَمْرٌ معلُومٌ لدَىٰ المؤمنين، فقد سبَقَ فيما نزَل من القرآن قبل هذا النصّ النَّهْيُ عن اتّخاذ الكافرين أولياء، ولو كانت هذه الموالاةُ في حدود المناصرة، والموادّة الّتي لا تصِلُ إلى مستوى اتّخاذ بطانةٍ منهم، إذْ هُمْ مُفارِقُونَ مباعدون غيْرُ مخالطين، واحتمالُ اتّخاذ بطانةٍ منهم أمرٌ مستبْعدٌ جدّاً في مفهوم المؤمنين، الذين عاصروا رسُولَ الله ﷺ، وعاصروا مراحل تنزيل القرآن.

ففي أوائل سورة (آل عمران/ ٣) قال الله عزّ وجلّ:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾.

ففي هذه الآية نَهْيٌ مُشدَّدٌ للمؤمنين عنْ أن يتّخذوا الكافرين أولياء من غير المؤمنين الذين هم دونهم بسبب كفرهم، علىٰ أيّة صورة من صُوَر الموالاة، ومَنْ يفعل ذلك فليس من الله في شيء، أي: أخرج نفسه بعمله من دائرة الرَّبّانيّين المنسوبين في ولائهم إلى الله، الذين يتولّاهم الله بمعونته ونَصْرِه.

* وقولُ الله عزّ وجل:

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾.

يُبيِّنُ أنّ أيّةَ موالاة مهما كان مستواها ضعيفاً فهي موالاة منْهيٌّ عنها نهياً جازماً

مُشَدُّداً فيه، وهذا الاستثناء لم يُبِحْ إلاّ المصانعَةَ الصُّوريَّة، لاتّقاء شرورهم.

أمّا اتّخاذُ بطانةٍ منهم فهي موالاةٌ من مستوىً رفيع جداً، وهو أمرٌ لا يليقُ إلاّ بالْخُلَّص من المؤمنين، فلا يجوز اتخاذُ بطانةٍ من الكافرين بداهة.

لكنّ الأمر الذي قد تحصُلُ فيه شبهة هو اتّخاذُ المنافقين بطانةً، فجاء النَّصُّ للتحْذير منه بالقصْدِ الأوّل، مع شمول النصّ للكافرين، والفاسقين والذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق، إذْ كُلُّهم يدخلون في عُموم وصف:

﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾.

إنّ الذين هم من دون المؤمنين الصادقين يَبْدأ فَصْلُهُمْ اعتباراً من الملاحدة الدهريين، فالمشركين، وأهل الكتاب من اليهود، فأهل الكتاب من النصارى وأشباههم، فالمنافقين الذين ظاهِرُهُم الإسلام ويخالطون المؤمنين، فالذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق، إذْ هم من دون المؤمنين الصادقين، وَغَيْرُ مأمونين على أسرار المسلمين.

وأُطْلِقَ علىٰ المقرّبين من مواقع أسرار الرّجل بطانة، لأنّ بطانة الثوب هي الأقرب إلى بدن لابسه، والأدنىٰ إلى ملامسة بشرته، ومناطق عوراته.

والمقرّبون هم الذين يخالطون من الداخل، ويطّلعون على الأسرار، ويكونُونَ أعلم بمواطن الضعف، ومواطن القوّة، فإذا كانُوا في حقيقة أمرهم أعداءً، كانُوا أشدّ نكاية، وأبلَغ إضراراً وإفساداً.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾:

أي: لا يُقصِّرون مجتهدين، ولا يُبطِّئون في عملٍ يبغونكم به فساداً ونقصاناً وإضراراً، دونما فتور ولا ضعف، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

فهم يَطْلُبُونَ لكم في نفوسهم هذه الأمور، ويعملون جاهدين غير مقصّرين،

ولا مبطئين ولا فاترين ولا ضعفاء في تحقيقها بمختلف الوسائل، استجابةً لما في قلوبهم نحوكم من عداوة وكراهية وحقد.

﴿لا يألونكم﴾ فاعله ضمير مستتر يعود على ﴿بطانة من دونكم﴾ والكاف في ﴿يألُونَكُم﴾ مفعول به أوّل و ﴿خبالاً﴾ مفعول به ثانٍ على رأي الزمخشري، وقيل: منصوب بنزع الخافض، وقيل: منصوب على أنه تمييز بتأويل متكلّف.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾:

أي: تمنّوا أي ينزل بكم الضرر الشديد، والأذى، وأنواع المشقة، والتعب، وأن تَحْبَطَ أعمالكم وتَفْسُد.

وهذا التّمني يدُلُّنا على أن هدفهم إضعاف قوى المؤمنين، وتوهين أمرهم، وتفريق صفّهم، وإنزال الهزائم بهم، للتخلّص منهم، ومن دينهم، ومن ظهور دعوتهم التي بدأت تكتسح عقائدهم، وتنسف زعاماتهم، وتفوّت عليهم مصالحَ وأهواءً وشهواتٍ ظالمات يحققها لهم كفرهم.

وفي بيان تمنّيهم هذا دلالة على الدافع النفسيّ الذي يجعلهم لا يألون المؤمنين خبالاً.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾:

أي: قد ظهرت البغضاء التي يطوونها ويكتمونها في نفوسهم وقلوبهم من أفواههم، إذْ تنطلق منها ما بين حين وآخر فلتات أقوال تدلُّ على ما يكتمون، وهم قد يبطّنون أقوالهم بمعانٍ يرمزون لها رمزاً، ويشيرون إليها من طرفٍ خفيّ.

وجاء تأكيد الجملة بحرف «قد» للتنبيه على أنّ ما يبدو من أفواههم من العلامات والأماراتِ كافٍ لمعرفتهم والحذر منهم.

وفلتات الأقوال من العلامات والأمارات التي تدلّ على ما في النفوس، وقد بيّن الله عزّ وجلّ لرسوله ثم لكلّ مؤمنٍ من بعده هذه العلامة التي تدلُّ على نفاق المنافقين بقوله تعالى في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٠﴾:

أي: ولو نَشَاءُ فَضْحَهم لأريناكَ علامَاتِ نِفاقِهِمْ في وجوههم، فهي سِيما (أي: علامة) خاصة تَتَميَّزُ بها وجوه المنافقين، يُبْصِرُها من وَهَبَهُ الله معرفة سيما الوجوه وأماراتها، وهو من عِلْم الفِراسة، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «اتَّقُوا فِراسَةَ المؤمنِ فإنَّه ينظُرُ بنور اللَّهِ عزّ وجلّ».

(عن الجامع الصغير (١٥١))

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾:

أي: ولَتَعْرِفَنَّهم فيما تُشِير إليه أقوالُهم من طرفٍ خَفيّ، أو ما تَسْبِق إليه تعبيراتُ ألسنتهم ممّا يعتلج في نفوسهم، دون وَعْيٍ مِنْهم لما انفلت من ألسنتهم.

لَحْنُ القول: هو رمْزُه وما يتضمّن الإشارة إلى المراد من طرف خفيّ، وما يفهمه السامع بالتأمُّل فيه من وراء لفظه. ولَحْنُ القول أيضاً: الخطأ فيه، وهو ما يعبِّرُ عَنْه بفَلَتَات الألسنة.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾:

أي: وما تخفي صدورهم الحاوية لقلوبهم ولِعُمْقِ نُفُوسهم مِنَ البغضاء أكبَرُ ممّا تَدُلُّ عليه رُموزُ أقوالهم وفلتاتُها التي تصْدُرُ من أفواههم، لأنهم يَحْبِسون ألسنتهم، فلا يسمحون لها بأن تعبّر عن كلّ ما في صدورهم، حتّى لا تنكشف ضمائرهم وما يكتمون فيها من بغضاء للمؤمنين، ومن كفرٍ بالإسلام، الأمر الذي يكشف أنهم منافقون كذّابون في ادّعائهم الإيمان والإسلام.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾:

أي: قد أوضحنا لكم العلامات والدّلائل الّتي تـدُلُّكُمْ على أعدائكُمُ المخالطين لكُمْ، وبيّنّا لكُمُ العظات التي تحميكُمْ من شرورهم، والتي تَتَبيَّنُونَها، وتستهْدُونَ بهديها إنْ كنتم تعقلون، أيّها المؤمنون.

فجواب الشرط في ﴿إنْ كنتم تعقلون﴾ محذوف دلّت عليه جُملةُ ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيات﴾، والتقدير: قد بيَّنَّا لَكُمُ الآيات فأنتم تَتَبيَّنُون دلالاتها وتعملونَ بمقتضاها إنْ كُنْتُمْ تعقلون.

والمراد من العقل هنا فيما يظهر العقلُ العلمي بمعنى المحافظة في التذكّر الدائم على ما جاء في البيان، واسْتنباطِ ما تَدُلُّ عليه الأمارات والعلامات الظاهرات من دلالات كاشفات للبواطن، وبمعنىٰ العقل الإرادي، ويكون بشِدَّة الحذر وضبطِ النفس، وعدم الاستجابة لما يُخَادع به المنافقون ممّا يُرضي أهواء النفوس وشهواتها، أو يَغُرُّها من أقوالٍ أو أعمال أو مُرْضِيات أخرىٰ لها ظواهر كاذبات.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾:

أي: ها أنتم أيُّها المؤمنون الصادقون تحبُّونَ هؤلاء المنافقين، اغتراراً بظاهر إسلامهم، ومخادعتهم بإظهار مودّاتهم في أقوالهم، وببعض ظواهر أعمالهم، فتعتبرونهم إخوةً لكُمْ أصْفياءَ أخِلّاء، وتجعلونهم بطانَةً لكُمْ وهم في حقيقة أمرهم لا يُحِبُّونكم بدليل ما يظهر من أفواههم مما يدُلُّ بأماراته على ما في قلوبهم نَحْوكم من بغضاء، فاعرفوا دليل الأمارات، ولْتَكُنْ هاديةً لَكُمْ في الحيطة والحذر والمراقبة الدائمة وعدم الاستئمان.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾:

إنّ من المنافقين شياطين من اليهود، وهم مقصودون بالنّصّ قصْداً أوّليّاً لأنّهم أخبثُ المنافقين وأشدُّهم مكراً، وكَيْداً، وبغضاً للمؤمنين، فنبَّهَتْ هذه الجملةُ عليهم.

والمعنىٰ الذي تدلُّ عليه: هو أنّه قد كان المفروض في المنافقين من اليهود ألّا تكونَ هذه البغضاء لكم في قلوبهم، لأنّكم تؤمِنُون بكُتبِهِمْ وبسائرِ الكُتُب الرَّبّانيّة.

لكِنَّهُمْ على خلاف ذلك، فلا تثقوا بهم، ولا تنتظروا منهم خيراً.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾:

أي: والمنافقون لهم وجهان:

الأول: وَجْهٌ يخادِعُونَكُمْ به إذا لَقُوكُمْ، فإذَا لَقُوكُمْ قالُوا لكُمْ: آمَنّا معكم مثْلَ إيمانكم، ونحن نُحبّكُمْ ونُودُّكم، لأنّكم إخواننا في الدين، وهُمْ في الادّعاءَيْنِ كاذبون.

الثاني: وجْهٌ يُظْهِرُونه إذا خلَوْا، فهُمْ إذا خلَوْا بأَنْفُسِهِمْ، أو خلا بعضهم إلى بعض كشَفُوا حقيقة كُفرهم بما أعْلَنوا أمام المؤمنين أنهم آمَنُوا به، وكشَفُوا ما في قلوبهم من غيظٍ من المؤمنين ومن الرسول ﷺ.

ومن مظاهر تعبيراتهم الحركية عن غيظهم من المؤمنين، أنْ يَضَعُوا أناملهم في أفواههم ويَعَضُّوا عليها غيظاً وحنقاً، وعَضُّ الأنامل عند الغيظ والحنق عادة معروفة عند كثير من النّاس. والمرادُ أنّهم عبَّرُوا عن غيظهم، سواءٌ أفعلُوا هذه العادة أو لم يفعلوها، على أنَّ كلَّ حركة نفسيّة لا بدّ لها في العادَة من تعبير ظاهر، بالأقوال أو بالأفعال، أو بسيما الوجوه.

ومع الغيظ الشديد يفكّرون ويُقَدِّرون ويحاولونَ جَهْدَهم غالباً اتّخاذَ الوسائل للنكاية بالمؤمنين، وتدبير المكايد لهم، وإفساد أمورهم، وإنزال العنت بهم، تحقيقاً لأمانيهم.

وقد يسأل سائل: ما موقع ﴿عليكم﴾ هنا في النصّ، وقد كان يكفي أن يُقال: وإذا خَلَوْا عَضُوا الأنامل من الغيظ؟

وأقول:

إنّهم في موقف الْعَجْز عن نِكَايَةِ المؤمنين وإنزالِ المصائب فيهم، مع وجود الرَّغبة العارمة في نفوسِهم للتخلُّصِ مِنْهُمْ بأيّة وسيلة، وحينما يَخْلُون ويتحرَّرُون من ضغط المراقبة، وتتحرَّكُ أعضاؤهم للتعبير عمّا في نفوسهم وقلوبهم ضدّ المؤمنين، فإنّ تخيُّلَهُمْ يسْبِقُهُمْ إلى تصوُّرِ القبض على المؤمنين وافتراسهم بأسنانهم عضّاً ونهشاً، لكنَّهُمْ حين يُقَدِّمُون الصُّوَرَ المتخيَّلَةَ بأيديهم إلى أفواههم لا يَجِدُون ما يَعَضُّونه إلاّ أناملَهُمْ، بيد أنّ نفوسهم من الداخل تَعَضُّكُمْ أنتم، فالتعبير الملائم للحالتين النفسيّة الباطنة، والحسّيّة الظاهرة، أن يُقَالَ كما جاء في النصّ بإبداعه العجيب مع إيجازه: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأنَامِلَ مِنَ الغيظِ﴾.

عَضُّوا: حركةٌ حسيّة ظاهرة.

عليكم: حركة نفسيّة باطنة.

الأنامل: حركة حسيّة ظاهرة.

من الغيظ: حركة نفسية باطنة.

و (مِنْ) في ﴿من الغيظ﴾ للابتداء، ابتداءً من عُمْقِ الغيظ حتّى ضغط الأسنان بالعضّ، الذي يتوهّمون أنّه عضٌّ عليكم لإيلامكم وافتراسكم، أو للتعليل، لكن المعنى الأول أدقّ.

وتَدُلُّ عبارة ﴿عليكم﴾ على أنّهم يشدُّدون عضهم على أناملهم، لأنّهم يتوهّمُون أنّهم يعضُّونَها وأنتم فيها، رغبةً في إيلامكم، وهم في الواقع يؤلمون أنفسهم، وهذا غايةٌ في التعبير عن شدّةِ غيظهم، الذي غفلوا معه عن آلام أناملهم.

وفي العبارة حذف من الأوّل لدلالة الآخر، وحذف من الآخر لدلالة الأول وهو ما يسمّى عند البلاغيين «الاحتباك» وبإبراز المحذوفين تكون العبارة كما يلي: وإذا لقوكم قالوا: آمنّا ونحنُ إخوانكم ونحبّكم وإذا خلوا قالوا: لم نؤمن بل نحن على ديننا الأول، وعضوا عليكم الأنامل من الغيظ.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾:

أي: لن تصلوا إلى ما تتمنَّوْنَ من كيد المؤمنين وعنتهم، وإفساد أمورهم، والإضرار بهم، وإيقاف مسيرة دعوتهم، ومناصرةِ أعدائهم الظاهرين ومؤازرتهم، بُغْيَةَ استئصال القوّة الإيمانيّة، والتخلُّص من دين الإسلام.

إنّ الله سَيَرُدُّ كَيْدَكم إلى صدوركم، ولنْ يضُرَّ المؤمنين كَيْدُكُم شيئاً، مهما كان كيداً كُبّاراً.

فاستَمِرُّوا على غيظكم تكتَوُون بآلامه ما حَيِيتُم، حتّىٰ يشتَدّ ويتزايَدَ بانتصار المؤمنين وهزائم أعدائهم، فيكونَ سبباً لموتكم، فتموتوا به، أوحتّىٰ تنتهي آجالُكُمُ المقدّرة لكُمْ، فَتَمُوتُوا وأنتم مُلْتَبسونَ بغيظكم تُعَانُونَ آلامه.

فالله عزّ وجلّ لن يتْرُكَ أولياءَهُ المؤمنين المتقين، تُفْسِدُ أُمُورَهُمْ مكايدُ المنافقين المخالطين المداخلين، ما دام المؤمنون يهتدون بِهَدْي بيانات الله وعظاته لهم.

أمّا استخفاء المنافقين بعداواتهم وبغضائهم ومكايدهم فلن ينفعهم في إضرار المؤمنين، وذلك لأنّ الله عزّ وجلّ يعلَمُ ما يكْتُمون، وما يُخْفُون عن المؤمنين في خلواتهم، ويعلَمُ ما يُضْمِرُون لهم في صُدُورهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾:

أي: بالأسرار والنيّات والرغبات المصاحبات للصدور، فضلاً عمّا هو دون ذلك في الخفاء، ممّا يُبيِّتونه ضدّ المؤمنين في خلواتهم.

ويدخُل في عموم عبارة ﴿ذات الصدور﴾ ما تُضْمِرُه الصدور حتّى أعماق الأفئدة، من كفرٍ، وبغض، وغيظ، وحقد، وإرادة سوءٍ وشرّ، وتدبيرات كيدٍ، وتمنّي عَنَتِ المؤمنين، وحبّ انتصار الكفر والكافرين، إلى غير ذلك من ثوابتَ ومتحرّكات داخل النفس.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾:

أي: ومن علامات نفاقهم وكفرهم الذي يُبْطِنونه، وما يحملون لكم في نفوسهم من البغضاء أمران:

الأمر الأول: ما يظهر على وجوهم وفي أقوالهم من أمارات مَساءتهم، إنْ تَمْسَسْكُمْ حسنةٌ ما، ولو مَسّاً رفيقاً قليلاً، لأنّ الحسنة لكم تسرُّكُمْ، ومسرّتكُمْ تسوؤهم.

الأمر الثاني: ما يظهر على وجوههم وفي أقوالهم من أمارات فرحهم، إنْ تُصِبْكُمْ سيّئةٌ ما، ولو إصابةً بالغة، لأنّ السيئة لكم تسوؤكم، ومساءتُكُمْ تسُرُّهم.

واستعمال (إنْ) الشرطية هنا للدلالة على مطلق الشرط، دون النظر إلى أنّ الشرطَ مشكوكٌ في وقوعه، لأنّ الحياة فيها دواماً تعاقبُ ما يسُرُّ وما يسوء، لكن يُخْتار غالباً للشرط المشكوك فيه، استعمال حرف (إنْ) ويُخْتارُ للشرط المتحقّق الوقوع استعمال حرف (إذا) كما يقولُ البلاغيون.

على أنّ حَرْف (إنْ) هو أصل أدوات الشرط، فلا يلزم دواماً في شرطها أن يكون نادراً أو مشكوكاً في وقوعه، بل قد يكون متحقّق الوقوع.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

في هذا التعليم بيان للمؤمنين أنّهم إن حقّقوا بإراداتهم أمرينِ تولّاهم الله، فلَمْ يَضُرَّهُمْ كَيْدُ المنافقين شيئاً.

الأمر الأول: الصبر، وفي التوجيه للصبر على المنافقين، وعدم التَّسرُّعِ بمقارَعتِهِمْ مقارَعةً علنيّةً واضحة، كمقارعة الكافرين الصرحاء، بيانٌ للمنهج الرّبّاني في معاملة المنافقين، الذين لم يُعْلِنوا كُفْرَهُمْ صراحةً، بل اقتصرت دلائل كفرهم ونفاقهم على الأمارات التي لم تصِلْ إلى درجةِ الإدانة القضائيّة بالكُفْرِ والرّدّة.

الأمر الثاني: التقوى، وتعني التقوى هنا ما يشمل قضيتين:

* قضية اتّقاء سخط الله وعذابه، بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، ولا سيما ما نهىٰ عنه من اتّخاذ بطانة من المنافقين والكافرين والذين في قلوبهم مرض الشكّ والرِّيب، وعدم سلامة الإيمان.

* وقضية اتّقاء مكر المنافقين ومكايدهم، بشدّة الحذر منهم، وبوضعهم موضع المراقبة الدائمة، وبعدَمِ تقريب أحدٍ منهم، أو مُخاللته ومصافاته، أو مصادقته بطمأنينة، فهم أعداءٌ مُقَنَّعُون بأقنعة أولياء وأصدقاء ومحبّين، وهي أقنعة كاذبات.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ۝١٢٠﴾:

أي: فهو سبحانه وتعالى يفسد عليهم كلَّ مخطَّطاتهم، ويردُّ عليهم مكرهم وكيدهم، ومن ذلك كشف ما يُدَبِّرون للمؤمنين، قبل أن يصلوا به إلى الإضرار بهم.

كيف يفلتون من الله العليم الحكيم، وهو بكلّ ما يعملون محيط. وبما أنّ الله عزّ وجلّ محيطٌ بما يَعْمَلُ المنافقون، وهو العليم بذات صدورهم، وقد وعدَ الله المؤمنين بأن لا تضُرَّهم مكايد المنافقين شيئاً، إذا صبروا واتّقوا كما أمرهم، ولم يتّخذوا منهم بطانة، وكانوا على حذر دائم منهم، وتفرُّسٍ بما يظهر من أماراتٍ عليهم، في أقوالهم أو أعمالهم أو حركاتٍ وتغيّراتِ وجوههم.

إنّ الله عزّ وجلّ لن يدعَ مكايد المنافقين تبلغ إلى مداها فتضرّ أولياءه المؤمنين العاملين بوصاياه.

هذا وعدٌ من الله عزّ وجلّ، مشروطٌ بالتزام مناهجه ووصاياه وما وعظهم به.

● ● ●

مقدمة عامة

للنصوص (٩) و (١٠) و (١١) من سورة (آل عمران) حول ما جاء بشأن المنافقين وظواهرهم السلوكية بمناسبة أحداث غزوة أحد

اشتملت سورة (آل عمران) على عدّة بيانات تتعلق بغزوة أحد وأحداثها، ومن أحداثها ما كان من المنافقين فيها، فجاء في هذه البيانات فَضْحُ أقوال وأعمال المنافقين التي ظهرت منهم خلال أحداثها وعَقِبَها، مع التعقيب عليها بالتحليل، والتوجيه، والبيان الديني، الموجّه لهم أو للرسول والمؤمنين.

وقد جاء في السورة ثلاثة نصوص حول هذا الموضوع، أحدها الآيات من (١٥٢ ــ ١٥٨) منها، والثاني الآيات من (١٦٥ ــ ١٦٨) منها، والثالث الآيات من (١٧٦ ــ ١٧٩) منها.

وقبل تدبُّر هذه النصوص الثلاثة نستعرض قصة المنافقين في غزوة أحد.

* * *

مواقف المنافقين في غزوة أُحُد

(١)
موجز معركة أحد

(١) استقرّ رأي زُعماء قريش على أن يثأروا لأنفسهم من الهزيمة المخزية، التي حلّت بهم في معركة بدرٍ الكبرى، فقرّروا أن يخرجوا لقتال المسلمين في المدينة، فأعَدُّوا جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، بكامل عدّتهم وعتادهم.

(٢) وبعد اثني عشر شهراً من هزيمتهم المنكرة في بدر، وفي أوائل شهر شوال لثلاث خلون منه، خرجت قريش بحدّها وجدّها وحديدها، لقتال المسلمين في المدينة، وخرج من اجتمع معها، ومن تابعها من بني كنانة، وأهل تهامة.

وأخرجوا معهم نساءهم ليزدن في حماستهم، وشدّة بأسهم، ونزلوا مقابل المدينة قريباً من أحد.

(٣) وعَلِمَ الرَّسُولُ ﷺ بتحرُّكهم منذ خرجوا من مكّة، ولمّا سمع بوصولهم استشار المسلمين في الأمر، وعرض عليهم رأيه، فقال لهم:

«فإن رأيتم أن تُقيموا بالمدينة، وتَدَعُوهم حيث نزلوا، فإنْ أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإنْ هم دخَلُوا علينا قاتلناهم فيها؟».

وروى الطبري بسنده عن قتادة أنّ الرسولَ ﷺ قال لأصحابه يومئذٍ:

«إنّا في جُنّةٍ حَصِينَةٍ فدعوا القوم، إنْ يدخُلوا علينا نقاتلْهم، فقال ناسٌ من أصحابه من الأنصار: يا نبيّ الله، إنّا نَكْرَهُ أنْ نقتل في طُرقِ المدينة، وقد كُنّا نمتنع في الغزو في الجاهلية، فبالإسلام أحقُّ أن نمتنع فيه، فابْرُزْ بنا إلى القوم»[١].

وكان رأي كبير المنافقين عبد الله بن أُبَيّ بن سلول مع رأي رسول الله ﷺ في ذلك، يرى ألّا يخرج إليهم.

وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج من المدينة لقتال جيش قريش خارجها.

(٤) فقال رجال من المسلمين من الذين فاتهم شهود بدر: يا رسُول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرونَ أنّا جَبُنّا عنهم وضعفنا.

وكان من كبار الراغبين في الخروج حمزة بن عبد المطلب عمّ الرسول ﷺ.

(٥) فقال عبد الله بن أُبيّ بن سَلُول[٢]: يا رسول الله، أقم بالمدينة، لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدُوّ لنا قطُّ إلّا أصاب منّا، ولا دخَلها علينا إلّا أصبْنَا

---

(١) انظر الطبري، الجزء الرابع ص ١٦٤.

(٢) سَلُول: جدّة عبد الله بن أُبيّ لأبيه، وعبد الله بن أُبيّ هذا هو كبير منافقي المدينة.

منه، فدعهم يا رسول الله، فإنْ أقاموا أقاموا بشرِّ مَحْبِس، وإنْ دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهُمُ النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رَجَعُوا رجعُوا خائبين كما جاءوا.

(٦) فلم يزل الذين كانَ من أمرهم حبُّ لقاء القوم يُلِحُّونَ على رسول الله ﷺ بالخروج إلى عدوِّهم، حتّى دخل رسول الله ﷺ بيتَهُ، فلبِسَ لِباسَ الحرب استجابة لرأيهم وهم الأكثر عدداً، وكان ذلك عقب صلاة الجمعة الرابع عشر من شهر شوال للسنة الثالثة للهجرة.

(٧) وقال سعد بن معاذ، وأُسَيْدُ بن حُضير، لجمهور المسلمين الذين ألَحُّوا على الرسول ﷺ بالخروج: استكْرَهْتُم رسولَ الله على الخروج، فَرُدُّوا إليه الأمر، فندموا على ما صنعوا.

(٨) وخرج رسول الله ﷺ على المسلمين لابساً لباسَ الحرب، إشعاراً بأنّه قرّر الخروج لقتال المشركين.

فلمّا رأوْه لابساً لباس الحرب قالُوا: يا رسول الله، استكرهناك ولم يَكُنْ ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلّى الله عليك.

فقال رسولُ الله ﷺ: «ما يَنْبَغي لِنَبيٍّ إذا لبسَ لأمَتَهُ أن يضعها حتّى يحكُم الله بينه وبين عدوّه».

لأمَتَه: اللأمة درع الحرب، أو لباس الحرب من درع وغيره.

وفي رواية الطبري عن قتادة «أنّ الرسول بعد أن قال له ناسٌ من أصحابه من الأنصار: فابرُز بنا إلى القوم، انطلَق فلبس لأمته، فتلاوم القوم، فقالوا: عرَّض نبيُّ الله ﷺ بأمر، وعرَّضتُم بغيره، اذْهَبْ يا حمزة فقُلْ لنبيِّ الله: أمْرُنا لأمرك تَبَع، فأتَى حمزة فقال له: يا نبيَّ الله إنَّ القوم قد تلاوموا، وقالوا: أمرنا لأمرك تَبَعٌ، فقال رسول الله ﷺ: إنّه ليس لنبيّ إذا لبس لأمَتَهُ أن يضعها حتّى يُنَاجِزَ، وإنّه ستكُونُ فيكم مصيبة.

قالوا: يا نبيَّ الله، خاصّةٌ أو عامّةٌ؟ قال: ستَرَوْنَها».

(٩) وخرج رسول الله ﷺ بألف من المسلمين بعد صلاة العصر من يوم الجمعة، وبات ليلة السبت خارج المدينة، في مكان بينها وبين جبل أُحُد. وقبيل طلوع الفجر أدلج متّجهاً شطر أُحُد.

(١٠) عندئذٍ انخذل عن الرسول ﷺ عبد الله بنُ أُبَيّ بن سلول، كبير المنافقين، ومعه ثلاثمائةِ رجلٍ من قومه، من أهل النفاق والرّيب، وقفلوا عائدين إلى المدينة.

وقال في تعليلِ انخِذاله: أطاعهم وعصاني (يشير إلى الذين ألَحُّوا على الرسول بالخروج) ما ندري علاَم نقْتُلُ أنفسَنا ههُنَا أيُّها الناس.

فاتَّبعَهُم عبدُ الله بنُ عَمْرو بن حَرام يناديهم: يا قوم، أُذَكِّرُكُمُ الله ألاّ تخذلوا قومكم ونبيَّكم عندما حضر عدُوُّكُمْ.

فقال المنافقون: لو نعلَمُ أنَّكُمْ تُقاتلون لما أسلمناكم، ولكنّا لا نرىٰ أنّه يكونُ قتال.

وهذا تعليلٌ ظاهريٌّ كاذب.

فلمّا استعصَوْا علَيْه وأبَوْا إلاّ الرجوع إلى المدينة قال: أبعدكم اللّهُ أعداءَ الله، فَسَيُغْنِي الله عنكم نبيّه.

(١١) وهمَّت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا (أي: أن تَضْعُفَا وتَجْبُنَا) تأثُّراً بما فعل عبد الله بن أُبَيّ ومن تَبِعَه من قومه، لكنّهما لم تفعلا فقد ثَبَّتهما الله.

وهاتان الطائفتان هما: بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج.

(١٢) وأراد رسول الله ﷺ أن يختصر الطريق إلى أُحد، وأن يتفادىٰ العبور من طريقٍ يمرُّ بها على المشركين فقال:

«مَنْ رجُلٌ يخرجُ بنا على القوم من كَثَبٍ[1]، من طريقٍ لا يمرُّ بنا عليهم؟».

---

(١) من كثب: أي: من قُرْبٍ.

فقال أبو خيثمة: أنا يا رسول الله، فنفذ بالمسلمين في حرَّة بني حارثة، ومن أموالهم، حتّى سلك في مالِ لِمِرْبَعِ بن قَيْظِي، وكان رجُلاً منافقاً ضريرَ البصر.

فلمّا سمع حِسَّ رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، قام يحثي في وجوههم التراب، ويقول: إنْ كنتَ رسولَ اللّهِ فإنّي لا أُحِلُّ لك أن تَدْخُلَ حائطي، وظهر نفاقه.

وابتدره المسلمون ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ:

«لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب وأعمى البصر».

(١٣) ومضى رسول الله ﷺ بالمسلمين حتّى وصل إلى جبل أُحُدٍ، وجعل منزله هُناك، واتّخذ لجيشه منزلاً في الشعب من جبل أُحد في عُدْوَة الوادي، وعسكر بجيشه مستقبلاً المدينة، وظَهْرُه إلى جبل أُحد.

(١٤) ومع أوّل النهار من يوم السبت الخامس من شهر شوال لسنة ثلاث هجريّة، عبّأ الرسول ﷺ أفراد جَيْشِه، ورتَّبَهُمْ صفوفاً للقتال.

واختار من الرُّماة كتيبةً عددُها خمسون رامياً، وأمّر عليهم عبد الله بن جُبَيْر الأنصاريّ الأوسيّ، واختار لهم موضعاً مُشْرِفاً على ساحة المعركة، وهو جَبَلٌ صغيرٌ قُرْبَ أحُدٍ، يقع وراء جيش المسلمين، ليحموا ظهور الجيش، من غارات خيل المشركين إذا جاءت من ورائهم.

وقال الرسول ﷺ لأمير الرماة:

«انضح الخيل عنّا بالنَّبْل، لا يأتُونَا مِنْ خلفنا، إنْ كانت لنا أو علينا، فاثْبُتْ مكانك، لا نُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِكَ».

وقال للرُّماة:

«احْمُوا ظهورَنا، فإن رأيتمونا نُقْتَلُ فَلاَ تَنْصرُونا، وإن رأيتمونا قد غَنِمْنا فلا تَشْرَكُونا».

وفي رواية البخاري أنّه قال لهم: «إنْ رأيتُمونا تَخْطَفُنَا الطير فلا تَبْرَحُوا مكانَكم حتّى أُرسِلَ إليكم، وإنْ رأيتُمونَا هَزَمْنَا القومَ وَوَطِئْنَاهُمْ فلا تَبْرَحُوا حتى أُرْسِلَ إليكم».

(١٥) ونَهى الرسول ﷺ المسلمين عن مباشرة القتال حتّى يأْذَنَ لهم، وحضّهم

على المصابرة، وشدّة البأس عند اللّقاء، وقال لهم:

«إنَّكُم ستظهرون فلا تأخذوا ممّا أصبتُمْ من غنائمهم شيئاً حتى تَفْرَغُوا».

ثمّ التقى الفريقان، ودنا بعضهم من بعض، واقتتلوا حتّى حَمِيَت الحرب، فأنزل الله عزّ وجلّ نَصْرَهُ، وصدَقَ المسلمين وعْدَهُ، فحسُّوا المشركينَ بالسُّيُوف، حتّى كشفوهم عن مُعَسْكَرِهم، وكانت الهزيمة في المشركين لا شكَّ فيها.

روى عبد الله بنُ الزُّبير عن أبيه أنّه قال: والله لقد رأيْتُني أنْظُر إلى خَدَمِ سوق هِنْدٍ بنت عُتْبَة وَصَواحِبِهَا مُشَمِّراتٍ هوارب، ما دون أخْذِهِنَّ قليلٌ ولا كثير.

ونظير ذلك عن البراء بن عازب، فيما رواه البخاري.

(١٦) وتَبِعَ المسلمون المشركين يُعْمِلونَ فيهم السلاح، وينتهبُونَ الغنائم.

(١٧) ولمّا رأى الرُّماةُ الّذين كانُوا حُرَّاسَ ظهورِ المسلمين ما حلّ بالمشركين من هزيمة كشفتهم عن مُعَسْكرهم، انْطَلَق أربعون منهم وهم يتنادَوْنَ: الغنيمةَ الغنيمةَ لا تفتكُمْ. وأميرُهُمْ عبد الله بْنُ جُبَيرٍ ينهاهم، ويقول لهم: أنَسِيتُمْ ما قال لكُمْ رسولُ الله ﷺ.

ولكنَّهُمْ أصَرُّوا على معصيتهم طمعاً بالغنيمة، وقالوا: واللهِ لنأتِيَنَّ النّاسَ فَلَنُصِيبَنَّ من الغنيمة.

وثبتَ عشرةٌ منهم مكانهم، وقالوا: لن نَتْرُكَ موضعنا حتّى يأذَنَ لنا نبيُّ الله ﷺ، وعلى رأسهم عبد الله بْنُ جُبَيْر.

(١٨) وخلّى الرُّمَاةُ الذينَ تركُوا مواضعهم ظهورَ جيش المسلمين لغارات خيلِ المشركين دون حماية.

عندئذٍ دارتْ كتيبةٌ من خيولِ المشركين بقيادة خالد بن الوليد، (ولم يكُنْ قد أسلم بعد) وأغارتْ على الرّماةِ العشرة الذينَ بقوا في مواضعهم فأبادتهم.

وخلَتْ ظُهورُ جيشِ المسلمين من أيّةِ حماية، فأغارَتْ خيلُ المشركين على المسلمين من وراء ظهورهم، فاستدار المسلمون يدافعون الغارة المهاجة من ورائهم.

(١٩) عندئذٍ رأى جيشُ المشركين المنهزم ما حلّ بالمسلمين، فاستداروا وكرُّوا على المسلمين، ووقع المسلمون عندئذٍ بين فريقين من العدوّ كأنَّهم بين حَجري رَحا، ودارَتْ الدائرةُ عليهم، وسقط منهم سبعون قتيلاً، وصاحَ صائح ألا إنَّ مُحمّداً قد قُتِل.

(٢٠) وأصْعَدَ جمهورٌ كبيرٌ من جيشِ المسلمين هاربين نحو المدينة، وفي بُطونِ الأودية والشعاب، حتَّى وصلَ بعضُهم المدينة ودخلها، وانطلَقَ بعضُ المسلمين شطر جبل أُحد.

والرسول ﷺ يُنادِي المسلمين المنهزمين: إليَّ عبادَ الله، ولم يكُنْ حولَهُ منهم إلاّ تسعةُ مقاتلين يحمونَهُ من هجماتِ المشركين، سبعةٌ من الأنصار واثنان من المهاجرين.

وافتداه هؤلاء النفر بأنفسهم، وحَمَوْهُ بأجسادهم، وقاتَلُوا قتال الأبطال الذين لا يخشونَ الموت، ويرونَ الشهادة في سبيل اللَّهِ باب الجنَّةِ والسعادة الأبديّة والنعيمِ المقيم.

وقُتِلُوا جميعاً إلاّ طلحة بن عبيد الله، فقد جُرِحَ نَيِّفاً وثلاثين جرحاً، وأصيبت يَدُهُ فَشَلَّتْ، إذْ كان يَقِي بِهَا النبيَّ ﷺ.

(٢١) وسَمِعَ كثيرٌ من المسلمين صوتَ رسولِ الله ﷺ يناديهم، فأخذوا يفيئونَ إليه، ويجتمعونَ حوله، ويحمونه ويفتدونه بأنفسهم.

وأصيبَ رسُولُ الله ﷺ، فدخلَتْ حَلْقَتَان من حَلَقِ المِغْفَر[١] في وجنته، انتزعَهُمَا منها أبو عبيدة بنُ الجرّاح بأسنانه، فسقطت بذلك ثنيّتاهُ، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ[٢] ﷺ، وأصيبت ركبَتُه بخَدْش.

---

(١) المِغْفَر: زَرَدٌ ينسج من الدروع على قدر الرأسِ يُلبَس تحت القلنسوة، وجمعُه المغافر، وهو من الغَفْرِ بمعنى الستر. يُقال: غفرَ الشيءَ إذا ستره وغطّاه.

(٢) ثنيتاه: الثنيّة: هي إحدى الأسنان الأربع التي في مقدّم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من تحت. رَبَاعيتُه: الرَّباعيَة: هي السِّنّ بين الثنية والناب، وهي أربع، ورباعيتان في الفكّ الأعلى، ورَبَاعيتان في الفكّ الأسفل.

(٢٢) وقَتَلَ اللّعِينُ ابنُ قَمِئَةَ مُصْعَبَ بنَ عمير، الداعيةَ البطل، حاملَ لِوَاءِ المسلمين يومئذٍ، وهو يفتدي رسول الله ﷺ بنفسه.

وكان مُصْعَبُ بْنُ عُمَيرٍ يُشبهُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ، فظنَّ ابْنُ قَمِئَةَ أنّه قتلَ الرسول، فذهبَ إلى قومه وأخبرَهُمْ أنّه قَتَلَ محمّداً.

(٢٣) وأنزل الله النُّعَاسَ أمَنَةً على طائفةِ المؤمنينَ الثابتين مع رسول الله ﷺ.

فعن الزبير قال: كُنْتُ مع النبي ﷺ حينَ اشتدّ الخوفُ، فأرسَلَ اللّهُ علينا النومَ. وقال عبد الرحمن بنُ عوف: أُلْقِيَ النومُ علينا يومَ أُحُد.

(٢٤) وشاعَ مَقْتَلُ النبيِّ ﷺ بين المشركين، وكثيرٍ من المسلمين المتفرّقين عن موقع الرسول ﷺ.

ثمّ علم المسلمون كذب الشائعة، وعرفوا مكان الرسول ﷺ، فأخذوا يفيئون إليه.

(٢٥) ثمّ انسحب الرسول ﷺ مع المسلمين إلى معسكرهم في الشِّعْب من جَبَلِ أُحُد.

وأراد المشركون أن يُتَابِعُوا قتال المسلمين في معسكرهم في الشِّعْب، فصَعَدُوا الجبل، فتصدّى لهم عُمَرُ بْنُ الخطّاب، ورهطٌ من المهاجرين، فقاتلوهم حتّى أهبطوهم من الجبل.

* * *

(٢)
مواقف المنافقين في غزوة أُحُد

تتلخّص مواقف المنافقين في هٰذه الغزوة بما يلي:

(١) انخذالُ عبد الله بن أُبَيّ بن سلول، مع نحو ثلث الجيش من قومه من أهل النفاق والرّيب.

(٢) موقف المنافق الضرير مِرْبع بن قَيْظِي، إذْ حاولَ منع الرسول والمسلمين من عبور أرضه إلى أُحُدٍ.

(٣) أُصِيبَ يزيدُ بنُ حاطب بن أميّة بن رافع بجراحةٍ يوم أُحُدٍ، فَأُتِيَ به إلى دار قومه وهو على شَفَا الموت، فاجتمع إليه أهل الدار، فجعل المسلمون من الرجال والنساء يقولون له: أَبْشِرْ يا ابْنَ حاطبٍ بالجنة.

وكان أبوه حاطبٌ شيخاً عَسَا (أي: أسَنَّ) في الجاهليّة، فقال: بأيِّ شيءٍ تُبَشِّرونه؟ بجنّةٍ من حَرْملٍ؟! غررتم والله هذا الغلام من نفسه.

وكانت الأرض التي دُفِنَ فيها تُنْبِتُ نبات الْحَرْمل، ومرادُه أن يقول: ليس له جنّةٌ إلّا هذه الأرض التي دُفِنَ فيها، فهو إذن ينكر البعث ويوم القيامة.

في مثل هذا الموقف الحزين تظهر كوامنُ النفوس، في فلتات الألسنة، ولو كان حاطبٌ هذا مؤمناً صادقاً في إسلامه، ما ظهر على لسانه مثل هذا الكلام في شأن ابنه الشهيد يوم أُحُدٍ.

(٤) وكان في المسلمين رجلٌ يُقالُ له: «قُزْمان» لا يُدْرى ممّن هو، وكان رسول الله ﷺ إذا ذُكِرَ له يقول: «إنّه لَمِنْ أهل النار».

فلمّا كان يومُ أُحد خرج مع المسلمين، وقاتل قتالاً شديداً، فقَتَلَ وحْدَهُ ثمانيةً أو سبعةً من المشركين، وكان ذا بأس، فأثْبَتَتْهُ الجراحة، فاحْتُمِل إلى دار بني ظَفَر.

فجعلَ رجَالٌ من المسلمينَ يقولون له: والله لقَدْ أبليتَ[1] اليوم يا قُزْمانُ فأبْشِرْ.

فقال: بماذا أُبَشَّرُ؟ فوالله إنْ قاتَلْتُ إلّا عن أحْسَابِ قومي، ولولا ذلك ما قاتَلْتُ.

فلمّا اشتدّت عليه آلام الجراحة، أخَذَ سهماً من كنانته فقَتَلَ به نفسه.

وهكذا كشف عن حقيقة نفسه، وأنّه كان كافراً مُنافقاً حينما علم أنّهُ ميّتٌ بجراحَتِه.

---

(١) أبليت: أي: اجتهدت في القتال اجتهاداً عظيماً، يُقالُ لغة: أبْلَى في الأمر، إذا اجتهد فيه وبالَغَ.

(٥) وخرج مع المسلمين يوم أُحُدٍ الحارثُ بن سُوَيْد بن صامت، وهو من المنافقين، فلمّا التقى الناس عَدَا على رجُلٍ من المسلمين فقتله، وهو المجذّر بن ذياد البلوي، لأنّ المجذّر بنَ ذياد كان قد قتل أباه سُويداً في بعض الحروب الجاهليّة التي كانت بين الأوس والخزرج، فخرج مع المسلمين لِيَسْتغِلَّ الْحَرْبَ القائمةَ فيُصِيبَ ثأره. وبعد أن قتله فرّ إلى مكّة ولَحِقَ بقريش.

وهكذا عبّر النفاقُ عن نفسه بهذا الموقف الخائن الغادر.

(٦) عن الزُّبير أنّه قال: «كُنْتُ مع النبيّ ﷺ حين اشتدّ الخوف، فأرْسَلَ اللَّهُ علينا النوم، وإنّي لأسمع قول مُعَتّب بن قُشَيْرٍ والنُّعاسُ يغشاني يقول: لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتِلْنا هٰهُنا».

(٧) كان عبد الله بْنُ أبي بن سلول قبل أُحُدٍ لَهُ مقامٌ يقومُه إذا جَلَس رسولُ الله ﷺ يومَ الجمعة وهو يخطب الناس، فيقول: أيُّها الناس، هذا رسولُ الله بين أظْهُرِكُمْ، أكرمَكُمُ اللَّهُ وأعزَّكُمْ بِهِ، فانْصُرُوهُ وَعزِّروه[1]، واسْمَعوا له وأطيعوا، ثُمَّ يجلسُ.

فلمَّا كان منه ما كان يومَ أُحُد، إذِ انْخذل عن الرسول ﷺ بنحو ثُلُثِ الجيش، قام يوم الجمعة ليقول كلامه الذي كان يقولُه قبل أُحُد، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحِيه، وقالوا: اجلِسْ أيْ عَدُوَّ الله، لسْتَ لذلِكَ بأهل، وقد صنَعْتَ ما صنعت.

فخرج يتخطّى رقابَ النّاس وهو يقول: والله لكأنّما قُلْتُ هُجْراً[2] أنْ قُمْتُ أُشَدِّدُ أمرَه؟

فلقيه رجُلٌ من الأنصار بباب المسجدِ فقال: ما لَكَ؟ وَيْلَك!

قال: قُمْتُ أُشدّد أمْره، فوثب عليّ رجالٌ من أصحابه يجذبونني ويُعَنِّفونَني، لكأنّما قلْتُ هُجْراً (وفي رواية: بَجْراً، أي: أمراً عظيماً) أنْ قُمْتُ أُشدِّدُ أَمْرَهُ؟

(١) عزّروه: أي: أعينوه وقَوُّوه وعظّموه ووقّروه.

(٢) الْهُجْرُ: الكلامُ القبيحُ.

قال: ويلكَ، ارجعْ يسْتَغْفِر لكَ رسُولُ الله ﷺ.

قال: والله ما أبتَغي أن يستغفر لي.

وهكذا كشف عن نفاقه أيضاً ببعض أقواله، وكان قد كشف عنه بانخذاله.

(٨) بدأ المنافقون بعد أُحُدٍ يَهْمِسُون بشأن الذين قُتلوا من المسلمين فيقولون: لو كانوا عندنا ولم يخرجوا إلى قتال المشركين في أُحُدٍ ما ماتُوا ومَا قُتِلُوا.

• • •

النص التاسع

من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنيّة

الآيــات مــن (١٥٢ ـ ١٥٨)

حول أحداث غزوة أحد وبعض ما كان من المنافقين فيها

يقول الله عزّ وجل في سورة (آل عمران):

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي

وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

* * *

ما في النصّ من القراءات المواترة (من الفرش)

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف [تَغْشَىٰ] أي: الأَمَنَةُ تَغْشَىٰ.

(٢) وقرأ البصريان: أبو عمرو ويعقوب: [قُلْ: إِنَّ الأَمْرَ كُلُّهُ لِلَّهِ] برفع لفظ «كُلُّ» وهو مبتدأ، وجملة [كلُّهُ لِلَّه] خبر إنَّ والمعنى واحد.

(٣) وقرأ ابن كثير المكي، وحمزة والكسائي وخلف: [واللَّهُ بما يَعْمَلُونَ بَصِير] بياء الغائب، وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني مرَّةً بالخطاب ومرَّةً بالغيبة، أو على التوزيع، فالتي بالخطاب للمؤمنين، والتي بالغيبة للكافرين.

(٤) وقرأ نافع وحمزة والكسائي وخلف: [مِتُّم] بكسر الميم الأولى، وهو وجه عربي لهذه الكلمة، يقال: مُتُّم ومِتُّم بالضمّ والكسر.

(٥) وقرأ كلُّ القراء غيرُ حفص: [خَيْرٌ ممَّا تَجْمَعُونَ] بتاء الخطاب، فَبَيْنَ القراءتين تكامل في الأداء البياني.

* * *

(١)
الفكرة العامّة للنّص

* بدأ النّصّ ببيان صدق وعد الله للمؤمنين بالنّصر والتأييد قبل أُحُدٍ، وهو الوعد الذي أخبرهم به الرسول ﷺ، إلاّ أنّه وعْدٌ كسائر وُعود الله لخصوص المؤمنين مشروط بالطاعة والتزام التكاليف، وعدم المعصية لله ولرسوله، ولـلأئمة والقادة من المؤمنين القائمين على حدود الله المطيعين لرسوله.

وببيان أنّ هذا الوعد قد تحقّق فعلاً في المرحلة الأولى من المعركة، لمّا التزم المسلمون بالطاعة، فلمّا عصى فريقٌ كثير العدد منهم طمعاً في الغنائم، وتركوا مواقع

القتال المحدّدة لهم، أمسك الله عنهم معونته، وصرفهم عن التمكن من الظفر بعدوّهم، وأوقع فيهم القتل فقُتِلَ من انتهت آجالُهم، ليكشف الصادقين في إيمانهم مريدي الآخرة، ويكشف في الواقع العملي مريدي الدنيا منهم.

* وأبانَ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ فيه أنّه عفَا عن المسيئينَ من أهل الإيمان منهم فضلاً منه، لأنهم مؤمنون عصَوْا وَنَدِمُوا وحَصَل لَهُمُ التأديب.

* وصَوَّر النصّ حالة هزيمة الأكثرين منهم سالكين في صعيد الأرض مسالك شتّىٰ، مع أنّ الرسُول ﷺ كان يدعوهم إليه، كي يثبتوا معه، وهو في موقِعِهِ من المعركة ضِمْنَ الفِرقة الّتي كانت أكثر ثباتاً، ملتفةً حولَهُ تُدافع عنه وتَفْديهِ بأنْفُسِها.

فلمّا فعلوا ذلك جازاهم الله عليه بتراكم الغمّ عليهم، وكان جزاءً تربويّاً من الله لهم يصحّ أن يسمّى ثواباً باعتبار ما يُفضي إليه، كي يتعظوا ويستبصروا الحقّ ومنهجَ الله، وليعْلَمُوا سُنّة الله في خلقه، فلا يحزنوا مستقبلاً على أشياء فاتتهم، ولا يحزنوا بسبب مصائب أصابتهم، وليَعْلَمُوا أنّ ما فاتهم أو ما أصابهم إنّما هو بقضاء الله وقدره أو إذنه وعلمه، لحكمةٍ أوحِكَمٍ هو يَعْلَمُهَا، منها التأديبُ والتربية والمجازاة على بعض المعاصي، فيكون ذلك من المكفّرات للذنوب، ولمّا كان الله عليماً خبيراً بما يعملون ظاهراً وباطناً، فكلُّ تصاريفه سبحانه وتعالىٰ حكيمة.

* وأبان الله عزّ وجلّ في النصّ أنّه بعد أن أنزل بالمسلمين في معركة أُحُدٍ ما أنزل، جزاءً على ما كان من كثير منهم من طمع بالغنائم، وما كان منهم أيضاً من معصية للرسول، أنزل على طائفة منهم وسيلةً من وسائل الأمن لقلوبهم. وهو النعاسُ الذي يصرف الأفكار والتصوّرات عن الاشتغال بما وقع للمسلمين في المعركة.

لكنّ طائفةً أخرى لم تَرْقَ إلى مستوى إسعافها بهذه الأَمَنَةِ من الله، فشَغَلَهُمُ الْهَمُّ على أنفسهم، وأخذت أفكارُهُمْ تتخبّطُ في ظنون باطلة، كالظنون التي تجلبها المفهومات الجاهلية لأصحابها، وأخذوا يُطْلقون عبارات تدلُّ على النفاق أو مرضٍ في القلوب أخف من النفاق، ويُخْفون في أنفسهم ما لا يُبْدونه للرّسول ﷺ، ويقول قائلون منهم: لو كان لنا من الأمر في صنع قرارِ الخروج إلى العدوّ أو عدم الخروج إليه شيءٌ، لكُنّا ألزمنا الرّسول بعدم الخروج، ولما قُتِلَ مَنْ قتل منّا في أُحُد.

وعلّم الله رسوله ما يبيّنُ لهم به المفهوم الدقيق للقضاء والقدر، السابقين للأحداث والوقائع، وأنّ كُل ميّتٍ ماتَ في أُحُدٍ قد ماتَ بأجلِهِ، وبعِلْمِ اللّهِ وإذْنِهِ، وأنّه لو لم يخرج المسلمون لمواجهة عدوّهم عند أحد، لَخرَجَ هؤلاء بسبب آخر غير قتال المشركين، فقُتِلُوا في المواضع التي قتلوا فيها، والتي كانت مضاجعهم التي هي مضاجِعُ موتهم الْمُشْبِه للنَّوْمِ، في انتظار بعثهم الْمُشْبِه لليقظة من النوم.

وعلّم الله رسوله أيضاً أن يُبيّن لهم حكمة ما حدث للمسلمين في أُحد، وأهم عناصر هذه الحكمة ما يلي:

(١) كشف ما في الصدور من إرادة الآخرة، أو إرادة الدّنيا، الأمر الذي لا يُكشف إلّا عند المطامع، والشدائد المؤلمات المحزنات.

(٢) تمحيص ما في القلوب من عوالقَ وشوائبَ، فالشدائد كالنار تنقي الشوائب، وتجمع المعدن الصافي إلى بعضه خالصاً نقيًّا.

(٣) تعميقُ إيمانهم بأنّ اللّهَ عليم بذات الصدور، مهما كانت صاحِبَةُ الصدور هذه التي هي من الرغبات والنيّات ونَحْوِ ذَلك خفيّةً مكتُومةً لم تظهر علاماتٌ لها على سطح السلوك، وأنّ ما يُجْريه الله سبحانه من أحداث ظاهرات لا نعلَمُ لها في الناس أسباباً ظاهرة، فلا بُدَّ أنّ لها أسباباً باطنةً كامنةً في الصدور، واللّهُ عليم بها، ويُجْري تصاريفه سبحانه بما يُلائمها.

* وجاء في النصّ بيانٌ عن الذين فرُّوا مُدْبرين من المعركة خوفاً على أنفسهم، وأنّ ذلكَ الفشَلَ والضَّعْفَ الذي حصل لهم، إنّما استزَلّهُمُ الشيطان له، وأزلَقَهُمْ فيه بسبب بعض الكسب الذي كسبوه، وهذا الكسبُ هو معصية الرسول طمعاً بالدنيا والغنائم.

ودلّ هذا على أنّ المعاصي التي تجرّ إليها النفس بمطامعها وشهواتها تُمكِّنُ الشيطان من الإنسان، فيستدرجُه إلى مواطن الزَّلَلِ، ومزالقِ الخيبة والفشل.

لكنّ الله تداركهم بعفوه، فهي من أُولَيات تجرباتهم، فعفا عنهم، إنّ الله غفورٌ حليم لا يستعجل بالعقوبة.

* وخاطب الله عزّ وجلّ المؤمنين في النصّ، فنهاهم عن أن يكونُوا في مفهوماتهم كالمنافقين وسائر الكافرين، وهي المفهومات التي عبّر عنها المنافقون إذْ قالوا بشأن الذين قُتِلُوا في أُحُد: لو كَانُوا عندنا ما مَاتُوا وما قُتِلُوا.

إنّها مقولَةٌ لا تَصْدُر إلاَّ من منابع الكفر بالله وقضائه وقَدَره، وهي مقولةٌ وخيمةٌ من آثارها توليدُ الْحَسْرَة في القلوب، والحسرةُ مِنْ مُعَجَّل العقاب على الكفر.

بخلافِ أهل الإيمان فإنّهم يُسَلِّمُونَ تسليماً، فتكون قلوبُهم مُطْمئنّةً سعيدةً خالية من الْحَسْرة وآلامها.

* وأتمّ الله عزّ وجلّ النصّ بعقائد إيمانية ذاتِ ارتباطٍ بأحداث موقعةِ أحد، وهي في موضوع الحياة والموت، وموضوع مجاري مقادير الله، وموضوع يوم الدين الذي يُحْشر فيه الناس للحساب، وفصل القضاء، والجزاء.

* * *

(٢)
المفرداتُ اللّغويّة للنّصّ

﴿صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾:

يقالُ لُغَةً: صَدَقَ فلانٌ في الحديث يصْدُق صِدْقاً، إذَا أخبر بما يُطابقُ الواقع.
ويقال: صَدَقَ فُلانٌ فلاناً في الحديثِ صِدْقاً، وصَدَقَهُ الْحَديثَ، إذا أنْبَأهُ بما يطابقُ الواقع فيستعمل لازماً، ومتعدياً لمفعولٍ به واحد، ومتعدّياً لمفعولين.

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾:

الْحَسُّ في اللّغة القتلُ الشّديد باستئصال، والمعنى بدأْتُم تقتلون فيهم قتلاً مُتتابعاً فيه معنى الغَلَبَة المستأصلة، والظاهر أنّ المراد من الحسّ هنا إزاحة العدُوّ وكشفُهُ عن مواقعه إلى ما بعد مَحَطّ رِحَالِه حَيْثُ توجَدُ الغنائم.

﴿بِإِذْنِهِۦٓ﴾:

أي: بِعِلْمِه وإباحَتِهِ وتمكينه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾:

«إذا» هُنا اسم زمان مع تجريده من معنى الشرط، أي: حتى وقتِ فَشَلِكُمْ، وحين تُجرَّدُ من معنى الشرط تكون لمطلق الزمن، فلا تختصّ بالمستقبل.

والْفَشَلُ: هُو الفزع، والجبن، والضعف، والوهن.

وتَنَازَعْتم: التنازُعُ هو التّخالُفُ والتخاصُمُ، وتَدافُعُ الحجج في الخصومة.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾:

أي: ردّكم الله وحوّلكم عن التسلُّط عليهم بالقتل.

﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾:

أي: ليكْشِفَ مَنْ يُرِيدُ الدّنيا منكم ومن يريد الآخرة، ومن يَصْبِرُ صادقاً محتسباً أجره عند الله، ومن يَفِرُّ مُصْعِداً في الأرض لا يلوي على شيء، يبتغي النجاة بنفسه.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾:

أي: إذْ تَنْطَلِقُون فارّين هائمين في كلّ اتّجاه، في الوادي، ونحو المدينة، ونحو الجبل، والإصعاد في اللّغة: هو الذهابُ في الأرض والإبعادُ فيها، لأنّ وجْهَ الأرض يُسمّىٰ صعيداً، وكذلك الترابُ يسمّىٰ صعيداً.

وجاء الخطابُ عامّاً والمراد مَنْ فرّ وأصعَد، نظراً إلى أنّ العدد الأكثر قد فعلُوا ذلك.

﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾:

أي: ولا تَعْطِفُون على أحدٍ منكم، ولا يَلْتَفِتُ بعضُكُمْ إلى بعض، لأنّ كلَّ فارٍّ قد طلَبَ النجاة لنفسه.

ومن عادَةِ المنصرف عن مكانٍ ما، أو أيّ شيْءٍ، إذا خطر في باله ما انصرف عنه أو أراد الرُّجوع إليه، أو الانضمام إلى بعض جماعته المنْصَرفين مثله، لوى عنقه وجسمه أو لوىٰ عُنُقَ دابّته، أو لوىٰ حركة سيره منعطفاً إلى من ينضمّ إليه، لكنْ إذا انشغَلَتْ ساحَةُ تفكيره بالفرار والنجاة فقط لم يَلْوِ على أحد.

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾:

أي: يناديكم إليه وهو في الفئة الأخرى منكم الذين ثبتوا فلم يفرُّوا.

﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾:

أي: فجازاكم على فراركم، والأصل في الثواب الجزاءُ على الطاعة، قيل: واستُعمِل هنا بمعنى مُطْلَقِ الجزاء، أقول: أرى أنَّ في اختيار فعل «أثاب» هنا معنى الترفُّق بالمسلمين، إذ ما حصل لهم لم يكن في الحقيقة عقاباً، وإنما كان للتربية والتأديب، وما يحصل به ذلك هو في حقيقته بمنزلة الثواب، لأنه لِخَيْر من يُرادُ تأديبه وتربيتِه، فإذا تأدَّبَ جرَّه ذلك إلى اغتنام الثواب العظيم.

والنُّصوص القرآنية التي جاء فيها لفظ «ثواب» وفعل «أثاب» جميعها جاءت بمعنى الجزاء على الطاعة وفعل الخير ممَّا يُحِبُّ الْمُثابُ أن ينالَهُ لَا ممَّا يَكْرَهُ، باستثناء هذه الآية، وبالفهم الذي فهمناه نقول: إنَّ الفعل لم يخرج عن أصل معناه، بالنظر إلى الغاية البعيدة المرادة منه.

واستعملتْ كلمةُ «مَثُوبَة» في القرآن مرتين:

الأولى: التي في الآية (١٠٣) من سورة (البقرة/٢) وهي بمعنى الجزاء بخير.

والثانية: التي في الآية (٦٠) من سورة (المائدة/٥) وهي فيما أرى بمعنى المكانة، لأنَّ أهل الكتاب المرادِين في الآية هم من اليهود الذين كانوا يستهزئون من المسلمين إذا نادَوا إلى الصلاة، ويتخذون عبادتهم لربهم هزُواً ولعباً، فقال الله لهم:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾.

فهم يستهزئون من مكانة المسلمين في الصلاة يسجدون إلى ربِّهم، وهم شرُّ مكانةً عند الله، فقد لعنهم وغضب عليهم وجعلَ منهم القردة والخنازير وعَبَدَةَ الطاغوت. وجاء قوله: ﴿أولئك شرٌّ مكاناً﴾ دليلاً على المراد من «مثوبة» والله أعلم.

وفعل «ثَابَ» هو بمعنى رجع، والمكانُ الذي يُرجَعُ إليه مثوبٌ إليه، والمكانةُ التي يُرجعُ إليها: مَثُوبة، أي: مرجوعٌ إليها.

وجاء فِعْلُ (ثُوِّبَ) بالبناء للمجهول، وهو من ثَوَّبَهُ بمعنى عَوَّضَهُ، فقال تعالى في سورة (المطففين/٨٣):

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

إنّهم كانوا في الدّنيا يضحكون من الذين آمنوا، أمّا في الآخرة فالـذين آمنوا من الكفّار يضحكون، فهل عُوّضُوا على ضحكهم من المؤمنين في الدنيـا، بضحك عليهم من المؤمنين في الآخرة؟

وبهذا استوفينا كُلَّ ما جاء هذه المادة، ونستطيع بعد هذا السبر والتحليل أن نقرّر أنّ الثواب في القرآن قد استعمل في الجزاء بما هو محبوب وخير.

﴿غمّاً﴾: الغمُّ: الكرب، وسُمِّيَ الكربُ غمّـاً لأنّـه يشتمـلُ على القلب ويُغلّفـه ويَسْتُرُهُ بالمؤلمات.

﴿غمّاً بغمّ﴾: أي مُلْتَبِساً ومُلْتَصِقاً ومُتّصلاً بغمّ آخر. أو بسبب ما أنزلوه بـالرّسـول والمؤمنين الصادقين معه من غمّ.

﴿أَمَنَةً﴾: أَمْناً، مصدر «أَمِن» أي: اطمأنَّ ولم يخف، فهو آمِنٌ وأَمِنٌ وأَمِينٌ.

﴿إلى مضاجعهم﴾: المضاجع جمع مَضْجَع، وهو مَوْضِعُ الضُّجُوع، والضجُوع وَضْعُ الجنب على الأرض أو نحوها للراحة أو النوم. شُبِّهت المواضع التي ارتمىٰ عليها شهداء المسلمين في أحدٍ أو دفنوا فيها بـالمضاجـع الّتي تكونُ للرّاحـة أو النوم، لأنّهم في تمام الراحة بعْدَ استشهادهم، وكأنّهم نائمون، وحينما يُبْعَثُون فكـأنّهم ينهضون من مضاجع راحَتِهِمْ ونَوْمِهِم.

﴿وليُمَحِّصَ مَا في قُلوبِكُمْ﴾: تمحيصُ الشيء تخليصُه مما يُخالِطُهُ ممّا لا خيـر فيه للغاية المرادة منه.

فـالممحّصُ من الخيـل والإبـل هـو الشـديـد الْخَلْقِ، الـذي ذَهَبَتْ من جسمـه الشُّحوم وعناصر الترهُّل والضّعف، فصار لحماً مكتنزاً قويّاً.

والوتَرُ الْمُمَحَّص هُو الذي أزيل عنه الشَّحْمُ لفتله وإحكـام إبرامـه. ويقال مَحِصَ الحَبْلُ يَمْحَصُ مَحصاً فَهُوَ مَحِصٌ ومَحِيصٌ، إذا ذهَبَ وَبَرُهُ حتّىٰ صار أملَسَ أَجْرَدَ.

﴿تَوَلَّوْا﴾: أي: أدْبَروا فارّين مُنْهَزِمين، والتولّي إدارة الظهر وإعطاءُ الدُّبر. ويَتْبَعُهُ غالباً الانصراف والابتعاد.

﴿اسْتَزَلَّهُمُ الشيطان﴾: أي: استدرجهم حتى أوقعهم في الزَّلل، أوحملهم على الوقوع في الزّلل بالوسوسة والتسويلات، والاستدراج.

الزَّلَلُ: الخطأ في الرأي أو النيّة أو القول أو العمل الباطن أو الظاهر.

والزَّلَلُ: الذنب والإثم، وأصل الزَّلَلِ الانـزلاقُ في طين أوْعَنْ صخرة أو نحو ذلك، والوقوع بسبب ذلك في مزلقٍ غير محمود، ومنه قولهم: زلّت قدمه إذا زَلِقَت.

يُقَال: زَلَّ يَزِلُّ وَيَزَلُّ زَلاًّ وزَليلاً ومَزَلَّةً، إذا زلق.

ويُقَال: أزَلَّ الرَّجُلُ نِدَّهُ عَنْ مَقَامِهِ إزْلالاً، إذا دفع به. حتّى زَلِقَ، وكذلك أَزَالَهُ.

وصيغة «اسْتَزَلَّ» من معانيها طَلَبُ تحقيق مضمون الفعل، والسَّعْيُ لهُ باتّخاذ الوسائل، حتّى يحصل المطلوب، وهذا ينطبق على ما يفعله الشيطان دواماً في الإغواء، وما فعله في الذين أوقعهم في الزَّلَلِ يوم أُحُد.

﴿قَالُوا لإخوانهم﴾: أي: لأجْلِ إخوانهم، أو عن إخوانهم، فاللّام للتعليل، أو هي بمعنى «عن».

إذا ضربوا في الأرض: الضرب في الأرض الإبعادُ فيها سَيْراً، وهو كناية عن السفر.

﴿غُزًى﴾: جَمْعُ غازٍ، والغازي هو الذي يقصِدُ عدُوَّهُ للقتال.

﴿حَسْرَةً﴾: الْحَسْرَةُ أَشَدُّ النَّدَمِ، وبالغ الألم على ما فات من المحابّ، بسبب من الأسباب.

(٣)
ما رُوي في سَبَب النزول

اتّفق شيوخ أهل التفسير من السَّلَف على أنّ هذا النصّ قد نزل بمناسبة الأحداث التي جرت في موقعة أحد.

والآيات فيه ظاهرةُ الاتفاق مع أحداث هذه الغزوة.

* * *

(٤)

مع النصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾.

في هذا القول إشارةٌ إلى الوعد الرّبّاني بالنصر قبل معركة أحد، وهو ما أخبر به الرسول ﷺ المسلمين قَبْلَ بدءِ المعركة، فقال لهم:

«إنَّكُمْ ستظهرونَ فلا تأخذوا مما أصَبْتُم من غنائمهم شيئاً حتّى تفْرَغوا».

وقال للرماة:

«لا تَبْرحوا مكانكُمْ إنْ رأيتُمونا قد هزمناهم فإنّا لنْ نزال غالبينَ ما ثَبتُّمْ مكانكُم».

وعن البراء أنه قال لهم: «لا تبرحوا مكانكم، إنْ رأيتُمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإنْ رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعِينُونا».

وقد تحقّق النصر للمؤمنين مُدَّةَ محافظتهم على الطاعة لأوامر الرسول ﷺ، وصدَق الله وعده، ونَصْرُ اللّهِ لعباده المؤمنين مشروط بالطاعة ومُلازَمَةِ منهاجه.

لكنّ أكثر المسلمين في المعركة طمعوا في الغنائم فعصَوْا أمرَ الرّسول، ولا سيما معظم الرماة، فأقبلوا على جمع الغنائم قبل أن يأذن لهم الرسول ﷺ.

وكانوا قبل المعصية يَحُسُّونَ المشركين حَسّاً، قتلاً وضرباً وإزاحة لهم عن مواقعهم، ومَحَطِّ رِحَالِهم، الأمر الذي أغراهم بجمع الغنائم الوفيرة، ونلاحظُ في معنى الْحَسِّ هنا، هذِه الإزاحةَ عن مَحَطِّ رحالهم المستأصلَةَ لِمُقَاتِلَتِهم بالإبعاد عن متراكمات الغنائم، ولا يَقْتَصِر الحسُّ على مجرّد معنى القتل، لأنّ قتلى المشركين لم يَصِلُوا إلى المقدار الّتي تُشَمُّ منه رائحة الاستئصال بالقتل، والحسُّ فيه معنى الاستئصال، فهو استئصالٌ لهم بإزاحتهم مُنْكَشِفِين فارّين عن محطِّ رحالهم.

وهـذا الحسّ من المؤمنين للمشـركين لم يتحقَّقْ لهم إلّا بـإذنٍ من الله، فلولا أنْ أذن الله بذلك إذْناً دينيّاً، وإذْناً قَدَرِيّاً بالتمكين، وتيسير الأسْباب، ما استطاع المسلمون أن يَتَسَلَّطوا بسيـوفهم على أعـدائهم، ويَحُسُّـوهم حتَّىٰ أجْلَوْهُمْ عن موقعهم، وخلّفـوا وراءهم غنائمهم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ﴾.

أي: استمرَّتْ ظاهرةُ توالي حَسِّ المؤمنين للمشـركين في أُحُدٍ حتّىٰ حَلَّ الْفَشَلُ ـ وهو الضعف والجبنُ والْفَزَعُ والوهن ـ بمداهمة كتيبة خـالد بن الـوليد على الخيـول من وراء ظهـورهم، إذْ تَرَكَ مُعظم الـرُّماة مـواقعهم، وقـد كـانـوا فيهـا دِرْعـاً لـظهـور المسلمين.

وقد حصل الأمر وفق الترتيب التالي:

أوّلاً: عصَىٰ معظم الرُّماة، فتركُوا مواقعهم حين أراهم الله ما يُحبُّون من النَّصـر، ووجود غنائم العدوّ سهلة التناول، وطَمِعَ أكثرُ المسلمين في المعركة بالظفر بها، قبـل أن يأذن الرسول ﷺ لهم بذلك، وجاء التعبير عن هذا بقوله تعالى:

﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾.

ثانياً: وقع الخلاف بين المسلمين في الأمر القائم حول متابعة القتال والثبات في المواقع وفق أوامر الرسول، أو ترك المواقع والإسراع إلى جمع الغنائم، ووقع الجـدال فيما بينهم، فتفرّقت وحدةُ الكلمة، ووحدة الصف، وجاء التعبير عن هذا بقوله تعالى:

﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾.

ثالثاً: دبَّ الضَّعْفُ في صفوف المسلمين بسبب التنازع وتفـرّق الكلمة، وتمـزّق الصف.

وهجم العدوّ عليهم من وراء ظهورهم، فـاضطربـوا، واختلّ نـظامهم، وأصابهم

الفزع، ورأَوْا أنّهم مَحْصُورون مُحاطون من أمامهم ومن خلفهم، ووقع القتل فيهم، فجَبُنوا، وَعَدَوْا فارّين، وكان هذا هو الفشل الذي حلّ بهم، وجاء التعبير عنه بقوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾.

رابعاً: وكان السبب الداخليّ في النفوس الذي جرّ إلى المعصية والتنازع والفشل، هو وجود فريق كثير فيهم أخذتْ نُفُوسُهُمْ تدور دواليبها حول إرادة الدّنيا، أي: إرادة الحصول على الغنائم والتسابق إلى حيازتها. وجاء التعبير عن هذا السبب النفسيّ بقوله تعالى:

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾.

فالتّرتيب الّذِي جَرَىٰ في الواقع كما يلي: إرادة الدنيا، فمعصية، فتنازع، ففشل.

ولكِنْ: لِمَ انْعَكَسَ هذا الترتيب في البيان القرآني؟

الذي يظهر لي أنّ الغرض الدلالةُ على أنّ ظُهُورَ المسلمين على عدوّهم قَدِ اسْتَمرَّ حتّىٰ حلّ بهم الفشل، ولم تَتَحوَّلْ رياحُ النّصر عنهم إلى عدُوّهم عند المعصية والتنازع في الأمر، بل أخذ الأمر يتَسَلْسَلُ على مراحل، ولو انعكسَ الترتيبُ في النصّ لأوْهَمَ أنّ ظهور المسلمين على عدُوّهم قد توقّف منذ لحظة معصية الرُّماة، وهذا خلاف الواقع، وخلافُ سنّة الله في الأحداث.

والنّصُّ يهدف إلى الإعلام بأنّ توقف النّصر وتحوُّلَ رياحه قد حصلا بعد حصول الفشل.

فالدّقّةُ في التعبير تقتضي أن يأتي البيانُ دالاً على أنّ حركة الظُّهور على العدُوّ قد توقفت عند حصول الفشل.

إذن: فقد كان لهذا الانتصار نهايةٌ توقّف عندها، وهذه النهاية مقرونة بحصُول الفشل، فالتعبير القرآنيُّ دالٌّ على هذه الحقيقة بدقّة بالغة، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾:

أي: حَتَّى وقْتِ فَشَلِكُمْ.

ولكن لاَ بدَّ أيضاً من بيـان التراكُمـاتِ السببيّة الَّتِي أدّت إلى الفشـل، باعتبـارها أسباباً متتابعةً لحصوله.

فذكر الله عزّ وجلّ السبب المباشر للفشل أوّلاً، وبعده ذكر السبب الذي كان قبله فأدّى إليه، وبعد ذلك ذكر السّبب النفسي الإراديّ الداعيَ، الذي تتوقّفُ عنـده سلسلة الأسباب بداهةً.

* أمّا السبب المباشر للفشل فهو التنازع في الأمر، ولذلك جاء ترتيبه بعـد ذكر الفشل مباشرةً، فقال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾.

وفي نصّ سـابق في النزول لهـذا النّصّ أبان الله عـزّ وجـلّ للمؤمنين أنَّ التنـازُعَ يؤدّي إلى الفشل، إذْ قال الله تعالى لهم في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

فكان هذا البيان بعد غزوة بدر بمثابة التوطئة الإنذاريّة الَّتِي كـان على المسلمين في أُحد أن يضعوها نُصْبَ اعْيُنِهم، حتّىٰ لا يتنازعُـوا فيفشلُوا، ولاَ يعْصُوا الله ورسـوله، ومتى فشلوا ذهبت ريحُهُمْ، أي: ذهبت قُـوَّتُهُمُ المعنويّـة التي فيها سِـرُّ انتصارهم على أعدائهم في المعارك.

فما جرى للمسلمين في أُحُدٍ قد كان ظاهرةً من ظواهر سُنن الله، الَّتِي أبانهـا الله لهم في كتابه بعد غزوة بدر الكبرى.

* ولكن ما سبب التنازع الذي حصل في أحد؟

الجواب: معصيةُ من عصىٰ من المسلمين أمرَ الرّسُـول، ومخالفتهم لإخـوانهم، وتمزيقُهُمْ للصفّ، فجاء قـوله تعـالى: ﴿وعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مـا أراكُمْ مَا تُحِبُّـونَ﴾ عقب قوله تعالى:

﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾.

فحصل بهذا الإشارةُ إلى أنّ العصيان هو سَبَبُ التنازع.

* حسناً، فما هو السَّببُ النفسيُّ الإراديُّ الداعي الذي تنتهي عنده سلسلة الأسباب، والذي أدّى إلى معصية من عصىٰ منهم؟

الجواب: إرادةُ مطامع الدنيا من العصاة، وإنْ كان الفريق الآخر يريد ثواب الآخرة. فجاء قوله تعالى في آخر بيان سلسلة الأسباب:

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾.

وهكذا جاء الترتيب في البيان القرآني كامل الدّقة في الأداء، ومطابقاً لما يرادُ الدلالةُ عليه.

يضافُ إلىٰ ذَلِكَ أنَّ التَّسلْسُل المنطقيّ لبحث أيَّةِ ظاهرة، وكشف الأسباب التي أدّت إليها، يقضي بأنْ تُحدَّد الظَّاهِرَةُ أوّلاً، وبعد ذلك يُنْظر إلى السبب المباشر الذي أدّىٰ إليها، ثم إلى السبب الذي أدّى إلى السبب المباشر، وهكذا تَسَلْسُلاً مع الأسباب، حتّىٰ يَنْتَهِيَ البحث عند السبب الأوّل، الذي تنتهي عنده عقلاً سلسلة الأسباب.

والإرادةُ ودواعيها عند ذوي الإرادات الحرّة، تُعْتَبر هي السبب الأوّل الذي تَقِفُ عنده عقلاً سلسلة الأسباب، ولا يُبْحَثُ بعدها عن سبب آخر.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾.

أي: وبعد توقُّف حركةِ الظُّهُورِ والتّسلُّط عن العدوّ بسبب حصول الفشل، وبَعْدَ مرورِ مُدَّةٍ من الزمن حصل فيها وُجُومٌ واضطرابٌ ضِمْنَ الْمَعْرَكةِ، صرفكم اللَّهُ عنهم. نَفْهَم هذا من العطف بحرف العطف (ثُمَّ) الدّالّ على التراخي.

وبهذا الصَّرْف انعكَسَتْ رِياحُ النصر بتقدير الله وحكمته، لكَشْفِ أحوال المسلمين مُريدي الدنيا، ومُريدي الآخرة، وكَشْفِ الصّابرين الصّادقين، وغيرهم، كلٌّ بحَسَبِ مَرْتَبَتِه في الإيمان والصِّدقِ مع الله في المعركة، فالمصائبُ كَواشِفُ، والشّدائد كواشفُ، والمطامع كواشفُ، وأصْلُ الامتحان أنْ يوضع الْممتَحَنُ في المواقف التي تَكْشِف حقيقَتَهُ، إرادةً، أو خُلُقاً، أوْ استعداداً، وتكشف صدقه وإيمانه، أو ما دون ذلك من درجات، حتّىٰ أدنىٰ الدركات الّتي هي دركة النّفاق.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ والابتلاءُ الامتحان للكَشْفِ.

وهذا الامتحان يستلزم التربية والتأديب، فالإنسان كثيراً ما يكون امتحانه الذي ليس هو الامتحان الأخير لِتَرْبِيَته وتأديبه بما يجب أو ينبغي أن يكون عليه.

وقد أثبت هذا الامتحان أن معظمهم لم يستطع الثبات عند تحوُّل رياح النصر عنهم، لكنّه قد كان لهم جميعاً دَرْساً تربويّاً تأديبيّاً رائعاً، أعدَّهم إعداداً ممتازاً للمعارك القادمات.

وإنّما جعل الله عزّ وجلّ هذا الصَّرْفَ للمؤمنين عن الظهور على عدوّهم ابتلاءً، ولم يجعله جزاءً، لأنّه سبحانَهُ وتعالَىٰ قد مَنَحَهُمُ العفو، دَلَّ على هذا قولُ الله لهم عقب بيان غرض الابتلاء:

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

والعفْوُ أرْقَىٰ مرتَبَةً من الغفران، لأنّ الغفران سَتْرٌ، أمّا العفو فهو مَحْوٌ للأثر.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾.

انتقلَ النّصّ بهذا إلى بيان مرحلةٍ تاليةٍ من مراحل المعركة، وهي مرحلة انْهزام معظم المسلمين، الأمر الذي ما كان ينبغي أن يصدُر منهم، بعد أن أدركوا أنّ المعصية والطمع في الغنائم قد حوّلا عنهم رِيَاحَ النّصر.

أي: اذكروا عند كل قتال لعدوّكم حالكم في غزوة أحد إذْ كنتم تُصعِدُونَ في الأرض هائمين منطلقين منهزمين في شتّى الاتجاهات، في الوادي، وشطر المدينة، ونحو الجبل، ولا تَلْوُونَ مُنْعَطِفين على أحَدٍ من الثابتين أو الفارين، يَطْلُبُ كُلُّ واحِدٍ منكُمُ النجاة بنفسه، فلا يلتفت بعضكُمْ إلَىٰ بعض، ولا تستَجِيْبونَ لنداء الرسول الذي كان يناديكُمْ: إلَيَّ عبادَ الله ارجعوا، إليَّ عِبَادَ اللَّهِ ارْجِعُوا، إليَّ عِبَادَ اللَّهِ مَنْ يَكِرُّ فَلَهُ الجنَّة، يُنَاديكُمْ وهو ثابت في موقعه مع الفئة الثابتة المدافعة عنه، وهي الفئة الأخرىٰ من فِئَتَيْكُمْ، الفئةِ المنهزمةِ، والفئةِ الأخرى القليلة الثابتة التي لم تفرّ ولم تَتَزلْزَل، بل صَمَدت وصَبَرَتْ.

وجاء استعمال الفعل المضارع في حكاية أمْرٍ مضىٰ لتصوير ما وقع كأنه حدَثٌ يقع.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾:

أي: فجازاكم جَزاءَ تأديبٍ وتَرْبيةٍ فأنْزَل بكم كَرْباً محيطاً ضاغطاً على القلب وكلّ النفس موصولاً وملتبساً وملتصقاً بكرب آخر (فالباء للملابسة أو الإلصاق).

أو: فجازاكم جزاء تأديب وتربية فأنْزَل بكم كَرْباً محيطاً ضاغطاً على القلب وكُلّ النفس بسبب ما أنزلتموه بالرسول والثابتين معه من الصادقين، من غَمّ إذْ طمعتم بالغنائم فعصيتم فلم تَثْبُتوا وانهزمتم ولم تستجيبوا لنداءات الرسول ﷺ: (فالباء بمعنى المقابلة أو السببيّة).

وهذا الجزاء يصحّ تسميتُه ثواباً باعتبار غايته التأديبية التربويّة، المفضية إلى التزام منهج الله، فتحصيلِ الأجر العظيم، والثواب الجزيل.

وعلى المعنى الأول، المأخوذ من كون الباء للملابسة أو للإلصاق يكون الغمُّ الأول هو ما حصل لهم بسبب ما نزل بالمسلمين من جراحة، وبسبب مقتل إخوانهم الذين قُتِلوا، وفوات الغنائم التي كانُوا قد بدؤوا يجمعونها، ويكون الغمُّ الثاني هو

ما حصل لهم بسبب الشائعة التي قيل فيها: إنّ محمّداً قد قُتل، فكان هـذا الغمّ أشدّ عليهم من الغمّ الأوّل، ثم ما كان من انعطاف ثُلّةٍ من المشركين على فريق منهم وهم في الشِّعْبِ من الجبل، يَبْغُون استئصالهم، غير أن الله قد أظفر المؤمنين بإنزال جماعة المشركين الذين عَلَوُا الْجَبَلَ بقيادة أبي سفيان.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

في هذا بيانٌ للغرض التربويّ من مجازاتهم بالغمّ على ما كان منهم، ونلاحظُ أنّ بيان الغرض التربويّ هنا موافق للمرحلة التي وصلَتْ إليها مَسِيرَةُ المعركة.

لقد جاءت الحركة متسلسلةً ملائمةً لتطوُّراتِ الواقع الذي تـدرّجَ فيه المسلمون في معركة أُحُد.

إنّ صرفَهُمْ عن عدوّهم أوّلاً قد كان لامتحان إيمانهم وثباتهم، فلما لم يثبتُوا جازاهُمُ اللَّهُ غَمّاً بغَمّ، ولكنْ لم يكن هـذا الجزاءُ عقاباً في الحقيقة، بل هو أسلوب تربَويٌّ تأديبيٌّ.

والْغَرضُ التربويُّ التأديبيُّ هنا: أنْ تتأصّلَ وتتعمَّقَ في قلوبهم ونفوسهم الطُّمَأْنينة، والتسليمُ لله فيما تجري به مقاديرُهُ الحكيمة، ولوْ جاءت على خلاف ما يَهْوَوْنَ ويشتهون، ولو جاءت كذلك في صورة مصائب ونكباتٍ، أو فواتِ مطامع ورغائب كانُوا يُحِبُّونها ويَرْجُونها.

فالإيمان الصادق الراسخ يستلزمُ ألّا يكونَ قِتالُهم طمعاً في الغنائم، حتّى يتهافتوا عليها، إذا ظنُّوا أنّهم ظافرون بها، ويتركوا واجبات الثَّباتِ والطَّاعة.

والإيمانُ الصادق الراسخ يستلزم أن يُسلّموا لحكمة الله دائماً فيما تجري به مقاديره، سواءٌ نزل بهم ما يُحِبُّونَ أو ما يكرهون، وأنْ يعلَمُوا أنّهُ هُو الخير لهم، ومتَىٰ رسَخَتْ في قلوبِهِمْ هذه الحقيقةُ لم يحزَنُوا على ما فاتهم مما يحبُّون، كفوات الغنائم،

ولم يحزنُوا على ما خَسِرُوهُ بسبب المصائب التي نزلت بهم، كَجِراحَة أبدانهم، وقتل إخوانهم.

فما اكتسبُوهُ من تربيةٍ إيمانيَّةٍ فيما نزل بهم، ومن إعداد نفسيٍّ لِمُسْتَقبل سعيدٍ ظافرٍ، أعظمُ بكثير ممّا فاتَهُمْ، وممّا خسروه فيما أصابهم.

وأشار قولُ الله عزّ وجلّ في آخر الآية:

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٥٣﴾.

إلَىٰ أنّ تصاريفه تعالى في عطائه ومنعه، ونَصْرِهِ وعَدَمِ نصره، مظاهِرُ لحكمته المستندة إلى علمه وخبرته، والخبرة هي العلم بالشيء بعد تجربته وامتحانه في الواقع، وهذا العلم يشمل الدقائق والخفايا عن تجربة.

إنّه سبحانه وتعالى خبيرٌ بما يعملون، هذه حقيقة من حقائق صفات الله، من لوازمها ما يلي:

- إذا كان ما يعملونه يقتضي بحسب حكمته أن ينصُرَهُمْ نَصَرهم.
- أو يقتضي بحسب حكمته أن يصرفهم عن عدوّهم صَرَفَهُم عنه.
- أو يقتضي بحكمته أن يُنْزِلَ الغمَّ فيهم أَنْزَلَ الغمَّ فيهم.

إذن: فليرجعوا إلى نفوسهم فَلْيَلُومُوها، ولِيُسَلِّموا للهِ في قضائه وقدره، ولْيَعْلَمُوا أنّ الله عزّ وجلّ لا يَقْضِي إلاّ ما فيه الحكمة والخير.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾.

في هذا بيان أنّ الله عزّ وجلّ تَدارَكَ أَهْلَ الإيمان الصادقِ الثابتينَ والذين ثابوا إلى رشدهم بمشاعر الأمن والسكينة بعد الغمّ الذي غَلَّفَ قُلوبهم.

وقد دبَّتْ إليهم مشاعر الأمن هذا في نُعاسٍ يَغْشَىٰ، فيصرفُ الأذهانَ عن التفكُّرِ فيما نزل بهم من مصيبة، وعن الوساوس المزعجة، ويصرفُ النُّفُوسَ عن مشاعر

الخوف والقلق والاضطراب، وعن الاهتمام بذواتهم وأهليهم، فالنوم لا يأتي إلاّ مع الأمن، أمّا مع الخوف والذعر والقلق وثورة الأفكار فإنّ النَّوْمَ لا يَجِدُ له سبيلاً.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا . . . ﴿١٥٤﴾﴾.

وفي هذا بيانٌ عن طائفة المنافقين وأهل الريب وضعفاء الإيمان، فدلَّ على أنهم بَقُوا في الغمِّ، لم تأتهم الأمَنَةُ من الله، إذْ لمْ يُسَلِّموا أمْرَهُمْ لله ومقاديره، وحِكْمَتِه في تصاريفه، فاتَّجَهَتْ كُلُّ أفكارهم وتصوُّراتِهِمْ للاهتمام بأنفسهم، وما نزل بهم وبإخوانهم، وما يَخافُون منه على أنفسهم في المستقبل، بعد هذا الذي نزل بهم، فأهَمَّتْهُمْ أنفسُهم، ونَسُوا أمر الدين وغايات الجهاد والدّعوة، وواجباتهم نحو ربّهم، وما تَتَطلَّبُ منهم طاعتُه ورضوانه.

وبذلك ثارَتْ في قلوبهم الشُّكوك، واهتاجَتْ في نفوسهم الآلام، وصاروا يستعيدون في أفكارهم وحركات قلوبهم ونفوسهم الأمور التي كانت قد جَرَتْ قبل خروجهم من المدينة إلى المعركة، ويسترجعون أنهم كانُوا من الفريق الذي لم يكُنْ يرىٰ الخروج إلى العدوّ، فلم يَعْمَلِ الرّسولُ برأيهم، وإنّما عمل برأي المتحمِّسِينَ للخروج.

إنّهم طائفةٌ قد تراكبت عليهم عدّة أمراض:

المرضُ الأول: مرضٌ نفسيّ، يتجلّىٰ بشدّة خوفهم، وبتوجُّه كلّ همِّهم نحو أنفسهم، ومستقبل أمرهم في المعركة وبعدَها، فَهُمْ في همِّ النجاة وبلوغهم مأمنهم، وهمِّ احتمال تعاظم أمر المشركين وسائر الكافرين، وتضاؤلِ أمْر المسلمين، حتّى يكون للمشركين سلطانٌ يستأصلون به المؤمنين، وكلّ الذين معهم، يضاف إلى ذلك هَمُّ ما نزل بهم من جراحة.

المرضُ الثاني: مرضٌ فكريٌّ اعتقاديٌّ، فما نـزل بالمسلمين من هـزيمة جعلهم يـظنُّون بـالله غير الحقّ ظنَّ الجـاهليّة، أيْ: جعلهم يـظنُّونَ بـالله ظنُوناً باطلة، منـافية لقواعد الإيمان بالله، وهذه الظُّنون مشابهة لظنـون الجاهليـة التي لا تستند إلى أسـاس إيمانيّ صحيح.

وقـد يكون من هـذه الظُّنـون شكُّهُمْ في تـأييـد الله للمؤمنين، وشكُّهُمْ في وعْـود النّصر الذي تكفَّلَ الله به لأوليائه على أعدائه، وأشباه هذه الـظنون البـاطلة، التي أثبت الواقع بعد ذلكَ خلافها.

المرض الثالث: ما كان من آثاره إعلانُهم التَّلْويم على الخروج إلى أُحُد، وأنّ البقـاء في المدينـة كان هـو الأعقلَ والأحـزم والأصحّ رأيـاً. ولكنّ الـرسـول لم يعمـل برأيهم، إذْ لم يجعلْ لهم من الأمر شيئاً بحسب تصوّرهم، مع أنّـه ﷺ استشار وعمـل برأي الأكثريّة، وقد كان على خلاف رأيه.

وفي التعبير عن هذا التلويم جعلوا يقولون مُكـرِّرين مقالتهم: «هَـلْ لَنَا من الأمْـرِ مِنْ شَيءٍ؟» أي: لم يكُنْ لنـا من الأمر أقـلُّ شيء، ولم يكُنْ لرأينـا اعتبار، ونحن أهـل العقل والرأي والحكمة. دلّ على التكرير فعل ﴿يَقُولُونَ﴾.

وكـان لا بُدَّ من ردّ هـذه المقالة الْمُعْلَنَة، فخـاطب الله رسوله بقولـه: «قُلْ: إنّ الأمْـرَ كُلَّهُ لله»، أي: ليس الأمر لكم، ولا لي، ولا للفريق الآخر الـذي كان متحمّسـاً للخروج، بل إنّ الأمْـرَ كلَّهُ لله، ومن منهاجـه العمل بـالشورى والأخـذ برأي الأكثـريّة المؤمنة، ما لم ينزل من لدنه أمْرٌ خـاصٌّ. وقد اقتضت حكمتُـه سبحانـه فوق ذلـك بأن يمتحن جماعة المسلمين في هذه المعركـة، ويُمحِّصَ ما في قلوبهم. فجـرت مقاديـره على ما قد وقع فعلاً.

المرض الرابع: إنكارهم في قلوبهم لركن الإيمان بالقضاء والقدر، وأنّه بمحـابّه ونِعَمِـه، ومكارهـه ومَصَائبِـه من الله عزّ وجـل، أو شكُّهم في هذا الـركن، مع إيمـانهم وتعلّقهم التامّ بالأسباب. دلّ على هذا قول الله تعالى في النصّ:

﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ﴾.

وكان لا بُدَّ أيضاً من ردّ هذه المقالة التي ردّدُوها في نفوسهم ولم يعلنوها بألسنتهم أمام المسلمين، وكان لا بدّ من بيان عنصر من عناصر العقيدة الإيمانية في القضاء والقدر، فعلّم الله رسوله في تتمة الآية ما يقوله لهم، وتعليم الله لرسوله يتضمّن تعليماً لسائر المؤمنين، ولا سيما أهل العلم منهم.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾:

أي: لو لم تخرجُوا إلى قتال المشركين في أُحُدٍ وبقيتُم في بيوتِكُمْ في المدينة، لخرج الذين كُتِبَ عليهُمُ القتل بعِلْم الله وقضائه وقدره، بسبب ما من الأسباب، ولو كان غير سبب الخروج إلى القتال، ولسقَطُوا صرعىٰ في الأماكن التي سقطوا فيها قتلىٰ فكانت مدافنهم مضاجعَهُمْ المريحةَ لهم، لأنّهم مؤمنون، حتى ساعة يُبْعَثُون، ففي العبارة محذوفات تُفْهَم باللّوازم الذهنية، أي: لبرزوا ولتعرّضوا لسبب من أسباب الموت فكانوا صرعى فانتهوا إلى مضاجعهم.

وفي هذا تعليم من الله للرسول ﷺ ولسائر المؤمنين من بعده كيف يكون الجواب على المقالة التي قالها فريق من المنافقين والذين في قلوبهم مرضٌ دون النفاق: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

وهذه المقالة ربّما ألقت شُبُهَاتٍ في بعض قلوب المؤمنين، فكان لا بُدَّ من معالجة شاملة، فاشتمل التعليم على ثلاث مقولات:

الأولى:

﴿لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾.

﴿لَبَرَزَ﴾: أي: لَخرَجَ إلىٰ البَرَاز، والْبراز الفضاءُ الواسعُ.

الثانية:

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾.

﴿ليبتلي﴾: أي: ليمتَحِنَ فيَكْشِفَ بالامتحان ما في صُدُورِكُمْ.

الثالثة:

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

أي: ولِيُنَقِّي ويُخَلِّص ما في قلوبكم من شوائب لا تتلاءم مع كمال الإيمان.

فالمقولة الأولى: تتناول التصحيح الاعتقادي بشأن ركن الإيمان بالقضاء والقدر، وجاء التصحيح ببيان أنّ الذين قُتلوا في أُحُدٍ كان لا بُدَّ أن يَسْقُطوا في مصارعهم بقضاء الله وقدره على كلّ حال، فآجالهم محتومة، ومصارِعُهُمْ مقدَّرة مكتوبة معلومة.

إذن: فقد كان خروجهم إلى معركة أُحُد سبَباً لتحقيق المقضيّ المقدر لا محالة، لكنَّ جهادهم في سبيل الله قد أكسبهم الشهادةَ وأَجْرَهَا العظيم عند الله، إذا كانوا حقّاً قد خرجوا جهاداً في سبيله وابتغاءَ مرضاته.

والمقولة الثانية: تتناول بيان غرض امتحان ما في صدور الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى أحد، وصدور الذين لم يخرجوا، والذين انخذلوا من بعض الطريق إلى أحد.

ويشمل ما في الصدور عناصر الإيمان، وعناصر الأخلاق، والنيّات، والإرادات، ونوازع الأهواء والشهوات، وحركات الأنفس في ابتغاء الدنيا وثوابها، أو ابتغاء الآخرة وثوابها.

والمقولة الثالثة: تتناولُ بيانَ الغرض التربويّ، وهو تمحيص ما في القلوب.

وقد عرفنا أنّ التمحيص يدور حول معنى تنقية الشيء وتخليصه ممّا لا خير فيه للغاية المرجوة منه.

فتمحيص ما في قلوب المؤمنين يفيد تخليصها مما لا خير لهم فيه عند ربّهم، وفي آخرتهم.

ويكون ذلك بتنقية الإيمان وتخليصه من شوائب الشكوك والشبهات، وغير ذلك من مفهومات منافية لعناصر الإيمان الحقّ.

ويكون أيضاً بتنقية النيّات والمقاصد ممّا يخالطها من ابتغاء العاجلة، وإرادة زينة الحياة الدنيا.

ويكون أيضاً بتنقية الجذور الخلقيّة ممّا يخالطها مما لا خير فيه، كالجبن والبخل، والحسد والكبر، وحبّ الفخر، والطمع بالمال والجاه ونحو ذلك.

فالتمحيصُ وَسِيلةٌ تربويّةٌ تَهْدِفُ إلى تربية الإنسان من مستوى العمق فيه، وهو عُمْقُ قلْبِه، فمن صلح قَلْبُه صلح كيانُه كلُّه.

والأزماتُ والمصائب تُمَحِّص ما في قلوب المؤمنين، إذْ تهزُّها هزّاً عنيفاً، وتُوقِدُ فيها حرارةَ الإيمان، وتُدَرِّبُها عملياً على تقبُّلِ مقادير الله بالصبر، وتَنْفِي عنها كثيراً من أدران الشبهات، وأخلاط الانحرافات الخلقية، وتُعَلِّمُها عن طريق الألم والحرمان وتراكب الغمّ، كيف تصحّح نيّاتها في السّلم والحرب، والأمن والخوف، وعند المطامع، وفي أحوال الذُّعر، وتكْشِطُ عَنْها وبَرَ التّعلُّقِ بزينةِ الحياة الدنيا، حتّى تكون ربّانيّةً خالصةً لله تعالى، وابتغاء ثواب الآخرة.

نفهم كلّ هذا من قوله تعالى:

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۗ﴾.

ولدفع توهُّم أنّ ابتلاء الله لما في صدورهم قد كان لكشف أمر لم يكن معلوماً لله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً قال عزّ وجلّ في ختام الآية:

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ١٥٤﴾:

أي: عليم بكلّ صاحبةِ الصدور، والأمورُ التي تختَصُّ بالصدور حتّى عُمْق الأفئدة، تشملُ العقائد، والنيّات، والعواطف، وحركات الأنفس وانفعالاتها، وما فُطِرَتْ عليه أو اكتَسَبَتْهُ من أخلاق، وغير ذلك.

إذن: فالابتلاءُ لا للكشف العلميّ بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ، وإنّما للكشف التّسْجيليّ والإعلامي للملائكة، وللناس يوم الدين، وهو الذي تَجْري بموجبه المحاسبةُ والجزاء، ولكشف بعضه للناس في الدنيا، لحِكَمٍ كثيرة.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾.

بهذا انتقل النّصُّ إلى كَشْف جُذُور عوامل الهزيمة الّتي كانت من المنهزمين في أُحُد، وهم الّذين أصْعَدُوا في الأرض، فلَمْ يَلْوُوا على أحد، والرّسولُ يدعوهم في أُخرىٰ فِئَتي المسلمين.

أي: إنّ الذين ولّوْا أدبارهم منهزمين فارّين من مواجهة العدُوّ يوم التقىٰ الجمعان في أُحُدٍ، ما أوقعهم في الزَّلَلِ الذي وقَعُوا فيه إلّا الشيطانُ الذي أطمعهم بالمغانم أوّلاً، وخوّفهم من أن يُقْتَلوا ثانياً، وكان ذلك بسبب بعض ما كَسَبُوا، وهو إثم معصية الرسول، إذْ أرادوا الدُّنيا لمّا لاحَتْ لَهُمُ الغنائم مطروحةً لآخِذِيها، وهذا الكَسْبُ الذي بَدَوْوا بِهِ مِنْ عنْد أنْفُسِهِمْ أضعف بصيرَتَهُم الإيمانية، فكان للشيطان بذلك مَدْخَلٌ للتأثير فيهم بوساوسه ودسائسه وتسويلاته، واستدراجِهِم إلى أُمُورٍ أُخرىٰ جعلَتْهُمْ يَزِلُّون، فيسقُطون فيما يكرهون من غَمّ مُضاعَفٍ، فيه قتلٌ وجراحة، وخوفٌ وقَلَقٌ.

لكِنَّ الله تبارك وتعالى أكّد لهم أنّه تداركهم بحلمه ورحمته مرّةً أُخرَىٰ في مراحلِ المعركة، فعفا عنهم، إنّه جلّ وعلا غَفُورٌ حليم.

أي: وسعهم بحلمه، فغفر لَهُمْ أوّلاً، ثُمّ عفا عنهم.

المغفرة: الستر. والْعَفْو: الْمَحْوُ وَعَدَمُ إبْقاء أي أثرٍ للذنب.

وجاء بيان العفو أوّلاً لأنّهُ غايةُ البشارتين، فهي الأحَقُّ بالتقديم، وجاءت الإشارة إلىٰ أنّ المغفرة سبقت العفو، من خلال الآية بذكر اسمين من أسماء الله، أحدهما: غفور، والآخر: حليم. أي: حَلُمَ فغفَرَ ثُمَّ عَفَا.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ

أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾».

وفي القراءة الأخرى: [وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] فجمعت القراءتان أسلوب الحديث عنهم بالغائب، وأسلوب مواجهتهم بالخطاب، أو مواجهة الذين آمنوا بالخطاب، والحديث عن الكافرين بالغائب، وكلُّ ذلك من الأداء البديع، مع الإيجاز بتغيير حرفٍ واحد.

وانتقل النَّصُّ هُنَا إلى تحذير المؤمنين من أن يكونوا كالذين كَفَروا، وقالوا: لأجل إخوانهم الذين ماتُوا في أسفارهم بحوادث برّيّة أو بحريّة أو غير ذلك، أو قُتِلُوا في معارك حربيّة وهم غُزاة: لَوْ كَانُوا عِنْدَنا مَا عرّضوا أنفسهم للحوادث فماتُوا، وَما دَخلُوا في الحربِ فَقُتِلُوا.

إنّ من اللّوازم الفكريّةِ للكفر بالله أو بقضائه وقدره، سواءٌ أكانَ كُفْرَ كافرٍ صريحٍ، أوْ كافرٍ مُنافقٍ يُخْفي كُفْرَه مخادَعَة، اعْتِبارَ الأسْبابِ الكَوْنِيَة ذاتَ أفْعالٍ حقيقيّة ذاتيّة في مُسَبَّباتها، على خلاف العقيدة الإيمانيّة الّتي تُقرِّرُ أنها أسبابٌ ترتبطُ بها مُسبّباتُها بتأثير الخالِق وقضائه وقَدَرِه من خلالها، أو من ورائها، فهو سبحانه الفَعَّالُ الحقيقيُّ في كلّ الظّواهر الكونيّة، وهو المقدِّر لَها والقاضي بها قَبْلَ حُدُوثها.

ولكنّ أفعاله سبحانَهُ مستُورَةٌ بقوانين الكون، وبأنظمة الأسباب وارتباط مسبَّباتها بها، لِيَمْتَحِنَ بذلكَ إيمان الناس بالغيب.

فكَمَا أنَّ ذَاتَهُ سبحانه وتَعالى غَيْبٌ عَنًّا كذلكَ أفعالُه في كونه غَيْبٌ عنّا، نُشاهِدُ ظواهرها المقترنة بأسبابها، والعقلُ المفكّر يدلُّنا على أنّ الأسباب لا تفعل بذواتها، وأنّها بحاجة إلى مُسبّب حقيقيّ لها، عليم قدير حكيم يُتْقِنُ كلَّ شيءٍ صُنعاً.

وقد انطلقَتْ أثناء يوم أُحُدٍ كلمةُ النفاق التي قالها بعض المنافقين، وهي: «لو كانَ لنا من الأمْرِ شيءٌ ما قُتِلْنَا هَهنَا».

وانطلقت بعد يَوْمِ أحد كلمة النفاق التي قالها كبير المنافقين عبد الله بن أُبَيّ

ابْن سلول، ورَدّدَهـا بلسانـه أو بقلبه سـائر المنـافقين، بشأن من قُتِلَ من إخـوانهم في أحد، وهي: «لو كانوا عنْدنا ما قُتلوا».

وانـطَلَقَتْ قبل المعـركة في منـاسباتٍ مختلفـات من عموم الكـافـرين، وتنـطلق دوامـاً، بشأن من يَمُـوتُ أو يُقْتَل في سَفَرٍ أَوْ غَزْوَةٍ، مقـالَةُ: «لـو كانُـوا عِنْدَنَـا مَا مَـاتُوا وَمَا قُتِلُوا».

فدَلّ النَّصُّ بإيجازه واختزاله على هذه الصور الثلاث:

- من قُتِلَ في أُحُدٍ من المسلمين.
- من يموت بحادث مهلك في سفره ضارباً في الأرض للتجارة أوغيرها.
- من يُقْتَلُ غازِياً في معارك القتال ولو لم يكن في سبيلِ الله.

وهـذه المقالـة من اللوازم الفكريـة الطبيعيَّـة للكُفر بقضـاء الله وقـدره في الحيـاة والموت، فلا بُدّ أن تظهـر على ألسنة الكـافرين كلّمـا وُجد المحـرِّض على انطلاقهـا، دون حذر يدعـو إلى الاستخفاء بهـا، سواءٌ أكـانوا كـافرين صـرحاء، أو كـانُوا كـافرين منـافقين، ولذلـك آثر النَّصُّ بـدقَّتِهِ وإيجـازه إسنـاد هـذه المقـالـة إلى الـذين كفـروا، ولم يَخُصَّها بالمنافقين الذين قالوها في معركة أُحُدٍ.

ولَئلاً يقع بعض الـذين آمنوا في زلَّـة تَرْديـد هذه المقـالة التي هي من الثمـرات الخبيثة للكُفْر، ومن لوازمه، خاطب الله الذين آمنوا محَذِّراً لهم، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟... ﴿١٥٦﴾﴾:

أي: ما مات من مات منهم بحادث مُهْلِكٍ وهو مسافرٌ يَضْرِبُ في الأرض للتجارة أو السياحة أو غير ذلك، ومَا قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهم في معركة قتال غازياً.

والمعنى: يا أَيُّها الـذين آمَنُوا لا تكـونُوا كـالكافـرين الَّذِين من عـادتهم ومظاهـر كفـرهم في كلِّ وقتٍ «مـاض، وحاضـر، ومستقبل» إذا ضَـرَبَ إخـوانٌ لهم في الأرض مسافرين، فتعرّضوا للهـلاك، أو خرجـوا غزاةً فقُتِلُوا، قـالوا: لـو كانـوا عندنـا ما مـاتُوا وما قُتِلُوا.

وأصل نَسَق ترتيب الكلام كما يلي:

يا أيّها الذين آمنوا لاَ تكونُوا كالذين كفروا: إذا ضَرَبَ إخوانُهم في الأرْضِ فماتوا (أي: بحادث مهلك) أو كانُوا غُزًّى فَقُتِلُوا، قالُوا من أجلهم: لو كانوا عندنا ما ماتُوا وما قُتِلُوا.

ولكن جاء في النّصّ تقديم عبارة ﴿قَالُوا لإخوانهم﴾ على ذكر الشرط، تنبيهاً على بشاعة هذه المقولة بالمنظار الإيمانيّ، وأنّ المؤمن لا يقولُهَا ولا يقول ما هو شبيه بها.

ومثل هذا التعبير القرآني يصلُحُ لبيان ما كان وما هو كائن وما سيكون.

واقتضتِ التربيَةُ الرّبّانيَّةُ بيانَ الحقيقة من كلّ أطرافها حول هذا الموضوع، وهي تشتمل على خمسة أمور:

الأمر الأول: بيانُ أنّ العقوبة القدريّة التي تأتي نتيجةً طبيعيّةً بمقتضى سُنَّةِ الله في خلقه للكفر ومفهوماته، أنْ يَذُوقَ الكافرون آلام الحسرة، على ما فاتَ من المحابّ، عند كلّ مصيبةٍ تنزل فيهم.

وذلك لأنّهم يعتقدون أنّهم لو فعلوا كذا أو لم يفعلوا كذا، لَمَا نزلت بهم هذه المصيبة.

دلّ على هذه العقوبة قولُ الله تعالى في النّصّ: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

بخلاف أحوال المؤمنين بالله وقضائه وقدره، فإنهم إذا نزلت بهم مصيبةٌ ما ولو كانُوا هم الكاسِبين لأسبابها، لم يذوقوا آلام الحسرة على ما كان منهم، إلاّ أن تكون المصيبة نتيجة معصية لله عزّ وجلّ، وعندئذ يتحسّرون لأنّهم عصَوْا، لا لأنّهم قد نزلت بهم المصيبة، إذ يعلمون أنّها مكفّرة للخطيئة، وهي لخيرهم تأديباً وتربية وجزاءً.

أما فيما عدا ذلك فإنّهم يؤمنون بأنّ ما جرى بقضاء الله وقدره، سواءٌ أكانوا هم الكاسبين للأسباب التي باشروها، أو لم يكونُوا الكاسبين لها، ويؤمنون بأنّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكُنْ.

وانتفاء ألم الحسرةِ لا يستلزم انتفاء ألم الحزن، فالحزنُ عند نُزولِ المصيبة يذوقه المؤمنون والكافرون جميعاً.

أمّا آلام الحسرة على ما جرت به مقادير الله فلا يذوقُها إلاّ الذين لا يؤمنون إلاّ بالأسباب، وهم بقضاء الله وقدره كافرون، ويقولون: لو لم تحدُث الأسباب لمَا حدَثتِ المُسَبَّباتُ المؤلمات.

الأمر الثاني: بيان أنّ الحياة والموت من الأمور التي يتولاّها القضاءُ والقَدَرُ استقلالاً، دون أن يكون للأسباب تأثيرات حقيقيّة فيها، وإنْ كانت لها تأثيرات صوريّة، فحين لا يكون لله عزّ وجلّ قضاء وقدر بحياة أو موت، لم تفعل الأسباب شيئاً إنْ وجدت، أو تتدخّل المقادير الرّبانيّة بصرف الأسباب، أو إقامة الحواجز دونها.

دلّ على هذا الأمر قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾.

الأمر الثالث: بيانُ أنّ أعمالَ ذوي الإرادات الحرّة في الحياة أنواع من الكسب السببيّ الذي ناط الله عزّ وجلّ به الحساب والجزاء بالثواب أو بالعقاب، وإن كانت في الحقيقة وباطن الأمر لا تؤثّر في تغيير مقادير الله.

وإشارةً إلى هذه الحقيقة من حقائق الابتلاء ضِمْنَ دائرة القضاء والقدر، قال الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

أي: والعليم البصير بما يعمل عبادُهُ بإراداتهم الحّرة، إذْ يستخدمون ما سُخِّرَ هُو لَهُم في أنفسهم وفي الكون من حولهم تسخيراً مصحوباً بالإمداد والعلم والمشاهدة والمراقبة الدائمة، هل يُبْقي لهم إمداده وتسخيره وتيسير الأسباب إذا لَمْ يكُنْ له فيما يتحقّق بهذه الأسباب ضمن قوانينهاالتي جعَلَهَا هُوَ لها قضاءٌ وقدرٌ؟!

هذا أمر لايقْبله فكر أيّ ذي فكر، فضلاً عن فكرالمؤمن بالله وقضائه وقدره، ومشاعرِ ضميره ووجدانه.

الأمر الرابع: وهو مبنيٌّ على ما سبق، فَمَنْ قُتِلَ غازياً في سبيل الله عزّ وجلّ،

أو ماتَ بحادثٍ ما، وهو مُسافِرٌ في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فأجره ثابت عند الله، ولو كان القضاءُ الرّبانيُّ من الأمور النافذة لا محالة، قتلاً أو موتاً.

فالعملُ ثَمرَةُ إرادةٍ حُرّةٍ مُخْتارَة، وله جزاؤُه عند الله، والإرادة لا تغيّر في تطبيقات القضاء والقدر لكنّها تجعل الأمر المقضي المقدّر طاعةً أو معصية، فيكون لصاحب الإرادة الحرة أجرٌ بسبب إرادته الصالحة التي فيها طاعةٌ لله، ويكون على صاحب الإرادة الحرة وزرٌ بسبب إرادته السيئة التي فيها معصية لله، وقد يكون كسبه مكروهاً أو مباحاً. والمحاسبة عند الله على النيّاتِ والإرادات من وراء الأعمال، وعلى مقادير قُوَّتها في استعمال الْمُسَخَّراتِ بالقضاء والقدر.

وثوابُ من قُتِلَ أو مات في سبيل الله يَشْمَلُ عُنْصُرَين:

الأول: مغفرةٌ من الله لِسَوابق الذنوب والآثام.

الثاني: رحمةٌ من الله في دار رحمته، وهي جنّات النعيم.

دلّ على ذلك قول الله تعالى في النص:

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾:

أي: فالمغفرة والرحمةُ اللّتان تكونان لهم من الله خيرٌ من كلّ ما يجمعه أهلُ الدنيا لِمُتَعِهم ورفاهيتهم ومفاخرِهم.

الأمر الخامس: بيان أن الجزاء الرّبّاني الأوفى على الصالحات في الحياة الدنيا، التي يقدّمُها المؤمنون الصادقون، إنّما يكون بعد هذه الحياة الدنيا، يوم يُحْشَرُ الناس إلى ربّهم.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

مع دلالة الآية السابقة، أي: ولئن قُتِلْتُم في سبيل الله أو مُتُّم في سبيل الله أيّها المؤمنون الصادقون، لَيَغْفِرَنّ الله لكم، ولَيَرْحَمَنَّكُمْ، يوم الدين يوم تُحْشَرونَ إليه، وذلكَ يشتمل على نعيم لا نهاية له، ومجْدٍ ومُلْكٍ عظيمين، عند ربّ كريم، وهو خير

لكم من كلّ ما يجمع الجامعون من الدنيا التي يرون فيها وسائل سيادتهم وعزّهم ومجدهم ومفاخرهم.

وجاء تقديم القتل على الموت في الآية الأولى، وتقديم الموت على القتل في الآية الثانية، إشعاراً بأنّ من خرج في سبيل الله فإنّ له مغفرةً من الله ورحمة، سواءٌ أقُتِلَ مجاهداً، أو مات بحادث ما في خروجه، فالأمران متساويان ما دام الخروج خروجاً في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

فتَمَّ بذلك بيان العقيدة الإيمانيّة من مختلف الجوانب:

* وبعض ما اشتمل عليه النصّ هو ردٌّ على أوهام الكافرين والمنافقين ومقالاتهم.

* وبعض ما اشتمل عليه النصّ هو بيانٌ وإقناع وترغيب للمؤمنين.

* * *

(٥)

نظرة عامّة حول النص في نقاط

(١) قبل معركة أُحد وعد الله المؤمنين بالنصر على عدوّهم وعداً مشروطاً بالطاعة والتزام منهج الله.

(٢) وبدأت المعركة وصدق الله المؤمنين ما وعدهم من النّصر حتى عَصَوا وتنازعوا فدبّ إليهم الفشل، فتحوّلت عنهم رياح النّصر، والسبب في ذلك حبّ الدنيا، والطمع بجمع الغنائم.

(٣) صرف الله المؤمنين عن التسلّط على عدوّهم بعد معصيتهم أمر الرسول ليبتليهم، فيمتحن صبرهم وثباتهم وإيمانهم، ويكشف ما في صدورهم. ومع ذلك فقد عفا الله عنهم، وجعل رياح النّصر تتحوّل عنهم إلى عدوهم لتربيتهم وتأديبهم.

(٤) لكن معظم المسلمين في أُحُدٍ لَمَّا أُخِذُوا على حين غرّة، وحوصروا من أمامهم ومن وراء ظهورهم، لم يصبروا ولم يثبتوا، بل أخذوا يَفِرُّون منطلقين مصعدين هَرَباً في كلّ اتّجاه، ولا يَلْوُون رؤوسهم ولا أجسامهم على أحد، ولا يستجيبون لدعاء

الرسول الذي كان يدعوهم وهو ثابت في موقعه مع الفئة المؤمنة الأخرى، وهي الفئة الثابتة الفدائية.

(٥) فأثاب الله الفارّين غَمّاً بغمّ، جزاء ما أحدثوا من غمّ، أو غَمّاً موصولاً بغمّ وملتصقاً بغمّ. ومن الأغراض التربوية لهذا الجزاء:

* ألاّ يحزنوا مستقبلاً على ما فاتهم، ولا على ما خَسِرُوهُ بسبب ما أصابهم ونزل بهم.

* ليعلَمُوا أنّ تصاريف الله في عطائه ومنعه، ونصره وعدم نصره، مظاهر لحكمته المستندة إلى علمه وخبرته.

(٦) خصّ الله طائفة المؤمنين الثابتين فأنزل عليهم النّعاس الذي جلب إلى قلوبهم الأمن.

أما طائفة المنافقين وأهل الريب وضعفاء الإيمان فقد استمرّوا في الغمّ والخوف والقلق يُعذّبون، لأنّهم قد أهمتهم أنْفُسُهم، وهم يظنُّون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهلية، وجعلوا يقولُون بألسنهم وفي نفوسهم مقالات جاهليّة.

(٧) علّمَ الله الرسول والمؤمنين الصادقين من بعده، أن يُبَيّنُوا لأصحاب المقالات الجاهلية، المفهومات الإيمانيّة السليمة، وحكمة الله في مقاديره.

(٨) أبان النصّ جذور عوامل الهزيمة، التي جعلت الشيطان يستزلّهم بسبب ذنوبٍ كسبوها.

(٩) حذّر الله المؤمنين من أن يكونوا كالذين كفروا في مفهوماتهم وأنواع سلوكهم، فيقولوا مثل مقالاتهم الجاهليّة.

(١٠) تخلّل ما سبق إيضاح جملة من المفهومات الإيمانية الاعتقادية، التي من شأنها تصحيح السلوك، بعد تعميق الإيمان.

(١١) أبان الله عزّ وجلّ بعض مواقف المنافقين والذين في قلوبهم مرض دون النفاق خلال أحداث غزوة أُحُد.

● ● ●

النـصّ العاشـر

من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنيّة
الآيـات مـن (١٦٥ ــ ١٦٨)
حـول بيان بعض مواقف المنافقين في غـزوة أُحـد
وإقناع المؤمنين بأن ما جرى لهم قد كان من أنفسهم

هـذا النص كالنصّ التـاسع اشتمـل على بيانـات تتعلّق بغزوة أُحُدٍ وأحـداثهـا، وما كان من المنافقين فيها، فيُقال فيه مـا سبق عرضـه في النصّ الثامن، بـاستثناء تَـدَبُّر آياته، وما دلّ عليه من معانٍ وأفكار.

يقول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

* * *

ما في النصّ من القراءات المتواترة (من الفرش)

* قرأ هشام عن ابن عامر: [لَوْ أَطَاعُونَا مَـا قُتِّلوا] بتشديـد التّاء، وهـو بالتّشـديد يُفِيدُ معنى التكثير، فـدلّت القراءتـانِ على أنّ فريقـاً من المنافقين قـالوا: [لـو أطاعُـونَا

مَا قُتِلوا] وفريقاً آخر من المنافقين قالوا: [لَوْ أَطَاعُونَا مَاقُتِلُوا] يُصوّرون بقولهم أنَّ مَا حدَثَ قد كانَ تَقْتِيلاً شَدِيداً من المشركين للمسلمين بانتصار وغَلَبَةٍ وعُنْفٍ ونكاية، وهذا التعبير يدُلُّ على انفعال قائله وثورة نفسه على الأمر كلّه.

* * *

(١)
المعنىٰ العامّ للنّصّ

يبيِّن هذا النصّ للمؤمنين ثمّ من شاء أن يفهم كلام الله، حكمةَ اللّهِ فيما جرىٰ للمسلمين في أُحُدٍ من مُصِيبَةٍ على أيدي أعدائهم، ويزيلُ عنهم إشكالاً قد يثير شبهةً تستدعي جلاءً.

هذا الإشكال قد حرّك لدى المسلمين تساؤلاً، ظهر في العبارة التالية: ﴿أَنَّىٰ هَـٰذَا﴾، أي: من أين حصل هذا المصابُ؟ أو كيْفَ حصلَ هذا المصاب؟ وتتضمّن هذه العبارة معنى:

ــ هل تخلّىٰ الله عنّا، وقد وعدنا بالنصر؟

ــ هل آثر المشركين علينا بالغلَبَةِ وهم الكافرون به؟

ــ ألسنا نَنْصُر دينه ونُعْلي كلمته، وأعداؤنا يقاتلونَنا لنصرة الكُفْر وإعلاء كلمة الشيطان؟

وهو إشكال يقوم في نفوس المسلمين في كلّ معركة ينهزمون فيها، ويغفلُون عن إخلالهم بشروط النّصر الذي وعدهم الله به، ويَرَوْن أنّ من حقّهم على الله أن ينصرهم على كلِّ حالٍ، ولو لم يُحقّقوا في أنفسهم الشروط التي يجب عليهم أن يحققوها، حتىٰ يستحقّوا نصر الله والفتح بحسب وعده، بمعوناتٍ إضافية يكَمُلُ لهم فيها النقص في أسبابهم عن أسباب عدوّهم ضِمْن النِّسَبِ التي وعَدهم بها في سورة (الأنفال).

ومعالجةُ هذا الإشكال الذي عَبّر عنه تساؤلهم: [أَنَّى هَـٰذا؟] اشتملت على عدّة بيانات، وهي البياناتُ التاليات:

البيـان الأوّل:

ما كان من حقّكُمْ أيُّها المؤمنون أن تَطْرحُوا مثل هذا التسـاؤل، وقد نصـرَكُم الله في بـدر فأصبتُمْ من عـدُوّكم يوْمئـذٍ مِثْليْ مـا أصـابَ منكم في أُحُـدٍ، لقَـدْ قتلْتُمْ منهم سبعين، وأسـرْتُمْ سبعين، وكان بـإمكانكم أن تقتلُوا هؤلاء الأسـرى، وقتْلُهُم كان أولىٰ لكم، لكِنَّكُمْ آثرْتُمْ قبُول الفدية منهم، أمّا في أُحُدٍ فقد قَتَلُوا منْكُمْ سبعين فقط، وكانُوا في كلتا المعركتين أكثر منكُمْ عَدَداً وعُدَّةً.

دلّ على هذا قول الله تعالى في النصّ:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَـٰذَا﴾؟!.

هذا من جهة المقارنة العامّة بين مصيبتكم ومصيبة أعدائكم.

البيـان الثانـي:

إنّ ما نزل بكم من مصيبة في أُحُدٍ قد كان بسبب من عند أنفسكم:

ـ ألم تعصُوا أمر الرسول؟

ـ ألم تطمعوا في الغنائم وتتركوا مواقع القتال قبل أن يؤذَنَ لكُمْ؟

ـ ألم تتنازعوا في الأمر؟

ـ ألم تفشلُوا فتضعفُوا وتجبنُوا وتَفْزَعُوا؟

ـ ألم تنهزموا حتى صرتُمْ تُصْعدُون في الأرض ولا تَلْوُون على أحَدٍ؟

ـ ألَمْ يعْصِ فريقٌ منكم الرسـولَ إذْ كان يـدعوكُمْ في أُخْـرَاكُمْ: إليَّ عباد الله، وأنتم مُنْهزِمون؟

ـ ألاَ تكفِي كلّ هذه الأسباب لتركِكُمْ لأنفسكم ووسائلكم حتّىٰ نزل بكم ما نزل من مصيبة، بإذن الله وتمكينه؟

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ يُجيبُهُمْ عن طريق رسوله:

﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾.

البيانُ الثالث:

ليس ما جرى لكم من مصيبة على أيدي أعدائكم عجزاً في قدرة الله عزّ وجلّ عنْ نُصْرَتكم، فالله عزّ وجل قادر على نصرتكم دواماً مَع كلّ ما كان منكم، لكِنَّ هذا يتنافَىٰ مع حكمته الّتي قضت وقدّرت تأديبكم وتربيتكم، وتمييز المؤمنين الصادقين من غيرهم، وابتلاءَ ما في صدوركم، وتمحيصَ ما في قلوبكم.

أشار إلى هذا قول الله عزّ وجلّ في ختام الآية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾:

أي: فهو قادرٌ على نَصْرِكُمْ، وقادرٌ على مجازاتكم بالغمّ الذي نزل بكم، وقادر على تمكين أعدائكم من الظُّهُور عليكم.

البيان الرابع:

إنّ ما أصابكم يوم الْتَقَىٰ جَمْعُكُمْ وجَمْعُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ في أُحُدٍ قد أصابكم بِإذْنِ اللّهِ، أي: بتمكينِهِ أعداءَكُمْ من الظهور عليكم، وإصابتِكُم بما أصابوكُمْ به، ورفع يد معونته الناصرة لكم، وجعلكم تتصرَّفُون ضمن حُدود قُواكم ووسائلكم، مع حمايته لكم من أن تُصابُوا بأكثر مما أُصبْتُم.

ولو لم يأذن الله بذلك إذنَ تمكينٍ قَدَرِيّ لما استطاعوا أن يُصِيبُوكُمْ بما أصابوكُمْ به.

لو لم يأذن بذلك لأقام العقبات في طريق أعدائكم، ولأفسد خططهم، ولألْقَىٰ في قلوبهم الرُّعب، أو لأمدّكُمْ بالملائكة كما فعل في يوم بدرٍ الكبرى، إلى غير ذلك من وسائل نصره جلّ وعلا.

فالإذن هنا هو من قبيل التمكين القَدَرِيّ ضمن حدود الأسباب والمسببات في سنن الله الدائمة.

نفهم هذه المعاني من قول الله عزّ وجل في النصّ:

﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

البيان الخامس:

إنّ ما نزل بكم من مصيبة في أُحُدٍ كان له في حكمة الله غاية، وهي:

أوّلاً: أن يكشف الله بالامتحان المؤمنين الصادقين منكم، ويكشف ضُعفاء الإيمان، وأهل الرِّيْب والشّكّ والنفاق، الذين خرجوا مع الرسول إلى قتال المشركين في أُحُد.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . . . ﴿١٦٦﴾﴾:

أي: وليَعْلَمَ المؤمنين بحسب مراتبهم ودرجاتِ إيمانهم ضعفاً وقوّةً.

ثانياً: وأن يكشف نفاق الذين انْخَذلوا عن الرسول في أُحُد، والذين لم يخرجوا معه إطلاقاً.

فالحوادث الشديدة تكشف ما في القلوب والنفوس فتظهرها على سطح السلوك، بأقوالٍ وأعمال إلى غير ذلك من أمارات.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجل في النّصّ:

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾.

وهذا الكشف يجعل المعلوم الْمَخْفِيّ في القلوب وسرائر النفوس معلوماً في الأقوال والأعمال وسائر الأمارات والعلامات.

وعلمُ الله السابق لحدوث المعلوم، والمطابقُ لما سيحدث يصير علماً مطابقاً لما حدَثَ فِعْلاً، وعلى هذا المعنى جاء في النصوص: وليَعْلَمَ الله، ونحو ذلك.

البيان السادس:

التنبيه على بعض مظاهر النفاق، بالنسبة إلى الذين لم يحضروا معركة أُحُدٍ، بغية تعريتهم، وتبصير المؤمنين بأمارات وعلامات نفاقهم، ومن ذلك يتدرّب المؤمنون على معرفة علامات النفاق، وكشف المنافقين بها، فمن هذه العلامات الدالّات على النفاق والمنافقين ما يلي:

(أ) قيل لهم قبل المعركة: تعالَوْا قاتِلُوا في سبيل الله قتال المؤمنين الصادقين. أو تعالَوْا ادفعُوا عن أرضكم وأموالكم ومفاخركم وإخوانكم، أوْ قِفُوا في المعركة موقف المدافع لا موقف المهاجم المستبسل الشجاع.

فقالوا تَعلُّلاً بأقوال باطلة، زاعمين أنها نِتاج عقل وحكمة وبصيرة: لو نَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتالٌ لاتَّبَعْنَاكم، ولدافعنا عنكم، ولمَا خذلْنَاكُم، ولكنّنا نرى أنه لن يكونَ قتال.

أي: عند المواجهة ستَرَوْن أنَّكُمْ أضعفُ من عدوّكم، وأنّه لا قِبَلَ لكُمْ بجيشهم، فترجعون إلى المدينة، إذْ ترون رأينا الذي كُنّا قد رأيناه، من البقاء في المدينة، وعدم الخروج إلى العدو، فالمدينة أَحْصَنُ لكم.

أو لو نعلم أنّه سيكون قتال يُظَنُّ معه النَّصْرُ لاتَّبَعْنَاكُمْ، ولكن سيكون إلقاءُ بالأنفس في التهلكة، كما قال عبد الله بن أبي بن سلول حين انخذل مع قومه: ما ندري علامَ نَقْتُل أَنْفُسنا هٰهُنا أيُّها الناس.

دلّ على هذا أيضاً قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾:

أي: هم يوم تعلُّلِهِمْ بهذا القول الذي ذكروه بأفواههم للاعتذار عن المشاركة في القتال، والّذي يزعمون أنّه لا ينقضُ إسلامهم، إذْ هُوَ مبنيٌّ بزعمهم على اجتهاد يُعْذَرُونَ به، قد كانُوا أقربَ للكُفْرِ الصريح منهم لادّعاء الإيمان، فأقوالهم هذه مع خذلهم الرسول والذين آمنوا وخرجوا معه للقتال، كافية لأنْ تكشف اقترابهم من مواقع الكفر الصريح، وابتعادَهُمْ عن مظلّة دعوى الإيمان.

وربُّما كان فيهم فريقٌ لم يَكُنْ منافقاً من قبل، إلّا أنَّهُمْ قد أنْشَؤُوا في هذه المرحلة نفاقاً، وخطَوْا فيه خُطُواتٍ كانوا بها أقرب للكفر الخالص منهم للإيمان الذي كانُوا فيه.

فذلّ النصّ بهذا على أنّ الأمارات والعلامات القويّة تَسْمَحُ للمؤمنين بأن يحكموا على من ظهرت منه باقترابه من الكفر، وابتعاده من الإيمان، وأنّ ادّعاء الإسلام والإيمان مع ذلك هو من قبيل النفاق.

وهذا يرجّح شدّةَ الحذر ممّن تظهر عليه هذه العلاماتُ وأشباهُها، وضرورةَ توجيه المراقبة الدائمة له، وَوَضْعِه مَوْضِع من يُظَنُّ فيه النفاق، فلا يُؤْتَمَنُ على أسرار المسلمين، ولا يُتَّخذُ بِطَانَةً لأولي الأمر منهم.

ونُلاحظ في النصّ أنّ الله عزّ وجَلّ بعد توجيهه المؤمنين لمنهج التَّبَصُّر بالأمارات والعلامات الدّالّاتِ على نفاق المنافقين للحذَرِ منهم، أبان أنّ هؤلاء الذين قالوا للمؤمنين: ﴿لو نعلم قتالاً لاتَّبَعْنَاكم﴾ هُمْ كذّابون، منافقون، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فقال تعالى:

﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾:

أي: إنّهم لا يُريدُونَ نُصْرَةَ الرسول ولا المؤمنين معه مطلقاً، حين قالوا: ﴿لو نعلم قتالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ﴾.

فقد عَلِمُوا أنّه سيكون قتالٌ، وأنّهم لو نَصَروا إخوانهم لأمكَنَ انْتِصَارُهُمْ على عَدُوّهم، ومع ذلك قَعَدَ من قَعَدَ منهم فلم يخرج، وانْخَذَل من انْخَذَل منهم من بعض الطريق.

لكنَّ الله عليم بما يكتمون في صدورهم، لأنّه سبحانه عليم بكلّ شيء، ومنه ما تُوَسْوِسُ به النفوس، وتخفيه القلوب.

* * *

(ب) وبعد أن قعد المنافقون عن الخروج مع الرسول ﷺ إلى موقعة أُحُدٍ، وقُتِلَ مَنْ قُتِلَ من المسلمين فيها، قالُوا عن إخوانهم الذين قُتِلوا مع من قُتِل: لو أطاعونا فقعدوا معنا ولم يخرجوا مع الرسول والمؤمنين ما قُتِلوا.

هذه المقالة تتنافَىٰ مع صحّة الإيمان بالله عزّ وجلّ وقضائه وقدره وعظيم حكمته، وهي تدلُّ على أنّ القلب غَيْرُ صحيح الإيمان، فهو في كُفْرٍ، أو رَيْبٍ أو زَيْغٍ عن الحقّ، قديمٍ أو طارىء، فهي علامة من علامات النفاق.

كشف مقالتهم هذه قول الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾.

وبياناً لفساد هذه المقالة التي تُعَبّر عن جهلهم بقضاء الله وقدره أو جُحُودِهم له علّم الله رسوله ما يرُدُّ به عليهم، وهو ردّ يَرُدّ به كلُّ مؤمنٍ بعد الرّسول، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ فَادْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾:

أي: إنّكُم تَدّعُونَ أنّ الذين خرجوا إلى أُحُدٍ من إخوانكم فقُتِلُوا، لو استجابوا لتثبيطكم فأطاعوكم ولم يخرجوا للقتال، ما قُتِلُوا، فَلَمْ يَمُوتُوا.

والجوابُ أنَّ هذا الادّعاء ادّعاءٌ كاذبٌ مخالفٌ للواقع والحقيقة، وهم غير صادقين فيه، لأنّ الموت قضاءٌ رَبّاني محتومٌ للناس جميعاً، ولكلّ حيٍّ أجلٌ لا يتقدّم ولا يتأخّر، ومن جاء أجلُهُ ذاق الموت عنده لا محالة، سواءٌ أتعرَّض لسبب القتل أو لم يتعرَّضْ له، وإن كان على الإنسان أن يتخذ الحيطة لنفسه فلا يتعرّض لأسباب القتل دون إذْنٍ أو تكليفٍ ديني من الله عزّ وجلّ، وإلاّ كان عاصياً، بدليل نصوص أخرى.

فإنْ كنتُم صادقين في أنّ من حَمَىٰ نفسه من أسباب الموت الظاهرة التي تعرفونها وتتقونها، لم يَمُتْ في أجَلِه المقدّر له، فادرؤوا عن أنْفُسِكُمُ الموت، بحماية أنفسكم من أسبابه.

ولَنْ يستطيعوا ذلك.

وهذا الجواب قد تَضَمَّنَ بَيَاناً لِبَعْضِ الحقيقة حول قضيّة الموت. وبعضٌ آخَرُ من هذه الحقيقة قد تضمَّنَهُ جواب سابق في الآية (١٥٤) من السورة نفسها، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ... ﴿١٥٤﴾﴾:

أي: لخرجوا بسبب آخر إلى البَرَاز (وهو الفضاء الواسع) الذي قُتِلُوا فيه، فكان

مَصِيرُ بُروزِهم إلى الاستقرار في مدافنهم التي دُفِنُوا فيها، فكانت مضاجعهم المريحة إلى يوم يُبْعَثُون، كمضاجع النائمين المستريحين.

وفي نصوص أُخْرَىٰ جاء استكمال سائر عناصر الموضوع.

* * *

(٢)
المفردات اللُّغويّة في النّصّ

﴿أَوَلَمَّا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، الذي فيه معنى العجيب من مقالتهم: ﴿أَنَّىٰ هذا؟﴾. والواو عاطفة، أي: أتقولون هذا وأنتم الْمُتَسَبِّبُون فيما نزل بكم، إنّ هذا الأمر مستنكر استنكاراً يَتعجَّبُ منه المتعجّبون.

«لَمَّا» هنا اسمُ زمان، فهي ظرفيّةٌ بمعْنَىٰ «حين» وتختصُّ هذه بالماضي، ولتضمُّنها معنى الشرط كانت بحاجة إلى جواب، ويكون جوابُها فعلاً ماضياً كما في النصّ هنا، أو جملةً اسميّة مقرونةً بـ «إذا» الفجائية، أو بالفاء. وقد يُحْذَفُ جوابها لوجود دليلٍ يَدُلُّ عليه.

و «لمّا» الظرفية هذه تُلازم الإضافةَ إلى جُمْلة الشرط.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ﴾:

أي: أَوَحِينَ أصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ...؟

﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾:

أي: قد نِلْتُمْ مِثْلَيْهَا، المثلُ الْمُسَاوِي، فالْمِثْلانِ هُما مُساوِي الشَّيء وقَدْرُهُ مَرَّةً أخرى، وفي هذا إشارة إلى أنهم في بدر قتلوا سبعين من المشركين، وأَسَرُوا سَبْعين، لكن المشركين في أحد لم ينالوا أكثر من قتل سبعين من المسلمين.

يقال لغة: أَصَابَ الإِنْسَانُ من المالِ وغيره: أي: أخذ وتناول، ونَالَ. وقد كثر في السُّنَّة استعمال فعل «أَصَابَ يُصِيبُ» بمعنىٰ: نال، وأخذ، وحاز، واستمتع، مثل: أصابَ كذا من الغنيمة، أي: نال وأخذ.

وأصابَ من امْرأتِه، أي: استمتع بهما، فكلُّ شيءٍ يحصلُ الإنسان عليه يقال فيه: أَصَابَهُ.

﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ﴾:

هذه جملةُ جواب «لمَّا».

«أنَّى» هُنَا استفهامية، فهي أداة استفهام، وتأتي بمعنى: «مِنْ أَيْنَ» وبمعنى: «كَيْفَ».

والاستفهام هُنَا استفهام تَعَجُّبِيٌّ، وهو بمعنىٰ: كيفَ خَذَلَنَا ربُّنَا وقد وعَدَنا النَّصْرَ على لسانِ رَسوله؟! أو من أيِّ مكانٍ دخَلَتْ علينا هذه المصيبة؟!

ويظهر أنَّ أصحاب هذه المقالة لم يفطنوا إلى المعصية التي ارتكَبَهَا الطامعون في جمع الغنائم، التَّارِكون لمواقعهم قبل أن يأذن لهم الرسول ﷺ، منصرفين لحيازة ما انكشف عنه المشركون من أموالهم، فقالوها مُتَعَجِّبِين وباحثين عن العلَّة، هل هي من كيفيَّة الإخلاف في الوعد، أو من جهة أنفسهم إذْ تَسَبَّبُوا فيما يستحقّون به أن يرفع الله عنهم عونه ومَدَدَهُ لهم حتى النّصر المبين، فجاء استعمال «أَنَّى» صالحاً للمعنَيَيْن.

وجاء الجوابُ مُبَيِّناً مكان سبب المصيبة، إذْ علّم الله رسوله أن يقول لهم:

﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾:

أي: أَنْفُسُكُمْ هي المكان الذي صدر عنه السَّبَبُ، فحلّ بكم ما حلّ من مُصِيبَةِ القتل والهزيمة.

﴿ وَمَا أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾:

هو يومُ أحد، والجمعان هُما جمع المسلمين بقيادة الرسول ﷺ، وجمع لمشركين بقيادة أبي سفيانَ بْنِ حَرْب، والمرادُ من التقائهما التقاؤُهُمَا على تقاتُلٍ وحَرْب.

﴿ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾:

الإِذْنُ في اللُّغة يأتي بمعنَى العِلْم، يقال: أَذِنَ فُلانٌ يَأْذَنُ بالشيءِ إِذْناً وأَذَناً إذا عَلِمَ به.

ويأتي الإِذْنُ بمعنَى الإِباحة ولكن هذا المعنى لا يصلُحُ هُنا، فالله لا يُبيحُ للمشركين إباحةً تشريعيَّةً حُكْمِيَّةً قَتْلَ المؤمنين.

لكِنَّ العَالِمَ بالشَّيْءِ عنْدَ حُدُوثه، وهو قادر على أن يَمْنَعَ حُدُوثَهُ، بِمَنْعِ إمْدادِهِ الفاعل بالطاقة اللازمةِ له، أو بإقامة العقبات والموانع، أو بالصرف والتحويل، فإنَّ علْمَهُ عندئذٍ يُعْتَبَرُ مقروناً بالتمكين القدري.

فيكونُ مَعْنَى ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ على هذا، فبِعلْمِهِ وتمكينه تمكيناً قَدَرِيّاً، وتَسْخيرِهِ الأَسْبابَ والمسبَّبات. وضِمْنَ هٰذا المعنى تُفْهَمُ مُعظَمُ النُّصُوصِ القرآنية الّتي جاء فيها نحو هذا الاستعمال، مثل: [بإِذْنِ الله ـ بإِذْنِ رَبِّه ـ بإِذْنِ رَبِّهِمْ ـ بإِذْنِ رَبِّها ـ بإِذْنِهِ، والضمير لله].

وقد يأتي الإِذْنُ في القرآن مقترناً بمعنَى الإِباحة الشرعيّة، والتمكينِ القَدَرِي، دون أن يَنْفَكَّ عن معنَى العلم، ومن هذا ما جاء في النّصّ السابق: خطاباً للمؤمنين: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾:

أي: بعِلْمِهِ وَإِبَاحَتِهِ وتمكينه وتسخيره الأسباب والمسبّبات.

والاستئذان: إعلامٌ مع طَلَبِ الإباحة والتمكين.

﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾:

فادْرَؤوا، أي: فادْفَعُوا، الدَّرْءُ: الدَّفْعُ. يقال لغةً: دَرَأَهُ يَدْرَؤُهُ دَرْءاً وَدَرْأَةً إذا دَفَعَهُ، وتَدَارَأَ القَوْمُ: أي: تدافعوا في الخصومة ونحوها واخْتَلَفُوا.

وتقولُ: دَرأتُ الشيءَ، إذا دفَعْتَهُ عَنْكَ.

وقول الله تعالى:

﴿فَادَّٰرَءْتُمْ فِيهَا﴾:

أي: تَدارأْتُم فيها، بمعنى اختلفتم وتدافعتم، فكلُّ فَريق يَدْفَعُ عَنْ جهَتِهِ قَتْلَ

النَّفْسِ الَّتي قُتِلَتْ من بَني إسرائيل، ويُلْقِي التهمة على الفريق الآخر.

* * *

(٣)
ما رُوِيَ في سبب النزول

هذا النّصّ كسابقه اتّفق شيوخ أهل التفسير من السّلَف عَلىٰ أنَّ هـذا النصّ قد نزل بمناسبة الأحداث التي جرت في موقعة أُحُدٍ.

والآيات فيه مع سِبَاقِ النّصّ وسياقِهِ في السورة ظاهـرةُ التوافق مـع أحداث هـذه الغزوة.

* * *

(٤)
مع النّصّ في التحليل والتّدبُّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾؟!.

أي: أَوَ حِينَ أصَابَتْكُمْ أَيُّها المسلمون مصيبةٌ وهي مصيبتُكم الحاصلة يَوْمَ أُحُـد، إذْ قُتِلَ منكم سبْعون، وكُنْتُمْ قَدْ أصَبْتُمْ من عَدُوِّكُمْ مِثْلَيْها في بدر، فَقَتَلْتُم منهم سبعين، وأسَرْتم سبعين كـانَ في مقـدوركم أن تقتلوهم أيضـاً، لمّا حصـل ذلـك قُلْتُمْ من أيْنَ حصل هذا؟! أو كيف حصل هذا؟! متعجبين من الأمر، ظَانِّينَ أنّ من حقِّكُمْ على الله أن يَنْصُرَكُمْ على كُلِّ حـالٍ ولَـوْ عَصَيْتُمْ، وَخَـالَفْتُمْ، ولَمْ تُحَقِّقُـوا في أنْفُسِكُمْ شُـروطَ النصر.

إنَّ تَعَجُّبَكُمْ ممّـا أصـابكم هـو الـذي يستحقُّ أن يَتَعجَّبَ منـه المتعجِّبـونَ لو تبصَّرْتُم.

فـالاستفهامُ في: ﴿أوَ لَمَّا أصـابتكم مُصِيبَـةٌ؟!﴾ استفهـامٌ تعجيبيٌّ من تعجُّبهم بقولهم: ﴿أنَّىٰ هَذا؟!﴾.

والجواب الرّبّاني الذي أمر الله رسوله أن يجيبهم به هو ما جاء في:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ: هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

أي: تسألونَ: من أيْنَ حصل لكم هذا الذي نزل بكم، متوهّمين أنّه من جهةِ إخلاف الوعد؟ أوْ كيف حصل لكم هذا وقد سَبَقَ وعدُ الله لكم بالنّصر على لسان رسوله؟ وجوابكم أنّ ما حصل لكم هو من عِنْدِ أنْفُسِكُمْ فما في أنفسكم قد كان هو السبب الذي جَلَبَ لكُمْ مَا أصابكم من مصيبة.

إنّ وعد الله لكم بالنّصر مشروط بأن لا تُخِلُّوا بما أوجب عليكم، أمّا وقد وُجِدَ في نفوسِكُم الطَّمَعُ في الغنائم، وإرادةُ الدنيا، فجرَكُمْ ذَلِكَ إلى التنازع في الأمر، والمعصية للرسول، فالفشلِ، والانهزام، فما بعد ذلك من أشياء، فالأمْرُ كُلُّهُ من عِنْدِ أنْفُسِكم.

أمّا أسبابُ الله فقد كانت مُمْتدَّةً إليكم، لكنّكُمُ ابْتَعَدْتُمْ عَنْها، وتركتموها، فكيف تنصُرُكُمْ أسبابٌ لم تمسِكُوها، بَلْ تحوّلْتُمْ عَنْها؟! كيف تشربون من حوضٍ هجرتموه، واندفعتم نحو سراب غَرّكُمْ بأوهامه؟! كيف تَطْلُبُونَ من الله نصراً خارجاً عن حدود إمكانياتِ أسبابكم، وقد خالفتم أمْرَهُ وعَصَيْتُمْ رسُولَهُ وَعَصَيْتُمْ قادتَكُمْ؟!

إنّ ما نزل بكم لَمْ يكُنْ تجاوزاً لقدرة الله، وإفلاتاً من سلطانها، بل هو ضِمْنَ سلطانها، ولكن اقتضت حكمته جلّ وعلا أن يَنْزِل بكم ما نَزَل بكم، دلّ على هذا:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

فأكّدَ اللّهُ لهم أنّه على كلّ شيءٍ يشاؤُهُ سبحانه قديرٌ، لا يُعْجِزُهُ منْهُ شيء، ولو كان خَلْقَ السماواتِ والأرضِ وما فوقَ ذلك أو نَسْفَها وإزالَتَها إلى العدم، فما بَالُكُمْ بنَصْرِكم على عدوّكم، وهي من صُغْرَيات الأحداث؟!.

لكنّ الله عزّ وجلّ لا يُجري تصاريفه في كونه بمقتضيات صفة قدرته فقط، بل يُجْري تصاريفَهُ بقدرته القادرة على كلّ شيء، المقرونة بعلمه المحيط بكل شيء، وحكمتِه التي بِهَا تَتِمُّ إرادتُه، وقضاؤه وقَدَرُه.

إذن: فعليكم أن تبحثُوا عَنْ حكمة رَبِّكم فيما أَذِنَ بأنْ يَنْزل بكم من مصيبة في أحد، وكذلك في كلّ مصيبة تنزل بكم مستقبلاً.

إنّ البحث والتأمل يَهْدِيانكم إلى اكتشاف أنّ حكمة الله عزّ وجلّ قضت أن يؤدّبكم، ويُرَبّيكم، ويَبْتَلِي ما في صدوركم، ويمحّصها ويميّزَ المؤمنين الصادقين، ومن هم دون ذلك حتى دركة المنافقين.

وقد جاء ما يدُلُّ على عناصر هذه الحكمة في نصوص سابقة، ونصوص لاحقة، جاء فيها بيانات وعظات وتعليقات على أحداث معركة أُحُدٍ.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ﴾:

أي: وما أصابكُمْ من مُصيبة تعجَّبْتُمْ منْ نُزُولها بكم، يومَ الْتَقَى جَمْعُكُمْ وَجَمْعُ مُشْركي قُرَيش في أُحُدٍ، فقد كانَ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ، أي: بعِلْمِه وتمكينه تمكيناً قَدَرِيّاً وتَسْخِيرِهِ الأسبابَ والْمُسبَّباتِ، إذْ مكَّن أعداءَكُمْ مِنْكُمْ لحِكْمَةٍ اقْتَضَتْها إرادته، وهي تربيتُكُمْ وتأديبكم، وليمتحنَكُمْ، فيكشف المؤمنين الصادقين، ويميّزهم من غيرهم أصحاب الرّيب والشّكّ، وضعفاء الإيمان، فيعلَمَ حدوثَ ما سبق في علْمِهِ أنّه سَيَحْدُثُ، وليعلَم أيضاً على وجه الخصوص الذين نافقُوا، أي: أَنْشؤوا نِفَاقاً عند هذا الامْتِحان، أو تظاهروا برغبات إسلامية وهم مُنافِقُونَ في الحقيقة.

وقد دلّ على نفاقهم هذا أنّهم قيل لهم قبل معركة أُحُد: تَعَالَوْا قاتلوا في سبيل الله مؤمنين صادقين، أو تعالَوْا إلى المعركة مدافعين عن جماعة المسلمين، أو مدافعين عن أحسابكم وأهل بلدكم، فقالوا متعلّلين بأعذارٍ ظاهرة البطلان: لو نعلم أنّه سيكون قتالٌ

لاتّبعناكم وقاتلْنا معكم، ولكن سترون عند وصولكم إلى موضع المواجهة أنّ رأيَنا هو الأصوب، وترونَ أنّ المغامرة تهلكَة، وترون الرّجوع للاعتصام بالمدينة، أو لو نعلَمُ أنّه سيكُونُ قتالٌ يُظَنُّ معه النّصر لاتبعناكم.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾:

ما اسمُ موصول تضمَّنَ معنى الشرط، لذلك اقترن الخبر بالفاء ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

معطوفة على جملة مقدّرة دلّتْ عليها عبارة ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ أي: لتربيتكم وتأديبكم، وليَعْلَمَ المؤمنين.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾:

معطوفة على سابقتها. نافقوا: أي: أحدثوا نفاقاً، أو تظاهروا بإسلاميات هم بها كاذبون منافقون.

وقد عرفنا أن المراد من علم الله هنا أن يعلم الأمر بَعدَ وقوعه، المطابقَ لِعِلْمِهِ السابق به قبلَ وقوعه.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

نحن نعلم أنّ المنافقَ كافرٌ في باطنه غير مؤمن، فكيف يكون هؤلاء الذين نافَقُوا أقرب للكفر منهم للإيمان؟

لدينا احتمالان:

(١) إمّا أن يكونوا قد أنشؤوا نفاقاً لم يكونوا فيه، وساروا فيه خطوات، لكنهم لم ينغمسوا بَعْدُ بالكفر الثابت، فيكونوا كافرين منافقين، وقد صاروا بخطواتهم هذه أقرب للكفر منهم للإيمان.

(٢) وإمّا أنْ يكونُوا قد أظْهَرُوا بأقوالهم وأعمالهم ما قدَّمُوا به دليلاً من الأمارات

والعلامات الماديّة، ما يُمكِّنُ المسلمين من الحكم عليهم بأنهم قد صاروا أقرب للكفر منهم للإيمان.

فالدلائل تُرجِّحُ احتمال كُفرِهِمْ على احتمال كونهم مؤمنين.

وفي هذا إرشادٌ رَبّانيٌّ إلى أمارات الإدانَةِ البشريَّة.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾.

يكشفُ الله بهذا أنَّهم كذَّابُون، ومِنْ أكاذيبهم قولُهُم لِبَعْضِ الَّذِينَ خرجوا مع الرسول إلى معركة أحد من المؤمنين: لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ.

فهم يقولون بأفواههم كلاماً عمّا في قُلُوبهم، مع أنّه ليس في قُلوبهم ذلك الذي ادَّعَوْهُ وقالُوه بألسنتهم، إنَّهم يكتمون في قلوبهم عدم الرغبة بنُصْرَةِ الرُسول، وعدم الرغبة بانتصاره، ويظهرون بألسنتهم الإسلامَ، وادّعاءَ الإيمان، والحرصَ على انتصار الإسلام، وانتصار الرسول والمؤمنين معه، وهم في كلّ ذلك كاذبون، وأقوالُهم إنّما هي أُسْلُوبٌ من أساليب النفاق.

وإذا كان ما يكتمونه في قُلوبهم، قد يَنْشغِلون عنه، فلا يكون حاضراً دواماً في تصوراتهم، وحركاتِ أفكارهم، وخلجاتِ نُفُوسهم، فالله عزّ وجلُّ لا يعزُبُ عنه عِلْمُ ذلك في أعماق قلوبهم، طرفةَ عَيْنٍ ولا أقلَّ من ذلك. إنَّهم قد يغفُلُون عمّا يكتمون في قلوبهم، لكنّ الله عزّ وجلّ عليم به دواماً، لذلك جاء في النّصّ:

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾:

أي: أعلم منهم بما يكتمون في قلوبهم، يضاف إلى هذا أنّ بعضَ ما يكتمون في قلوبهم هو من قبيل المشاعر الحبيسة الغامضةِ، الّتي لا تستطيع أذهانهم ولا تصوُّراتهم تَحْديدَ حقيقتها، لكنّ الله يعلم حقيقتها علماً دقيقاً شاملاً، فهو سبحانه أعلم بما يكتمون.

ويلاحظ أنّه قد جاء التعبير هنا بالأفواه، على خلاف ما جاء في سورة (الفتح/

٤٨ مصحف/ ١١١ نزول) من التعبير بالألسنة، في قوله تعالى:

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ... ﴿١١﴾﴾.

وبتأمُّلِ النَّصَّيْنِ وَمَضامينهما نرىٰ أنَّ التعبير بالأفواه يُشْعِر بأنّهم يملؤون أفواههم متشدّقين بكلام يفخّمونه على قَدْر تجاويفها، حينَ يزعمون أنّهم حريصون جدّاً على مشاركة المؤمنين في القتال والدفاع، لو أنّهم يعلمون أنه سيكون قتالٌ فعليٌّ جادّ. وهي حركة تلقائية يندفع الكذّابُ المنافِقُ إلى تَصَنُّعِها، ليُغَطّي بها كذبَهُ ونِفَاقه.

أمّا التعبير بالألسنة فقد جاء في وصف كلام معتذرين مستغفرين، وهؤلاء يأتون عادة مُتَمَسْكِنِين لا يتشدّقون، وقَدْ يَغُضُّون من أصواتهم، ويكتفون بتحريك ألسنتهم.

فالتشدُّق بالمعاذير من أمارات الكذب، وعلامات النفاق.

وضَح لنا أنّ هذا البيان قد تضمَّن ما يلي:

(أ) كشف الله فيه واقع حال المنافقين في سريرتهم على خلاف ما يتظاهرون به في أفواههم متشدّقين.

(ب) أعلم الله المنافقين أنّه لا تخفىٰ عليه منهم خافية.

(ج) أبان الله للمؤمنين بعض أمارات النفاق وعلاماته، وهو التشدّق بالأفواه لدىٰ المعاذير ودعاوى صدق الإيمان والإسلام والحرص على المسلمين والرغبة في البذل من أجلهم، مع مخالفة الأعمال للأقوال.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾:

أي: : هؤلاء المنافقون الّذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، هُمُ الّذين قالوا بعد معركة أُحُدٍ عن إخوانهم، أو لأجل إخوانهم الذين قُتِلُوا فيها، والحالُ أنهم

كانوا قد قَعَدُوا عن المعركة ونَصَحُوا إخوانهم بعدم الخروج: لو أطَاعونَا فيما نصحناهم به ما قُتِلُوا.

هذه المقالة من مقالاتهم تدُلُّ على عدم فهمهم لركن قضاء اللَّهِ وقدره من أركان الإيمان، أو عدم إيمانهم به كلّيًّا.

وقد تتضمَّنُ هذِه المقالةُ تَصَوُّرَ أَنَّ تَفَادِيَ أَسْبَابِ الموت كُلِّها يمنع حدوث الموت ويَدْرَؤُهُ، فجاء البيان التالي في تتمّة الآية، وهو:

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾:

أي: قل لهم يا مُحمَّدُ جواباً على ادّعائهم أو تصوُّرهم الذي تضمّنتْهُ مقالَتُهُمْ: فادْفَعُوا عن أنفسكُم الموتَ إذا جاءت آجالكُمْ، إنْ كنتم صادقين في ادّعاء أنّ تفاديَ أسباب الموت يمنع حدوث الموت ويدرؤه.

والجواب هنا خاصٌّ بالرّدّ على مذهب المادّيّين السببيّين، الّذين لا يؤمنون بمقادير الربّ الخالق في الحياة والموت، والوجود والعدم.

وفي نصوصٍ أُخرى جاء الرّدّ على الأوهام الأخرى حول هذا الموضوع، ومنها جميعاً تُستَخْرَجُ كُلُّ الرّدُود التي يَتكامَلُ بها عِقْدُ الموضُوع.

● ● ●

النصّ الحادي عشر

من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنية
الآيـات مـن (١٧٦ ـ ١٧٩)
حول الذين بدؤوا خطوات النفاق إبّان غزوة أحد
ومسارعتهم في الكفر وتربية الله رسوله والمؤمنين بشأنهم

هذا النص مثل النصّين السابقين التاسع والعاشر، اشتمل على بيانات وعظات وتعليقات ومتابعات تتعلّق بالأحداث التي جرت في غزوة أُحُدٍ، وما استتبعتْ هذه الغزوة، وما كان من المنافقين فيها وبعدها.

يقول الله عزّ وجل في سورة (آل عمران) خطاباً لرسوله:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

* * *

ما في النصّ من القراءات المتواترة (من الفرش)

(١) قرأ نافع: [وَلاَ يُحْزِنْكَ] بضمّ الياء، من أحْزَنَهُ الأمرُ يُحْزِنُه. وهي لُغة، أمّا

قراءةُ سائر القرّاء فهي من حَزَنَهُ الأَمْرُ يَحْزُنُهُ، وهي لُغَةٌ. قال الجوهري: حزنَهُ لُغةُ قريش، وأَحْزَنَهُ لغة تميم.

(٢) وقرأ حمزة: [وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا] بتاء الخطاب وفتح السّين، فبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، قراءة جمهور القراء تتحدّث بالغيبة عن الذين كفروا، وقراءة حمزة تخاطبُ الرَّسُول وكلّ مؤمنٍ خطاباً إفرادياً، وهذا من الإيجاز الذي يعتمد على تغيير حرف واحد.

(٣) وقرأ ابن عامر وعاصم وأبو جعفر: [وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كفروا] بفتح السّين وياء الغائب، وقرأ سائر القرّاء العشرة [وَلاَ يَحْسِبَنَّ الذينَ كَفَرُوا] بكسر السّين وياءِ الغائب. وهما لغتان للكلمة، يقالُ: حَسِبَهُ يَحْسَبُهُ وَيَحْسِبُهُ بفتح السين وكسرها في المضارع حِسْبَاناً بكسر الحاء، أي: ظَنَّهُ يظُنُّهُ ظنّاً باطلاً.

(٤) وقرأ حمزة والكسائي وَخلَفٌ: [حَتَّىٰ يُمَيِّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ] من مَيَّزَ بالياء المشدّدة يُمَيِّز تمييزاً، وقرأ سائر القُرّاء [حَتَّىٰ يَمِيزَ] من مَازَ يَمِيزُ مَيْزاً، أي: عزل الشيء وفرزه ونحّاه، وهما لغتان في الكلمة والمعنى واحد.

* * *

(١)
المعنى العام للنّص

مواقف المنافقين وأهل الرّيب والشّك وضعفاء الإيمان في معركة أُحُدٍ وما بعدها، قدآلَمَتِ الرسول ﷺ، وفريقاً من المؤمنين الصادقين، فاقتضت الحكمةُ العِلاجيَّةُ التربويَّة، إنزال بيانٍ خاصّ مُوجّه للرّسول، ويستفيدُ منه سائر المؤمنين تبعاً، مع ما فيه من توجيهٍ غير مباشر لأصحاب هذه المواقف.

فقال الله عزّ وجل لرسوله:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

في هذا النَّصّ قضيَّتان:

* **القضية الأولى**: متابعة حركة تدرُّج الذين سلكوا مسلك النفاق، وذلك لأنّهم بعد أن خطَوُا الخطوات الأولى في النفاق، تبعاً للذين كانُوا منافقين من قَبْلُ، أخذَتْ خُطُواتُهُمْ تتسارع في طريق الكفر، ويُخشَىٰ أن يَصِلُوا قريباً إلى حضيضه الوخيم.

* **القضيّة الثانية**: مُتابعةٌ تربويّة من الله لرسوله تُبَيِّنُ له أنّه لا ينبغي له أن يحزن إذا وجد بعض أتْبَاعه ارتَدُّوا منافقين، بعد أن كانُوا في ظاهر حالهم مؤمنين، فأخذوا يسارعون في طريق الكفر إلى شقائهم، نظراً إلى أنّهم سائرون في مسيرتهم المرتَدَّة إلى مواقع الكفر الخالص في الباطن.

وهذا الحزنُ يُحرّكه في الرّسول ﷺ أمران:

الأمر الأول: رحمته صلوات الله عليه وسلامه بهم، وحرصُه عليهم، وخوفه من سوء المصير الذي هم إليه سائرون فصائرون.

الأمر الثاني: تخوّفُه ﷺ من تناقُصِ أنصار هذا الدين، ومن حصول الضرر في مسيرة الدّعوة الرّبانية.

وقد عالجتْ تربية الله لرسوله هٰذين الأمرين ببيانٍ لكُلٍّ منهما.

(أ) أمّا تخوّفُه على الدّعوة الإسلاميّة الرّبّانيّة من تناقُص أنصارها، وارتِدَادِ بعْضِ المنتمين إليها، بسُلوكهم مسالكَ النفاق الذي يجرُّهُمْ إلى الكُفْر الخالص، فقد جاء البيان بخصوصه يكشف للرسول ﷺ أنّ هؤلاء الذين يُسارِعُونَ في الكُفر لنْ يضُرُّوا الله شيئاً.

أي: لن يضُرُّوا الله في مسيرة أنظمة أكوانه شيئاً، ولن يضرُّوا الله في ذاته أو صفاته شيئاً، ولن يضُرُّوا دينَ الله المؤيّد بتأييده شيئاً. فظهور هذا الدّين لا يؤثّر عليه ارتداد المرتدّين عنه، بنفاق أو بغيره، ولو انحازوا إلى أعداء الإسلام بكلّ صراحةٍ ووقاحة، فهم غير صالحين منذ البداية لأن يكونُوا جنود دعوة، أو جنود جهاد في سبيل الله صادقين، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النص:

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ... ﴿١٧٦﴾﴾.

(ب) وأمّا رحمته ﷺ بهم، وخوفُه عليهم من سوء المصير، فقد جاء البيان بخصوصه يكشف للرسول أنّ من اختار لنفسه الكفر فقد قَذَفَ هو بنفسه إلى حيث يستحقُّ بعدل الله في حسابه وعقابه الحرمانَ من نعيم الجنّة، والعذابَ الأليم في النار.

وعَدْلُ اللّهِ في أحكامه من إرادته الْعَدْلِيّة، وتنفيذ هذه الأحكام من إرادته الجزائية الحكيمة العادلة، ومن استحقّ ذلك بإرادة الله الحكيمة العادلة، المبْنِيّة على قضائه بالعدل، وحكمه بالعدل، المستند إلى فعل المجرمِ باختياره الحرّ، فليس هو بأهل لأن تَرْحَمَهُ، وتَحْزَن من أجله.

دلّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾:

أي: فليس لهم حظٌّ في الجنّة، وهذا من عدل الله بإرادته الحكيمة، ولَهُمْ في النّار عذابٌ عظيم، وهذا أيضاً من عدل الله بإرادته الحكيمة.

وبعد الحديث عن الذين سلكوا مسلك النفاق مسارعين في الكفر تبعاً للّذين مَرَدُوا على النفاق، أبان الله عزّ وجلّ في النّصّ حال الذين استكملوا مسيرتهم في النفاق، واستقرّوا في الكفر، فاستبدلوا الكُفْرَ بالإيمان، ولم يبْقَ في قُلوبهم أيّ الْتِفاتٍ إلى مواقع الإيمان، وأمْسَوْا في مواقع الكفر الخالِصِ في الباطن.

إنّهم أيضاً مثلُ الّذين يسارعون في الكُفر:

(١) لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئاً.

(٢) ولهم عذابٌ أليم.

دلّ على هذا الفريق قول الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾.

ومن هذا نُلاحظ أنّ حركة النفاق قد تتابَعَتْ خِلال أحداث غزوة أُحُدٍ وبَعْدَها ضمن خطٍّ بيانيّ اشتمل على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: بَدْؤُهُمُ السَّيْرَ في طريق النفاق.

دلّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ في النّصّ السابق من سورة (آل عمران):

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

المرحلة الثانية: مسارعتهم في طريق الكفر مُتّجهينَ شَطْرَ غايته، بَعْدَ انْـزِلاَقِهِمْ في المرحَلَةِ الأولى.

دلّ على هـذه المرحلة قـول الله عزّ وجـل في هـذا النّصّ الحـادي عشـر الـذي نتدبَّرُه:

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

المرحلة الثالثة: بلوغُهُمْ إلى غاية الكُفر، واستقرارُهُمْ في مَوْقِعِه، إذِ اشْتَرَوُا الكُفر بالإيمان.

دلّ على هذه المرحلة قول الله عزّ وجلّ في هذا النّصّ أيضاً:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

وبَعْدَ أنْ تحقّقَ هؤلاء الذين نافقوا بالكُفرِ الخالص، إذْ وصَلُوا إلى غاية الطريق التي انزلَقُوا في مبادئها أوّلاً، ثمّ سارعوا منحدِرين في أواسطها، حتّى اشْتَرَوُا الكُفْرَ بالإيمان في غايتها، واستقرُّوا في موقع الكُفْر، وَأبْقَوا ظاهر الانتماء إلى الإسلام نفاقاً، تحوّل الحديث عنهم إلى كلامٍ عن كافرين.

وهنا يكشف اللّهُ عزّ وجلّ طرفاً من حكمته في إمهالهم، وعدم المسارعة في الانتقام منهم.

فالله عزّ وجلّ يُمْلِي لهم ليَتمادَوْا في مُمَارسات الكُفر، فيزدادوا إثْماً، وإذا ازْدادُوا إثماً كانت إدانتُهم بالكفر أقوى أدلّة وأكثر براهين، ولم يكن لهم يوم الدّين مـا يعتذرون

به، من أنَّ ما كان منهم قد كان أثر طَيْشٍ عارض، أو انفعالٍ طارىء، أو جهالةٍ كان من الممكنِ أن يَصْحُوا منها، لو تُرِكَتْ لهم فُرصَةُ التوبةِ والرُّجْعَةِ.

فَمَنْ أُمْهِلَ مَعَ الإِنْذارِ إمهالاً كافياً للتوبة، وقد فتحت له أبوابُها، ثُمَّ ظلَّ مكابراً معانداً، يزداد إثماً وطُغياناً، فقد أسقط كلَّ أعذاره، وكُلَّ تعلُّلاته، واستَحَقَّ العقاب بلا شفقةٍ ولا رَحْمةٍ، لأنّه لم يشفق هو على نفسه، ولم يرحَمْها.

فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

بعد ذلك التفت النّصّ إلى المؤمنين لِيُبَيِّن الله لهم فيه حكمته حول تساؤلات قد تقع في نفوسهم، ولو لم ينطقوا بها في ألسنتهم، ومن هذه التساؤلات ما يلي:

التساؤل الأوّل: لماذا أنزل الله بنا هذه المصيبة العامّة الّتي شَمَلَتِ المحسنين والمسيئين يومَ أُحُدٍ؟

وجاء جواب هذا التساؤل النفسي في قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾.

أو: [حتّى يُمَيِّزَ الخبيثَ مِنَ الطّيِّب] في القراءة الأخرى.

أي: ليس من شأن الله ولا من شأن حكمته في مسيرة أوليائه حاملي رسالته، أن يتركهم وقد اختلط بينهم الأخباث المنافقون اختلاطاً يجعل جماهير المؤمنين لا يميِّزون بسببه المنافق الخبيث من المؤمن الطيِّب.

فهذا الاختلاط من شأنه في نظام الأسباب والمسبَّبات أن لا يُمَكِّن رسالة الله من أن تبلُغ مداها الظّافر، ولا يُمكِّن المؤمنين الصادقين من الظُّهورِ في الأرض على أعدائهم الكثيرين، لأنّ المنافقين سيتابعون عبثهم من داخل صفوف المؤمنين، ويُتابعون مكايدهم، حتّى يحتلُّوا مراكز القيادة، فيعطفوا برسالة الإسلام عن صراط الله المستقيم، ويسلُكُوا بجماهير المؤمنين في مسالكَ شيطانيّة خبيثة، وعندئذٍ تسقط المسيرة في براثن الشياطين.

فَسلامةُ مسيرة الدعوة الربّانية، وتنامي الأمّة الإسلاميّة، يقتضيان هذا التمييز.

التساؤل الثاني: إذا كانت الغاية تميز المنافقين الأخباث المندسين في صفوف المؤمنين من المؤمنين الصادقين، لتحذير المؤمنين من مكايدهم، أما كان من الممكن أنْ يُنوّر الله بصائر المؤمنين فيكشف لهم بذلك المنافقين، دون ابتلائهم بامتحانٍ عامٍّ يتعرَّضون فيه للمصائب العامّة؟

وجاء جوابُ هذا التساؤل النفسي في قول الله عزّ وجلَّ في النّصّ:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾.

أي: ليس من سنة الله ولا من حكمته أن يختصَّكُمْ بالاطّلاع على بواطن قُلُوب المنافقين، فتحذروهم بناءً على علمكم بهم. إنَّ ما تُكنُّهُ الْقُلُوب هو من دوائر الغيب الذي حجبه الله عن الناس بحسب سنَّته الثابتة.

هذه هي القاعدة والسُّنَّةُ الثابتة، ولكن قد يجتبي الله من رُسُلِهِ مَنْ يشاءُ، فيُطْلِعُهم على ما يشاء ممّا هو غيبٌ عن الناس بحسب سنته، لحكمة من حكمه الجليلة تبارك وتعالى:

وبياناً لهذا الاستثناء قال الله عزّ وجل:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

فعلَى المؤمنينَ إذَنْ أنْ يَدْفَعُوا عن أنفسهم وأذهانهم كلَّ الْخواطِر الّتِي تُشَكِّكُ في حكمة الله في تصاريفه بقضائه وقدره، مهما كانت مُخَالفةً لمَا يُحبُّونَ، ومهما اشتملت على مكارِهَ لهم يكرهونها.

فمثلُ هذه الخواطر تُؤثّر على كمال الإيمان الذي يستوجب التسليم الكامل لله فيما تجري به مقاديرُه، ويستوجبُ الثّقة التّامّة بأنّه هُوَ الأحكم والأصلح، فهو سبحانه وتعالى العليم الحكيم، الذي لا تنفكُّ حكمتُه العظيمة عمّا تجري به مقاديره، وإن جاءت على خلاف ما يهوى المؤمنون أو يحبّون.

وإرشاداً إلى هذا العنصرُ من عناصر الإيمان، وتنبيهاً على وجوب التقيُّد به، والحذر من خَدْشِهِ بالخواطر والتساؤلات حول مقادير الله الحكيمة، قال الله عزّ وجل

للمؤمنين بعد بيان سنته الحكيمة لهم:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾:

أي: فأكملوا عناصر إيمانكم بالله وبعلمه وحكمته، وأكملوا عناصر إيمانكُمْ برُسُلِهِ، ولا ترتابوا في صدق وعودهم، ولا تنقصوا هذا الإيمان شيئاً، أو تجرحوه بالخواطر الْمُشَكِّكة بكمال حكمة الله عزّ وجلّ، وإن تُـؤْمِنُوا هـذا الإيمان الكامل المصحوبَ بالتسليم التامّ لله ورسوله، وتتقوا مخالفة أوامر لله والرسول ونواهيهما، فلكُمْ بهذا الإيمان وهذه التقوىٰ أجرٌ عظيم.

* * *

(٢)
المفردات اللغويّة للنّصّ

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ﴾:

الحزن: قال اللغويّون هو نقيض الفرح، وخلاف السرور. أقول: يمكن أن نُعرِّفه بأنّه مشاعر ألمٍ في النفس بسبب محبوب أو مرغوب به فات، أو بسبب مكروه نازل، أو بسبب مكروه متوقَّع النزول كالحزن على محكومٍ عليه بالإعدام.

وفعله: حزَنَه يَحْزُنُهُ وأحْزَنَهُ يُحْزِنُه حُزْناً، فَهُوَ مَحْزُونٌ وحزينٌ وحَزِنٌ، وهم حِزَانٌ وحُزَناء.

﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾:

السُّرْعَةُ: العجلة، وهي في العمل ذي الحركات المتتابعات، إنجازُ الحركات مع تقليل الوقت بحسب نسبة السُّرْعة، وعَكْسُهَا البطء، ولكلٍّ منهما درجات كدرجات الحرارَة والبرودة.

والمسارَعَةُ، فيها معنى المبالغة في السُّرعَة، لأنّ صيغة المفاعلة إنْ لم تَدُلَّ على المشاركة فهي للمبالغة. يقال: سارَعَ يُسارِعُ مسارعَةً إلى الأمر، أي أسرع بحركته أو في طريقه للوصول إلى الأمر.

ومعنى يسارعون في الكفر، يُسارِعُونَ بخطواتهم المتتابعات في مُنْحَدرات الكفر، بسلوكهم مسالك النفاق، وغاية مسارعتهم الوصولُ إلى حضيض الكفر.

﴿حَظًّا﴾:

الحظُّ: النصيب من الخير أو النعمة أو السعادة أو الفضائل النفسيّة أو ما فيه نفع، وقد جاء في القرآن استعماله في النصيب من الميراث، وفي النصيب من الأموال، وفي النصيب من فضائل الأخلاق، وفي النصيب في الآخرة من الجنّة، وفي النصيب من الوصايا والشرائع والأحكام الدينية الرّبانية (وقد استعملت الكلمة في القرآن سبع مرّات).

﴿اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾:

أي: استبدلُوا الكفر بالإيمان، فأخذوا الكفْرَ وتركوا الإيمان، وفي هذا التعبير استعارة قائمة على تشبيه عمليّة ترك الإيمان واعْتناقِ مفهومات الكفر، بعمليّة البيع والشراء.

﴿نُمْلِي لَهُمْ﴾:

أي: نُمْهِلُهُم. يقالُ لغةً: أملَى الله له، أي: أطال له وأمْهَلَهُ. ويقال: أَمْلاهُ اللّهُ العيشَ، أي: أمهلَهُ وطَوّل له.

﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾:

الخبيثُ: الرّدِيء الفاسدُ الضّارُّ من كلّ شيء، وقد يطلق على الشيء الكريه في رائحته أو منظره، ولو كان نافعاً كنباتي الثوم والبصل كَرِيهَي الرائحة مع نفعهما.

يُقالُ: خَبُثَ الشيءُ خُبْثاً وخباثةً، إذا صار فاسداً رديئاً مكروهاً، فَهُو خبيث.

والطيّبُ: ضِدُّ الخبيث، ويُطْلَق على الطاهر، والطيبُ من المآكل ما هو لذيذ لا ضرر فيه، الطيبُ من الأرض ما كان منها طاهراً نظيفاً، وما كان منها خصيباً حسن الإنبات. والشجّر الطيّب الذي يؤتي أُكُله جيّداً بإذن ربّه، والشجر الخبيث لا يخرج إلاّ عَسِراً نَكِداً.

وهكذا فكلمتا الطيب والخبيث من الكلمات العامّة، المتضادّة.

﴿ٱلْغَيْبِ﴾:

الغيبُ أمْرٌ نِسْبِيٌّ وهو كُلُّ محجوب عن إدراك المدرِك فهو بالنسبة إليه غيب، وقد لا يكون غيباً بالنسبة إلى غيره، فما يكون غيباً بالنسبة إلى بعض المخلوقات قد يكون مشهوداً بالنسبة إلى مخلوقات أخرى، والحجاب الذي يجعل الشيء غيباً، قد يكون الماضي، أو المستقبل، أو البعد المكاني، أو وجود حاجز، أو عجز أداة الحسّ عن الإدراك.

﴿يَجْتَبِى﴾:

أي: يختار ويصطفي، يُقالُ لغةً: اجتباهُ يجتبيه اجتباءً، إذا اختاره واصطفاه لنفسه.

* * *

(٣)
ما روي في سبب النزول

ظاهر هذا النصّ كسابقيه، قد نزل بمناسبة الأحداث التي جرت في موقعة أُحُدٍ، وبعدها، والآيات فيه ظاهرة التوافق مع هذه الأحداث.

* * *

(٤)
مع النَّصّ في التحليل والتَّدَبُّر

* قولُ الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

أو: [وَلاَ يُحْزِنْكَ] في القراءة الأخرى.

أي: ﴿ولا يحزنْك﴾ يا محمّد ﴿الذين﴾ كانوا معك مسلمين، ثُمّ بدؤوا خُطُواتهم في أوائل سُبُل النّفاق مع المنافقين، وهم الآن يُسارعون بأعمالهم الظاهرة والباطنة ﴿في﴾ طريق ﴿الكفر﴾ مُتَوَجِّهين إلى مواقع الكُفر الخالص، الذي ليس فيه من عناصر الإيمان شيء.

وبهذا الفهم يتضح لنا الغرض من تَعْدِية فعلِ ﴿يُسَارِعُونَ﴾ بحرف ﴿فِي﴾ فليس الغرض مجرّد التعبير بأنّهم يسارعون إلى الكفر، بل الغرضُ بيانُ حركةِ أعمالهم التي يُسَارِعون بها، والإشارةُ إلى السُّبُلِ التي يجعلون حركتهم السّريعة فيها، وبَيَانُ الغاية التي تَنْتَهِي عندها مُسَارعتُهم وهي الكُفْر الخالص.

فدلّ على الأول فعل ﴿يسارِعون﴾ ودلّ على الثاني حرف ﴿فِي﴾ ودلّ على الثالث كلمةُ ﴿الكفر﴾، وبإبراز المطويات بيْنَ المثاني تَظْهَرُ المعاني.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾.

أي: ﴿إنّهم﴾ بسلوكهم مسالك النفاق، ومسارعتهم في طريق الكُفر مُتّجهين للاستقرار في الكُفْر الخالص ﴿لَن يَضُرُّوا الله شيئاً﴾ لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في قوانين كونه، ولا في سُنَنِه الثابتةِ التي يُجْرِي على وفقها تصاريفه في السماوات والأرض والأحياء والناس، ولا في مسيرة دعوة رسوله التي قضىٰ لها بالظهور والانتصار والاستعلاء في الأرض على سائر الدعوات، مهما تألّب عليها الأعداء من الخارج والداخل، أو انْحسر عن مُنَاصَرَتِها المنافقون والمرتدُّون.

لَا تحزَنْ يا مُحمّد من أجل الدّين وحرصك على ظهوره وانتصاره، فَهُو مؤيّدٌ بتأييد الله، وسَيُظهرهُ اللّهُ على الدّينِ كُلِّه ولو كره المشركون، ولو كره الكافرون.

ولا تحزَنْ من أَجْلِ هؤلاء المسارعين في الكُفْر، فإنّهم لا يستحقُّونَ شفقتكَ عليهم، ولا رحمتَكَ بهم، وارْضَ بمُرادِ اللّهِ فيهم، فإنَّهُمْ بمُسَارَعَتِهِمْ فِي الكُفْرِ استحقُّوا أن لا يكون لهم حظٌّ سعيد في الآخرة، واستحقوا أن يكون لهم عذابٌ عظيم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

أي: ولمَّا اسْتَحقُّوا بمقتضىٰ قانون العدل الحكيم، أن لا يكون لهم حظُّ سَعِيدٌ في الآخرة، وأنْ يكونَ لهم عذابٌ عظيم، فإنّ إرادة اللّٰهِ المتابعة لحركةِ أعمالهم الْمُتَتابِعَةِ المتجدِّدَة في الجرائم، تقضي بأن لا تجعلَ لَهُمْ حَظّاً سعيداً في الآخرة في جنات النعيم، وتقضي بأن يكون لهم عذابٌ عظيم، ملائمٌ لجرائمهم العظيمة، في دار العذاب الأليم.

هذا هو مقتضىٰ حكمة اللّٰهِ الرَّبِّ العليم الحكيم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

أي: هؤلاء الّذين نافقوا ثُمَّ أخذوا يُسارِعُونَ بأعمالهم وممارساتهم في طريق الكفر، قد انتهت بِهِمْ المسيرة المنحدرة المجرمة، إلى أَنْ بَلَغُوا موقع الكفر الخالص من كل عناصر الإيمان، فاستبدلوا الكفْرَ بالإيمان، فالْقَوْلُ فيهم الآن كالقول فيهم إذْ كانوا يسارعون في الطريق الموصل إلى الكفر الكامل، مع التّنبيه على أنّ العذاب العظيم الذي لهم، هو عذاب أليم أيضاً، فهو عظيمٌ وأليم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾:

أي: هؤلاء الذين اسْتَقرُّوا في الكُفْرِ في الباطن، مع اتّخاذ تقيّة النفاق في الظاهر، نُمْهِلُهُم كما نُمْهِلُ سائرَ الكافرينَ المنافقين والمجاهرين بكفرهم، فيحسَبُونَ أنّ ما هُمْ فيه هو لمصلحتهم، إذْ يمكِّنُهم من الاستقرار في معيشة هادئة مطمئنّة، بعيدين عن أن تنزل بهم نقمة المؤمنين الصادقين.

لكنّ ظَنَّهم هذا ظنُّ مُغْتَرٍّ بالظواهر، غَيْرِ مستبْصِرٍ بحقائق الأمور، إنّهم ينخدعون بإمْهالِ الله لهم، فيظنُّونَ أنّه لا تُوجَدُ قُوَّةٌ غيبيّةٌ قاهرةٌ قادرةٌ على الانتقام منهم، إذْ قَدْ

مَضَتْ مُدَّةٌ كافيةٌ فيما يَعْرفونَ منْ طَبائع البشر، لإنْزَالِ النّقمة بهم، لكنّها لم تَنْزِل بَعْدُ، فلو كان هذا الدين الذي كفروا به في سريرتهم حقّاً، لنزلت بهم نقمة الله، عقاباً لهم على كفرهم ومكايدهم.

إنّ ظنّهم هذا ظنٌّ باطل، فالإمْهالُ له في قضاء الله وقدره حكمة بالغة.

وكذلك من ظنّ مثل هذا الظّنّ من المؤمنين بوجْهٍ آخرَ فظنُّه غير صحيح أيضاً.

إذَنْ: فصحِّحْ فَهْمَكَ أيُّها المؤمنُ ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ﴾.

إذن: فلا يَغْتَرَّنَّ ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ فَنُمْهِلُهُم، ولاَ نُعَجِّلُ لهم العقاب ﴿خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ﴾ بلْ هُو إذَا لم يَتُوبُوا إلى بارئهم، ويرجعوا إلى مواقع الإيمان والتّقوى، شرٌّ لهم ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادوا إِثْماً﴾ في مُدَّةِ الإمهالِ حين يُصِرُّونَ على كُفْرِهم وَلاَ يتوبُون، وبازدياد آثامهم مع وضوح الحقّ لهم تنقطِعُ يومَ الحساب والجزاء أعْذارُهم، فلا يبقىٰ لهم عذْرٌ يعتذرون به، وتكون متراكمات آثامهم برهان إدانتهم القاطعة بأنّهم ممعنون في الكفر والفجور، ولم يكن كُفْرُهُمْ وفجورُهم منْ قبيل النزعات الطارئات التي يرجع الإنسان عنها عند صحوات الضمير، وبذلك يستحقون دخول دار العذاب يوم الدين، ﴿ولهم﴾ فيها ﴿عذابٌ مُهِينٌ﴾: أي: مُذِلٌّ لهم، وهو في مقابل كِبْرِهِمْ وتَطاوُلِهم على مَقام الخالق القادر القاهر المنعم جلّ وعلا.

فتحصّل أن لهم عذاباً عظيماً أليماً مُهيناً.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾:

أي: وأمّا أنتم أيُّها المؤمنون فلا تَعْبثْ فيكم وساوسُ الشيطان وخواطر السوء، فتقومَ في أنْفسِكم مُقْتَرَحاتٌ تقترحونها على اللهِ، فيما هو من خصائص مقاديره

الملازمة لعلمه وحكمته، فتظنّوا أنّه قد يكونُ من الأصلح أن يَنْصُرَكم دون ابتلائكم لتمييز المنافقين المخالطين لكم من المؤمنين الصادقين، أو يكشِفَ لكم المنافقين فيُطلعَكُمْ على ما في قلوبهم، فتُميّزُوهم عنكُمْ، وتُنَقّوا صُفوفكم منهم.

اعلموا أنّه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾:

أي: ليس من شأنه ولا من سنّته أن يَتْرُكَ المؤمنين على مثل ما أنتم عليه من اختلاط المنافقين فيهم، حتّى يتركَكُمْ وأنْتُمْ مُؤْمِنُون على ما أنْتُم علَيْهِ من اختلاط المنافقين فيكم ﴿حتّىٰ يَمِيزَ﴾ المنافِقَ ﴿الخبيثَ مِنَ﴾ المؤمن ﴿الطيِّب﴾ بالامتحان الشديد، الذي يأتي ببعض المصائب للجميع، ولولا ذلك لاستمرّ المنافقون الأخباث يعبثون في صُفوفكم حتّىٰ يُفْسِدُوا كُلَّ أعمالكم ومُخطّطاتكم، ولم يَزيدُوكُمْ إلَّا خبالاً، فساداً وإفساداً وإضراراً.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾:

أي: وليس من شأنه ولا من سُنّتِهِ، أن يُغيِّرَ نظامَ حِكْمَتِه في خَلْقِه، فيَخْتَصَّ المؤمنينَ وأنْتُم مِنْهُمْ بإطْلاعِهِم على الْغَيْب، ومِنْهُ سَرائِرُ القُلُوب، حتّىٰ تَكْشِفُوا المنافقين فِي صُفُوفِكُمْ، فتُميّزوهم، وتَعْزِلُوهُمْ، وتَنْبِذُوهم من صفوفكُمْ.

فقضِيَّةُ الإطّلاع على الْغَيْبِ ممّا يَخْتَصُّ الله به رُسُلَه الّذِين يَجْتَبيهم ويصطفيهم بمشيئته لحمل رِسَالاته، ولا يَجْعَلُه أمراً عامّاً لكُلِّ المؤمنين.

إذَنْ: فاحْذَروا أيُّها المؤمنونَ من هٰذه الخواطر والوساوس، لئلّا تَجْرَحَ إيمانَكم، إذ هي شُكُوكٌ في كمالِ حكمةِ الله ﴿فآمِنُوا باللهِ﴾ إيماناً كاملاً نقيّاً من الشكوك، ومن أن تَظُنُّوا بالله مَا لَا يَلِيقُ بكمال صفاته، و﴿آمِنُوا﴾ بـ﴿رُسُلِهِ﴾ وبِصدِّقهم فيما يُبَلِّغونَ عن رَبّهم، ومن ذلك وعْدُهم لكم بتأييد الله ونصره ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ هذا الإيمانَ الصادقَ الذي لا تُخالطُه شكُوكٌ ولا ظنُون لا تليقُ بالله ورُسُله ﴿وتَتَّقُوا﴾ الله في أعمالكم الباطنة والظاهرة ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عظيمٌ﴾ عند ربكم في عاجل أمركم وآجله.

وجاء ذكر الرُّسل هنا مع أنّ المقصود الرسولُ محمّد ﷺ لتثبيت عقيدة الإيمان بكلّ الرُّسل، وأن المؤمن المسلم لا يفرق بين رسولٍ وآخر في قضية الإيمان.

• • •

عظات حركة النفاق

اقتباساً من النصوص القرآنية
المنزّلة في سورة آل عمران

أوّلاً: نَهَى الله المؤمنين نهياً مُشدَّداً عن اتّخاذ بطانة لهم من المنافقين، فضلاً عن اتّخاذ بطانةٍ من الكافرين المجاهرين بكفرهم.

السبب:

(أ) لا يقصّرون في إفساد أحوال المسلمين من الداخل.

(ب) يَوَدُّون كلَّ عَنَتٍ ومشقَّةٍ وضرر وإضرار للمؤمنين.

أمارات المنافقين:

(أ) قد بدت البغضاء من أفواههم وفلتات ألسنتهم.

(ب) إنْ تَمْسَسْكُمْ حسنةٌ تسؤهم وإنْ تُصبكُمْ سيِّئةٌ يفرحوا بها.

حقيقتهم تجاهكم:

(أ) ما تُخفي صدورهم من البغض لكم أكبر مما يظهر على ألسنتهم من فلتات أقوال.

(ب) إنَّهم لا يُحبُّونكم مطلقاً.

(ج) إذا خَلَوْا عضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ.

* * *

ثانياً: الامتحان الشديد في غزوة أحد كشف منافقين كانوا يُخْفُون نفاقهم، ودفع بعض ضعفاء الإيمان وأهل الرِّيب، للسير في طريق النفاق مع المنافقين، حتَّى بلغوا غايته، فكانوا كافرين في حقيقة حالهم، وباطن أمرهم.

الظـواهـر:

(أ) تخلّف منافقون عن الخروج مع الرّسول ﷺ.

(ب) انخذل منافقون وهم في الطريق، ورجعـوا إلى المدينـة، وقالـوا: لو نعلم قتالاً لاتّبعناكُمْ.

(ج) لمّـا تعرّض المسلمـون بسبب مخالفـاتهم لما تعـرّضـوا لـه من مصـائب، نجمت بدايات النفاق في أهل الريب والشكّ وضعفاء الإيمان.

فظهر فيهم:

* مَنْ يظنّون بـالله غير الحق ظنَّ الجـاهلية، ويقـولون أقـوالاً تتنافىٰ مـع صدق الإيمان.

* ومَنْ قـالوا: إنّـه لم يكُنْ لنَا من الأمـر شيءٌ، إذْ لم يَعْمَـلِ الـرَّسُـولُ بـرأينـا ومَشُورتِنَا الصائبة.

* ومَنْ قَالوا: لو كان لنـا من الأمر شيءٌ، مـا قُتِل من قُتِـلَ مِنَّا هٰهنـا في معركـة أُحُدٍ.

* * *

ثالثاً: كان من المنافقين الذين انخذلوا عن الرسول في بعض الطّريق، والآخرين الذين لم يخرجـوا مع الـرّسول ابتـداءً، أنّهم استغلوا ما حـدث من قتلٍ في المسلمين وهزيمة، فقالوا: لو كانَ إخوانُنا عندنا فلم يَخْرُجوا إلى المعـركة كمـا لم نخرج نحنُ مـا قُتِلُوا. وقالوا: لو أطاعَنَا إخواننا فارْتَدُّوا معنا، أو لم يخرجوا ابتداءً ما قُتِلوا.

العـظـات:

من هذه الظواهر التي سجّلها القرآنُ لحركة النفاق، وعـالجها بـالتربيـة الإيمانيـة الإسلامية، وبتصحيح المفهومات، تصحيحاًمحاصراً من كلّ الجوانب بالبيـان والإقناع القائم على الحجج والرُّجوع إلى الأسس الإيمانيّة، يتّخذ المؤمنون عظاتٍ يتّعظون بهـا لحركات النفاق في كُلِّ عصر، ويتخذون تجـاهها المـواقف الإسلاميـة التي وعظهم الله عزّ وجلّ بها، وحذّرهم فيها من الانزلاق مـع مؤمرات الكيـد الّتي يكيدهـا المنافقـون، وهم مخالطون مُداخلون.

● ● ●

مقدمة عامة

حول موجز غزوة الأحزاب

(١) كان يهود بني النضير قد أجلاهم الرسول ﷺ في شهر ربيع الأول سنة أربع للهجرة، عقاباً لهم على خيانتهم، ونقضهم للعهد، إذْ دبّروا مؤامرة اغتياله صلوات الله عليه، لمّا قدم إليهم مع نفر من كبار أصحابه، في شأن مشاركتهم في دية قتيلين من بني عامر، حسب بنود المعاهدة القائمة بينهم وبين المسلمين.

(٢) وكان قد ارتحل معظمهم إلى خيبر، وآخرون منهم إلى الشام، وكان قائدهم وحبْرهُمْ يومئذٍ «حُييّ بن أخطب».

(٣) اجتمع زعماء يهود «بني النَّضِير» في خيبر، وقرّروا تأليب العرب مع آخر قبيلة يهودية بقيت في المدينة، وهم «بنو قُرَيظة» على المسلمين، وتجميعهم في جيش واحد، يكون قادراً على استئصال شأفتهم، وإبادتهم عن آخرهم.

(٤) فخرج عشرون من رؤساء اليهود وساداتهم، منهم نفرٌ من بني النَّضير، ومنهم نفر من بني وائل.

فمن بني النضير: «سلاّم بن أبي الْحُقَيْق، وحُيَيُّ بْنُ أَخْطب، وكِنَانَةُ بنُ الربيع».

ومن بني وائل: «هوذة بن قيس، وأبو عمّار».

فحرّضوا قريشاً على قتال المسلمين، وبيّنوا لهم خطّتهم في أن تجتمع كلمة قبائل مشركي العرب ويهود بني قريظة ضدّ المسلمين، وأن يضربوهم في المدينة ضربة واحدةً، فاستجابت قريش لذلك.

(٥) ثُمَّ خرج الوفد اليهوديّ إلى قبائل غطفان، فدعوهم إلى مثل ما دَعَوْا إليه قريشاً، فاستجابوا لهم طمعاً في الغنائم.

(٦) وعلم الرسول ﷺ بنبأ اجتماع قريش ومن معها، وقبائل غطفان[١] على حرب المسلمين، وضربهم عن قوسٍ واحدة.

فاستشار أصحابه، ثمّ قرّر خطّة الاعتصام بالمدينة، واتّخاذ موقف الدّفاع، وقَبِلَ مَشُورة «سلمان الفارسي» بحفر الخندق في الجهة المكشوفة من المدينة وهي الجهة التي يمكن أن يُدَاهِم منها جيش الْعَدُوّ.

(٧) وقام المسلمون بحفْر الخندق قبل قدوم جيش الأحزاب، وعَانَوا بذلك مشقّةً كبيرة.

(٨) قدمت كتائب الأحزاب، وكانت كما يلي:

(أ) «أربعة آلاف» من قُريش ومن معها.

(ب) «ستّة آلاف» من قبائل غَطَفان.

ونزلت خارج المدينة.

(٩) قدم «حُيَيُّ بن أخطب» سيّد يهود بني النضير، ورأس تدبير المكيدة ضدّ المسلمين، إلى سيّد يهود بني قريظة «كَعْب بْنِ أَسَد» فما زال يحاول إقناعهُ بوسائله حتّى جعله يوافق على نقض العهد مع الرسول ﷺ، والاشتراك في قتال المسلمين مع قبائل العرب القادمة إلى المدينة، والغدر بالمسلمين من وراء ظهورهم.

واختار «حُيَيُّ بن أخطب» لإقناع الْقُرظيين بنقض عهدهم مع الرسول ﷺ الوقتَ المناسب الذي يشعرون به أنّ المسلمين قد أَمْسَوْا في موقف الضعف، وفي شدّة بالغةٍ من أمرهم.

---

(١) كانت منازلهم بنجد ممّا يلي وادي القرى، وجبل طيّء، ويرجع نسبهم إلى معَدّ بن عدنان، أسلموا ثم ارتدوا بعد وفاة الرسول ﷺ. فحاربهم أبو بكر الصديق، إذ بعث إليهم خالد بن الوليد، فقتلهم شرّ قتلة. كانوا يعبدون «العُزّى» وكان لهم صنم في مشارف الشام يحجُّون إليه، يقال له: «الأقَيْصِر». (معجم قبائل العرب).

(١٠) وعلم الرسول ﷺ بما فعل يهود بني قريظة من نقض لعهدهم، فاهتمّ للأمر، ولكنّه توكّل على الله، وأظهر للمسلمين ثقته التامّة بالله وبنصره.

ففرّق الله بين اليهود وأحزاب العرب، برجلٍ من غطفان، أسلم وجاء إلى رسول الله ﷺ، وهو «نُعَيْم بن مسعود بن عامر الأشجعي».

فقال له الرسول: إنّما أنت فينا رجلٌ واحد، فخذّل عنّا إنِ استطعت، فإنّ الحربَ خُدْعَة.

فقام «نُعَيْم» بحيلة محكمة فرّق فيها بين الأحزاب.

(١١) حاصر جيش الأحزاب المسلمين من وراء الخندق، لأنّهم لم يستطيعوا اختراقه، وتناوش الفريقان بالنُّبل، واقتحم بعض فرسان المشركين من مكان ضيّق من الخندق، فانْبَرىٰ عليٌّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه لِعَمْرو بنو عبد ودّ، وكان من أقوى العرب وأشجعهم، فنصره الله عليه فقتله، ففرّ من كان قد اقتحم، وقفل رجاعاً إلى جيش المشركين.

(١٢) وطال الحصار، حتى بلغ قريباً من شهر، من آخر شوال إلى أواخر ذي القعدة، ونزل بالمسلمين جوعٌ وخوفٌ وليالٍ باردات، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر من شدّة الخوف، وابْتُلي المؤمنون ابتلاءً عظيماً، وزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شديداً، فالعدوّ أمامهم بجيشه الكبير المحاصر لهم، واليهود الذين نقضوا العهد من وراء ظهورهم يُعِدُّونَ الْعُدَّة لِحَرْبهم.

(١٣) ونجم نفاق المنافقين في صُوَرٍ متعدّدة، قبل وصول جيش الأحْزاب، وبعد وصولهم ومحاصرتهم للمدينة.

وأخذت الظنُون والمقالات السّيّئات تدور في نفوس المنافقين وعلى ألسنتهم وفي نفوس الذين في قلوبهم مرض في أثناء الحصار.

فمن مواقف النفاق في هذه الحادثة المواقف التالية:

الموقف الأول: أخذ رجالٌ من المنافقين يبطّئون في عملهم بحفر الخندق،

ويراؤون مُراءاةً، ويستترون بالعمل الهيّن الضعيف، ويتسلّلون إلى أهليهم بغير إعلام للرسول ولا استئذان منه.

الموقف الثاني: قولهم: ما وعدنا الله ورسولُه إلّا غروراً، وقال: «مُعَتِّبُ بن قُشير» وهو من المنافقين: كان محمّد يَعِدُنَا أنْ نأكُلَ كنُوز كسرى وقيصر، وأحدُنَا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط.

الموقف الثالث: قول طائفة من المنافقين: يا أهلَ يثرب لا مُقَامَ لكُمْ فارْجعوا. قيل: إنّ قائل ذلك هو «أوسُ بن قَيْظِي» ومن كان على رأيه من قومه.

الموقف الرابع: استئذان فريقٍ منهم النبي ﷺ بأن يرجعوا إلى المدينة، متعلّلين بأنّ بيوتهم عورة، أي: مكشوفة للعدُوّ، وهي في الحقيقة ليست بعورة، إنّما يريدون الفرار من المعركة.

فقال «أوسُ بْنُ قيظي»: يا رسول الله، إنّ بيوتَنَا لعورة من العدُوّ ــ يتحدّث عن بيوت ملأٍ من رجال قومه ــ فأْذَنْ لنا فلنرجع إلى دارنا، وإنّها خارجة من المدينة، والحقيقة أنّهُمْ كاذبون.

الموقف الخامس: تَخلُّف فريقٍ من المنافقين، وجعلوا يثبطون إخوانهم عن الخروج لمواجهة الأحزاب، ويقولون: «هلُمَّ إلينا» أي: إلى الأمن والراحة والظلّ والطعام والشراب.

وهذا الفريق ديدَنُهم التخلّفُ عن مواقع الجهاد في سبيل الله، ولا يأتون مواطن البأس إلّا قليلاً، مصانعةً ورياءً، ولئلاّ ينكشف نفاقهم لجميع المسلمين.

(١٤) وبعد شقّ الصفّ الذي صنعه «نُعَيْمُ بنُ مسعود الأشجعي الغطفاني» بين يهود بني قريظة والأحزاب القادمين لحرب الرسول والمسلمين من قبائل العرب، رأى العرب أنّ اليهود قد أخلفوهم، وطال عليهم الحصار، وكادت تنفد مؤنهم وهلكت جمالهم وخُيولهم.

وجاءتهم ليلة شديدة الريح والْبَرْد، وجعلت الريح تقوّض خيامهم، وتقلب قدورهم، وتطفىء نارهم، ولا تُقِرُّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً، وأرسل الله جنداً غَيْر مرئية، فألقت في قلوبهم الرعب.

عنـدئذٍ رأى أبـو سفيان قـائد جيش قـريش أنَّ استمرار الحصـار غير ذي فـائـدة والحالة هذه، وربّما ازداد بهم الأمر سوءاً، فرآها المسلمون فرصة ينقضّون بها عليهم.

فقام في القوم فقال:

«يـا معشر قـريش، إنَّكم والله ما أصبحتم بـدار مُقام، لقـد هلَكَ الكراع والخفّ (أي: هلكت الخيل والإبل) وأخْلَفَتْنا بنو قُـريظة، وبلَغنا عنهم الذي نكـره، ولقينا من شـدّة الرِّيـح ما تَـرَوْن، ما تـطمئنُّ لنا قِـدْر، ولا تقومُ لنـا نار، ولا يستَمْسـك لنا بنـاء، فارتَحِلُوا فإنِّي مُرْتحِلٌ».

ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه، فـوثب به على ثـلاث، ولم يطلق عقاله إلّا وهو قائم.

وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فشدّوا رحالهم وانصرفوا إلى بلادهم.

(١٥) ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب/ ٣٣].

● ● ●

النصّ الثاني عشر

من سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) رابع سورة مدنية

الآيـات مـن (٩ ـ ٢٧)

حول مواقف المنافقين وظواهرهم السلوكية إبّان غزوة الأحزاب

* قال الله عزّ وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا
لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ
وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ
الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا
اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ
فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ
مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا
اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ
الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ
سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ
مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ
الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ
سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ

عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ
فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ
لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا
ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا
وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم
مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن
شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ
وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾
وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

* * *

مَا في النّصّ من القراءات المتواترات (من الفرش)

(١) الآية (٩): قرأ أبو عَمْرو: [وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيراً] بياء الغيبة، وباقي القرّاء [بما تَعْمَلُونَ] بتاءِ الخطاب، ففي القراءتين تكامل فِكْري، فالتي بتاء الخطاب تبيّن للمؤمنين أن الله عليم بما يعملون هم، والتي بياء الخطاب تبيّن أنّ الله عليم بما يعمل الجنود الذين جاءوهم.

(٢) الآية (١٠): قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنُونَا﴾ أثبت الف ﴿الظنونـا﴾ مطلقاً المدنيان والشامي وشعبة. وحذف هذه الألف مطلقاً حمزة وأبو عمرو ويعقوب.

وحذفها وصلاً وأثبتها وقفاً ابن كثير، والكسائي وحفص وخلف في اختياره. وهي وجوه من الأداء جائزة في اللّسان العربي.

(٣) الآية (١٣): قرأ حفصٌ عن عاصم [لا مُقَامَ لَكُمْ] أي: لا إقامة لكم مصدر ميمي من أقام.

وقرأ باقي القرّاء: [لَا مَقَامَ لَكُمْ] أي: ليس لكم هُنَا مَكان قِيام، اسم مكان من قَامَ. ففي القراءتين تكامُلٌ فكري، أي: ليس لكم إقامة ولا مكان قيام.

(٤) الآية (١٤): قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير [لأَتَوْها] أي: لجاؤوا إليها.

وقرأ باقي القراء العشرة [لآتَوْهَا] بمدّ الهمزة، أي: لأعْطَوْها، ففي القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، أي: لأتوا الفتنة فدخَلُوا في غَمْرتها، ولأَعْطَوْهَا من أنفسهم بالارتداد عن الإسلام وإعلان الكُفْر.

* * *

(١)
المفردات اللُّغويّة في النصّ

﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾:

أي: من قِبَل نجد، وموقعها الجغرافي موقع علوّ بالنّسبة إلى المدينة.

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾:

أي: من مكّة، وموقعها الجغرافي منخفضٌ بالنسبة إلى المدينة.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾:

أي: وإذْ مالَتْ عن سوائها ومُسْتَوى نظرها، ويكون من الخوف، ومن الحيرة، ومن عوامل أخرى في النفس.

وأصل الزيغ في اللُّغَة الميلُ والبعدُ، يقال: زاغت الشمسُ إذا مالت إلى الغروب، وزاغ السالك عن الطريق إذا عدل عنه، ذاتَ اليمين أوذاتَ الشمال. وزاغ الفكر إذا عدل عن الصواب، وزاغ القلب إذا مال عن الحقّ والهدى، إلى الضلالة والرّدَى.

زاغَ يَزِيغُ: أي: مَالَ. ويُقَال زاغَ عنْه، أي: مالَ وعَدَلَ عنه.

﴿ٱلْحَنَاجِرَ﴾:

جمع «حَنْجَرَة» وهي الْحُلْقُوم، ومَجْرىٰ النَّفس في الرقبة. ويُقالُ لِلْحَنْجَرَةِ الْحُنْجُورُ أيضاً.

﴿ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

أي: امْتُحِنَ إيمانُ المؤمنين امتحاناً شديداً، بدليل وصف زلزلتهم بأنها زلزلةٌ شديدة.

﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾:

الزَّلْزَلَةُ: الهزُّ والتحريك بشدّة، تقول لغة: زَلْزَلَهُ زَلْزَلَةً وَزِلْزالاً، إذا هزّه وحرّكه حركةً شديدة.

والمعنى: حُرِّكُوا بالامتحان تحريكاً شديداً واصلاً إلى الأعماق، فمن لم يكن في أعماقه إيمانٌ راسخٌ أصابهُ الاضْطِرابُ والقلَقُ والخوفُ والضّجر، وظهرت منه تصرُّفاتٌ تكشف سَرائرَ نفسه وقلبه، أمّا صادق الإيمان وثابته فتزيدُ الزلزلة إيمَانَهُ رُسُوخاً وعمقاً واستقراراً.

﴿إِلَّا غُرُورًا﴾:

الغُرُور: مصدر غَرَّهُ يَغُرُّهُ، أي: خدعه وأطمعه بالباطل. وسبق في النصّ (٥) من سورة الأنفال.

﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾:

البيتُ العَوْرَةُ هو كُلُّ بيتٍ فيه خَلَلٌ أو هو بعيد عن الحماية ويُخْشَىٰ دخولُ العدوّ إليه، أو دخوله منه إلى ما يروم.

والعورَةُ: الخلَلُ والعَيْبُ في الشيء ــ وكُلُّ ما يَسْتُرُهُ الإنسان استنكافاً أو حياءً ــ وما يجب سَتْرُه شرعاً.

﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾:

جمعُ «قُطْر» و القُطْر: الناحية، فمعنى ﴿من أقطارها﴾ من نواحيها كُلّها، أي: دخل عليهم جيشُ العدوِّ من كُلِّ نواحي المدينة فلم يَبْقَ لهم مهرب ولا مفرّ.

﴿ ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ :

المراد هنا من الفتنة الخروج من الدين، والارتداد عنه، وإعلان الكفر، وَفْقَ طَلَبِ الكُفَّار المهاجمين بقوّتهم وأسلحتهم.

﴿ لَءَاتَوْهَا ﴾ : بالمدّ والمصدر إيتاء، وفي القراءة الأخرىٰ : «لأتَوْهَا» والمصدر إتيان :

أيْ : لَجاءُوا إلى الفتنة فكَفَروا بالدين، ولم يثبتُوا على إسلامهم طلباً للسلامة والأمن، ولأعْطَوْا الكافرين ما يبتغون منهم من فتنة، أي : من كُفْر.

﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا۟ ﴾ :

أي : وما توقَّفُوا ومَا أقامُوا، يُقالُ : تَلَبَّثَ بالمكان، إذا توقَّف وأقام.

﴿ يَعْصِمُكُم ﴾ :

أي : يحفظكُم ويَقِيكم ويمنعكُمْ. يقال لغة : عَصَمَ الشيء إذا منَعَهُ وحفظه ودفَعَ عنه.

﴿ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ :

الْوَلِيُّ : الَّذِي يتولّىٰ رعايةَ كُلِّ شُؤونِ من هُوَ تَحْتَ وِلَايته، ومِنْها الحماية والنُّصرَة، أمّا النَّصير فهو المناصر بقوة وصدق وإخلاص، ولو دون وِلَايةٍ شاملة.

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ ﴾ :

التعويق : هو التثبيط عن فعل الخير، والحبسُ والصرفُ عنه بالقول أو بالفعل.

يقال لغة : عَاقَهُ عن الشيء يَعُوقُهُ عَوْقاً، وعوَّقه يُعوِّقُه عن الشيء تعويقاً، إذا منَعه منه، وشغله عنه. فهو عَائِق، ومُعَوِّق.

﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ :

هَلُمَّ : اسمُ فعلٍ بمعنى تعالَوْا، تستعمل هكذا في لغة الحجازيين بلفظ واحد للمذكر والمؤنث، المفرد والمثنى والجمع، وهو الأفصح، وتستعمل في لغة بني تميم وأهل نجد بإلحاق علامات التثنية والجمع والتأنيث، فيقال فيها : هَلُمَّا، وهَلُمُّوا، وهَلُمِّي، وهَلْمُمْنَ.

﴿ٱلْبَأْسَ﴾:

يطلق على الحرب، وهو المراد هنا، ويُطلق على الشدّة في الحرب، وعلى العذاب الشديد، وعلى الخوف، ويصلح هذا المعنى أيضاً في هذا النّص.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾:

أشِحَّة: جمع شحيح، وهو البخيل الشديد البخل، ويجمع أيضاً على «شِحاح» و «أشِحَّاء».

﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾:

السَّلْقُ: في اللّغة هو الصِّياح وشِدّة الصوت، ويقال: سلقه بالكلام سَلْقاً إذَا آذاه بكلامه الشديد العنيف، وأسمعه منه ما يكره فأكثر عليه، وبالغ في مخاصمته.

حِدَاد: أي: قويّة جارحة للنفوس، كالسيوف المحدَّدة المسنونة القواطع للأجسام.

﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾:

أي: أبْطلها. يُقَالُ لغة: حَبَطَ عَمَلُهُ يَحْبِطُ حَبْطاً، وحُبُوطاً، إذا بَطل. وأَحْبَطَ اللَّهُ عَمَلَهُ يُحْبِطُهُ إذا أبطله، فلَمْ يكن له أثر.

﴿يَوَدُّوا۟﴾:

أي: يتمنَّوا، فالمراد من الودّ هنا التمنّي.

﴿بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾:

البادي: اسم فاعل من: بَدَا يَبْدُو بَدْواً وبَداوَةً إذا خرج إلى البادية، فهو بَادٍ، ويقال: بدا إلى البادية، وأقام بالبادية، فهو بادٍ، البادية فضاء واسعٌ فيه المرعىٰ والماء.

﴿أُسْوَةٌ﴾:

أي: قُدْوَةٌ يُقْتَدَىٰ به. يقالُ: أسَا يأسُو فلاناً بفُلانٍ إذا جعلُه يَأْتَسِي به. ويُقَالُ: ائْتَسَىٰ به، إذا اتّخذه أُسْوةً واقْتَدَىٰ به.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾:

النَّحْبُ: يأتي في اللُّغة لعدّة معانٍ، منها: الحاجة ـ والمدّة والأجل ـ والنذر والعهد.

وهذه المعاني الثلاثة كلُّها تصلح هنا في هذا النصّ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله في التدبّر.

﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾:

أي: من حُصُونهم وآطَامِهِمْ، واحدها صِيصَة، يقال للحصن: صيصَة، وجمعها صَيَاصِ.

* * *

(٢)
سبب النزول

من الواضح في هذا النّصّ أنّ سبب نزوله غزوة الأحزاب، التي تُسَمَّىٰ أيضاً بغزوة الخندق. وعلى هذا أئمة أهل التفسير من السلف فمن بعدهم.

* * *

(٣)
مع النّصّ في التحليل والتدبّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾.

وفي قراءة أبي عمرو: [وكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيراً].

عرضت هذه الآية من هذا النصّ نتيجة غزوة الخندق قبل ذكر أيِّ حدثٍ من أحداثها، مقرونةً بالبدء بالتذكير بنعمة الله على الذين آمنوا، إذْ دفع الله عنهم جيشَ

عدُوِّهم بالريح، وبجنود غير منظورة، والظاهر أنّ هذه الجنود من الملائكة، وكان عملهم إلقاء الرعب والخوف في قلوب المشركين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾:

نداءٌ من الله للمؤمنين الذين كانوا مع الرسول ﷺ في غزوة الأحزاب، فهم المقصودون أوّلاً وبالذات، ويشمل هذا النداء كلّ مؤمنٍ من بعدهم، باعتبار أنّ نعمة الله على المؤمنين في هذه الموقعة وما تضمّنته من عظات، قد شملت كلّ المؤمنين حتّى قيام الساعة، إذْ هي نعمة جرّت للمؤمنين خيراً عظيماً ينعمون بثمراته، وينتفعون من عظاته إلى أن تقوم الساعة.

﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾:

أي: ردّدوا في تذكُّركم هذه النعمة من حين لآخر، ولا سيّما عند المناسبات الدّاعيات لتذكرها، للاستفادة من عظاتها، وأنت خبير أنّ التذكُّرَ الفكريّ يجلُبُه غالباً المحافظةُ على تكرار الذكر باللّسان، وبهذا نستطيع أن نفهم أنّ النصّ يدعو الذين آمنوا أن يذكروا بألسنتهم من حين لآخر أحداث غزوة الأحزاب، ليجدّدوا في أذهانهم تذكُّرها، بغية الاستفادة من عظاتها، وأنّ على الدعاة منهم أنْ يُذَكّروا جماهير المؤمنين بها.

هذا التوجيه يُقاس عليه أشباهه ونظائرُه، فتجديدُ ذكر أحداث غزوات الرسول ﷺ ممّا يحثُّ القرآن عليه، وكذلك سائر النظائر للاستفادة من عِبَرِ التاريخ.

﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾:

أي: جنود كثيرة بالنسبة إلى جنودكم، وهم جنود الأحزاب «قريش، وغطفان، ومن معهم».

والمعنى: اذكروا نعمة الله التي أنعم بها عليكم في الزمن الذي جرت فيه أحداث غزوة الأحزاب إذْ جاءتكم...

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾:

أي: ريحاً شديدةً شاهدتموها، فجعلتْ تقوّضُ خيامهم، وتكْفأ قدورهم، وتقطَع حبالهم، فلا يقرّ لهم قرار.

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾:

أي: وجنوداً خفيّةً من الملائكة، وكانت وظيفة هذه الجنود من الملائكة أن يقذفوا الرُّعبَ في قلوب الأحزاب.

وطوى النصّ هنا بيان ما فعلته الريح والجنود من الملائكة بجنود الأحزاب من إلقاء الرعب في قلوبهم، وحَمْلِهم على الانصراف والارتداد على أعقابهم خائبين، اعتماداً على ما يُدركه الذّهن باللّزوم العقلي، لأنّ المرسِل للريح والجنود هو الله عزّ وجل، فلا بدّ أن يكون ذلك راداً عن المؤمنين به وبرسوله بأس عدوّهم، واعتماداً على ما جاء بعد ذلك في البيان التفصيليّ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾:

وفي القراءة الأُخرَىٰ: [يَعْمَلُون]: أي: ومن صفات الله الدائمة أنه سبحانه وتعالى بصير بما يعمل عباده جميعاً، مؤمنوهم وكافروهم.

وتكاملت قراءتا [تَعْمَلُون] و[يَعْمَلُون] في بيان المعنَىٰ الشامل، وفي الأداء البياني، ممّا يحققه خطاب المؤمنين من أغراض بيانية وفكرية، وممّا يحققه الحديث عن جنود الأحزاب بالغيبة من أغراض بيانية وفكرية أيضاً.

أي: إنّ الله عزّ وجل مطّلع دواماً على جميع أعمالكم الظاهرة والباطنة، فهو يعلم من كان منكم ثابتاً صادقاً متوكّلاً على ربّه، واثقاً بوعده ووعد رسوله صابراً محتسباً، ويعلم من كان مُرْتجفاً خائفاً، ومن كان متزلزلاً مضطرباً، ومن كانت الظنون تتلاعب بقلبه ونفسه.

ونلاحظ في هذه الآية أنّها اشتملت على موجزٍ مختزل لغزوة الأحزاب، أمّا أهمُّ تفصيلات أحداثها، ممّا يتضمّن عِظَاتٍ وأغراضاً تربوية، فقد جاء بيانه في سائر آيات النصّ.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾:

أي: اذكروا نعمةَ الله التي أنعم بها عليكم في الزمن الذي جرت فيه أحداث غزوة الأحزاب، إذْ جَاءَتكُمْ جنُودٌ كثيرة بالنسبة إليكم من فوقكم، أي: من قِبَل نجد، فموقعها الجغرافي موقع علوٍّ بالنسبة إلى المدينة، والجنود الآتون من قبل نجد هم قبائل غطفان (بنو فزارة، وبن مُرّة، وبنو أشجع، وبنو أسد، ومن تابعهم من أهل نجد».

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾:

أي: من مكة، وموقعها الجغرافي موقع منخفضٌ بالنسبة إلى المدينة، والجنود الآتون من جهة مكة هم: «قريش، وأحابيشهم، ومن تابعهم من بني كنانة، وأهل تهامة، بقيادة أبي سفيان».

وقد أقاموا الحصار وراء الخندق، واشتدّ الأمر على المسلمين شدّةً عظيمة.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾:

أي: واذكروا الحالة التي وصلتم إليها من الشدّة حينئذٍ، إذْ زاغَت الأبْصَارُ من الجوع والخوف، فصارت تميل عن سوائها، لما في النفس من حاجة واضطراب. وإذْ بلغت القلوب الحناجر من شدة الخوف، أي: صرتم تشعرون بانقباضها وانشمارها من مواطنها، إلى الحناجر من شدّة الخوف الذي نزل بكم.

ومع ما في قوله تعالى: ﴿وبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ من تعبيرٍ أدبيٍّ رفيع في وصف حالتهم، ويبدُو فيه أنّ المبالغة أحد عناصره الكبرى، فهو تعبير مطابق لمشاعرهم بصدقٍ فنّيّ كامل، إذْ هو يكشف حالة مشاعر أنفسهم بصدق. إنّ الخائف الذي يَمَسُّهُ الذُّعْر الشديد يشعرُ بأنّ قلبه قد انْشَمَرَ منقبضاً إلى حَنْجُرته فيكاد يختنق، مع أنّ القلب لم يبرح مكانه من الصدر.

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾:

أي: وتظنُّونَ بالله الظُّنونَ المختلفة، فمنكم صادق الإيمان يظُنُّ بالله أنّه سينصرُ رسوله والمؤمنين معه، ويردُّ كيد أعدائهم في نحورهم، ومنكم من يظنُّ غير ذلك من ضعفاء الإيمان ظنوناً دون ذلك فيها ارتيابٌ وتشكُّك.

وشرّ هذه الظنونِ ظنون المنافقين الذين قال قائلهم وهو «معتّب بن قُشَيْر»: كان محمّد يَعِدُنا أن نأكل كُنُوز كسرىٰ وقيصر، وأحدنا لا يقدر أنْ يذهب إلى الغائط.

حتى حاول بعض المنافقين الفرار من موقعه، متظاهراً بالاستئذان الذي يتعلّل له بما يبرّره بحسب الظاهر، وهو في الحقيقة كاذب، فقال «أوس بن قيظي» عن ملأٍ من رجال قومه: يا رسول الله، إنّ بيوتنا لعورةٌ من العدوّ، فأْذَنْ لنا فلْنرجع إلى ديارنا، وإنّها خارجة من المدينة.

وما كان يمنع المنافقين من التخلّي والفرار من مواقع الترقُّب للقتال إلّا خوف نقمة الرسول والمؤمنين من قومهم. إذا انتهت أحداث الغزوة.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾:

أي: هُنَالِك في ذلك الموقع الذي كان فيه المسلمون مُحاصَرين، داخل المدينة من قبل أحزاب العرب، امْتُحِن المؤمنون ومن معهم من مُدّعي الإيمان امتحاناً قاسياً، وزُلْزِلوا زلزالاً شديداً، على غربال التجربة العنيفة المرَّة، فَنُخِلُوا بها نخلاً، ظهر فيه من كان قويّ الإيمان صادق اليقين، ومن كان دون ذلك، ومن كان في قلبه مرض. وسقط في الامتحان من ظهر نفاقه بقوله أو بعمله، وكذلك الأحداث الشديدة على النفوس، والتي فيها متاعب وآلام، وجوع مُمِضّ، وخوفٌ هالعٌ، هُنَّ كواشف ما في القلوب والنفوس، ومُمَحِّصات.

ومن شأن الزلزلة الّتي هي حركة عنيفة أن تجمع الأشباه والنّظائر إلى بعضها ضمن الخليط، فإذا كانت على الغرابيل أسقطت ما لا تمسكه، وطيّرت مع الريح ما لا وزن له.

* * *

بيان مواقف المنافقين في غزوة الأحزاب

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

هذه المقالة إحدىٰ ظواهر النفاق الّتي ظهرت من المنافقين في غزوة الأحزاب، وذكرها القرآن في هذا النّص.

وهي مقالة قالها المنافقون، لأنّهم في باطن أمرهم كافرون بالله ورسوله، ويطرحونها لتشكيك المؤمنين بدينهم وبرسولهم.

وردّد هذه المقالة ضعفاء الإيمان، وأهل الريب والشك، وأهل الطّيش الّذين لا بصر لهم بالأمور، ولا رويّة عندهم ولا صبر، وجاء التعبير عنهم بأنّهم الذين في قلوبهم مرض.

روى الطبريّ عن قتادة أنّ ناساً من المنافقين قالوا في غزوة الأحزاب: قد كان محمّد يَعِدُنا فتح فارس والرّوم، وقد حُصِرْنا هٰهنا، حتّى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما وعَدَنا الله ورسوله إلّا غروراً.

وفي رواية ابن إسحاق، أنّ هذه الكلمة الكبيرة: «ما وعدنا الله ورسوله إلّا غروراً» كلمة قالها «مُعَتِّب بنُ قُشَير» يوم الخندق.

وروى الطبري أيضاً عن ابن زيد، قال: قال رجلٌ يوم الأحزاب لرجل من أصحاب الرسول ﷺ: يا فُلانُ، أرأيت إذْ يقولُ رسولُ الله: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كِسْرىٰ فلا كِسْرىٰ بعده، والذي نفسي بِيَده لَتُنْفَقَنَّ كُنوزُهما في سبيل الله» فأين هذا من هذا وأحدنا لا يستطيع أن يخرج يبول من الخوف؟ ما وعدنا الله ورسوله إلّا غروراً.

فقال له: كذبت، لأخبرنّ رسول الله ﷺ خبرك.

قال: فأتى رسول الله ﷺ فأخبره فدعاه، فقال: «ما قُلْتَ؟» فقال: كذبَ عليّ يا رسول الله، ما قلتُ شيئاً، ما خرج هذا من فمي قطّ.

ودلّ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ المنافقون . . .﴾ على أنّ هذه المقولة ردّدها المنافقون والذين في قلوبهم مرض، ولم تكن مجرّد مقولة قالها واحد منهم، فصيغة الفعل المضارع تدلّ على التكرير والتجدد، ولا سيما أن النصّ يخبر عن حدث مضىٰ.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾:

يَثْرب: قال الطبري: اسم أرض يقال: إنّ مدينة الرسول ﷺ في ناحية تقع منها.

وفي لسان العرب: يثرب: مدينة سيدنا رسول الله ﷺ. وروي عن النبي ﷺ أنه نهى أن يقال للمدينة: يثرب، وسمّاها طَيْبَة، كأنّه كَرِهَ الثَّرْبَ، لأنّه فسادٌ في كلام العرب. قال ابن الأثير: يثرب: اسم مدينة النبيّ ﷺ قديماً، فغيّرها وسمّاها طيبة وطابةً، كراهية التثريب، وهو اللّوم والتعيير.

مَقَام: فيها قراءتان: بفتح الميم، أي: لا مكان إقامة لكم هنا عند الخندق. وبضمّ الميم، أي: لا إقامة لكم هنا.

وفي قول طائفةٍ من المنافقين: [لَا مُقَامَ لكم فارْجِعُوا] دعوة للتخلّي عن الرّسول ﷺ والمؤمنين الصادقين معه، وهي تعبّر عمّا يكنّه قائلوها من نفاق وعدم إيمان، وفيها إعرابٌ عمّا تكنّه صدورهم من عدم اعتراف بالاسم الإسلامي الذي سمّى الرسول به المدينة، إذْ انطلقت ألسنتهم بقصد أو بدون قصد بالاسم الجاهليّ الذي نهىٰ الرسول ﷺ عنه، ولفلتات اللّسان دلالات.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣﴾.

عن ابن عباس: أنّ أصحاب هذا الاستئذان هم بنو حارثة، وقد استأذنوا في أن

يتركوا مواقعهم في الغزوة، وينصرفوا إلى بيوتهم.

﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾:

العورة الخللُ في الشيء، فهو بذلك عرضةٌ للسلب والنهب والسرقة ونحو ذلك.

يقولون: [إنّ بُيوتَنا عَوْرَة] أي: لَيْسَت محروسة ولا محصّنة، فهي عرضة لأن يتسلّل إليها العدوّ، فيسطوَ عليها ويسرق ما فيها، أو يُداهمنا من قِبَلها.

ولكنّها في الحقيقة ليست كما قالوا. وقد بيّن الله كذبهم في مقالتهم، وغرضهم الحقيقي من استئذانهم المعلّل بمقالتهم الكاذبة، فقال تعالى:

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

ورَدَ أنّ الرسول ﷺ بعث من كشف له الحقيقة، فبيوتهم ليست بعورة كما زعموا.

إنّهم ما يريدون باستئذانهم إلاّ فراراً من مواجهة العدوّ، وهروباً من موقع المرابطة، لأنهم منافقون، ولا يؤمنون بجدوى ما يفعلون، لكنّهم بعد تظاهرهم بالإسلام لا يستطيعون إلاّ المصانعة والمخادعة والمراوغة والتستر بالأكاذيب والتِّعِلاّت الباطلات.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾:

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾:

أي: ولو دخل جيش المشركين المدينة، وهجموا عليهم من جميع نواحيها، فداهَمُوهم وهم في بيوتهم.

﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾:

أي: ثُمّ بعد ذلك طلب منهم المشركون أن يكفُروا بالإسلام، ويعودوا إلى

الوثنيّة والشـرك، وهذه هي الفتنـة في الدين، أو طلبـوا منهم تسليم الرسـول والمؤمنين لفعلوا.

﴿لَآتَوْهَا﴾ فيها قراءتان بهمزة واحدة من «أَتَىٰ» وبالمدّ من «آتىٰ»:

أي: لأتَـوْا الفتنـة الَّتي طُلِبَتْ منهم فكفـرُوا، ولم يتَثَبَّتـوا على إسـلامهم الـذي يتظاهرون به، طالبين السلامة والأمن، فهم إمّا منافق أو في قلبه مرض دون النفاق.

أو [لآتَوْها] كما جاء في القراءة الأخرى، والمعنى: لأعْطَوْها.

فتكاملت القراءتـان فكريّـاً وأداءً بيانيّـاً، أي: لأتَوْا إلى مـواقع الكفر بأجسـادهم وأنفسهم، ولأعْطَوْا ما يُطلبُ منهم من كفرٍ، ومن لوازمه القـولية والعمليّـة، ولاستجابـوا للكافرين، وأعلنوا ردّتهم عن الإسلام، ولسلّموهم أهل الإيمان الصادق.

إنّهم بعـد أن كشف الله عزّ وجـلّ كذبهم في ادّعـائهم أنّ بيـوتهم عـورة، وأبـان حقيقـة غرضهم من الاستئـذان في الذهـاب إلى بيوتهم، وأنّهم مـا أرادوا إلاّ الفرار من مـواجهة العـدوّ، جنباً وعـدم إيمانٍ بمشـاركتهم للمسلمين في أعمـال الجهـاد قـال الله بشأنهم:

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

ولكِنَّ الله عزّ وجلّ أنذرهم بأنّهم لو دخلوا في الفتنة طلباً للأمن، فكفروا وارتدّوا عن الإسلام، لعاجلهم الله بالعقاب، فما استطاعُوا أن يتلبَّثُوا إلاّ زمناً يسيراً في بيوتهم، أو في المدينة وفي الأمن الذي ظنّوا أنّ الفتنة في دينهم تحقّقه لهم، فقال تعالى:

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾:

أي: وما بَقوا في بيوتهم في المدينة إلاّ زمناً يسيراً، لو حصل منهم ما ذُكر سابقـاً، لأنّ الله سيمكّن المؤمنين منهم حينئـذٍ، فيقتلونهم، أو يلجئـونهم إلى الفـرار أو الجـلاء عن المدينة، حتى يكونوا مطاردين مشرّدين في الأرض.

واستمرّ النصّ القرآنيّ يتحـدّث عنهم وهو معـرض عن مخاطبتهم، فـذكـر أنّهم

كانوا قد عاهدوا الله من قبلُ، إذْ خلفوا أن يثبتوا في المواقع مع الرسول والمؤمنين، وأن لا يولُّوا الأدبار، والمفروض في المسلم أن يحافظ على عهده، وذلك في البيان التالي:

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾:

أي: وكان عَهْدُ اللّهِ مسؤولاً عنه، فمن نقض عهد الله جعل نفسه تحت طائلة العقوبة الرّبانية.

رُوِي أنّ هذا النصّ نزل في بني حارثة، إحدى الطّائفتين اللّتين همّتا في غزوة أُحُد بأنْ تفشلا، وهما «بنو سلمة وبنو حارثة» فنزل بشأنهم ما نزل من قرآنٍ يومئذٍ، فعاهدوا الله أن يثبتوا ولا يولّوا الأدبار بعد ذلك.

لكنّ بني حارثة كان منهم ما كان من أصحاب الاستئذان المعلّل بالكذب في غزوة الأحزاب، وهو يدلّ في أقلّ الأحوال على مرضٍ في قلوبهم، دون النفاق، وهو الأرجح، لذلك ذكّرهم الله بعهدهم، وهدّدهم تهديداً ضمنيّاً بقوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مسؤولاً﴾.

واستمرّ النّصّ معرضاً عن مواجهتهم بالخطاب، تربيةً لهم، إلاّ أنّه خفّف من ثقل الإعراض، بتكليف الرسول ﷺ أن ينقل لهم مقولةً إقناعيّة، تتّصل بقضيّةٍ أساسيّةٍ من قضايا الإيمان، ولعلّ مرض قلوبهم فيها هو المؤثر في الظواهر السلوكيّة التي تكرّر ظهورها منهم، فجاء في البيان التالي:

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

هذه المقولة الإقناعيّة التي كلّف الله رسوله أن ينقلها إليهم على لسانه، شارحاً لمضمونها، ومبيناً له، تتضمنّ إشعاراً بأنّ الله معرضٌ عنهم، لأنّ الذنب قد تكرّر منهم.

ففي غزوة أُحد كانت مخاطبتُهم فيها رقّةٌ وتلطّفٌ بالعتاب، باعتبار أنّ ما كان منهم في أُحدٍ قد كان ذنباً أوّليّاً في تجربة أُولىٰ من تجارب القتال بالنسبة إليهم فقال الله تعالى في ذلك خطاباً لجميع المؤمنين في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

لكن لمّا تكرّر الأمر من بني حارثة في غزوة الأحزاب، اقتضت الحكمةُ التربويّة التشديدَ في الأسلوب التربوي.

فارتفع من أسلوب التلطّف إلى أسلوب الإعراض، فالتّنبيهِ المشدّد على قضيّة أساسيّة من قضايا الإيمان الّتي لو كانت سليمةً لديهم ما تكرّرتْ منهم ظاهرة الفرار الجماعيّ من الزحف.

إنّ ظاهرة الفرار من مواجهة العدُوّ حين تدعو الضرورة إلى هذه المواجهة ترجع إلى الخوف من الموت، والحرص على الحياة، وكلا الأمرين ينموان في الأنفس ـ مع وجود موجبات التضحية والاستبسال في القتال ـ بمقدار تناقص الإيمان بقضاء الله وقدره، وتناقُص الإيمان بأنّ الحياة والموت خاضعان خضوعاً كاملاً لسلطان الله وإذنه، وبمقدار الغفلة عن ملاحظة عقوبة الله الّتي قد ينزلها الله بالّذين يولُّون الأدبار عند واجب الزحف لقتال العدُوّ.

لذلك جاء تنبيهُهُم على هذه الحقيقة من الحقائق الإيمانية.

فالفرار من الموت باتخاذ الوسائل المادّية للحماية منه، وكذلك الفرار من القتل للحماية من الموت ولدفعه، لن ينفعهم شيئاً في دفع الموت أو القتل عنهم، إذا كان أمراً مقضيّاً بقضاء الله.

فإنْ فرُّوا من القتل بتجنُّب مواقع القتال، ظانّين أنّ ذلك يحميهم من الموت،

فإنّهم لن يتمتّعوا بالحياة إلاّ قليلاً، إذْ سيأتيهم الموت حسب آجالهم المقرّرة في قضاء الله وقدره.

ثمّ إنّ فرارهم في المواطن التي لا يجوز لهم فيها أن يفرّوا يجعلهم عصاةً، وهذا يعرّضهم لعقاب الله ونقمته، فإذا أراد الله بهم سوءاً عقاباً لهم على فرارهم، فمن ذا الذي يعصمهم من الله؟

إنّهم عندئذٍ لا يَجدون لهم من دون الله وَلِيّاً يتولّاهم، ولا نصيراً ينصرهم.

ومع ذلك فقد ترفّق النّصّ بهم، ففتح لهم نافذةً إلى رحمة الله إذا تابوا واستغفروا، نلاحظ ذلك في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ ضمن نصّ الإنذار الشديد، فقبله: ﴿قُلْ: مَنْ يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً﴾ وبَعْدَهُ: ﴿وَلاَ يَجِدُونَ من دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً ولا نصيراً﴾.

إنّ نافذة الرحمة هذه مرتبطةٌ بكلامٍ مطويّ، يمكن تقديره على الوجه التالي:

قُلْ: مَنْ ذا الذي يعصمكم من الله إنْ أراد بكم سوءاً، أو من ذا الذي يمنع عنكم رحمة الله إذا تبتم واستغفرتم وأراد بكم رحمةً.

وأُقفِلَت النافذة، واستمرّ النّصّ يُتمّ موضوع الإنذار فقال تعالى: ﴿ولا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾ معرضاً عنهم، وموجهاً الخطاب لغيرهم.

وهنا انتهى المقصود ببيانه حول حادثة استئذان الفريق الذين كانوا في غزوة الأحزاب يستأذنون الرّسول في ترك مواقعهم حيث هم مرابطون، متعلّلين بأنّ بيوتهم عورة.

وانتقل النصّ إلى بيان الظاهرة الرابعة من أعمال المنافقين في هذه الغزوة.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

هـذه الظاهـرة الرابعـة من أعمال المنـافقين، وهي ظـاهـرة التخلّف والتثبيط عن مشاركة المؤمنين في مواقع القتال.

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ﴾:

قد: لتحقيق وتأكيد حصول العلم، والتحقيقُ أحد معاني حرف «قد».

﴿ ٱلْمُعَوِّقِينَ ﴾:

التعـويق هو التثبيط عن العمـل، والحبْسُ والصرف عنـه، والشُّغْـل عنه بغيـره. يقال: عاقَهُ وعوَّقه، إذا منعه أو حبسه أو ثبَّطه أو صرفه، أو شغله عمّـا يهُمُّ به من عمـل بأية وسيلة من الوسائل.

﴿ هَلُمَّ ﴾:

اسم فعل بمعنى تعالَوْا، تُستعمل هكذا في لغة الحجازيين، بلفظ واحد للمـذكر والمؤنث، المفرد والمثنىٰ والجمع، وهو الأفصح.

وتُلحق بها علامات التثنية والجمع والتأنيث في لغة بني تميم، فيقال فيهـا: هلُمَّا وهلمّوا وهَلُمّي وهلْمُمْنَ.

﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ ﴾:

أي: ولا يأتون مواقع القتال. البأس في اللّغة يأتي بمعنى: «الحرب ــ والعذاب الشديد ــ والخوف» والمراد منه هنا الحربُ.

لقـد تخلّف فريق من المنـافقين في بيـوتهم، فلم يخرجـوا إلى مكـان التـربُّص لمواجهة العدوّ في غزوة الأحزاب عند الخندق، ولم يشاركوا المجاهـدين، وجعلوا مع ذلك يعوّقون إخواناً لهم من أقاربهم، ويثبّـطونهم، ويدعـونهم إلى البقاء في منـازلهم، ويثيرون الرعب في قلوبهم، ويقولون لهم: لا يستطيع محمـد وأصحابـه أن يثبتوا لهـذا الجيش المتفوّق عليهم عدداً وعدّة، القادم لغزوهم من أحزاب العرب، وأنّهم هالكـون لا محالة، فما لكم ولهذه المخاطرة.

ويَحلفُ حالفُهم أنّ محمّداً سوف لا يستقبل المدينة أبداً بعد هذه الموقعة.

ويقولون لإخوانهم الذين يظنّون أنّهم لن يبلُغوا محمّداً ﷺ ما يدعونهم إليه: هلُمّ إلينا، أي: تعالَوْا إلينا، واتركوا مشاركتكم لجيش المسلمين، واستمتعوا معنا بالأمن، والراحة، والظلّ، والطعام الطيّب والشراب الوافر الحسن.

إنّهم فريق من المنافقين جريئون في ممارسة الأعمال التي تدلُّ على نفاقهم، فالتخلّف عن الرسول ﷺ في مواطن البأس دَيْدَنُهم، فهم لا يأتون البأس إلّا قليلاً، أي: بمقدار ما يكفي ـ بحسب تصوُّرهم ـ للمصانعة والمخادعة والرِّياء، وفي الأحوال التي يكون الطمع بالغنائم فيها هو الأرجح بحسب تصوُّراتهم وتقديراتهم للأمور.

وقد أخبر الله فيما أنزل من قرآن بهؤلاء المنافقين المتخلفين المعوِّقين لإخوانهم والذين يدعونهم إلى الانخذال عن الرسول والمؤمنين، فكشف أحوالهم، وسجّل ذلك عليهم في آياتٍ تُتْلَى، ليكونوا مثلاً للمنافقين في كلّ زمان، مع ما يتضمَّن البيان القرآنيُّ من عظةٍ للمؤمنين، وتحذيرٍ لهم من مكايدهم.

وتابع النَّصُّ الكلام عن هذا الفريق المتخلّف المثبِّط، فكشف صفاتهم النفسيّة، وآثارها في سلوكهم، فجاء في وصفهم:

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَشِحَّةً﴾:

جَمْعُ شحيح، وهو شديد البخل. ولفظ «أشِحّة» منصوب على الحال، وصاحبُها المعوِّقون والقائلون لإخوانهم: هلُمَّ إلينا المذكورون في الآية السابقة، والمراد جميع المنافقين.

يقال: شحَّ بالشيء، إذا أمسكه، وشحّ على فلان أو على الشيء، إذا بخل عليه ببذلٍ ما، من مالٍ أو عمل أو غير ذلك.

يبيّن الله للمؤمنين أنّ من صفات المنافقين أنهم شحيحون عليهم، بأموالهم وأعمالهم ومعوناتهم وأنفسهم، وهم فوقَ ذلك شحيحون عليهم بمثل ذلك من غيرهم، فهم يكرهون أن يبذل أحدٌ لهم من ماله أو عمله أو نفسه.

والشحيح هو أشدّ البخلاء، لأنّ بخله لا يقتصر على كراهية أن يبذل من ماله أو نفسه، بل هو يكره أيضاً أن يبذُلَ غيره من ماله أو نفسه، فهو بدافع من شُحِّه يعوّق ويثبّطُ ويُخذّل عن البذل.

إنّهم أشحةٌ على المؤمنين خاصة، وقد لا يكونون أشحة على غير المؤمنين، وذلك لأنّهم منافقون، لا يؤمنون بما يؤمن به المؤمنون، ولا يسعَوْنَ لتحقيق الغاية التي يسعون إليها، بل لهم في قلوبهم اتّجاه آخر مباين مباينةً كُلّيّةً لاتّجاه المؤمنين، وليس المظهر الذي هم فيه إلّا مظهراً كاذباً، ومن الطبيعيّ في حال من يكون كذلك أن يكره كلّ ما يدعم الاتجاه المباين والمناقضَ لاتجاهه، وأن يكون شحيحاً عليه ببذلٍ منه أو من غيره، وشحُّهُ هذا يدفعه إلى محاولات الصدّ عن أن يبذلَ أحدٌ في هذا الاتجاه من ماله أو عمله أو نفسه.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾:

أي: فإذا جاء ما يُثيرُ الخَوْفَ في نُفُوسهم رأيتَهم من شدة الخوف الذي لم يخفّف منه الإيمان بالغاية المحققة للسعادة ينظرون إليك مذعورين تدور أعْيُنُهم كدوران عَيْني الذي يُغشَىٰ عليه من الموت.

﴿يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾:

أي: يُغْمَى عليه من خوف الموت، فَيُغَطّىٰ بسبب انفعال الخوف في نفسه وعْيُه وإدْراكُهُ ذُعْراً وهلعاً.

وأصل مادّة الكلمة من الستر العامّ بغطاءٍ أو نحوه. وفعلُ «يُغْشَىٰ عليه» يُشْعِر بأنّ سحابات الإغماء تُغشّيه وتنقشع عنه، وهكذا يتكرّر الأمر.

فالذي يُغْشَىٰ عليه من الموت النازل به تدور عيناه زائغتَيْن بين حالتي الوعي والإغماء الذي يُغطّي وعْيَه.

وهؤلاء المنافقون قوم جبناء جبناً عظيماً، وحريصون على الحياة حرصاً شديداً، لأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر، فهم إذا جاءت الأسباب المخيفة من الموت، أثارت خوفهم الشديد، وذعرهم البالغ مدّاه، وظنّوا أنّ الموت نازل بهم لا محالة، فأخذت سحاباتٌ من الوهم تشبه غشاوات الموت تجلّل نفوسهم، فيكون من مظاهرها أن يُصابوا بالوجوم والسكون الآخذ بهم إلى الغيبوبة، فتراهم ينظرون إليك والحال أنّ أعينهم تدور مثل دوران عينَي الذي يُغْشَىٰ عليه من الموت.

ومن التقابل بين حالتهم عند الخوف وحالتهم إذا ذهب الخوف نلاحظ أنّ في الكلام محذوفاً مقدّراً، وهو ما قدّرناه من مجيء الأسباب المخيفة للجبناء.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾:

أي: فإذا ذهَبَتِ الأسباب المخيفة، وأحَسُّوا بالأمنِ انطلقَتْ جُرْأتُهم عليكم بألسنتهم السّليطة.

﴿سَلَقُوكُم﴾: السَّلْق في اللّغة: الصّياحُ وشدّة الصّوت. ويقال: سلَقَه بالكلام سلقاً، إذا آذاه بكلامه الشديد العنيف، وأسمعه منه ما يكره فأكثر عليه، وبالغ في مخاصمته.

﴿بِأَلْسِنَةٍ حِداد﴾: أي: بألسنة قوية جارحة للنفوس، كالسيوف والسكاكين المحدّدة المسنونة القواطع للأجسام.

إنّهم في ساعات الخوف جبناء صامتون مُبْلِسُون منهارُون لا تتحرّكُ سُيوفهم، ولا أيّ سلاحٍ من أسلحتهم، بل تدور أعينهم ذعراً وهلعاً، كأن الموت نازل بهم، فإذا ذهب الخوف، وتحرّكت ألسنتهم، فلهم موقفان ألسنتهم فيهما سليطة حِداد:

(١) فإنْ كانت المعركة لصالح العدوّ أخذوا يوجّهون اللّوم والتشريب للمؤمنين، وقائد معركتهم، وبطانته الصادقة المخلصة، ويتبجّحون بصحة آرائهم الانهزامية التي كانوا يطرحونها ولو بالهمس أو في الخفاء.

(٢) وإنْ كانت المعركة قد انتهت بانتصار المؤمنين أخذوا يطالبون بأوفر النصيب من الغنائم، وتنطلق ألسنتهم كالسيوف الحداد القواطع، وتعلو أصواتهم، كأنهم قد كانوا أصحاب الصولة الكبرى في القتال، ويتبجّحون ببطولاتهم، ويطالبون بأنصبتهم من الغنائم، كأنّهم قد كانوا هم فرسان المعركة الأوائل، والمستحقين لأوفر النصيب.

على ضدّ ما يفعل المؤمنون الصادقون الباسلون الذين يقدّمون أعظم التضحيات، ويُبْلون أحسن البلاء، فسيوفهم وأسلحتهم هي العاملة في المعارك، ثم تكون ألسنتهم في حالة الهزيمة عاذرة، ونفوسهم صابرة. وعند توزيع الغنائم تكون ألسنتهم شريفةً قاصرة، وتكون نفوسهم عفيفة شاكرة.

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾:

أي: ليسوا فقط أشِحَّةً بالأموال والأعمال والأنفس منهم ومن غيرهم عليكم لذواتكم وأشخاصكم، بلْ هم أشحّةٌ بكلّ ذلك على الخير أين كان الخير، لأنّهم لا يؤمنون بفائدة البذل في سبيل الخير ومرضاة الله عزّ وجلّ، وظاهر أن من لَمْ يؤمن بجدوىٰ شيءٍ من الأشياء، فلا بدّ أن يكون شحيحاً عليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾:

أي: أولئك البعداء عن مهابط رحمات الله عزّ وجل، وهم قسم من المنافقين الذين جاء وصفهم أنهم يتخلّفون عادة عن مواطن البأس، ولا يأتونه إلاّ قليلاً، ويثبطون إخوانهم، ويدعونهم للتخلّف، وهم أشِحّةٌ على المؤمنين وعلى كلّ خير، وهم جبناء خوّارون إذا جاءت أسباب الخوف، فإذا ذهبت كانوا أصحاب ألسنة سليطة مؤذية في التلويم، وفي طلب أوفر نصيب من الغنائم.

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾: وإن تظاهروا بالإسلام، بل هم كافرون من مستوى الكفر الذي لم تختلط به أضواءٌ إيمانية.

﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾: أي: أبطل الله اعمالهم، فلم يجعل لها الآثار الّتي تُرجَىٰ منها عادة.

ولكن ما هي أعمالهم الّتي يلاحظ فيها أنّ الله عزّ وجلّ قد أحبطها؟

لـدى التحليل نـلاحظ أنّ لهم صنفين من الأعمال، ولكـلٍّ منهما إحبـاطٌ مناسب له.

الصنف الأول: أعمـال إسلاميّـةٌ في ظاهـرها، كـإقامـة الصلاة مـع المسلمين، وحضور معارك الجهاد في بعض الأحيان، ودفع الزكاة الملْزَمين بدفعها.

وإحباط هذا الصنف من الأعمال يكون بإسقاطه من سجلّ حسنـاتهم، لأنّه ليس نابعاً من منـابع الإيمـان، ولا أثراً من آثـاره، فهو غيـر ذي قيمة عنـد الله، إنّه مصـانعة ونفاق ورياء، هم بـه كاذبـون، وقد أخـذوا جزاءه في الـدنيا، بحَقْن دمـائهم من القتل الذي كانوا يستحقونه لو أظهروا كُفْرهم.

الصنف الثاني: أعمال كَيْدٍ ضدّ الإسلام والمسلمين، كأعمال التعويق والتخذيل والتثبيط التي يقومون بها.

وإحبـاط هذا الصنف من الأعمـال يكـون بكشف عنـاصـره للمسلمين، وإفسـاد الخطط الّتي تدبّر فيه، وإبطال أثر المكايد التي تُحاك فيه.

وهذا الصنف من الأعمال هو الصنف الذي يلائمه قوله تعالى بعد قرار الإحباط: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾:

ونستـطيع بـالاستنباط أن نقـدّر للصنف الأوّل المعنى الذي ينـاسبه، وفق قـاعدة العدل الرّبّانيّة، وتقدير الكلام يمكن أن يكون كما يلي:

أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فأحبط الله بمقتضىٰ عدله أعمالَهم التي يـظهر منهـا أنها أعمـال حسنة؛ لأنها غير صادرة عن إيمان، وأحبط بمقتضىٰ حكمته ونصـرته لأوليـائه أعمـالهم التي يكيدون بها المسلمين، وكان ذلك على الله يسيراً.

ويتـابع النصّ الكـلام حـول هؤلاء المتخلفين عن غـزوة الأحـزاب، والمثبـطين لإخوانهم عن شهودها، فيصف حالهم بعد انصراف الأحزاب، وهو:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

إنّ الأحزاب قد انصرفوا عن حصار المدينة دون أن ينالوا خيراً، وكفَى الله المؤمنين القتال.

ولكن ما زال المنافقون المختبئون في منازلهم خائفين متوارين، يحْسَبُون الأحزاب لم يذْهبوا، لأنّهم لا يفارقون مخابئهم في منازلهم، ليعرفوا ماذا حدث في المدينة.

وفي هذا تصوير بديع دقيق لشدّة لصوقهم في أرض مخابئهم، وذعرهم من الأحزاب، وتوقعهم أنّهم لا بدّ مداهمون المدينة، ومنتصرون على المسلمين.

لكنهم بعد ذلك علموا من إخوانهم وذويهم برجوع أحزاب العرب خائبين وسلامة جيش الإسلام في المدينة.

وكان تخلُّفهم أمراً يُدانُون به، ويُحاسبهم عليه الرّسول ﷺ والمؤمنون.

﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾:

﴿بَادون﴾: جمع «بادٍ» وهو الذي خرج إلى البادية، وترك الحاضرة.

أي: وإن يأت الأحزاب مرّةً أخرى لقتال المسلمين، يودّ هؤلاء المنافقون لو أنّهم بادون في الأعراب، بعيدين عن المدينة، ولا شأن لهم في الصراع الدائر بين المسلمين، وبين أعدائهم من العرب، ومن هنالك يسألون حاملي الأخبار عن أنباء الحرب الدائرة بين المسلمين وأعدائهم.

لقد كانوا عند قدوم الأحزاب يعتقدون أنّهم لا محالة منتصرون على المسلمين، اعتماداً على الظواهر السببيّة، فاكتفَوْا بالتخلُّف عن المشاركة، ليكون ذلك عذراً لهم عند جموع الأحزاب، بأنّهم لم يكونوا مع المقاتلة من المسلمين.

لكنّهم بتخلُّفهم قد عرّضوا أنفسهم للمحاسبة من قِبل الرسول والمؤمنين، فلو

جاء الأحزاب مرّةً أخرى فإنّ الأمر لا بُدَّ أن يختلف، إنّهم لا يستطيعون أن يتخلّصوا من الإدانة بالتخلّف، ومن المعاقبة عليه، ولا يملكون الشجاعة على مشاركة المسلمين في قتال أعدائهم.

لذلك فهم يتمنّون عندئذٍ لو أنّهم كانوا بادين في الأعراب، يسألون من بعيد عن أنباء معركة المسلمين مع أعدائهم دون أن يكونوا مع هؤلاء أو مع هؤلاء، حرصاً على سلامة أنفسهم من مقاتلة الأحزاب، وسلامة أنفسهم من محاسبة المؤمنين.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

أي: وإنْ يأت الأحزاب مرّةً أخرى، واضطُرّ هؤلاء المنافقون أن يكونوا في صفوف مقاتِليكُمْ، لئلاّ تحاسبوهم على تخلّفهم عنكم، ما قاتَلُوا معكم إلاّ قتالاً قليلاً كمّاً وكيفاً، يراءونكم به، ويصانعونكم فيه، محافظةً على مظهر انتمائهم إليكم بادّعاء الإسلام.

ومع ما في هذا من بيان لصفات هؤلاء المنافقين، ففيه إشعارٌ ضمنيٌّ للمؤمنين بأن لا يضعوهم في حساب القوى الّتي يملكونها ضدّ أعدائهم، بل عليهم أن يعتبروهم قوّة تثبيط.

وجاء في نصّ آخر بيان اعتبارهم قُوىً سلبيّةً لا قُوىً إيجابيّة، وهو ما في قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿خَبَالًا﴾:

أي: فساداً وإفساداً وإضراراً.

﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾:

أي: ولأسرعوا وهم بين صفوفكم ينشرون أسباب فتنة المسلمين المؤمنين عن دينهم، إذ بين المسلمين من قد يستمع لهم، ويصغي لأقوالهم ويتأثّر بها.

فتكاملت النصوص في الدلالة على أنّ وجود المنافقين في صفوف المسلمين أثناء معارك القتال بمثابة قُوًى سلبيّة، تضاف إلى قوى الأعداء، ولا تحسب ضمن قوى المسلمين.

والمعنى: أنّ على المؤمنين أن لا يعلّقوا على المنافقين أملاً ما، مهما كان ضعيفاً، بل عليهم أن يثقوا بالله عزّ وجلّ ويتوكّلوا عليه، ولا يضعوا في حسابهم إلّا القوى المؤمنة الصادقة في إيمانها، والصادقة في جهادها، والمخلصة لربّها ولدينها.

وعليهم أن يتأسَّوْا في ذلك برسول الله ﷺ الذي.يتوكّل على الله وحده، ولا يضع في حسبانه إلّا الله ومن اتّبعه من المؤمنين، امتثالاً لقول الله عزّ وجل لرسوله في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وإشارةً إلى هذه المعاني خاطب الله المؤمنين بما في قوله:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿أُسْوَةٌ﴾:

قُدْوَةٌ يُقْتدى به، في عمله وخلقه وكلّ ما يصدُر عنه.

والمعنى المشار إليه المناسب للموضوع، مع عموم الآية في دلالتها الكليّة، يمكن أن نوضحه بما يلي:

كما أنّ الرسول لا يقيم للمنافقين وزناً، لدى حساب قوة جيشه، بل يكتفي بربّه، وبمن اتّبعه من المؤمنين، فيا أيُّها المؤمنون اتّخذوا رسولكم أُسوةً لكم في ذلك، إنّكم ما اتّخذتموه أسوةً إلّا ظفرتم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ يستفيد منها ويَسْعَد بها ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ والْيَوْمَ الآخِرَ وذَكَرَ اللّهَ كثيراً﴾.

﴿يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾:

أي: يرجو مترقّباً عونه ومَدَدَه ونصره وثوابه ورضوانه.

﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾:

أي: ويرجو السعادة الخالدة يوم الدين وما فيه من أجرٍ عظيم للمتقين والأبرار والمحسنين.

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾:

أي: وكان مع ذلك على صِلَةٍ بالله تعالى في معظم أوقاته، لأنّه كان كثير الذكر له.

فمن يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً فإنّه يتّخذ رسول الله أسوةً حسنةً له.

وهنا ينتهي الكلام في النصّ عن مواقف المنافقين في غزوة الأحزاب (الخندق) ومواقف الذين في قلوبهم مرض، منذ بداية قدوم الأحزاب حتّى رجوعهم خائبين لم ينالوا خيراً.

* * *

وصف حال المؤمنين

بعد ذلك شرع النّص يلخّص مواقف المؤمنين بدءاً من أوّل قُدوم الأحزاب.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: ذلك ما كان من أمر المنافقين والّذين في قلوبهم مرض، وأمّا المؤمنون فحالهم هو ما أصف لكم.

لمّا رأى المؤمنون جيشَ الأحزاب، لم يرهبوا ولم يخافوا، ولم يقولوا مثل مقالة

المنافقين: ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً، ولكنّهم قالوا: هذا ما وَعَدنا الله ورسوله وصَدَقَ الله ورسُوله.

إنّ كثرة الجيش القادم لقتالهم لم تَفُتّ في أعضادهم، بل حدّثتهم قلوبهم المؤمنة بأنّ الله قد ساق لهم هذا الجيش الكبير الذي يفوقهم عدداً وعُدّة، ليحقّق لهم ما وعدهم به من التأييد والتمكين، والنصر والفتح المبين.

فالله عزّ وجلّ لم يُخْلِفْهم وعده، والرسول ﷺ لم يكذبهم في شيء، والأحداث الماضية شواهد، فلا بدّ في هذه الحادثة أن يكون الله معهم ظهيراً نصيراً.

إنّ ثقتهم بالله ورسوله قد كانت في حصنٍ حصين، من ثبات الإيمان ورُسوخ اليقين، فلا تستطيع أن تنال منها شيئاً نِبالُ الشكوك التي يقذفها الخوف، وإن كان جيش العدوّ أكثر منهم عَدداً وعُدّة.

وما زادهم ما رأوا من كثرة عدوهم، إلاّ إيماناً بأنّ الله عزّ وجل سَيُحَقّق لهم ما وعدهم من التأييد والنصر، وما زادهم إلاّ تسليماً لقضائه الحكيم.

ولكنّهم لا يعلمون كيف يكون تحقيق وعْد الله، ولا يعلمون مدى الابتلاء الذي سيخوضونه قبل ذلك.

كلُّ المؤمنين الصادقين كانوا كذلك تفاؤلاً بإقبال بشائر تحقيق وعد الله، وزيادةَ إيمانٍ بالله ورسوله حين قدوم الأحزاب لحربهم.

لكنهم فيما بعد، ولدى ممارستهم التطبيقية لأعمال المرابطة والمصابرة والجهاد، كانوا على درجات، بحسب ما لدى كلٍّ منهم من قُوّة وصبر.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾:

أي: بعض المؤمنين كان منهم هذا الصدق، ولم يَنْفِ الله عزّ وجلّ الإيمان عن الذين لم يكونوا كذلك، بل أثبت أنهم من المؤمنين أيضاً.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾:

أي: فمن هؤلاء المؤمنين الصادقين مَنْ قضَى نَحْبَه.

النَّحْبُ في اللّغة: يأتي بعدّة معانٍ، منها ما يلي: «الحاجة ـ والمدّة والأجل ـ والنذر، والعهد».

وهذه المعاني كلُّها تصلح هنا، فلقد كان المؤمنون قد عاهدوا الله أن ينصروا رسوله، ويقاتلوا معه أعداءَ الله حتّى يُقْتلوا أو تنقضي آجالهم، أو يتحقّق النصر الذي هو حاجة كلّ مؤمن.

فكان منهم من قَضَىٰ نحبَهُ، فجاهد صادقاً مخلصاً، وماتَ موتاً طبيعيّاً، وكان منهم من قضىٰ نحبَهُ، فجاهد صادقاً مخلصاً، وقُتِلَ فكان شهيداً في سبيل الله، فَنَالَ حاجتَه من الشهادة.

وكلٌّ منهما قضى نذره إنْ كان قد نذر، وقضى عهده الذي عاهد الله عليه إنْ كان ممّن عاهد الله.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾:

أي: ومن هؤلاء المؤمنين الذين صدقوا ما عَاهدوا الله عليه مَنْ يَنْتَظِرُ أن يقضيَ نَحْبَهُ بالشهادة، أو بانتهاء الأجل، أو بتحقيق نصر الإسلام والمسلمين الذي هو حاجة كلّ مؤمن، مع قيامه بما عاهد الله عليه.

﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾:

أي: وكلا الفريقين الذين قضوا نحبهم، والذين ينتظرون قضاءه حتى غايته، ما بدّلوا فيما عاهدوا الله عليه تبديلاً ما، بل حافظوا على عهودهم، ونفّذوها ووفَّوْا بها.

وسكت النصّ عن قسم آخر من المؤمنين، وهم الذين لم تَقْوَ إرادتُهم على الوفاء العمليّ الكامل بما عاهدوا الله عليه، مع سلامة إيمانهم، وتسليمهم لله

عزّ وجلّ. ولا بدّ أن يكون التبديل بين العهد والتنفيذ عند هؤلاء وهم من المؤمنين الصادقين على درجات ومستويات بعضها أدنى من بعض، وهي تناسب تفاوتهم في قُوى إراداتهم، وتفاوتهم في نِسَب شجاعاتهم، وفي نِسَب غَلَبَةِ أهوائهم عليهم، ونِسْبَةِ تعلُّقهم بالدّنيا وما فيها.

* * *

بيان الغاية من
الابتلاء بمواجهة جيوش الأعداء

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾:

أي: لقد كان هذا الابتلاء بمواجهة جيوش الأعداء ليتحقّق به كشف أحوال المنتسبين إلى الإسلام، وبعد الكشف يأتي تحقيق قانون الجزاء.

أمّا المؤمنون الصادقون في إيمانهم فيجزيهم بحسب صدقهم، في إيمانهم، وفي عملهم، ويتفاوت الجزاء بحسب درجة كلِّ واحدٍ منهم، في الصّدق إيماناً، ووفاءً بالعهد، وعملاً.

وأمّا المنافقون الذين أعلنوا إسلامهم وهم في داخل قلوبهم كافرون، فيكشف بالامتحان نفاقهم، وكذبهم في ادّعائهم الإيمان، وبعد الكشف يأتي تحقيق قانون الجزاء:

(١) فإنْ أصَرُّوا على نفاقِهِمْ، ولم يصلحوا من أحوالهم، استحقُّوا أنْ يُعَذِّبهم الله بمشيئته المقترنة بكمال حكمته وعلمه، فقال تعالى:

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾:

أي: ويعذّب المنافقين الذين لم يتوبوا من نفاقهم، إنّ شاء تعذيبَهُمْ، وعلّق الله

تعذيبهم بمشيئته، لبيان أنّ ظواهر عدله في خلقه سبحانه، لا تحصل بالضرورة الجبريّة، وإنّما تحصل بالمشيئة، لكنّنا نعلم أنّ مشيئته تعالى لا تنفكُّ عن حكمته، ونعلم أنّ حكمته تعالىٰ مقترنة بكمال علمه، وعظيم قدرته على كلّ ما يشاء.

(٢) وإنْ تابوا واستغفروا وأصلحوا وآمنوا إيماناً صادقاً، فإنّ الله عزّ وجل يتوب عليهم، ويقبل استغفارهم رحمةً منه، فقال تعالى:

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾:

أي: إذا تابوا من نفاقهم، وصحّحوا عقيدتهم، وقوّموا سلوكهم.

ونلاحظ أنّ الله يفتح لهم بهذا باب التوبة ليتوبوا ويستغفروا، حتى يتوب عليهم، ويغفر لهم ويرحمهم، ودلّ على أنّ توبة الله عليهم إنّما تكون بعد توبتهم هم من نفاقهم ما نعلم من قانون الله في الجزاء، فمن موادّه أنّ الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به، ويَغْفِرُ ما دون ذلك لمن يشاء، والنفاق أشدّ في دركات الكفر من الشرك.

وأطمعهم الله بمغفرته ورحمته إذا تابوا واسْتَغْفَروا، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

أي: هو سبحانه في الكينونة الدائمة المستمرة كثير الغفران لمن استغفره من عباده، كثير الرحمة بخلقه.

* * *

بيان فصل الختام
من فصول غزوة الأحزاب

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾:

أي: ردَّ الله الأحزاب عن المدينة إلى دِيارِهِمْ مصْحوبين بغيظهم، يكْتَوُون بنار الغيظ الذي اغتاظوه نتيجة خيبتهم، وعدم تحقيق شيء مما جمعوا جموعهم له.

وتحقّق بذلك النصر المعنوي العظيم للمؤمنين على أحزاب العرب المشركين، لأنّ الله قد قطع به دابر غزو العرب الكافرين لهم بعد يوم رجعة الأحزاب عن المدينة خائبين.

جاء في صحيح البخاري أنّ الرسول ﷺ قال لأصحابه حين أجْلَى اللّهُ الأحزاب:

«الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزونَا، نَحْنُ نَسِيرُ إليهم».

وهذا في الحقيقة نصر عظيم وفتح مبين، فلقد كان مقدّمة للفتح الذي جاء بعد ذلك.

﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾:

أي: ما نال الذين كفروا من جمعهم أحزابهم، وقُدومهم لحرب المسلمين في المدينة خيراً ما صغيراً ولا كبيراً.

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾:

إذْ ألهم الله سلمان أن يُشِير بحفر الخندق، فكان بمثابة الدّرع للمدينة، وإذْ بعث على المحاصِرين بعد أن أجهدهم طول الحصار، الريحَ الباردة والجنودَ الخفيّة، فأزعجتهم، وحملتهم على أن يرتدّوا على أعقابهم خائبين تتميَّز قلوبهم من الغيظ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾:

أي: ومن أوصاف الله في الكينونة الدائمة المستمرّة أنه قويٌّ على ما يشاء، عَزيزٌ غالبٌ لكلّ القوى.

وحقّق الله عزّ وجلّ للمؤمنين نصراً مادّيّاً عظيماً في توابع غزوة الأحزاب، على الذين ظاهروا أحزاب العرب من أهل الكتاب، وهم يهود بني قريظة، إذ انكفأ

المؤمنون على حصونهم، بعد جلاء الأحزاب عن حصار المدينة، فحاصروهم، فقذف الله في قلوبهم الرُّعب، فنزلوا من حصونهم مستسلمين خائفين فقتل المسلمون رجالهم، وأسروا نساءهم وذراريهم، وغنِمُوا أرْضهم وديارهم وأموالهم، فقال تعالى:

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾:

أي: من حصونهم، وكان هؤلاء المظاهرون من أهل الكتاب هم من اليهود.

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾:

في هذا بيان للسبب الذي جعلهم ينزلون من حصونهم مستسلمين.

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾:

أبانت روايات السيرة النبويّة أنّ المسلمين قتلوا رجالهم، وأسَرُوا نساءهم وذَرَاريَهم.

ونلاحظ في هذه العبارة جمالاً في الأداء البياني، إذ جاءت كلمة «فريقاً» في البدء والختام، وبينهما فعلا «تقتلون وتأسرون».

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾:

أي: وجعل أرضهم ودِيارَهم وأموالهم ميراثاً لكم، ووصفَ الله هذه الغنائم بأنّها ميراث أورثَهُ الله للمؤمنين، لأنّ الرِّجالَ المالكين لها قُتِلوا، وللدّلالة على أنّ عودة هذه الأرض والديار والأموال إليهم أو إلى نساءهم وذراريهم أمر ميؤوس منه، كما أنّ من مات لا تعود أمواله إليه، إذْ تصير ميراثاً لغيره.

ومع قرار الميراث المنجّز الذي منح الله به المسلمين أرض بني قريظة، ودِيارَهُم وأَمْوَالَهُمْ، أنزل الله عزّ وجلّ قراراً آخرَ محقّقاً، هو بحكم القرار المنجّز تماماً ومُلْحَق به، إلاّ أنّ زمن التنفيذ لم يأت بعد، ألا وهو توريثهم أرضاً لم يطؤوها بعد، وفسّر الواقع بعد ذلك أنّها أرض الفتوحات الإسلامية في أرض العرب وغيرها من بلاد الدّنيا.

وهذا من أنباء الغيوب القرآنية الّتي تحقّقت فيما بعد، وكان هذا القرار الرّبانيّ المحقّق إعلاناً عن بدايات النصر العظيم، والفتح المبين.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾:

أي: ومن أوصاف الله في الكينونة الدائمة المستمرّة أنّ الله قدير على كلّ شيء؛ يريد فعله وتكوينه، فنصره لرسوله وللمؤمنين على الذين كفروا وعلى الذين ظاهروهم من أهل الكتاب، أمْرٌ صغير من هذه الكليّة العامّة الكبرى.

● ● ●

نظرة عامة حول بعض ما جاء في سورة الأحزاب بعد هذا النص ممّا له تعلقٌ ما به

(١)

ثمّ جاء في سورة (الأحزاب) بيان تربويٌّ من الله عزّ وجلّ لرسوله، حدّد له فيه وظيفته تجاه رسالته ودعوته، وهي تتلخّص بمنهج إيجابي، ومنهجٍ سلبي.

* فالمنهج الإيجابي يتناول العناصر التالية:

(١) التّبليغ التّامّ لحقائق الدين، ولواجبات الناس تجاه ربّهم عزّ وجلّ، وهذا التبليغ يعطيه حق الشهادة عليهم يوم الدين.

(٢) التبشير لمن آمن وأطاع بالنعيم المقيم الخالد في جنات النعيم.

(٣) الإنذار لمن كفر وعصىٰ بالعذاب الأليم في دار العذاب يوم الدين.

(٤) الدعوة إلى الله وإلى سبيله بالوسائل التي أذن بها، المقترنة بالحكمة والموعظة الحسنة.

(٥) أن يكون للناس سراجاً منيراً، أي: قدوة حسنة يقتدي به الناس في أقواله وأعماله وأخلاقه وسائر تصرفاته الاختيارية.

(٦) تبشير جماعة المؤمنين بأنّ لهم من الله في الدنيا فضلاً كبيراً، وهو ثواب يعجّله الله لهم، إذْ ينصُرُهم، ويستخلفهم في الأرض، ويذلّل لهم كنوزها وخيراتها، ويُمَكّن لهم سلطانهم، ويسخّر لهم أسباب ووسائل التأييد والتمكين.

وهذا يتضمن التلويح بإنذار غير المؤمنين، بأنّ الهزائم ستلاحقهم ضمن

سنن الله في المجتمع البشري، وأنّ الله سيجعل الذين آمنوا خلفاءهم في ملكهم، ووارثي أرضهم والخيرات الّتي هي في أيديهم عند نزول النصّ.

وقد دلّ على هذا المنهج الإيجابي قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾﴾.

* والمنهج السُّلبيُّ تُجاه الكافرين والمنافقين في مجال الدعوة يتناول العناصر التالية:

(١) عدم طاعة الكافرين والمنافقين في أيّ أمرٍ من الأمور التي تتنافَى مع رسالة الرسول، أو تتنافى مع واجباته تجاه دعوته، أو تجاه ربّـه، أو تجاه أيّـة قضيّة من قضايا المسلمين، فقال الله لرسوله:

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ ... ﴿٤٨﴾﴾.

(٢) عدم الاشتغال بمدافعة أذاهم، أو الانتقام منهم إذا آذوه باتّهامات، أو مطاعن، أو شتائم، أو طرح تشكيكات وشبهات.

وذلك لأنّ صرف جهده لمدافعة أذاهم قد يحقّق للكافرين والمنافقين بعض ما يريدونه، من إيقاف الدُّعوة عن مسيرتها، وشغل الرسول وأصحابه بصراعات شخصيّة، فتتحوّل الرسالة عن أهدافها وواجباتها، إلى نزاعات حول الأشخاص، ويضيع الْجُهْدُ المبذول سُدىً، وتظهرُ العصبيات والأنانيات.

لكنّ رسول الدّعوة، وأمّة الدُّعْوة، ليس همُّهم أشخاصهم، إنّما همُّهم الأكبر مبادئهم، وتبليغ رسالة ربّهم، والرغبة بهداية عباد الله إلى دين الله، ودعوة الناس إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، فقال الله تعالى لرسوله:

﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ ...﴾:

أي: دع التفكير في أذاهم الموجّه منهم لك وللمسلمين، ودع الاشتغال بدفعه، ودع تدبير الأمور الرامية إلى الانتقام منهم على أذاهم، وتجمَّلْ بالصّبر والصفح.

ويلاحظ أنّ التعبير بقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أذاهم﴾ عن هذه المعاني التي فهمناها منه، فيها من الإيجاز والتعميم لكلّ الصُّور ما لا يوجد بأسلوب بياني آخر.

(٣) التوكّل على الله في التزام هذا المنهج، ثقة بأنّ الله سيحقّق له ولأصحابه نتائج يحبُّونها أعظم بكثير ممّا لَوْ شغلوا أنفسهم بمدافعة الأذىٰ، أو الانتقام من الذين يوجّهونه ضدّهم، فقال الله تعالى لرسوله:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

* * *

(٢)

ثم تحدّثت السورة عن جملة أحكام: منها ما يتعلّق بالنكاح والطلاق وما يستتبع، ومنها أحكام خاصّةٌ بالنبيّ، ومنها أحكام من أحكام آداب الدخول إلى بيوت النبي، وبيان أنّ بعض تصرّفات المسلمين كانت تؤذي النبيّ، ويستحيي أن ينهى عنها، والله لا يستحيي من الحق، والتوجيه لسؤال أزواج النبيّ من وراء حجاب، وتحريم نكاحهنّ من بعده، والأمر بالصلاة والسلام على النبي، ثمّ أتبع الله ذلك بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾.

فتولّى الله عزّ وجل الدّفاع المباشر عن رسوله، ضدّ الّذين يؤذونه بشكل عامّ، وجعلهم ملعونين في الدنيا والآخرة، وأنذرهم بعذابٍ مُهين.

واللّبيب يلمح أنّ ثِقَلَ هذا الدّفاع موجّه ضدّ الكافرين والمنافقين، الذين قال الله لرسوله بشأنهم قبل ثماني آيات: ﴿وَدَعْ أَذَاهم﴾.

لكنّ الله عزّ وجلّ قد جعل هذا البيان ضمن أوامر موجهة للمؤمنين، ليشعُر الكافرون والمنافقون أنّه إذا كان انتصار الله لرسوله بهذا الشكل ضدّ الذين يؤذونه ولو كانوا من المؤمنين، فكيف يكون انتصار الله له ضدّ الكافرين والمنافقين.

إنّ هذا التعريض من أقوى أساليب التهديد، وذلك لأنّ الذي يشتدُّ في معاقبة أوليائه شدّةً بالغة انتصاراً لحبيب له، لا بدّ أن يكون عقابه لأعدائه أشدّ وأعظم في انتصاره لهذا الحبيب.

وغلّف الله هذا الانتصار العظيم لرسوله بمتابعة بيان أحكام خاصّةٍ بالمؤمنين، فيها التحذير من إيذائهم بالاتهامات الباطلات، وفيها أمر المسلمات بالحجاب، كي يعرفْنَ أنّهنَّ حرائر عفيفات، فلا يؤذين بقولٍ أو عمل.

* * *

(٣)

ثم توجهت السورة مباشرة للمنافقين، ومرضى القلوب، والمرجفين في المدينة، بإنذارهم بأنّهم إذا لم ينتهوا عن أعمالهم، وحركاتهم المبطّنَةِ بالعداء للإسلام والمسلمين، والتي فيها إيذاءٌ للرسول، فَسُيسلِّط الله رسوله عليهم، ويُنْهِي أسلوب التغاضي عنهم، والصبر عليهم، والتسامح معهم، كما سلّط على أمثالهم فيما شرع لرسله السابقين، إذا تمادَوْا في غيّهم، ولم ينتهوا عن إيذاء رسول الله فيهم، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

وقد جعلهم الله في هذه الآيات ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المنافقون الذين ينطبق عليهم كلُّ صفات المنافقين.

القسم الثاني: الذين في قلوبهم مرض، وهؤلاء ناس قد أسلموا، ولكن في قلوبهم شكوك وشبهات، ولم تتكامل عناصر الإيمان في قلوبهم.

وهؤلاء يتأثرون بوساوس المنافقين والكافرين وتسويلاتهم، فهم يتابعون المنافقين، ويسيرون معهم، ويتحرّكون مثل تحرّكهم تأثراً بهم، دون أن يكونوا منافقين تماماً.

القسم الثالث: المرجفون، وهم طائفة من المنافقين ومن الذين في قلوبهم مرض، تواقحوا فظهرت منهم عبارات التخذيل، والإرجاف بأنّ المسلمين مهزومون

لا محالة، كمقالتهم التي جاء ذكرها في أوائل السورة: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾.

ووصَفهم الله بأنهم مرجفون دمغاً لهم بما ظهر من صفاتهم، وهو الإرجاف بالهزيمة ورواية الأخبار الكاذبة المخذلة.

الإرجاف في اللّغة: هو الإخبار بالأكاذيب، لإثارة الفتن والاضطرابات، وإحداث الرجفان من الخوف.

وهؤلاء الأقسام الثلاثة، إنْ لم ينتهوا عن تحركاتهم العدائية، فإنّ الله عزّ وجلّ سيغري رسوله بهم، أي: يوجّهه للانتقام منهم، والتسلّط عليهم، ومعاقبتهم على أعمالهم، ثم طردهم أو فرارهم من المجتمع الإسلامي الذي يتحرّكون فيه تحرُّك عداء، ولا يقفون فيه عند حدود مظاهر النفاق والمسايرة، وتنفيذ واجبات الانتماء إلى الإسلام.

وبعد طردهم من المجتمع الإسلامي، أو فرارهم خشية إنْزال العقوبات بهم، يكونون مطاردين أينما ثقفوا، وحينئذٍ يكون حالهم حال ردّةٍ عن الإسلام بعد الانتساب إليه، والمرتدون المحارَبُونَ يُؤخذون ويقتّلون تقتيلاً شنيعاً.

ولِيُعْلَمْ أنّ معاملتهم بهذا الأسلوب إن استمرُّوا على مكايدهم وتصرُّفاتهم العدائية، وهم داخل صفوف المسلمين، هي سنة الله في الذين خلَوْا من قبلُ، من أتباع الرسالات الربّانية السالفة، وهذه السنة هي من السنن الثابتة في الشرائع الرّبّانية، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

وفي هذا دلالة على أنّ المنافقين متى بلغت بهم الحال إلى هذا المستوى من صناعة المكايد، وتدبير الأمور العدائية للإسلام والمسلمين داخل المجتمع الإسلامي، فإنّ حكم الله فيهم هو معاقبتهم ومحاسبتهم على أعمالهم، ثم نفيهم، ثم مطاردتهم في مواطنهم التي يدبّرون فيها المكايد، وملاحقتهم للقبض عليهم بجريمة الرّدّة والخيانة العظمى، وتقتيلهم تقتيلاً شنيعاً.

وهذه السنّة هي سنّة الله في كلّ ما أنزل على رسله السابقين.

* * *

(٤)

ثم ختم الله سورة (الأحزاب) بقوله عزّ وجل:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

فأبان الله عزّ وجل في هذا الختام للسورة مسؤوليّة أمانة الاختيار وشروطه، وثمرة هذه المسؤولية وهي الجزاء بالعدل والفضل.

أمّا الجزاء بالعدل: فقد دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾.

وأمّا الجزاء بالفضل: فقد دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ويَتُوبَ اللّهُ عَلَىٰ المؤمنين والمؤمِنَاتِ وَكَانَ اللّهُ غفُوراً رَحِيماً﴾.

● ● ●

مقدمة عامّة

حول عادة التبني الجاهليّة وإلغائها وإلغاء أحكامها وكلّ آثارها وتكليف الرسول أن يكون أول مطبّق لهذا الإلغاء وموقف الكافرين والمنافقين من ذلك

كان التَّبنّي في الجاهلية عادةً متّبعةً ذات شريعةٍ من شرائعهم المتوارثة، وذات أحكام وأعراف ثابتة، هي لديهم بمثابة أحكامٍ دينيّةٍ لا يجوز الخروج عليها ولا مخالفتها.

وقضت حكمةُ الله في دينه الذي اصطفاه لعباده أن يُلْغي عادة التبنّي، لأنّها لا تقوم على أساسٍ تكوينيّ، ولا على ضرورة اجتماعيّة، بل من شأنها أن تُحَرِمَ ذوي الحقوق الطبيعيّين من بعض حقوقهم في الإرث، وتستلزم تَحْريمَ نكاحٍ لم يُحرّمْه الله على عباده.

ومعلومٌ أنّ إلغاء هذه العادة الجاهليّة التي صارت شريعة من شرائع القوم المتوارثة، والتي لها عندهم أحكام في الإرث وتحريم النكاح ثابتة، وأعراف متّبعة، لا بُدّ أن يثير في نفوس الكافرين والمنافقين استعظام هذا الإلغاء واستنكاره، ولا بدّ أن يحرّك أَلْسِنَتَهُمْ بالنقد والاعتراض والاستنكار واستعظام الأمر، ومحاولات التشنيع على أحكام هذا الدين الجديد، باعتبار أنّ التبنّي هو في ظاهره سلوكٌ إنسانيٌّ نبيلٌ، فيه عطف ورحمة وتوادٌّ وتواصل.

فكيف يأتي محمّد الذي يقول: إنّه يُبَلِّغ عن الله، ويدعو إلى التوادّ والتراحُمِ والتواصل، فَيُعْلِنُ إلغاء التبنّي، وإلغاء كلّ آثاره التي هي من أحكام الجاهليّة

وتقاليدها، ثمّ يتزوّجُ هو مطلّقة «زيد بن حارثة» الذي كان قد تَبَنَّاه على عادة الجاهلية، فكان يقال له: زيد بن محمد؟!

إنّ هذا الأمر مثيرٌ جدّاً لنفوس غير المؤمنين، من التقليديّين المتأثرين بالأعراف الجاهلية.

إنّ قضيّة إبطال عادة التبنّي الجاهلية قد استدعت قبل إنزال أحكامها في الإسلام، وقَبْل تغيير التقليد الجاهليّ فيها، عن طريق البيان القولي والعملي، التمهيدَ لها بإعداد نفس الرسول ﷺ ونفوس المؤمنين لذلك.

ولا سيّما أنّ التغيير العمليّ لهذا التقليد الجاهليّ بتطبيق حكم الله المنزّل أمْرٌ سيَتحمَّلُ الرّسول نَفْسُه عِبْءَ أوّل منفّذٍ له، وهو بذلك يُعرّض نفسه لاتّهامات تمسُّ شخْصَه الكريم صلَواتُ الله وسلامه عليه.

وهذه الاتّهامات تُمكّن الكافرين والمنافقين من توجيه مقالة السوء له، على اعتبار أنّه يفعل في نظرهم وبحَسَب تقاليدهم الجاهلية كبيرَةً من الكبائر الّتي يستنكف عن فِعْلِها مشركو العرب، اتّباعاً لتقاليدهم وأعرافهم، وأحكام جاهليّتهم.

ولهذه المقالات التي يتهيّأ للأعداء من الكافرين والمنافقين أن يطلقُوها ضغطٌ اجتماعيٌ يحذَرُه عادةً عظماء الرّجال وقاداتهم، ويخْشَوْنَ منه على مكاناتهم الاجتماعيّة، ولا سيما إذا كانت لها ذرائع من شُبَهٍ يُمْكِنُ تفسير سلوكهم معها بأنّه تابع لهوىً شخصيّ ذاتي، ومن أجله قاموا بتغيير أعرافٍ وتقاليدَ وأحكامٍ مستندُها في تصوّر الناس فضيلةٌ إنسانية.

وقد جاء هذا التمهيد في أوّل سورة (الأحزاب) في خطاب الله لنبيّه بقوله عزّ وجلّ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)﴾.

إنّ الرّسول المبلّغ عن الله، والّذي يُعلِنُ دواماً تجرُّدَهُ عن الهوَىٰ والمصلحة

الخاصّة، ويشتدُّ على النّاس لتزكية نفوسهم وتطهيرها من أهوائها الجانحة، ومن نزعاتها الّتي تدفعُها إلى مخالفة شريعة الله، لتحقيق شهواتها ومصالحها الخاصّة الدنيوية، لَيَجِدُ أقسىٰ امتحانٍ يتعرّضُ له أنْ يُكلَّف القيام بأعمالٍ يمكن أنْ تُستَغلَّ ضدَّ نزاهته وتجرُّدِه، ويُمكِنُ أنْ تُستَغَلَّ لاتهامه بالهوى النفسيّ الخاصّ، وللتّشهير به تجريحاً في بلاغاته عن ربّه، وممارساته في أعماله الخاصّة.

وبالنظر إلى بشريّته صلواتُ الله عليه فقد يدفعه الْحَذَرُ الشديد من أن تُمَسّ قُدسيّةُ رسالَتِه بمطاعن الشبهاتِ، إلى التردُّدِ أو التمهُّل والتريُّث، في القيام بالتكليف الخاص المحاطِ بشُبُهاتِ الاتّهامات الشخصيّة.

لذلك بدأه الله عزّ وجلّ بقوله له:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَـٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَۚ﴾.

من المعلوم بداهةً في صفات الرسول لدى المؤمنين أنّ التقوىٰ سِمَةُ الرّسول الدّائمة، فمن صفاته العصمة عن المعصية، بل هو صلوات الله عليه فوق مرتبة المتقين والأبرار، إنّه قمّةُ المحسنين.

لكنَّ التمهيد للتكليف الخطير الذي يخاف فيه الرسول على قدسيّةِ رسالته من مطاعن الكافرين والمنافقين، التي يُلْقون فيها الشبهات الخادعات، يتطلّبُ التحذير الشديد من التردّد أو التريّث، وقمّةُ هذا التحذير بالنّسبة إلى الرسول ﷺ أمْرُهُ بأن يتقيَ الله.

وقد جاء في البيان الإشارة إلى أنّ موضوع التكليف الآتي سوف لا يثير الشبهات حولَه إلّا الكافرون والمنافقون، وهؤلاء ليس من شأن الرسول أن يتأثّر بمطاعنهم، واتّهاماتهم أو بالشبهات التي يستغلّونها، فلا ينبغي أن يكون لضغطهم الاجتماعي أيُّ تأثيرٍ على نفسه.

ولمّا كان مثل هذا التأثير ربّما يولّد حركة التباطؤ في تنفيذ حكم الله، وهذا التباطؤ يُفْهم منه الاستجابة للمؤثرات الاجتماعية، وهذه الاستجابة هي في معناها نوعٌ من أنواع الطاعة لأصحابها، ولو مع الكراهة لها، قال الله عزّ وجلّ له:

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾:

أي: ولاَ تتأثَّرْ بأقوال الكافرين والمنافقين واتِّهاماتهم وضغوطهم الظالمة.

ولمّا كانت أحكامُ الله وأقضيتُه القدريَّةُ والتشريعيَّةُ، تستند إلى علمه الشامل لكل معلومٍ موجود أو معدوم، وإلى حكمته العظيمة الّتي يختار بها دون اضطرارٍ ولا إجبارٍ ما هو أحكم وأعدل، انسجاماً مع كمال صفاته عزّ وجلّ ختم الله الآية الأولى من السورة بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾:

أي: إنّ صفتي كمال العلم وكمال الحكمة هما من صفات الله الأزليّة، فهما إذاً أبديتان، لأنّ ما كان أزليّاً فهو أبديٌّ لا محالة، ومن كان عليماً حكيماً فهو لا يختار في أحكامه وأقضيته القدريّة والتشريعيّة إلّا ما هو الأحكم والأعدل، ولا مُجْبر له سبحانه، بل أفعاله وأوامره الحكيمة هي من مقتضىٰ كمال صفاته عزّ وجلّ.

هذا التمهيد الموجّه للرسول بطريقة مباشرة، يتضمّن توجيهاً غير مباشر للمؤمنين، وللآخرين، إذْ فيه إشعار بأنّ الرّسول وهو النبيُّ المجتبىٰ، يقَعُ تحت طائلة العقاب إذا عصىٰ، فكيف يكون حال من دونه، وفيه إعلامٌ بأنّ زواج الرّسول من مطلقة زيدٍ الذي كان قد تبنّاه قبل تحريم التبنّي وإلغائه، تكليفٌ من الله له لا خيرةَ لهُ فيه، ومخالفةُ هذا التكليف تعرّضه للعقوبة.

بعد هذا التمهيد بيّن الله عزّ وجلّ لرسوله الحدود التي يكون بالتزامها متحقّقاً بتقوى الله، فقال تعالى له:

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾:

أي: مهما أمرك ربُّكَ أو نهاك عن شيء بطريق الوحي فأنت مكلّف ان تتّبعه، وإن خالف هواك، وإن تصوّرت أنّه يؤثر على صِدْقِك في رسالتك، وعلى كمال نزاهتك وتجرُّدِك عن الهوى وعن المصالح الشخصيّة، فالله عليم حكيم.

وإشارةً إلى أنّ أيَّ إخلالٍ أو تقصيرٍ بهذا الاتّباع المأمور به لا يخفى على الله منه شيء، قال الله له في آخر هذه الآية الثانية من السورة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ۝٢﴾.

هذه الخبرة الربّانيّة المحيطة بكلّ ما يَعْمَل الخلائق، هي منْ صفاتِ اللّهِ الأزليّة، فَمَا يجري من شيءٍ من الخلائق إلّا كان محاطاً مُلاحَقاً بالعلم الرّباني التفصيليّ المتتبِّع لكُلّ الدقائق الظاهرة والباطنة بعد امتحان، وما كان أزليّاً فهو أبديٌّ لا محالة.

وتلطُّفاً بحال الرسول ﷺ مع قصْدِ التعميم جاء الكلام على صيغة الجمع، فقال تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُون خبيراً﴾ لا على صيغة المفرد: بما تعمَلُ خبيراً.

لكنّ الرسول ﷺ قد يتعرّض في قضيّة اتّباعه لما يُوحَىٰ إليه من ربّه حول موضوع إلغاء عادة التبنّي وإلغاء كلّ آثارها وأحكامها الجاهلية قولاً وعملاً، لاتّهامات ومقالات سوء تُوجَّه ضدّه.

وهذا يستدعي في التربية الحكيمة تهيئة نفس الرسول وقلبه وفِكْرِهِ تهيئةً نابعةً من القاعدة الإيمانيّة، وهي في هذا الموضع التذكيرُ بالتوكُّلِ على الله، الذي وجّه له التكليف، فهو الذي يحميه ويصونه، ويجعل ما يخشَىٰ منه سبَباً في زيادة التمكين لنُبُوّته ورِسالته، وكمالِ نزاهته، ورفع ذكره، مع ما يُصيب ممّا يشتهي لنفسه وجسده فقال الله عزّ وجلّ لَهُ في الآية الثالثة من السورة:

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝٣﴾.

* * *

بعد التمهيدات التربويّة من الله عزّ وجلّ لرسوله محمّد ﷺ في الآيات الثلاث الأُولَياتِ من سورة (الأحزاب) انتقلت السورة إلى بيان حقائق عقليّة وعلميّة تكشف فساد مفهومات وأحكام جاهلية شائعة، منها التبنّي وما يَسْتَتْبِعُهُ من أحكام متوارثة في العادات والتقاليد الجاهليّة.

* * *

المفهومات الجاهليّة التي تعرّض لها النصّ

المفهوم الأوّل: ادّعاء بعض أهل الجاهليّة أنّ له قلبين:

* روي عن ابن عبّاس أنّه قال: كان رجلٌ من قُرَيشٍ يُسَمّى مِنْ دَهْيِهِ (أي: من دَهائِهِ) ذا القلبين فأنزل الله في شأنه قوله:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾.

* وروي في سبب نزول هذه الآية عن مجاهد، أنّه قال: إنّ رجلاً من بني فِهْرٍ قال: إنّ في جوفي قَلْبَيْنِ أَعْقِلُ بكُلٍّ واحد منهما أَفْضَلَ من عقل محمّد ـ وكَذَبَ ـ فأنزل الله هذه الآية.

نعم: كذَبَ وخَسِىء.

* وروي عن قتادة وعن عكرمة نحو ما رُوِيَ عن ابْنِ عباس.

وهذا الادّعاء ادّعاءٌ كاذبٌ ليس له في الواقع حقيقة ينطبق عليها وربما كانت فكرةُ وجود أفراد في الناس يمكن أن يكون للواحد منهم قلبان، من الأفكار الجاهلية الشائعة.

المفهوم الثاني: كان أهل الجاهليّة يعتبرون الظهار طلاقاً تحرُم به المرأة، وأصْلُ الظهار في عرفهم أن يقول الزوج لزوجته: انت عليّ كظهر أُمّي، أي: حرامٌ عليَّ معاشَرتُكِ كحرمةِ أُمّي عليّ.

وهذا كذبٌ مخالفٌ للحقيقة، فالزّوجة لا تكونُ أمّاً، والأمّ لا تكونُ زوجة، وجعل الزّوجة المأذون بمعاشرتها كالأمّ الّتي تَحْرُمُ معاشرتُها هو من قبيل الجمع بين الضدَّيْن اللّذَيْن لا يجتمعان، فهو كذب تنطق به الأفواه فقط، ولا يَجِد في الواقع حقيقةً ينطبق عليها.

والجمع بين الضدّين مرفوضٌ بداهةً في العقول.

المفهومُ الثالث: التّبنّي الذي يجعل بحسب التقاليد والأعراف الجاهليّة من ليس ابْناً في الحقيقة ابْناً بالادّعاء والإلزام بعقدٍ اختياريّ إراديّ يُعلِنه المُتَبَنّي ويقبَلُهُ المتبنَّى.

وهذا التّبنّي يستتْبعُ عندهم جميع الأحكام الخاصة بالابن النّسبي، ومنها الميراث، ومنها تحريمُ زوجةِ هذا الدّعّي على من تَبنّاه تحريماً مؤبّداً، كما لو كان ابْنَهُ

حقيقةً، فلو طلّقها أو مات عنها لم يحلّ في عرفهم لمن تَبنّاهُ أن يتزوّجها، نظراً إلى أنّها بمثابة زوجة ابنهِ النَّسَبِي.

وهذا عدوانٌ على ما هو من خصائص الله عزّ وجلّ في قضيَّةِ التحليل والتحريم، وكذبٌ على الواقع والحقيقة، وذلك لأنّ تبنّيَ مَنْ ليس ابْناً في الحقيقة لا يزيد على كونه كلاماً كذباً صادراً عن الأفواه فقط، تفاخراً بعملٍ إنسانيّ، لا تعبيراً عن الواقع، بل الواقع بخلافه تماماً.

* الواقع يقول: إنّ الْمُتَبَنّى ليسَ ابْناً في الحقيقة.

* والادّعاء يقول: إنّهُ ابْنٌ.

هاتان قضيَّتان مُتَناقِضَتان، والتناقُضُ مرفوضٌ في بداهة العقول.

* * *

البيـان القرآنـي

جاء البيان القرآني كاشفاً للحقيقة في هذه القضايا الجاهليّة الثلاث، وذلك في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾.

(١) ما جَعلَ اللّهُ لرَجُلٍ من قلبين في جوفه.

(٢) وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون مِنْهُنّ أُمّهاتِكُمْ.

(٣) وما جعل أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْناءَكُمْ.

والجامع لهذه القضايا الجاهلية الثلاث أنّها قضايا كاذبات، بينها وبينَ الواقع تناقض، والتناقض مرفوضٌ في العقول بداهةً، لذلكَ فهو لا يستتبع أحكاماً تستند إلى اعتباره مقبولاً غير مرفوض.

فالقضيّة الأولى:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ... ﴿٤﴾ ﴾:

أي: ولا لامرأة من باب أولى، وخُصَّ الرجلُ بالذِّكْر، للردّ علىٰ من ادّعىٰ ذلك من رجال العرب، أمّا النساء فما ادّعت ذلك واحدة منهنّ.

والسياقُ يدلُّ على أنّ المراد مِنْ نَفْيِ أَنْ يكون لأيّ إنسانٍ قلبان، هو نفي الازدواجيّة المتناقضة في ذاتيّة الإنسان العاقلة المريدة، وهذا من جعل الله وخلقه، وفطرته الّتي فطر الناس عليها، ولو شاء غير ذلك لفعل.

فإذْ ليس للإنسان إلّا قلبٌ واحدٌ يعقل به ويُريدُ به، فإنّه لا يُمْكن لهذا القلب الواحد أن يكون متناقضاً مع نفسه، ولا أنْ يقبلَ المتناقضات، ولا أن يسلّم بها.

إنّه لا يُمكن للقلب الواحد العاقل المريد أنْ يؤمن بالله حقَّ الإيمان، وتكون عناصر هذا الإيمان واضحةً لديه، ثُمَّ يؤمنَ مع ذلك بالطاغوت، لأنّ الإيمان الصحيح بالله الواحد الأحد يستلزم استلزاماً عقليّاً الكُفْرَ بالطاغوت.

إنَّ الإيمان بـ «لا إلٰه إلّا الله» لا يمكنُ أن يجتمع في قلبٍ واحد مع الإيمان بـإلٰه غير الله، لأنّهما قضيتان متناقضتان:

الأولى: تنفي وجود إلٰه غير الله.

والثانية: تثبت وجود إلٰه غير الله.

وهذا تناقضٌ مرفوضٌ بداهة، والفكرُ الواحد، والقلب الواحد لا يمكن أن يقبل التناقض، تلك فطرةٌ قاهرةٌ فطر الله الخَلْقَ عليها.

ولكن قد يخفىٰ التناقض، حين يكونُ بيْن لوازم المتناقضات، عندئذٍ فقد ينساق الإنسان مع المتناقضات في الحقيقة جهلاً منه بواقع تناقضها، لا ازدواجاً في هُوِيَّتِهِ ذاتِ الشخصيَّة الواحدة.

إنّ من لوازم الإيمان الصحيح الواضح الشامل لكلّ عناصر القاعدة الإيمانيّة في الإسلام، أنْ لا يُوجَد في قلب المؤمن بها تناقض في التقوى.

فالله عزّ وجلّ بموجب هذا الإيمان هو وحْدَه الأهل لأنْ يُتَّقىٰ، فإذا أمر بشيء، أو نهىٰ عن شيء، فإنّ المفروض في المؤمن ذي الإيمان الكامل أنْ يوجّه كلَّ ما لديه من خوف وخشية لتقوى الله، لأنّه هو الذي بيده كُلُّ شيء، وهو القادرُ على كلّ شيء،

والمحاذير الأخرى التي تخضع لسُنَن الله في كونه لا يصحُّ أن تأخذ حظّاً من الخوف والخشية مناقضاً لما يجب أن يكون لله وحده.

وهُنا نقُول: إنّ ملاحظة سُنَن الله فيما خلَقَ وذرأ وبرأ، ومنْها سُنَنُه في المجتمع البشري، قد يكون فيها مخاوف تستدعي من الإنسان أن يخافها ويخشاها.

وإنّ أوامر الله ونواهيه وزواجره تستدعي من المؤمن أن يتّقِيَ مخالفتها.

فإذا تناقضت مقتضياتُ تقوى الله، مع مقتضيات الخوف من غير الله، فإنّ مقتضيات تقوىٰ الله هي الأحقُّ بأن تمتصّ كُلّ عناصر الخوف والخشية في هذا المجال، وهذا ما تستلزمه الْهُوِيَّةُ الواحدة للقلب الواحد في الإنسان.

لكنّ وُضوحَ رؤية الحقيقة بهذا العمق انتقالاً من اللّوازم إلى أصل عناصر القاعدة الإيمانية قلّما يوجد عند الناس.

وإذْ أمر الله عزّ وجلّ نبيّه في الآية الأولى من سورة (الأحزاب) بأنْ يَتقي اللّهَ وَلا يُطيع الكافرين والمنافقين خوفاً من تشنيعاتهم عليه، وحفاظاً على قُدسيّة رسالته، ونزاهته من الأغراض الشخصيّة الدنيويّة في القضايا الدينيّة، وفي كُلّ تبليغاته عن ربّه، أرْشَدَهُ إلى الأساس العميق الذي يستلزم أن يُحصر تقواه بالله، ولا يخشىٰ أحداً سواه، مهما كانت الدواعي لهذه الخشية، وذلك بمقتضى وحدة الْهُوِيّة للقلب الواحد الذي لا يقبل بفطرته التناقض.

إنّ هذا البيان يقدم برهاناً عقليّاً وعلميّاً على ضرورة الالتزام بجانب تقوىٰ الله، إذا تعارضت مع الخوف من غيره، وعلى أنّ هذا هو ما تقتضيه الفطرة الّتي فطر الله الناس عليها، إذا كمل الإيمان، ووضحت الرؤية.

وحين يقبل الإنسان التناقض في بعض الأمور فذلك لخفاء التناقض عليه، وعدم وضوح الرؤية له، باعتباره من لوازم المتناقضات.

وكثيراً ما يَخْفَىٰ التناقُضُ على الناس بين لوازم المتناقضات، ولو وضحت لهم الرؤية تماماً لرفضُوا التناقُضَ ومَا قَبلوه.

وإذا قال قائل: إنّ هذه المعانيَ العميقة الّتي دلّ عليها النّصُّ قلَّ مَنْ يفهمها من الناس.

فإنّنا نَقُول له: إنّ الخطاب في هذه الآيات للرسول محمّد صلوات اللّهِ عليه ومن كان مِثْلَه كفتّه الإشارات والتلميحات الضّمنيّة، والموجزات اللّفظيـة، وإنْ كانت خفيّـةً عميقةَ الْمُدْرَكِ، يصعُبُ على أكثر الناس إدراكُها.

وهَذا من أسرار القرآن وبدائعه وروائعه.

* * *

القضيّـة الثانيـة:

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔي تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ... ﴿٤﴾﴾:

أي: كمـا أن أزواجكم الـلاّئي لا يصحّ في حكم الله أن يَكُنَّ أمّهـاتكم الـلائي ولدنكم فلا يجوز لأحد أن يتزوّج بأمّه، ما جعـل الله أزواجكم إذا ظاهـرتم منهنّ فقال قائل لزوجته: أنْتِ عليّ كـظهر أمّي ـ أي: حـرام عليّ كرحمـة أُمّي عليّ ـ ما جعلهنّ أُمَّهاتِكُم لقولكم ذلك بأفواهكم، ولا جعلهنّ في التحريم مثل حرمة أمّهاتكم.

فالزوجة ليست أُمّاً في الحقيقة، ولا تكونُ في التحريم مثل الأمّ إذا ظاهر زوجهـا منها.

ومرجع هذا أيضاً من الناحية العلميّة والشرعيّة إلى التضادّ بين حقيقتين:

الأولى: الزوجة الّتي ليست أمّاً في الواقـع لا تكون بـالقول أُمّـاً (الزوجـة ليست أُمّاً).

الثانية: الأمُّ لا يصح في حكم الشرع أن تكون زوجة (الأم ليست زوجة).

فكيف يجمع المظاهـر من زوجته بين حقيقتين متضـادّتين، زوجتي ليست أمي، زوجتي أمي، لمجـرد كلام يقـولـه بفِيـه، وهـو لا أسـاس لـه في الـواقـع ولا في حكم الشرع.

وقد أوجب الله على من يظاهر من زوجته الكفّارة عقوبـة له، إذْ حـرّم على نفسه ما أحلّ الله لـه. والكفارةُ هي: تحـرير رقَبَـةٍ من قبل أن يتمـاسّا، فمن لم يجـد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يَتماسّا، فمن لم يستطع فإطعامُ ستين مسكيناً.

وقد أنزل الله حكم هذه الكفارة في أوّل سورة (المجادلة) التي نزلت بَعْد أربعَ عشرة سورة من إنزال سورة (الأحزاب).

* * *

القضيّة الثالثة:

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ... ۝٤﴾:

الدَّعِيُّ: المتَبَنّى الذي تبنّاهُ رجلٌ فَدَعاهُ ابْنَهُ، وهو ليس بابْنِهِ في الحقيقة.

والدّعِيُّ: أيضاً المنسوبُ إلى غير أبيه، والجمع أدعياء.

أي: وما جعل الله أدعياءَكُم ــ الذين تَتَبَنّونَهُم وهم ليسوا بأبنائكم نسباً ــ أبناءكم، ولا لَهُمْ أحكامُ أبنائكم فيما اصطفى لكم من الدِّين.

فإذا قال قائلكم لمن ليس ابنَهُ نسباً: أنتَ ابني ترثني وأرِثُك، فإنّ إنْشاءَهُ لعَقْد التَّبَنّي هذا لاغٍ وباطل، ولا يغيّر من الحقيقة شيئاً. فالواقع بخلاف ذلك، إنّ الإرادة القدريّة لم تجعله ابْنَهُ نَسَباً، بل جعلته نسْلَ شخصٍ آخر، كذلك إرادة الله التشريعيّة لم تَجْعلْه ابْنَه حُكْماً إذا تَبَنّاه، لأنّ التبنّي ولوازمه على خلاف مقتضيات الحكمة الرّبانية.

ومرجع هذه القضيّة أيضاً التّضادُّ بين حقيقتين:

الأولى: من ليس ابناً في النّسب بمقتضى الأدلة المثبتة للنسب، لا يصحّ في حكم الشرع أن يُلحَق بغير أبيه، على أيّة صورة من صُور الإلحاق النَّسبي، ومن ذلك عقْدُ التبنّي، فلا أثر للتبنّي لا في النَّسَبِ ولا في الحكم الشرعي.

الثانية: التّبنّي يتضَمَّنُ إثبات حقوق البُنُوّةِ لمنْ ليس ابْناً في النسب، فيكون المتبنَّى شريكاً في الميراث كالابن، إلى غير ذلك من أحكام، وهو يتضمَّن إثباتَ شيء، مضادّ للواقع.

وقد جاءت هذه القضيّة الثالثة تمهيداً لما سيأتي في السورة من تكليف الرسول ﷺ أن يتزوّج بنت عمته: «زينب بنت جحش» التي كان قد زَوَّجها على كراهية منها «زيْدَ بن حارثة» الذي كان عبداً أهدته إيّاه خديجةُ زوجتُه رضي الله عنها، ثم

أعتقه الرسول وتبنّاه قبْلَ أن ينزل في الدين إلغاءُ حكم التبنّي، فلمّا قضى زيدٌ مِنْها وطَراً طَلَّقَها، وأمَرَ الله رسوله بأن يتزوَّجها، تأكيداً عملياً لإلغاء عادة التبنّي الجاهلية، التي نزل بإلغائها القرآن.

والفاصل بين هذا التمهيد وبين التكليف الآتي يُناسب الفاصل الزمنيّ الذي كان بين الأمرين.

* روى البخاريّ بسنده عن عبد الله بن عمر قال: إنّ زَيْدَ بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كُنّا ندعُوهُ إلاّ زيدَ بْنَ مُحَمّد، حتّى نَزَلَ القرآن: [ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ].

(الحديث رقم (٤٧٨٢) في فتح الباري)

* وأخرج ابْنُ أبي حاتم عن السُّدّي قال: «بلَغَنا أنّ هذه الآية: ﴿أي: وتُخْفي في نَفْسِكَ ما اللَّهُ مُبْدِيهِ وتَخْشَى النّاس واللَّهُ أحقُّ أن تَخْشَاهُ﴾ نزلت في زينب بنت جَحْش، وكانت أمُّها أُمَيْمَة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ أراد أن يُزَوِّجها زَيْدَ بْنَ حارثة مولاه، فكَرِهَتْ ذلك، ثُمّ إنّها رَضِيَتْ بما صنع رسول الله ﷺ فزوّجها إيّاهُ.

ثم أعْلَمَ اللَّهُ عزّ وجلّ نبيّهُ ﷺ بَعْدُ أنّها من ازواجه، فكان يستحي أنْ يأمُرَ بطلاقها، وكان لا يَزَال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس (أي: خصام وخلاف وشجار بين الأزواج، وهو بسبب ترفُّع زينب على زيد الّذي كان عَبْداً) فأمره رسول الله ﷺ أن يُمْسِكَ عليه زوجَهُ وأنْ يتّقِيَ الله، وكان يخشَى الناس أن يعيبوهُ عليه، ويقولوا: تزوَّجَ امرأةَ ابْنِه، وكان قد تبنَّى زيداً»[1].

* وروى عبد الرزّاق عن معمر عن قتادة قال: «جاء زَيْدُ بنُ حارثة فقال: يا رسول الله، إنّ زينب اشتَدَّ عليَّ لسانُها، وأنا أُريدُ أن أُطَلِّقَها، فقال له: اتّقِ الله وأمْسِكْ عليك زوجَكَ، قال: والنبيُّ ﷺ يُحِبُّ أن يُطلِّقها ويَخْشَى قَالَةَ النّاس»[2].

* * *

(١) انظر فتح الباري، الجزء /٨/ الصفحة (٥٢٣).

(٢) انظر فتح الباري، الجزء /٨/ الصفحة (٥٢٤).

بعد بيان الحقّ والسبيل الأقوم حول القضايا الجاهلية الثلاث، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾.

أي: ذلك القولُ الذي تقولونه في القضايا الثلاث قاصر على كونه قولاً صادراً عنكم تملَؤون به أفواهكم فقط، ولا يطابقُ من الحقّ شيئاً، ولا يوافق حكما شرعيّاً منزّلاً من عند الله.

فهو منحصر في كونه كلاماً كاذباً، أو عُدْواناً على حقّ الله فيما هو من خصائص الألوهيّة، لما في بعض هذه القضايا من تحريم ما لم يحرّمه الله، وتَرْتيب حُقُوقٍ لم يقضِ بها اللّهُ عزّ وجلّ.

وقد دلّ على القصْر تعريف طرفي الجملة الخبريّة: [ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بأفواهكم]:

[ذٰلِكُمْ]: مبتدأ، وهو معرفة، لأنّه اسم إشارة، أشير به إلى كلامٍ معيّن معروف سبق بيانه.

[قَوْلُكُم]: خبر، وهو معرفة، لإضافة القول إلى ضمير المخاطب الذي هو معرفة جليّة.

[بأفواهكم]: قيدٌ دلّ على أنّه ليس قولاً معتبراً، إذ هو مجرّد قول بالْفَمِ فقط، ولو مَلأْتُمْ بِهِ فراغ أفواهكم.

* * *

ولمّا كانت القضايا الجاهلية الثلاث بمجموعها تشتمل على نوعين:

النوع الأول: كلامٌ يتحدّث عن الواقع حديثاً كذباً باطلاً.

النوع الثاني: كلامٌ ينشيء أحكاماً تشريعيّةً جاهلية تجانب سبيل الهدى، وما أنزل الله بها من سلطان.

قال الله عزّ وجلّ عقب بيانها: وبيان كلمته حولها:

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾.

أي: فهو سبحانه يقول الحقّ بالنسبة إلى الواقع والحقيقة.

وهو يَهْدِي السبيل الأقوم الأحقّ بأن يكون هو السبيل لا غيره بالنسبة إلى الكلمة التشريعيّة.

(١) ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾:

قول حقٌّ مطابق للواقع تماماً.

(٢) ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾:

قول حقٌّ مطابق للواقع من الناحية المادّية الواقعيّة، وهو قول يهدي السبيل الأقوم من الناحية التشريعية التي قد تعتمد على أقوال الناس والتزاماتهم، كالنُّذور، وعقود الزواج، وكلمة الطلاق، وسائر عقود التمليك والتوكيل وغير ذلك.

لكن السبيل الأحكم والأقوم في كلمة الظهار أن لا تكون محرّمة للزوجات اللائي أباحهنّ الله لأزواجهنّ، فمن قال هذه الكلمة عوقب بالكفّارة، حتّى لا يقولها مرّةً أخرى.

(٣) ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾:

قول حقٌّ مطابقٌ للواقع تماماً من الناحية المادية الواقعية. وهو قول يهدي السبيل الأقوم والأحكم من الناحية التشريعيّة.

فالسبيل الأقوم يقضي بأن لا يؤسِّس عَقْدُ التبنّي حقوقاً وأحكاماً تشريعية، هي في الأصل للأبناء من النسب.

إذاً فعَقْدُ التَّبنّي امرٌ لغْوٌ لا أثر له في الإسلام.

* * *

ثمّ بيَّن الله عز وجلّ الحكمة منْ إلغاء عادة التَّبنّي الجاهليّة وأحكامها، في حكم الإسلام، وبيَّن المنهجَ الأقْوَمَ في معاملة من نُريدُ أنْ نَعْطِفَ عليه بـالتَّبنِّي، وبيَّن أحكامَ الْخطأ والْعَمْدِ في قضيَّةِ الانتماء النَّسبِيّ، فقال عز وجلّ:

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ

﴿ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾.

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾:

أي: انْسُبوا الأبناء إلى آبائهم الّذِينَ خرجوا من أصلابهم، بحسب ما يظهر لكُمْ في الدلائل الإنسانية، ولا تنسُبُوهُمْ إلى غير آبائهم بالادّعاء والتبنّي.

﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾:

أي: نسبةُ الأبناء إلى آبائهم النَّسَبِيِّينَ أعدلُ عند الله من نسبتهم إلى من يعطف عليهم فَيَتَبَنَّاهُمْ.

وقال تعالى: ﴿أقْسَط﴾: أي: أكثر قِسْطاً، وإشعاراً بأنّ دافع التبنّي في الأصل قد يكون دافعاً إنسانيّاً نبيلاً، فقد يكونُ رحْمةً بالمتبنَّى، أو تشريفاً له وتكريماً، وقد يكون ستراً لحاله إذا كان مجهول النَّسب كاللُّقطاء، وكالصِّغار الذين يُسْرَقُون من أهليهم، أو يؤسرون ويُسْتَرَقُّون ظلماً وعدواناً.

فالدافع له قد يكون الرغبة بتحقيق عدالة اجتماعيَّة تُعوِّض الْمُتَبَنَّى عمّا فقده.

لكنَّ التّبنّي قد يتولّد عنه مشكلاتٌ اجتماعيّة، ومنافاة لقواعد الحقّ والعدل، أكثر من العدالة الاجتماعيّة التي قد تتحقّق به.

فالتبنّي يجعل المتبنَّى وارثاً موروثاً كالابن، وهنا يأتي الوارثون من النسب فتثور في نفوسهم اعتراضاتٌ وأحقاد، ويحاولون بكل الوسائل إلغاء عقد التبنّي، لئلاّ يشاركهم في حقوقهم غريبٌ عن أسرتهم.

والتبنّي يجعل قسماً من النساء اللائي يجوز الزواج منهنّ محرّماتٍ لمجرّد كلمة التبنّي، فتصير الغريبات بعقد التبنّي بنات وأخوات وعمّات وخالات ونحو ذلك، وهنَّ لَسْنَ كذلك.

إلى غير ذلك من مشكلات.

ولدى الموازنة بين رغبات العدالة الاجتماعية التي قد يحقّقها التبنّي، والحقوق التي يهضمها التّبنّي، وأنواع الظلم التي قد يَجْلُبها، والأحكام المنافية للحكمة التي

يستلزمها من تحليل وتحريم، نلاحظ أنّ نسبة الأبناء إلى آبائهم النسبيّين أقسط وأكثر عدلاً، وأعظم حكمة، وهو ما بيّنه الله عزّ وجلّ بقوله:

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ... ۝٥ ﴾.

أمّا مشكلة مجهولي النّسب الذين لا يُعلم أباؤهم من المسلمين، وهم في المجتمع الإسلامي قليلون نادرون، فالعطف عليهم يكون بإعلان أخوّتهم الإسلامية، فإذا نُسِبَ أو انْتَسَبَ سواءٌ أكان حُرّاً أو عبْداً، فهو أخو بني فلان الذين جعلوه أخاهم في الدّين، من ذوي الأنْساب الظاهرة المعروفة، وهذه الأخوّة تدخُلُ ضمنَ الأخوة الإيمانيّة، ولا تستلزم أحكاماً خاصّةً ماليّةً ولا غيرها، لأنها أُخوّةٌ في الدين فقط لا أُخُوّةٌ في النّسب.

وإذا كان رقيقاً وأعتق فهو مولى من أعتقه.

وبياناً لذلك قال الله عزّ وجلّ:

﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ... ۝٥ ﴾.

لكنَّ الذين نَنْسُبُهُم إلى آبائهم بحسب ما يظهر لنا من الأدلة والأمارات وانتماءات الناس، قد لا يكونون كذلك في واقع الأمر، فهل نحن مكلّفون أن لا نَنْسُبَ الناس إلى آبائهم إلاّ إذا كنّا على يقين من ذلك؟

وجاء الجواب القرآني على هذا التساؤل بقول الله تعالى:

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ... ۝٥ ﴾:

أي: في نسبة الأبناء إلى آبائهم بحسب ما ظهر لكم من الأدلة والأمارات وانتماءات الناس، فلستم مكلّفين أن تتبّعوا اليقين العلميّ في هذا الأمْر، والخطأ في هذا لا جُناح فيه.

أمّا التعمُّد الإرادي في نسبة الإنسان إلى غير أبيه فهو محل المسؤولية الدينيّة، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ... ۝٥ ﴾:

أي: ما تعمّدت قلوبُكُمْ تعمُّداً إرادياً من نسبة إنسان إلى غير أبيه، وأنتم تعلمون أنّه ليس أباه، ففي هذه الحالة يكون عليكم جُناحٌ في هذه النسبة، وأنتم بها آثمون تشهدون شهادة زور، وأنتم عالمون بأنّها كذب وزور.

ومن رحمة الله وفضله أنّه يفتح لعباده باب غفرانه ورحمته، ليستغفروه ممّا ارتكبُوه من آثام بَعْدَ بيانِ أحكام شريعته لهم، أمّا مواقع الإثم فهي الّتي من سقط فيها عصَىٰ واستحقَّ المؤاخذة والعقاب، فقال الله عزّ وجلّ في ختام الآية مبيّناً لهم أنّه غفور رحيم بعباده دواماً:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾.

* * *

وإذْ قد تضمّنتِ الآيات السابقات من السورة إلغاء التبنّي وأحكامه الجاهلية، ومنها التوارث على أساسه، تمهيداً لتكليف الرسول ﷺ أن يُطَبِّق إلغاءه عمليّاً بنفسه، في أن يتزوّج «زينب بنت جحش» ابنة عمته، وهي مطلّقة «زيد بن حارثة» الذي كان يقال له بمقتضى تَبَنِّيه له: «زيد بن محمد».

ولمّا كان في أصل قصّة تزويج الرسول زينب من زيْد بن حارثة نوعٌ من الولاية الإلزاميّة بأن يتزوّجا، فقد جاءت الآية السادسة من السورة تعالج الإجابة على تساؤلات تدور حول ولاية الرسول ﷺ، وحول حقّ التوارث، والمخرج لمن أراد أن يُحْسِنَ لوليّه من غير أولي الأرحام، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ... ۝٦﴾:

أي: فإذا تولّىٰ لهم أمراً، أو عقد لهم عَقْداً، أو كلّفَهُمْ عملاً، فهو نافذٌ عليهم بحكم ولايته الإلزامية، ومن ذلك تزويجه «زينب بنت جحش» من «زيد بن حارثة» وهي لهذا الزواج كارهة.

ولمّا كان الرسول أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، فهو بمثابة الأب المجبر، وعليه فأزواجه بمثابة الأمهات لهم، فلا يجوز لأحد أن يتزوّج بإحداهنّ من بَعْدِه، مع كَوْنهنّ مأموراتٍ بالتَّسَتُّرِ منهم، فقال اللّٰهُ عزّ وجلّ:

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ... ۝٦﴾.

هذه قضيّة جرّتها المناسبة وهي ليست من أصل الموضوع، وتعتبر أمثال هذه الإضافة من الطرائف الفكريّة في البيان، ومن روائع الأدب.

وإذْ قد تمَّ إلغاء التبنّي وَمَا يستتبعُ من أحكام، ومنها التوارث، فلا بُدَّ من التنبيه على من هو أحقُّ بالتوارث، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ... ﴿٦﴾﴾.

فكان في هذا بيانٌ لإلْغاء التوارث على أساس التبنّي الذي جاء في السباق، وإشعاراً بإلغاء التوارث على أساس الهجرة والمؤاخاة الذي كان بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة حتّى نزلت آيةُ المواريث.

ولَكنْ ما المخرجُ لمن أراد أن يصنع لِوَلِيِّه أو صديقه أو أخٍ في الإسلام معروفاً؟

وجواباً على ذلك قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

أي: إنّ باستطاعتكم أنْ تَفْعَلُوا إلى أوليائِكُمْ معروفاً بالوصية، أو بالعطاء وأنتم أحياء، فهو المخرج، ولا داعي لجعل ذلك ضمن حقوق التوارث.

* * *

وبعد ذلك ذكَر الله عزّ وجلّ رسوله محمّداً ﷺ بأنّ التّبليغ، واتّباع ما يُوحى إليه من ربّه، والتزام كمال التقوى، وعدمَ طاعَةِ الكافرين والمنافقين، القضايا التي بدأت بها السورة، هي ممّا أخذ اللهُ عليه ميثاقَ النّبيّين، وجعَلَهُ ميثاقاً غليظاً على أُولي العزم من الرُّسُل، محمّد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾.

وظاهر أنّ ميثاق التبليغ بصدقٍ يستلزم تقديم شهاداتهم يوم الدّين بأنّهم قد بلّغوا الأمانة وأدّوا الرّسالة.

إنّهم لا شكّ صادقون، وهم سيُسألون يوم الدين عمّا بلّغوه لأقوامهم، وهو ما أمرهم الله بتبليغه بصدقٍ وأمانة، فَيُقدّمُون شهاداتهم، وبياناً لذلك قال الله عزّ وجلّ:

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ... ⁽٨⁾﴾.

فوصفهم بكونهم صادقين، ووصف ما بلّغوه بأنّه صِدْق، فالسؤال للشهادة، التي هي من حجج الإدانة للذين تبلّغوا ولم يستجيبوا.

وبعد هذه الشهادة، ومحاسبة أهل الكفر على رفضهم بلاغات رسُل ربّهم، يصدُر الحكم على الذين كفروا بأنّهم أصحاب النار هم فيها يعذَّبون عذاباً أليماً، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ⁽٨⁾﴾.

فاكتفى بذكر الإعداد عن ذكر تنفيذ الجزاء، كما اكتفى بالسؤال عن ذكر المحاسبة لأن الأشياء تدلُّ باللزوم الذهني على المقترنات بها، ولواحقها في سلسلة الموضوع.

* * *

وقضَتْ حكمةُ الله عزّ وجلّ مع إنزال التشريع بإبطال عادة التبَنّي الجاهلية، وإلغاء الأحكام المترتّبة عليه، كالميراث، وتحريم الزواج من مطلّقةِ المتبنّىٰ، أن يقضي بتزويج «زينبَ بنت جحش» من «زيد بن حارثة» الذي كان عبْداً للرّسول ثُمّ أعتقه وتبنّاه، ليُشعِر بإلغاء الفوارق الطبقية في مفهومات الإسلام، فهذا الرسول يزوّج ابنة عمته لمولاه وهي قرشية عريقة، وقضىٰ الله أنْ لا يَتِمّ وِفاقٌ بينهما حتىٰ طلّقها زيد، وأعلَمَ اللّهُ رسوله بأنها ستكون إحدى زوجاته، وتهيُّبَ الرَّسُول ﷺ من مواجهة الناس بحدَثٍ يُبَاشِره بنفسه، مُخالفٍ لأعراف القوم في الجاهلية وصَدْرِ الإسلام، ومستنكرٍ عند العرب بحسب تقاليدهم، ومن شأنه أنْ يُثِيرَ مَقالاتِ سُوءٍ تَمسُّ نزاهته، من جهة الكافرين والمنافقين، فحاول الرسول ﷺ تَهْدِئَة نفس «زيد بن حارثة» تُجاهَ تَعالِي زينب عليه، حين شَكىٰ تصرُّفاتها نَحْوه، وقال له: أمْسِكْ عليك زوجك، مع علمه بأنّ قضاء الله نافذٌ لا محالة.

لكنَّ الخلاف اشتدَّ بين زيد وزينب حتّى طلّقها، عندئذ أمر الله رسوله بأن يتزوّج زينب، فأطاع لأمر الله عزّ وجلّ.

ولمّا تمّ الأمرُ أخذ المنافقون يقولون: إنّ مُحمَّداً يُحرِّم نِكاحَ نساء الأولاد، وقد تزوّج امرأة ابنه زيد.

قال ابن الأثير: «وتكلَّمَ المنافقون في ذلك، وقالوا: إنَّ محمّداً يُحَرِّم نكاح نِسَاءِ الأولاد، وقد تزوّج امرأةَ ابنه زيد، لأنّه كان يقال له: زَيْدُ بنُ محمد»[1].

وإذْ قد رُويَ أنَّ المنافقين وجَّهُوا هذا الانتقاد للرسول ﷺ، فمِنَ المرَجّحِ أنْ يكونَ الكافرون الصرحاء قد ردَّدُوا مثل هذه المقالة، وقد يدُلُّ عليه قولُ الله عزّ وجلّ له في صدر السورة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾:

وقول الله عزّ وجَلَّ له بعد عرض البيانات المتعلّقة بزواجه من زينب بنت جَحْش في السورة نفسها أيضاً:

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٤٨﴾.

فأضاف في التوجيه الثاني إرشادَهُ بأن يدعَ أذاهم، أي: بأن يتركه ويُهمِلَهُ، ولا يَشْغَل نفسَه بردِّه وبالانتصار لكرامته، فمن شأن هذا التَّرْكِ والإهمال للأذى أن تنطفىء ناره، أو يذوب جليده وينساح في الأرض.

وصاحب الأذى يجد نفسه قميئاً أمام من سدَّد له سهام أقواله وتشنيعاته.

● ● ●

(١) انظر أسد الغابة، ج/٧ ص ١٢٦.

النصّ الثالث عشر

من سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) رابع سورة مدنية
الآيـات مـن (٣٦ ـ ٤٠) والآية (٤٨)
حـول موقف المنافقين من زواج الرسـول مطـلقة
«زيد بن حارثة» الذي كان قد أعتقه وتبنّاه

* قال الله عزّ وجل فيها:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

* * *

* وقال الله عزّ وجل فيها:

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

* * *

مَا فِي النّصّ مِن القراءات المتواترات (من الفرش)

* قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف وهشام: [أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ] بياء التذكير.

* وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ] بتاء التأنيث.

وهما وجهان نحويّان في استعمالات العرب لأن لفظ [الْخِيَرَة] مجازيّ التأنيث.

* * *

(١)
المعنى العام للنص

ذكر الله عزّ وجلّ في هذا النّصّ لقطات من قصّة تزويج «زينبَ بنت جحش» من «زيد بن حارثة» أوّلاً، ثم تطليق زيدٍ لها، وتكليف الله رسولَه بأن يتزوّجها، بُغْيَةَ إلغاء عرف التبنّي الذي كان عند أهل الجاهلية، وبقي في صدر الإسلام حتى نزل إلغاؤه نصّاً، وبصورة عمليّة ينفّذُها الرسول بنفسه. وذكر فيه أيضاً بيانات تتعلّق بهذا الموضوع.

(١) **فجاء في اللّقطة الأولى**: الإشارة إلى أن تزويج الرسول ﷺ «زينب» من «زيد» قد كان بتوجيه من ربّه. وجاءت فيها الإشارة الضمنيّة إلى أنّه حصل تَمنُّعٌ أوّل الأمر (أي: من زينب، لتعاليها بطبقتها الاجتماعية) حتّىٰ علمتْ أنّه أمْرٌ واجبُ الطاعة، فأطاعت وهي كارهة، لأنه ليس لمؤمن ولا مؤمنة خيارٌ في أمرهم ولو كان من خصوصياتهم الشخصية، إذا قضىٰ الله ورسولُه فيه أمراً.

(٢) **وجاء في اللّقطة الثانية**: بيانٌ عمّا كان من الرسول محمّد ﷺ حين شَكَا «زيد بن حارثة» للرسول عدم صبره على تَرَفُّعِ زينب عليه، وأنه يريد طلاقها، فقال له الرسول: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتّقِ الله» مع أنّ الله عزّ وجلّ كان قد أعلمه بأنّها ستكونُ إحدى زوجاته، إلاّ أنّه خَشِيَ من قَالَةِ السوء أن تُوجّهَ له من أجل أنّه إذا تزوّجها بعد طلاق زَيْدٍ لها قال الناس: تزوج محمّد زوجة ابنه (أي: من كان قد تبنّاه) لأنّهم كانُوا في الجاهلية يرون أنّ المتبنّىٰ بمثابة الابن تماماً.

فوجّه الله لرسوله عبارات التشجيع على تجاوز خشية الناس، وعدم الاكتراث لها، لدى تنفيذه حكماً دينيّاً من أحكام الله عزّ وجلّ، وإن كان يتعلّقُ بِمَا قَدْ يُقالُ فيه: إنّ له فيه هوى نفسيّاً.

(٣) وجاء في اللّقطة الثالثة: بيانُ طلاق «زيد» لـ «زينب» وتزويج الله رسوله منها، ليكون أوّل مُنَفِّذٍ بنفسه لإلغاء عرف التَّبَنّي وأحكامه وما يستتبعه، ويكون بذلك قُدْوَةً للمؤمنين، فلا يَجِدُ بعد ذلك أحدٌ منهم حرجاً في أن يتزوّجَ مَنْ كانت زوجَةَ مُتَبَنَّاهُ على عرف أهل الجاهلية.

(٤) وأبان الله عزّ وجلّ للمؤمنين وللناس أجمعين: أنّ النبيّ بشرٌ من البشر في أحكام الدين حلاله وحرامه، وهو فيها كسائر الناس، فما أباحه الله للجميع ولم يحرّمه عليه بالخصوص، فلا حرج عليه فيه.

وأبان أنّ النبيّ محمّداً ﷺ في هذا شأنُه كشأن سائر النبيين من قبله:

* فهم يشاركون الناس في فِطَرِهم، وفي تناول المباحات التي أباحها الله من أكل وشرب وزواج وسائر لذات الحياة.

* وهم جميعاً يُبَلِّغُونَ رِسالات الله، فما أمرهم الله بقوله قالوه، ومَا أمرهم بفعله فعلوه، ليكونوا أسوةً لمن بعدهم من المؤمنين، فَدَلّ بهذا على أنّ فعلَ الرسول تبليغٌ عمليٌّ لرسالة الله.

* وهم جميعاً يخشون الله في تبليغ رسالاته، ولا يخشَوْنَ أحداً غيره ويتوكّلون عليه، مكتفين بأنّه حسيب، أي: كافٍ لمن توكّل عليه، ومحاسبٌ لمن يتعرّضُ لهم بالأذى، أي: ومجازٍ، فالحساب يستتبع الجزاء.

(٥) وأبانَ الله للناس: أنّ مقولة التبنّي أو عَقْد التَّبَنّي لا يُؤثر في تغيير الحقيقة شيئاً، فزيد هو ابنُ حارثَة، وليس ابْنَ مُحَمّد كما تُطلقون استناداً إلى تبنّيه له فيما سبق، لقد تمّ إلغاء عرف التبني.

ومحمّد لم يُبْقِ الله له ولداً ذكراً يَبْلُغُ مبلَغَ الرّجال، فَما كان مُحمّدٌ أبَا أَحَدٍ مِن رِجالِكُم.

وأشار الله عزّ وجلّ إلى الحكمة من ذلكَ ضمناً، فقال تَعالى:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾:

أي: إنّ الله عزّ وجلّ لمّا شاء أن يختم النُّبُوّاتِ التي جعلها في سلالة إبراهيم عليه السلام من بعده، أوقف الذريّات الذكور عند محمّد بن عبد الله في عرق النبوّة الموصول بشطر سلالة إسماعيل بن إبراهيم، كما أوقفها في عرق النبوة الموصول بشطر سلالة إسحٰق بن إبراهيم، عند يَحْيىٰ وعيسىٰ عليهم السلام.

نُدرِكُ هٰذا من قوله تعالى: ﴿وكانَ الله بكلّ شيءٍ عليماً﴾ بعد قوله: ﴿وخاتَمَ النبيّين﴾ مع قوله تعالى بشأن إبراهيم عليه السلام في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ . . . ﴿٢٧﴾﴾.

(٦) وتعرَّضَ الرَّسُولُ ﷺ للأذىٰ من قِبَلِ الْكَافرينَ والْمُنافقين من أجْلِ تنفيذِهِ عَمَلِيّاً إلغاء حُكم التَّبنّي، فَثَبَّتَه اللَّهُ، فأكّد له أن لا يطيع الكافرين والمنافقين، ونَصَحَهُ بأن يَدَعَ أذاهم، فيُعْرِضَ عنه ولا يُقابله بشيء، وأن يتوكّل على الله.

* فعدمُ مقابلة الأذىٰ بمثله من شأنه نسيانُ أصل الموضوع في المجتمع البشري.

* ومن توكّل على الله كفاه الله، فصرف عنه كلَّ همٍّ وغمٍّ وأذىٰ، وردّ عنه كيد أعدائه وخصومه.

* * *

(٢)
المفردات اللّغويّة للنّص

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾:

هذا الاستعمال ونظراؤه في القرآن، مما سُلّط فيه النفيُ على جملة مصدّرة بفعل

الكون يدلّ على نفي اجتماع خبر كان واسمها دواماً، نظراً إلى أنهما متنافيان، والمتنافيان لا يجتمعان.

فمعنى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

لا يجتمع بصورة دائمة موتُ نَفْسٍ ما وإِذْنُ اللهِ بموتها غير موجود، فموتُ أيّة نفس مع عدم إذن الله به، أمران متنافيان لا يجتمعان.

ومعنى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

لا يجتمع بصورة دائمة اصطفاء اللهِ لبشرٍ بالكتاب والحكم والنُّبوّة، وأمرُه للنّاس بأن يعبدوه من دون الله، إذْ هُمَا أمران مُتَنافِيان لا يجتمعان.

وحين يأتي في الكلام اسمُ كانَ أو خبرها وَصْفاً مشتقاً أو بمعناه، ورأينا أنّ الاجتماع المنفيّ غيْرُ متحقّقٍ دواماً في الأفراد، فالمرادُ من الوصف المشتقّ كمالُه، أو كمال مرتبة من مراتبه، أو أنّ هذا الوصف المشتقّ غير موجودٍ في الحقيقة.

فمعنى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾.

لا يجتمع بصورة دائمة كمال الإيمان وقَتْلُ إنسانٍ مُؤْمِنٍ عَمْداً.

ومعنى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾.

لا تَجْتَمِعُ النُّبُوَّةُ والْغُلُول بحال من الأحوال، فإنْ وُجِدَتِ النُّبُـوّةُ فلا غُلول، وإنْ وُجِدَ الْغُلُولُ فلَا نُبُوّة.

وبناءً على هذا البيان التحليليّ أقول في قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

المعنى: لا يجتمع بصُورَةٍ دائِمَةٍ كمالُ مرتَبَةِ التَّقوى، واختيارُ غيْرِ ما قضاه الله ورَسُولُه من أمرٍ تكليفيّ. دلّ على أن المراد كمالُ مرتبة التقوى من مراتب الإيمانِ التّنبيهُ في الآية على أن المخالف عاص.

أمّا ما قضاه الله بأمْرٍ تكوينيّ فهو نافذٌ حتماً، ولا خِيرَةَ فيه لأحَدٍ أصلاً، مُؤْمِنٍ أو كافِرٍ.

﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾:

أي: إذا أمضى الله ورسوله أمراً تكليفيّاً، وتمّ إبلاغُهُ لِلْمُكلَّف.

أصل الإمضاءِ الْبَتُّ والإنهاء، ويكونُ بالنسبة إلى الإرادة التكليفيّة، بِبَتِّ التكليفِ وإنهائِهِ وإعلامِهِ للمكلّف.

الْخِيَرَة: اسمٌ بمعنَى الاختيار والتَّخيُّر، تقول لُغةً: اخْتَارَ الشيءَ وتَخيَّرَهُ إذا انتقاهُ وفضَّله على غيره. وتُطْلَقُ «الْخِيَرَةُ» على ما يُخْتَارُ.

فالمؤمنُ المتَّقِي لله لا يَختارُ لِنَفْسِهِ غَيْرَ ما قضاهُ الله ورسولُهُ من تكليف.

﴿ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾:

أي: فقد خَرَجَ عن صراط الاستقامة على طاعة اللّهِ، ودَخلَ في مَتاهَاتِ الضلالِ المبينِ الواضح الذي لا شُبْهَةَ فيه، وقَذَف بنفسه إلى المعصية واستحقاقِ العقاب والمؤاخذة.

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾:

الْحَرَجُ: الضِيقُ والشِدّة، والْمَضايقُ الّتي لا يَسْتَطيعُ السالِكُ النفوذَ مِنْها، والْحَرَجُ: غَيْضَةُ الشَّجَرِ الملتفّة التي لا يستطيع الداخل إليها أن ينفُذ فيها، وضِدُّ الحرَجِ في المعنويات الأعمال والتكاليف التي فيها يُسْرٌ وسُهُولَة، وكذلك الْيُسْرُ والسُّهُولة.

ونفي الحرج في الشرعيات يدلُّ على الإباحة، أو رفعِ التحريم والحظر.

﴿أَدْعِيَآئِهِمْ﴾:

أدعياء: جَمْعُ «دَعِيّ» وهو هنا الْمُتَبَنَّى، ويأتي بمعنَى المتَّهَمِ في نَسَبِه، وبمعنى المنسوبِ إلى غير أبيه.

﴿وَطَرًا﴾:

الْوَطَرُ: الحاجة التي فيها مأربٌ وَهِمَّةٌ، وجمعه «أوطار» ويُقَالُ: قَضَىٰ مِنْهُ وطَرَه، أي: نال منه بُغْيَتَه. وجاء التعبير بقضاء الوطر في هذا النّصّ كنايةً عن إنهاء الحاجة لمعاشرة الزوجة بطلاقها، فالطلاقُ عن عزمٍ إراديّ تعبيرٌ عن إنهاء رغبةِ الزوج بزوجته، وأنّه لم يَبْقَ لَهُ وطرٌ لديها.

مُبِيناً: اسم فاعل من: «أَبَانَ» الشيْءُ إذا ظهر واتّضحَ من اللازم، ويُستعْمَل الفعل متعدّياً، فتقول: أَبَانَ فلانٌ الشيءَ إذا أوضحه وأظهره، كما يستعملُ «بَانَ» لازماً ومتعدّياً أيضاً مثل «أبان».

* * *

(٣)

ما رُوي في سبب النزول

معظم الروايات تدلُّ على أنّ النّصّ نزل بشأن تزويج الرسول «زينب بنت جحش» ابنة عَمَّتِهِ، لمولاه «زيد بن حارثة» ثمّ طلاق «زيد» لها وزواج الرسول منها بأمر الله، كما سبق بيانه.

* * *

(٤)

مع النّصّ في التحليل والتدبّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ... ﴿٣٦﴾﴾.

هذه الجملةُ مَبْدُوءَةٌ بحرف العطف، وقد لا يظْهَرُ في السوابق القريبة ما يُلائم أنْ تكونَ معطوفةً عليه، لَكِنْ إذا رَجعنا إلى صدر السورة وتركْنَا ما عرضته من أحداث رُوعِيَ في ترتيب ذكرها حِكَمٌ بيانيّة تستدعي تدبُّراً عميقاً، رأينا أنّها معطوفةٌ على ما جاء في الآية السادسة من السورة، وهي:

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ... (٦) ﴾.

إذا تدبَّرْنا هذه الآية وما جاء فيها، وجدنا من المناسب جداً أن يُعطف عليه:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ ... إلى آخر الآية.

ولا يضرّ كونُ الفاصل طويلاً، لأنّ السورة القرآنية هي بمثابة شجرة متشابكة الأغصان، ولأواخِرِها صِلَةٌ بأوائلها، وبالعناصر الرئيسة لموضوعها.

والمعنى: ليس من وصف المستكملين شروطَ مَرْتبة التقوى من المؤمنين والمؤمنات إذا أمضى الله ورسوله أمراً تكليفيّاً إلزاميّاً بفعلِ شيءٍ أو ترك شيءٍ أن يكون لَهُم اختيار آخر غير ما أمضى الله ورسوله، أو شيءٌ آخر يختارونه غيرُ ما أمضى الله ورسوله من أمر، وإنْ كانُوا مُمَكّنين من ذلك بإرادة الله التكوينيّة، لكن تقواهم تمنعهم.

وجاء ذكر الله مع ذكر الرّسول للإشعار بأنّ ما يَعْزِمُ عليه الرسول من أمرٍ ويقضيه مُلْزِماً به، فهو من أمر الله وقضائه؛ إمّا بتكليف من الله وهو مُبَلِّغ، أو بإذْنٍ من الله وإمضاءٍ لما قضى به الرّسول، فهو أيضاً من قضاء الله وأمْرِه، وحين لا يكون لِلَّه في الأمر قضاء، فإنّه يُوقف رسوله عن إمضائه ولا يأذَنُ لَهُ به.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا (٣٦) ﴾.

المعصية: هي مخالفةُ الأمر الإلزامي أو النهي الإلزامي لمستحقّ الطاعة، وبين معصية الله ورسوله تلازم، فمن عصى الله فقد عصى رسوله، ومن عصى الرسول فقد عصى الله، وكذلك فمن أطاع الله فقد أطاع رسوله، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله. إذْ كُلُّ مَا يأمُرُ به اللّهُ يأمر به الرسول، وكلّ ما ينهىٰ عنه الله ينهى عنه الرّسول، وكلُّ مَا يأمُرُ به الرسولُ من أمور الدين يأمُرُ به الله، وكلُّ مَا ينْهىٰ عنه الرسول من أمور الدين ينهىٰ عنه الله.

ولمّا كانت معصيةُ اللّهِ ورسوله تُخرِجُ العاصي عن صراط الله المستقيم، الذي

يُوصِلُ من الْتزَمه إلى النجاة من عذاب الله، والظفر بثوابه، ولمّا كان الخروج عنه يوقع الخارج في استحقاق عذاب الله، والحرمان من ثوابه، على مِقْدارِ نسبَةِ خروجه، فلا بُدَّ أن يكون العاصي لله ورسوله قد ضلَّ بعصيانه فابْتَعد عن صراطِ النجاة والظُّفر بالثواب، وضلالُه هذا ظاهر واضح جليٌّ لدَىٰ كلِّ مؤمنٍ صحيح الإيمان.

وهو أيضاً مُبِينٌ كاشفٌ لِمَا في نفسه من نقص في الإيمان، أو حبٌّ للعاجلة وإيثارٍ لها، أو ضعفٍ في الإرادة أمام مطالب الأهواء والشهوات.

والضلال: هو الضياع، والابتعادُ عن طريق الهدى.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

زيدُ بنُ حارثة هو الذي أَنْعَمَ الله عليه عن طريق الاسترقاق حتّى صار لخديجه، فمحمّدٍ ﷺ، ثم أَنْعَم عليه بالإيمان والإسلام فكان من طليعة الصف الأوّل، ثم صار أحد كبار أصحاب الرسول ﷺ. وأَنْعَمَ الرسولُ عليه بالعِتْق، وبالتبنّي قبل إلغائه، فبتزويجه من «أمّ أيْمَن» مولاته، فبتزويجه من «زينب بنت جحش» وهي ابنةُ عمتِه «أميمةَ بنتِ عبد المطلب» فبإعلانِ أنّه حِبُّ رَسُولِ الله بعد إلغاء التبنّي، إلى غير ذلك من إنْعامات جاءت بعد ذلك، وبين ذَلك.

لمّا جاء زيد يشكو لرسول الله تَعاليَ «زينب» بأسرتها وحسبها ونسبها عليه، ورغبته في طلاقها، وكان قد أُعْلِمَ بأنها ستكونُ إحدىٰ زوجاته بحكم من الله لِتَثْبِيت حُكمِ الله بإلغاءِ التبنّي وكُلِّ توابعه، قال الرسول له:

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

ويبدو أنّ زيداً كرَّر شكواه، وكرَّر الرَّسُولُ مقالته هذه له، لذلك ذكَّرَهُ الله بما كان يقول لزيد عند متكرّرات شكواه، فاستعمل الفعل المضارع الذي يدلّ على تكرير الْحَدَث.

أي: واذكُرْ إذْ كُنتَ تَقُولُ هذا القول، وكان الرسول ﷺ في كُلِّ مَرَّةٍ يُخْفِي في نفسه ما الله مُبْديه.

ولو أنَّ الحادثة جَرَتْ مرةً واحدةً لكان البيانُ المطابق يقتضي أن يجيء كما يلي: وإذْ قُلْتَ... وأَخْفَيْتَ.

إذْ: ظرف زمان لما مضى، متعلّقٌ هنا بفعلٍ محذوف تقديره: اذْكُرْ.

ومقالة الرسول لزيدٍ في المرّات اشتملت على إرشادين بنصيحتين:

(١) أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ.

(٢) واتَّقِ الله.

* أمّا قوله له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾:

فنلمحُ فيه نَصِيحتَيْنِ:

الأولى: أنْ لاَ يُطلِّقها.

الثانية: أنْ يتحمَّل تعاليها عليه.

فالأولَى نأخذُهَا من «أَمْسِك» أي: لا تُطَلِّق، والثانية نأخُذُها مِن «عَلَيْكَ» وذلك لأنّ الأصل في الزوجات أنْ يَكُنَّ تَحْتَ أزواجهنّ، لاَ فوقهم، لكنّ «زينب» لمّا كانت متعاليةً مُتَرفِّعةً، غير واضِعَةٍ نفسها موضع التَّحْتِيَّة، نصَحَهُ الرّسول بأن يَصْبِرَ على تعاليها ويتحمَّلها، وإنْ كان مثلُ هذا يشُقُّ على الرّجال، لكِنَّ من فَعَلَهُ من أجل حُسْن المعاشرة الذي أمر الله به كان مأجوراً.

ولا ننسَى أنّ «زينَب» تزوّجته طاعةً للهِ ورسُوله وهي كارِهة.

* وأمّا قولُهُ له: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾:

أي: واتّقِ الله بحسن معاشرتها بالمعروف، ولا تَظْلِمْها من أجل نَفْسِها المتعالية الكارهة لهذا الزواج، والراضِيَة به امتثالاً.

ومع تذكير الله رسولَهُ بهذه الحادثة ذكّره أيضاً بأنّه كان يخفي مع مرّات الشكوى في نفسه أمراً، فقال له: ﴿وتخفي في نفسك ما اللّهُ مُبْديه﴾.

أي: لكنّ هذا الأمر الذي تخفيه في نفسك أمْرُ اللّهُ مُبْدِيه (أي: مظهره وكاشفه) الآن، دَلَّ عليه قولُ الله عزّ وجلّ في الآية نفسها.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾.

أي: تُخْفِي علمكَ بأنّها ستكونُ زَوْجةً لكَ بأمْرِ الله، وأنَّ زيداً سيُطلّقُها لا مَحالة.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

وتقول مع ذلك لزيد: أمْسِكْ عليك زَوْجكَ واتّقِ الله.

وأبان الله لرسوله دافِعَهُ لمقالة النّصح وإخفاء ما أخفاه في نفسه فقال له:

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾:

أي: توالت عليك في مرّات الشكوى خشيةُ مقالة الناس فيك: إنَّ محمّداً ينهى المؤمنين عن الزواج ممّن كُنَّ زَوْجَاتِ أبنائهم، وهو الآن يتزوّج مُطَلَّقَةَ ابْنِه بالتبنّي، فتقول لزيد: «أمسك عليك زوجَكَ واتّقِ الله» ولا تقولُ له طلّقها، أو افعلْ ما يناسبك، فإن لله قضاءً بأن تكونَ زوجةً لِي، لكيلا يكون على المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أدعيائهم، تَخْشَىٰ مقالةَ الناس، واللّهُ أحَقُّ أن تخشاه فتسرعَ إلَىٰ تنفيذ أمْرِ الله بجُرْأةٍ وصراحَةٍ، دون اكتراث لما يَعِيب عليك الناس، ما دُمتَ مطيعاً لربّك تسعَىٰ في مرضاته.

بعد ذلك أدْمَجَ اللّهُ إبداء ما كان يخفيه الرسولُ ضِمْن حكاية طلاق «زيد» لـ «زينب» وتزويج الله زينب رَسُولَ الله، فقال تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾.

جاء التعبير بعبارة «قضَىٰ زيدٌ مِنْهَا وَطَراً» عن طلاقه لها، لأنّ المطلّقَ عن عزمٍ وتصميم لا عن انفعال طارىء لا يُطلّق إلاّ إذا انقطعت علائق وَطَرِ نفسه بمطلّقته، والوطَرُ كما عرفنا: حاجةُ النَّفس المتعلّقةُ بما تحتاجُ له.

فدلّ هذا التعبير بإبداعه على عدّة قضايا:

الأولى: طلاقُ زيدٍ لزينب.

الثانية: أنّه كان طلاقاً عن إرادة جازمة منه ورغبة ذاتيّة فيه.

الثالثة: أنّ وطَرَهُ النفسيّ الذي كان متعلقاً بها قد انتهى فعلاً، فلم تَعُدْ بالنسبة إليه زوجةَ شهوة ولا مصلحة.

الرابعة: أنّه لم يطلّقها إيثاراً للرسول على نفسه، ولا لأنّه شعر برغبة الرّسول فيها.

وفي هذا دفعٌ لكلّ الأوهام التي يمكن أن تَرِدَ حول هذا الموضوع، والأكاذيب الّتي يختلقُها الوضّاعون.

وقد افترى الوضّاعون قديماً مفتريات على الرسول لم تصحّ سنداً، وتمسّك بها أعداء الإسلام بعد ذلك من مبشرين ومستشرقين، وأضافوا إليها أوهاماً ممّا يَعْرِفُون من سُلُوك عظمائهم ومقدّسيهم، وغلا بعض علمائنا السابقين في نَقْل كلّ ما يقع لهم من روايات فنقلوا السقيم مع السليم، وربما نقلوا الموضوعات، وجعلوها ضمن موسوعاتهم، فاتّخذ منها أعداء الإسلام ذرائع لمحاربة دين الله ورسول الله.

وأبان الله عزَّ وجلّ حكمة تزويجه زينب لرسوله فقال تعالى:

﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾:

أي: قضينا بهذا الزواج وأمرْنا به لكي يكونَ الرَّسُولُ فيما يطبّق من أمر الله قُدْوَةً للمؤمنين، فَلَا يَكُونَ على المؤمنين بعد تطبيق الرسول بنفسه لحكم الله حَرَجٌ وَلا تخوّفٌ من مقالة الناس، في تزوّجهم إذا رغبوا من اللّواتي كُنَّ أزْوَاجَ أدعيائهم الذين كانوا قد تَبَنَّوْهُمْ، وفق العرف القديم عند أهل الجاهلية.

والجمع بين اللام التي للتعليل و«كي» التي هي للتعليل أيضاً يفيد توكيد التعليل بالعلّة المذكورة بعدهما مع بيان أهميتها.

ونلاحظ أنّ الجملة القرآنية التعليليّة هذه مختزلةٌ اختزالاً من كلام يدلُّ على الفهم الذي وضح في الشرح. وأقلّ ما يمكن أنْ نبرزه من المطويات للتعبير عن كامل

المعنى بعبارة صريحة واضحة لا محاذيف فيها، أن نقول:

﴿لِكَيْلَا يكون﴾ بَعْدَ زواج النّبي من زينب مطلقةِ زيد الذي كان قد تبنّاه ﴿حَرَجٌ في﴾ أن يتزوجوا من اللّواتي كُنّ مِنْ ﴿أزواج أدْعِيائهم﴾ إذا صِرْن خليّاتٍ من زواج.

بعد ذلك أبان الله عزّ وجلّ أنَّهُ إذا قضىٰ الله أمراً أن يكون ولـو من خلال إرادات الناس، فإنّه لا بُدَّ أنْ يتحقّق ويكونَ أمراً مَفْعُولاً، فقال تعالى:

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۝٣٧﴾.

إنّـه سهل عليـه سبحانـه، فهو يُحـرِّكُ القلوب، فتتّجه لتحقيق أمـر الله، فتتحـرّكُ الإرادات، وتسير الأفعال على وفقها، وتتمُّ النتائج على وفق مراد الله وأمره.

والأمر هنا أمْرٌ تكويني، وليس أمراً تكليفيّاً فيما يظهـر، حتّى يكون قـابلاً للفعـل أو التـرك من الموجّـه لهم التكليف، والمفعولُ هـو المراد بـالأمـر، فـأمْـرُ الله مكـوَّن، والمراد به مفعول وكائن لا محالة.

بعد ذلك وجّه الله الخطابَ للمؤمنين وغيرهم ولا سيما أهلُ الكتاب الـذين يؤمنون برسُلِهم وكُتُبهم، فأبان فيه أنّه لا حرجَ على النّبي المجتَبَـىٰ وهو بشرٌ من البشـر في أن يكـون له زوجـات، وفي أن يستمتع بمـا أباح الله لـه من لذّات، فشـأنُ كلِّ رُسُـلِ الله كذلك، ولا سيما حينما يكون الأمر يتضمَّن تبليغَ رسالات الله عَمَلِيّاً، ليكونـوا بأفعـالهم أسوةً حسنَةً للناس من ورائهم، فجاء في النص:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩﴾.

فيما فَرضَ الله له: أي: فيما أباحَهُ لَـهُ، أو خصَّهُ بـه من أحكامِ إبـاحة. وأصـلُ الْفَرْضِ حزٌّ يُجْعَلُ على عُود، أو خشبةٍ، أو حَجَرٍ، أو نحو ذلك، لبيان المقادير، كالْحَزِّ المتدرّج على المِسْطَرة لبيان مقادير الأطوال، وكـالْفُروضِ التي تُجعـل على الرُّخـامَة لتكون ساعةً شمسيَّةً تبيِّن الوقت مع تحرُّكِ الظلِّ، ونحو ذلك.

وأحكامُ الله حُدُودٌ على مقاديرَ مفروضةٍ، أي: مبيّنة بفواصل.

ـ فما أباحه الله لعباده فقد فرضه لهم: أي حدّده لهم، وأبَانَ فيه الحدود، ومنه ﴿قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم﴾ أي: أباح لكم ذلك.

ـ وما حرّمه أو أوجبه على عباده فقد فرضَه عليهم، أي: حدده لهم وأبان فيه الحدود، ومنه ﴿قَدْ عَلِمْنَا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ في أَزْوَاجِهِمْ﴾.

فالفرقُ بين الفَرضَيْن أنّ فرضَ الإباحة يُعدَّىٰ باللام، وأنّ فرض الإلزام يُعدّى بحرف «على».

والْقَدْرُ المحدّد من الميراث فريضة، وجمعها فرائض، وسميت بذلك لما فيها من تحديدات تُعْرَفُ بها قسمة المواريث، وهي تحديدات مبيَّنةٌ مفصَّلة مفروضة.

واستعملت كلمة «الفريضة» في القرآن بمعنى المهر المحدّد عند عقد النكاح.

والمعنى: ليس على النبيِّ دَواماً وهو بشَرٌ من البشر من أيّ حَرَجٍ يُضَايقُهُ في استمتاعه بما أباح الله له، سواءٌ أكان ذلك مباحاً لسائر المؤمنين أيضاً، أو كان خاصّاً به فقط.

فإذا اتّجهت نَفْسُ النبيّ للاستمتاع بما أباح الله له، فليس عليه أدنَىٰ حرجٍ في أن يستمتع، وليس من الفضيلة أن يُجَاهِدَ نفسه في كفِّها عن المباح الْمُسْتَوِي الطرفين، بل من الخير أن يستمتع، ليستبقيَ طاقات مجاهدته حتى يستخدمَها فيما هو من الفضائل من أفعال يمارسها، أو يكفّ نفسه عنها.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾:

أي: ليس على النبيّ محمّدٍ من حرجٍ قليلٍ ولا كثير فيما أباحَ اللّهُ له، حالة كون رفع هذا الحرج طريقةَ الله في منهاجه للأنبياء الذين خَلَوْا من قبلِ مُحمّد، والّذين جعلهم الله بشراً.

فنصبُ «سُنّةَ الله» فيما أرَىٰ نصبٌ على أنه حال وتقدير الكلام: النبيُّ مرفوعٌ عنه الحرجُ فيما أباح الله له، حالةَ كون رفع الحرج هذا سنّةَ الله في الأنبياء الذين خلوا

من قبل، إذ خلقهم بشراً، وجعل لهم طبائع البشرية، وأباح لهم أشياء من متاع الحياة الدنيا كما أباح لسائر البشر.

السُّنَّةُ: في اللّغة الطريقة، والسِّيرة، والعادة الدائمة.

وسنّة الله: طريقته الدائمة، وسُنَنُه: طرائقه الدائمة في خلقه، أو في أحكامه وشرائعه. وسنّةُ الله في الأنبياء أن يجعلهم عباداً بشراً، وأن يُبيح لهم مباحات تتطلّبها طبيعتهم البشرية.

خَلَوْا: أي: مَضَوْا في الأزمان السابقة، فمعظم الأنبياء كانت لهم زوجات، وبعضهم كداود وسليمان كان له زوجات متعددات بكثرة عدا الجواري اللّواتي يستمتع بهنّ.

والمعنى: ليس محمّدٌ في هذا بِدْعاً في الرُّسُل، بل شأنه كشأنهم، طعاماً، وشراباً، وزواجاً، واستمتاعاً باللّذّاتِ المباحات في الحياة الدنيا، فليس لأحد من الناس أن يعيبه بشيءٍ من ذلك، إنّ النبيّ بشرٌ من البشر، وعبْدٌ من عباد الله، اصطفاه الله لتبليغ رسالته لنظرائه من عباد الله، وليكونَ لهم أسوة حسنة، مبلّغاً دينَ الله بأقواله، وأفعاله، وإقراراته.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾:

أي: وكان أمْرُ الله في التكوين، وأمر الله في التشريع، مسبوقاً دواماً بِقَدَرٍ وموجّهاً بقدر، أي بتَحْدِيدٍ دقيق لمقادير كُلِّ شيء: فأمْرُ التكوين يَتمُّ على وفق المقادير التي حدّدها الله بإرادته الحكيمة، ومن ذلك أن يجعل للبشر طبائعهم الجسديّة والنفسيّة، ومنهم الأنبياء المصطفون. وأمْرُ التشريع يتمّ على وفق المقادير التي حدّدها الله بإرادته الحكيمة، وفرضَ مُمَيِّزاً حُدُودَ ما ألزم به فعلاً أو تركاً، وحُدُودَ ما رغّب فيه فعلاً أو تركاً، وحُدُودَ ما أباحَهُ إباحَةً مُسْتَوِيَةَ طَرفَي الْفِعْلِ والترك، وجعل أنبياءه وغيرهم سواءً في ذلك، ورُبّما زاد الأنبياء تكليفاً، وربّما خصّهم ببعض المباحات لحكمةٍ من حكمه الجليلة. فأمْرُ الله إذاً ذُو قَدَر.

وكان أمْرُ الله أيضاً مَقْدُوراً، أي: نَفْسُ الأمر وذاتُه أيضاً مَقْدُور.

مَقْدُور: اسم مَفْعُول من فعل «قَدَرَهُ يَقْدِرُه» فحين يوجّهُ الله أَمْرَ التَّكْوين أو أَمْرَ التَّشْريع فالأَمْرُ نفسه مَقْدُور، أي: مُحدَّدُ بسابق الإرادة كما أنّه يُوجّه لتنفيذ مَحْدُودات المقادير.

ومن جملة النصوص نَسْتَفيدُ أنّ أفعال الله، وأحكامه وتكاليفه تَتِمّ مَسْبُوقة بما يلي:

الأول: شمولُ العلم المحيط بكلّ شيء.

الثاني: الإرادةُ الّتي تتوجّهُ لتُخصِّصَ من الأفعال والتشريعات وكلّ ما هو من متعلّقاتها دون إجبار ولا إلزام ولا تلقائيّة طبعيّة.

الثالث: الحكمة في اختيار ما تتوجّه لتخصيصه الإرادة بمقاديره الصغرى والكبرى، ومن ذلك لحظة توجيه الأمر.

الرابع: إمضاءُ وبثُّ ما تمَّ اختياره، وهذا هو القضاء، والقضاء في اللغة الإنهاء والإمضاء.

وبهذه الأربع يتحقّقُ القضاء والقدر، فالقضاء إمضاءُ والقدر يتمّ به تخصيص المرادات الحكيمة بكل مقاديرها، ومنها أوقاتُ توجيه أوامر التكوين أو التشريع.

الخامس: وعند حُلُولِ الأجل لتنفيذ ما تمَّ بالقضاء والقدر يتوجّه أَمْرُ التكوين، أو أمر التشريع، والتكليف.

أمّا أَمْرُ التكوين فيتمّ تنفيذ المأمور به بالْقُدْرَةِ الرَّبّانيّة التي لا يُعْجزها شيءُ من مرادات الله، ممّا تمّ بقضائه وقدره.

وأمّا أَمْرُ التشريع والتكليف، فيتمّ بتوجيهه فقط، ويستتبع تبليغه وبيانه لِمَنْ يُرادُ خِطابُهُمْ به، ويستتبع التكليفُ الحسابَ والجزاء، وكلُّ ذلك إنّما يتحقق بالعلم والحكمة والإرادة والقدرة وكثير من صفات الله عزّ وجلّ الأخرى.

بهذا التحليل نستطيع أن نفهم قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

وهذه الجملةُ معْتَرِضَةٌ بين الموصوفين ـ وهم الأنبياء الذين خَلَوْا مِنْ قبل ـ وصفتهم بقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾:

أي: الذين يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ بأقوالهم وأعمالهم وتقريراتهم، ومن تبليغ رسالات الله بأعمالهم أن يفعلوا ما أباح الله للناس، ليكونوا أُسْوةً للناس في ذلك، وليس من شأنهم أن يتورّعُوا عمّا أباح الله إباحةً مستوية الطرفين.

وأوْمَأ اللَّهُ لرسوله بهذا البيان إلى أن يَهْتَدِيَ بِهُدَى الأنْبياء والرُّسُل من قبله، فيخشىٰ الله، ولاَ يخشىٰ أحداً إلاّ الله، كما أنّ الرُّسُلَ مِنْ قبله كانوا يبلّغون رسالات الله بأقوالهم وأعمالهم، ويخْشَوْنَهُ ولاَ يخْشَوْنَ أحداً إلاّ الله.

الخشية: خوفٌ مصْحُوبٌ بتقدير واحترامِ المخوفِ منه.

ولمّا كانت الخشيةُ من الله لا تستلزم عدمَ الخشية من غيره اقتضى البيان التصريح بالأمرين فقال تعالى:

﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾.

والذي يجعلُهُم لا يخْشَوْن أحداً إلاّ الله هو أنهم تَوَكّلُوا على الله، واكتَفَوْا بالاعتماد عليه، دلّ على هذا قول الله في آخر الآية:

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩﴾.

حسيباً: أي: كافياً، من الْحَسْب، وهو الاكتفاء، والمعنى: وكفىٰ بالله كافياً لمن توكّلَ عليه.

أو فعيل من الحساب، بمعنىٰ سريع الحساب، فهو يحاسبُ من لم ينفّذ أوامره، والحسابُ يأتي بعده قرار الجزاء.

والمعنى الأوّل فيما أرى هو الأكثر ملاءمة في هذا النّصّ.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

بعد إلغاء عُرْفِ التَبنّي بحُكْمِ اللّهِ أبانَ الله عزَّ وجلّ للقوم، والمعْنِيُّون منهم على وجه الخصُوص الذين أرجفُوا بإشاعة مقالة السوء فقالوا: «إنّ محمّداً يُحَرِّم نكاح نساء الأولاد وقد تزوّج امرأة ابنه زيد» إذ كان يقال له: زيدُ بن محمّد، أبان الله لهم أنّ محمّداً ما كان أبَا أحدٍ من رِجالكم، وذلك لأنّ أولاده الذكور «إبراهيمَ القاسم، والطيّب، والطاهر» ماتوا وهم صغار لم يبلُغوا مَبَالغ الرّجال.

أي: فزيد ليس ابنَ محمّد، والله إنّما حرَّمَ زوجات الأبناء من الأصلاب، ولم يُحرِّم زوجات الأدعياء.

وينطلق الذهن فيتساءل: لماذا لم يُبْقِ الله لرسوله محمّد ولَداً ذكراً؟

وقد أجابَ الله عزَّ وجلّ عن هذا التساؤل ببيانِ حِكْمتِه في ذلك فقال:

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾:

أي: لمّا قَضى الله بختم الرسالات والنبوّات كلّها بمحمَّدٍ، لم يُبْقِ له ولداً ذكراً، حتّى لا يَبْقى مِنْ سُلالَةِ النُّبُوَّةِ عامِلٌ وِرَاثي، إذ جَعلَ اللَّهُ النبوة والكتابَ في ذرّيّة إبراهيم، كما سبَق بيانه، ولم يبق ذُرِّية ذكوراً لآخر أنبياء بني إسرائيل يحيى وعيسى.

ودلَّ هذا على أنّ العامل الوراثي الناقل للخصائص المؤهِّلة للاصطفاء بالنبوة إنّما ينتقِلُ في الذكور لا في الإناث، فلا تُنَبَّأُ امرأة.

ودلّ على أنّ كلّ رسولٍ نبيٌّ، فإذا انتفت النبوّة فلا رسالة، فكفَى ذكرُ كونه خاتم النبيين عن ذكر كونه خاتم المرسلين، لأنّه إذا كان خاتمَ النبيّين فهو خاتم المرسلين حتماً.

وخَتْمُ النبيّين بمحمّد هو من حكمة الله، وحكْمَةُ الله في اختياراته لا تَتِمُّ ما لم يكن عَليماً بكُلّ شيء، فقال تعالى في ختام الآية:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾:

أي: وهو عليم دواماً بكلّ شيء.

وبعد زواج الرسول من ابنة عمته «زينب بنت جحش» تعرَّض لأذى الكافرين والمنافقين، وتوجّهتْ نحوه الضُّغوط الاجتماعية الّتي ربّما أثّرتْ على ضعفاء الإيمان من المسلمين، فوجّه الله لرسوله ما يُثَبِّتُهُ به على طاعة الله، والقيام بما فرض الله له، والقيام بتبليغ رسالة ربّه بقوله وعمله فقال له ما جاء في الآية (٤٨) من السورة وهو:

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

(١) ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾:

تأكيد لما جاء في صَدْرِ السُّورَة، من جهة اللّفْظ، لكن هناك قبل أن يؤدّي رسالة ربّه في موضوع التبنّي، وهُنَا بَعْدَ أَنْ أدّى رسالة ربّه بقوله، وبفعله.

(٢) ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾:

أي: اتْرُكْ أذاهُمْ، فلا تَهْتَمّ له، ولا تنظُرْ إليه، ولا تَشْغَلْ نفسك بدفْعِهِ أو الانتصار لنفسك.

وهذه وصيّةٌ ربّانيةٌ نفيسة لكلّ مَنْ يتعرّض للأذى، فَتَرْكُ الأذى، وعدمُ الاهتمام به من شأنه أن يُطْفِىء نَارَ المؤذين، ويبطِّىء حركتهم، ويجعل أقوالهم كالهباء المنثور، بخلاف مقاومته، فإنّها توقد نار الأذى، وتضاعف من جهود المؤذين، فتزيد من آلام الأذى.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾:

تأكيد لمَا جاء في صدر السورة أيضاً، أي: ومن توكّل على الله كفاه ما أهمّه، وردّ كيد أعدائه إلى نحورهم.

● ● ●

النص الرّابع عشر

وهو من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) سادس سورة مدنية

الآيـات مـن (٥٩ ـ ٧٠)

حول تحاكم المنافقين إلى الطاغوت وقد أُمِرُوا أن يكفروا به

قال الله عزّ وجل فيها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾».

* * *

(١)

موضوع النّصّ وسبب نزوله

في هذا النصّ بيانٌ لظاهرةٍ من ظواهر النفاق، وهي ظاهرة التحاكم إلى غير حكم الله ورسوله، والصدّ عن حكم الله والرسول، في كلّ ما هو مشمول بحكم شرعيٍّ دينيّ، حَكَمَ به الله، أو حَكَمَ به رسوله ﷺ، ودلّ عليه نصٌّ صريحُ الدّلالة من قرآنٍ أو سنّة، أو استنبطه الفقهاء المجتهدون ممّا دلّت عليه نصوص القرآن الكريم، أو دلّت عليه السنّة المطهّرة.

وقد نزل هذا النصّ بسبب ما كان من بعض المنافقين قبل تنزيله، إذْ دعاه خصمه إلى حكم الله ورسوله في خصومةٍ بينهما، فرفض التحاكم إلى الرسول، وصدّ عنه صدوداً منكراً، وأراد أن يتحاكما إلى الطاغوت، أي: إلى حكم أهل الكفر، من اليهود أو المشركين، ظنّاً، منه أنه سيجد لنفسه مخرجاً فيهضم من حقّ صاحبه، أمّا الرسولُ ﷺ فسيحكم بالحقّ فلا يجد عنده مخرجاً.

وقد ورد في أسباب النزول عدّة روايات تدور كلّها حول ذلك.

(١) روى الطبري بسنده عن عامر، قال: كان بين رجل من اليهود ورجلٍ من المنافقين خصومة، فكان المنافق يدعو خصمه إلى اليهود، لأنه يعلم أنّهم يقبلون الرشوة، وكان اليهوديّ يدعو إلى المسلمين، لأنّه يعلم أنّهم لا يقبلون الرشوة، فاصطلحا أن يتحاكما إلى كاهنٍ من جُهَيْنَة، فأنزل الله قوله:

«أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ.... ﴿٦٠﴾».

حتَّىٰ بَلَغَ: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

(٢) وروى الطبريّ بسنده عن الشَّعْبيّ روايةً مشابهةً لروايته السابقة عن عامر، وروى عن قتادة أنّ المسلم المنافق هو رجلٌ من الأنصار يقالُ له: بِشْر.

(٣) وروى الطبريُّ روايةً أخرىٰ فيها أنّ المسلمَ المنافقَ هو من منافقة اليهود.

أقول: كون هذا المنافق من اليهود هو ما يشير إليه النصّ بدلالاته، ففيه ما يلي:

﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

فَذِكْرُ ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبلِكَ﴾ في هذا المقام يُشْعِر بأنهم كانُوا من أهل الكتاب، قبل الإسلام.

وفيه أيضاً:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾.

ففي هذا إلماح إلى ما كتب الله على بني إسرائيل أيّام موسى عليه السلام، وهؤلاء يزعمون أنّهم أحفاد أولئك، وأنّهم قبل الإسلام كانوا يهوداً، وأنّهم يؤمنون بما أُنزِل على موسَى وعلى سائر أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام.

ويؤيد كونه من اليهود الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً ما جاء في الرواية التالية:

(٤) وروي عن السّدّي قال: كان ناسٌ من اليهود قد أسلموا، ونافق بعضهم، وكان فريق منهم من بني النضير، وفريق منهم من بني قريظة، فقتل رجلٌ من بني النضير رجلاً من بني قريظة، فتحاكموا إلى النبيّ ﷺ، فقال النضيري: يا رسول الله، إنّا كُنّا نعطيهم في الجاهليّة الدّية ستين وَسْقاً، ولا يقتلون منّا مقابل قتيلهم، فنحنُ نعطيهم اليوم ذلك، فقال القرظيّون: لا، ولكنّا إخوانُكم في النسب والدّين، ودماؤنا مثْلُ دمائكم، ولكنَّكُمْ كُنْتُمْ تَغْلِبُونَنا فِي الجاهليّة، فقد جاء الله بالإسلام.

وحكم الرسول ﷺ بقتل النُضيري، وقَتَلَهُ بصاحِبِهِ.

فتفاخَرتِ النضيرُ وقُرَيظَةُ:

فقالت النضير: نَحْنُ أَكْرَمُ مِنْكُمْ.

وقالت قُرَيظَةُ: نَحْنُ أكرَمُ منكم.

وطالب المنافقون من قريظة والنّضير بأنْ يحكم بينهم في مفاخرتهم أبو بَرْزَةَ الأسْلَميّ الكاهن.

وقال المسلمون منهما: بل النبيُّ ﷺ هو الذي يحكم بيننا.

(٥) وروي عن ابن عبّاس، أنّ الطاغوت الذي أراد المنافق التحاكم إليه، هو اليهوديّ كعب بن الأشرف.

(٦) وأخرج ابن أبي حاتم، والطبرانيّ بسنده إلى ابن عباس، قال: كان أبو بَرْزَة الأسلميّ كاهناً يَقْضِي بين اليهود فيما يتنافرون فيه. (أي: يتفاخرون فيه). فتنافر إليه ناسٌ من المسلمين فأنزل الله قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى الطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ... ﴿٦٠﴾﴾ الآيات.

* * *

(٢)
نظرة مجملة عامّة إلى النّص

(١) يبدأ النصّ بتكليف الذين آمنوا أنْ يُطيعوا الله والرسول وأُولي الأمر منهم.

فإن حصل التنازع بينهم في شيءٍ سواءٌ أكان بينهم وبين أولي الأمر منهم، أو بين أفرادٍ أو جماعاتٍ منهم، فهم مكلّفون أن يردُّوه إلى الله والرسول، أي: إلى كتاب الله، وإلى رسول الله في حياته، ثمّ إلى سنّته التي صحّت عنه من بعده، هذا إذا كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً صادقاً.

(٢) بعد ذلك عرض النصّ قصة طائفة من المنافقين يزعمون أنّهم مؤمنون، ثُمّ يُرِيدُونَ أنْ يتحاكموا إلى الطاغوت، أي: إلى حكم الجاهليّة، وإلى حكم من يحكم بأحكام الجاهليّة من الناس، كحكْم الكهّان، أو حكم طاغوت من طواغيت أهل

الكتاب، مثل: «كَعْب بْنِ الأشْرَفِ» عدوّ الإسلام، والعدوّ الكبير للرسول ﷺ من اليهود.

وقد جاء عرض قصة هؤلاء بأسلوب التّعجيب من التناقض المستغرب بين زعمهم، وبين ما يريدون من التحاكم إلى الطاغوت.

وكان من أمر هؤلاء المنافقين أنّهم إذا قيل لهم: تعالَوْا إلى ما أَنْزَلَ الله، وتعالَوْا إلى الرسول ليحكمْ بينكم نفروا، وصدّوا عن الرسول صدوداً قبيحاً منكراً.

(٣) وبعد ذلك ألمح النصّ إلى احتمال تسليط الله عزّ وجلّ رسولَهُ عليهم، لمعاقبتهم على أعمالهم المنافية لمقتضيات الإيمان، والدّالة على باطن الكفر المستور بالنفاق، فتصيبيهم مصيبة عقاب الرسول لهم، بسبب ما قدّمت أيديهم من جُرْم عظيم، وأنّهم حينئذٍ يسارعونَ إلى الاعتذار عن جرمهم المنافي لادّعائهم الإيمان منافاةً كليّةً، بأَنْ يحلفُوا للرسول بالله، علىٰ أنهم ما أرادوا بعملهم هذا إلاَّ إحساناً وتوفيقاً.

ويطرح المتدبّر هنا سؤالاً، وهو: ما معنى أنّهم ما أرادوا إلاّ إحْسَاناً وَتوفيقاً؟

أقول: حين نلاحظ أنّ الخصومة كانت بين مسلمين منافقين، وبين غير مسلمين، كما جاء في معظم روايات سبب النزول، يظهر لنا أنّهم يستُرون غرضهم الأساسيّ من التحاكم إلى الطاغوت، وهو أن يحكُمَ لهم ولو كان الحقّ لخصمهم، ويتعلّلُونَ أمام الرسول، وأمَام المسلمين، فيما لو حُوسِبُوا على عملهم، بأنهم قد كان لهم هدفٌ دينيٌّ من وراء ذلك، وهو الإحسان والتوفيق.

ولكن كيف نتصوّر هذه التعلاّت التي يمكن أن يُزيِّنُوا فيها، أنّهم ما أرادوا بالتحاكم إلى غير حكم الله والرسول إلاّ الإحسانَ والتوفيق؟

ويخطر لي في ذلك أنّهم يقولون مثلاً: إنّ خصمنَا غير مُسْلم، وهو لا يؤمن بما أنزل الله، ولا يؤمن بالرّسول، فلو دعوناهم إلى الرسول ليحكُمَ بيننا، لكان في ذلك تهمة أننا ندعوهم إلى زعيمنا لِيُحَابِيَنا فيحكُمَ لَنَا.

ويقولون: إنّهم لا يُريدون أن يضعوا الرسول موضع الاتّهام والتجريح من قِبَلِ الكافرين به، فمرتبة الإحسان لمقام الرسول تدعوهم إلى إبعادِهِ عن مواضع الشبهات والاتّهامات من قِبَلِ الكافرينَ به.

لذلك دعوناهم إلى رجُلهم اليهودي «كعب بن الأشرف» أو إلى الكاهن الوثني «أبي بَرْزَةَ الأَسْلَميّ» الذي ليس هو منّا ولا منهم.

ويقولون: إنّنا نُريد أن نصل إلى التوفيق بيننا وبين خصمنا، على يد أيّ مُوفّق، وذلك بالمصالحة بيننا مصالحةً توفيقيّة، ولم نقصد رفضَ الحكم بالحقّ، ولم يخطر في بالنا أنّ حكم اليهودي أو الكاهن الوثني سيكون لصالحنا، هاضماً حقّ خصمنا، فآثرنا بذلك التحاكم إليه ليحكم لنا بالباطل.

وهكذا تبدو مقالتُهم مُزيَّنة لعملهم، وساتِرةً لجريمتهم، وما دامت إرادتهم الحقيقية شيئاً في ضمائرهم، وليس عليها بيّنات قضائيّة، فإنّ وسيلتهم لتأكيدها هي أن يحلفوا بالله على ما زيّنوه.

(٤) وهنا بيّن الله لرسوله إدانتهم بعلمه بما في قلوبهم، ولكن لم يسمح له بأن يحاسبهم على جريمتهم حساباً مادياً، إذْ لا يملك بيّنةً قضائيّةً بشريّةً تكشف إرادتهم الحقيقيّة.

وبيّنَ له المنهج التربويّ العلاجيّ الذي يتّبعه معهم، وهو يتلخّص بثلاثة عناصر:

العنصر الأوّل: الإعراض عنهم، بعدم مؤاخذتهم، مع إشعارهم بأنّ جريمتهم مكشوفة له، وقد استوجبت منه أن يُعْرض عنهم إعراض مُستاءٍ من عملهم.

العنصر الثاني: أن يَعِظَهم ببيان وجوب التحاكم إلى الله وإلى الرسول، مهما كانت الدواعي، ومهما زُيِّنَ لهم الشيطان أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وَبِبَيان عاقبتهم عند الله.

العنصر الثالث: أن يقول في سرّهم قولاً كاشفاً حقيقة ما في أنفسهم، بالغاً ما أسرّوه في أعماقها، ليعلموا أنّ الله يُطلع رسوله على خبايا قلوبهم، ونواياهم، فهم مهما تظاهروا بحُسْنِ إسلامهم معروفون للرسول بنفاقهم، إذْ يُعْلِمُه الله عزّ وجلّ بحقيقةِ ما في قلوبهم.

(٥) بعد ذلك بيّن الله عزّ وجلّ وجوب طاعة الرسول، وأنّ محمّداً ليس بِدْعاً

في الرُّسُل، بل كلّ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ السابقين، إنَّما اصطفاه الله وأرسله إلى قومه، ليكون قائداً مطاعاً من قِبَلِ الذينَ آمَنُوا به، في كلّ ما يأمرهم به، وفي كلّ ما ينهاهُمْ عنه.

وألمح الله عزّ وجلّ إلى أنّ الرسول لا يأمُر ولا ينهى إلّا بإذن الله، فهو مأذونٌ من قِبَلِ الله بأنْ يأمُرَ وينْهَى في الدّين، وعلى مَنْ آمَنَ به أن يُطيعَهُ، فطاعتُهُ جزءٌ مِنْ طاعة الله، كما جاء في نصٍّ لاحِق من سورة (النساء) نفسها، وهو قوله تعالى:

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

(٦) بعد ذلك فتح الله باب الاستغفار والتوبة، فقال لرسوله:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾.

وفي هذا الأسلوب إطماعٌ لهم بأنهم إذا تابوا واستغفروا، وعفا عنهم الرسولُ واستغفرَ اللَّهَ لهم، تابَ الله عليهم، وشملَهُم برحمته.

ومع هذا الإطماع نلاحظ أنّ النصّ لم يخاطبهم خطاباً مباشراً، بل خاطب الرسول بشأنهم، معرضاً عنهم، لِعِظَم جُرْمِهِمْ.

(٧) وبعد ذلك بيّن الله عزّ وجلّ قاعدةً كبرى من قواعد الإيمان، وشرطاً أساسيّاً من شروطه، فقال تعالى خطاباً لرسوله:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

فَدَلَّ هٰذا على أنّ سلامة الإيمان من النقضِ أو النقص مشروطة بتحقيق كُبْرَى لوازمه، ومن هذه اللوازم الكبرى، ما يلي:

(أ) تحكيمُ الّذينَ أعْلنوا إسلامهم رَسُولَ الله في كلّ ماشجر بَيْنَهُمْ من خلافاتٍ وخصومات.

(ب) أن لا يجدوا في أنفسهم حرجاً (أي: ضيقاً وعدم ارتياحٍ) مما قضى

الرسول، وهذا من آثار الإيمان الصحيح الكامل بالله ورسوله واليوم الآخر، النفسيّة الداخليّة.

(ج) أن يُسلّموا لحكمه تَسْليماً كاملاً لا يشوبه شكٌّ ولا اعتراضٌ ولا معصية، وهذا من آثار الإيمان الظاهرة، بعد صدور الحكم.

(٨) وبعد ذلك كشف الله عزّ وجلّ أنّهم لو لم يدخلوا في الإسلام نفاقاً، وبَقُوا على يهوديّتهم، فإنّهم ليسوا على مثل بني إسرائيل الأولين، الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام، فإنّ أولئك لمّا كتب الله عليهم الخروج من مصر بقيادة موسى وهارون عليهما السلام خرجوا طائعين، وحين ظلموا أنفسهم باتخاذهم العجل، وكتب الله عليهم أن يتوبوا إلى بارئهم فيقتلوا أنفسهم، أطاعوا، فاجتمعوا يقتل بعضهم بعضاً.

لكن هؤلاء لو كتب الله عليهم هذا الذي كتبه على أسلافهم ما فعلوه إلّا قليل منهم، فهم في اليهودية ليسوا ذوي دين صحيح، وهم حين دخلوا في الإسلام منافقون، أو قريبون من النفاق.

وأتبعه ببيان أنّهم لو فعلوا ما يوعظون به من التحاكم إلى الله وإلى الرسول لكان خيراً لهم، وأشدّ تثبيتاً لهم في الإيمان، وأنّهم لو فعلوا ذلك لآتاهم الله من لدنه أجراً عظيماً، ولهداهم في حياتهم صراطاً مستقيماً، وهو صراط الإسلام، الذي يشرح الله له صدور الذين آمنوا حقّاً وصدقاً، فكان سبب طمأنينتهم وسعادتهم في العاجل والآجل.

(٩) وأخيراً ختم الله النصّ ببيان الثمرة الأخروية لمن آمن وأطاع الله وأطاع الرسول وأولي الأمر من المؤمنين، وأنّ الذين يطيعون الله والرسول فإنّ الله عزّ وجلّ يجعلهم في جنات النعيم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

ذلك الفضل من الله، يعطيه سبحانه الذين آمنوا وعملوا صالحاً، والتزموا في حياتهم الدنيا طاعة الله والرسول.

وأنهى الختام ببيان صفة من صفات الله عزّ وجلّ ذات صلة بموضوع النصّ،

لتثبيت عُنْصُرٍ من عناصر القاعدة الإيمانية، فالمنافقون يكتمون نفاقهم، لكنّ الله عليم بهم، وبما في سرائرهم، فقال تعالى:

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ۝٧٠﴾.

* * *

(٣)
المفردات اللّغوية في النصّ

﴿أَطِيعُوا﴾:

الطاعة: الانقياد، والعمل وفق رغبة المنقاد له. يُقَال: طاعَه يَطُوعُه طَوْعاً، وطَاعَهُ يَطيعُه طَيْعاً، وطَاع لَـهُ يَطُوعُ لـه، ويَطيعُ له، إذا انْقاد له، وعمل على وفق رغبته.

ويقال: أطاعه، إذا انْقَاد وخضع له، وكذلك انْطَاع له.

﴿وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾:

أولو الأمر: هم الذين لهم حقّ الأمر بحكم الشرع على من يتولَّوْن أمورهم، فالأمير من أولي الأمر، والخليفة من أولي الأمر، والزوجُ من أولي الأمر على زوجته، والأب على أولاده من أولي الأمر، ومن لهم حقّ الفتوى في الدين من أولي الأمر ضمن اختصاصهم، والقاضي في مجال القضاء من أولي الأمر، وكذلك كلّ راعٍ هو مسؤول عن رعيته.

﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ﴾:

أي: فإن اختلفتم، والمعنى أن كلّ فريق من المختلفين يحاول أن ينتزع الاعتراف بأنّ الحقّ هو ما يدّعيه هو.

﴿فِي شَيْءٍ﴾:

أي: في شيءٍ ما، ممّا له في الدين حكم، أو بيان، أمّا الأمور المتروكة للناس، كالعلوم التي تكتسب بالوسائل الإنسانيّة فمرجعها البحث الإنساني، فالعقليّات لبراهين

العقل، والحسيّات لمشاهدات الحواسّ، والتجريبيّات للتجارب، والخبريّات للتثبّت من صحة الأخبار بمقتضى برهان العقل، لذلك جاء قوله تعالى:

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾:

فدلّ فعل «رُدُّوه» على أنّ مصدر الحكم أو البيان مصدر دينيّ، فوجب عند التنازع في الأحكام والبيانات ذات المصدر الديني ردُّها إلى كتاب الله بحثاً واستنباطاً، وإلى ما ثبت عن الرسول ﷺ في أقواله أو أعماله أو أخلاقه أو إقراراته، أو إلى ما يقاس على ما جاء فيهما أو في أحدهما.

فردّ الشيء إلى الشيء إنما يكون بإرجاعه إليه، وهذا يدلُّ على أنه كان لديه أوّلاً، فصدر عنه، فهو يُردُّ إليه.

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾:

أي: وأحسن رَدّاً وإرجاعاً، يقال: أوّلَهُ تأويلاً إذا ردّه وأرْجَعَهُ إلى مكانه الذي كان فيه.

وتأويل الألفاظ يكون بإرجاع دلالاتها إلى المعاني المرادة منها، في أصل التعبير.

﴿يَزْعُمُونَ﴾:

يدّعون بألسنتهم، يطلق الزعم على الظنّ الضعيف، وعلى الادّعاء دون بيّنة مُثْبِتَةٍ للادّعاء، وأكثر ما يستعمل في الادّعاء الكاذب، والاعتقاد الباطل، وفي الادّعاء الذي تحيط به شبهاتٌ وشكوك بأنه ادّعاء كاذب، ولذلك قالوا: الزعم أخو الكذب. وقالوا: «زَعَموا» مطيّة الكذب. وفي الحديث: بئس مطيّة الرجل «زَعَمُوا» وقال شُرَيْح: «زَعَمُوا» كنية الكذِب.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾:

أي: يريدون أن يرفعوا خصومتهم إلى حاكم ليفصل الحكم بينهم.

﴿إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾:

الطاغوت: هو كثير الطغيان، وكلّ رأس في الضلال، ويطلق على الشيطان، والكاهن، والساحر، وكلّ ما عُبد من دون الله، وبيت الصنم، (يستوي فيه المفرد

وغيره، والمذكر والمؤنث، وأصله من فعل طغَىٰ طَغْياً، وَطُغْيَاناً، إذا جاوز الحدّ المقبول، وصار ضارّاً، أو مفسداً، أو ظالماً معتدياً جائراً. والمراد من الطاغوت كلّ معبود أو مطاع من دون الله، ومنهم الكهّان، والأحبار والرّهبان.

﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾:

أي: يُعْرِضونَ عَنْكَ إعراضاً شديداً، الصدّ في اللّغة الإعراض، والانصراف عن الشيء، يقال: صَدَّ عنه يَصِدُّ ويَصُدُّ صَدّاً وصُدُوداً، إذا أعرض وانصرف عنه، ويستعمل متعدّياً، فيقال: صَدَّهُ عن الأمر يَصُدُّهُ صَدّاً، إذا منعه وصرفه عنه.

﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾:

الإحسان: فعل ما هو حسن وجيّد، وأَحْسَنَ الشيءَ إذا أتقنه. وأَحْسَنَ إِلَيْهِ وأَحْسَنَ بِهِ، إذا فعل ما هو حَسَنٌ من أجله.

التوفيق: إذا كان بين خصمين فالمراد منه الإصلاح بينهما، والتوفيق في الأمور تيسير ما هو ملائم لصلاحها، وبلوغ المطلوب الحسن منها.

ويظهر أنّ المراد هنا في النصّ هو المعنى الأوّل منهما.

﴿وَعِظْهُمْ﴾:

الوعظ: هو النصح المقرون بما يثير الرغبة أو الرهبة للانتفاع بالنصح، واتباع ما هدىٰ إليه فعلاً أو تركاً.

﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾:

بليغاً على وزن «فعِيل» صيغة مبالغةٍ لفاعل، يقال: بَلَغَ الأمْرُ بُلُوغاً وبَلاَغاً، إذا وصل إلى غايته، فالقول البليغ هو الذي يصل إلى غاية مداه في قُوَّةِ التأثير، فمن كان لديه استعدادٌ للتأثّر بالقول البليغ أَثّر فيه على مقدار استعداده.

﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾:

الظلم: تجاوز الحدّ، ووضع الشيء في غير موضعه، فمن عصى الله ورسوله فقد ظلم، ومن اعتدى على حقّ غيره فقد ظلمه، ومن فعل شيئاً يُعرِّضهُ للعقوبة ويجرُّ

لَهُ ما يكره في عاجل أمره أو آجله فقد ظلم نفسه، ولمّا كانت معاصي العباد لربّهم لا تضرُّ اللّهَ شيئاً، وإنّما يُعرّضون بها أنفسهم لعقوبات الله، فإنهم يكونون بها ظالمين لأنفسهم.

﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾:

شَجَرَ بَيْنَهُمْ: أي: اختلف الأمر بينهم. ويُقالُ: شَجَرَ بينهم الأمْرُ يَشْجُرُ شَجْراً إذا تنازعوا فيه. واشْتَجَرَ القومُ تخالفوا. واشتَجَرَ القومُ وتَشاجَرُوا، أي: تنازعوا. والمشاجرة المنازعة.

قال الزجاج في قوله تعالى: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: فيما وقع من الاختلاف في الخصومات حتى اشتجروا وتشاجروا، أي تشابكوا مختلفين.

والتشاجر مأخوذ من الشجر، لتشابك أغصانها بعضها ببعض.

﴿حَرَجًا﴾:

أي: ضِيقاً. قال الزجاج: الْحَرَجُ في اللُّغة: أَضْيَقُ الضِّيقِ أي: إنّه ضيّق جدّاً.

والْحَرَجُ في الأصل كما قال ابن عبّاس هو الموضع الكثير الشجر الذي لا يَصل إليه الراعية، ففي قول الله تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ قال: وكذلك صدر الكافر لا يصلُ إليه الحكمة.

فالمؤمن لا يجد في نفسه ضيقاً من حكم الله ورسوله، إذا كان على خلاف ما يهوى، لأنّ طاعة الله والرسول، وحبّ الحقّ، وابتغاء ثواب الآخرة، تصُبُّ في نفسه الرضا، فتَنْفَرِج سعيدة بحكم الله والرسول.

﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾:

أي: وينقادوا لحكم الرسول انقياداً كاملاً، ويرضوا به رضاً صحيحاً لا تصحَبُهُ كراهية ولا استياء.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾:

أي: فرضنا عليهم. وإطلاق فعل «كتب» على معنى «فرض» هو من قبيل المجاز

المرسل، وهو من إطلاق الْمُسَبَّب على السَّبَب، فالإلزام التكليفي بالأمر سَبَبٌ يَنْزِل به بيان من الله، وهذا يُكتَبُ في اللّوح المحفوظ، وفي صحف الملائكة، وفي الكتب الربّانية المنزّلة، فالكتابة مُسَبَّبَة عنه.

وليست كلُّ كتابة جاءت في القرآن أو في السنة هي على هذا المعنى، فالأصل في الكتابة تسجيل معلومٍ ما، سواء أكان أزليّاً نفياً أو إثباتاً، أو كان حادثاً بقضاء الله وقدره، أو كان من اختيارات العباد التي جعلها الله من وُسعهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾:

أي: ولو أنهم فعلوا ما يُنْصحون به، من أوامر الله ورسوله إلزاماً أو ترغيباً، ومنه تحكيم الرسول فيما شجر بيْنهم.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾:

أي: لكان فعلُهم خيراً لهم في عاجل أمرهم وآجله.

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾:

أي: وأشدّ تثبيتاً في مواقع الإيمان الصادق، والإسلام الصحيح، الذي يكون فيه العمل الظّاهر دالاً بصدق على ما في الباطن.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

إذاً: حَرْفُ جوابٍ وجزاء. أي: وَلَوْ أنهم فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ إذاً لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أجراً عظيماً. فَحَرْفُ (إذاً) هنا واقع في جواب الشرط وجزائه.

﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾:

أي: ولكانت لهم من معونة الله وتوفيقه في الحياة أن يسلكوا الصراط المستقيم، فيكون ذلك مُحقّقاً لهم طمأنينة القلب، وسكينة النّفس، وبلوغ المقاصد من أقصر الطرق، وأوسعها، وهو الصراط المستقيم، صراط الله الذي أبانه الله ورسوله للناس.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾:

أَشارَ إليهم بإشارة البعيد، إشعاراً بارتفاع منزلتهم جدًّا عن سائر العباد.

﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾:

أي: مع الَّذين قضىٰ الله بالإِنْعَام عليهم يوم الدين في جنَّات النعيم، وفي منازل الفردوس الأعلى منها.

الإِنْعَـام: الإعطاء الـزائد ممّـا يُحَقِّقُ قدراً وافراً من النّعيم وطيب العيش، وأهل الفردوس في الجنة هم أَنْعَمُ أهل الجنّةِ بفضل العطاء الزائد الذي يكرمُهُمْ الله به.

وقد جاء في هذا النصّ تفصيلُ ما جاء مُجْملاً في سورة (الفاتِحَة):

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

فقال تعالى هُنا بَيَاناً للذين أنعم عليهم:

﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾:

فـدلّ على أنهم يكـونـون رُفقـاءَ النبيّين في دار النعيم، وهم من أهـل الفـردوس الأعلى، والرفقاء يشاركون رفقاءهم.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾.

أي: ذلك المقام الرفيع عطاءٌ من الله بفضل منه، إنعاماً وإكراماً.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾:

أي: كفىٰ اللَّهُ حالة كونه عليماً بكلّ شيء، أو المعنى كفى علمـه بأحـوال عباده المنافقين، وعبادِهِ المؤمنين الصادقين، ليجزي كلاًّ بحسب حالـه، فلفظ «عليماً» حـالٌ أو تمييز، ويرى بعضهم التمييز أرجح.

والباء في «بالله» حرف جرّ زائد يُزَاد للتأكيد، وهو هنا تأكيدُ بِكفاية علم الله.

* * *

(٤)
مع النصّ في التحليل والتدبر

يأتي هذا التدبُّر في فِقَرات عشر:

الفقرة الأولى: بيان قاعدة وجوب طاعة الله وطاعة الرسول وأولي الأمر من المؤمنين، والردّ إلى الله والرسول في حالة التنازع في شيء ما.

* قول الله عزّ وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) ﴾.

في هذه الآية ستُّ قضايا:

القضية الأولى:

يُنَادي الله عزّ وجلّ الَّذِين آمَنُوا، فيخصُّ المؤمنين بهذا النداء مشيراً به إلى أنّ اتّصافهم بصفةِ الإيمان الصحيح الصادق لا بُدَّ أنْ يكون وازعاً لهم ودافعاً إلى تنفيذ التكاليف التي يوجّهها لهم، إذْ يُذَكِّرُهُمْ بحقّ الله عليهم، وبمسؤوليّتهم تُجاهه، وبالجزاء الذي أعدّه سبحانه، ثواباً أو عقاباً، نظراً إلى أنّه من أركان الإيمان.

وفي ندائهم بوصف الذين آمنوا، إلماحٌ إلى أنّ الإعراضَ عن تنفيذ التكاليف الرَّبّانيّة، وعدمَ الاهتمام بها والاكتراثِ لها، إنّما يكونُ عند عدم صدق الإيمان المدَّعَىٰ، وذلك في حالة النفاق، أو يكون عند نقص الإيمان وضعفه، أو غلبة سلطان الهوى، وذلك في حالة العصيان والفسوق وتراكم الغفلات عن الله، واليوم الآخر.

القضيّة الثانية:

الأمر بطاعة الله عزّ وجلّ، بقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي: يا أيُّها الذين آمنوا لِيُطِعْ كلُّ فردٍ منكم الله في كلّ ما يأمر به، وفي كلّ ما ينهىٰ عنه، سواءٌ أكان المطلوب من الأمور التي لها صفة العمل الفردي، أو من الأمور التي لها صفة العمل الجماعي.

فالطاعة لله عزّ وجلّ هي العبادة العمليّة لَهُ، وهي من كُبْرَيات ثمرات الإيمان الصحيح الصادق، بعد إعلان الخضوع لأوامر الله، بإعلان الإسلام له، والاستسلام لأوامره ونواهيه.

القضيّةُ الثالثة:

الأمر بطاعة الرسول ﷺ، بقوله تعالى: ﴿وأطيعوا الرسول﴾ أي: يا أيها الذين آمنوا، لِيُطِعْ كلُّ فرد منكم الرسول في كلّ ما يأمر به، وفي كلّ ما ينهىٰ عنه، سواءٌ أكان المطلوب من الأمور التي لها صفة العمل الفردي، أو من الأمور التي لها صفة العمل الجماعي.

فطاعة الرسول ﷺ جزءٌ من طاعة الله عزّ وجل، لقول الله عزّ وجل في سورة (النساء) أيضاً:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

والرّسول مأذون بالتفويض الإلٰهي في أن يأمر وينهىٰ وراء ما يبلّغه عن ربّه، إذْ هو معصوم عن الخطأ في بيان الشرائع الربّانيّة، ابتداءً أو بالمتابعة والتسديد.

وقد جاء التصريح بأنّه مأذون من الله بأن يأمُرَ وينهى في الشرائع في القيادة والإدارة، وهذا شامل لكلّ الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام، فقال الله عزّ وجلّ فيما يأتي من النصّ الذي نتدبَّره:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ... ﴿٦٤﴾﴾.

فدلّت هذه النصوص على أنّ كل رسُولٍ أرسله الله قد أذن الله له بأن يأمر وينهىٰ وراء تَبْليغه ما أمر الله به ونهى عنه، وأنّ أمّته الذين استجابوا لدعوته فآمنوا قد أمرهم الله أمراً مباشراً بطاعته، دون البحث عن الدليل الخاص الذي استند إليه الرسول في الموضوع الذي أمر به أوْ نَهىٰ عنه.

القضية الرابعة:

الأمر الربّاني للمؤمنين بأن يطيعوا أُولي الأمر منهم، فقال الله عزّ وجلّ ﴿وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ أي: وأصحاب الأمر منكم.

أمّا أولو الأمر فهم كلُّ من جعل الله له ولاية ما على رعيّةٍ ما، بدءاً بأمير المؤمنين والخليفة الأعلى، وتنازلاً إلى كلّ ذي ولاية، حتى الزوجِ في ولايته على زوجته وأولاده، والأم في ولايتها على من هم تحت رعايتها من أولادها. كلٌّ في حدود رعّيته، وفي حدود اختصاصه.

(١) فأصحاب السُّلطة التنفيذيّة والحكّام الإداريّون وكلّ من له ولاية عامّةً أو خاصة، يدخلون في عموم «أولي الأمر» ضمن حدود دوائرهم واختصاصاتهم.

(٢) وأهل الاجتهاد والاستنباط من العلماء المجتهدين الموثوقين، الذين يستنبطون الأحكام الدينيَّة من مصادرها التشريعية، يدخلون في عموم «أولي الأمر» ضمن حدود اختصاصاتهم.

(٣) وأهل الحلّ والعقد في كلّ اختصاص من الاختصاصات، كالصحّة، والاقتصاد، والتعليم، والإدارة، والسياسة، وغير ذلك، يدخلون في عموم «أولي الأمر» ضمن حدود دوائرهم واختصاصاتهم.

وهكذا..

ونلاحظ في الآية أنّ الله عزّ وجلّ لم يُعِدْ فعل الأمر بطاعة أولي الأمر من المؤمنين، كما فعل في الأمر بطاعة الرسول، بل اكتفى بالعطف المباشر، أي: لم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم.

ونستطيع بالتأمل مع دلالات نصوصٍ أخرى أنْ نفهم أنه سبحانه قد دَلّ بهذا على أنّ طاعة أولي الأمر من المؤمنين ليست مطلقةً، كما هي حال طاعة الرسول.

وبالبحث ومتابعة تدبُّر سائر النصوص من الكتاب والسنّة، نعلم أنّ طاعة أولي الأمر من المؤمنين مشروطة بشرطٍ عامّ، وهو أن لا يكون أمرهم أو نهيهم في معصية لله أو الرسول، أو في تغييرٍ أو مخالفةٍ لحكم اللّهِ أو الرسول في أيّةِ قضيّةٍ من القضايا.

فليس لأولي الأمر تفويض مطلق، بل لهم إذْنٌ مقَيَّدٌ في أن لا يكون في معصية الله أو رسوله، أو في مخالفة لحكم جاء عن الله أو رسوله.

وطاعة أولي الأمر مشروطة أيضاً بأن يكونوا من المؤمنين، أمّا طاعة من يتولّى أمور المؤمنين من غير المؤمنين، فلا تدخل في عموم هذا الأمر الرّبّاني، وهي قضية تخضع ــ في غير معصية الله ورسوله ــ لمقتضيات جلْب المصالح والمنافع، ودفع المضار والمفاسد، بحكم الضرورة.

وقد دلّت النصوص على أنّ الطاعة إنّما تكون في المعروف، فلا تكون في المنكر، وأنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وبنظرة عامّة فاحصة نكتشف أنّ طاعة أولي الأمر من المؤمنين تكون على وجوه، فمنها الوجوه التالية:

الوجه الأول: مباحات عامّة يأمرون أو ينهون عن شيء منها.

الوجه الثاني: أن يكون تكليفهم بياناً في فتوى شرعية، أو إعلاناً إداريّاً، أو تنفيذاً قضائيّاً، لحكم الله أو حكم رسوله.

وفي هذا ليس لأولي الأمر من المؤمنين على من هم تَحْتَ وِلايتهم من المؤمنين أيُّ حكم استقلالي، إنما يستخدمون سلطانهم لحمل من هم تحت ولايتهم على تطبيق أحكام الله ورسوله، أو كشفها وبيانها لهم، وتعريفهم بها.

الوجه الثالث: أن يستنبطوا أحكاماً دينيّة بطرق الاستنباط الشرعية المأذون بها لأهل الاجتهاد في استنباط أحكام الدين، كَفَهْمِ النصوص، أو القياس عليها بإدراكات استنباطيّة تختلف فيها إدراكات أهل الاستنباط من المجتهدين، والهدف منها التعرُّف على حكم الله ورسوله، وهذا من خصائص فئة من المؤمنين ذات أهلية لهذه المهمّة.

وبعد استنباط الحكم الذي يراهُ أهل الاجتهاد، يوجّه أولو الأمر من المؤمنين الأمرَ به، فيكون واجب الطاعة.

الوجه الرابع: أن يضعوا أنظمة إدارية لتنظيم أمور المؤمنين المدنيّة، وهذا من خصائص ذوي الأهلية لوضع الأنظمة الإدارية المدنية. وبعد اعتمادها من ذوي الاختصاص، يوجّه أولو الأمر من المؤمنين الأمر بها، وعندئذٍ يجب على المؤمنين طاعة الأمر والعمل بها.

وهذه خاضعة لاحتمالات التغيير والتبديل، بحسَب المصلحة التي يراها ذوو الاختصاص، ويأمر بها بعد ذلك أولو الأمر.

القضيّة الخامسة:

ما تضمّنه قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾:

أي: فإن تنازعتم يا أيُّها الذين آمنوا في شيءٍ من الأحكام، أو الأوامر التي يوجّهها أولو الأمر من المؤمنين، فقال بعضكم: إنّ حكم الله، أو حكم رسوله في هذه المسألة كذا. وقال آخرون منكم: بل حكم الله أو حكم رسوله فيها كذا. أو قال بعضكم: إنّ هذا الأمر التنظيمي ليس فيه معصية لله والرسول. وقال آخرون منكم: بل فيه معصية لله والرسول. فإنّ عليكم جميعاً أن تردُّوه إلى الله والرسول، أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله، لمعرفة الحكم الشرعيّ منهما.

وطريق الردّ إلى الكتاب والسُّنة هو الردّ إلى أولي الأمر من أهل الاستنباط المجتهدين، الذين يبحثون في آيات كتاب الله، وفيما صحّ من سنة رسول الله، للتعرّف على حكم الله ورسوله، فيما قام حوله التنازع، كما قد جاء التصريح بأنّ المجتهدين أهلَ الاستنباط همُ الذين يعلمون بالاستنباط الحقّ والصواب في قضايا المسلمين العامّة، من قضايا الأمن والخوف، أي: السّلم والحرب، فقال تعالى في سورة (النساء):

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ ... ﴿٨٣﴾﴾.

أي: إلى الرسول في حياته وتحت قيادته، وإلى أولي الأمر منهم إذا كانوا في سراياهم أو أقاليمهم بعيدين عن الرسول، ثم بعد وفاته ﷺ في كلّ الأحوال.

وهذا الرّدّ إلى الله والرسول، عن طريق اكتشاف أهل الاجتهاد والاستنباط، الذين يُحْسِنُون تدبُّر كلام الله في القرآن، وفهم بيانات الرسُول عليه الصلاة والسلام، في حال التنازع في الأمْرِ الْمُهِمّ، يَدُلُّ على أمرين:

الأمر الأول: أنّ المؤمنين متى أجمعوا على أمر ولم يتنازعوا فيه، فإنّ حُكْمَ اللّهِ فيه، أَوْ وَجْهَ الْحَقّ والصَّواب، أو الوجْهَ الأحْسَنَ والأفْضَل، هو فيما أجمعوا عليهِ، وهذا من عصمة الله لجماعة المؤمنين في هذه الأمّة مِنْ أَنْ تَجْتَمِعَ فَتُجْمِعَ عَلَىٰ ضلالة.

إذْ جعل النّصّ الرّد إلى الله والرسول مُقيّداً بظاهرة التنازع، فدلَّ على أنّه لا رَدّ

في حالة الإجماع، نظراً إلى أنه لا يكون إجماع للمؤمنين على ضلالة، ولا على أمرٍ فيه معصية لله ورسوله.

وقد روى البخاري ومسلم عن المغيرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ».

فإذا اتفقَتْ أُمَّةُ مُحمَّدٍ على أمْرٍ فهو الحقّ والصواب، أو الأحسن والأفضل، إذْ تدخل فيهم الطائفة التي هي على الحقّ، والتي لا تزال في أمّة محمد ﷺ.

وإذا اختلَفُوا وتنَازَعُوا فالحقّ والصواب، أو الأحسن والأفضل، ما عليه طائفة منهم، وهذه الطائفة ظاهرة بيّنة، ليست خفيَّةً ولا مستُورة.

الأمر الثاني: أنّ مَنْ لم يكن أهلاً لاستنباط خفايا الأحكام من مصادرها، أو استنباط وجه الحقّ والصواب، أو الأحسن والأفضل من أماراته، فلا يجوز له أن يتصدّى للاستنباط ويَبُتَّ فيه رأياً.

وباستطاعتنا أن نفهم من الإحالة على أهل الاستنباط من المؤمنين، أنّه إذا بقي التنازع والخلاف الاجتهاديّ، فالترجيح العقليُّ يقضي بترجيح رأي الأكثرية من أهل الاستنباط المعاصرين، وهذا قابل للتعديل في أزمان لاحقات، فقد يختلف الترجيح، أو يكثر عدد الذين كانوا قلة في زمن سابق، أو يحصلُ إجماعٌ لاحقٌ، وعندئذٍ يكون ما أجمعوا عليه هو الحق والصواب، أو الأحسن والأفضل.

وقد جاء تقييد الأمر بالرّد إلى الله والرسول بقيد: ﴿إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ للإشعار بأن عدم الرّدّ إلى الله والرّسول من الأمور المنافية لمقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر، وذلك لأمور:

(١) لأنّ الإيمان بالله يدفع إلى معرفة حقّ الله على عباده، وإفراده بالعبادة، ومنها طاعته والعمل بأوامره ونواهيه، وتطبيق أحكام شريعته لعباده.

(٢) ولأنّ الإيمان باليوم الآخر يدفع إلى طاعة الله في أوامره ونواهيه، بدافعي الرغَب بثوابه في دار النعيم، والرَّهَب من عذابه وعقابه في دار العذاب.

ويُمْكِنُ أنْ يكون قيداً لكلام مطويّ تقديره كما يلي:

وأنتم تردّونه إلى الله والرسول إنْ كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر.

والغرض بيانُ أنّ المؤمنين الذين يكون إيمانهم صحيحاً سليماً صادقاً حاضراً في تصوّراتهم فإنّهم يردُّون كلَّ شيءٍ يتنازعون في حكمه إلى الله والرّسول بدوافع من إيمانهم الصحيح الصادق الماثِل في تصوُّراتهم.

وقوله تعالى: ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ أي: ذلك الرّدّ الذي هو رفيع المقام في مراتب الدِّين هو خير لكم أيها المؤمنون، وهو أَحْسَنُ تأويلاً، أي: إرجاعاً من أن تردُّوا ما تنازعتم فيه من أمرٍ إلى حكم آخر، كتحكيم العقل، أو العرف، أو القوانين الوضعيّة، أو تحكيم الطاغوت، أو غير ذلك. وهو أيضاً أحسنُ عاقبة يؤول أمركم إليها.

* * *

الفقرة الثانية: عرض ظاهرة تحاكم المنافقين إلى الطاغوت، وتركُهم التحاكمَ إلى كتاب الله وإلى الرسول في خصوماتهم، على خلاف مقتضيات الإيمان، دلّ عليها:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾.

أَلَمْ تَرَ: الخطابُ للرَّسُولِ أوّلاً، ثم من بعده إلماحاً وتعريضاً لكلّ من يَصْلُحُ لأن يخاطب به، حتّى المنافقين المتحدَّث عَنْهم في النّصّ، للتعجيب من سلوك المنافقين المتناقض، بين ادّعاء الإيمان والعمل بخلاف مقتضياته من التحاكم في خصوماتهم إلى الطاغوت، مع إرادة ذلك عن تصميم.

والمعنى: انظر تجد سلوكاً متناقضاً عجباً، لفئة من المنتمين إلى الإسلام، وهم

الذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أُنزِلَ إليك يا محمد، وما أنـزل من قبلك، وهم مع ذلـك يُريدون أنْ يتحاكموا إلى الطاغوت.

لقد جاء التعبير بأنّهم ﴿يُريدون﴾ بصيغة الفعل المضارع الذي يدلُّ على الحركة المتجدّدة، لإفادة أن سلوكهم لم يكن نتيجة نزوة طارئة، أو شهـوةٍ عارمـة، أو رغبةٍ في المعصيةِ عارضة، وإنما كـان نتيجة عمـل إراديّ قلبـيّ متجددّ، لا يكـون في العادة إلاّ أثراً لعقيدة مضادّةٍ لادّعاءِ الإيمان بالله ورسـوله، وهـذا يدلُّ على أن إعـلانَهُم بألسنتهم أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وهو القرآن، ومـا أُنزل من قبلك وهـو التوراة ومـا أنزل على أنبياء بني إسرائيـل، إعلانٌ كـاذب، فهو أحـرى بأن يكـون زعماً، لا خبـراً يترجح فيه الصدق، أو يُظَنُّ فيه الصدق.

ولمّا كانوا يُكرِّرُون دواماً هذا الإعلان جاء التعبير عنه بقوله تعالى: ﴿يَزْعُمـون﴾ بصيغة الفعل المضارع.

أي: فهم بتكرارٍ يَدّعون الإيمانَ ادّعاءً كاذبـاً، وهم بتكرارٍ يُـريدون أن يتحـاكموا إلى الـطاغوت، أي: إلى غيـر حكم الله ورسولـه ـ وقد سبق بيـان هـذا فيمـا ورد من أسباب النزول ـ مـع أنّهم قد أُمِـرُوا بأنْ يكفُـرُوا بالـطاغوت، وذلـك في عدّة نصـوص قرآنية منها ما يلي:

* قول الله عزّ وجل في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾.

* وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

* وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ

فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾:

أي: والكافر بالشيء لا تتوجّه إرادته بتصميم للتحاكم إليه، فتوجُّه الإرادة له دليل عدم الكفر به.

وإرادتهم التحاكُمَ إلى الطاغوت ضلالٌ بعيدٌ عن دائرة الإيمان والعملِ بمقتضاه، وتحاكُمُهُم الفعلي إلى الطاغوت ضلالٌ بعيد عن صراط الإسلام، وكلٌّ مِنْ هٰذيْنِ الضلالين يطابق مراد الشيطان فيهم، إذْ هو يُريد أن يجدهم ضالّين عن دائرة الإيمان، وعن صراط الإسلام ضلالاً بعيداً.

ألم يتعهّد بإغواء ذُرّيّة آدم أجمعين إلاّ عباد الله منهم المُخْلَصينَ والمُخْلِصِينَ، منذ حكم الله عليه بالغواية إذْ عصى أمر الله، وأصرَّ على عصيانه، ولم يتراجع ولم يَتُبْ ولم يستغفر؟

وقد أبان الله عزّ وجلّ إرادة الشيطان المتجدّدة دواماً أن يَضِلَّهُمْ ضلالاً بعيداً في النصّ الذي نتدبّره، فقال تعالى:

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾.

وإذا كان الشيطان يُريدُ دواماً أنْ يُضِلَّهُمْ، فهو يتخذ دواماً كلّ ما يستطيع من وسائلِ إغواءٍ لإضلالهم، وحين يَضِلُّون خروجاً عن دائرة الإيمان، أو خروجاً عن صراط الإسلام، فإنّهم يحققون في أنفسهم مراد الشيطان فيهم، إذْ إنّ أكبر همّه أن يجدهم يوم الدين في جهنّم يُعَذَّبُونَ معه.

ومن دلائل نفاق هؤلاء، وأنهم ليسوا مجرّد عصاةٍ بدوافعِ نَزَواتٍ أو شَهواتٍ أو نَزَعاتٍ عارضاتٍ، أنّهم إذا ذُكِّرُوا باللّهِ واليوم الآخر، وقيل لهم: تعالَوْا إلى ما أنزل اللّهُ في كتابه فاعْمَلُوا به، وتَعالَوْا إلى رسول الله ﷺ ليحكُمَ بَيْنَكُمْ، كانَ رَدُّ فعلهم التّلْقائيُّ السّريع الذي يَصْدُر عنهم دون رويّة، باعتباره أثر كُفرٍ مُستَقِرٍّ في النّفس، هو

أن يصدُّوا عن الرسول أو عنْ دعوةِ الدّاعي إليه صُدُوداً كاشفاً هُوِيّتهم الحقيقيّة، ودالاً على أنّهم منافقون.

ومن هذا نعلم أن ردود الأفعال التلقائيّة كواشفُ لما في البواطن، والله يُعلِّمنا هذا الأسلوب من أساليب اختبار المنافقين، فقال الله عزّ وجلّ في النص:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾.

أي: أمّا غير المنافقين فتكونُ لهم أحوالٌ أخرى غير هذا الصُّدود الكاشف للنفاق.

فالذي لا يكون منافقاً يُلاحظ أنّ ردّ فعله استجابةٌ للدعوة، وتوبةٌ، أو لينُ وسكينةُ نفس، أو محاولةٌ ما للتغلّبِ على الهوى، بقدر قوة الإيمان لديْه، وقوةِ إرادته الإيمانيّة في التغلب على دوافع النفس المضادة.

إنّ وضع كلمة ﴿المنافقين﴾ في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ المنافقين يَصُدُّون عنْك صدوداً﴾ بدل الضمير، إذ كان السياق في البيان العادي، يقضي بأن يكون النص: رأيتهم يَصُدّونَ عنكَ صُدوداً. قد دلّ على هذه المعاني التي وضحت لنا آنفاً، ودلّ على أنّهم بسلوكهم الماديّ الإيجابي بتحاكُمِهِمْ إِلَىٰ الطّاغُوت، والسُّلْبيّ بصدودهم التلقائي السّريع عن الاستجابة لدعوة الداعي إلى التحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، قد كشفوا كُفرهم الباطن، ونفاقهم فيما يدَّعون بألسنتهم فصارت إدانتهم بالنفاق مقترنة بالسلوك الماديّ الذي يدلُّ على حقيقتهم.

لذلك اقتضىٰ الأداء البيانيُّ الرفيع إعلان أنّهم منافقون، وتركَ الكناية عنهم بالضمير، والعدولَ عنه إلى الاسم الصريح، وهو وصفهم بأنّهم منافقون. مع ما في هذا الأسلوب من دلالة احترازية لإخراج عصاة المؤمنين من غير المنافقين، وهم الذين إذا ذكّروا بالله واليومِ الآخر، لأنوا، ولَم يَصُدُّوا هذا الصدود، وكان منهم سلوك ما يدلّ على عدم نفاقهم.

فكشف النص واقع التباين بين ما يُعْلِنُه المنافقون دواماً، وما يكون من سلوكهم،

وهذا أمر مثيرٌ للعجب حقّاً، أليس عجيباً أنْ يُكذِّبَ الواقع العمليّ الدعوىٰ الكلاميّة، وأن يظهر ما بينهما من تبايُن وتناقض؟!

إنَّ الأمر المنطقيّ الطبيعيّ الذي لا يثير العجب والاستغراب، هو التطابق بين الادّعاء والواقع، أمّا التناقض أو التضادّ بينهما فهو المثير للعجب حقّاً.

هذا ما دلّ عليه الاستفهام التعجيبي في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ . . .﴾.

إلى آخر النص، فهي تثير التَّعَجُّبَ من واقع حالهم المتناقض بين الادعاء والسلوك.

الفقرة الثالثة: طرح احتمال تمكين اللّٰهِ رسُولَه من معاقبتهم على نفاقهم الذي ظهرت آماراته، مَعَ بيان تَعِلّاتهم التي ستكون منهم للاعتذار عن سلوكهم، دلَّ عليها:

* قول اللّٰهُ عزّ وجلّ:

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾.

أي: فكيف تكون حالُهم، إذا أذِنّا لك يا محمّد بمعاقبتهم على نفاقهم الذي ظهر لك من أماراته ما يدينهم بالكفر والرِّدّة، فحلّت بهم مصيبة حكمك عليهم بالرِّدة، التي تجعل دماءهم مستباحةً بسبب ما قدّمَتْ أيديهم؟

والجواب المطويّ الذي لم يذكر في النصّ، ونستطيع فهمه: هو أنّهم سيصابون بالهلع والخوف الشديد عندئذٍ، فيفكِّرُونَ في انتحال الأعذار الّتي يرون أنها تخرجهم من مواقع الإدانة فالعقاب، ثمَّ يسعَوْنَ إليكَ مذعورين، يحلفُون باللّٰه على أنّهم ما أرادوا بعملهم إلّا إحساناً وتوفيقاً.

وبالتأمل في واقع حالهم، والتفكر فيما يمكن أن يقدّموه من عذر، يظهر لنا أنّهم يعتذرون بأمرين:

الأمر الأول: أن خصومتهم مع كافر غير مسلم، فهم لا يريدون أن يضعوا الرسول موضع الاتّهام والتجريح من قبل أهل الكفر، إذْ رُبّما اتّهموه بمحاباة من هو

مؤمن به، فمن الإحسان إلى الرسول إبعاده عن مواطن الاتهامات والشبهات، بالتحاكم إلى غيره من غير المسلمين.

الأمر الثاني: أنّهم لم يتحاكموا إلى الطاغوت ليحكُم بينهم بدل حكم الله ورسوله، وإنما ذهبوا إلى بعض أهل الخبرة في حلّ الخصومات، من غير المسلمين، ليوفق بينهم وبين خصومهم توفيقاً يقوم على المصالحة وترضية الفريقين، لا على الحكم بينهما بحكم مخالف لحكم الشرع.

دلّ على هذين الأمرين قولهم: ﴿إنْ أردنا إلاّ إحساناً وتَوْفيقاً﴾ أي: ما أردنا ألاّ إحساناً للرسول، وإجراء توفيق بيننا وبين خصمنا، وليس في هٰذَيْنِ الأمْرين منافاة لقاعدة الإيمان، ولا لصراط الإسلام.

ويُؤكّدون هذا الدفاع عن سلوكهم لتبرئة أنفسهم بالحلف بالله، والحلف بالله حجّةُ من لا بيّنَةَ له، فهو من أكبر وسائل الكذّابين والمنافقين، ولا سيما حين يتحدَّثون عن سرائرهم، وضمائرهم.

* * *

الفقرة الرابعة: المنهج الربّاني في معالجة المنافقين حول مثل هذه الظاهرة من ظواهر سلوك المنافقين، يبينه:

* قول الله عزّ وجل:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾﴾.

أولئك: أشار الله إليهم بإشارة البعيد، تعبيراً عن انحطاط دركتهم وبعدها الشديد إلى الأسفل. والمعنى: أولئك البعداء جدّاً عن الإيمان وعن مواطن القرب من الله ومن رحمته، أولئك: يعلم الله ما في قلوبهم من كفر، مع تظاهرهم بالإسلام نفاقاً، فلا تَشْغَلْ قلبك يا محمّد بهم، ولا توجّه جهودك لمعاقبتهم على ما بدر منهم من دلائل نفاقهم وعامِلْهُمْ وفق هذا المنهج ذي المراحل الثلاث:

المرحلة الأولى: أعرض عن معاقبتهم ومؤاخذتهم على ما بدر منهم، وأعطهم

من وجهك إعراضاً يُشْعِرُهم بأنك مستاءٌ ممّا فعلوا، ويُشْعرهم بأنك خبيرٌ بما فعلوا.

المرحلة الثانية: عِظْهُمْ بالتحذيرِ منْ مَغبَّة تحاكمهم إلى غير حكم الله ورسوله، وبالإطماع بثواب الذين يُحَكِّمُون كتاب الله وسنَّة رسوله في كلِّ ما شجر بينهم، وبما يُصَحِّحُ إيمانهم ويقوّيه ويرسّخه.

فالوعظ هو النصح بما هو خير، مع التحذير من المخالفة بسوء العاقبة، ومع تليين القلب بوسائل الإقناع والترغيب.

المرحلة الثالثة: قل لهم في أنفسهم، أي: في سِرِّهم، أو في شأن حقيقة أنفسهم، قولاً بليغاً، أي: بالغاً عمق وجدانهم، حيث تكون غاية التأثير.

وإذا أمعنا النظر في نوع هذا القول البليغ، لم نجد أبلغ من أن يكشف الرّسول لهم في كلام يُسِرّ لهم به، حقيقة نفاقهم الذي يكتمونه، مع بعض أعمالهم التي يخفونها، ممّا يدلّ على أنهم منافقون، ليعلموا أنّهم مكشوفون للرسُول، وأنّ الله عزّ وجلّ قد أطلعه على سرائرهم، فما يتظاهرون به من إسلام ومتابعة إنما هو نفاق، وما يقدّمونه من معاذير وتعلّات، لا يقبلها الرسول مصدّقاً لهم، وإنّما يقبلها لأنّ السياسة اقتضت أن يعاملهم بحسب ظواهرهم، لا بحسب بواطن سرائرهم، وما يُخْفُون في صدورهم.

وبعد أن يكشف لهم في سرّهم ما يَعْلَمُه من حقيقة أمرهم، يتوعّدهم بإعلان حقيقة كفرهم أمام المسلمين، وعندئذٍ فلا بدّ أن يُدانُوا ويعاملوا معاملة أهل الكفر، أو أهل الرِّدّة.

* * *

الفقرة الخامسة: بيان أنّ كلَّ الأمم مأمورون بطاعة رُسُلهم وهو ما في:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ... ﴿٦٤﴾﴾:

أي: وما أرسل الله من رسولٍ لأمّةٍ من الأمم إلّا جعل هذا الرّسولَ في أمّته قائداً وإماماً يطيعونه بإذن الله، فيجب عليهم طاعته فيما يأمرهم به أو ينْهاهم عنه بإذن الله،

من كلِّ أمرٍ داخلٍ في حدود إمامته وقيادته، إذْ أذِن الله له بأن يأمرهم وينهاهم، وكلَّفهم طاعته في ذلك.

فليس محمَّدٌ ﷺ بصاحب خصوصيَّةٍ في هـذا الأمر، بـل كلُّ رُسُـل الله لأقوامهم كانوا بالتَّولية الربَّانيّة والإذن الرَّبّاني كذلك. ونلاحظ أنّ التّنبيه على هذه السُّنّة الـربّانيـة الدائمة في شأن الإلزام بطاعة الأمم لرسلهم، من أساليب التربية النافعة، القـائمة على الإقناع وقاعدة التساوي.

وفي هذا النص حصر بـالنفي والاستثناء، وجيء فيـه بلفظ (مِنْ) الزائـدة لتأكيـد استغراق النفي لكلّ أفراد الرُّسُل.

* * *

الفقرة السادسة: إطماع الّذين تحاكموا إلى الطاغـوت بتوبـة الله عليهم وغفرانـه لهم، إذا استغفـروا الله وتابـوا إليه، وصَـدَقُوا في انتمـائهم إلى الإسـلام، أو صحّحـوا إيمانهم، واستغفر لهم الرسول، دلّ عليها:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾:

أي: ولـو أنّهم بَعْدَ أن ظلمـوا أنفسهم، فلم يَضُرُّوا أحـداً غير أَنْفُسِهِمْ بـالتحاكُم إلى الطاغوت، جَـاءُوك يَا مُحمَّـد، فأعْلَنُـوا تَوْبتهم ممـا فعلَوا، واستغفروا الله، وطلبـوا منك أن تستغفر لهم، فاستغفرت لهم بوصفك رسـولاً، ولذلـك وُضع الـوصف الظاهـر «الرسول» موضع الضمير، إذْ لم يَقُلْ: واستغفرتَ لهم، لوجـدوا الله تَوّابـاً رحيماً، فهـو يتـوب عليهم أي: يعود عليهم بتـوجُّهاتـه كمـا تـابـوا، ويـرحمهم فيغفـر لهم ذنـوبهم، ويزيدهم من فضله رحمةً منه.

فباب التوبة مفتوحٌ لهم ولغيرهم، ما داموا أحياءً، ولم يُقْفَلِ الباب العامّ للتوبة.

وهنا نلاحظ أنّ التربية الرّبّانيّة تقوم باستمرار، على الإطماع بالتوبة والاستغفـار، مهما عظم جُرْمُ المذنب، وتَعِدُ بقبول التـوبة، وبـالعفو والغفـران لمن تاب واستغفـر

صادقاً مخلصاً في توبته واستغفاره، ما دام باب التوبة مفتوحاً.

* * *

الفقرة السابعة: من دلائل صحة الإيمان وصدقه تحكيم الرسول ﷺ فيما شجر بين المسلمين، دون شعور بالحرج من أقضيته، ودون رفضٍ أو عصيان لأوامره ونواهيه، دلّ عليها:

قول الله عزّ وجل:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

جاء في هذا التعبير تكرير حرف النفي، وبينهما قسم، ويمكن أن نفهم هذا التعبير بأحد وجهين:

الوجه الأول: أن يكون: «وربّك لا» تأكيداً بالقسم وحرف النفي الثاني، لحرف النفي الأول. والأصل: «لا. لا» تأكيداً، وجاء القسم بينهما تأكيداً مضافاً لحرف النّفي الثاني، وهذا من أساليب تأكيد النفي عند العرب.

الوجه الثاني: أن يكون حرف «لا» الأول جواباً لسؤال مطويّ، تقديره: أيكونُ الّذين لم يُحَكّموا رسول الله فيما شجر بينهم وبين الآخرين مؤمنين؟

والجواب «لا» ونسمّي هذه حرف جواب، وهي تنفي ما جاء في السؤال، وهذه تُحذَفُ الجمل بعدها كثيراً. ثم جاء تأكيد الجملة بقوله تعالى:

﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾

إلى آخر النص.

والمعنى: وربّك يا محمّد لا يكونون مؤمنين صادقي الإيمان أو كاملي الإيمان هم ولا غيرهم، حتى يُحكّموك في كلّ خلافٍ على حقّ متشابك فيما بينهم، كتشابك أغْصَان الشجر بعضها في بعض، الأمر الذي أحدث خصومة بينهم.

ولا يكفي مجرّد تحكيمهم لك، بل لا بُدّ أن يتحقّق فيهم أمران آخران يأتيان بعد أن تقضي بينهم:

الأمر الأول: ألاّ يجدوا في داخل أنفسهم حرجاً «أي: ضيقاً وانزعاجاً» ممّا قضيت به عليهم.

وهذا التكليف موجّه لحركة نفوسهم الإراديّة التي يؤثر فيها صدق الإيمان.

الأمر الثاني: أن يُسلّموا تسليماً كاملاً، فلا يعارضوا ولا يمانعوا في تنفيذ قضائك، بل يسارعون في تنفيذه مسلّمين مستسلمين. وهذا التكليف موجّه لتصرفاتهم الماديّة الظاهرة.

ويتساءل المتدبّر: هل المراد نفيُ دخولهم في دائرة الإيمان إذا أرادوا ذلك؟ أو نفي ارتقائهم إلى مرتبة الإيمان الماثل في التصوّر والمؤثر في السلوك بالتوبة، وترك العصيان؟

وأُجيبُ بأن التعبير في الآية يصلح للأمرين معاً، وذلك كما يلي:

(١) فهو بالنسبة إلى المنافقين يدلُّ على أنهم لا يدخلون في الإيمان الصحيح، حتّى يتخلّصوا من نفاقهم بصدق الإيمان، فيكون من آثاره تحكيم الرسول فيما شجر بينهم...

(٢) وهو بالنسبة إلى المؤمنين العصاة يدلُّ على أنهم لا يرتقون إلى مرتبة الإيمان الماثل في التصوّر، والمؤثر في سلوكهم، حتى يظهر من آثاره تحكيم الرسول فيما شجر بينهم...

وقد سبق في النصّ ما يشير ضمناً إلى هذا الصنف في قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾:

أي: أمّا غير المنافقين من الذين قد يتحاكمون إلى الطاغوت فإنّهم لا يَصُدُّونَ صدوداً منكراً، بل يتعظون، أو تلين قلوبهم، أو تكون منهم محاولات ما للتغلّب على أهوائهم، بمقدار نسبة ما لديهم من إيمان عامل مؤثر، كما سبق بيانه.

الفقرة الثامنة: استثارة دافع الاقتداء بأسلافهم، مع بيان أنهم أسوأ حالاً ممّا كان عليه أسلافهم حين كانوا يذنبون، دل عليها:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ... ﴿٦٦﴾﴾.

قرأ ابن عامر فقط: [إلّا قليلاً مِنْهُمْ].

فالرفع على أنه بدل من الضمير في «ما فعلوه» والنصب على الاستثناء من الكلام المنفي.

وهما وجهان جائزان عند النحاة.

أي: ولو أنّا كتبنا فريضةً عليهم لِيُكَفِّروا عن ذنبهم الذي ارتكبوه بتحاكُمهم إلى الطاغوت، كما كتبنا فريضةً على أسلافهم الذين عبدوا العجل:

﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾:

«أنْ» حرف تفسير، و﴿اقْتُلوا أنفُسَكُم﴾ بيان للفريضة التكفيريّة التي كتبها الله على أسلافهم، ويَذْكُر الله أنّه لو كتبها على هؤلاء ما فعلوا القتل لأنفسهم إلّا قليل منهم.

وكذلك لو أنّا كتبنا فريضةً عليهم من الفرائض الجهاديّة أنْ يخرجوا من ديارهم، كما كتبنا فريضةً جهاديّة على أسلافهم أن يخرجوا من مصر مهاجرين مجاهدين بقيادة موسى وهارون عليهما السلام، ما استجاب من هؤلاء الْخُلُوف لأمْرِ التكليف إلّا قليل منهم.

إذن: فهؤلاء أسوأ حالاً من أسلافهم اليهود، مع ما كان عليه أسلافهم من سوء حال، وقسوة قلب، وفسق ومعصية لله عزّ وجلّ ولرسله.

وبهذا نلاحظ أنّ الآية تُشعر بأنّ هؤلاء المنافقين قد كانوا من منافقة اليهود، وهو ما جاء في طائفة من روايات أسباب النزول.

* * *

الفقـرة التاسعـة: عَوْدٌ إلى معـالجتهم بـالـموعـظة المشتملة على التـرغيب، دل عليها:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾.

في هذه الفقرة من النصّ شرط وجزاء:

* أمّا الشرط فهو:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾.

والذي يوعظون به في موضوع هـذا النص نستخلصه ممـا سبق من بيان فيـه وهو ما يلي:

(١) طاعة الله عزّ وجلّ.

(٢) طاعة رسوله ﷺ.

(٣) طاعة أولي الأمر منهم.

(٤) ردّ كلّ ما يتنازعون فيه من أمور الدين إلى الله والرسول.

(٥) عدم التحاكم إلى الطاغوت.

(٦) تحكيم الرسول فيما شجر بينهم.

(٧) الرضا النفسي الكـامل بحكم الـرسول، دون شعـور بالضيق والكـراهيـة، ولو خالف الهوى.

(٨) التسليم الكامل، بتنفيذ ما يقضي به الرسول دون معارضة ولا تهرّب.

(٩) التوبة والاستغفار بعد أن ظلموا أنفسهم.

* * *

* وأمّا الجزاء فهو عطاءٌ ربّاني يتكوّن من أربع ثمرات:

الثمرة الأولى: ماذلّ عليه قوله تعالى: ﴿لَكَانَ خيراً لهم﴾ أي: لنالُوا بفعلهم ما يُوعظون به خيراً ممّا يفوتهم من دنياهم بسببه، إذْ يُعوِّض الله عليهم من فضله ما هو أفضل وأحسن، كسعةٍ في الرزق، وطمأنينةٍ في النّفس، وسلامةٍ، ومجد، إلى غير ذلك من مطالب الحياة الدنيا التي كانوا يرجونها بالتحاكم إلى غير حكم الله ورسوله، وهذه الثمرة هي إحدى سنن الله في عباده في الحياة الدنيا.

الثمرة الثانية: ما دَلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾:

أي: ولكان فعلُهُمْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ أشدّ تثبيتاً لهم في الإيمان، وفي أماكنهم بين المسلمين، وهذا التّثبيتُ يَصرفُ عنهم قلق النفس الذي يجلبُهُ النفاق، أو تجلبُه المعصية التي هي ثمرة ضعف الإيمان، ويَصْرِف عنهم الخوف من انكشاف حالهم للمسلمين الذي قد يعرّضهم للعقاب والمؤاخذة، ويجعل لهم تمكيناً راسخاً مطمئنّاً بين صفوف المسلمين، الأمر الذي يَجْنِي لهم نفعاً عظيماً، إذْ به ترتفع أقدارهم، وبه يكتسبون الثّقة الاجتماعية، فتنفتح لهم في المجتمع الإسلامي أبوابٌ كثيرة من الخير الذي يرغبون فيه، ويكونون فيه أصحاب وزْنٍ اجتماعيٍّ ثقيل، وهذا من التثبيت.

وهذه الثمرة هي إحدىٰ سُنَن الله في الأَنْفُس، وفي الاجتماع البشري.

الثمرة الثالثة: ما دلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾:

أي: وَلآتَيْنَاهم في الآخرة يومَ الدّين أجراً عظيماً، وهذا الأجر العظيم يكونُ في جنّات النعيم، التي جاء وصفها في نصوص كثيرة من القرآن الكريم.

ولمّا كانت هذه الثمرة أمراً أخرويّاً على خلاف الثمرتين السابقتين، بدأها الله عزّ وجلّ بحرف «إذاً» الذي هو حرف جواب وجزاء، مع أنّ البَيَان كان يكفي فيه: ولآتَيْنَاهم من لَدُنا أجراً عظيماً. لكنّ إضافةَ حرف «إذاً» لا بُدّ أن تُشْعِر بشيء، فما هو هذا الشيء الذي استدعى الاهتمام بذكر هذا الحرف الذي هو للجواب والجزاء، والكلام معطوفٌ على ما فيه «اللام» الواقعة في جواب الشرط؟

أقول: إنّه التنبيهُ على أنه جزاءٌ أخروي عظيم جدّاً، وليس هو من نوع ما سبق حتى يُعطف عليه عطفاً عاديّاً.

الثمرة الرابعة: ما دلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

الصراط المستقيم هو صراط الله المبيّن في الإسلام بمعالمه الكبرى، وكثير من تفصيلاته، أمّا سائر التفصيلات التي تحتاج إليها مستجدّات الحياة فتقاسُ عليها، ويُسْتَهْدَىٰ فيها بهديها.

لكنّ إدراكَ تفصيلات هذا الصراط يحتاج إلى هداية خاصّة، زائدةٍ على البيان العامّ، وزائدةٍ أيضاً على ما يستنبطه المجتهدون، من أهل الاستنباط.

والهداية إليها تحتاج معونةً من الله وتوفيقاً، فالذين يَفْعَلُون ما يوعظون به ممّا سبق بيانه، يُمِدُّهم الله بمعونته، ويوفقهم، ويُنوِّرُ بصائرهم لمعرفة الحقّ في الأمور، وإدراك وجْه الخير، ومعرفة الأنفع والأقوم والأصلح، ويَصْرِفُ عنهم وساوس الشياطين وتسويلاتهم، التي تُبعدهم عن الصراط المستقيم في مسيرتهم في حياتهم، وهكذا تكون هدايتهم إلى صراطٍ مستقيم.

أمّا الذين لا يفعلون ما يوعظون به، من طاعة الله، وطاعة رسوله، وطاعة أولي الأمر منهم، وردّ كلّ ما يتنازعون فيه من أمور الدين إلى الله والرسول، وعدم التحاكم إلى الطاغوت، والرضا النفسيّ الكامل بحكم الله ورسوله، دون شعور بضيق أو كراهية، والتسليم الكامل بتنفيذ أحكام الله ورسوله، ومتابعة مخالفتهم بالتوبة والاستغفار، فإنهم سيتخبطون في حياتهم في سُبلٍ ومتاهاتٍ متشعبات، ولا يهتدون إلى صراط مستقيم.

وجاء عطف هذه الثمرة على ثمرة الأجر العظيم في الآخرة، لأنّهما ثمرتان متماسكتان، فالأجر العظيم طريقه الصراط المستقيم.

الفقرة العاشرة: إقفال النصّ ببيان أنّ الذين يطيعون الله والرسول على ما سبق بيانه، سيكونون في جنّات النّعيم يوم الدين رفقاء الذين أنعم الله عليهم من النبيّين

والصدّيقين والشهداء والصالحين، دلّ عليها:

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

في هذه الفقرة ترغيب بالمنازل الرفيعة في جنّاتِ النعيم، مع رفاق أجلاء قد أنعم الله عليهم نِعَماً فائقات، في منازل الفردوس الأعلى، وهؤلاء الرِّفاق هم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

هذه المنازل الرفيعة والصحبةُ الجليلة المجيدة تكون لِمَنْ يُطيعُ الله والرّسول طاعة مستوفية شروطها، على ما سبق بيانه في النصّ.

وقد اشتملت هذه الفقرة على شرط وجزاء، وربط للنصّ بما يلائمه من القاعدة الإيمانيّة:

* أمّا الشرط ففي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ والرَّسُولَ﴾ أي: طاعةً مستوفية كامل شروطها، على ما سبق بيانه في فقرات النصّ التّسع «مَنْ»: اسم شرط جازم».

* وأمّا الجزاء ففي قوله تعالى:

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

﴿فأولئك﴾: الفاء واقعة في جواب الشرط وجزائه، والكلام بعدها هو الجزاء، واسم الإشارة مبتدأ.

أي: فالمطيعون لله والرسول على ما سبق بيانه، وأشير إليهم بإشارة البعيد، تعبيراً عن ارتفاع مكانتهم، وارتقاء درجتهم، وبعد منزلتهم عند الله عن سائر الناس من دونهم.

﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾:

خبر للمبتدأ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ والمعنى هم رفقاء الذين قضى الله بالإنعام عليهم يوم الدين، في منازل الفردوس الأعلى من جنّات النعيم جزاءً لهم بما كان منهم من أعمال صالحاتٍ، وابتغاءٍ لرضوانِ الله، وعملٍ بمحابّه.

وجاء بيانُ أصناف الذين أنعم الله عليهم بقوله تعالى:

﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾.

(مِنْ) لبيان أصناف الذين أنعم الله عليهم، وهم:

(١) النبيّون: وهم يَعُمُّون المرسلين، لأنّ كلّ رسولٍ نبيٌّ، وهم من أهل الفردوس الأعلى في جنّات النعيم، الذين أنعم الله عليهم بفضله العظيم، ولو لم يكونوا أهل المرتبة العليا من عباد الله ما اصطفاهم الله بالنبوّة، وهم على درجات متفاضلات.

(٢) الصدّيقون: الصِّدِّيق هو الدائم التصديق بالحقّ، الذي لا يلوي عنه ولا ينحرف، مهما كانت الدواعي. وهو أيضاً الذي يُصَدِّقُ عملُهُ قولَه، فلا يكون لديه نفاق ولا رياء. وصيغة «فِعِّيل» من صيغ المبالغة السماعية.

وإذا كانت صفة الصدّيق ممّا يتّصفُ به غيرُ الأنبياء من فضلاء المؤمنين، فلا بدّ أن تكون صفةً للأنبياء والمرسلين، ولذلك وصف الله بها إبراهيم عليه السلام وإدريس عليه السلام إشعاراً بأنّ كلّ النبيّين صدّيقون، ووصفَ الذين آمنوا بالله ورُسُلِه إيماناً صحيحاً صادقاً بقوله: أولئكَ هُمُ الصّدّيقون، ويدخل فيهم بداهة النبيون، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ . . . ﴿١٩﴾﴾.

وفي مقدّمة الصِّدِّيقين من أتباع النبيّ محمّد ﷺ سَيِّدُنا أبو بكر رضي الله عنه.

(٣) الشهداء: وهم مَنْ ثَبَتَتْ لهم الشّهادةُ في سبيل الله، بأن جاهدوا جهاداً صادقاً لتكون كلمة الله هي العليا، فقتلوا في سبيل الله.

الشهداء: جمع شهيد، وأصل «الشهيد» صيغة مبالغة لاسم الفاعل «الشاهد»

وهو الحاضر العالم بظواهر أشياء وأحداث أدركها وهو حاضر، فهو يقدّم شهادته بها، وقد أطلق في لسان الشرع وَفق هذا المعنى اللّغوي، في عدة مواضع.

وأطلق لفظ «الشهيد» أيضاً وجمعه «الشهداء» في لسان الشرع على من قتل في سبيل الله، وهذا هو الأصل فيمن يستحقّ هذا الإطلاق.

وسمّى الرسول ﷺ من مات من المؤمنين مبطوناً، أو غريقاً، أو بالحريق، أو تحت الهدم، أو بذات الجنب، أو نحو ذلك شهيداً، وينبغي أن تكون شهادة هؤلاء نوعاً آخر غير شهادة الذين يُقتَلُون في سبيل الله فيكونون أحياءً عند ربّهم يرزقون، كما ثبت في القرآن والسّنة.

وتخصيصُ بعضٍ من يموت من المؤمنين بلقب أو بوصف «شهيد» فيه عدّة احتمالات ذكرها العلماء:

الاحتمال الأول: أنّ لفظ «الشهيد» يطلق في اللّغة على «الحيّ» فَسُمِّيَ الذي يقتل مؤمناً في سبيل الله، محتسباً أجره عند الله شهيداً، إذْ تكونُ له بعد موته حياةٌ عند ربه، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

وقد جاء بيان نوع حياتهم هذه عند ربّهم، فيما رواه مسلم في صحيحه، أنّ عبد الله بن مسعود قال: أما إنّا سألنا عن ذلك «يعني رسول الله ﷺ» فقال: (أي في بيان ما جاء في قوله تعالى: ﴿بَلْ أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقون﴾):

«أَرْوَاحُهُمْ في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعلَّقَةٌ بالْعَرش، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمّ تَأْوِي إلى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلَاعَةً:

فقال: هل تَشْتَهُونَ شَيْئاً؟

قالوا: أيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي ونَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟!

فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا قالوا: يَارَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا في أَجْسَادِنا حَتَّى نُقْتَلَ في سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا».

الاحتمال الثاني: قال ابنُ الأنباري: سُمِّي الشهيد «شهيداً» لأنّ الله وملائكته شُهُودٌ لَهُ بالْجَنَّة، أي: فهو مشهودٌ له بالجنّة، ففعيل على هذا بمعنى «مفعول».

الاحتمال الثالث: وقيل: لأنه حيٌّ لم يمت، فكأنه شاهد أي حاضر، ففعيل على هذا بمعنى «فاعل».

الاحتمال الرابع: وقيل: لأنّه يَشْهَدُ ما أعدّ الله له من الكرامة بالقتل، ففعيل على هذا بمعنى «فاعل».

الاحتمال الخامس: أنّه مشهودٌ له بحُسْنِ الخاتمة، باعتباره قُتِلَ وهُو يجاهد في سبيل الله، ففعيل على هذا بمعنى «مفعول».

أقول: كلّ هذه المعاني صالحة، فلا مانع من ملاحظتها جميعاً في تعليل هذه التسمية، والله أعلم.

(٤) **الصالحون**: جمع «صالح» وقد جاء في القرآن وصفاً للأنبياء والمرسلين، إذ الصلاح شرطٌ لمن هم أدنى مرتبة من الأنبياء، وما هو شرط للمرتبة الأدنى هو شرط للمرتبة الأعلىٰ بداهة.

وجاء وصفاً لمن هم دون الأنبياء من المؤمنين، ودون الأبرار من الصالحين، فقد جاء وصفاً لمن هم أهل الدّرجة العليا من المتقين، فهم من الصالحين أيضاً، ويلحق أيضاً بهم الذين يُقصرون بحقوق هذه الدرجة لكنّهم أوّابون، فقال الله عزّ وجل بشأنهم في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: إنْ تكونوا مستوْفين حقوقَ مرتبَةِ المتقين بتأدية الواجبات وترك المحرّمات بصورة إجمالية عامّة، لكنكُم تُذْنِبون وتخطئون، فتتْبعون ذنوبكم وخطاياكم بالتَّوْبَة إلى الله والاستغفار والرجوع إلى صراط الاستقامة، فإنّه يَغْفِرُ لكم، ولا يخرجكم من

زُمَرِ الصالحين، وهذا فضل من الله دواماً بالنسبة إلى الأوابين الرّجاعين إليه:

﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ۝٢٥﴾.

فلا تخرجكم إذَنْ هذه الذُّنوب والخطايا المتْبُوعَةُ بالتوبة والاستغفار عن زُمْرة الصالحين، وكذلك حال الأبرار إذا كانوا خطّائين أوّابين من باب أولى، وكذلك حال المحسنين بل هم أحقّ.

فالصالحون وصف يطلق على أهل مرتبة الإحسان، وعلى أهل مرتبة البرّ، وعلى أصحاب الدرجة العليا من مرتبة التقوى، ولا تخرجهم الخطايا عن زمرة الصالحين إذا كانوا أوّابين.

هذا ما هدى إليه تدبُّر نُصُوصِ الصالحين في القرآن الكريم.

فمن يُطع الله والرسُولَ يَجْعَلْه اللَّهُ مع هؤلاء الزمر الأربع الذين أنعم الله عليهم يوم الدين في جنات النعيم.

بعد هذا البيان أثنى الله على مرافقة هؤلاء الزّمر، فقال تعالى:

﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

«الرفيق»: المرافق المصاحب، يستوي فيه المفرد وغيره.

«حَسُنَ»: فعلُ مَدْح، يَجْري مجرى «نِعْمَ» وفيه معنى التعجب: أي: أحْسِنْ بأولئك رَفيقاً «أولَئِكَ» فاعل «حَسُنَ» و «رفيقاً» تمييز أو حال.

والمعنى: ونعمتِ الصحبةُ صُحْبَةُ هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، فقد حَسُنَ هؤلاءِ رفيقاً، لأنّ من كان رفيقاً للمنعّمين كان معهم مُنعَّماً، ومن كان رفيقاً للسعداء كان معهم سعيداً.

وأشار الله إليهم بإشارة البعيد تعبيراً عن ارتفاع منزلتهم عنده بالنسبة إلى من دونهم من الذين لا يكونون مع الذين أنعم الله عليهم.

ولكن هل ينالون هذا العطاء الرّبّاني بالاستحقاق الأصلي، أم بفضل من الله؟

ويأتي الجواب في قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

أي: ذلك النعيم الذي يُصِيبُه هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، ويُصِيبُه معهم الذين يطيعون الله والرسول كما سبق به البيان، هو فضل من الله يتفضّل به على هؤلاء الزمر، بوعده الكريم، وليس باستحقاقهم الذاتيّ له.

وفي هذا ربط بعنصر من عناصر القاعدة الإيمانية في الجزاء، وهي أن العقاب بالعدل، وأنّ الثواب بالفضل.

وأخيراً ختم الله عزّ وجلّ ببيان عنصر آخر من عناصر القاعدة الإيمانية، ملائمٍ لما جاء في النصّ، فالامتحان في الحياة الدنيا بالتكاليف الرّبانيّة، ومنها الإيمان، والطاعةُ لأوامر الله ونواهيه، ونيّةُ ابتغاء مرضاة الله في كلّ مطلوب اختياريّ من العباد طلبه الله منهم، لا بدّ أن يكون كلُّ ذلك مُحاطاً إحاطة تامّةً بعلمٍ شاملٍ، يَجْري على وفقه الحسابُ والجزاء بالفضلِ أو بالعدل، لمختلف زُمَرِ المكلّفين على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾:

أي: والله بكلّ شيءٍ عليم، وكَفَىٰ بالله عليماً بكلّ ما يفعل عباده، وبكلّ ما يضمرون في قلوبهم ونفوسهم، من إيمان، أو كفر، ونيات، وغير ذلك وبكلّ ما يُظْهرونه من أعمال صادقة أو كاذبة.

فمن كان منافقاً متظاهراً بأنّه من المؤمنين المسلمين، فالله عزّ وجلّ يَعْلَمُ ما في قلبه، وكفى بالله عليماً يعلم حقيقة ما في القلوب والنفوس، لا تخدعه الظواهر، وهو سبحانه يضع الناس في الدرجات والمراتب بحسب ما يعلم من أحوال قلوبهم وسرائرهم، لا بحسب ظواهر أعمالهم المخالفة لما في دخائل نفوسهم.

وبهذا الختام أقفلت وحدة هذا النّصّ.

● ● ●

النصّ الخامس عشر

وهو من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول)

سادس سورة مدنية

الآيات من (٧١ ـ ٨٤)

حول ظواهر من النفاق تبرز عند الدعوة إلى القتال وبعده

* قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾.

﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ٧٢ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣﴾

﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤﴾

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ ﴾

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾

﴿ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

* * *

(١)
موضـوع النَّـصّ

أمر الله عزّ وجلّ الّذين آمنوا بأن يأخذوا حِذْرهم فيتأهَّبُوا لدرْءِ كَيْد أعدائهم، آخذين بأسباب المبادهة، قبل أن يُبَاغِتهم عدُوُّهم وهم على غير استعداد لمواجهته وصدّ كيده.

ومن أسباب المبادهة أن ينفروا إلى القتال أو التصدّي للمواجهة جماعات متفرّقة أو مُتتابعة، أو جيشاً واحداً، فالمبادهة هي الخطّة الحربيّة الأكثر سلامة، والأرْجَى لتحقيق النّصر.

عقب هذا أبان الله عزّ وجل مواقفَ من مواقف المنافقين وضعفاء الإيمان الذين يستجيبون لوساوسهم ومكرهم الإفسادي، وهي تَتلخَّصُ بما يلي:

(١) التباطُؤ والتَهاون والتواني عن الخروج مع المسلمين لقتال عدوّهم.

(٢) تثبيط من يستجيب لهم من الجبناء وضعفاء الإيمان.

(٣) تحدّث بعضهم بالفرح والمسّرة إذا أصاب الخارجين من المسلمين للقتال مصيبة أو مضرّة، ويرى أنّ الله قد أنعم عليه، إذْ لم يَشْهَدْ معهم قتال عدوّهم فنجا بذلك من المصيبة.

(٤) التّحسُّرُ والنّدم على ما فاتهم من الفوز بالغنيمة، إذا انتصر الخارجون من المسلمين، وأصابوا من عدوّهم غنائم، وهم مع هذا التحسّر يَحْسُدون الخارجين على ما أصابوا من غنائم حَسَد من لم يكن ذا وُدٍّ سابق، فيقول القائل منهم: يا ليتني كُنْتُ معهم فأفوز فوزاً عظيماً.

(٥) ما يوجد لدى بعضهم من التناقض بين ما كانوا يُطَالِبُون به قبل الإذن بالقتال، وبين حالهم بعد أن كتب الله عليهم القتال.

فقبل الإذن بالقتال كانوا يُطالِبُون بأن يؤذن لهم به، فيُؤْمَرُون بأن يكُفُّوا أيديهم.

وبعد أن كتب الله على المسلمين القتال دَبَّ الخوف في قلوبهم، فصاروا

يخشون الناس كخشية الله أو أشدّ خشية، وقالوا:

* ربّنا لِمَ كتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَال؟

* لَوْلاَ أخَّرْتَنَا إلى أجلٍ قريب.

(٦) أنّهم إن تُصِبْهُمْ حسنةٌ من نصرٍ أو غنيمةٍ أو أيِّ أمْرٍ قَدَرِي يسُرُّهم كَغَيْثٍ وخِصْبٍ وسَعَةِ رزقٍ وصحّة وبَنين قالوا: هذه من عند الله، أي: لم تأتهم ببركة دعاء الرسول، وبسبب إكرام الله له.

وإنْ تُصبْهم سيِّئةٌ من مصيبة في الأنفس أو في الأموال من أمور قدَريّةٍ يبتليهم الله بها قالوا: هذه من عند محمد، أيْ: لم يُحْسِنِ التصرّف في إدارته أو قيادته في السلم والحرب.

أمّا من كان منهم ذا كُفْرٍ وعناد فإنّهم يقولون مقالة المشركين من قبل:

إنّ ما نزل بنا من سيِّئاتٍ ومصائب إنّما كان من شُؤْم دعوة محمّد الّتي فرّقت قومه، وجلبت النزاع والخلاف والحروب.

(٧) التّناقض بين ما يُعلِنُون للرسول من الطاعة والخضوع عند المواجهة، وبين ما يُبَيِّتُونَ إذا خرجوا من عنده من المعصية والمخالفة، والعمل بغير ما أعلنوا له.

وخلال عرض هذه التصرّفات التي تصدر من المنافقين ومن الذين يتأثّرون بهم من ضعفاء الإيمان، شرحت الآيات المفهومات الإيمانية الملائمة لموضوعاتها.

فالظاهرات السلوكية التي أبانها هذا النصّ هي من أعمال المنافقين أساساً، ثمّ من أعمال أهل الرّيب والشّك وضعفاء الإيمان، وربّما يشاركهم في بعضها بعض أهل الغفلة من المؤمنين.

وفيه أيضاً بيانٌ لبعض ظاهرات أخرى تكون من المؤمنين، ولكنّها لا تتلاءم مع صدق الإيمان، ولا مع اندفاعاته الحماسية التي قد تظهر قبل الاختبار بالتطبيق العَمَلِيّ، وقد ضُمَّت هذه لبعض ظاهرات المنافقين في النّص، للإشعار بأنّه يَنْبغي أنْ لا تظهر إلاّ من المنافقين، إذْ هي تتلاءم مع طبيعة النفاق، ولا تَتلاءم مع طبيعة الإيمان الصحيح الصادق، لكنّ الله يعلم ما في النفوس فَيُعامِل كلَّ إنسان بحسب ما في نفسه

وقلبه من إيمانٍ أو كفرٍ، أو شكٍّ، أو جُبْنٍ، أو حُبٍّ للحياةِ الدُّنيا وتعلُّقٍ بها، فيُحاسِبُ ويُجازي بمقتضاها، لا بمقتضىٰ ظاهرات الأعمال فقط.

واشتمل النّصّ أيضاً علىٰ توجيهاتٍ ربّانيّةٍ حَوْلَ هٰذِه الظاهرات الّتي أبانَها، من خلال دعوة المؤمنين إلى الاستعدادِ، وأخذ الوسائل كلّها التي يقتضيها الحذرُ منَ الأعداء دون تفريط، وأتبع ذلك بالأمر بالخروج لقتال العدوّ حسْبَ الظروف الداعية بأسلوب الْوَحدات التي تَنْبَثُّ عصابات موزّعات تنالُ من العدوّ النّيلَ المطلوب، أو بأسلوب الجيش المجتمع الذي يخرج إلى القتال بقيادة واحدة.

ومن البدهي أنّ القيادة هي التي تقرّرُ القتال، وهي التي تقرّر أسلوب الوحدات التي تَنْبَثُّ على شكل عصابات، أو أُسلوبَ خروج جيشٍ نظاميٍّ يقاتلُ جيشاً نظامياً.

واشتمل النصّ على الترغيب بالأجر العظيم لمن يُقاتل في سبيل الله، والتّنبيه على بعض المقتضيات التي دعتْ إلى أمرِ المؤمنين بقتال عدوِّهم من أهل الشرك في مكة، إبّانَ تنزيل هذا النّصّ، وهي الانتصار لدين الله، وإنقاذ المستضعفين من الرّجال والنساء والولدان، الذين يتعرّضون لظلم كفّارِ مَكّة لهم من أجل إيمانهم وإسلامهم، وهم يدعون الله قائلين:

(١) ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾.

(٢) ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾.

(٣) ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

وقد دلّ النّصّ على أنّ الله تباركَ وتعالىٰ اختار أن يجعل إنقاذهم وتلبيَةَ مطالبهم، بتكليف المؤمنين قتالَ قادة الكفر وجنودهم، لينصُرَهُمْ عليهم، فيتحقق بذلك انتصار الإيمان وقَمْعُ الكفر، وابتلاءُ المؤمنين، وإنقاذُ المستضعفين، وتَحْريرُ البلد الحرام من الشركِ والمشركين، وتمحيصُ المؤمنين، وكشفُ نفاق المنافقين وأهلِ الرَّيْبِ وضعفاءِ الإيمان.

* * *

أمّا الظواهر التي أبانها النصّ فأعرضُها بشيءٍ من التفصيل فيما يلي:

الظاهرة الأولى: ما يَفْعَلُه المبطِّئون عن القتال، فإذا خرج المؤمنون إلى القتال لم يخرجوا معهم، ودَعَوْا من يستجيب لهم من أهل الريب وضعفاء الإيمان إلى عدم الخروج، ثم هم بعد المعركة على إحدى حالتين:

(١) إنْ تعرَّضَ المسلمون لمصيبة، كهزيمة أو كثرة شهداء، فرحَ هؤلاء المتخلفون، وقال قائلهم: قد أنعم الله عليّ إذْ لَمْ أكنْ مع المسلمين حاضراً المعركة التي أصابتهم فيها المصيبة.

(٢) وإنِ انتصرَ المسلمون، ونالوا من عدوِّهم غنائم تتحلّب لها أشداق أهل الطمع بالدنيا، تحسَّرُوا ونَدِمُوا حسداً، وقال قائلهم: يا ليتني كنْتُ مَعَهُمْ فأفوز فوزاً عظيماً، أي: بما أنالُ من نصيبٍ من الغنائم، وبما أحافظُ به عليه من سَتْرِ حالٍ بين المسلمين، إذْ قد يكشفُ التخلُّف المتكرِّر نفاقه.

الظاهرة الثانية: مَا يكونُ من أهل الاندفاع الحماسيّ من إظهار الرّغبة بلقاء العدوّ ومقاتلته، قبل أن يجدّ الجدّ، ويأتي الإذن بالقتال، أو تُوجَّه نصوص الأمر به.

وهذا فريق يوجد في الناس دواماً، فمنهم صادقون ظاهراً وباطناً، إذا حَزَبَ الأمر وجاء الإذن بالقتال كانوا مع مقدمة المقاتلين الصادقين ومنهم صادقو الرغبة، لكنّهم إذا جدَّ الجدُّ وحزبَ الأمر، ودُعُوا إلى القتال، جَبُنُوا وتَخَاذَلُوا، وضعُفُوا عن مواجهة المقاتلين في مَعَارِكَ يَكونُ فيها قَتْلٌ وجِراحة وآلام، وكانت رغبَاتُ حبِّ السلامة وحبّ الحياة أقوى في قلوبهم ونفوسهم من رغبات قتال العدوّ ودواعيه. ومنهم كذّابُون يتظاهرونَ نفاقاً أو رياءً، وليس لديهم رغبةٌ أصلاً في مواجهة العدوّ لأنّهم غير مؤمنين، أو هم شاكُّون لم يصحّ إيمانهم بَعْدُ، أو هم ضعفاء الإيمان. فهم في ساعات الأمن والسِّلْم يتظاهرون بالدعاوىٰ الكواذب، ويُسَابقون إلى إعلان رغباتهم بالقتال تفاخراً وتكبُّراً، يَسْتُرون بذلك حقائق ما في نفوسهم، ابتغاءَ مكانةٍ أو مصلحةٍ أو جاهٍ بين المسلمين. إنّهم رَغَّاوُون نَفَّاشُونَ كَذَّابونَ، فإذا جاء الأمر بالقتال جعلوا يُسَوِّفُون ويُماطلون ويطلبون التأخير والتأجيل إلى أجل آخر قريب.

الظاهرة الثالثة: ظاهرة هي من ظواهر المنافقين أساساً، وتُوجَدُ عند أهل الرِّيْبِ، وضعفاءِ الإيمان بالرسول ﷺ.

من المعلوم أنّ الرسول في أمّتِهِ قائدٌ وإمامٌ يَسُوسُهم ضمن ما يرى من مصلحة وخيرٍ للإسلام والمسلمين، لكنْ قَضَتْ حكمة الله في خلقه أن يمتحنهم بالحسنات التي تسرُّهم، وبالسّيِّئاتِ الّتي تُزعجهم أو تؤلمهم، وهم يُحِبُّون الحسنات منها، ويكرهون السّيئات، ويغفلون عن أنّ الله عزّ وجَلَّ يبلُو عبادهُ بالشرّ (أي: بالمصائب) وبالخير (أي: بالنِّعَم) فِتْنَةً (أي: امتحاناً واختباراً).

فإذا تصرف الرسول ﷺ تصرُّفات بمقتضى إمامتِه وقيادَتِهِ الإداريّةِ والسياسيّة والعسكَريّة لأمّتِه، فكان من نتائجها حَسَنَاتٌ دُنيويّةٌ كنَصْرٍ وتَمكِينٍ وَغَنَائِمَ، بقضاء الله وقدره، قال المنافقون: هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ، جاحدين حكمةَ الرسول في إدارته وسياسته، أي: لم تكن حكمةُ الرسول هي السبب في جلب هذه النتيجة الحسنة التي سرَّت المسلمين.

وإذا تصرَّف الرسول ﷺ بمقتضى إمامته وقيادته الإدارية والسياسية والعسكرية لأمته، فكان من نتائجها سَيِّئاتٌ دُنيويّةٌ، كهَزِيمة وخسارة شهداء من المؤمنين، وظفرِ الأعداء بغنائم من المسلمين، وقد حصل ذلك بقضاء الله وقدره، قال المنافقون، ومعهم أهل الرِّيب والذين في قلوبهم مرض: هذا الذي حصل هو من عند محمّد، أي: بسبب تصرّفه الذي لم يكن ملائماً للمصلحة، ومن أمثلة هذا ما قاله عبد الله بن أبي ابن سلول بعد غزْوة أحدٍ، وسُقُوط من سقط من المسلمين شهداء فيها، إذْ قال: أطاع الأحداث وعصاني، وقال المنافقون معه: لو كانوا عندنا مَا مَاتُوا وما قُتِلوا، وجعلوا الرّسول هو السبب فيما نزل من مصيبة بالمسلمين في غزوة أُحُد.

الظاهرة الرابعة: نَقْضُ ما يُعْلِنه المنافقون من طاعةٍ لأوامر الرَّسُول، وتَبْيِيتُ غيره حينما يَخْلُو بعضهم ببعض، فيقرِّرُونَ أموراً أُخرى غير الّتي أَعْلَنُوها حينما كانوا عند الرسول في مجلسه يُظْهِرونَ الوَلاء والطّاعة، وهذه ظاهرة تتناسب مع طبيعة النفاق لا محالة، وقد يسير مع المنافقين أَهْل الرِّيب وضعفاء الإيمان، لكنّهم بالتَّبع لا بالأصالة، فالذين يُبيِّتون الخلاف بعد إعلان الطاعة هم منافقون حتماً.

الظاهرة الخامسة: أنّ المنافقين ومعهم أهل الرّيب وضعفاء الإيمان، وربّما انساق معهم أهل الخفة والطيش، من صفاتهم الدائمة أنّهم يتسقطون الأحداث والأنباء

والأخبار التي تتعلّق بالمسلمين، من قضايا الأمن وقضايا الخوف، أي: من أمور السِّلم والحرب، فيذيعونها وينشرونها، ويتحدّثون فيها بزعم المشاركة في حلّ مشكلاتها، لأنهم لا يشعرون داخليّاً بالولاء للمسلمين، فهم لا يهتمّون لكتمان ما يضرُّ المسلمين إذاعَتُهُ من أمور السلم وأمور الحرب، وهذا يشمل كلّ القضايا.

فالمنافقون ومن يسيرون معهم لا غَيْرةَ لهم على مصالح المسلمين، فلا يَهْتَمُّون لكتمان شيءٍ من أمورهم التي قد يضرّ إعلانُها مصالحهم، وقد يصل بعضها إلى عدوّهم، فيكيدهم، ويمكر بهم.

وخلال عرض هذه الظواهر شرحت الآيات المنطق الإيماني، وقدمت التوجيهات المناسبات، وعالجت ونصحت ووعدت وأوعدت.

* * *

(٢)
المفردات اللّغويّة في النّص

﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾:

الحِذْرُ، والحَذَرُ: هو التَّيَقُّظُ والتَّأَهُّب، واتّخاذُ الوسائل اللازمة مخافةَ مباغتة المكاره، من عدُوٍّ مداهم، أو صائل مهاجم، أو ذي ضُرٍّ مُتَرصِّد، يترقَّبُ الغِرّات والغفلات، أو أيّ عارضٍ من عوارض الكون يحمل المصائب.

تقولُ لُغةً: حَذِرَ يَحْذَرُ حِذْراً وَحَذَراً.

وأمْرُ الله المؤمنين بأن يأخذوا حِذْرهم من عدُوّهم ليس أمراً بأن يخافوا عدوّهم، ولكنّه أمرٌ باليقظة حتّى لا يباغتوهم وهم غافلون، وأمرٌ باتّخاذ الوسائل الكافية لصدّهم وقمعهم، إذا داهموا مباغتين في حينِ غِرّة، أو مترصّدين وقت غفلة.

﴿فَٱنفِرُواْ﴾:

أصل النفر التفرُّقُ عن ذُعْر، أو الشرودُ عن ذُعْر. ومنه نُفُور الدابة، ونُفُور الظباء، ويقال: نَفَر عن الشيء خوفاً منه، ونَفَر إلى الشيء طلباً للأمن عنده.

ثمّ استعمل لمطلق التفرّق. ومنه قولهم: نَفَر الحجاجُ من منى، يَنْفِرُونَ نَفْراً ونَفَراً. ويسمّى اليومُ الثاني من أيّام التشريقِ يَوْمَ النَّفْر، لأنّ الحجّاج فيه يَتَفَرَّقُونَ.

واستُعْمِلَ النَّفْرُ أيضاً بمعنَىٰ الخروج لدفع الخطر، ولقتال العدُوّ، وهذا المعنى هو المراد هنا في النصّ، وهو اصطلاح قرآني لما سيأتي بيانه.

والنَّفيرُ: هُمُ القومُ الّذِين يخرجُون لِدَفْعِ الخطر، أو لقتال العدُوّ.

﴿ثُبَاتٍ﴾:

جَمْعُ ثُبَة، أي: جماعة، قال علماء اللّغة: الثُّبَةُ: الجماعة، والعصبةُ مِنَ الْفُرْسان، والجمع: ثُبات، وثُبُون، وثِبُون.

فمعنى قوله تعالى ﴿فانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾: اخرجوا لدفع خطر أعدائكم، ومجاهدتهم جماعات متفرّقاتٍ متتابعات، أو متفرّقات لجهاتٍ مختلفات بحسب الحاجة.

﴿أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا﴾:

أي: أو اخرجوا لقتال عدوّكم جيشاً واحداً مجتمعاً متماسكاً قويّاً، فكلمة «جميع» تُفِيدُ الاجتماع على الأمر رأياً وعملاً.

والتوجيه لأن ينفروا ثُباتٍ أو ينفروا جميعاً فيه التنبيه على أنه ينبغي لهم أن يفعلوا ما يوجبُه عليهم أخذُ الحذر، أي:

* فإن اقتضى الأمر أن تنفروا جماعات متفرّقات فافعلوا ذلك.
* وإن اقتضىٰ الأمر أن تنفروا جميعاً جيشاً واحداً متماسكاً قويّاً فافعلوا ذلك.

ومعلومٌ أنّ القيادة المسؤولة المراقبة لواقع العدوّ، والتي تخطّط لدفع خطره، أو مقاتلته، هي التي تقرّر هذا أو هذا.

وجاء في تعليم قرآني آخر أنه مَا كان للمؤمنين أن ينفروا كافة، فظهر أن المراد من قوله تعالى:

﴿أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا﴾:

أن ينفر الجيش المهيّأ للخروج بصورة جماعيّة لا أن ينفر كلّ المؤمنين.

ونستطيع أن نفهم من ترتيب الأمر بالنفر على الأمر بأخذ الجذر، أنّ من عناصر أخذ الحذر الذي يُخْشَى عنده من أن يُبَاغِت العدوّ جيشَ المسلمين على حين غرّة، أن تختار القيادة المسلمة الْحَذِرَةُ خُطةَ البدء بالتحرّك لمواجهته وقتاله، وعدم ترك الفرصة له أنْ يكون هو البادىء بالقتال، ما دام الأمر قد وصل إلى مرحلة التصادم المرتقب، فإمّا أن يكون هو البادىء، وإمّا أن يكون المسلمون هم البادئين.

أي: فَمِنْ أَخْذِ الْجِذْر حينئذٍ أن يكون المسلمون هم البادئين.

أشار إلىٰ هذه القاعدة العسكرية قول الله عزّ وجلّ في النص:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾.

فرتّبَ الأمر بـالنّفر بمعنى بَـدْءِ القتال، على الأمـر بأخـذ الحذر، إذ عَـطَفه بفـاء العطف التي تدلّ على الترتيب مع التعقيب.

﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾:

﴿وَإِنَّ منكم﴾: أي: وإنّ من جمعكم المشتمل على المؤمنين الصادقين، وأهلِ الرِّيب، وضعفاء الإيمان، والمنافقين.

﴿لَمَنْ﴾: أي: لَفَريقاً، واللّام هذه لتأكيد وجود هذا الفريق.

﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾: اللّام، قـالوا: هي واقعـة في جواب قسم محـذوف، والمراد تـأكيد المضمون. وقيل اللام للتأكيد أيضاً، فهو تأكيد بعد تأكيد.

البُطْءُ، والإبْطاءُ، والتَّبْطِيءُ، هو تأخيـر العمل عن الـوقت الذي ينبغي القيـام به فيه، تكاسلاً، أو رغبة بعدم القيام به، لدافع من الدوافع.

ويُقالُ: بَطَّأَ فُلانٌ بفُلانٍ، إذا ثَبَّطَهُ عن أمْرٍ عزَم عليه.

ويمكن فهم ﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾ بمعنَيَيْن:

الأول: بمعنى أنّه هو بنفسه يتباطَأُ عن الخروج إلى القتال في سبيل الله.

الثاني: بمعنى أنّه يُثَبِّطُ غيرَهُ عن الخروج، ويكـون المعْمُول محـذوفاً، تقـديره:

وإنّ منكم لَمَنْ لَيُبطِّئَنّ بغيره من المؤمنين، أو ضعفاء الإيمان وأهل الريب، فيجعله يتباطأ.

ويمكن حمل ما جاء في النصّ هنا على المعنيّين معاً، فهذا الفريق يُبطّيء هو بنفسه، ويبطّيء بغيره، فيجعله بتبيطه يُبْطيءُ عن الخروج للقتال في سبيل الله.

﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم﴾:

أصل المادّة من أصَابَ السَّهْمُ الهدفَ، إذا وقع فيه ولم يُخْطِئْه. والإصابةُ حين تكون مؤلمةً لمن وقعت عليه أو على شيءٍ يخصُّه فهي بالنسبة إليه مُصيبة له. ومنه أطلق العرب على النازلة المؤلمة مصيبة، وجمعها مصائب، وعلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾.

ويرمي الصيّاد سهمه إلى الصيد، فإنْ أصابه ولم يخطئه، أثْبَتَه، فنالَهُ صيداً، ومن هذا أطلق العرب عبارة: أصاب الشيءَ، بمعنى: ناله وظفر به. وأطلق العرب على الأفكار والأعمال المطابقة للحق أو الخير أو ما هو أحسن وأفضل، اسم «صواب»، وقالوا: «أصاب» إذا جاء بالصواب.

ولمّا كان مُسدِّد السهم إلىٰ هدف إنما يُسدِّده بإرادته، أطلق العرب كلمة أصاب بمعنى أراد على وجه العموم، وبمعنى: قصد الصواب وأراده.

ويرمي ذو العطايا أعطياته إلى من يريد الإنعام عليهم، فمن أصابَتْهُ كانت له نعمةً وفضلاً، فالإصابة هنا سارّة، وعلى هذا المعنى قول الله تعالى في النصّ: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ﴾.

فتُوَجِّه المادّة في كلّ موضع بحسب المعنى الملائم للسّباق والسّياق.

﴿فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

أصل الفضل الزّيادة، ولمّا كانت عطايا الله عزّ وجلّ لعباده فيضاً منه، دون استحقاقِ أحدٍ لهذا العطاء مهما كان شأنه، كان عطاؤه جديراً بأن يوصف بأنه فضل، فالله ذو الفضل العظيم.

﴿مَوَدَّةٌ﴾:

مصدر «وَدَّ» تقول: وَدَّهُ يَوَدُّهُ وُدّاً بتثليث الواو، ووُداداً بتثليث الواو أيضاً، ووَدَادَةً، ومَوَدَّةً.

الوُد: نوع من الحبّ الهادىء الثابت الذي يكون بين الأصحاب والإخوان وذوي العلاقات القويّة، ولا يطلق على المشبوب بالعواطف الثائرة، أمّا الحب فهو لفظ عامّ يطلق على كلّ الأنواع وكلّ المستويات، من الحبّ بدافع الجنس، إلى الحبّ السامي الرفيع فهو جنس لأنواع مختلفة، ومستويات متفاوتات.

﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾:

«يا» حرف تنبيه، أو حرف نداء، والمنادىٰ به محذوف تقديره: يا هذا، أو يا هؤلاء، أو هو بجرّد من نفسه مخاطباً فيناديه. «ليتَ» حرف تَمَنٍّ، «التمني هو طلب ما لا طمع فيه، أو طلبُ ما فيه عُسْرٌ» وهو يعمل عَمَل «إنّ» فينصبُ الاسم ويرفع الخبر، وضميرالمتكلّم اسمها، والنون للوقاية. وجملة «كُنتُ مَعَهُمْ» خبر «لَيْتَ» والمراد من النداء وما بعده هنا التحسُّر.

﴿فَأَفُوزَ﴾:

الفَوْزُ يأتي بمعنىٰ الحصول على أمرٍ مرغوب فيه. ويأتي بمعنى النجاة من مكروه والمرادُ هنا المعنى الأول، لأنه يتحسّر على مرغوبٍ فاته بتخلّفه، إذْ فاته الظفر بمشاركة المجاهدين الذين خرجوا لملاقاة العدوّ في الغنائم التي نالوها، وبستر حاله بين المؤمنين، لأنّ التخلّف عنهم قد يكشف نفاقه.

﴿يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾:

يقال لغة: شَرَىٰ الشيءَ واشْتَراه إذا باعَهُ. قال الفرّاء: للعرب في شَرَوْا واشْتَرَوْا مَذْهَبان، فالأكثر منهما أن يكون شَرَوْا بَاعُوا، واشْتَرَوْا ابْتاعُوا، ورُبّما جعلُوهُما بمَعْنَىٰ بَاعُوا.

وممّا جاء في القرآن من استعمال «شَرَىٰ» بمعنى باع ما يلي:

(١) قول الله تعالى في سورة (يوسف/١٢) بشأن يوسف عليه السلام:

﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾:

أي: باعوه بثمن بخس، والذين باعوه رجال القافلة الذين التقطوه من الجُبّ.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/٢):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾:

أي: يبيعُ نَفْسَهُ لربّه ابتغاء مرضاتِه.

أقول: إذا كان فعل «شرى» أو «اشترى» بمعنى «باع» فالمأخوذُ هو الذي دخلت عليه الباء. وإذا كان بالمعنى الآخر وهو المعنى الذي اشتهر عرفاً، فالمتروكُ هو الذي دخلت عليه الباء.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾:

أي: المضطهدين بسبب ضعفهم عن المقاومة. وأصل المستَضْعَف هو من وُجد ضعيفاً، أو عُدَّ ضعيفاً، أي: فهم بسبب ضعفهم يضطهدهم المشركون ويُذِلّونهم، ويحاولون إكراههم على الكفر والفسوق والعصيان لله ولرسوله.

﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾:

وِلْدان جَمْعُ وَلِيد، قال الجوهري: الصبيّ والعَبْد، كصبيّ وصِبْيان. وقال ثعلب: الوليد الطفل، والأنثى وَلِيدَة، وتجمع على وِلْدان وَوَلائِد، وقد تُطْلَق الوليدةُ على الجارية والأمة وإنْ كانت كبيرة.

أقول: فيُحْمَلُ لفظ الوِلْدانِ في النصّ على كل معانيه: الصبيان والعبيد، والإناث الصغيرات، والجواري والإماء، وهذا من الإيجاز في القرآن المجيد، ومعلوم أنّ هؤلاء جميعاً من الذين يُستضعفون في الناس.

﴿مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾:

المراد مكةُ يومئذٍ بدلالة قرائن أحوال النصّ، لأنّ الصراع يومئذٍ كان بين المؤمنين في المدينة بقيادة الرسول ﷺ، وبين أئمة الشرك والكفر في مكّة، وهؤلاء هم الذين كانوا يضطهدون المستضعفينَ فيها من الذين آمنوا ولم يستطيعوا الهجرة، واللّحاق بالمؤمنين في المدينة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾:

الطّاغوت: صيغة مبالغة من الطغيان، وهي تطلق على الواحد والجميع والمذكّر والمؤنث، وتجمع على «طَواغيت».

ويُرادُ من الطاغوت كلُّ مَعْبُودٍ أو مُطاعٍ من دون الله على غير منهج الله، كاهناً كان أو شيطاناً أو وثناً أو رأساً مُضِلاً من النّاس، كالأحبار والرهبان الّذين يُشَرِّعون لأتباعهم شرائع ويَضَعُون أحكاماً ما أنزل الله بها من سلطان، فيُطيعهم أتباعهم فيها.

المعنى: والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت من أشخاصٍ أو مبادىء باطلة، أو شياطين، أو نحو ذلك، وهم بذلك يكونون أولياء الشيطان، لذلك قال تعالى خطاباً للمؤمنين عقب هذه الفقرة:

﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

الكيد: هو تدبير الأمور بباطل أو بحق، بخيرٍ أو بشرّ، ويطلقُ على الحرب، وعلى إعداد الوسائل الحربية للنكاية بالعدوّ.

ويؤكد ربّنا أنّ كيد الشيطان ضعيفٌ دواماً، ففعْل «كان» بصيغة الماضي يدلُّ في الصفات على الكينونة الدائمة المستمرّة غالباً، ويظهر هذا في معظم النُّصوص القرآنية.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾:

الفعل في: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يتعدّى بنفسه لغة، ولكنّ النص جاء هنا (وتكرّر في القرآن) متعدّياً بحرف الجرّ (إلى) فما الغرض البياني في هذا؟

بالتأمل يبدو لنا أن معمول: ﴿ألم تَرَ﴾ محذوف، وأن عبارة ﴿إلى الذين﴾ معمول لفعل محذوف، على طريقة التضمين، والتقدير: ألم تر أيها الرائي أمراً عجباً ناظراً إلى الذين قيل لهم:

﴿كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾:

أي: امتنعوا عن قِتال أهل الكفر، وكانَ هذا قبل أنْ ينزل الإذن بالقتال. يقال

لُغةً: كفُّ الرجلُ الشيءَ، إذا ضمّ بعضَهُ إلى بعض، فعبارة: «كُفوا أيدِيَكم» كِنايةٌ معناها: امتنعوا عن القتال، لأنّ من ضمّ يده إلى جسده، تعذّر عليه أن يقاتل بها عدوّه، فالمقاتلة لا بدّ فيها من مدّ الأيدي إلى جهة العدوّ على أيّة صورة من صُوَر المدّ.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾:

أي: فحين أُذِنَ لَهُمْ بالْقِتَالِ، ثُم أُلْزِمُوا بـه، وكُتِبَ ذلِكَ في صُحُفِ الملائكةِ، وأُنْزِلَ في القرآنِ، وكُتِبَتِ الآيات المنزّلةُ فيه، وصَارَ قضيةً مُبْرَمة.

«لمّا» ظرفية بمعنى حين.

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾:

الخشيةُ هُنا مُطْلَقُ الخوف. وخشيةُ الله تكون غالباً مقرونة بتعظيم وإجلال وحبّ لدى صادقي الإيمان، لأنّ فيها عدّة معانٍ: ففيها معنى الخوف من عقابه ونقمته، وفيها معنى الخوف من سخطه والإخراج من دائرة رضاه وحُبّه، وفيها معنى الخوف من فوات المطموع فيه من ثوابه العظيم، وفضله الجسيم، والحرمان من منازل المقرّبين.

«إذا» حرف في الأرجح ومعناه المفاجأة، وتعرف بأنها: إذا الفجائية.

﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾:

لولا: بمعنى «هلّا» حرف تحضيض. والأجلُ القريب يحتمل عدّة احتمالات، منها أجلُ موتهم الطبيعي، ومنها أجل الاستعداد بأنواع القوىٰ المتفوّقة على قوى المشركين، ومنها الأجل الذي يُترقّبُ معه بَدْءُ المشركين القتال، وأرى أنه مطلب مماطلة وتسويف.

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾:

الفتيل: الخيط الذي في شِقّ النّواة، وكلُّ ما فتله الإنسان بين أصابعه من خيطٍ أو وسخٍ ونحو ذلك.

المعنى: ولا تظلَمُون مقدار فتيل.

﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾:

بُروج جمع بُرْجٍ، وهو الحصن، والبناء العالي الذاهب في السماء، والبيتُ المحصَّنُ الذي يُبْنَى على سور المدينة، وعلى سور الحصن.

مُشَيَّدَة: أي: محكمة البناء، ورفيعة البنيان، ومطليّة بالشِّيد، وهو كلُّ ما يُطْلَى البناء به من جصٍّ ونحوه.

والمعنى: ولو كنتم في حُصُونٍ محكمةِ البناء رفيعةٍ مُحْمِيَّةٍ بالأسوار، مطليّة بالشِّيدِ لَا تَنْفُذُ إليها الفواتل من الأسباب، كالآفات والحشرات وتغيُّراتِ الحرّ والبرد، وإذا كانت مُشَيَّدَةً كاملةَ البناء، مكسوَّةً بالشِّيد، فلا بدّ أن تكون أبوابُها ونوافذُها مستكملةً كُلَّ مَا يلزم لها من إتقان وإحكام وتحصين.

﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ﴾:

الحسنةُ ضدّ السيِّئةِ من قول أو فعل، وتُطلَقُ الحسنة على النعمة التي تَسُرُّ من نزلت به وتُطلَقُ السيئةُ على المُصيبة، وكُلِّ مَا يَسوءُ مَنْ نَزَلَتْ به. وهذا هو المراد من الحسنةِ والسيئةِ هُنا في النصّ.

أمّا الحسناتُ والسيِّئات من أفعال المكلفين فهي ما يحب الله من عباده وأضدادُ ذلك، وقد وعد الله على الحسنات بالثواب، وأمّا السيئات فإمّا أن يعاقب عليها أو يغفر بمقتضى حكمته عزّ وجلّ، باستثناء الشرك فما هو أشدّ منه كالإلحاد والنفاق.

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾:

أي: ومن أدبر وانْصَرَفَ ولم يُطِعْك فما أرسَلْنَاكَ يا محمَّدُ عليهم حفيظاً.

الحفيظ: والحافظ هو الموكَّل بالشيء ليحفظه. والمعنى: لستَ مأموراً بأن تحفظهم من التَّولِي والانصراف عن صراط ربّك، وتَمْنَعَهُم بالإلزام والإكراه، لأنّهم في ظروف امتحان إراداتهم الحرّة، والإكراهُ يُنافي طبيعة الامتحان.

فما جاء هنا نظير قوله تعالى لرسوله في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ۝٥٤﴾:

أي لست وكيلاً عليهم حتى تكون مُلْزِماً لهم إلزاماً بالإكراه بمقتضى الوكالة، ولا وكيلاً عن ربّك حتى تتولّى محاسبتهم ومعاقبتهم.

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾:

أي: أَمْرُنا وشأنُنا طاعةٌ لأمرك، أو عَمَلُنا طاعةٌ لأمرك، وهذا قولٌ بألسنتهم غير صادر عن إرادةٍ صادقة من قلوبهم لأنّهم منافقون.

﴿ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ ﴾:

الْبَرَازُ: بفتح الباء المكان الفضاء من الأرض البعيد الواسع، وإذا خرج الإنسان إلى ذلك الموضع قيل: بَرَزَ يَبْرُزُ بُروزاً، أي: خرج إلى البراز.

والمراد أنّهم خرجوا إلى المكان الذي يأمنون فيه، مطمئنّين إلى أنّهم غيرُ واقعين تحت أعين الرّقباء الذين يرصدون ما يُدَبّرون ويُبيّتون.

﴿ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ﴾:

يُقال لغة: بيَّتَ الأمر إذا دبَّرَهُ ليلاً، أو عَمِلَهُ أو نواهُ ليلاً، وكلّ عَمَلٍ يُعْمَلُ ليلاً يسمَّى تبييتاً، أخذاً من البيت، لأنّ الناس يأوون إلى بيوتهم ليلاً. وكلُّ مَنْ أدركه اللَّيْلُ فقد باتَ، نامَ أو لم يَنَمْ.

أي: فهم يستخفون بحذر شديد في اختيار المكان، وهو المكان الخالي من المراقبة، واختيار الزمان، وهو جوف اللّيل، ليدبّروا فيه أمراً آخر غير ما أعلنوه من طاعة، ولا بدّ أن يكون هذا الأمر عصياناً ومكراً سيّئاً.

﴿ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾:

أي: يَعْلَمُ ويُسَجِّلُ ما يبيتون ويدبّرونه من السوء ليلاً، وقد فُهم العلم لزوماً ذهنيّاً.

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾.

أي: فأعْطِهِمْ عارِضَكَ، وهو جَانِبُ الوجه، والمعنى: فقابل تولّيهم وإدبارهم بالإعراض فقط، لا بمثل تولّيهم وإدبارهم.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾:

التَدَبُّر هو التفكُّرُ في القضايا وفي معاني النصوص حتى أدبارها وأواخر مواقعها الفكريّة، وفي عواقب ماله عواقب منها. والمادة مشتقة من دُبُر الشيءِ وهو آخره، ولمّا كانت عواقب الأمور هي أواخر ذيولها كان التدبيرُ النظرَ في العواقب، وإعدادَ ما ينبغي لها. وكلّ ذلك من الحكمة في الفهم أو في التخطيط والعمل.

فتدبُّر القرآن هو التفكّر العميق ببصيرة لفهم معانيه، حتّى الأطراف البعيدة التي يدلّ عليها النّصُّ من نصوصه، ولو عن طريق اللوازم الذهنيّة، وفحوى الكلام، وما يَقْتَضيه النّص لإحكام الترابط بين مفرداته وجُمله.

﴿لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾:

أي: اختلافاً بينه وبين الحقّ، أو بينه وبين ما هو خيرٌ وأفضل وأحكم وأقوم، أو بين بعض نصوصه وبين بعض آخر منها.

﴿أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾:

يقال لغةً: أذاعَ الأمرَ أو الخبرَ، وأذاع به إذا أفْشاهُ ونشره، ويُقالُ: ذَاعَ الْخَبَرُ إذا فَشَا وانتشر.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾:

أي: ولو أرجعُوه، واستعمال الرّدّ هُنا يدُلُّ على انّ الأمر هو بالأصل منوط بمرجع قيادي فيستفتىٰ فيه الرسول أو أولو الأمر من قادة المسلمين، إذْ هو فيما يظهر أمر يتعلّق بأمور المسلمين العامّة، التي لا يصحّ فيها التصرّف من قبل الأفراد، بل يجب ردّها إلى ذويها، وهو قائد الأمة، وأولو الأمر المختصون الذي هم مؤهلون لمعرفة البواطن، واستنباط ما هو الأنفع والأصلح لجماعة المسلمين.

﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾:

استنباطُ الشيء اسْتِخْرَاجُه من مواطن العمق التي هو فيها. وأصل الفعل من نَبَطَ الشيءُ يَنْبِطُ إذا ظهر من مكانٍ كان خفيّاً في باطنه، يُقالُ لغةً: حفَرَ الأرْضَ حتّىٰ نَبَطَ الماءُ، أي: ظهر، ويقال: جدَّ في التنقيب حتّىٰ نَبَطَ المعدن، أي: ظهر، ويُقالُ أَنْبطَ الشيءَ إذا أظهرَهُ وأبرزَه واستَخْرَجَه.

فالاستنباط من هذا، والقضايا الفكرية في أعماقها جوانب خفية إنما يستنبطها المؤهلون للاستخراج والبحث في أعماق الأفكار، والنصوصُ الرفيعة في أعماقها معانٍ خفيّة، إنما يستنبطها المؤهلون لتدبّر النصوص واستخراج ما فيها.

﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

أي: حرّضهم على القتال. التحريضُ هو الحثُّ بتأكيد ومتابعة، والتحضيض، قال الجوهري: التحريض على القتال الحثُّ والإحماءُ عليه. قال الزّجاج: تأويل التحريض في اللّغة أن تحثَّ الإنسان حثًّا يعلَمُ معه أنّه حَارِضٌ إنْ تخلّف عنه، قال: والحارضُ الذي قد قارب الهلاك.

أقول: قد يكون أصل المعنى اللُّغوي الحضّ والإحماء على القتال ولو دفعت بهم الحماسة إلى أن يُقاربوا الهلاك، أو الحض والإحماء لدفع أن يكونوا مقاربين الهلاك.

﴿أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾:

البأسُ: الشدّةُ في الحرب. والعذابُ الشديد.

﴿تَنكِيلًا﴾:

عقاباً رادعاً، يقال: نكّل به إذا عاقبه عقاباً رادعاً لغيره.

* * *

(٣)
مع النصّ في التحليل والتدبّر

ويأتي هذا التدبُّر في فِقَرات:

الفقرةُ الأولى: تتضمّن تكليف الله الذين آمنوا أن يأخذوا حِذْرهم، وأن يخرجوا لِقتال عدوّهم متفرّقين على شكل عصابات أو فِرَق، أو مجتمعين في جيشٍ، بحسب ما تقتضيه المصلحة والحكمة في الحرب.

قال الله عزّ وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾.

في هذه الآية ثلاثُ قضايا:

القضية الأولى:

هي أنّ الخطاب فيها موجَّهٌ للّذين آمنوا، فيخصُّهم الله عزّ وجلّ بالنداء، إشارة إلى أنّ اتّصافهم بصفة الإيمان الصحيح الصادق، لا بدّ أن يكون دافعاً لهم إلى إمْضاءِ التكاليف الربّانية الموجّهة لهم، إذْ يتضمّن نداؤهم بوصف كونهم مؤمنين تذكيرَهم بحقّ الله عليهم، وبمسؤوليتهم تُجاهه، وبالجزاء الذي أعدّه سبحانه لعباده ثواباً أو عقاباً، فهذه أمور هي من عناصر القاعدة الإيمانيّة.

وفيه أيضاً إلماح إلى أنّ الإعراض عن إمضاء التكاليف الربّانية، يكون بسبب عدم صدق الإيمان، أو ضعفه، أو غلبة سلطان الأهواء والشهوات وضعف الإرادة تجاه مطالب الحياة الدنيا.

القضية الثانية:

أمْرُ المؤمنين بأن يأخُذوا حِذرهُم، فقال اللّهُ عزّ وجلّ لهم: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.

لم يأت التعبيرُ بصيغة: احْذَرُوا، وإنّما جاء بصيغة «خُذوا حِذْرَكم» فما الحكمةُ البيانية في هذا مع أنّ عبارة «احذروا» أخصر؟

بالتفكّر يَظْهرُ لنا أنّ الأخذ في اللّغة هو في الأصل يُطلَقُ على تناول أو حيازةِ شيءٍ ماديّ يُقْبَضُ بالأيدي، أو يُضَمُّ إلى التملُّك بوسيلةٍ مشابهة، ثمّ حصل توسُّعٌ في دلالة مادّة الأخذ، فصارت تدلُّ على الأمور المعنوية التي ليس فيها أشياء ماديّةٌ تُؤخذ، أو تَأخذ.

فجاءت التعبيرات في القرآن وفيها: أَخْذُ الميثاق، وأخْذُ الإصْر، وأخذُ الأمْر، وأَخْذُ العفو.

وجاءت فيه التعبيرات وفيها أنّ الأشياء المعنوية تأخُذُ أيضاً، فمنها: أخَذَته العزّة ـ فأخذهم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّة ـ لا تأخُذْكُم بهما رأفَةٌ في دينِ الله ـ.

ولمّا كان الأَخْذُ في أصله أمراً مادّيّاً مُحَسّاً، وكانت الطبائع البشرية تطمئنُّ

للحسيّات في التوثُّق من تحقُّق الأمور، أكثر مما يحصُلُ لديها في الفكريّات والنّفسيات وسائر المعنويات، مهما عظمت لديها البراهين والأدلّة أو المشاعر كان استعمال الأخذ بجانب المعنويّات أكثر تأكيداً على لزوم التحقُّق مما جاء الأمر بأخذه من هذه الأمور المعنويّة، كأخْذِ الحِذْر، وأخذ الميثاق، وأخذ الإصر، وهو العهد، وأخذِ العفو، ونحو ذلك، وكان استعمال أخذ المعنويات للحسّيات أو للمعنويات آكَدَ في الدلالة على تحقُّق ما تضمّنه الإسناد من مجرّد نسبة المسنَدِ إلى المسند إليه، فعبارة: «أخذتْهُ العِزّة» آكد من عبارة: فاعتزَّ، أو تعزّز. وعبارة: «لا تأْخُذْكُمْ بهما رأفة» آكد من عبارة: فلا ترأفُوا بهما. مع ما في معنى الأخذ من إبعاد المأخوذ عن مكانه إلى مكانٍ آخر ماديٍّ أو معنويّ.

وهذا من دقائق البيان القرآني العجيب.

يضاف إلى ما سبق أن موضوع أخذ الْجِذْر يلزم لتحقُّقِه في الواقع مع التيقُّظِ والتأهب، اتّخاذُ الوسائل اللازمة لدرءِ المخاطر، وكثيرٌ منها أمورٌ تُجْمَعُ وتُـؤْخَذُ، كالأسلحة، وأمورٌ تُعَدُّ وتُهيَّأُ، كالحصون والخنادق، وأمورٌ تُكْتَبُ في الصحف والرقاع، كالعهود والمواثيق والاتفاقات، وهي تؤخذُ ويحتفظُ بها، للتقاضي بمقتضاها. فالتعبيرُ بأَخْذِ الحذر من أدقِّ التعبيرات الدّالّات على جملة معانٍ مُرادة، لا تدُلُّ عليها عبارة: احذروا.

إنّ الأمر باتخاذ الوسائل قضيّة تُفْهم بفحوى الكلام ولوازمه الفكرية، وتفهم أيضاً بإشارة عبارة «خُذوا».

القضية الثالثة:

أمْرُ الله الذين آمنوا بالخروج إلى مقاتلة العدوّ، ومداهمته في مواقعه، وعدَمِ انتظاره حتى يكون هو المهاجم، فإمّا أن يكون على طريقة عصابات أو جماعات متفرقات، أو عَلى طريقة جيشٍ موحَّد مستكملٍ شروطه القتالية، في الهجوم، والدفاع، والانسحاب، والكرّ والفرّ، كلّ ذلك بحسب ما تقتضيه المصلحة التي تُقَدِّرُها القيادة العسكرية المؤهّلة لتدبير شؤون الحرب، فقال الله عزّ وجلّ في الآية:

﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾.

وقد جاء هذا الأمر مُرَتَّباً بالفاء العاطفة على الأمر بأخْذِ الحِذْرِ، ليدُلَّ على أن اليقظة والحذر واتّخاذَ الوسائل، يجب أن تكون قبل الخروج لقتال العدوّ، إذ هي شروط تسبق الشروع بالقتال المطلوب.

وقد خصّ الله عزّ وجلّ في القرآن لفكرة الخروج للقتال في سَبِيلِه مادة «نَفَر» ومشتقّاتِها، وهي ما جاء في هذا النصّ من سورة (النساء) وما جاء في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) في ستة مواضع منها.

أمّا مادة «جاهد» ومشتقاتها فقد جاءت عامّة، للدّلالة على الجهاد بالدعوة والكلمة، والجهاد بالأموال، والجهاد بالأنفس، ومنه القتال.

وأمّا مادة «خرج» ومشتقاتها، فلم تستعمل في القرآن بجانب الدعوة إلى الخروج للقتال، إنّما جاءت في معرض الهجرة، وجاءت في مناسبات الكلام عن المنافقين وخروجهم أو عدم خروجهم مع المسلمين لقتال المشركين.

وسائر النصوص القرآنية في هذا الموضوع جاء فيها استعمال مادّة «القتال» ومشتقاته.

أما القتال فهو التعبير المباشر الذي يدلّ على المقصود، والتعبير به يستدعي لوازمه من الإعداد التّام، والخروج إلى جهة العدوّ إن اقتضى الأمر ذلك، وهذه تُفْهم باللُّزوم الذهنيّ، وقد يدلّ عليها فحوى الكلام.

وأمّا «نَفَر» ومشتقاتُها فالظاهر أنّها اختيرت من الكلمات اللّغويّة لتكون مصطلحاً قرآنيّاً للدّلالة على فكرة الخروج للقتال.

وبين هذا المصطلح وأصل المعنى اللّغوي مناسبة ظاهرة مُرادة، فالنّفر والنُّفور حركة انزعاج تتّجه إلى مواطن الأمن والسلامة بهمّة وقوّة ونشاط، والمطلوبُ في الْخُروج إلى القتال أن يكون مقترناً بهمّة وقوّة ونشاط، وحالَةِ توثُّبٍ نفسيّ وقلبيّ وحَرَكِيّ، لا أن يكون مجرّد خروج بارد، فمُطْلَقُ الخروج قد يكون مقروناً بتكاسل وتثاقل وضعف، والله عزّ وجلّ يُوصِي المؤمنين بخلاف هذا، فكان اختيارُ مادّة «نَفر» ومشتقاتها مصطلحاً للخروج إلى القِتالِ في سبيل الله اختياراً حكيماً مُلاَحظاً فيه المعاني التي سبق بيانُها، مع ما في النَّفر والنُّفور في سبيل الله من نهاية سعيدة فيها الأمن والفوز بجنات النعيم.

الفقرة الثانية: تتضمَّن بيان ظاهرةٍ وتوابعها من الظاهرات السلوكيّة للمنافقين، وقد يشاركهم فيها من هم دون المنافقين من أهل الرّيب، وضعفاءُ الإيمان، وأصحابُ الأهواء الذين تضعُف إراداتهم عن التضحيات، وعن مخالفة مطالب نفوسهم من الحياة الدنيا، هذه الظاهرة دلّ عليها:

قَوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

(١) قرأ ابن كثير وحفصٌ ورُوَيس: [كَأَنْ لَمْ تَكُنْ] بالتاء الفوقية.

(٢) وقرأ باقي القراء العشرة: [كَأَنْ لم يَكن] بالياء التحتيّة.

فالقراءة الأولى جاءت مطابقة لتأنيث «مودّة» والقراءة الأخرى روعي فيها أنّ «مودّة» تأنيثها مجازي، مع وجود الفاصل الذي يحسُن معه التذكير.

في هذا النص أربع قضايا متداخلةٍ منصوصٍ عليها، وقضايا أخرى تفهم من فحوى النصّ باللّزوم الذهني، أو بدلالات نصوص أخرى مقيّدةٍ أو شارحة لبعض ما جاء فيه من أفكار، أو بدلالاتٍ إلماحيّة في النص.

ففيه خطاب المؤمنين بأنّ فريقاً يَعُدُّونهم منهم بحسب ظاهر انتمائهم، توجد منهم ظواهر من السلوك عند الدعوة إلى النَّفْرِ لقتال الأعداء من أهل الكفر، منافية لما يدفع إليه الإيمان الصحيح الصادق، فهي من الأمارات على النفاق أو الشك أو ضعف الإيمان.

* فيوجد من هذا الفريق تباطُؤٌ عن الخروج مع المؤمنين للقتال، أخذاً من بطُأ اللازم.

* ويوجد منْهُ تثبيط لغيره عن الخروج للقتال، أخذاً من بطَّأ المتعدي. ففعل «لَيُبَطِّئَنَّ» مستعمل في مَعنيَيْه.

هذا في بداية الأمر عند الدعوة إلى النَّفْر، أمّا بعد انتهاء لقاء الأعداء في مواجهةٍ قتاليّة، فالنصّ يخاطب المؤمنين بما يتضمّن ما يلي: إنّكم إمّا ممتحنون بمصيبة أصابتكم في لقائكم لعدوّكم، كقتل أو جرح أو هزيمة أو خسارة ماليّة، وإمّا مُمْتحنون بفضل من الله أصابكم، من نصرٍ وغنيمةٍ وتحقيقٍ لما ترغبون.

* فإن أصابتكم مصيبة على أيدي عدوّكم، وقد أذن الله بها لحكمةٍ يُريدُها، كامتحانكم، وتربيتكم وتأديبكم، وإجراء سنّته في عباده، قال هذا الفريق: قد أنعم الله عليّ إذْ ألهمني أن لا أخرج مع المؤمنين، فلا أكونَ معهم شاهداً حاضراً هذا اللّقاء الخاسر الذي جلَبَ المصيبة لهم، وهو تعبير فيه نفثات الشماتة، ويدلّ على كذب ادّعاء الإيمان، أو على الشك أو ضعف الإيمان.

* وإنْ أصابكم فضلٌ من الله، فظفرتم وغنمتم ندمَ وتحسّر على ما فاته من غنيمة ومن سَتْر حالِه بين المسلمين، وقال متندّماً مُتحسّراً، يا ليتني كُنْتُ معهم فأفُوزَ فوزاً عظيماً، إنّ كلَّ هَمِّهِ محصور بأمور الدّنيا، لذلك لا يرى الفوز العظيم إلاّ المكاسبَ منها، والغنائم من زينتها ومتاعها.

لماذا يتندّم ويتحسّر؟ ألم يكن بحسب الظاهر واحداً منكم إسلاماً وإيماناً فيما يُظْهِرُ لكم من أمْرِه، يُبادلكم المودّة، ويُظهر لكم أنه يحبّ الخير لكم؟

لماذا طفح الحسد في نفسه، فعبّر عنه لسانه بالتحسّر؟ إن صاحب المودّة الصادقة لا يَحسُد على نعمة أصابها من يودّه، بل يفرح له بها، ويدعو اللّهَ أن يجعلها له متاعاً حسناً، وعَوْناً له على طاعة الله وتحقيق مراضيه، واختيرت فكرة المودّة دون صدق الإيمان للدلالة على أنّ العبارة عبارة حسد.

ما الذي كان يمنعه من الخروج مع المؤمنين حين دُعُوا لقتالِ عدُوّهم؟ ألم يكن بحسب ادّعائه واحداً منهم؟

إذن: فحال هذا الفريق المتخلف بعْدَ انتهاء معركة المواجهة للعدوّ:

* إمّا شامت، أو قريب منه، بحسب كفره أو شكّه أو ضعف إيمانه، لذلك جاء التعبير القرآني صالحاً ملائماً لكل ذلك، فقال تعالى معبّراً عن مقالته:

﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾.

* وإما حاسد، ويستوي في الحسد المنافق والشاكّ وضعيف الإيمان، فجاء التعبير القرآنيّ ملائماً للمنافق الحسود، ومن يكون مثله في الحسد ممن هو دونه، فقال تعالى معبّراً عن مقالته:

﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

ونلاحظ في النصّ أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل عبارة: ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ معترضةً بين: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ وبين ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عظيماً﴾ للدلالة على أنها عبارة حسَدٍ ثائر، ولتدلّ بالتقابل على أنّ عبارة ﴿قَدْ أنعم الله عليَّ إذْ لم أكن معهم شهيداً﴾ هي عبارة شماتة أو قريب منها.

أمّا الدوافع لهذه الظواهر السلوكيّة، فنستطيع استنباطها بالتأمل في أصل الموضوع المرتبط بالإيمان وجوداً، أو انعداماً، أو شكاً، أو نقصاناً. والله أعلم.

وننظر في المتقابلين:

(١) ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ﴾.

(٢) ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ﴾.

فنرى الأوّل من غير تأكيد «فإنْ» للدلالة على نَدْرته وقلّته.

ونرى الآخر مؤكّداً «ولَئِنْ» للدلالة على أنّه هو القاعدة المؤكّدة بالنسبة إلى المؤمنين، إذا التزموا بالشروط التي يستحقون بها نصر الله لهم، وإمدادهم بمعونته وفضله.

ونرى أنّ الأول جاء التعبير فيه بعبارة [مصيبة].

ونرى أن الآخر قد جاء التعبير فيه بعبارة [فضل من الله].

ومقتضى المتبادر من التقابل أن يكون التعبير بعبارة: «نعمة».

فما الحكمة من ترك هذا المتبادر؟

بالتفكر والتدبّر نُلاحظ أنّ أصل الكلام قبل اختصاره واختزاله هو على نحو ما يلي:

فإنْ أصابتكم مصيبة بإذن الله وتمكينه على مقتضى حكمته في التربية والتأديب والامتحان وإجراء سننه العامّة قال: قد أنْعم الله علي إذْ ألْهمَني فلم أكُنْ معهم شهيداً حاضراً المعركة. ولَئِنْ أصابتكم نعمةٌ من فضل الله عليكم بمقتضى حكمته، ليقولَنّ: يا ليتني كنت مَعَهُمْ فأفوز فوزاً عظيماً.

وعند الاختزال والاختصار حُذِفَ من الكلام ما هو معلوم في تصاريف الله ومقاديره، إذ قد جاء بيانه في نصوص قرآنيّة أخرى، وهو ما يدلّ على حكمة الله، وحُذِف أيضاً ما يمكن إدراكه ولو لم يذكر في صريح اللفظ ما يدلّ عليه.

وحُذِفَ من ثاني المتقابلين ما يُقابل لفظ [مصيبة] مثل كلمة: «نعمة» استغناءً بدلالة التقابل، وحلّ محلّ المحذوف عبارة [فضل من الله].

وحُذِفَ من أوّل المتقابلين ما يقابل عبارة [فضل من الله] مثل عبارة: «بإذن الله وتمكينه» استغناءً بدلالة التقابل أيضاً.

فجرى حذف من الأوائل لدلالة الأواخر، وحذفٌ من الأواخر لدلالة الأوائل، وهذا ما يُسمَّى عند أهل البديع «الاحتباك».

ونلاحظ أنّه جاء في أوّل المتقابلين فعل [قال] بصيغة الفعل الماضي، للإشارة إلى أنّ قوله هذا قد حصل فعلاً، بعد موقعة مضت، ونأخذُ من فعل الشرط أنّه سيقول هذا القول بعد كلّ موقعة قادمة تحصُل فيها هزيمة للمسلمين. أمّا ثاني المتقابلَيْن فقد جاء التعبير فيه بصيغة: [لَيَقُولَنّ] وهي صيغة مؤكّدة تدلّ على المستقبل، ونفهم من هذا أنّه لم يقُلْ بَعْدُ هذا القول، لكنّ واقع حاله النّفسيّ بسبب نفاقه أو شكّه أو ضعف إيمانه، لا بُدّ أن يُفرز مثل هذا القول.

* * *

الفقرة الثالثة: تتضمّن حثّ المؤمنين الراغبين في الآخرة وما أعدّ الله فيها من أجرٍ عظيم، أن يبذلوا متاع الحياة الدنيا، ويُضحُّوا بها، مقاتلين في سبيل الله، وهم إذا فعلوا ذلك أصابوا إحدى الحسنيين مع الأجر العظيم عند الله. فإمّا أنْ يُقْتَلُوا وإمّا أن يَغْلِبُوا عدوّهم إذْ ينصرهم الله عليه.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾.

في هذه الآية قضيتان:

القضيةُ الأولى:

دعوة المؤمنين الذين ارتقوا في مراتب الإيمان فكانوا من أهل مرتبة البرّ، أو أهل مرتبة الإحسان، إلى أن يقاتِلُوا في سبيل الله.

وقد دلّنا على أنّهم قد ارْتَقَوْا فَوْقَ مَرْتَبَةِ التقوىٰ (وهي مرتبة تأدية الواجباتِ وتركِ المحرَّمات) أنَّ الله عزّ وجلّ ذكرهم بوصفٍ مُتَكَرِّر فيهم، يَبْرُزُ في مُتَجَدِّد سلوكهم، وهو كونهم يَبْذُلُونَ الحياة الدنيا ومتَاعَها وشهواتِها ومطالبَ أهوائهم منها، ابتغاء الظفر بثواب الآخرة، فهم كلّما أرادوا سلوكاً ما ورَأَوْا أنَّ تحقيق ثواب الآخرة يتطلَّبُ منهم التضحيةَ بما يُحِبُّون من زينة الحياة الدنيا، ضَحَّوْا به، طمعاً بما هو خيرٌ عند الله.

ففِعْلُ [يَشْرُون] بمعنىٰ يبيعون، وهو فعل مضارع يُفيد التجدُّدَ والدّوام، يدلّ على تكرّر هذه الظاهرة في سلوكهم.

وهذه التضحية المتجدّدة في السلوك تكون في أعمال البرّ، وأعمال الإحسان، كالإنفاق فوق ما يجب إنفاقه، وقيام الليل فوق الفرائض، وصيام النوافل المسنونة، وأنواع التطوّع في مختلف العبادات، وكالصبر في البأساء والضرّاء، والعفو والصفح عن المسيء، والحِلْم، والاشتغال بمجاهدة النفس لاكتساب فضائل الأخلاق فوق المقادير الواجبة منها إلى غير ذلك، وكَتَرْك المكروهات وما هو خلاف الأولى ممّا لا يليق بالمقرّبين أن يفعلوه.

ومن هذا نُدْرِكُ أنَّ الأمر في قوله تعالى:

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أمْرٌ ترغيبيٌّ، وليس أمراً إلزامياً، لأنَّهُ مُوَجَّهٌ للذين من عادتهم أنّهم يَشْرُون «أي: يبيعون» الحياة الدنيا بالآخرة، وليس موجّهاً لمطلَقِ المؤمنين، و لمطلق المسلمين.

أمّا المراد من الحياة الدنيـا، فما فيهـا من متاع وزينـة وما تحبّ النفـوس وتهوى وتشتهي. وأمّـا المراد من الآخـرة، فما فيهـا من ثواب جسيم وأجـر عـظيم في جنّاتِ النعيم.

والكلام على تقدير يبيعون متاع الحياة الدنيا بثـواب الآخرة، أقيم المضـاف إليه فيهما مقام المضاف المحذوف.

القضيـة الثانيـة:

وَعْدُ من يُقَاتِلُ في سبيل الله صـادقاً محتسبـاً أَجْرَهُ عنـد الله، بأنّ الله سـوف يؤتيه يوم الدّين أجراً عظيماً.

* قول الله تعالى:

﴿وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

لا بدّ أن يُحْمل عَلىٰ كونه صادقاً محتسبـاً أَجْرَهُ عنـد الله، لأنّ المنافق والمـرائي لا يكون قتالُهُـمـا ــ ولو قـاتَلا ــ في سبيـل الله، والكافـر لا يكون قتـاله في سبيـل الله، والذي يقاتل للمغانم، أو ليُقَال إنّه شجـاع، أو للفخر، أو ليـدافع عن أحسـاب قومـه، أو ليحقق أمجاداً لهم، لا يكون قتالُه في سبيل الله، فسبيل الله له شرطان:

الشرط الأول: قلبـي، وهو أن ينوي به رضوان الله وطلب ثوابـه، وهذا لا يكـون إلّا من مؤمن.

الشرط الثاني: أن يكون لإعلاء كلمـة الله ونصرة دين الله، وضمن مـا شرعـه الله وأذن به في القتال.

إذا تحقّق هٰذان الشرطان كان القتال في سبيل الله.

* قول الله تعالى:

﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾:

نـلاحظ فيـه الاقتصـار على احتمـالي الشهـادة أو النّصـر، ولم يتعـرّض النصّ للاحتمال الثالث، وهو الهزيمة والفرار، ولا للاحتمـال الرابـع وهو الـوقوع في الأسـر، فما الحكمة في هذا؟

بالتفكُّر والتدبّر ندرك ما يلي:

(١) أنّ الله عزّ وجل أمر في أوّل النّص بأخْذِ الحِذْر، وفهمنا من ذلك أنّ إعداد كامل الوسائل القتالية للمعركة ضمن أنظمة الله السببيّة في كونه هو من لوازم أخذ الحذر.

إذن فالمواجهة فيها كفاية لاكتساب النّصر بالنسبة إلى الوسائل.

(٢) أنّ المؤمن يرجو من الله ما لا يرجو عدوّه الكافر المقاتل له، فهو يباشر قتاله بكلّ شجاعة، ثقةً بوعد الله، وطمعاً فيما عند الله من أجر عظيم.

إذن فهو لا يجْبُن ولا يضعف، فلا ينهزم ولا يفرّ، ولا يمكّن العدوُّ من أسره إلاّ عند الضرورة القصوى.

(٣) أنّ الدّعوة موجَّهةٌ للأبرار والمحسنين، وهؤلاء متفوقون في مراتب الإيمان، فالاستشهاد من قِبَلِ أفرادهم هو السبيل لتحقيق انتصار جماعة المسلمين على عدوّهم.

إذن: فالواحد منهم إمّا أن يُقتَلَ وإمّا أنْ يَغْلِبَ، فلا يفِرّ، ولا يُمَكِّن عدوَّه من أسره إلاّ مضطرّاً.

أما الانسحاب من المعركة فهو أمر لا يقرّرهُ الفرد المقاتل، وإنّما يُقرّره أمير الجيش وقادة عمليّاته، فما دام التوجيه للقتال قائماً مستمراً، فليس أمام الفرد المقاتل إلاّ أن يُقْتَلَ أوْ يَغْلِب، فإن فرَّ فهو متولٍ عند الزّحف، ويكون تولّيه من الكبائر الكبرى، وهذا لا يفعله المتقون فضلاً عن الأبرار والمحسنين، وأما أسره فيستبعده النصّ عن الذكر، ليستبعده المقاتل عن تصوّره، حتى يكون ضرورة.

* قول الله تعالى:

﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

وعدٌ ربّانيٌّ بأجرٍ عظيم.

الفاء واقعة في جواب الشرط (وَمَنْ يُقَاتِل).

﴿سوف﴾: حرف استقبال، قيل: هو مثل السين، يختصّ بالمضارع، ويخلّصه للاستقبال. وقيل: هو أوسع من السين استقبالاً، أي: فهو للمستقبل البعيد.

﴿أجراً عظيماً﴾: جاء لفظ «أجر» منكّراً للدلالة على كثرته عدداً، وَوُصِف بأنه عظيم للدلالة على جسامته في كيفيته ونوعه، وثوابُ الله في الآخرة كثير الكمّ، عظيم الكيف.

* * *

الفقرة الرابعة: تتضمّن بيان الموجب لقتال المشركين، وهذا الموجب يتلخّص إبّان نزول النّصّ بأمرين:

الأمر الأول: الانتصار لدين الله الذي يحاربه هؤلاء المشركون.

الأمر الثاني: إنقاذ المستضعَفين في مكة من الرجال والنساء والولدانِ الذين يُضطهدون، ويَدْعُون ربّهم أن يخرجهم منها، ويجعل لهم من لدنه وليّاً، ويجعل لهم من لدُنْه نصيراً.

* فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

في هذه الآية قضيّةٌ واحدة، هي بيان الموجب لقتال مشركي مكّة إبان نزول النصّ، مع الإلماح بالاستفهام إلى الإنكار على الذين يودُّون إعفاءهم من القتال المدعوّين إليه.

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ؟﴾

صُدِّر بالعطف على ما جاء في الآيات السابقات، وهو من عطف الجمل، للدّلالة على أنّ المعطوف تابع للموضوع الذي بدأ به النص، وهو أخذ الحذر، والحثُّ على القتال في سبيل الله.

«ما» اسم استفهام، وهو في محل رفع مبتدأ، ومعناه: أيُّ شيءٍ؟.

«لَكُمْ» متعلق بمحذوفٍ هو خبر، تقديرُه ثابتٌ لكم.

والمعنى الذي يدلّ عليه هذا التعبير هو: أيُّ شيءٍ من الأعذار ثابتٌ لَكُم حالَةَ كونكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ...؟ فجملة ﴿لَا تُقَاتِلُونَ﴾ ولواحقها في محل نصب على أنها حال. والغرض أنّه لا عُذْرَ لكم.

والخطابُ تابعٌ لخطاب الذين آمنوا الذي بدأ به النصّ، فلا الْتِفَاتَ فيه فيما أرى.

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أي: ما لكم لا تقاتلون قتالاً كائناً في سبيل الله، والمعنى أن سبيل الله ظرفٌ له، وسبيل الله يشمل كلّ ما شرعه الله لعباده وارتضاه لهم من الدّين، ويشمل استجماع النيّة في ابتغاء مرضاته، والأجرِ العظيم منه، في كلّ عمل ظاهر أو باطنٍ يكون مطابقاً لما شرعه، أو أوصىٰ به، أو رغّب فيه، أو اذن به.

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾.

أي: وفي سبيل نُصْرَةِ وإنقاذ هؤلاء المستضعفين.

ومع أنّ نصرة هؤلاء بالقتال، هي من القتال في سبيل الله، لأنّ الله يأمر بنُصْرَتهم ويحُثُّ عليها، إلاّ أنّ في ذكرهم استثارةً للْعَاطفة نحوهم، باعتبارهم إخواناً في الإيمان والإسلام، وهم في مكة يتعرّضون لظلمٍ واضطهادٍ من قبل أئمة المشركين فيها،

فالأخوَّةُ الإيمانية تَسْتحثُّ العاطفة لإنقاذهم، بعد أن جاء الإذن بقتال هؤلاء المشركين، وعدم كفِّ الأيدي عنهم.

هذا النَّصّ وارد بمناسبة المستضعفين في مكّة إبّان نُزول سورة (النساء) ولكن له حكم القاعدة العامة، إذ يقاس عليه كلّ أحوال المستضعفين من المؤمنين في كلّ بلد وفي كلّ عصر، إذا استطاع إخوانهم نصرتَهُمْ، فالله عزّ وجلّ يقدّم لنا الأمثلة والنماذج لنقيس عليها أمثالها وأشباهها.

والمستضعفُون كانوا رجالاً لا يستطيعون المقاومة ولا الهجرة، ونساءً، وصغاراً من صبيان وبناتٍ لا يجدون حيلة، وعبيداً أرقاء وإماءً.

وقد رُوي عن ابن عبّاس أنّه قال: «كنتُ أنا وأُمّي من المستضعفين».

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾:

أي: إنّ هؤلاء المستضعفين يدعون ربّهم بهذا الدّعاء، فيخبر اللّهُ به إخوانَهُم المؤمنين في المدينة.

هذا الدُّعاء يشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا. دلَّ هذا المطلب علىٰ أنّهم غَيْرُ مُمَكّنين من الهجرة، وأنهم لا يَجِدُون حيلة ولا وسيلة للخروج، بغية الخلاص من ظروف الاضطهاد الذي هم فيه.

ودلّ على أنّهم مظلومون مضطهدون وصْفُهُمُ القريةَ وهي مكّة يومئذٍ بأنّ أهْلَها ظالمون.

الظالمِ أَهلُها: «الظالم» نعتٌ سببيٌّ للقرية، وهو في الحقيقة وصف لأهلها، والنعت السببيُّ يطابق ما قبله في حركة الإعراب، وفي التعريف أو التنكير، ويراعىٰ

في تذكيره أو تأنيثه ما بعده، ويكون مفرداً دائماً إلّا جمع التكسير، فيجوز فيه الوجهان: الإفرادُ وجمع التكسير.

المطلب الثاني: وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً. أي: مَنْ يَتولّى أمورنا، غير أوليائنا الذين يضطهدونَنا ويظلمونَنا من المشركين، من أجل إيماننا بدينك، وإسلامنا لك ولرسولك.

الولي في اللّغة: من يتولّى أمور من هو تحت رعايته وإدارة شؤونه وتدبيرها، فوليّ اليتيم هو الذي يلي أموره ويقوم بكفايته، ووليّ المرأة الذي يتولّى عقد نكاحها.

المطلب الثالث: واجعلْ لنا من لَدُنْكَ نصيراً. أي: ضاقت حيلَتُنا، فلا نجد من إخواننا مَنْ ينصرنا، وإننا نعذُرهم فوضعهم ربّما لا يسمح لهم بنُصرتنا، فاجعل لنا من لَدُنْكَ أنت نصيراً ينصرنا ويُنْقذنا، فيرفع عنا الظلم والاضطهاد، حتى نمارسَ ديننا بحرّيّة.

* * *

الفقرة الخامسة: تتضمن بيان الفروق ما بين قتال المؤمنين وقتال الكافرين، مع حث المؤمنين على قتال الكافرين ملاحظين أن كيد الكافرين الحربي كَيْدٌ ضعيف دواماً، لأنّ الشيطان الذي يقاتلون في سبيله ذو كيدٍ ضعيف دواماً، أمّا الله الذي يقاتل المؤمنون في سبيله فكَيْدُه الذي أوصاهم به في الحرب كَيْدٌ متين، مع ما يمدّهم به من عونٍ غيبيّ، لا يدخل في حساب الأسباب البشريّة.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾.

في هذه الآية ثلاث قضايا:

القضية الأولى:

بيان أنّ الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً بالله ورسوله واليوم الآخر، وبكلّ ما جاء به الرسول ﷺ عن ربّه وما أذن له به، إذا قاتلوا وفق ما يقتضيه إيمانُهم منهم،

فإنّهم يقاتلون في سبيل الله، أي: ضمن سبيله منهجاً وعملاً وغاية ونيّة، فلا ينحرفون عنه.

وحين يخالفون فلا يَلْتزمون المنهج، ولا يتقيّدون بالعمل الإسلامي المشروع في القتال، ولا يتقيّدون بالغاية الإسلامية، ولا بنيّة ابتغاء مرضاة الله وثواب الآخرة، فإنّهم يَتنكّبُونَ سبيله بمقدار المخالفة، فيُحْرَمُون من النتائج التي يحبّونها على مقادير تنكّبهم.

قول الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾:

أي: الذين يصحّ أن ينطبق عليهم كمال هذا الوصف.

قول الله تعالى:

﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أي: يتقيدون في قتالهم بحدود سبيل الله منهجاً وعملاً وإعداداً وغاية ونيّة، ما داموا متحلّين بكمال وصف الذين آمنوا، وسبيل الله يجمع كلّ عناصر الخير.

ومع أنّ التعبيرَ تعبيرٌ خبريّ يَدُلّ على اللّزوم بين كمال الإيمان والقتال في سبيل الله، فهو يتضمّن توجيهاً للذين آمنوا بأن لا يقاتلوا إلاّ في سبيل الله منهجاً وعملاً وغاية ونيّة.

القضية الثانية:

بيانُ أنّ الذين كفروا يقاتلونَ في سبيل الطّاغوت، أي: في سبيل الشيطان الذي يمثل الداعي إلى كلّ شرّ، فسبيل الشيطان بوجه عامّ يحتوي على كلّ عناصر الشرّ، والسالكون فيه يمارسون من الشرور على مقادير تأثرهم بإغواء الشيطان.

قول الله:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: والـذين رفضُوا الإيمـانَ وأبَوْا أنْ يُسْلِمُوا، بعد إعلامهم بأركان الإيمان

مقرونةٌ بأدلّتها، ما دفعهم إلى هذا الكفر إلّا تأثُّرهم بإغواء الشيطان، فهم إذا قاتلوا المؤمنين فإنّهم يقاتلونهم ضمن حدود سبيل الطاغوت.

لذلك وصفهم الله بقوله:

﴿ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾.

وسبيل الطاغوت سبيل يحتوي على كلّ الشّرور، فهم يَسلكون في قتالهم هذا السبيل.

وقد دلّ على أنّ المراد من الطاغوت هنا الشيطان ما جاء في تتمة الآية.

القضية الثالثة:

حثّ الذين آمنوا على أن يقاتلوا الكافرين باعتبارهم أولياء الشيطان، وناصري الشرور التي يدعو إليها، مع ترغيبهم بأنّهم أقوى منهم، وسينتصرون عليهم، نظراً إلى أن كيد الشيطان ضعيف دواماً، فكيد أوليائه الذين يقاتلون في سبيله، وضمن خططه ووصاياه التي يوسوس بها، وتهديهم إليها أفكارهم الشيطانية، هو كيد ضعيف، بالنسبة إلى قوى المؤمنين الذين يتقيدون بحدود سبيل الله إعداداً ومنهجاً وخطة وعملاً وغاية ونيّة، ويتلقَّوْنَ من الله المدد والعون، لينصرهم على عدوّهم.

قول الله تعالى:

﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ ﴾:

خطاب للذين آمنوا، وهو أمر ترغيبيّ كما سبق بيانه.

قول الله تعالى:

﴿ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾:

أي: الذين كَفَرُوا، وقد ذكرهم الله بوصف آخر من أوصافهم، وهو أنّهم أولياءُ الشيطان، أي: نُصَراؤه ومؤيّدو خططه وأعماله التي يدبّرها لإغواء بني آدم أجمعين، فالذين كفروا قد جنّدوا أنفسهم في كتائب الشيطان، لكنّهم مهما دبّروا من مكايد ضدّ الذين آمنوا فمكايدهم شيطانية ضعيفة بالنسبة إلى قوى الذين آمنوا، إذا كانوا حقّاً يقاتلون في سبيل الله منهجاً وخطّة وعملاً وغايةً ونيّة وإعداداً.

قول الله تعالى:

﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾:

أي: إنّ كيد الشيطان هو ضعيف دواماً، إذ فعل «كان» يدلُّ في الصفات على الكينونة المستقرّة المستمرّة غالباً.

* * *

الفقرة السادسة: تتضمّن بيان ظاهرة من ظواهر النفاق وهي ظاهرة إبداء الرغبة بالتعجّل قبل الإذن بالقتال، والخوف منه عند الإذن به أو الأمر به، مع التسويف وطلب تأخيره إلى أجلٍ قريبٍ على سبيل المماطلة.

وهذه الظاهرة قد تكون من أهل الشكّ والرّيب، ومن ضعفاء الإيمان، ومن أهل الجبن والتعلّق بالحياة الدنيا، وربّما كان هؤلاء هم المقصودون، بالدرجة الأولى لأن المرحلة المكية لم يكن فيها نفاق، والمسلمون فيها هم الذين طُلِبَ منهم كفّ أيديهم.

وتتضمّن التوجيه الربّاني حول هذه الظاهرة.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

في هذا النصّ قضيتان:

الأولى: بيان الظاهرة المستنكرة، مع التعجب منها والتوجيه لاستنكارها.

الثانية: التوجيه الرّباني الإقناعي لمعالجتها.

القضيـة الأولـى:

يوجه الله النظر الفكري بأسلوب الاستفهام الإنكاريّ التعجيبي، لاستثارة

العجب والاستنكار لظاهرة ذات طرفين متضادّين متخالفين حول موضوع واحد، هي ظاهرة التحمّس للقتال عند الأمر بالكفّ وعدم الإذن به، والتخاذل عنه وطلب التأجيل مماطلة وتسويفاً عند الأمر به.

والخطاب موجّه بصيغة المفرد للرّسول أوّلاً، ومن بعده إلى كلّ ذي نظر فكريّ.

قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

أي: ألم تُدرِكْ ببصيرتك الفكريّة؟ والاستفهام هنا استفهام تعجيبي استنكاري.

قول الله تعالى:

﴿إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾:

أي: قيل لهم لا تقاتِلُوا الكفّار والمشركين الذين يضطهدونكم من أجل دينكم، وكان هذا ظاهراً في المرحلة المكيّة، التي لم يكن فيها منافقون يومئذ، ورُوِي عن ابن عبّاس أنّ من هؤلاء: «عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والمقداد بن الأسود، وقدامة بن مظعون، وأصحابهم».

وربّما كان من المنافقين وأهل الريب والشكّ وضعفاء الإيمان في أوائل المرحلة المدنية قبل الأمر بالقتال تظاهُرٌ بالتّحمُّسِ لمقاتلة مشركي مكةّ لأسباب مختلفة، فقيل لهم: كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ.

قول الله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾:

أي: حافظوا على حدود ركني إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فدلّ هذا على أن ركني الصلاة والزّكاة من أركان الإسلام كانا قد شُرِعَا والمسلمون ما زالُوا مأمورين بكفّ أيديهم عن قتال أعدائهم، وقد جاء في عدد من السّورالمكية الحث على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو في مضمونه أمر تكليفي.

(١) ففي معرض الحديث عن موسى عليه السلام وبني إسرائيل قال الله

عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ...﴾.

(٢) ثم في صدر سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) المكية، قال الله عزّ وجلّ:

﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾.

(٣) ثم أنزل الله عزّ وجلّ في صدر سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول) وهي سورة مكيّة قوله تعالى:

﴿الم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

(٤) ثم أنزل الله عزّ وجلّ في أواسط العهد المكيّ وعيداً للمشركين بالويل، ذاكراً من صفاتهم أنّهم لا يُؤْتُونَ الزكاة، فقال تعالى في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾﴾.

(٥) ثُمّ أنزل الله عزّ وجلّ في أواخر العهد المكي الأمر بإيتاء ذي القربى حقّهُ والمسكينِ وابْن السبيل ووعد على ذلك بالفلاح لمن يريد به وجه الله، ومهّد لتحريم الرّبا بأنّه لا يربُو عند الله، ورغّب في إيتاء الزكاة بالوعد بالإخلاف المضاعف، فقال تعالى في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

فهٰذه النصوص المكيّة تَدُلُّ على أنّ الزكاة كانت واجبة مُنْذُ الْعَهْدِ المكي. فقول الفقهاء: إنّ الزكاة شُرِعَتْ في السنة الثانية من العهد المدني ينبغي أن يُحْمَل على معنى قيام الدولة الإسلامية بجبايتها، وتوزيعها على مستحقيها، أوعلى تحديد المقادير المفروضة منها في مختلف الأموال، بينما كان التكليف تكليفاً عامّاً يتبع الحاجات والضرورات.

قول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾:

أي: فحين بُتَّ الإِذْنُ بالقتال ثمّ الأَمْرُ بِهِ، وجاء التعبير عن إبرام الأمر وبتّه بالكتابة، لأنّ من عادة العظماء إذا بتّوا وأبرموا أمراً عامّاً كتبوه، ولم يكتفُوا بمجرّد التوجيه الكلاميّ، وهو من باب إطلاق اللاّزم وإرادة الملزوم.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ ... ﴿٧٧﴾﴾.

«إذا» فُجَائيّة كما سبق، والمعنى أنّ فريقاً من الذين كانوا يتعجّلُون المطالبة بالقتال قبل الإذن به، ولم يكن من الحكمة في بناء الأمة الإسلامية ذلك التعجل، يُفَاجئون بعد الإذن بالقتال والأمر به بظاهراتٍ ثلاث مضادّة لمَا كانوا يُبْدُونَه من رغبات التعجّل.

الظاهرة الأولى: خشيَتُهُمْ مِنْ مُلاقاة الناس في الْقِتَال كخشيتهم من ملاقاة الله يوم الحساب أو أشدّ خشية، أو من عقابه المعجل على مخالفة التكليف.

الخشية: حركة نفسيّة، ولكن لمّا كانت لها آثار في السلوك الظاهر كانتْ ظاهرة مُدْرَكَةً بآثارها.

وسبب هذه الخشية كفْرٌ في الباطن وهو عند المنافقين. أو شكٌّ وهو عند أهل

الرّيب بالدين وما جاء فيه. أو ضعف إيمان وهو عند العصاة، أو تعلُّق بالدّنيا وهو عند الغافلين الذين يحبُّون العاجلة. وقد جاء النصّ عامًّا ليشمل كلّ هؤلاء.

وجاء ذكر هذه الظاهرة ضمن ظواهر النّفاق للإشعار بأنّها في الأصل هي من صفات المنافقين، فعلى المؤمنين أن يحذروها لئلا تجرّهم إلى النفاق، ولئلا تكون علامة من علاماته فيهم، وكذلك الظاهرتان الثانية والثالثة.

الظاهرة الثانية: انزعاجُهم وتذمُّرهم من إلزامهم بالقتال، حتّىٰ قالوا: رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنا القتال؟.

أي: أما كان من الممكن أن تنصُرنا على عدوّنا دون أن تُكلّفنا قتاله، فتتولّى أنت إهلاكهم، وهذه مقولة تصلحُ لأن يقولها المنافقون والشاكّون وضعفاء الإيمان والغافلون الذين استأثرت بتصوراتهم الحياة الدنيا، وكذلك من شغلتهم الدنيا عن طلب الآخرة.

ويلاحظ أنّ المطلب هنا مشابه لمطلب بني إسرائيل، إذ قالُوا لموسى عليه السلام:

﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾:

ولكنّه بأسلوب آخر غير مباشر، إنّه أسْلُوب المتسائل عن الحكمة.

وقد أجاب الله عزّ وجل عن هذا التساؤل فيما أنزل في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) التي أنزلت بعد سورتين من نزول سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) فقال الله عزّ وجل فيها:

﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ... ﴿٤﴾﴾:

أي: فحكمةُ الابتلاء في ظروف الحياة الدنيا هي الداعيةُ إلى تكليف المؤمنين قتالَ المشركين، ولولاها لكان أمر الانتقام من الكافرين يسيراً.

أمّا أسلوب بني إسرائيل فهو خَشِنٌ جافٌّ يُعْلِن الرَّفْضَ بوقاحة.

الظاهرة الثالثة: التّسْويفُ والمماطلة بطلب التأخير إلى أجلٍ قريب، دلّ عليها قولهم:

﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍۗ﴾.

بمعنى: هلَّا أَخَّرْتَنَا إلى أجل قريب، والأجلُ القريب الذي يطلبون تأخير إلزامهم بالقتال إليه، قد يُعَلِّلونه بتكاثر عدد المسلمين، أو استكمال استعداداتهم لمقاتلة عدوّهم.

يرى بعض أهل التفسير أنّ المراد من قولهم هذا تأخيرُهم حتى يموتوا موتاً عادياً في آجالهم.

لكنّ هذا التفسير لا يُناسب الموضوع هنا، ولو كان هو المراد لكان التعبير على نحو: لولا أعفيتنا حتى نموت في آجالنا.

فطلبُ التأخير تأجيل وتسويف ومماطلة، ولهذا التعبير نظيران في القرآن هما بمعنى التأجيل لإصلاح الحال واستدراك ما فات:

الأول: ما جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) بشأن بيان طلب الظالمين حين يرون نُذُرَ العذاب النّازل بهم، وهي مقدمات ما أنذرهم به رسولهم، وهو قول الله عزّ وجل خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾:

أي: يُقسِمون أنّهُمْ لا يَتعرَّضون لإهلاكٍ جَماعِيٍّ عقاباً لهم، مع أنهم سكَنُوا في مساكن الّذين أهلكوا من قبلهم إهلاكاً جماعيّاً بسبب أنّهم ظلموا أنفسهم، كما ضرب الله لهم الأمثال من الظالمين الأوّلين الّذِينَ أنزل بهم عقابَهُ فأهلكهم إهلاكاً جماعيّاً.

الثاني: ما جاء في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

فهذا عندما يأتيه الموت، ويُدرِك أنه نازل به، وتنكشف له أشياء من عالم الآخرة، يدعو ربّه أن يؤخّره إلى أجل قريب فيباشرَ ببذل الصدقات وفعل الصالحات، لكنّ الله لا يستجيب لطلبه، ولا يغيّر سنته في امتحان عباده، وإنهاء ظروفه بحلول الأجل المقرّر للموت.

القضيـة الثانيـة:

ما تضمَّنه قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ . . . ﴿٧٨﴾﴾.

في هذا النص يعلّم الله عزّ وجلّ رسولَه فكلَّ مؤهَّل لتقديم الحجج الإقناعية من بعده، كيف يقدِّمُ الحقائقَ الإقناعية للّذين جبُنوا عن قتال الكافرين حينما أَمر اللَّهُ به، بعد أن كانوا يتظاهرون بالتحمُّس لمقاتلتهم حين كانوا مأمورين بكفّ أيديهم، وقالوا بعد الإذن به ثم الأمر به:

(١) ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾؟

(٢) ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

وفي هذا النصّ التعليمي توجيه للإقناع بأربع حقائق:

الحقيقة الأولى: أنّ متاع الحياة الدُّنيا الّذي يحرصون عليه متاعٌ قليل:

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾.

حين يبحث المتفكر المجرّب في الحياة الدنيا يجدُها مزيجاً من المتاعب والآلام والأكدار والمنغصات والكَدُّ والكَدْحِ ولَقَطاتٍ من اللَّذات وسُحُباً ملونةً بأصباغ جميلةٍ من أحلام الأماني.

أمّا ما فيها من لذّاتٍ ملتقطاتٍ من مجموع المزيج، فهي لذّات سريعات عابرات غير مستقرّات، فهي متاعٌ سريع الزوال قليل المقدار.

﴿متاع﴾: المتاع في اللّغة، قال الأزهريّ فأمّا المتاع في الأصل فكلُّ شَيْءٍ يُنْتَفَعُ به، ويُتَبَلَّغُ بِهِ، ويُتَزَوَّدُ، والْفَنَاءُ يأتي عليه في الدنيا.

أقول:

جاء استعمال هذه المادة ومشتقاتها في القرآن زائداً على ستين مرّة، وكلّها فيما يُنْتفع به في الحياة الدنيا وهو عُرْضَةٌ للفَناء، وسُرعةِ الزّوال.

إنّ الأشياء التي يُنْتَفع بها صائرة إلى الزوال بين زمنٍ قصير وزمن أطول. والاستمتاع بالأشياء أكثرُهُ ينقضي في زمنٍ قصير يسير.

* وقد وصف الله عزّ وجلّ الحياة الدّنيا بأنها مَتَاعُ الْغُرُور، والْغُرُورُ هو الْخَدْعُ والإِطْمَاعُ بالْبَاطل، فقال تعالى في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

* ووصف الله عزّ وجلّ كلّ الحياة الدنيا بجانب الآخرة وبالقياس عليها بأنّها متاع، فقال تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

* وأنذر الرسول صالح عليه السلام قومه ثمود بعد أن عقروا النّاقة بالعذاب النازل بهم بعد ثلاثة أيّام وقال لهم كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) في قوله تعالى:

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

فكان بقاؤهم في دارهم في حياةٍ عاديّة ثلاثة أيّام ممّا يصحّ أن يقال بشأنه لهم: «تَمتَّعُوا».

فدلّتنا الاستعمالات القرآنية على أن المتاع والتمتّع والاستمتاع ونحوها تطلق ويراد منها ما يعقبه الفناء، أو هو سريع الزوال.

بخلاف ما في الجنة يوم الدين من خيراتٍ حسانٍ ولذّاتٍ فقد سمّاهُ الله نعيماً مقيماً، وجعل من خصائص أقسام الجنّة أنها جَنَّاتُ النعيم، وقال تعالى في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) بشأنها:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

إن من يؤمن بهذه الحقيقة يزهد في الحياة الدنيا، ويقلّ تعلُّقه بها.

الحقيقة الثانية: أنَّ الآخِرَةَ خيرٌ لِمَنِ اتّقى. أي: من أدنى درجات التّقوى، باتّقاء الخلود في النّار بكلمة التوحيد، حتّى قمّة المتقين، فقمّةِ الأبرار، فقمةِ المحسنين.

خَيْر: أفعل تفضيل، أي: أخير وأحسن وأفضل وأكثر تحقيقاً لمطالب النفوس ولذّاتها. والأخْيَرِيَّةُ تشملُ ما زاد بدرجَة، وما زاد بدرجات لا تُقدَّرُ بمقدار، انطلاقاً إلى غير نهاية، وليس في اللّغات كلمات تدلّ على نِسَب درجات التفاضل، فاقتصر النّصّ القرآنيّ على التعبير بكلمة خير.

لكن جاء في بيان الرسول ﷺ ما يُصوّر كلّ لذّاتِ الحياة الدّنيا وما فيها من متاع، وكلّ آلامها وما فيها من عذاب، بصورة كاشفة لِقَدْرٍ كبير من الحقيقة، فقد روى الإمام مسلم، والإمام أحمد، والنسائيّ والبيهقيّ، عن أنس، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ في جَهَنَّم صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: يا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟

فَيَقُولُ: لاَ واللَّهِ يَا رَبِّ.

ويُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً في الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قطُّ؟ هَلْ مَرَّ بكَ شِدَّةٌ قطُّ؟

فَيَقُولُ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ».

(حديث صحيح)

إنّ من يؤمن بهذه الحقيقة تهون عنده الدنيا، ويسهل عليه أن يبذل نفسه ابتغاء ما عند الله من أجر عظيم.

الحقيقة الثالثة: أنّ الجزاء يوم الدين على السيئات بالعدل الربّاني، وأنّ الجزاء على الحسنات وفعل الخيرات بالفضل الرّباني، لذلك فلا يُظْلَمُ المسيئون ولا يُظلم المحسنون شيئاً مهما قلّ، ولو كان بمقدار أقلّ الأشياء وأحقرها.

دلّ على هذه الحقيقة قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: ولا تظلمون يوم الدين، يوم الحساب والجزاء، عند الله ربّ العالمين، شيئاً مهما كان ضئيلاً حقيراً، كالخيط الذي يكون في شقّ النواة، أو بمقدار ما يفتل الإنسان بين إبهامه وسبّابته من وسخ يجمعه ليرميه.

والسبب في ذلك أنّ الثواب على الحسنات يضاعف أضعافاً كثيرة، وهو في الأصل عطاء بفضل الله، فلا ظُلْمَ فيه، أمّا العقاب على السيئات فيقترن بعفو كثير، والأصل في الجزاء على السيّئات هو ما أبانه الله بقوله تعالى في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ... ﴿٢٧﴾﴾.

إنّ من يؤمن بهذه الحقيقة، يخشى اكتساب السيئات من دركة النفاق إلى دركة المعاصي والمخالفات العادية، ويندفع لفعل الطاعات والصالحات طمعاً بثواب الله عزّ وجلّ.

الحقيقة الرابعة: أنّ الموت المقدّر المقضيّ بقضاء الله وقدرِه حتْمٌ لا مهربَ منه ولا مفرّ، ولا يستطيع مخلوق أن يتّقيه مهما اتّخذ من وسائل يتصوّرُها عاصمةً له من الموت، كبروج مشيْدَةٍ مُحصّنةٍ مَحْمِيَّة ضمْنَ أسوارٍ وحُصُون.

وقد جاء بيان هذه الحقيقة في التعليم بقوله تعالى:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ... ﴿٧٨﴾﴾.

والمعنى: ما الداعي إلى المماطلة والتسويف في موضوع الأمر بقتال أعدائكم، وكلّ إنسان يموت بأجله، سواءٌ أقاتل أو لم يقاتل.

إنّ من يؤمن بهذه الحقيقة يُؤْثِرُ أن يموت شهيداً لينال كرامة الشهداء، وهو خير له عند ربّه من أن يموت موتاً عادياً دون أن يغنم الشهادة وأجرها العظيم وكرامتها عند الله.

* * *

الفقرة السابعة: تتضمّن بيان ظاهرة من ظواهر النفاق لدىٰ المنافقين، وهي ظاهرة نسبة ما يُصيبهم من حسنة بسبب حُسْن القيادة والإدارة النبوية إلى محض القضاء والقدر من الله، ونسبةِ ما يُصيبهم من سيئةٍ إلى سوء القيادة والإدارة النبوية، وتتضمن أيضاً التوجيه الربّاني إلى الحقّ في الذي يصيب الناس من حسناتٍ وسيئات.

قال الله عزّ وجل:

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾.

إيرادُ هَاتين الآيتَيْنِ ضِمْنَ مَوْضوع الدعوة إلى القتال في سبيل الله كما يُلاحظ من سِبَاقِ النَّصِّ وسِيَاقِهِ، قَبْلَهُما وبَعْدَهُمَا، ومَا يَبْرُزُ مِنْ ظَواهِرَ هي في الأَساسِ ظواهرُ نفاق، وقد تظهر من أهل الشك والرّيب، وقد يَظْهر بعضها من ضعفاء الإيمان، ومن أهلِ الغفلات الذين سيطرت الحياةُ الدُّنيا على أفكارهم وتصوّراتهم مع صحة إيمانهم، يدلُّ على أنّ هذه الظاهرة الّتي كشفتها وعالجتها هاتان الآيتان ظاهرة نفاقيّةٌ تَبْرُزُ عند الحصائل التي تكونُ من النتائج القريبة للمعركة القتاليّة، في أثناء القتال أو بعد انتهاء المعركة. وهذه الحصائل منها ما يَسُرُّ كالنصر والغنيمة، وكلُّ واحدة مما يسرّ تُسمّى في اللّغة: حسنة، ومنها ما هو مكروه كالقتل والجرح والخسارة والهزيمة، وكل واحدة من النّوازل المكروهات تُسمّى في اللغة: سيئة.

فالمنافقون في حالة ظفر المؤمنين بما يحبّون من حسنات نَصْر وغنيمة، يقولون:

هذه من عند الله، أي: من محض فضل الله في عطائه، ولم يكن لحكمة الرسول في إدارته وسياسته وقيادته وأمره بقتال العدوّ تسبُّبٌ في إكرام الله لهم بالنّصر والغنيمة.

وهٰذِهِ في المنافقين بين المسلمين، وهم في باطنهم مشركون يؤمنون بالربّ الخالق، ويشركون به، ولا يؤمنون بالرّسول، نظير مقالة المادّيّين الملحدين الذين يجحدون الرّبّ الخالق، إذْ يَقُولُونَ عمّا يناله المؤمنون من فضل الله، هذا قد جاء على سبيل المصادفة.

والمنافقون في حالة إصابة المسلمين بما يكرهون من سيئات قتلٍ أوْ جَرْحٍ أو خسارةٍ أو هزيمة، يُلْقُون تبعة ذلك على الرسول ﷺ، وأنّه قد كان بإدارته، أو قيادته، أو أمره بالخروج إلى قتال العدوّ، هو السبب فيما نزل بالمسلمين من سيئات يكرهونها.

هذا ما يَدُلُّ عليه سباق النّصّ وسياقه، ولا يمنع أن تكون هذه الظاهرة من الظواهر التي تكون أيضاً في الأحوال العاديّة، عند نزول النعم والمصائب التي يُصرّفُها الله كما يشاءُ في عباده، للابتلاء، أو التربية، أو الجزاء، فحين تنزل النّعم، يقول المنافقون: هذه من عند الله، أي: هي عطاء من خزائن ملك الله. وحين تنزل المصائب، يقول المنافقون مُتَطَيِّرين بالرّسول ضمْنَ خرافة التشاؤم بالأشخاص ذوي الإدارة والسلطان والحكم: هذه من عندك. أي: من الشؤم الذي هو عنْدَكَ، الجالب للمصائب والمكاره.

وهذا كلامٌ لا يقولُه إلاّ المنافقون، وأهلُ الرّيبِ الّذين رجَحَتْ لَدَيْهم كِفَّةُ التكذيبِ على كِفَّة التصديق.

وهذه الطِّيَرة معروفةٌ في الناس قديماً، ولا سيما عند أهل الكفر بالله وبحكمته، فمن أمثلتها ما كان يقوله آل فرعون في عهد موسى عليه السلام، وهو ما ذكره الله بقوله في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

ونتساءل: هل كانوا يواجهون الرّسول ﷺ بقولهم حين تصيبهم السيِّئة: «هذه من عندك»؟

لدينا احتمالان:

- **أرجحهما فيما أرى**: أنّهم كانوا يقولونها في نفوسهم وهمساً فيما بينهم وهم في مجلس الرسول. فالله أذاعها وكشفها لرسوله ولسائر متلقّي الذكر الحكيم، وأعلمهم بذلك أنّ ما يُسِرُّون به لا يخفى على الله منه شيء، ويتضمّن هذا الإعلان حجّةً عليهم بأنّ محمّداً هو رسول الله حقاً وصِدْقاً، ووسيلةَ إقناعٍ لأهل الرَّيْب بصدقِ الرسول.

- **الاحتمال الثاني**: أن الله يخبر رسوله خطاباً بمضمون ما يقولون في غيبته عنه، وهذا من أساليب الكلام الخبريّ القائم على إخبار المخاطب على سبيل الخطاب بما جرى الحديث عنه بضمير الغائب، كأن تقول لمخاطبك: فلانٌ أثنى عليك، فقال: أنت عالم فصيح اللّسان، شجاعٌ في الحقّ، جواد. مع أنّه قال في غيبته: هو عالم. . . إلى آخر الكلام.

أمّا موضوع ما ينزل بالناس من حسنات «أي: مِنْ نِعَمٍ» وما ينزل بهم من سيئات «أي: من مصائب» فيتعلّق به قضيتان:

القضيـة الأولـى:

هي قضيّة الفاعلِ الحقيقيّ لما يَنْزِلُ من نِعَمٍ ومَصَائبَ، والمرسلِ لها من خزائنِ ملكه التي هي عنده في كونه.

ففاعلها جميعاً، ومُرْسِلُها جميعاً من عنده، إنّما هو الله عزّ وجلّ، وذلك إنّما يتمُّ بأمره سبحانه، وهو أمر التكوين، لما أراد ممّا قدّره بمقاديره، وأمضاهُ بقضائه.

ودفعاً للالْتِباس والخلْطِ بين الأسباب والحِكَم والْفِعْلِ التنفيذي الذي هو تكوين لما قضاه الله وقدّره، قال الله عزّ وجلّ مُعَلّماً رسوله فكلَّ داعٍ من بعده، أن يقول للذين قالوا ما سبق بيانه، ولأشباههم:

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

أي: كلُّ ما يجري في الكون ومن ضمنه الحسناتُ والسيّئات «أي: النِّعَمُ والمصائبُ» الّتي تنزل بالعباد هي من عند الله، وظاهرٌ أنّها لا تُفْرَزُ من خزائِنِه إلاّ بأمْرِهِ، وبقضائه وقَدَرِه وإرادته.

وهذه قضيّةٌ هي من بدهيّات القاعدة الإيمانية، التي جاء بيانها فيما نزل من قرآن طَوال العهد المكّي ونحو ربع العهد المدنيّ قبل نزول سورة «النساء» وجاء بيانها على لسان الرسول ﷺ خلال هذه المدّة، وكان على الّذين تحدَّث الله عنهم بقوله:

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ... ﴿٧٨﴾﴾.

أن لا تَخْطُرَ على نفوسهم خَواطر الشِّرْكِ السَّبَبِيّ، ولا خواطر الشرك الخرافيّ القائم على التطيّر، لذلك قال الله بشأنهم:

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾؟!.

أي: أيُّ شيءٍ ثابتٌ لهؤلاء من انحراف نفسيٍّ أو خلقيٍّ أو فِكْريٍّ حالة كَوْنِهم لا يكادُونَ يَفْقَهُونَ حديثاً؟!

﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾:

أي: لا يَقْتَرِبُون من فقه حديثٍ ما، والذي لا يقتربُ من الشيء، لا يتصف به، ولا يَدْخُل في حدوده.

الفقه: هو الفهم العميق للأشياء، وللنصوص، وعدم الاكتفاء بالإدراكِ السطحيّ.

والمعنى أنّ هؤلاء يدركون من الأحاديث سُطُوحَها الظاهرة، ولا يكلّفون أنفسهم إعمال أفكارهم لفقه دلالاتها العميقة، فيقعون في أغاليط فكرية، ينشأ عنها مثل الذي عبَّروا عنه بقولهم السابق بيانه.

ولو فقهوا لأدركوا أنّ الشيء يُنْسَبُ إلى فاعله الحقيقيّ نسبة الفعل والتكوين، ويُنْسَبُ إلى غير فاعله الحقيقيّ لعلاقةٍ ما من العلاقات، كأنْ يكون هو السُّبب، أو هو المقتضي، أو من أجله فُعِل، ونحو ذلك.

فيقال: هذا السارق قطع يد نفسه، أي: كان السبب بقطع يده. ويقول الرجل لمطلقته التي ردّها: أولادي منك هم الذين ردّوك إليّ، أي: من أجلهم أرجعتك إلى عصمتي، وهكذا.

وهنا تظهر لنا القضية الثانية:

القضيـة الثانيـة:

هي قضية نسبة الفعل أو الحدث أو الشيء إلى من كان هو السبب الداعي لوجوده، أو من أجله أو لمصلحته أوجده مُوجِدُه أو جلبه، وأتى به، أو لأمرٍ ما يتعلّق به، كامتحانه، أو تربيته وتأديبه، أو ثوابه أو عقابه.

وبياناً لهذه القضية الثانية مقارنة بالقضيّة الأولى، قال الله عزّ وجل لرسوله، ويقاس عليه سائر الناس:

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ . . . ﴿٧٩﴾﴾:

أي: كلُّ الحسنات «وهي النِّعَم» التي تُصيبُكَ فهي عطاءٌ من فضل الله ليس لك تَسَبُّبٌ فيها.

وكلُّ سيِّئةٍ تُصيبُكَ فهي بسبب أو مُقْتَضٍ أو داعٍ من نَفْسِكَ، والنَّفْسُ هي الكاسبة، فإذا كانت السيئة للامتحان والابتلاء، فاختبار نفسه هو الداعي، وإذا كانت للتربية والتأديب، فهما المقتضي، وإذا كانت للجزاء فنفسه الكاسبة هي السبب. فكون ما أصاب الإنسان من سيِّئةٍ هو من نفسه، ينبغي أن يُفهم على هذا، فالإسناد ملاحظٌ فيه هذه العلاقة، لا الخلق والتكوين والإيجاد. فعلّمنا الله عزّ وجلّ بهذا أنّ الحَدَثَ يُنْسَبُ إلى فاعله ومُوجده، ويُنسَبُ إلى مُسَبِّبه، ويُنسب إلى من كان لمصلحته، أو من أجله، أو لأمرٍ ما يتعلَّقُ به.

وإدراك هذه النسب في النصوص بحسب العلاقات يحتاج إلى فقه، وهو الفهم العميق الذي لا يقتصر على السطوح، بل يكون فيه تعمُّقٌ وتَدَبُّر.

ولمّا كانت مقالة المنافقين والشاكّين التي عرضها النّص إنما قالوها بسبب تكذيبهم الرسول وعدم تصديقهم برسالته، وَاسَى الله رسوله بقوله له:

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ :

أي : لئن كذّبك أو شكّ فيك هؤلاء القلّة من المنافقين وأهل الرّيب، فأنت لست رسولاً لهم فقط، ولا رسولاً للعرب فقط، بل أنت رسول من الله للناس جميعاً.

وإنْ كنت تحتاج من يشهد لك بأنّك رسولُ حقٍّ وصدق، فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شهيداً يَشْهَدُ لك بذلك.

والمعنى : ألم يشهد لك بأنّك رسولُه، عن طريق معجزة القرآن، والمعجزات الأخرى التي أمدّك بها، وما آتاك من تأييد ونصرٍ مبين، وما سيُؤتيكَ من معجزات وتأييد ومَدَدٍ وفتحٍ في البلاد والعباد وتمكين.

* * *

الفقرة الثامنة: تتضمّن بيان أنّ طاعة الرّسول من طاعة الله وخطاباً للرّسول بأنّ من تولّى عن طاعته، مديراً ظهره لأوامره ونواهيه، فعلى الرسول أن لا يهتمّ له، ولا يشغل به باله، فإنّ الله لم يُرسِلْه حفيظاً على الناس، ضابطاً لهم عن الانحراف، ومانعاً لهم من التّوَلّي عن الخروج عن الصراط.

وفي هذا توجيهٌ وتربيةٌ لكل داعٍ إلى دين الله وصراطه المستقيم من بعده، أو آمر بالمعروف ناه عن المنكر، إذ هم ليسوا مسؤولين عن حفظ الناس على التزام صراطه، إنما هم مسؤولون عن الدعوة لمن هم خارج الصراط، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمن هم داخله، ومحاولة إلزامهم الصراط ما أمكن عن طريق اختيارهم الحرّ.

قال الله عزّ وجل:

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

في هذه الآية قضيّتان:

القضية الأولى:

أنّ طاعة الرسول في أوامره ونواهيه هي من طاعة الله، والسبب في ذلك أنّ الله عزّ وجلّ قد أمر بطاعته دون قيد، لأنّه قد عصمه جلّ وعلا في قضايا الدّين عن أن يأمُر

بشيءٍ نهى الله عنه، أو ينهى عن شيءٍ أمر الله به.

وهذه القضية واضحة من صيغة الشرط والجزاء في قوله تعالى:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.

وقد جاء النّصّ عامّاً في الرسول، فلم يقل الله لرسوله: من يطعك فقد أطاعني، للدّلالة على أن صفة الرسالة تقتضي هذه الطاعة، فهي إذاً تشْمَلُ كُلَّ رَسُول، فيلتقي النصّ هنا مع قوله تعالى في النّصّ السابق له من سورة (النساء) نفسها:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ... ﴿٦٤﴾﴾.

ويزيد عليه فكرة أنَّ طاعة الرسول هي من طاعة الله.

القضيـة الثانيـة:

أنّ الرسول لم يُرْسِلْه الله حفيظاً على الناس، إذن فهو ليس مسؤولاً عن تولّي من تولّى منهم، ويُفيدُ ذلك لزوماً إشعارهُ بأن لا يهتمّ لمن يتولّى منهم، ولا يشغلَ به بالَهُ.

دلّ على هذه القضيّة قوله تعالى:

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

تولّى: أدار ظهره وانصرف، وهذا إنما يفعله الكافرون، والمنافقون.

حفيظاً: الحفيظُ هو المـوكَّلُ بـالشيء المؤتمن عليه ليحفـظه وهو «فعيـل» صيغة مبالغة لحافظ. فالحفيظ على الشيء هو المسؤول عن سلامته، والمكلّف أن يمنعه من الخروج عن موقـع سلامتـه، ويمنع عنـه ما يَضُرُّ سلامتـه، كالحفيظ على الأمـوال في مخازنها، والأنعام والخيل ونحوها.

لكنَّ الـرسول مبلّغ للنـاس دين الله، وهادٍ وداعٍ ومـرشـد، ولم يَجْعَلْه الله عليهم حفيـظاً، حتّى يكـون مسؤولاً عنـد الله عن تـولّي من تـولّى منهم، أو إدبـار من أدبــر، أو إعراض من أعـرض وعرّض نفسه لعذاب الله.

وإذْ لم يجعلْه الله حفيـظاً عليهم فمن الخيـر أن لا يشغـل قلبـه ونفسـه بـالــذين يَتَوَلَّوْنَ، وعليه أن يهتمّ بوظيفته التي كلّفه الله إيّاها.

وإذا كان الرسول كذلك فالدعاة من بعده هم أجدر بأن يكونوا غير مسؤولين عمّن تولّى، لأنّ الله لم يجعل أحداً حفيظاً على الناس.

وقد جاءت هذه الفقرة تمهيداً للفقرة التالية لها.

* * *

الفقرة التاسعة: تتضمّن بَيَانَ ظاهرةٍ من ظواهر النفاق لدى المنافقين، وهي ظاهرة إعلان طاعة الرسول في أوامره ونواهيه في وجهه، فإذا خرجوا من عنده وخلوا بعيدين عن الرُّقباء، بيَّتَ طائفة منهم المعصية والمخالفة مع ما يبيّتون من أمور كيديّة أخرى.

وهذه الظاهرة هي من سمات المنافقين مع قادة من دخلوا فيهم نفاقاً، وهي سمةٌ متكرّرة فيهم.

وتتضمّن أيضاً بيان ما ينبغي للرسول ﷺ أن يفعله إذا اكتشف هذه الظاهرة، ويقاس على الرسول كلُّ قائد للمسلمين من بعده.

وتتضمّن توجيهاً إقناعيّاً للمنافقين بصِدْق الرسول، عن طريق حثّهم على تدبُّر القرآن ليعلموا أنّه كلام الله حقّاً وصدقاً، وإذا كان هو كذلك فمبَلِّغه عن ربّه صادق لا محالةَ في أنه رسول الله.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

في هذا النصّ ستُّ قضايا:

(١) بيان الظاهرة النفاقية، وهي التضاد بين إعلان الطاعة وتبييت ما يضادها.

(٢) وبيان أنها معلومة لله، وأنّ الله يكتب عليهم ما يبيتون، ومن الكتابة ما تقوم به ملائكة تسجيل أعمال العباد في الكتب والصحف.

(٣) توجيه الرسول للإعراض عنهم، وعدم الاهتمام بهم، وكأنّ شيئاً لم يكن.

(٤) توجيه الرسول للتوكُّل على الله وتفويض أمرهم إليه.

(٥) بيان أنّ من توكّل على الله ضمن حدود أوامر الله ونواهيه ووصاياه كفاه.

(٦) حضّ المنافقين بأسلوب الحديث عن الغائب على أن يتدبّروا القرآن ليعلموا أنه كلام الله، مع لفت النظر إلى أنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً عن الواقع والحقّ، واختلافاً كثيراً بين بعض نصوصه وبعضها الآخر، فإذا ثبت لديهم أنّه كلام الله ثبت لديهم أنّ مبلّغه عن ربّه هو رسول الله حقًّا وصدقاً.

وتفصيل هذه القضايا فيما يلي:

القضية الأولى:

قال الله عزّ وجلّ في بيان هذه الظاهرة النفاقية:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ... ﴿٨١﴾﴾.

جاء بيان هذه الظاهرة ضمن الظواهر النفاقية التي تبرز عند الدعوة إلى القتال، للإشعار بأنّ ظهورها عند هذه المناسبة هو الأكثر والأغلب، وهو الذي يلفت الأنظار.

ولكنّ للنصّ دلالةً عامّةً تشمَلُ مُناسَباتٍ أُخْرىٰ، كمناسبات الأمر بالإنفاق في سبيل الله، والأمر بالدعوة إلى دين الله، والأمر بكتمان أسرار المسلمين عن أعدائهم، إلى غير ذلك من أمور تُهمُّ المسلمين بصفةٍ عامّة.

وقد دلّ قولُه تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾:

على أنّ قولهم ﴿طاعةٌ﴾ مسبوق بتكليف من الرسول بأمر أو نهي، مثل: استعدّوا لقتال العدوّ فإنّا خارجون لملاقاتهم، فيقولون: طاعة، مع من يقول ذلك من المؤمنين الصادقين.

«طاعةٌ» خبرٌ لمبتدأ محذوف، تقديره: أمرُنا طاعةٌ.

﴿ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ ﴾:

جاء استعمال فعل ﴿بَرَزُوا﴾ هنا، وجاء استعمال فعل ﴿خَلَوْا﴾ في النصّ الذي في (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن المنافقين:

﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ . . . ﴿١٤﴾ ﴾.

وفي النصّ الذي في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) بشأنهم أيضاً:

﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ . . . ﴿١١٩﴾ ﴾.

مع أنّ الهدف من الاستعمالين واحد، فهل هو مجرّد تنويع في التعبير؟

بالتأمل والتفكّر يظهر للمتدبّر أنّ فعل ﴿بَرَزُوا﴾ الدّال على خروجهم إلى الفضاء الواسع الخالي من الشجر ونحوه، بعيدين عن الرقباء والعيون الرواصد، هو الأليق هنا، لأنّ الموضوع يتناول غالباً الأوامر التي تتعلّق بموضوعات القتال، وهي قد تكون أوامر صادرة خارج حدود البلد، والمكانُ الخالي الذي يمكن أن يُبيِّتَ المنافقون فيه أمراً مخالفاً لما أعلنوا الطاعة فيه، هو «الْبَرَاز» أي: الفضاء الواسع الخالي من الشجر ونحوه، ليكونوا فيه بعيدين عن الرقباء. وهذا من الدِّقّة العجيبة في انتقاء الألفاظ القرآنية في مواضع استعمالاتها.

ومتابعةً للدّقة التعبيريّة الدّالة على معانٍ مقصودة جاء استعمال فعل «بَيَّتَ» في النصّ، الدّال على أنّ تدبيرهم يكون في «الْبَرَاز» من جهة اختيار المكان، وفي اللّيل من جهة اختيار الزمان، فالتبييتُ هو التدبير أو العمل في اللّيل، ويشمل هذا التبييتُ معصيتهم لما أعلنوا الطاعة فيه، وتدبيرَ أمورٍ أخرى تهدف إلى إحباط أعمال المسلمين، ونصرة أعدائهم عليهم.

ومن الدقة أيضاً عدم التعميم باستعمال كلمة «طائفة» الدالة على أنّ بعضهم يفعل ذلك لا جميعهم، لكن الظاهرة هي من ظواهر المنافقين التي قد يُفرِزها النفاق في سلوك الناس.

القضية الثانية:

أنّ هذه الظاهرة النفاقية معلومة لله عزّ وجلّ، وأنّ الله يكتُب عليهم ما يُبيّتون،

فقال تعالى في النصّ:

﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾.

وظاهر أنّ الحادثة لا تُكتَبُ من قِبَل الحكيم العليم إلّا وهي معلومة له، فدلّت الكتابة على العلم لزوماً.

لكن قد يقال: لقد سبق في التنزيل القرآني قبل هذا النصّ ما يدلّ على علم الله بأعمال العباد، وعلى أن ما يعملونه يُسجّل عليهم في صحف أعمالهم، فما الذي أضافَهُ النصّ هنا في هذا الموضوع؟ هل هو مجرّد التأكيد والتنبيه على هذه الحقيقة من حقائق مراقبة أعمال العباد؟

أقول:

إنّ بيان أنّ الله يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُ المنافقون من أمور مضادّة لإعلان الطاعة الذي كان منهم في مجلس الرسول، عند عرض هذه الظاهرة، يتضمّن إلماحاً بتهديدٍ خاصٍّ هو لازم فكريٌّ لتوجيه العناية لكتابة ما يُبَيِّتون تباعاً، دون إمهال تُترقَّبُ فيه التوبة، هذا التهديد الخاص يُمْكِن إدراكُه استنباطاً، وهو أنّ الله عزّ وجلّ سيُحْبِطُ ما يُبَيِّتون، ويَرُدُّ عليهم مكرهم وكيدهم، إذا مكروا مكراً أو كادوا كيداً.

ويؤدّي هذا التهديد غرضين:

الغرض الأول: إلقاء الرعب والتخاذل في قلوب المنافقين.

الغرض الثاني: طَمْأَنَةُ قَلْبِ الرسول والمؤمنين بأن الله مُحْبِطٌ كيد المنافقين، فَلْيستمروا فيما هم فيه، ولا يَكُنْ ما يُبَيِّت المنافقون سبباً في إقلاقهم وإلقاء الوهن والتخاذل في قلوبهم ونفوسهم، وجاءت القضيّة الثالثة مرتبةً على هذه الطّمأنة.

القضية الثالثة:

وهي توجيه الرسول ﷺ للإعراض عنهم، وعدم الاهتمام بهم، وطرح القلق من جهتهم، دلّ عليها قول الله لرسوله:

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾:

أي: أعطهم عارضك وجانبَكَ إشعاراً بأنّك عارفٌ بما يُبيّتون، كارهٌ لما يفعلون، غيرُ مكترث لمكرهم وكيدهم.

ولا بدّ أن نفهم أنّ الإعراض عنهم وسيلة إيجابية تربوية بالنسبة إليهم، وليس إهمالاً لهم ولا تهاوناً بأمرهم.

فإنّ هذا الإعراض يُشْعِرهم بصغارهم، وبأنهم مكشوفون، ويُلْقي في قلوبهم الرعب والوهن، ويجعلهم بين المسلمين كالمنبوذين الذين يَكرهُ الرّسُول النظر إليهم، فتتخاذل عزائمهم عن تنفيذ ما بيّتوا، إذْ أدركوا أنهم صاروا تحت المراقبة والمحاسبة، فهم لا يستطيعون التحرّك بحريّة المطمئن على سلامة نفسه، الواثق من أنّ العُيُونَ لا ترصُدُه، وأنّ أعماله ستحقق غاياتها.

وما هو توجيه للرسول هو توجيه لكل قائد للمسلمين من بعده، ما لم يكن من خصوصيات النبوّة والرّسالة.

القضيّة الرابعة:

وهي توجيه الرسول للتوكّل على الله، بقول الله تعالى له:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

لمّا تضمّن التوجيه للإعراض عن المنافقين، عدمَ اتخاذ أعمالٍ فيها محاسبةٌ لهم، ومكاشفةٌ لهم بما يفعلون، إذ يلزم من ذلك معاقبتهم بصراحة، أو وضعهم موضع الأعداء الصرحاء، وهو أمرٌ منافٍ للحكمة الإداريّة والسياسيّة، اقتضىٰ الأمر الإشعار بأنّ الله عزّ وجلّ هو الذي يتولّى إحبَاطَ ما يُبَيِّتُون مكراً وكيداً، ولكنّ شرط ذلك مع تنفيذ الإعراض عنهم صدقُ التوكّل القلبيّ على الله، فأمر بالتوكُّل عليه.

واقتضى التوجيه للتوكُّلِ على الله تَقْديمَ الوعد بأن يكفي الله من توكّلَ عليه ما أهَمّه، فجاءت القضيّةُ التالية تُلمح إلى هذا الوعد.

القضية الخامسة:

وهي بيان أن من توكّل على الله كفاه، بقول الله تعالى:

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾:

أي: ومن كان الله عزّ وجلّ وكيلاً عنه، يتولّى أمره فيما هو وكيل عنه به، فإنّه لا بدّ أن يكفيه كلّ ما يُهِمُّهُ تحقيقُه في ذلك الأمر.

وقد دلّتنا النصوص القرآنيّة المنبثّة في سور متعددة على أنّ التوكّل على الله وظيفة قلبيّة إيمانيّة، يجب أن تكون ضمن حدود أوامر الله ونواهيه ووصاياه، وضمن اتّخاذ الأسباب التي أمر بها.

والمح قول الله تعالى:

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

إلى وعدٍ من الله بأن يكفي من توكّل عليه، مع قيامه بما هو مطلوب منه دون تهاون ولا كسلٍ ولا تفريط.

القضية السادسة:

وهي حضّ المنافقين بأسلوب الحديث عن الغائب على أن يتدبّروا القرآن، ليعْلَمُوا أنّه كلام الله، وتنزيلٌ من لدنه حقّاً وصدْقاً، مع التّنبيه على أنّ القرآن لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، أي: اختلافاً بينه وبين الواقع والحقّ، واختلافاً بين بعض نصوصه وبعضها الآخر، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

وفي هذا الحضّ عودٌ بهم إلى القاعدة الإيمانية التي لم تكتمل في قلوبهم، فهم لم يؤمنوا بَعْدُ بصدقِ الرسول محمّد ﷺ، ولا بصدق بلاغاته عن ربّه، ومنها القرآن.

فقدّم لهم دليلاً بُرهانيّاً على صدق القرآن، وصِدْقِ رسالة الرسول، ولكن إدراكهم لهذا الدليل البرهاني يتطلّب أن يجتهدوا في تدبُّر القرآن، وتفهُّمِ دلالاته، فإنّهم إذا فعلوا ذلك أدركوا أنه مطابق للحقّ والواقع في كلّ قضاياه، وأدركوا أن نزوله منجماً مفرقاً لم يؤثر على وحدته وتكامل الحقائق فيه، وأدركوا أنه لو كان من أوضاع البشر، ومن تأليف الناس وصناعتهم، لوجدوا فيه تناقضات بينه وبين الحقّ والواقع، ولوجدوا فيه تناقضات بين بعض نصوصه المتقدمة نزولاً، وبعض نصوصه المتأخرة نزولاً، ولا سيما التي بينها أزمان تُقدَّر بسنين.

إنّهم لـو تدبّـروه بإنصـافٍ وتجرُّدٍ من سـوابق الرفض، لـوصلوا إلى الاقتناع بـأنه كتـابٌ من عند الله، وحين يصلون إلى هـذه الحقيقة، يتنقلون تلقـائيّاً إلى الاقتنـاع بأنّ محمّداً رسول الله حقّاً وصدقاً.

ثم إذا كـانت لـديهم إرادةُ الاعتـراف بـالحقّ آمنـوا، وصـدّقـوا في إسـلامهم، وتخلّصوا من رجْس النفاق، أو من رجس الرَّيْب والشك.

ويُعلّمنـا الله بهذا الأسلوبِ الإقنـاعيِّ أنّ العلاج ينبغي أن يكـون بـالـرجـوع إلى مواطن العلل في الجذور والأصول والقواعد الأولى، ولا يكون العـلاج من الفروع مـع فساد الجذور والأصول والقواعد، إنّ العِلَلَ يجب أن تُعَالَجَ من مواطنها.

﴿أفَلاَ يَتَدَبَّـرونَ﴾: حضٌ على التَّدبّـر، والتدبُّـر تفكُّرٌ دقيق عميق تُـلاَحظ فيـه العواقب ببصيرة، حتى الأطراف البعيدة التي يَدُلُّ عليها النصّ.

والاختـلاف: يشملُ التنـاقضَ والتضادَّ، فـالمختلفان في اللّغـة همـا اللّذان قـد لا يكون بينهما ائتلاف ولا اتّفاق. وهذا المعنى اللّغوي غيرُ المعنى الاصطلاحي عنـد علماء المنطق والأصوليين، الذين يجعلون التخالف هو التغاير بين معنيين، مـع إمكان اجتماعهما وإمكان ارتفاعهما في شيءٍ واحد.

وقد جاء خطابُهم في الآية بـأسلوب الخطاب بضمير الغائب مـلائماً لـوصيّة الله لرسوله بالإعـراض عنهم، ففي المواجهـة بخطاب الحـاضر إقبـال يشعر بـالرضـا، أمّا الخطاب بضمير الغائب فيُشْعِرُ بالإعراض وعدمِ الرضا.

* * *

الفقـرة العاشـرة: تتضمّن بيان ظـاهرة من ظـواهر النفـاق لدى المنـافقين، وهي ظـاهرة إفشـاءِ أمور المسلمين، وإذاعتهـا ونشـرهـا، من أمـور السِّلْم والحـربِ، لأنهم لا يشعـرون في أنفسهم بالـولاء للمسلمين، فهم لا يهتمّون لكتمـان ما يضرّ المسلمين إذاعته.

وهذا يشمل كلّ القضايا، ولكنّه في قضايا الحرب أشدّ خطراً وأشدّ ضرراً، فجاء بيـان هذه الظاهرة ضمن الـظواهر النفـاقية التي تبـرز عند الـدعوة إلى القتـال وبعده،

للإشعار بأنّ ظهورها عند هذه المناسبة شديد الخطورة، وقد يجلب شرّاً كبيراً لجماعة المسلمين، وللمصالح الإسلامية.

وقد تُوجد هذه الظاهرة عند أهل الشكّ والرّيب وضعفاءِ الإيمان، وعند أهل الخفّةِ والطيش، ومن لا بصيرة لهم بعواقب الأمور.

وتتضمّن هذه الفقرة أيضاً التوجيه لما يجب على جمهور المسلمين أن يفعلوه بالنسبة إلى قضايا المسلمين العامة، من أمور الأمْنِ والخوف «أي: من أمور السّلْم والحرب».

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾.

في هذه الفقرة من النصّ ثلاث قضايا:

(١) بيان الظاهرة النفاقيّة، وهي التّسرُّع إلى إفشاء أمور المسلمين وإذاعتها ونشرها، تعلُّلاً بالرّغبة في المشاركة في الأمور العامّة، أو غفلة أو غباءً وسوء تقدير لعواقب الأمور من قبل أهل الخفة والطيش من السّواد العام.

(٢) التوجيه لما يجب على جماهير المسلمين بالنسبة إلى القضايا العامة التي تُهِمُّ المسلمين، وتتعلّق بمصالحهم العامة من أمور السلم والحرب.

(٣) بيان عناية الله بالمسلمين تُجاه هٰذه الظاهرة الخطيرة، التي من شأنها إفْسادُ أمور المسلمين، وإحْبَاطُ أعمالهم الإسلامية، وهذه العناية الرّبانية تتناول أمرين:

الأمر الأول: فضْلُ الله عليهم بالحماية والحفظ، إذْ يكفُّ بفضله السنة المؤمنين عن المشاركة في نشر ما يجب كتمانه من معلومات، ويُلْجِمُهم عن التسرُّعِ في التأثّر بالإشاعات والإرجافات المذاعة بينهم.

الأمر الثاني: تداركُ الله جماعةَ المسلمين برحمته، كلّما بدرت من أفرادٍ منهم بادرة خطيئة في هذا الأمر، إذ يعفو عنهم، ويتوبُ عليهم، ويجعل ما أخطؤوا فيه

مُتَدارَكاً بما بقي من الآثار الضارّة لجماعة المسلمين، وأعمالهم الإسلامية.

القضية الأولى:

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ. . . .﴾.

الضمير في ﴿وَإِذَا جاءَهُمْ﴾ يعودُ على من جرى الحديث عنهم في النصّ وهم المنافقون، وهم المعنيُّون بالدرجة الأولى، وقد يُلْحَقُ بهم في بعض الظاهرات التي هي من صفاتهم أساساً من هم لم يصلوا إلى دركة النفاق، كأهل الريب والشك، وضعفاء الإيمان، وقد يتأثر ببعض أخلاقهم بعضُ المؤمنين من أهل الخفة والطيش الذين ينخدعون بشياطين المنافقين الذين يتظاهرون بأنّهم مؤمنون مسلمون.

وفعل «جاء» قد توسّع العرب في معناه حتى صار يشمل كلّ ماديّ ومعنوي انتقل إلى مكان لم يكن فيه، فبالتوسع يقال: جاء الخبر، وجاء الأمر، وجاء الخوف، ونحو ذلك.

﴿أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ﴾:

أي: أَمْرٌ ما على وجه العموم من أمور الأمن، التي يعبّر عنها في متعارف عصرنا اليوم «أمور السّلم» أو من أمور الخوف، التي يُعَبَّر عنها في متعارف عصرنا اليوم «أمور الحرب».

ودلّ إطلاقُ كلمة «أمر» بالتنكير الذي يفيد هنا التعميم، أو يفيد أنه أمرٌ ذو أهمية، على أنّهم يُسَارِعُون إلى تلقُّفِ الأمور المهمة من أخبارٍ وأنباء وأحداث ووقائع، فيذيعونها وينشرونها، ويتحدّثون بها، ويحاولون التدخل فيها، والمشاركة في حلّها، إظهاراً للاهتمام بها، والحرص على مصالح المسلمين العامّة. فينخدع بهم بعض العامة من غيرهم فيشاركونهم في الإذاعة والنشر، ومحاولات التدخل في الأمْرِ لطرح الآراء والمقترحات، ومعالجة مشكلاته بصورة غوغائية، تسمح للمنافقين باستغلال المشاركات الغوغائية للإضرار بالمسلمين، وبالمصالح الإسلامية، وتمكين أعدائهم من تحقيق بعض أغراضهم، وأخطرُها الأمور المتعلّقة بقضايا الخوف والحرب مع الأعداء.

وجاء البدء بذكر «الأمن» في النصّ لأنّ أزمان السّلم أكثر وأطول من أزمان الحرب، على أن من أمور السّلم ما يكون في إفشائه خطر جسيم، ونفع للعدوّ عظيم.

القضيّة الثانية:

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ... ﴿٨٣﴾﴾.

دلّ التعبير بفعل «رُدُّوهُ» على أن المسؤول عن النظر في الأمور العامة، التي تتعلّق بالمصالح العامّة للإسلام وجماعة المسلمين، هو الرُّسُولُ عند إمكان الرّدّ إليه، بوصفه إمام المسلمين وقائدهم وصاحب إدارتهم وسياستهم في حياته، فإنْ لم يمكن الرّدّ إليه لبُعْدِ المكان، أو لأن الرسول قد انتقل من الحياة الدنيا، فالردّ يكون لأولي الأمر من المسلمين، لأنهم هم المسؤولون عن النظر في الأمور العامة، الإدارية والسياسية والحربية وغير ذلك، وليس من حقّ جمهور المسلمين الثرثرة ببحث الأمور المهمة، ونشرها وإذاعتها، أما تقديم المشورة لأولي الأمر بطريقة لا إذاعة فيها ولا نشر، فهو من حقّ أهل الكفاية لتقديم المشورات النافعات، من قبل كل المسلمين.

ودلّ قوله تعالىٰ بشأن أولي الأمر من المسلمين:

﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ... ﴿٨٣﴾﴾.

جواباً للشرط في: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ على أنّ الأمر الذي يقوم المنافقون ومن معهم بإذاعته، هو من الأمور المهمّة المشكلة التي تتطلّب استنباط الحلول لمعالجتها، دفعاً للمخاطر، وجلباً للمنافع، وتحقيقاً للعمل الأفضل الذي ينتج خيراً للإسلام والمسلمين، ويكون أقرب لمرضاة الله، وأوفق لمصالح المسلمين.

ونلاحظ أن جواب «لو» في حالة الردّ إلى الرسول مطويٌّ في النصّ للعلم به، ويمكن تقديره كما يلي: لكفىٰ المسلمين ما أهمهم منه، بالوحي، أو بحسن إدارته وسياسته ومشورته لأهل الرأي من أصحابه.

أمّا في حالة الرّدّ إلى أولي الأمر منهم، فقد جاء حوله البيان الذي يتضمَّنُ توجيهاً لأولي الأمر الأعلين، بأن يستشيروا أهل الرأي والاختصاص الذين يستنبطون الحلول المناسبة لمعالجة الأمر الطارىء، والذين يدخلون في عموم أولي الأمر من المسلمين.

ونستطيع أن نستخلص من هذه القضية ما يلي:

(١) على المسلمين أن يردّوا الأمور المهمة العامة إلى الرسول في حياته، فهو صاحب الحق فيها، والمسؤول عن معالجتها، وسيجدون لديه الحلول المناسبة لها.

(٢) على المسلمين أن يردّوا الأمور المهمة العامة بعد الرسول إلى أولي الأمر منهم، فهم أصحاب الحقّ الإداريّ فيها، والمسؤولون عن معالجتها. ونفهم من هذا أن أولي الأمر هم قادة، ومجالس شورى، فالقادة هم السلطة العليا الآمرة، وأعضاء مجالس الشورى هم السلطة المشيرة ذات المشورة الإلزامية [١].

القضية الثالثة:

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾.

في هذه القضيّة يخاطب الله عامّة المؤمنين محذّراً إيّاهم من أن يتأثّروا بوساوس ودسائس المنافقين، الذين يتحرّكون في ظاهرات نفاقهم متّبعين الشيطان، الذي يستخدمهم لإفساد أمور المؤمنين المسلمين، والإضرار بهم، وبرسالة الإسلام.

ولمّا كان هؤلاء المنافقون مداخلين مخالطين، ومجهولي الهويّة بالنسبة إلى عامة المسلمين، كان لحركاتهم الشيطانية تأثير بين المسلمين صادقي الإسلام.

لكن الله عزّ وجلّ لمّا أمر بالإعراض عنهم، ولم يأذن بحربهم ومعاقبتهم وطردهم من صفوف المسلمين، حتّى يُدان من يُدانُ منهم، بما يُوجب محاسبته ومعاقبته بجُرْمٍ مشهودٍ، كان من حكمته عزّ وجلّ أن يتدارك عامّة المؤمنين بأمرين:

الأمر الأوّل: أن يتفضل عليهم فيحفظهم من التأثر بطائفةٍ من دسائس المنافقين، التي هي في الحقيقة اتّباع لأوامر الشيطان، إذْ يكشف لهم بما يَشاءُ من سَبب خطرَ

(١) ينظر تفصيل هذا الموضوع في الفصل الثاني من كتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» للمؤلف ولا سيما ما في الصفحة (٦٩٦).

ما يكون من هؤلاء وضرَرِه، ولو كان مع ظنّهم أنّهم مسلمون اجتهدوا فأخطؤوا، فهم ربّما لا يعتبرونهم منافقين، ولكن لا يتّبعونهم، إذْ يعدُّونهم مخطئين، وهذا من فضل الله على المؤمنين، ومن معونته لهم.

الأمر الثاني: أن يرحمهم بالعفو والمغفرة، فإذا تأثّر بعضهم ببعض دسائس المنافقين عن ضعف أو غفلة، تدارك الله برحمته فعفَا وغَفر، وحمَىٰ المسلمين والإسلام، من أن يكون لتأثّرهم كبير خطر أو ضرر.

ولولا هذان الأمران: فضلُ الله على المؤمنين، ورحمتُه بهم، لكان للمنافقين تأثير كبير على جمهور المؤمنين إلاّ قليلاً منهم، فاتّبعوا بهذا التأثير الشيطانَ، فنزل بالمؤمنين بلاء عظيم، وخطر جسيم، وتمكن أعداؤهم منهم.

ويدلّ هذا على أنّهم إذا مكّنُوا المنافقين من أن يَبُثُّوا دسائسهم ووساوسهم في صفوفهم، فتأثّروا بهم تأثُراً عاماً، إذْ لم يكن فيهم نسبةٌ كافية ممن هم أهلٌ لأن يحفظهم الله بما يعطيهم من رُشْدٍ وبصيرة، بسبب ارتفاع درجتهم في الإيمان والإسلام، فإنّ البلاء العظيم والشرّ الجسيم واقع بهم لا محالة، بسبب المنافقين، الذين يجعلونهم بوساوسهم ودسائسهم يتّبعون الشيطان.

هذه المفهومات قد دلّ عليها نصّ هذه القضية دلالة دقيقة عجيبة، من العسير إدراكها، لولا مراعاة قاعدة وحدة النصّ، وضرورة البحث عن روابطه، مع الاستعانة بالله وفتحٍ منه سبحانه.

لكن بعد اكتشافها وعرضها تُصْبح واضحةَ الروابط، سهلةً قريبةَ الْمُدْرَك.

* * *

الفقرة الحادية عشرة: تتضمن تكليف الرسول ﷺ (ويُقاسُ عليه خلفاء المؤمنين وأمراؤهم وقادتهم من بعده) أن يقاتل في سبيل الله (أي: حين توجد دواعيه وتتوافر شروطه)، وتتضمّن بيانَ أنّ مسؤوليته عن القتال مسؤولية شخصية في العمل، ومسؤولية تحريض بالقول مع ما يجتمع معه من وسائل تحريض أخرى كالتربية وتقديم المغريات والمثيرات المشروعة. وتَرْجِيَةً من الله بأنْ يكفّ بأس الذين كفروا، مع بيان أنّ الله أشدُّ بأساً من كل ذي بأس، وأشدّ تنكيلاً من كلّ ذي تنكيل.

قال الله عزّ وجل:

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾.

في هذا النص بيان وظيفة إمام المسلمين وقائدهم الأعلى، بالنسبة إلى مهمة القتال، بدءاً بالرسول ﷺ فمن بعده من أئمة المسلمين وقادتهم.

لقد ظهر لنا أن موضوع النّص بفقراته كلّها يدور حول قتال من تدعو الضرورة أو الحاجة إلى قتالهم من أعداء المسلمين من أهل الكفر، ودعوة الذين آمنوا إلى أن يأخذوا حِذرَهم وينفِرُوا إلى قتال عدوّهم، وكشف الظواهر النفاقية من تخاذل وتثبيط، وتضادّ بين ما يُعْلِنُون من طاعة وما يبيّتون من أضدادها، وتشكيكٍ في الرسول، ومحاولاتِ بثّ القلاقل والفتن بإذاعة الأمور المهمّة العامّة المتعلقة بشؤون السلّم والحرب.

بعد كلّ ذلك كان لا بدّ من تحديد وظيفة إمام المسلمين وقائدهم الأعلى، وما هي مسؤوليته، وكان لا بدّ من إطماعه وإطماع الذين آمنوا معه برجاء أن يمدّهم الله بمَدَدٍ من عنده، وأن يكون معهم، فيكفَّ عَنْهُمْ بأس الذين كفروا.

فاشتملت هذه الآية الختامية من هذا النصّ على خمس قضايا:

القضية الأولى:

أمر الله الرسولَ (وكذلك كل إمامٍ من أئمة المسلمين من بعده) بأن يقاتل في سبيل الله، باعتبار الرسول أوّلَ المسلمين المكلفين المطالبين بما يطالب به عامة المسلمين، وكذلك ينبغي أن يكون الأئمة من بعده، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أي: حينما تتوافر الدواعي للقتال، وتتهيّأ أسبابه وشروطه، فالأمر بالقتال يتناول أوّل ما يتناول إمامَهم وقائِدَهم الأعلى، وهو الرسول في حياته، فإمامُهم الأول من بعده.

ولم يُطلق الله عزّ وجلّ الأمر بالقتال، بلْ جعْله مُقَيَّداً بأن يكون في سبيله،

وسبيل الله في القتال مُبَيَّن في عدة نصوص من القرآن الكريم.

القضيّة الثانية:

بيان أن إمام المسلمين وقائدَهم لا يحمل من مهمّة القتال الفعليّ أكثر من إلزام نفسه، لأنّ الإنسان مهما بلغت مكانته الإدارية والسياسية في الناس، فإنّه لا يملك إلاّ نفسه، إذن فهو لا يكون مسؤولاً عن وزر غيره، مهما كان من أقرب الناس إليه، إلاّ أن يكون متأثراً به، فيحمل وزر تأثيره فيه، وهذا من عمله، دون أن يُخفّف حَمْلُه هذا من مسؤولية من تأثّر به عما فعل بإرادته.

فقال الله عزّ وجل لرسوله:

﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾:

أي: لا تُكَلَّفُ نَفْسَ غيرك، والمعنى: لا تُكَلَّفُ إلاّ إلزامَ نفسِك فقط دون غيرك، فأقيم المضاف إليه مقام المضاف الذي حُذِفَ إيجازاً، والمعنى يقتضيه بداهة.

القضية الثالثة:

تكليفُ الرّسول (وكذلك كلّ إمام من أئمة المسلمين من بعده) أن يحرّض المؤمنين على القتال (أي: الذي وُجدت دواعيه وتوافرت شروطه وأسبابه). والمراد من القتال هو القتال في سبيل الله، لأنه هو الذي أمر الله به رسولَهُ في صدر الآية.

والتحريض كما سبق بيانه هو الحث وإثارة الحماسة بتحريك الدوافع وإلهاب الحميّة.

ولمّا كانت مُقَاتَلَةُ المؤمنين للكافرين من مرتبة البرّ، بحسب مقتضيات المرحلة التي نزل فيها النصّ، وليس من مرتبة التقوى، قال الله لرسوله:

﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولم يقُلْ له: وكلّف المؤمنين، أو: وأمُر المؤمنين. فما هو من مرتبة التقوى التي يَعْصِي مخالف تكاليفها، يكون التكليف فيه بالأمر والإلزام، وما هو من مرتبة البرّ والإحسان يكون التوجيه له بالحثّ والتحريض، وشدّةِ الترغيب.

وباستطاعتنا أن نفهم من هذا النصّ أنّ الرسول قد كان في هذه المرحلة مكلّفاً

بالزام، وهذا مِثْلُ أمره إلزاماً بقيام اللّيل، أما المؤمنون فدعوتهم إلى القتال هي من درجة التحريض والحث والترغيب دون تكليف إلزاميّ، فقتالهم إذا قاتلوا هو من مرتبة البرّ أو مرتبة الإحسان، وهما فوق مرتبة التقوى.

وهل نقيس أئمة المسلمين من بعد الرسول على الرسول في هذا، أو هم مثل سائر المسلمين؟

الجواب يحتاج بحثاً متأنّياً طويلاً، والمسألة من المسائل الاجتهادية.

القضية الرابعة:

ترجِيَةُ الله عزّ وجلّ الرّسولَ والذين آمنوا أن يكفّ بفضله عنهم بأسَ الذين كَفَرُوا، أي: إذا قاتلوا في سبيل الله، ضمن حُدودِ أحكام دين الله ووصاياه، فقال الله عزّ وجل عقب القضايا الثلاث السابقة:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾:

«عَسَى» فعلٌ جامد معناه التّرجّي. وقد جعل الله كفَّ بأس الذين كفروا على سبيل الترجية، لا على سبيل الوعد المجزوم به، لأنّ الوعد المجزوم به يَتَطَلَّبُ شروطاً، على المقاتلين من المؤمنين أن يحققوها بإراداتهم في أنفسهم وأعمالهم، وهذا أمر متروك لحرّية المكلفين، ولمّا لم يشتمل النصّ هنا على ذكر هذه الشروط، كان المناسب الاكتفاء بالترجية هنا.

أمّا في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) التي نزلت بعد (النساء) بسورتين، فقد جاء فيها الوعد مجزوماً لأنّه جاء جزاء لشرط يحقّقه المؤمنون في أنفسهم، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾.

وهم لا ينصرون الله إلاّ إذا التزموا بما أمر الله به ونهى عنه في كلّ ما يتعلّق بقتال الكافرين، باعثاً، وشروطاً وأسباباً وغاية.

وكفُّ بأسِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يكون بإحباط أسبابهم القتاليّة، وتوهين قواهم في

حربهم للذين آمنوا، وإفساد خططهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، وضرب قلوب بعضهم ببعض، وغير ذلك.

القضية الخامسة:

ختم النصّ بالتنبيه على جزئيّة من جزئيّات القاعدة الإيمانية، ذات صلة بالتَّرْجِيَةِ التي أطمعهم الله بها، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ۝٨٤﴾:

أي: أشدُّ بأساً منهم ومن كلّ ذي بأس، وأشدّ عقاباً رادعاً من كل ذي عقاب رادع.

والتنبيه على هذه الجزئيّة تَنَزُّلٌ يُراد منه التَّلْوِيحُ بتهديد الكافرين، مع طَمْأَنة المؤمنين، حول موضوع القتال بينهما، وذلك لأنّ من بيده مُلْكُ السماوات والأرض وهو على كلّ شيء قدير، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون، هو أسمى من عبارة: «أشدُّ بأساً وأشدّ تنكيلاً» بحسب صفة قدرته القادرة على كلّ شيء. لكنّه تعالى لا يُطْمع المؤمنين في تأييده ونصره بكامل قدرته، إنما يطمعهم منها بمعونةٍ هي أشدّ بأساً من بأس عدوّهم، وأشدُّ عقاباً وتنكيلاً، وهذا المقدار يكفي لتهديد الذين كفروا، وبهذا يتحقق المقصود هنا والله أعلم.

● ● ●

النصّ السادس عشر

وهو من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول)

سادس سورة مدنية
الآيات من (٨٨ ـ ٩١)

حول السياسة التي ينبغي معاملة المنافقين بها بحسب اختلاف أحوالهم

قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾:

* * *

(١)
ما في النصّ من القراءات المتواترات (من الفرش)

في الآية (٩٠):

(١) ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾: قراءة جمهور القُرَّاء [حَصِرَتْ]: أي: حالة كونهم قَدْ حَصِرَتْ صُدُورُهم على أحْسَنِ وُجوه الإعراب.

(٢) [أَوْ جاءُوكُمْ حَصِرَةً صُدُورُهُم]: قراءة يعقُوب فقط، أي: ضَيِّقَةً صُدُورُهُمْ، على الحال أيْضاً، والقراءتان متكافئتان في الإعراب والمعنى، أمّا عدم وجود حرف «قد» قبل جملة الحال المصدّرة بالفعل الماضي، فهو من الأدلّة التي تشهد لرأي الكوفيّين والأخفش من البصريين القائلين بأنّه لا يشترط، لكثرة وروده في لسان العرب. واشتراطُهُ دَفَعَ ببعض أهل التأويل إلى أن يتكلّفوا تأويلات في الآية تَخْرُج بالنّصّ عن دلالته التي تُدْرَكُ بالبداهة لدى تلاوته مترابطاً.

ومعنى: [حَصِرَت صُدُورُهم]: ضَاقَتْ صُدُورُهُمْ. الْحَصَرُ: ضَرْبٌ مِنَ الْعِيِّ في اللِّسان، وضِيقُ الصَّدْرِ، يُقَالُ لُغَةً: حَصِرَ يَحْصَرُ فَهُوَ حَصِرٌ.

* * *

(٢)
موضوع النّصّ وما وَرَدَ في سَبَبِ نزوله

تدور آيات هذا النّص حول بيان السياسة التي ينبغي للمؤمنين معاملةُ المنافقين بها، بحسب اختلاف أحوالهم داخل المجتمع الإسلامي أو خارجه.

فالذين هم ضمن المجتمع الإسلامي مخالطون مداخلون يعاملون بمقتضى السياسة التي عاملهم بها الرسول ﷺ، وجاء بيان أطراف منها في نصوص متعدّدة.

والذين هم خارج ديار الإسلام، يعاملون بسياسة مختلفة، بحسب اختلاف أحوالهم، وقد جاء في هذا النصّ تفصيل هذه الأحوال، وبيان السياسة التي ينبغي اتّباعُها في كُلِّ حالَة.

وما ورد من سبَبِ النُّزُول يُساعِدُ على فهم دلالات آياتِ هذا النصّ.

* * *

ما وردَ من سبب النزول

(١) روى البخاري ومسلم والإمام أحمد عن زيد بن ثابت (واللفظ ما عند الإمام أحمد) أنّ رسول الله ﷺ، خرج إلى أُحُد فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله فيهم فرقَتَيْن:

ـ فِرْقة تقول: نقتُلُهُمْ.

ـ وفِرْقة تقول: لا، هم المؤمنون.

فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ في المنافقين فئتين...﴾ فقال رسول الله ﷺ:

«إنّها طيبةٌ، وإنّها تَنْفِي الْخَبَثَ كما يَنْفِي الكيرُ خَبَثَ الْحَدِيد». أي: إنّ المدينة طيِّبَة، لا تقبل الأخباث دواماً في أرضها، وإنّها بما تتعرّضُ له من تطهير تنفي الأخباث منها، كما ينفي كير الحدّاد خَبَثَ الحديد بحرارته وجَمْرِهِ ومطارِقِ الحدّاد على الحديد الذي يُحْمَىٰ فيه، فلا ضَيْرَ من إغضاء النظر عن المنافقين المخالطين المداخلين فيها مؤقّتاً، حتّى تأتي احداثٌ جَمْرِيَّةٌ تَنْفيهم، وتُبْعِدُهم عن مجتمع المسلمين فيها.

وقد ذكر ابن إسحاق في موقعة أُحد، أنّ عبد الله بْنَ أُبَيّ ابن سَلُول، رجَع يومئذٍ بثلث الجيش، منخذلاً عن رسول الله ﷺ وعن المؤمنين، رجَع بثلاثمائة، وبقي النبيّ ﷺ في سَبْعمائة.

(٢) وروى ابن أبي حاتم عن العوفيّ عن ابن عباس، أنّ الآية نزلَتْ في قوم تكلّموا بالإسلام (أي: أعلنوا أنّهم أسلموا، ولكنّهم بقوا في مكة مع المشركين بغير إذن خاصّ من الرسول، ومكّة يومئذٍ قد كانت دار حربٍ بالنسبة إلى المسلمين).

قال ابن عباس: وكانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكّة يطلبون حاجةً لهم، فقالوا: إنْ لقينا أصحاب محمّد فليس علينا منهم بأْسٌ (أي: بسبب إعلانهم الإسلام، فالمسلمون يعتبرونهم منهم فلا يتعرّضون لهم بأذىً).

وإنّ المؤمنين لمّا أُخْبروا أنّهم خرجوا من مكّة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم، فإنّهم يظاهرون عليكم عدُوّكم. وقالَتْ فِئَةٌ أُخْرَىٰ من المؤمنين: سُبْحانَ الله (أو كما قالوا): أتقْتُلُون قَوْماً قَدْ تكلّموا بِمِثْلِ ما تَكَلَّمْتُمْ بِهِ؟! من أجْلِ

أنَّهم لم يهاجروا ولم يتركُوا ديارَهم نَسْتَحِلُّ دِماءهم وأموالهم؟!

فكانوا كـذلك فئتين، والـرَّسولُ عنـدهم لا يَنْهَى واحداً من الفـريقين عن شيء، فنزلَتْ: ﴿فَما لَكُمْ في المنافقين فئتين...﴾.

ورُوي قـريبٌ من هذا عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وعكـرمة، ومجاهـد والضَّحاك، وغيرهم.

وتـردَّدتْ أقوال أهـل التأويـل في اعتماد الـرواية الأولى الأصحّ التي جاءت في الصحيحين، ورواها الإمام أحمـد. واعتماد الـرواية الأخـرى، إذْ في النصّ ما يـلائمها صراحةً، وهو قوله تعالى فيه:

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾.

أقـول:

بـاستطاعتنـا أنْ نفهم النصّ بطريقـة تلائم الـروايتين معاً دون إشكـال، وسيأتي تفصيلها إن شاء الله، لدى تدبّر فقرات النصّ.

* * *

(٣)

المفردات اللّغوية في النّصّ

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾؟:

أيْ: أيُّ شيء حصل لكم أيُّها المؤمنون، في شأن المنافقين حالة كونكم افترقتم فيهم فرقتين؟

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ﴾:

﴿ما لَكُم﴾ مبتدأ وخبر، بمعنى: أيُّ شيء حصل لكم، ﴿في المنـافقين﴾ أي: في شأن المنافقين، وهو متعلّق بما تعلّق به الخبر.

﴿فِئَتَيْنِ﴾:

أي: حـالة كـونكم فئتين. الفئة: الفـرقة والـطائفـة، أصـل الكلمـة كمـا قـال

ابْنُ بَرّي: «فِئْوٌ» والتاءُ عوضٌ عن الواو، وهي من «فَأَوْتُ» أي: فرَّقْت، لأنّ الفئة كالفِرقة.

ولفظ «فئتين» حال من ضمير المخاطبين في الخبر.

والاستفهام في الجملة يتضمّن معنى الإنكار على المؤمنين، في افتراقهم بشأن المنافقين فرقتين، إذْ كان المفروض أنْ لا يفترقوا، لوضوح أمر المنافقين الذين أظهروا بما كسبوا ما يدلُّ على ردّتهم عن ظاهر إسلامهم، وارتكاسهم في الكفر الذي دلّ عليه سلوكهم، فأجرى الله سنّته فيهم فأركسهم بما كسبوا، ومكّنكُمْ من أن تحكموا عليهم بهذا الارتكاس.

﴿أَرْكَسَهُم﴾:

أي: ردَّهُمْ على أعقابهم ونَكَّسَهُمْ، فقلَبَهُمْ على رؤوسهم.

الرَّكْسُ: ردُّ أوّل الشيء على آخِره، وقَلْبُه على رأسه. يُقالُ لغة: رَكَسَهُ يَرْكُسُهُ رَكْساً، فَهُو مَرْكُوسٌ وَرَكِيسٌ، ويقالُ: أَرْكَسَهُ يُـرْكِسُهُ إرْكاساً، ورَكَّسَهُ يُرَكِّسُهُ، بمعنى رَدّه على عَقِبه، ونَكَّسَهُ.

والمرادُ أنّهم كَسَبُوا إثْماً عظيماً دلّ على حقيقة كفرهم بعدَ ظاهر الإسلام الذي أعلنوه بألسنتهم، فَـرَدَّهم الله بسبب ذلك على أعقابهم منقلبين، مُنَكَّسِين تنكيساً معنوياً، فهم بسبب ذلك تجري عليهم أحكام الكافرين، بما شرع الله للمؤمنين من أحكام إدانةٍ بالكفر، استناداً إلى ما كان منهم من كَسْبٍ إجراميّ.

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾:

أي: فلا تَتَّخذوا منهم جماعةً تُصَافُونهم، وتتبادلون معهم الودّ والتعاون والأعمال الأخوية التي يتولّى بها بعض الجماعة عن بعض أمورَهُ آمِناً مطمئنّاً، غَيْرَ حذِرٍ من الغَدْرِ والخيانة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾:

أي: فإنْ أدْبَرُوا وابتَعَدُوا ولم يعملوا بمقتضى الإسلام الذي أعلنوه، ومنه المهاجرَةُ من دار الكفر، وتركُ مظاهرة الكافرين المحاربين.

﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾:

الميثاق والموثق: الْعَهْد، وجمعه مواثيق.

﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾:

أي: ضاقت صدورهم. الْحَصَرُ في اللغة: ضِيقُ الصَّدْرِ، وضَرْبٌ من الْعِيِّ في اللّسان، يُقالُ لغةً: حَصِرَ يحْصَرُ فهُوَ حَصِرٌ.

﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾:

أي: كُلّما رُدُّوا إلى اختبار صدق إسلامهم الذي أعلنوه، بما يخالف رغباتهم وما يَهْوَوْن.

﴿أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾:

أي: نُكِسُوا في الفتنة، إذْ يظهر من سُلوكهم حقيقة كفرهم.

﴿وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾:

السَّلَمُ: الاستسلامُ والانقيادُ، وهو مصدر يقع على الواحد والاثنين والجميع إذا وُصِفَ بِهِ الأشخاص.

﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾:

أيْ: حيْثُ ظَفِرْتُمْ بهم، وقدرتُمْ على الإحاطة بهم.

* * *

(٤)

مع النَّصّ في التحليل والتدبّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾؟!.

يخاطب الله عزّ وجلّ بهذا المؤمنين من أصحاب الرسول الّذين اختلفوا في شأنِ المنافقين، الّذِينَ كان مِنْهُمْ كَسْبٌ من عَمَلٍ ظاهِرٍ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مُنافِقُونَ غيرُ صادقين في إعلانهم الإسلام.

فمنافقو المدينة انخذلوا عن الرسول ﷺ في معركة أُحُد، بقيادة كبيرهم عبد الله بن أبي بن سلول.

ومنافقو مكّة الّذين أعلنوا إسلامهم، ولم يُهاجروا في سبيل الله، إيثاراً لمصالحهم، فقد ظهر من أعمالهم الدّالّة على نفاقهم، أنّهم كانوا يظاهرون المشركين.

فاشترك هذان الفريقان في ظاهرة متماثلة، وهي ارتكابهم من الأعمال ما يدلُّ على حقيقة نفاقهم، إذْ كان عملهم من قبيل الخيانة العظمىٰ للْمُسلمين، التي لا تظهر غالباً إلّا من الكافرين، وهي خذلُ المسلمين، ومظاهرةُ أعدائهم الكافرين المحاربين، العاملين على إلغاء الإسلام، وإفناء المسلمين.

ولمّا كانت هذه الظاهرة السلوكيّة ذاتَ دلالة واضحة على أن مرتكبيها منافقون، غيرُ صادقين في إعلانهم الإسلام، كان مقتضى الاستدلال بالظواهر يَسْتَدْعي أن لا يفترق المؤمنون في الحكم على أصحاب هذه الظاهرة، بل كان عليهم أن يكونوا مجمعين على الحكم عليهم بالنفاق، إذْ أمر الخيانة العظمىٰ الّتي تعرّض الإسلام والمسلمين لإلغاء الوجود، أو استعلاء الكفر والكافرين في الأرض، ليس من الكبائر التي قد يسقط بها المؤمنون في كُتَلٍ مجتمعة، فاجتماع فريقٍ على ارتكابها يدلُّ علىٰ كُفْرِهِمْ في الباطن.

لذلك وجّه الله عزّ وجل التلويم للمؤمنين بأسلوب الاستفهام الذي يحمل معنى الإنكار عليهم، وهذا الإنكار هو في الحقيقة موجّه للفئة التي حاولت أن تبرّىء المنافقين من الإدانة بالنفاق، أي: بأنهم في باطن أمرهم كافرون غير مؤمنين.

وأبان الله عزّ وجلّ سبب توجيه هذا الإنكار للفئة التي حاولتْ تبرئتهم وإيجاد معاذير لهم، وهو أنّهم ارتكسُوا بما كَسَبُوا مِنْ خيانة عظمىٰ، إذْ إنّ هذه الكبيرة ذات دلالة واضحة على ارتدادهم عن ظاهر الإسلام إلى ظاهر الكفر، والله في أحكام شريعته قد مكّن المؤمنين من أن يستندوا إلى الظواهر للحكم على البواطن.

فمن سجد للصنم وعبَدَه حكمنا عليه بالشرك، ومن أهان كتاب الله وداسَهُ أو دسّه في القاذرات عامداً متعمّداً باختياره الحرّ، حكمنا عليه بالكفر والرّدّة، وإذا اجتمع فريق

من المسلمين على مظاهرة الكافرين ضدّ الإسلام والمسلمين حكمنا عليهم بالرّدة عن الإسلام، وعاملناهم معاملة المرتدين الكافرين.

وعبارة:

﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾.

التي هي جملة حاليّة وتُشير إلى حالة المنافقين، تَدُلُّ على قضيَّتَيْن:

القضية الأولى: أنّ المنافقين كسبوا إثماً عظيماً من مستوى الكبائر العظمىٰ الدّالة على ردّتهم عن ظاهر الإسلام الذي يُعْلِنُونه، فرَدُّهُم الله به إلىٰ الكفر، وجعلهم منكّسين تنكيساً معنوياً، إذ كشف بما جَنَوا وأَجْرَمُوا انتكاسهم، في مجرىٰ مقاديره.

كذلك كل مَنْ أسرّ شراً فلا بُدَّ أَنْ يعمل عملاً أو يتصرّف تصرّفاً يُظهر الله به ما أخفىٰ مِنْ شَرّ.

القضية الثانية: أنَّ الله وضع للمؤمنين فيما أنزل على رسوله قواعد يستطيعون بمقتضاها أن يحكموا علىٰ مَنْ عمل أعمال الرّدّة بالارتداد عن الإسلام، وأَنْ يحكموا على مَن عمِل أعمال الكفر بالكفر، وأن يحكموا على من عمل أعمال الفِسْق بالفِسْق، وهكذا، وهذه الأحكام أحكامٌ أذن الله بها للمؤمنين، فهي منه سبحانه.

إذَنْ: فمن أَرْكَسَه الله في أحكام شريعته بما كسب، فعلينا أَنْ نُرْكِسَهُ، فنَحْكُمَ عليه بالارتكاس، أي: بالرّدّة والانقلاب منكّساً.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ٨٨﴾.

استفهام يحمل معنى الإنكار أيضاً موجّه للفئة التي حاولت من المؤمنين تبرئة المنافقين المعنيّين في النصّ كما ورد في سبب النزول.

والمعنىٰ: أتريدون بفتواكم التي قدّمتموها أن تحكموا بالهداية لمن حكم الله عليهم بالضلالة، وأنزل إليكم القواعد التي تبيّن لكم إدانتهم بالكفر، وتدُلُّكم على أنّ ظاهر إسلامهم إنّما هو نفاق؟!

فالحكْمُ لهم بالهداية حكْمٌ على خلاف الأسس التي شرعها الله فيما أنزل على رسوله، وعلى خلاف قواعد الأحكام بين العباد.

وجاء استعمال التعبير بالإرادة دون الرّغبة أو الودّ، لأنّ ما كان من هذه الفئة قد اقترن بسلوك ظاهر، ولم يقتصر على حركة داخلية نفسيّة.

ودلّ الفعل المضارع [أَتُرِيدُون] علىٰ تكرّر هذه المحاولة منهم، والمجادلة من أجل تبرئة المنافقين من الإدانة بالرِّدّة والكُفر.

وأبان الله عزّ وجلّ لهذه الفئة أنّ حكمهم بالهداية للمنافقين المعنيّين لا ينفع هؤلاء المنافقين شيئاً عند الله، ولا يكون سبيلاً لنجاتهم عنده تبارك وتعالى، فَمَنْ حكم الله عليه بالضلالة فأضلّه، فلن تَجِدَ له ـ يا مَنْ تُناصِرُهُ وتَحْرِصُ على نجاته وهدايته ـ سبيلاً لهدايته ونجاته عند ربّه، فما الحكْمُ النافع عند الله إلاّ لله وحده لا شريك له، أمّا فتاوى المخلوقين في براءة الضالّين والحكم لهم بالهداية فهي لا تغني شيئاً عند ربّ العالمين، فقال تعالى:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾:

أي: ومن يحكم الله عليه بالضلالة بسبب ما هو عليه من ضلالة فلن تَجِدَ له ـ يا من تريد الحكْمَ له بالهداية ـ سبيلاً كي تجعله عند ربّه مَهْدِيّاً من أهل الإيمان والنجاة.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾.

أبان الله عزّ وجلّ بهذا صفة من صفات المنافقين النفسيّة، تُجاه المؤمنين، وهي حركةُ نَفْسٍ لا يُعْلِنُونَها، لكنّها تَعْمَلُ في داخلهم عَمَلها.

والمعنى: ودّ المنافقون مُتَمَنِّين أن تَكْفُروا أنتم أيّها المؤمنون الذين تدافعون عنهم كفراً باطناً، كما كفروا هم في قلوبهم مع تظاهرهم بالإسلام نفاقاً، فتكونوا مباشرةً مِثْلَهُمْ في حالَتي الباطن والظاهر، وعندئذٍ يتهيّأ لهم أن يتخلّصوا من التناقض بين الظاهر والباطن، فيما بينكم وبينهم.

ويعجبني هنا من كلام النحاة اعتبار «لو» مصدريّـةً، ولكِنْ مع بقـاء معنى التمني الذي تدلُّ عليه كلمة «لَوْ» أحياناً.

وجاء استعمال التعبير بالودّ هُنا لأنّ ما هو عند المنافقين تجاه المؤمنين قد اقتصر على حركةٍ نفسيّةٍ قلبيّةٍ داخليّـةٍ، ولم يكن له أثـر في سلوك عمليّ ظاهـر، على خلاف ما كان من الذين دافعوا عنهم من المؤمنين.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أي: فـلا تتّخذوا أيُّهـا المؤمنـون من المنـافقين عُصْبـةً ذاتَ وُدٍّ لَكُمْ تُصـافُونَهُمْ وتَتَبادَلون معهم التّعاون والأعمال الأخويّة التي يتولّى فيها بعضُكم عن بعضٍ أموره آمناً مطمئنّاً، غَيْرَ حَذِرٍ من الغـدر والخيانـة، فالمنـافقون خـونةٌ غيـر مأمـونين على مصالـح المؤمنين، وهم ليسوا مؤهَّلين لهذا الإخاء الذي يكون معه تبادُل الولاء.

وفي هـذا النّهْي إشارةٌ إلى احتمـال أن يكون دِفـاعُ من دافـعَ عنهم من المؤمنين متأثراً برَغبة أنْ تكون لهم عندهُمْ يدٌ، حتّى يكونوا أولياء لهم، يحقّقـون لهم مصالـح، ويتبادلون معهم المنافع، ويتعاونون ويتناصرون فيما بينهم.

هُنا نتوقّف قليلاً عند نهاية قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾:

ولدى مراجعة النصّ من أوّله، وإمعان التدبّـر، يبدو لنـا أنّ الله عزّ وجـلّ تحدّث أوّلاً عن قسمين من المنافقين، هما:

- الذين انخذلوا عن الرسول ﷺ في أُحُد من أهل المدينة.

- والـذين أعلنوا الإسـلام من أهل مكّـة، ولم يُهاجـروا، لكنّهم صاروا يـوالون المشركين ويظاهرونهم، ولم يكن بقاؤهم في مكّة بتوجيـه من الرسـول، ليكونـوا عيونـاً للمسلمين على عدّوهم.

هذان القسمان يجمع بينهما أنّ المؤمنين افترقوا في أمرهم إلى فئتين:

(١) ففئة قالت: هؤلاء منافقون، ظهر من أعمالهم ما يَدينهم بالكُفر.

(٢) وفئة قالت: هم مؤمنون، قد تكلموا بمثل ما تكلّمتم به، فجمع الله عزّ وجلّ البيان بشأنهما فقال تعالى:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

وهُنا سكتَ النّصّ عن القسم الأول، وهُمْ مُنافقو أهلِ المدينة، اعتماداً على ما يفهمُه المسلمون من سياسة الرسول ﷺ بشأنهم، وهو قبُولُ ظاهرهم، وعدَمُ معاقبتهم بالقتل الذي يستحقّونه على أعمالهم الّتي تُنبِىء عَنْ كُفْرهم، لئلاّ يُقال: إنّ محمّداً يقْتُل أصحابه، وهي سياسة تتعلّق بالمنافقين المخالطين المداخلين الذين يُعْطون بحسب الظاهر ولاءهم الكامل للمسلمين المؤمنين وقيادتهم، ولا سيما في أوائل بناء الدولة الإسلاميّة.

وإذْ سكَتَ النصُّ عن بيان السياسة التي ينبغي معاملةُ هذا القسم من المنافقين بمقتضاها، أبان الله عزّ وجل الحكْمَ بالنِّسْبة إلى المنافقين الآخرين الذين هم في دار الكفر، ويُظاهرون الكفّار المحاربين للمسلمين، فقال تعالى بشأنهم في استكمال الحديث عن المنافقين:

﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾:

أي: فلا تتّخذُوا من المنافقين أولياء حتّىٰ يُهاجرُوا في سبيل الله، إذًا لمْ يكونوا من أهل دار الإسلام وسكّانها، والمعنى: حتّىٰ يَنْتقِلُوا من دار الكفر التي يحاربُ أهلُها المسلمين إلى دار الإسلام، وتكونَ هجرتهم في سبيل الله، لا هجرةَ المكرِ والخديعة، لطعنِ المسلمين في ديارهم.

أمّا السّياسة التي ينبغي اتّباعُها بالنسبة إلى هؤلاء المنافقين، الّذِينَ يُظاهِرُونَ الكافرين المحاربين، ولا يهاجرون في سبيل الله، فقد أبانَها الله عزّ وجلّ بقوله في النّصّ:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾:

أي: فإن لم يستجيبوا لمطلب الهجرة الصادقة في سبيل الله الدالَّة على براءتهم من وصمة النفاق، أو تخلُّصهم من رِجْسِه، بل أدْبروا وبقُوا في دار الكُفْرِ يظاهرون من هم في حالةِ حرْبٍ ضدَّ المسلمين، فخذوهم أسرى إن استطعْتُمْ وخذوا ما معهم من أموالهم، واقتلوهم في أيِّ مكان وجدتموهم فيه إن ظفرتم بذلك.

ولا تتَّخِذُوا منهم وليّاً يتولَّى أيَّ أمْرٍ من أموركم، لأنه غير مأمون، ولا يَصْلُح لإنشاء علاقة ولاءٍ بينكم وبينه، ما دام ظهيراً للكفّار المحاربين، ولا تتَّخذوا منهم على وجه الخُصوص نصيراً تعتمدون عليه في نُصْرة شيءٍ من قضاياكم، فهم ليسوا أمناء على شيءٍ من ذلك، إذْ هم في حقيقتهم أعداء، والاغترار بظاهر ما يقولون بألسنتهم لا يليق بأهل الإيمان الصادق الذين يعملون بوصايا الله عزّ وجلّ.

واستثنى الله عزّ وجلّ مِنْ هذا القسم من المنافقين فريقين:

الفريق الأوّل: من ينحاز منهم إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، فيصلون إليهم، ويدخلون فيهم، فهؤلاء يعاملون معاملة هؤلاء القوم، فلا تُطبّق بشأنهم قاعدة:

﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

فقال الله عزّ وجل بشأن هذا الفريق:

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾.

وفي التعبير بـ «يَصِلون» دلالة على أنّهم لا يحمون أنفسهم بمجرَّد الانتماء، أو عقد معاهدةٍ مع هؤلاء القوم، بل لا بُدّ أن يَصِلوا فِعْلاً إليهم، ويدخلوا ضمنهم، وبذلك يُعامَلُون كما يُعَامَل هؤلاء القوم.

وهذا من أحكام العلاقات الدوليّة الّتي شرعها الإسلام، ولم يَكُنْ للنّاسِ نصيبٌ ما منها، وقد ألزم المسلمين بها، ولَوْ لم يلتزم بمثلها أعداؤهم.

الفريق الثاني: من يأتي المسلمين مُسْتَسلِماً مُعْلناً وقوفه على الحياد، فهو

لا يريد أن يقاتل المسلمين مع قومه، ولا يريد أن يقاتل قومه مع المسلمين، فقد ضاق صَدْرُه عن قتال المسلمين وعن قتال قومه، مؤثراً السلامة لنفسه.

إنّ هذا الفريق لا تنطبق عليهم أيضاً قاعدة:

﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

بل يُتْرَكُ ويُغْضَى النظر عنه، فقال الله عزّ وجلّ بشأنهم:

﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾.

إنّ مجيئهم مُسْتَسْلِمين قد يُغْرِي بعْضَ المؤمنين بمعاقبتهم بالقتل جزاء ما كان منهم من مظاهرةٍ للكافرين المحاربين، مع أنّهم كانوا قد تظاهروا بالإسلام.

لكِنَّ اللّهَ عزّ وجلّ قدْ حماهم بمجيئهم واستسلامهم، وحسبُ المؤمنين من مجيئهم واستسلامهم أنّهم انفصَلُوا عن قومهم المحاربين، وأضعفوا بهذا الانفصال قوّة قومهم.

ولو شاء الله لجعل في قلوبهم قدراً من الحميّة والشجاعة، وبذلك يكونون محاربين للمسلمين مع قومهم المحاربين لهم، ويكونون بذلك مدداً وقوّة للكفار المحاربين، هذا ما دلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾.

وفي هذا تحذير من عدم التزام حدود الله في معاملتهم، وإشعارٌ للمؤمنين بأنّ مجيء هذا الفريق مستسلمين من عناية اللّهِ ومعونته لأوليائه.

إذن: فالسياسة التي يجب اتّباعها معهم، هي قاعدة:

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾:

أي: فإنْ قرَّروا اعتزال الدُّخول في صفوفكم، واعتزال مشاركة جيشكم في قتال قومهم، واعتزال الدخول في المقاتلين من قومهم لقتالكم، وألْقوْا إليكُمُ السَّلَمَ، وأعْلَنوا حيادهم التامّ، وطبَّقوا ذلك فِعْلاً، فلَمْ تبدُرْ منْهم بادرةٌ تسوؤكُمْ فما جعل اللَّهُ لكم أيّها المؤمنون عليهم سبيلاً، تتخذون منه ذريعةً لأخذهم وقَتْلِهم.

إنّه اختيار يحميهم، وفي بيان هذا الاحتمال الذي قد يختاره جبناء المنافقين ليأْمَنُوا على أنفسهم إضعافٌ لجيش العدوّ من جهة، ولعلّ بعضَهُمْ يصحّ إيمانه مستقبلاً، أو يكونُ من ذُرِّيّتِهِ مؤمنون صادقون من جهة أخرى، فيكون ذلك خيراً لجماعة المؤمنين الصادقين.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾.

بعد بيان الفريقين اللَّذَيْنِ سبَقَ شرْحُ أحوالهما واللّذين مرّ المؤمنون في عصر الرسول معهم بتجارب واقعيّة، تحدّث الله عزّ وجلّ عن منافقين آخرين، سيظهرون في المستقبل، يُريدُون أنْ يتّخذُوا بالنّسبة إلى أعمال القتال موقف الحياد، طلباً للأمن من جهتكم ومن جهة قومهم، وهؤلاء يتظاهرون بالإسلام، ويؤثرون في القتال موقف الحياد، ثم تظهر منهم أعمالٌ تدُلّ على أنّهم في الباطن كافرون، ويتهرّبون من أن يُوضَعُوا موضع الامتحان الكاشف لهويّة نفاقهم، لكنّهُمْ كلّما رُدُّوا إلى الفتنة بامتحانٍ صعْبٍ على نفوسهم أُرْكِسُوا فيها، أي: ظهر بها عدم صدقهم في إسلامهم، وأنّهم مُنافقونَ غير صادقين في إسلامهم.

والسياسة مع هؤلاء أن يُعْطَوُا الأمن كالفريق الّذين جاؤوا مستسلمين معلنين حيادهم، بشروط ثلاثة:

(١) أن يعتزلوا صفوف المسلمين الصادقين.

(٢) أن يُلْقُوا للمسلمين الاستسلام.

(٣) أن يَكُفُّوا أَيْدِيَهُم عن المسلمين.

فإن أخَلُّوا بشرط من هذه الشروط انطبقت عليهم قاعدة:

﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

وبشأن هؤلاء الّذِين سَيُوجَدُونَ ويُواجِهُ المسلمون المؤمنون مُشْكِلَتَهُم، قال الله عزّ وجلّ:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ . . .﴾.

أي: وأولئك الأخباثُ البُعَداءُ عن رحمة الله جَعَلْنا لَكُمْ أيُّها المؤمنون عليهم حُجَّةً واضحةً أن تُعامِلُوهم بمقتضاها معاملة الكفّار المحاربين، إذا أخلُّوا بالشروط الّتي سبق بيانُها.

● ● ●

النصّ السابع عشر

وهو من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) سادس سورة مدنية

الآيـات مـن (١٠٥-١١٦)

حول ما يجب على القضاة والخصوم وأنصارهم

بمناسبة حادثة سرقة المنافق من بني أُبَيْرِق

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ

ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾.

* * *

(١)
ما في النّصّ مِنَ القراءات المتواترات (من الفرش)

في الآية (١١٤):

(١) قرأ جمهور القرّاء [فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أجراً عظيماً] بنون المتكلم.

(٢) وقرأ أبو عمرو البصري وحمزة وخلف [فَسَوْفَ يُؤْتِيهِ أَجْراً عظيماً] بياء الغائب.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني، فمن كان في حالة حضورٍ مع الله كانت قراءة [نُؤْتِيهِ] ملاءمة لحالته، ومن كان غير ذلك كانت قراءة [يُؤْتِيهِ] ملاءمةً له.

* * *

(٢)
موضوع النصّ وما ورد في سبب نزوله

يدور هذا النّصّ حول بيانِ وجوبِ الحكم بما أنزل الله من أصول وقواعد للفصل بين الخصوم، وتحذيرِ القاضي من أن يقف موقف الدفاع عن أحد الخصمين لاحتمال أن يكون من الخائنين، وتحذير كلّ صالحٍ للخطاب من أن يكون مدافعاً محامياً (= خصيماً) يجادِل لمصلحة من كان من الخصمين خائناً، ومن أنْ يُجادل عن الذين يختانون أنفسهم، مع الترغيب في الاستغفار والتوبة، لدى السقوط في مخالفة هذه التعاليم الرّبّانيّة.

وفيه تحذيرٌ شديدٌ للمذنب العاصي من اتّهام غيره من الْبُرَآء بما ارتكب هو من

إثْم، ليخلّص نفسه من تبعة جريمته، أو ليُبّعد عن نفسه التُّهَمَة الملاحقة له بالدلائل والأمارات.

وفيه بيان أنّ التناجيَ في السّرّ بين الناس داخل المجتمع المسلم أكثره لا خيرَ فيه، إذِ الخيرُ لا يحتاج إلى التناجي في السرّ، باستثناء بعض الأمور، ومنها:

- الأمرُ بالصدقة، لستر حال المتصدِّق عليه.

- والأمرُ بالمعروف ويدخل فيه النهي عن المنكر، لستر حال من يوجَّه له ذلك، إذا كان من أهل الذنوب أو المقصّرين المتهاونين.

- والإصلاحُ بين النّاس، لأنّ المذاكرات العلنية في قضايا الإصلاح بين الناس قد تزيد بينهم شقّة الخلاف.

وفيه التحذير من مشاقة الرسول، ومن اتّباع غير سبيل المؤمنين، خارجاً عن جماعتهم لاحقاً بغيرهم، ويمكن أن يدخل في عُموم اتباع غير سبيل المؤمنين مخالفة ما يقرّر جمهور أهل الحلّ والعقد منهم من الأمور التي هي من المصالح العامّة، الّتي جعلها الله منْ أمْرهم، وجعَلَ البتّ فيها قائماً على قاعدة الشورى، التي يُعْتَمَدُ فيها رأيُ الأكثريّة، ويمكن أن يدخل أيضاً ما يُجْمعون عليه من حكم شرعي.

وأخيراً فتح الله للمذنبين باب مغفرته، مبيّناً أنّه لاَ يَغْفر أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، ويَغْفرُ ما دون ذلك لمن يشاء، وبما أنّ الشركَ هو أوّل دركات الكفر، فإنّ الله لا يغفر ما هو أشدّ من الشرك حتماً، وهذا يُفْهم بأنّه الأولى بالحكْم.

والخطاب الموجّه في النّصّ للرسول موجّهٌ في الحقيقة لكلّ صالح للخطاب به من المسلمين حتى آخر الناس في الحياة الدنيا، لأنّ مضمونه ليس من خصائص النبيّ ﷺ، فمن أساليب القرآن في الخطاب أن يُخاطب الله رسوله ببعض الأمور الشاملة لكلّ المؤمنين، باعتباره أول المؤمنين، وقائدهم، وأوّل المطيعين المسلمين الملتزمين لأوامر الله، المجتنبين لنواهيه، وللإشعار بأنّ الرّسول أوّلُ المكلفين الْمُلْزَمينَ بشرائع الإسلام وأوامر الدين، فهو أتقاهم لِلّه.

* * *

ما وردَ في سبب النزول

روى الترمذي في سننه قال: حدّثنا الحسنُ بْنُ أحْمدَ بْنِ أبِي شُعَيْبٍ أبو مُسْلِمٍ الحرَّاني، حدّثنا محمّد بن سَلَمَةَ الْحَرَّانِي، حدَّثنا مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقَ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانَ قال:

«كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَّا يُقَالُ لَهُمْ بَنُو أُبَيْرِقٍ: بِشْرٌ وبَشِيرٌ ومُبَشِّرٌ، وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلاً مُنَافِقاً يَقُولُ الشِّعْرَ يَهْجُو بِهِ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ يَنْحَلُهُ بَعْضَ الْعَرَبِ، ثُمَّ يَقُولُ: قَالَ فُلاَنٌ كَذَا وَكَذَا، قَالَ فُلاَنٌ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا سَمِعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ الشِّعْرَ، قَالُوا: وَاللَّهِ مَا يَقُولُ هَذَا الشِّعْرَ إِلاَّ هَذَا الْخَبِيثُ، أَوْ كَمَا قَالُوا، وقَالُوا ابْنُ الأُبَيْرِقِ قَالَهَا».

قال: «وَكَانَ أَهْلَ بَيْتِ حَاجَةٍ وَفَاقَةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالإِسْلاَمِ، وَكَانَ النَّاسُ إِنَّمَا طَعَامُهُمْ بِالْمَدِينَةِ التَّمْرُ والشَّعِيرِ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ لَهُ يَسَارٌ فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ[1] مِنَ الشَّامِ مِنَ الدَّرْمَكِ[2] ابتاع الرجل منها فخصَّ بِهَا نَفْسَهُ، وَأَمَّا الْعِيَالُ فَإِنَّمَا طَعَامُهُمُ التَّمْرُ والشَّعِيرُ.

فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ[1] مِنَ الشَّامِ فَابْتَاعَ عَمِّي رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ حِمْلاً مِنَ الدَّرْمَكِ[2]، فَجَعَلَهُ فِي مَشْرَبَةٍ[3] لَهُ، وفي الْمَشْرَبَةِ سِلاَحٌ وَدِرْعٌ وَسَيْفٌ، فَعُدِيَ عَلَيْهِ مِنْ تَحْتِ الْبَيْتِ، فَنُقِبَتِ الْمَشْرَبَةُ[3] وأُخِذ الطَّعَامُ والسِّلاَحُ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّهُ قَدْ عُدِيَ عَلَيْنَا فِي لَيْلَتِنَا هَذِهِ، فَنُقِبَتْ مَشْرَبَتُنَا، فَذُهِبَ بِطَعَامِنَا وَسِلاَحِنَا».

---

(١) الضَّافِطَةُ: العِيرُ تحمِلُ المتاع. ومن الناس الحمَّالُونَ والمُكَارُون الذين يَجْلُبُونَ الميرة والمتاع لِلْمُدُن، والمُكَارِي هو الّذي يُكْرِي الأحمال، وكانوا يومئذٍ قوماً من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت وغيرها. (عن لسان العرب).

(٢) الدَّرْمكُ: الدقيق الأبيض.

(٣) الْمَشْرَبَةُ: الغُرْفَةُ، وهيَ عُلِّيَّةٌ تُبْنَى في الأعلى فوق سطح المبنى الملاصق للأرض. وجمعُها: مَشْرَبَات، ومَشَارِب.

قال: «فَتَحَسَّسْنَا فِي الدَّارِ، وَسَأَلْنَا، فقِيلَ لَنَا: قَدْ رَأَيْنَا بَنِي أُبَيْرِقٍ اسْتَوْقَدُوا فِي هذه اللَّيْلَةِ، وَلَا نُرَى فِيمَا نُرَى إِلَّا عَلَى بَعْضِ طَعَامِكُمْ».

قال: «وَكَانَ بَنُو أُبَيْرِقٍ قَالُوا وَنَحْنُ نَسْأَلُ فِي الدَّارِ: وَاللَّهِ مَا نُرَى صَاحِبَكُمْ إِلَّا لَبِيدَ بْنَ سَهْلٍ: رَجُلٌ مِنَّا لَهُ صَلَاحٌ وإِسْلَامٌ، فَلَمَّا سَمِعَ لَبِيدُ اخْتَرَطَ[1] سَيْفَهُ، وَقَالَ: أَنَا أَسْرِقُ؟! فَوَاللَّهِ لَيُخَالِطَنَّكُمْ هَذَا السَّيْفُ أَوْ لَتُبَيِّنُنَّ هَذِهِ السَّرِقَةَ. قَالُوا: إِلَيْكَ عَنَّا أَيُّهَا الرَّجُلُ فَمَا أَنْتَ بِصَاحِبِهَا.

فَسَأَلْنَا فِي الدَّارِ حَتَّى لَمْ نَشُكَّ أَنَّهُمْ أَصْحَابُهَا (أي: بَنُو أُبَيْرِق).

فَقَالَ لِي عَمِّي: يَا ابْنَ أَخِي، لَوْ أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرْتَ ذَلِكَ لَهُ».

قَالَ قَتَادَةُ: «فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلُ جَفَاءٍ[2]، عَمَدُوا إِلَى عَمِّي رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ فَنَقَبُوا مَشْرُبَةً لَهُ، وَأَخَذُوا سِلَاحَهُ وَطَعَامَهُ، فَلْيَرُدُّوا عَلَيْنَا سِلَاحَنَا، فَأَمَّا الطَّعَامُ فَلَا حَاجَةَ لَنَا فِيهِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: سَآمُرُ فِي ذَلِكَ، فَلَمَّا سَمِعَ بَنُو أُبَيْرِقٍ أَتَوْا رَجُلًا مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَيْدُ بْنُ عُرْوَةَ، فَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ، فَاجْتَمَعَ فِي ذَلِكَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانِ وَعَمَّهُ عَمَدُوا إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلِ إِسْلَامٍ وَصَلَاحٍ، يَرْمُونَهُمْ بِالسَّرِقَةِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا ثَبَتٍ»[3].

قَالَ قَتَادَةُ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمْتُهُ، فَقَالَ: «عَمَدْتَ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنْهُمْ إِسْلَامٌ وَصَلَاحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبَتٍ وَلَا بَيِّنَةٍ؟!».

قال: «فَرَجَعْتُ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ مَالِي وَلَمْ أُكَلِّمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ.

فَأَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، مَا صَنَعْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فقال: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

---

(١) اخترط السَّيفَ: إذا سَلَّه من غِمْده ليقاتل به.

(٢) أهل جفاء: أي أهْلُ سوء خُلُق.

(٣) الثَّبَتُ: الْحُجَّة.

فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ نَزَلَ القُرْآنُ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾.

بَنِي أُبَيْرِق.

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ﴾:

أيْ: مِمَّا قُلْتَ لِقَتَادَةَ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾.

أيْ: لَوِ اسْتَغْفَرُوا اللَّهَ لَغَفَرَ لَهُمْ.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾.

قَوْلُهُ لِلَبِيد.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ بِالسِّلَاحِ فَرَدَّهُ إلى رفاعة، فقال قتادة: لَمَّا أَتَيْتُ عَمِّي بالسِّلاحِ وكان شَيْخاً قَدْ عَسِيَ[1] أَوْ عَشِيَ في الجاهلية، وكُنْتُ أرَى إسلامَهُ مَدْخُولاً، فلمَّا أَتَيْتُهُ بِالسِّلاحِ قال: يا ابْنَ أخِي هُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فعرفْتُ أنَّ إسْلامَهُ كَانَ صَحِيحاً.

فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ لَحِقَ بَشِيرٌ بِالْمُشْرِكِينَ، فَنَزَلَ عَلَى سُلافَةَ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ سُمَيَّة، فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾.

فَلَمَّا نَزَلَ عَلَى سُلافَةَ رَمَاهَا حَسَّانُ بْنُ ثابتٍ بِأَبْيَاتٍ مِنْ شِعْرِهِ، فَأَخَذَتْ رَحْلَهُ فَوَضَعَتْهُ عَلَى رَأْسِهَا، ثُمَّ خَرَجَتْ بِهِ فَرَمَتْ بِهِ فِي الأَبْطَحِ، ثُمَّ قَالَتْ: أَهْدَيْتَ لِي شِعْرَ حَسَّانٍ، مَا كُنْتَ تَأْتِينِي بِخَيْرٍ.

قال أبو عيسى الترمذي: هذا حَدِيثٌ غريب، لَا نعلَمُ أحداً أسنده غير محمَّدِ بْنِ سَلَمَةَ الْحَرَّانِي.

وهذا الحديث رواه ابن جرير، وابْنُ المنذر، وابْنُ أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَان. ورواه آخرون مُرْسلاً.

* * *

(٣)
المفردات اللّغويّة في النَّصّ

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾:

الخائِنُ: اسم فاعل من (خانَ يَخُونُ خَوْناً وَخِيَانَةً وَمَخَانَةً) والخيانة ضدّ الأمانة،

---

(١) عَسِيَ: أي كبرت سِنُّهُ.

فهي تشمَلُ كلّ نقص من الحقّ، وعدم أداء للواجب، وعدم وفاء بالعهد عمداً مع القدرة عليه، وكلُّ عُدْوَانٍ على ما استُؤْمِنَ الإنسانُ عليه، من جَسَدٍ أو مَالٍ أو عِرْضٍ أو قَوْلٍ أو عمل أو نيَّةٍ، أو سِرٍّ أَوْ مَشُورَةٍ، أَوْ نَحْوِ ذلك.

﴿خَصِيمًا﴾:

الْخَصِيم: المخاصِمُ المجادِل المنازع، لنفسه أو لغيره، في خصومة بين فريقين بحقٍّ أو باطل.

﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾:

أي: يَخُونون أنفسهم، اخْتَانَ مثل خَانَ مع زيادة في معنى قباحَةِ الخيانة، لأنّها خيانةٌ للنَّفْس، وعَبَّرَ اللَّهُ عن المعاصي بأنّها من قَبِيل خِيانَةِ الإنسان لنفسه، لأنّ نَفْسَهُ أمانةٌ بين يدي إرادته، فإذا عصى اللَّهَ عزّ وجلّ من أجلِ أهوائه وشهواته عرّض نفسه للعقوبة الإلّهيّة، فيكونُ بذلك قد خان نفسه، وظَلَمَ نفسه، وأقْبَحُ الخيانة أن يخون الإنسان نفسه، وأقبح الظلم أن يظلم الإنسان نفسه.

وقد جاء في القرآن فعل «اختان» في خيانة الإنسان لنفسه فقط.

﴿يَسْتَخْفُونَ﴾:

اسْتَخْفَى وتَخَفَّى واخْتَفَى بمعنىً اسْتَتَر وتَوارَى، وفي «اسْتَخْفَى» معنى زيادة اتّخاذ وسائل الاستتار، أخذاً من الصيغة المزيدة بالسين والتاء.

﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾:

أي: إِذْ يُدَبِّرونَ أَمْرَهُمْ بليل، التَّبييتُ: عَمَلُ الشيء أو تدبيره أو الاتفاقُ عليه لَيْلاً.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾:

السُّوءُ: كُلُّ مَا يَقْبُحُ، واسْمٌ جامعٌ للآفات، وكلّ فعل شائن.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾:

أي: ومن يَضُمُّ إلى نَفْسِه بِعَمَلِهِ ذَنْباً يَسْتَحِقُّ عليه العقوبة بالعدل، وهو بهذا الضمّ يحْمِلُهُ ثِقلاً على نفسه.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾:

الْخَطِيئةُ: تَقعُ علىٰ الفعل المخالف للصواب بقصدٍ أو بغير قصْدٍ، وتَقَعُ على الذُّنوبِ كُلِّها صِغَارِها وكِبَارِها، أمَّا الإثم فهو الذنْبُ وجاء إطلاقه في القرآن على جميع المعاصي صغارها وكبارها.

﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾:

أي: ثُمَّ يَقْذِف به إنْسَاناً بريئاً، مُتْهِماً إيَّاهُ به، لِيُبْعِدَهُ عَنْ نَفْسِه، ولِيَحْمِيَ نَفْسَه من تَبِعَتِه أو عقوبته.

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ﴾:

أي: فقد كَلَّفَ نفسه حَمْلَ عِبْءٍ ثَقِيل لا يُحْمَلُ إلَّا بمشقّة.

﴿بُهْتَٰنًا﴾:

الْبُهْتَانُ: افتراءُ الكذب، واتِّهامُ البريء بذنْبٍ لم يَرْتكبْه، ظلماً وعدواناً.

﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾:

أي: وذنباً واضحاً جليّاً، لا تخالطه شبهةٌ قدْ تُساعِدُ على تخفيف حَجْم الجريمة، فهو من الكبائر.

﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾:

الْهَمُّ: حركَةٌ نَفْسِيَّةٌ لِتَنْفِيذِ أَمْرٍ ما، وهو فوق الرَّغبة، ودون الإرادة التي يَقْتَرِنُ بها الجزمُ، ويكون التَّنفيذُ في وقته عِنْد عدم الموانع ومَعَ توافر وسائل التنفيذ.

الطائفة: الجماعة والفرقة من الناس، والجزء والقطعة من الشيء.

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾:

الكتابُ هو القرآن، والحِكْمَةُ كُلُّ ما دَلَّتْ عليه السُّنَّةُ النبويّة من قَوْلٍ، أو فِعْلٍ، أو إقْرار، أو خلُق.

وجاء عند الإمام أحمد في مسنده وأبي داود وغيرهما أن الرسول ﷺ قال: «ألا أُوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ مَعَهُ»، وهو حديث صحيح.

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾:

يُقالُ لغةً: نَجا فُلاناً الْحَدِيثَ يَنْجُوهُ نَجْواً، أي: أسَرَّ إلَيْهِ الْحديث.

فالنَّجْوَى: الإسْرارُ بالحديث. ويُطْلَقُ هذا اللفظ على المتناجين، من قبيل الوصف بالمصدر، ويستوي فيه الواحد وغيره، يقال: هم نَجْوى.

﴿مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾:

أي: رِضَىٰ الله، يقالُ لغةً: رَضِيَهُ، وَرَضِيَ بِه، ورضي عنه، يَرْضَىٰ رِضاً، ورِضاءً، ورِضْوَاناً، وَمَرْضَاةً. والرِّضَىٰ هو قبُولُ الشيء مع الاكتفاء به.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾:

أي: وَمَنْ يُخالفِ الرَّسُول ويُعاديه، ويَتَّخذْ لِنَفْسِه شِقاً غَيْرَ شِقِّه.

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾:

تَوَلَّى فُلانٌ فُلاناً، أو تَوَلَّى فُلانٌ الشيء، إذا أحبَّهُ، ونصَرَهُ، ولَزِمَهُ، أو اتَّخَذَهُ وَلِيّاً له.

فَمَنْ تَوَلَّىٰ بإرادَتِهِ شَيْئاً مَا طائعاً مختاراً، وَلاَّهُ اللَّهُ إيّاهُ في مجرى سُنَنِه التكوينيّة.

﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾:

أي: نُذِقْهُ عَذابَ الاحتراق في نار جَهَنَّم، جَهَنَّمَ: اسم علم من أسماء النار التي أعدّها الله ليُعذّب فيها الكافرين والعصاة يوم الدين، وهو ممنوع من الصرف للعلميّة والتأنيث.

ويقال: بِئْرٌ جهنم، أي: بَعيدةُ القعْر. ويقال للقَعْرِ البعيد «جهنَّم».

* * *

(٤)
مع النصّ في التحليل والتّدبّر

* قولُ الله عزّ وجل لرسوله:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾.

يتحدّثُ الرّبُّ في هذا المقام بضمير المتكلّم العظيم ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا﴾ مُؤكّداً البيانَ بحرْفِ التّوكيد «إنَّ» فيقولُ لرسوله: إنَّا بعظَمةِ العِلْم الشامل والحكمةِ الكاملة، والتّنزُّهِ عمّا لا يَليقُ بجَلالِ الرُّبُوبيّة، أنزلنا إليكَ الكتابَ القُرآنَ مُتّصِفاً بالحَقّ الّذي يَقْترِنُ بكلِّ قَضِيَّةٍ خَبريّة منْ قضاياهُ.

وما أنزله الله إلى رسوله بوصفه مكلّفاً، وَمبلّغاً ما أنزلَ الله إليه، هُوَ أيضاً مُنزّلٌ إلى الناس المأمُورِينَ بتَدبُّرِه والعملِ بما جاء فيه، وهذا النصّ مُطَالَبٌ بمضمونه القضاةُ والحكام على وجه الخصوص.

ومن الحقّ الذي أنزلَهُ الله في القرآن أُصولُ الحقُوق بين الناس، وقواعِدُ العدلِ، وقواعدُ الْحُكم بالحقّ والعدل بَيْنَ الْخُصوم، فهذا هو ما أراه الله لرسوله فكلُّ حاكمٍ وقاضٍ مِنْ بعده، بمعنى أعْلَمَهُمْ به علماً بيّناً لا غموض فيه، حتّى كأنّهُ مَرْئيٌّ بالْحِسِّ الْبَصَرِيّ دون غَبَش، لمن تدبَّرَه بصِدْقٍ وفَهْمٍ سليم.

فجملةُ ﴿لِتحكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ﴾ تعليليّة، تُبيِّنُ الحكمة منْ بعض ما جاء في القرآن وهو ما يَتعلّق بأصول وقواعد الحكم بين الناس بالحقّ والعدل، وذلك لأنّ القرآن يشتمل على قضايا أخرى ذواتِ عِلَلٍ وَحِكَمٍ أُخْرَى تكليفيّةٍ وإرْشاديّة وتعليميّة وغير ذلك.

وبعد هذه الجملة توجد جملة محذوفة لفظاً مقدّرة حكماً، وهي: فاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ، بدليل قوله تعالى بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ فدلَّتْ جُمْلَةُ النهي هذه المصدَّرَة بحرف العطف، على أنّها معطوفة على الجملة المحذوفة المقدّرة.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾:

أي: ولا تكُنْ لأجل الخائنين ولتبرئتهم مخاصماً مُدافعاً عنهم من حيْثُ لا تشعُرُ، بسبب عَدَم تقيُّدِك تقيُّداً تامّاً بأصول وقواعد الحكم بين النّاس بالحقّ والعدل، التي أراك الله إيّاها ببيان تعليميّ جَلِيٍّ شبيهٍ بالرُّؤيَةِ الْبَصَرِيّة.

وهذا النهْيُ يشمَلُ بعمومه ولوازم دلالته عدّة صور:

الصورة الأولى: نهْيُ كلّ مؤمن عن أن يدافع عن الخائنين، ويجادل لتبرئتهم، سواء أكان قاضياً، أو وسيطاً، أو شفيعاً، أو وكيلاً، أو مُحامِياً، أو شاهداً أو حَكَماً، أو غير ذلك، فالدّفاع عن الخائن والمجادلةُ لتبرئته خيانة، ومعصيةٌ من الكبائر، لأنّها تُسَاعِدُ على إبطال الحقّ وإحقاق الباطل.

الصورة الثانية: نَهْيُ الْقَاضي أو الحاكم المؤمن عن أن يتأثّر بعاطفة ما، فيَنْحازَ إلى أحد الخصمين ويُجَادِلَ عنه ظانّاً أنّه صاحب حقّ، فيقع في احتمال أن يكون للخائنين خصيماً.

الصورة الثالثة: نَهْيُ الْقَاضي أو الحاكم المؤمن عن أن يتسرّع في حكمه أو إبداء رأيه في إدَانةِ أو تبرئةِ أحَدِ الخصمين قبل استكمال أصول وقواعد الحكم بين النّاس بالحقّ والعدل، التي أبانها الله عزّ وجلّ، لأنّ ذلك مظنّة الوقوع في احتمال أن يكون للخائنين خصيماً.

فنُزِّلَتْ مَظِنّةُ الوقوع في تبرئةِ الخائن منزلةَ المخاصمة الفعليّة عنه، والمجادلة من أجله.

وقد وُجد في قصة السارق من بني أبريق من جعل نفسه خصيماً لأجلهم مُدافعاً عن مجرمهم.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾:

أي: واستغْفِرِ اللَّهُ ممّا وَقَعْتَ أو قد تقعُ فيه من تقصيرٍ أو مخالفةٍ في هذه الأمور، يَغْفِرِ الله لك، دلّ على جواب الطلب هذا وصف الله عزّ وجلّ بأنه غفور رحيم دواماً، الذي تضمّنه قول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾.

فعل «كان» في مثل هذا الاستعمال يدلّ على الكينونة الدائمة.

غَفُوراً: أي: كثيرَ المغفرة عظيمَها. رَحيماً: أي: واسعَ الرحمة عظيمها. أخذاً من صيغتي المبالغة.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾:

جملة معْطوفَة على جُملة ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً﴾ وما عُطِفَ عليها.

وقد يبدو أنّ مضمون الجملتين واحد، فالخصيم لتبرئة الخائنين هو الذي يـدافعُ ويُجادل عنهم، والمجادلُ عن الذين يختانون أنفسهم هو الذي يحاول بأقواله تبرئتَهُمْ، فالمعنَيان متماثلان بحسب الظاهر مع اختلاف في اللّفظ.

ولكن إذا لاحظنا أنّ القرآن استعمل فعل «اخْتَانَ» في خيانة الإنسان لنفسه فقط، في هـذا النصّ، وفي نصّ آيـات الصيـام في سـورة (البقـرة/٢ مصحف/ ٨٧ نـزول) إذ جاء فيه:

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴿١٨٧﴾﴾:

أي: كنتم تعـاشرون الـزوجات في ليـالي رمضان، إذ كـان هذا محرّماً في أوّل الأمر ثُمّ أذن الله به. ولم يأت استعمال فعل (اختان) في غير هذين النّصين.

إذا لاحظنا هذا أَدْرَكْنَا أنّ الله عزّ وجَلّ قد جعل الخيانة قسمين:

الخيانة الأولى: خيانةُ الإنسان لحقوق الآخرين من الناس، وجـاء فيها استعمـال فعل «خان».

الخيانة الثانية: خيانة الإنسان لِنَفْسِهِ فيما للهِ عليْهِ من تكاليفَ وأمور تعبُّدِيّة، وجاء فيها استعمال فعل «اخْتَان».

والله عزّ وجلّ نهى المؤمن سواءٌ أكان حاكماً أو قاضياً أو وكيلاً أو شاهداً أو وسيطاً أو محامياً أو غير ذلك، عَنْ أن يُدافع ويُجادلَ عمّن خانَ غيره من الناس وعمّن اختان نَفْسَه في أمْرٍ يتعلّق بينه وبين رَبّه فقط، ويؤكد هذا الفهم أنّ الله استعمل كلمة «خصيم» بجانب القسم الأول، وفعل المجادلة بجانب القسم الثاني.

ونحن نعلم أنّ دلالات النصوص المنزّلة لا تقتصرُ على العناصر التي جاءت في سبب النزول ولو صحّ، لأنّ المناسبة قد كانت مفتاحاً لتنزيل النصّ ذي الصبغة الكليّة العامّة التي تشمل العناصر التي جاءت في سبب النزول، وتشمل غيرها.

وهذا المعنى هو ما يُريده الأصوليون بقولهم: العبرةُ بعموم النصّ لا بخصوص السبب.

وقد جادل عن المجرم من بني أبيرق مجادلون لتبرئتهم مما جنى جانيهم من كبيرة السرقة.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾.

الْخَوَّان: هو كثير الخيانة، أو الذي صارت الخيانة عادة لازمة لَهُ، أخذاً من صيغة المبالغة «فعّال».

والأثيم: هو كثير ارتكاب المعاصي والذنوب، أو الذي صار ارتكاب الإثم عادةً لازمةً له، أخذاً من صيغةِ المبالغة «فعيل».

فالخوّانُ الأثيم لا يُحبُّه الله، إذْ أخْرج نفسه بخياناته وآثامه التي يلازمها من دائرة محبّة الله لعباده، ومن أخرج نفسه من هذه الدائرة تراكمت على قلبه ونفسه الظلمات، وصار محلاً لتساقُط سخطِ الله عليه ونقمته، وابْتَعَدَ عن مجالات مغفرة الله ورحمته.

وجاء في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ :

أي : لا يحبُّ كلَّ خوّانٍ لحقوق الله عليه كفور بأنْعُمِهِ، فلا يخرج المؤمنُ من كلِّ دائرة محبَّةِ اللهِ حتَّىٰ يكونَ خوّاناً أثيماً، أوْ خوّاناً كفوراً.

لكن خيانة قَوْمٍ ما لجماعةِ المؤمنين في عُهودِهِمْ، وتَدْبيرَ المكايد ضدَّهم كافيَةٌ لإخراج هؤلاء الخائنين من دائرة محبَّةِ الله، ولو لم يصلوا إلى دركَةِ خوّانين، وفيها يقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾ :

أي : فانبذ إليهم عهدهم، وأعلمهم بذلك، وكُنْ معهم على سواءٍ في عدم الالتزام بالعهد السابق.

وهكذا تكاملت النُّصوصُ في دلالاتها.

وقد كان في قصة بني أُبَيْرِق من هو خوّان أثيم، وهو منافقهم السارق.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ :

أي : يُحاولون جَهْدَهُمْ اتّخاذ وسائل الاستتار عن أعين الناس ومراقبتهم لارتكاب جرائمهم وآثامهم في الخفاء، وهم لا يستطيعون الاستخفاء عن الله العليم السميع البصير الذي هو معهم شاهدٌ حاضرٌ أينما كانوا، ومهما استَخْفَوا. وقد كان من بني أبيرق أنهم استَخْفَوْا بجريمتهم من الناس، لكنهم لم يستطيعوا الاستخفاء من الله، وقد فضحهم الله.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ :

أي : والله عزّ وجلّ مَعَ هؤلاء الخائنين ومَعَ كلِّ خائنٍ حينَ يُبْرِمُونَ في اللّيل حيْثُ يسْتخفون عن أعيُنِ الرُّقباء مَا لاَ يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ الذي يجعلونه متضمِّناً خطط الخيانة التي سيعملون بمقتضاها.

وإذا كان الله معهم عليماً بما يُبَيِّتون فإنّهم لن يستطيعوا أن يَفْلِتوا من عقاب الله متى شاء الله إنزال عقابه فيهم، ولن يستطيعوا أن يُنَفِّذوا أمراً لم يأْذَنِ الله بتَنْفِيذِهِ ضِمْنَ مقتضى حكمته.

وقد كان من بني أبريق تبييتُ قولٍ فيما بينهم لا يرضاه الله.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾

أي: واللَّهُ بما يعملون محيطٌ دواماً، لا يَتْرُكُ من أعمالهم عملاً يُحقِّقُ أهْدافَهُمْ منه إلّا أنْ يأذَنَ بذلك ضمن مجاري حكمته، فإنْ أحْبَطَهُ فبحكمته، وإنْ أَذِنَ بنفاذه فبحكمته، والله في كلّ الأحْوَال لا يَهْدِي كَيْدَ الخائنين.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

هذا الخطاب موجّه على وجه الخصوص للذين جادلوا مدافعين عن الخائنين من بني أُبَيْرق، بأنّهم أهل إسلام وصلاح، بغيةَ تبرئتهم وإبعاد تهمة السرقة عنهم، وموجّه على وجه العموم لكلّ من أخذ يدافع عن أيّ خائنٍ أو مجموعةٍ من الخائنين حتى آخر الدهر.

ويُلاحظ أنّه قد كان يكفي في التعبير لتوجيه الخطاب أن يقال: هَا أنتم جادَلْتُمْ، فلماذا جاء التعبير: ها أنتم هؤلاء جادلتم؟

قال النُحاة: إنّ حرف (ها) الذي للتنبيه لا يدخل إلّا على اسم الإشارة الذي لغير البعيد، وعلى الضمير الرفع المخبر عنه باسم الإشارة، مثل: ها أنتم هؤلاء ـ ها أنتم أولاء ـ ها أنا ذا ـ والجملة بعد هذا التعبير تأتي حالية أو خبراً بعد خبر. والثالث أن تدخل بعد (أيّ) في النداء نحو ﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾.

واعتبر النحاة التعبير بنحو ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ من التعبيرات العربيّة المتبعة، التي يلازمها هذا الأسلوب، وجعلوا: أنتم هؤلاء ـ أَنْتُمْ أولاء ـ أنا ذا ـ مبتدأً وخبراً.

وقالَ بعض النحاة: إنّ «هؤلاء» في مثل [ها أنتم هؤلاء جادلتم] و[ها أنتم هؤلاء حاجَجْتُم] و[ها أنتم اولاء تُحبّونَهُمْ] نداءٌ معترض بين المبتدأ الذي هو ضمير الرفع والخبر الذي هو الجملة بعد اسم الإشارة المنادىٰ بحرف نداءٍ محذوف، ولم يرضه سيبويه.

أقول: هذا الفهم أقرب لكمال التعبير القرآنيّ، ويكون نداء المخاطبين باسم الإشارة، فيه معنى التوبيخ لهم في هذه الاستعمالات القرآنية الثلاثة، كما يقول القائل: إليك عني أنت يا هذا، وابتعدوا عني أنتم يا هؤلاء.

أمّا تخريج العبارة على طريقة جمهور النحاة فتكلُّفٌ لا يتلاءم مع ما يُفْهَم من التعبير بالتلقائية، والله أعلم.

والمعنى: ها أنتم يا هؤلاء الذين أعنتم الخائنين على تبرئتِهم من جريمتهم، جادلتم عنهم في الحياة الدنيا، فدفعتم عنهم أمام الناس التُهمَةَ، وحميتموهم من العقوبة، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة، حين يحاسبهم على خياناتهم، ويَدينهم بجرائمهم، استناداً إلى صحف أعمالهم وشهادة جوارحهم عليهم، وعلمه بواقع حالهم؟!

إنّ الجواب البدهيّ لهذا السؤال: لا أحد، إنّهم سَيُدانون ويستحقون عقاب الله بالعدل.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

(أم) هي هنا المنقطعة بمعنى «بل»، والمعنى: بَلْ من يكون يوم القيامة عند ربّ العالمين وكيلاً على الخائنين، يتوكّلُ أمْرَ إبعاد عقاب اللّهِ عنهم وحمايَتِهِم منه؟!

إنّ الجواب البدهيّ لهذا السؤال: لا أحد.

الوكيل على إنسان أو غيره هو الذي يتولّى مَصَالِحَهُ وحمايتَه ويَقِيه من السُّوءِ

ويرعَى مختلِفَ شُؤونه، ويوم الحساب لا وكيلَ ولا نصيرَ من دون الله، ولا شفيعَ إلاَّ بإذنه.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾.

بعد الوعيد الضمنيّ بالعقوبة على جريمة الخيانة، فتح الله عزّ وجلّ في هذه الآية للمذنبين باب الاستغفار والرجعة إليه بالاعتراف بالذنب، وطلب المغفرة، ولا يكون الصّدق في هذا إلّا مع الندم والعزم على الاستقامة، فمن صدق في رجعته لربّه واستغفاره من ذنبه وجد الله كثير الغفران واسع الرحمة.

السُّوءُ: في اللُّغَةِ كُلُّ ما يَقْبُحُ، وكُلُّ ما يكرهُهُ ويَسْتاءُ منه مَنْ مسُّهُ، أو مَسّ شيئاً يَحْرِص هو على سلامته.

وأُطْلِقَ عَمَلُ السُّوءِ في القرآن على ارتكاب الذَّنْب سواءٌ أكان من الصغائر أو من الكبائر، لأنّه عملٌ قبيح من جهة، وعقوبته تَسُوء مرتكبَهُ من جهة أُخرَى، وإذا كان هذا العمل من قبيل العدوان على ذي شعور يُدْرِكُ العملَ القبيح فإنه يسوؤُه أنْ يُعْتَدَىٰ عليه.

﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾

أي: بارتكاب معصية من المعاصي الظاهرة أو الباطنة مع الناس أو بينه وبين ربّه، لأنّه يعرّض نفسه لعقوبة الله ونقمته، وظلم النفس يكون بارتكاب أعظم المعاصي كالكفر بالله والنفاق والشرك، بارتكاب الكبائر وكلّ معصية تجلُب لمرتكبها عقوبةً أو خُسْراناً عند الله.

ونتساءل: لم قسّم الله في هذه الآية المعاصي إلى قسمين:

القسم الأول: سمّاهُ اللّهُ سُوءاً.

والقسم الثاني: وصفه الله بأنه من قَبِيلِ ظُلْم مرتكبِهِ لنفسه.

وبالتأمّل يُمْكن ان نُجيب: بأنّ عمَلَ السُّوء يشمَلُ كلَّ عمـل يُدْرِك النـاسُ قُبْحه، فيسـوؤُهم أن يرتكبـه مذنب، أمّـا المعاصي التي يـظلم الإنسان بهـا نفْسَه ففيهـا أنواع لا يُدرِكُ كثير من الناس قُبْحَهَا، كالأمور الخاصّة بين العبْـدِ وربّه، وبـدأ الله بما يُـدْرِكُه الناسُ من عمل السُّوءِ، وهو بعضُ أفراد ما يـظلم به العبْدُ نفسه، وبعـدَهُ ذكر العنـوان الذي يشْمَلُ كلَّ الذُّنوب، ما يُدْرِكُ الناس سُوءَهُ منها وما لا يُدْرِكون، ممّا أبانه الله لعباده فيما أنزل على رسوله، ولا سيما الأمور التعبُّديّة.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾:

أي: ومَنْ يضُمُّ إلَى نفسه بعمله إثماً يَحْمِلُ ثقلَهُ، فإنّما يكْسِبُهُ جـانياً عَلَى نَفْسِـهِ ظالماً لها، ولا يكْسِبُهُ لنفسه وإن بدا لَهُ في عاجلِ أمْرِهِ أنّـهُ لمنفعته ولـذّتِهِ، لأنّ العبـرة بعواقب الأمور، لا بأوائلها الّتي تغُرُّ المتعجّلين، والإثم هو الذنْب الذي يستحقُّ مرتكبُه العقوبة، من صغائر الذنوب وكبائرها.

إنّه بعمله الذي يـظُنُّ أنّه يكْسِبُ بـه شيئاً لمصلحة نفسه، إنّمـا يكسب به شيئاً يُنْزِلُ به على نفسه ضرراً وعقوبة، فهو على نفسه لا لها.

إنه سيكون عرضةً للحساب وفصل القضاء والجزاء يوم الدّين، وقد دلّ على هذه الأمور قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾.

فالله عزّ وجلّ بعلمه الشامل يحاسبه على عمله، وبحكمَتِه يجازيـه بالعـدل، إنْ لم تقتضِ حكمة الله أن يشمله بمغفرته والتجاوز عن معاصيه.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾.

الْخطِيئَةُ: تُطْلَقُ عَلَىٰ ما يُخَالِفُ الصَّوابَ والْمَطْلُوبَ من العبد عن عَمْدٍ أو خَطَإٍ،

من صغار المخالفاتِ وكبارِها، وعلى الذنوب كلّها.

والإِثْمُ: هـو الذنْبُ الـذي يستَحِقُّ عليه فاعله العقوبـة من الصغائـر والكبـائـر.

والمعنى: ومن يَعْمَـلْ خَطِيئةً أو يَعْمَلْ إثْماً، ثمّ يَرْمِ بـالَّذِي كَسَبَـهُ من خَطِيئةٍ أَوْ إثْمٍ إنْساناً بَرِيئاً، لِيُبْعِد التُّهمَةَ عنْ نَفْسِـه، أو لِيُوقِعَ الْبَرِيء في نـظر النّاس بـارتكاب الإثم مكراً به وكيداً له، وليتخلّص منـه أو من مكانتـه الاجتماعيّة، بما يَنـزل فيه من عقـابِ عمـلٍ لم يعمله. فقد احْتَمَـل من الجـرائم جِمْلاً ثقيلاً لا يسـتـطيـع حمله إلاّ بتكلُّفٍ ومشقة، وهذا الحمل يَشْتمِل على جريمتين كبريين:

الجريمة الأولى: الْبُهْتان وهو افتراء الكذب.

والجريمة الأخـرى: الإثْمُ المبين، وهو ماكان منـه من قَذْفٍ لِلْبـريء بما يَجُـرُّ عليه العقوبـة، وهو ظلْمٌ عـظيم، من الكبائـر الكبرى، وبمـا يَصِمُه في نـظر النّاس من ارتكاب الإثْم الذي هو بريء منه، وربّما يكون هذا أشدّ إيلامـاً له من العقـوبة، وهـو أيضاً ظلم عظيم من الكبائر الكبرى.

وقد اشتملت قصّة بني أُبَيْـرِق على هذا النوع من الجرائم، إذِ ارتكب مـرتكبيهم الإثم الكبير، ثمّ رَمَوْا به شخصاً غيرَهُ من البرءاء.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ . . . ﴿١١٣﴾﴾.

أي: ولَوْلا فضلُ الله عليك يا محمّـدُ بالبصيرة والْحِفْظِ، وكَفِّ المضلّين عَنْكَ، ولولا رحْمَتُه أيضاً بالمغفرة لما لا يليقُ بمنزلتكَ العظيمة، لَهَمَّتْ طـائفةٌ مِنْهُمْ مِنْ أهـل الكيد والمعصية والنفاق، أنْ يُضِلُّوكَ عَنِ الحقّ بما رغبوا في أن يُقَدِّمـوا لَكَ من حُجَـجٍ وأقوال كاذبة خادعة، لكنّهم ما استطاعوا أن يصلوا إلى مستوى الْهَمّ[1] الذي هـو دون

(١) أخطأ بعض أهل التـأويل في تفسير الهمّ بالإرادة الجازمة أو بالعزم. فـأوقعهم هذا الخـطأ في مفاهيم غير مُرادَةٍ من النص، انظر في (الفصـل الرابع) من كتاب الأخـلاق الإسلاميـة وأسسها للمؤلف: مستويات توجّه النفس إلى العمل الإرادي بمواقع المسؤوليّة.

الإرادة الجازمة التي تدفع إلى التنفيذ عادة، فضلاً عن أن يصلوا إلى مستوى الإرادة الجازمة، ثم التنفيذ بسبب فضْلِ اللّهِ عليك ورحمته، فوجودُ فضلِ الله عليك ورحمتِه، جَعَل رغباتهم لا تَصِلُ إلى مستوى الهمّ بأنْ يُضِلُّوك.

ولو أنهم حاولوا أن يُضِلُّوكَ فإنّهم لا يُضِلُّون إلّا أنفسهم، إذْ ينكشِفُونَ ويَسْقُطون في المكيدة الّتي سَيَكِيدُونها، وَمَا يَضُرُّونَكَ بضَرَرٍ ما من شيءٍ من الأشياء الّتي يُمْكنُ أنْ تضُرّ.

فبسبب فضل الله عليك ورَحمته ما وقع منهم همٌّ بأن يُضِلُّوك، ولو وقع منهم هذا الهمّ لما أضلّوا إلّا أنفسهم، ولَمَا استطاعوا ان يَضُرُّوك ضرراً مُنتزعاً من شيءٍ من الأشياء.

وفي هذا البيان تنبيهٌ موجَّهٌ لأهل الكيد والمكر أنْ يكُفُّوا كُلَّ حِيَلِهم، فالله حافظٌ رسولَهُ من كلّ ما يُمْكن أن يكون منهم من مكرٍ سَيِّىءٍ وكيد عظيم، وعاصِمٌ له من الناس.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾.

يُتَابع الله خطابه لرسوله فيمتَنُّ عليه بأنَّهُ أنْزَلَ عَلَيْهِ الكِتابَ الَّذِي هُو القرآنُ المجيد، وأنزل عليه الحكمة، وهي كلُّ ما دَلَّتْ عليه السُّنَّةُ النبويَّةُ من قولٍ أو فعلٍ أوْ خُلُقٍ أوْ إقرار. وعلَّمه فوقَ ذلكَ من العِلمِ في غير قضايا الدّين ما لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ.

وامْتَنَّ عليه بأنَّ فضله عليه بذلك وبغيره من عطاءاتٍ جليلات كانَ عظيماً.

والمقصود من توجيه هذا الامتنان إشعارُهُ بمسؤوليته العظيمة تجاه ربّه، بالنسبة إلى كلّ ما تفضّل الله بِهِ عليه، من تشريف بإنزال الكتاب والحكمة عليه، وهبة العلم، وعطاءات الفضل العظيم.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)﴾.

بمناسبة التّناجي السّري الـذي حصل بين بني أُبَيْـرق وبعض الذين جـادَلُوا عنهم من أوليائهم، وجّه الله عزّ وجلّ عامّة المسلمين بشأن الاجتماعات السّرية، التي تكون داخل المجتمعات، بعيداً عن مراقبة قادة المسلمين ذوي البيعة الإسلامية الصحيحة، مبيّناً لهم ضرورة اليقظة والحذر من التجمُّعـات التي تحدُث داخـل المجتمع المسلم، والتي تكون فيها النَّجْوىٰ، أي: الأحاديث السّرّيّة بعيداً عن علم ومراقبة القيادة المؤمنـة المسلمة.

إنّ الاجتمـاعات السّـرّيةِ التي تكـون فيها النَّجْـوى بعيداً عن علم ومـراقبة قيـادة المسلمين المؤمنة الرّشيدة اجتماعاتٌ مشبوهة بصفةٍ عامّةٍ لا خير في كثير منها:

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾.

فالقاعدة العامّة بالنسبة إلى هذه التجمُّعـات والتّكتُّلاتِ التي لهـا مجالس نجـوىٰ تجري فيها أحاديث سرّيّة، أنها لا خيـر في كثير من نجـواها، بـل احتمالات الإضـرار فيها بمصالح المسلمين أفرادهم أو جماعاتهم أو دولتهم هي الاحتمالات الأكثر.

إذن فيجب مراقبتها والحذر منها، ويجب على جمـاهير المسلمين أنْ لا يَلْجَـؤُوا إليها باستثنـاء بعض الصّور، ومنهـا صور ثـلاثة يُمْكن أن يُقـاسَ عليها أشبـاهها، وهي ما أبانَهُ الله عزّ وجل بقوله:

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾:

فالصورة الأولى: مجلسٌ تكونُ فيه نَجْـوىٰ قائمـة على أمر بصـدقة لـذي حاجـةٍ متعفّف يكره أن تفتضح حاجته، محافظةً على مكـانته الاجتمـاعية، فـالنجوى في هـذا الأمر نجوى خير، يعطي الله من يفعَلُها ابتغاء مرضاته أجراً عظيماً.

والصورة الثانية: مجلسٌ تكونُ فيـه نَجْوىٰ قـائمةٌ على أمْـرٍ بمعروف أو نهي عن منكر، لشخصٍ بعينه أو أشخاصٍ بأعيانهم، فواجب النصيحة في مثل هذه الحالة أنْ

تكون نَجوىٰ، حديثاً في السِّر، لا حديثاً معلناً، وإلاّ كان فضيحةً لا نصيحة، وربّما جرَّأته الفضيحة على التمادي في الغيّ، والمجاهرة بالإثم، مع المكابرة والعناد، فالنجوىٰ القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأشخاص بأعيانهم يُعْطِي الله من يفعلها ابتغاء مَرْضاته أجراً عظيماً.

والصورة الثالثة: مجلسٌ تكونُ فيه نجوىٰ قائمةٌ على محاولةِ إصلاحٍ بين فريقين مُتخاصمين أومتعاديَيْن من الناس، فالنجوىٰ في قضايا الإصلاح بين النّاس تُهيّىءُ أحْسَنَ الظروف لتقريب وجهات النظر، وتهديم عوامل الشّقاق والخلاف، وتغيير الأفكار التي تستثير الغضب وتوقظ الحميّات والأنانيات، وإطفاءِ نار الفتنة، وإعْطاءِ فرصة للمُصْلِحِين أن يكتموا عن الفريقين كثيراً ممّا يَعْلَمون ويَسْمَعُون منهما، وأن يقولوا من عندهم ما يكون سبباً في تأليف القلوب، وإنشاء المودّات، عملاً بقول الرسول ﷺ:

«لَيْسَ الْكَذَّابُ بالَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْراً، ويَقُولُ خَيْراً».

(حديث صحيح رواه البخاري ومسلم
والإمام أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم)

فَيَنْمِي خيراً: أي: يُبَلِّغُ حَدِيثاً ويَرْفَعُه على وجْهِ الخير، للإصلاح. يُقَالُ لُغَةً: نَمَىٰ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ، إذا رَفَعَهُ وَبَلَّغَهُ عَلَىٰ وَجْهِ الإصلاح. أمّا نَمَّىٰ الْحَدِيثَ بالتَّشْدِيد يُنَمّيه تَنْمِيَةً، فهو أنْ يُبَلِّغ أحَد الفريقين كلاماً عن الفريق الآخر، على وَجْهِ الإفساد والنميمة، وهذا مذموم، وهو من الكبائر.

فلاحِظِ الفرقَ بَيْنَ نَمَىٰ الْحَدِيث يَنْمِيه بالتخفيف وبَيْن نَمَّاهُ يُنَمّيه بالتشديد.

فالنجوى القائمة على الإصلاح بين الناس ابتغاء مرضاة الله يُعطي الله عليها أجراً عظيماً.

وبعد بيان الصُّوَر الخيّرة المستثناة من عموم النجوىٰ، قال الله عزّ وجل:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

المشار إليه باسم الإشارة [ذَٰلِكَ] الصور الثلاث التي سبق شرحها.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾.

يدخل في عموم مشاقة الرسول كلّ عمل يخالف سبيل المؤمنين، ومنه التناجي في السّر بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، بدليل الإحالة على هذا النص في النصّ اللاحق الذي أنزله الله في سورة (المجادلة) في الآية (٨) منها، كما سيأتي بيانه إن شاء الله[1].

ومن هذه المشاقة ما كان من المنافق السارق من بني أبَيْرق «بشير» على ما جاء في رواية سبب النزول، إذْ فرّ من المدينة دار الإسلام يومئذٍ، وخرج عن جماعة المسلمين، واتّبع غير سبيلهم، ولحق بالمشركين في مكّة، حين انكشف أمره، وخاف من إنزال عقوبة السّرقة به، وقد أبان الله عزّ وجلّ سُنّته الثابتة في كلّ من يشاقق الرسول من بعدما تبيّن له الهدى (وهو الحق الذي أنزله الله على رسوله) ويتّبع غير سبيل المؤمنين، بإرادته الحرّة، وهذه السُنّة تتلخّص بثلاثة عناصر.

العنصر الأول: أنّ الله عزّ وجلّ يُمَكِّنُهُ مِنْ مُتابعة مسيرة حياته، وفق ما اختار هو لنفسه، حتى تنتهي رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، ليلقىٰ عند ربّه يوم الدّين حسابه وجزاءه.

فما اختار لنفسه فتولّاه، بأن أحبّه واعتقده ولَزِمه واتّبعهُ، من مفهومات، وأعمال، وشياطين إنس وجنّ، ولّاه الله إيّاه، فسخّر لَهُ الوسائل والأسباب، ومختلِف الظروف لما يُريدُ ممّا تولّى، ومكّنه من ذلك ضمن سنته العامّة لكلّ عباده، دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجل:

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾:

---

(١) وهي قول الله تعالى فيها: ﴿أَلم تَرَ إلى الذين نُهُوا عن النجْوى ثم يعودون لما نُهُوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول. . .﴾ (من المجادلة/٥٨).

أي: نمكّنه من أن يتولّى ما اختار هو لنفسه أن يتولاّه، فنجري لـه الأسباب على وفق السُّنن العامّة، دون أن نمنع عنه شيئاً منها، ما لم تَقْضِ الحكمة العامة له أو لغيره بعدم تحقيق مراده.

العنصر الثاني: أن يُذيقه الله عـذاب الْحَرِيق في جَهَنّم. يُقَالُ لُغَةً: صَلِيَ النّارَ وصَلِيَ بِهَا يَصْلَى صَلًى وصِلِيّاً، إذا احْتَرَقَ فيها. ويُقال: أَصْلاهُ النّارَ وَأَصْلاهُ بِهـا وفيها وعليها إذا شَوَاهُ عليها وأَحْرَقَهُ.

دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾.

العنصر الثالث: أن يجعله الله خالداً في جهنّم إذ تكون هي مَصِيرَهُ الأخيرَ الذي هو صائر إليه، وسَاءَ ذلِكَ المصير، دلّ على هذا العنصر قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

إنّ التعذيب بنار جهنّم قـد يكون تعـذيباً مُـؤَقّتاً، إذْ يكـون المصير الأخير لبعض المعذّبين فيها الجنَّةَ دار النعيم، لكنّ هذا الذي شاقّ الرسول واتّبعَ غير سبيل المؤمنين يُصْلِيه اللّهُ جَهَنّم، ويجعلُها مَصِيره الأخير، فيكـون خالـداً فيها، ولتـأكيد الـدّلالة على هذا المعنى، جاءت جملة الـذّم: ﴿وَسَاءَتْ مَصيراً﴾ مفصولـة بالعـطف الذي يقتضي نوعاً من التغاير الذي فيه إضافة عنصر جديد للعنصُرَيْن السـابقين، وليست مجرّد جملة ذمٍّ لجهنّم.

* * *

قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾.

اشتملت قصّة سرقـة المنافق من بني أُبَيْرق على كبيرة السرقة، والكبيـرة الأشدّ التي هي قذف أحد البرآء بها، وعلى الكبيرة المكَفّرة الكبـرى التي هي مُشاقَّةُ «بشير» للرسول، وخروجُه عن جماعة المسلمين، ولُحُوقه بالمشركين.

إنَّ هـذه المناسبـة استدعت أن يُنـزِل الله بيانـاً حول مـا يَغْفِـرُه ومَـا لا يغفـره من المعاصي.

فـوضع الله عـزَّ وجلَّ حـدّاً فاصـلاً، أبانَ فيـه أوّل دركاتِ الكبـائـر الكبـرى الّتي لا يَغْفِرها، إذْ تَقَـعُ تَحْتَ أَدْنَى دَرَجَاتِ الإيمـان والإسلام، وتبـدأُ عندهـا أوّل دركـاتِ الكفر.

ونفهم من بيـان هذا الحـدّ الفاصـل أنّ مَا هُـو أشدّ من هـذه الدَّركـة من دركات الكفر، لا يَغْفِره الله من باب «أَوْلَى».

إنّ أوّل دركات الكبائر التي لا يغفرها الله دركةُ الشركِ به، إذن: فما هو أشدّ من الشرك كالكفر بوجود الله، والكفر بصفاته، والكفـر برسُلِهِ وبمـا أُنْزِلَ، إلى سـائر أنـواع الكفر وصُوَرِه جرائم لا يغفرها اللّهُ حتماً.

وبعد بيان هذا الحدّ الفاصل أبان جلّ وعـلا أنّ ما هـو أخفُّ من دركة الشـركِ به من كلّ المعاصي كبائرها وصغائرها قابلةٌ لأَنْ يَغْفِرَها الله لمن يشاء.

بعد هذا أبان تعالى السبب في كونه لا يغفر الشّرك به فما هو أشدّ من الشرك من أنواع الكفر، وهو أنّه ضلال بعيدٌ جدّاً، فصاحِبُ هذا الكفر قد أبعد نفسه عن كلّ دائرة رحمة الله بالعفو والغفران، فهي لا تشملُه، فقال تعالى:

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾.

ونُلاحظ في هذه الآية دليلاً لقول جمهور الفقهاء والعلماء من أنّ من ترك الصلاة تهاوناً وتكاسلاً غير جاحد لها ولا مستكبـر عن عبادة الله، فـإنّه لا يكفـر، ولا يخرج من الملّة، ولا يكـون محرومـاً من احتمال أن يغفـر الله له إذا شـاء، لأنّ ترك الصـلاة دون الشرك بالله حتماً.

● ● ●

النصّ الثامن عشر

وهو من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول)
سادس سورة مدنية
الآيـات مـن (١٣٦ ـ ١٤٧)
بشأن قسم المذبذبين من المنافقين، وبعض صفات عموم المنافقين

قال الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ١٣٩ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ

ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾ ﴾.

* * *

(١)
ما في النّصّ من القراءات المتواترات (من الفرش)

* في الآية (١٣٦):

(١) قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمرو، وابْنُ عـامر: [وَالْكِتَـابِ الَّذِي نُـزِّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ] بالْبِناءِ لِما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ في «نُزِّلَ» و«أُنْزِلَ».

(٢) وقرأ بَاقِي العَشرة: [نَزَّلَ وَ أَنْزَلَ] بالبناء للمعلوم في الفعلين.

وفي القـراءتين تنويعٌ في الأداء البيـاني، وقـراءة جمهـور القرّاء تُفسّـر القـراءة الأخرىٰ.

* في الآية (١٤٠):

(١) قرأ عاصم، ويعْقوب: [وَقَدْ نَـزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ] بـالبناء للمعلوم. في فعل [نَزَّلَ].

(٢) وقرأ باقي القُرّاء الْعَشرة: [وَقَدْ نُزِّلَ عَلَيْكُمْ] بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.

وفي هاتين القراءتين أيضاً تنويعٌ في الأداء البياني.

* في الآية (١٤٥):

(١) قرأ الكوفيُّونَ «عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف»: [في الدَّرْكِ] بإسكان الرّاء.

(٢) وقرأ باقي القرّاء العشرة: [في الدَّرَكِ] بفتح الرّاء.

والقراءتان وجهان عربيانِ للكلمة، وقيل: «الدَّرَك» بفتح الراء جمع «دَرَكَة».

* في الآية (١٤٦):

(١) قرأ يعقوب في الوقف: [وَسَوْفَ يُؤْتِي] بإثبات الياء على القاعدة النحوية.

(٢) وقرأ باقي القراء العشرة [وسَوْف يُؤْتِ] بحذف الياء مطلقاً وصلاً ووقفاً، مراعاةً لرسْمِ المصحف، وحذف الياء جاء للتخفيف ومراعاة حالة الوصل، فالقراءتان وجهان من الأداء العربي.

* * *

(٢)
موضوع النصّ

يتناول هذا النصّ الحديث عن صنفٍ من المنافقين، وهم المنافقون المذبذبون بين المؤمنين والكافرين، المتردّدون بين الإيمان والكفر، فهم قَلِقُون لا استقرار لهم، ولا ثبات لهم على رأيٍ اعتقاديٍّ واحد، ولا منهج سلوكي صادقٍ واحد.

وتناول هذا النصّ كشف طائفة من صفاتهم، فهم يؤمنون، ثُمَّ يكْفُرونَ، ثمّ يؤمنون، ثمّ يكْفُرونَ، وهذا التردُّدُ يجعلهم في حالة نوبة الإيمان يتطلّعون إلى الكافرين ذوي القوّة الظاهرة، فيبتغون أن يستندوا إليهم، ويتقوَّوْا بهم، ويوالُوهُمْ من دونِ المؤمنين، وهذا يدفعهم إلى أن يُكْثِروا من مجالستهم في مجالسهم، ويُغْضُوا النظر عمّا يَسْمعون منهم من كُفْرٍ بآياتِ الله المنزّلة على رسوله واستهزاءٍ بها.

وهذا التردّد الذي هو وصفهم، إذْ يتعاقبُ عليهم الإيمان والكفر، يجعلهم وهم في نوبةِ الكفر يظلُّونَ محافظين على الانتماء إلى الإسلام في الظاهر، ويجعلُهم في حالة تربُّصٍ دائمٍ بيْنَ المؤمنين والكافرين، يُراقبون الأحداث بين الفريقين، فمن غلَب أو غَنِم منهما أقبَلُوا عليه مطالبين بالمشاركة، زاعمين له أنّهم منه.

وحالة التذبذب النفسيّ لدى هذا الصنف من المنافقين تدفعه إلىٰ أن يتّخذ أسلوب المخادعة لسَتْر حقيقته.

ومن علامات هذا الصنف من المنافقين في ظاهرات السلوك الإسلاميّ، ومن علامات سائر المنافقين ما يلي:

(١) أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قامُوا كُسالَىٰ، يراءون الناس، إذْ لم تَسْتقِرَّ قُلُوبُهم، على الإيمان حتّى يؤمنوا بجدوى الصلاة، وكذلك سائر الأعمال الإسلامية، والمرائي لا يستطيع أن يكُون مُنْفَعلاً انْفعالاً ذاتِيّاً مع العمل الذي يُؤَدّيه رياءً ومخادعة.

(٢) أنهم لا يذكُرون الله إلاّ قليلاً، إذْ هُمْ في نوبة اتّجاه قلوبهم للإيمان وبقائها فيه قد يذكرون الله عزّ وجلّ، لكِنَّ هذه النوبة لا تطُول، إذْ سَرْعان ما يَرْتَدُّونَ إلى الطرف الآخر الأقصَىٰ باطناً، وإنْ ظلُّوا محافظين في الظاهر على الإسلام ومشاركة المسلمين في أعمالهم، والانخراط في صفوفهم.

وجاء في النصّ مُراعاةُ نوبة الإيمان الذي يكون له إشراقٌ ما في قلوبهم، فيُطالبُهم بأن لا يتّخذوا الكافرين أولياء، لئلاّ يجعلوا للّهِ عليهم حُجَّةً واضحةً بأنّهم يستحقون العقاب الشديد، كما هو موجه لسائر المؤمنين.

وجاء في النّصّ مراعاةُ نَوْبَةِ الكُفْر الّذي يُغلّفُ بصائرهم، مع محافظتهم على ظاهر إسلامهم، فيُوجّه لهم الوعيد بأنّ المنافقين في الدَّرْكِ الأسفل من النار.

وبعد ذلك يفتح الله عزّ وجلّ لهم باب التوبةِ وإصلاحِ وضعِهم بالإيمان الثابت المستمرّ، والاستقامة علىٰ مقتضيات الإيمان، وإخلاص دينهم لله عزّ وجلّ، ويَعِدُهُمْ بأن يكونوا مع المؤمنين، ويتجاوز عن تقلُّبهم السابق بين الإيمان والكفر، إذا تابوا وأَصْلحوا واعتصموا بالله، وأخلَصُوا دينهم لله، ويُبَيِّن الله لهم أنّه ليس له سبحانه غرضٌ خاصٌ بعذابهم، أي: لكِنَّ قانون الجزاء العامّ الذي تقتضيه الحكمة لا بُدّ أن يُنَفَّذ بالعدل، فإذا تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله، وأخْلَصُوا دينهم لله، استَحقُّوا بمقتضى قانون الجزاء العام وقانون الغفران لمن تاب قبل فوات الأوان أن يغفر الله لهم ما كان منهم قبل التوبة والاستقامة من تردُّدٍ وتقلُّبٍ بين الإيمان والكُفر.

* * *

(٣)
المفردات اللّغوية في النصّ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾:

هذه من الصفات السلبيّة لله عزّ وجلّ، أي: من صفاته الّتي يتّصف بها دواماً من الأزل إلى الأبدِ أنه سبحانه لا يغفر لمن تردّدوا بين الإيمان والكفر، ثمّ استقرّوا أخيراً على الكُفْر وازدادوا فيه، وانتهت رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا وهُمْ كذلك.

واللّام في [لِيغْفِرَ] يُسمّيها النُحاةُ لامَ الْجُحودِ، لوقوعها بَعْدَ كَوْنٍ منْفيٍّ، أي: هي لتأكيد معنى النفي.

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

يُقالُ لغةً: بَشَرَهُ يَبْشُرُهُ، إذا أَخْبَرَهُ بِمَا يَسُرُّهُ ويُفْرِحُهُ، وكَذَلِكَ أَبْشَرَهُ، وبَشَّرَهُ يُبَشِّرُهُ بَشْراً وبِشْراً وبُشُوراً، والاسم «الْبُشْرَىٰ» وقد تُستَعْمَلُ هذه المادّة اللّغوية في الإخبار بالشّر وبما يَسُوء، وقد يقال: هذا على سبيل التهكّم، باستعمال اللّفظ في ضِدِّ ما وُضِع له.

﴿ٱلْعِزَّةَ﴾:

العزّة: هي الْقُوَّةُ الغالبة، يقول العرب: منْ عزّ برّ، أي: من غلَب سلَب.

﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾:

أصل الْخَوْضِ الْمَشْي في الماء وتحريكه، ثمّ استُعْمل في التَّلَبُّسِ بالأمر والتَّصرُّف فيه. ومن التوسُّع استعمال «الْخَوضِ» بمَعْنَى اللَّبْسِ في الأمر، فالْخَوْضُ من الكلام ما فيه الكذِبُ والباطل.

تقول لغةً: خاضَ الماءَ يَخُوضُهُ خَوْضاً وَخِيَاضاً، وتَقُولُ اخْتاضَ وتَخوّض.

واسْتُعْمِلَ في بيانات الرسول التَّخَوُّضُ في مال الله. بمعنَى التَّصرُّفِ فيه بما لا يرضاه الله، وجاء في سورة (الأنعام/٦) استعمال الخوض في آياتِ الله بمعنى الطَّعْنِ فيها والكُفْرِ والاستهزاء بها، فقال الله عزّ وجل فيها:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ ﴿٦٨﴾﴾.

وقد جاء بيان هذا الْخَوْضِ في آيات الله في قوله تعالى الذي نتدبّره من سورة (النساء):

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾:

التَّرَبُّصُ الانْتِظَارُ، يُقَالُ لُغَةً: تَرَبَّصَ فُلانٌ بفُلان، أي: انتظَرَ بِهِ خيراً أو شرّاً يحلُّ به. وكذلك يُقالُ: رَبَصَ بِفُلانٍ يَرْبُصُ رَبْصاً. ويقال: تَـرَبَّصَ بسلعَتِهِ الْغَلاءَ، أي: انْتظَرَهُ.

﴿فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ﴾:

أي: نَصْرٌ من الله.

﴿نَصِيبٌ﴾:

النَّصِيبُ الحظُّ من كُلِّ شيءٍ، والجمع: «أنْصِبَاء وأنْصِبَة ونُصُب».

﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾:

يقال لغة: اسْتَحْوذَ على الشيء، إذا حَوَاهُ. والحاوي للشيء يضمُّه ويحميه.

ويقال: استحوذَ عليه إذا غَلَبَهُ واستولى عليه.

قال أبو إسحق: أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ معناه: ألم نستول عليكم بالموالاة لَكُمْ.

وقال الجوهري: أي: ألم نَغْلِبْ علَىٰ أُمُورِكُمْ ونَسْتَوْلِ على مَوَدَّتِكُمْ.

أقول:

بما أنّ من معاني استحوذ على الشيء معنىٰ «حَوَاهُ» فلا حاجة إلى اعتماد المعنى الآخر وهو الغلبة على الشيء والاستيلاء عليه بالقوة، وتكلُّفِ تأويل الجملة حتى تتّفق مع ما هو ظاهر من المراد منها.

وعلى هـذا يكون المعنىٰ: ألم نُحِطْ بِكُمْ إحاطة حمـايةٍ ومعـونة ونُصْـرَة، وتأتي جملة:

﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

بمعنىٰ ونَحْمِكُمْ ونَحْفَـظْكُمْ مِنْ تَسَلُّطِ المؤمنين عليكم، وغَلَبَتِهِم لكُمْ، مُتَمِّمَـةً لفكرة الاستِحْواذ بمعنىٰ الإحتواء والإحاطة، فالْمَنْعُ في اللُّغَةِ الحمايَةُ والحفظ.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾:

المخادعة: هي إظهار ما يُوهم الصدق والسّلامة والسّداد، وإبطان ما فيه خلاف ذلك.

والمخادعة تتضمّن استغفال مَنْ يُرادُ خَـدْعُهُ، لإيقـاعه فيمـا يكره، بـأن يُظهِـرَ لَهُ المخادِعُ ما يُحبّ، ويُخْفي عنه مَا يَكْرَهُ، تَغْرِيراً به.

وأصلُ مادّة «خَـدَعَ» فيها معنى الاستخفـاء والتواري، ومنهـا «المخدع». وفِعْـل «يُخـادع» بهذه الصيغة يدُلُّ في الأصـل على المشاركـة، ويَـدُلُّ أيضـاً على المبـالغـة والاجتهاد الزائد في العمل ولـو كان من طـرفٍ واحد، لأنّ مَنْ يُغـالبُ غيره في عَمَـلٍ ما يُبالِغُ من طرفِهِ بِبَذْلِ غايَةِ الْجَهْدِ الذي يَسْتَطِيعُ بَذْلَهُ، والمنـافقون يُبـالِغُونَ جـدّاً في استخدام الخداع، ويُمْعِنُونَ فيه بِبَذْل غاية جَهْدِهم، حتّى كـأنّهم في معركـة مخادعـة بينهم وبَيْنَ المؤمنين.

ويـدُلُّ الفعل المضـارع في [يُخَادِعُـون] على تجديـد الخدع وتكريره مـع مرور الزّمن، وهو ما يحتاج إليه المنافقون باستمرار.

ونتساءل: كيف يخادعون الله وهو العليم بسرائرهم، وبكلّ ما يمكرُون؟

والجواب: أنّهم حين يخادعون الذين آمنوا مع أنّ الله معهم، وهـو وليّهم، إنّما يخادعون معَهُمُ الله ربَّهم، الذي يتولّاهم بتأييده ونصْـرِه، ويحميهم من مكر المنـافقين والكافرين ومكايدهم. فالمنافقون بسبب غفلتهم عن هذه الحقيقـة، أو بسبب جحودهم لها لا يَخْدَعُـونَ إلّا أنفسهم، وذلك لأنّهم هم الـواقعون في شـرّ أعمالهم، والسـاقطون في الْحُفَـر التي يحفرونهـا للمؤمنين، وهذا يُبَيّن أنّهم هم المخـدوعون لا الخـادعون،

نـظراً إلى أنّ خديعتهم مـردودةٌ عليهم من حيث لا يَشْعُرونَ، وأنّ سِهَـامَهُم مُنْقلِبـةٌ إلى نُحُـورِهِمْ وهُمْ لاَ يَعْلَمُون، وبمـا أنّ ما يجـري عليهم إنما يجـري بتـدبيـر الله العـزيـز الحكيم، وهذا التدبير خفي عنهم، والله يُعاقبهم بمثل عملهم، إذْ يستدرجهم من حيثُ لا يَشْعُرون، حتى يُوقِعَهُمْ بشرّ عَمَلِهِم الذي يمكُرُون به، أو بنظيره، قـال الله عزّ وجـلّ: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾. أي: مجـازيهم بمثل عملهم، أو مـوقعهم في عاقبـة الأمر الذي أرادوه للمؤمنين، وخادَعُوا فيه.

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾:

أي: يُظْهِرُونَ للنّاس أنّهم أهل خيـر وصلاح، وهم على ضـدّ ذلك. يقـالُ لغة: رَاءَاهُ يُرَائِيهِ مُرَاءاةً، ورِءَاءً وَرِيَاءً، أي: أراه أنّه متّصفٌ بالخير والصّلاح على ضدّ ما هو عليه.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾:

يقـالُ لغة: ذَبْـذَبَ فُلاَنٌ فُـلاَناً، إذا جعَلَهُ حيْـرانَ يَتَرَدَّدُ بين طـرفين، أو فريقين. وذَبْـذَبَ الشيءَ إذَا حرَّكَـهُ، فصار قَلِقـاً مضطربـاً. ويُقَـالُ: ذَبْـذَبَ الشَّيْءُ الْمُعَلَّقُ، إذَا تحرَّكَ وتردَّدَ في الهواء. ويُقالُ: ذَبْذَبَ فلاَنٌ: إذا تردّد بين أمْرين، أو بَيْنَ رَجُلَيْنِ مثلاً، فلاَ تثبُتُ صُحْبَتُه لواحدٍ منهما.

فَمُذَبْذَب: اسم مفعول، من ذَبْذَبَـهُ الْمُتَعَدِّي، فمـا الذي جعـل هذا الصِّنْف من المنافقين مُذَبْذَبين؟

بالتفكّر يَتَبيَّنُ لنا أنّ عواملَ في داخلهم مُتضَادّة تَتجاذَبُهُمْ بين أقصَيَيْن مُتَباعِـدَيْن، همـا الإيمانُ والكُفْـرُ، نَجْدُ الخير ونَجْدُ الشّـر، فالـرُّؤيَةُ الفكـريّة السّليمـة، ومشـاعـرُ الْبَصِيرَة الوجدانيّة، ولَمّـةُ الْملَكِ في داخلهم، تَجْذِبُهُمْ إلى جـانب الإيمان والمؤمنين، وأهـواءُ نُفُوسهم، وشهـواتُهم، وتعلُّقُهم بـالـدّنيـا، ووسـاوسُ شيـاطِينِ الإنْسِ والجنّ، تَجْذِبُهُمْ إلى جانب الكُفْـر والْكافـرين، وإذْ قَدْ فَقَـدُوا الإرادة الجازمـة الحازمـةَ بعَدَمِ اسْتعمالِهم لَهَا صَارُوا مُذَبْذبِينَ بَيْنَ قُوَّتَيْنِ مُتكافِئَتَيْن.

﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾:

أي: حُجَّةً واضِحةً.

﴿فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾:

الدَّرْكُ، والدَّرَكُ: أسْفَلُ كُلِّ شيءٍ ذِي عُمْقٍ. والدَّرْكُ الأسْفَلُ من النار، الطَّبقَةُ السُّفلَى من طَبَقَاتِها النازلة في اتِّجاه أعماقها. فدار العذاب يومَ الدِّين كالبِئْرِ تبدأُ من أعلى إلى أسْفل، ودارُ النعيم يوم الدين بعكس ذلك تبدأ من أدنَى إلى أعلى، والفردوس منها أوسط الجنّة وأعلاها.

وعلى اعتبار أن (الدَّرْكِ) بفتح الراء هو جمع دَرَكَة، فإنّ الدركة هي عكس الدرجة، فالدرجة إلى الأعلى والدركة إلى الأسفل.

﴿تَابُوا﴾:

أي: رجَعُوا عن مَعْصيتهم، يقال لغة: تابَ، يَتُوبُ، تَوْباً وتَوْبَةً، وَمَتاباً، وتَابَةً، فَهُو تائبٌ وَتوّابٌ.

﴿وَأَصْلَحُوا﴾:

أي: فعلُوا مَا هُو صَالِحٌ بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ واصلَحُوا الفساد الذي كان في نفوسهم وأعمالهم، من جرّاء ما كان في قلوبهم من نفاق.

﴿وَٱعْتَصَمُوا بِٱللَّهِ﴾: أي: تَقَوَّوْا بالله، وامتنعوا به، ولم يبتغوا العزّة عند الكافرين.

﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾:

الإخلاص لله في الدين، هو ابتغاء مرضاة الله في كلّ عمَلٍ من الأعمال الدينيّة، القوليّة والعمليّة الظاهرة والباطنة.

* * *

(٤)
مع النصّ في التحليل والتّدبّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ

وَالْكِتَٰبِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾.

إنّ الإيمان حركةٌ قلبيّةٌ كَحَرَكةِ الحياة، من آثاره حركَةُ العبادات التي يجب أن تتجدّد دواماً، دليلاً على فاعليّة الإيمان وحياتِهِ وحركته.

فإذا لم يكُنْ للإيمان مَدَدٌ يُغذّيه ويُجدّدُه دواماً سَكَنَ وبَرَد، وصار قابلاً لعوارض الأمراض، وكلّما طال تخزينُه أو سَجْنُه مُهْملاً نائماً غافلاً، لا يأتيه مَدَدٌ يُغذّيه بوسائل حياته وحركته وفاعليّته، كانَ أشدّ عُرْضَةً للضعف والأمراضِ التي تفسده، وإذا طال عليه الأمدُ وهو على هذه الحالة كان بمثابة شيءٍ لا فائدة منه من صنوف المهملات، وربّما نَبَذَهُ القلْبُ وتخلّىٰ عنه، وتحوّل إلى الكُفْر الذي تُمِدُّهُ دواماً الشُّبُهات والشهوات والأهواء ووساوسُ شياطين الإنس والجنّ.

من أجل ذلك، وبمناسبة الحديث الذي سيتناول المنافقين المذبذبين بين الإيمان والكُفْر، إذْ يُؤْمِنُون في نوبةٍ من حياتهم، ثمّ يكْفُرونَ في نوبةٍ أخرى، مع المحافظة على ظاهر إسلامهم، ثم يعودون إلى الإيمان في نوبة، ثم يعودون إلى الكفر، وهكذا. خاطَبَ الله عزّ وجلّ في بداية هذا النّصّ الذين آمنوا، فأَمَرَهُمْ بأن يُمِدُّوا إيمانَهُمْ دواماً، بما يُغذّيه ويجدّده، ويجعله حيّاً يقظاً ذا حَرَكَةٍ كَحَرَكَةِ الحياة، وذا فاعليّة في السُّلوك الظاهر والباطن الملائم لمقتضياته، وبما يمْنَعُ عنه العوارضَ التي تُضْعِفُهُ، وتُمْرِضُه، وتُضْنيه، ثمّ قد تُميتُه.

إنّ الحبَّ وهو من أشدّ العواطف الفعّالة في النفس، إذا لمْ يكُنْ لهُ وقودٌ دائم سَكَنَ، ثمّ هَجَعَ، ثمّ استولت عليه الغفلات، ثم سَلا، ثمّ ضَعُفَ وهزُلَ، ثمّ مات، فَنُبِذَ، وكذلك سائر العواطف.

والإيمان مع جانبه العقليّ العلميّ في دائرة الإسلام، لَـهُ في القَلْبِ حياةٌ عاطفيّة، وهذه الحياة العاطفيّة هي التي تَجْعَلُهُ يُحَرِّكُ الإرادةَ التي توجّهُ السلوك، وحينَ يَفْقِدُ الإيمانُ حياتَهُ العاطفيّة بسبب عدم إمداده بالأغذية التي تُلائمهُ ليبقىٰ حيّاً يقظاً، فاعِلاً، فإنّ الإرادةَ تَسْتَوْلي عليْها عواطِفُ أُخرى من عواطف النّفس، وهذه العواطف مضادَّةٌ للإيمان، فتُوَجّه سلوكَ الإنسان وِجْهةً أُخرىٰ مضادّةً للسلوك الإيمانيّ، وبمرور

الزمن لا يَبْقَى للإيمـان قُوَّةٌ فـاعلة، ولا أثرٌ في السلوك، ويَنْتهي بـه الأمر إلى أنْ يُمْسِيَ مَريضاً ضاوياً، ثمّ يكون عُرضَةً لأن يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويُطْرَحَ خارجاً.

فـالمؤمنون مـطلوبٌ منْهُمْ أن يُجَدِّدوا إيمـانهم ويُمدّوهُ دوامـاً بـوسـائـل التغـذيـة الملائمة له، التي تمدّه بالحياة والحركة والفاعليّة، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ... ﴿١٣٦﴾﴾.

وهذا نظير أن نَقُول: يا أيُّها الأحياء أحيُوا أنفسَكُم دواماً بالغذاء والوقاية والدواء، وسائر وسائل استمرار الحياة.

إنّهم وهم يُخَـاطَبُونَ يَتمتَّعُـونَ بـالحْيَـاةِ، لكنَّ هـذه الحيـاة لا تستَمِـرُّ فيهم مـا لم يُمِدُّوهـا بما يُغـذّيها ويَقِيهـا ويَحْمِيها ويُعَـالجهـا إذا مسَّهَـا عـارضُ مَـرَض، فهم مُطَالَبُونَ بأن يُحْيُوا أنفسهم على هذا المعنى.

واقتصر النصُّ هنا على بعض أركان الإيمان لأنّ الإيمان بالكتـاب الذي نـزَّلَه الله على رسوله، يَتَضمَّنُ الإيمانَ بكلِّ أركان الإيمان وعناصره، ولا يكون الإيمان بـالكتاب إلاّ مسبوقاً بالإيمان باللّهِ ورسوله.

وجاء الأمر بالإيمان بـالكُتُب السابقـة على وجه الخصـوص، لتبرئـة المؤمنين من التعصُّب للقرآن ضدّ سائر الكتب الربّانيّة المنزّلَةِ مِنْ قبله، فالإيمـان في الإسلام لا يتمّ ما لم يتحقّق الإيمان بكلّ الأنبياء والمرسلين، وكلّ الكتب الربّانيّة المنزّلة.

والمـراد من الكتاب الـذي أنزل من قبـلُ كلُّ الكتب الـربّانيـة المنـزّلـة من قبـل القرآن، وذلك لأنّ أداة التعريف (أل) في [الكتاب] للجنس، فهي تشمل كلّ الكتب.

ولمّا كان إهمال الإيمان بعدم تغذيته الدائمة التي تجدّد حياته وقوّته وفاعليّته، قد يُعرِّضُهُ للضعف والهزال والموت، وعنـدئذٍ يحلُّ الكفر محلّه في القلب، حـذّر الله مَنْ يُحْدِثُ كُفراً بَعْدَ إيمان، فقال تعالى:

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

فشمَل في التحذير من الكُفْرِ كـلَّ عناصـر الإيمان الأصـول، وذلك لأنّ الإيمـان بالقضاء والقدر خيره وشرّه من الله تعالى، هو من توابع الإيمان بـالله في الحقيقة، وقـد فُصِل في البيان النبويّ، فجاءَ رُكناً خاصًا لأهميّته، ولمّا يُلابسُهُ من مسائـل تُشكل على كثير من الناس.

ونفهم من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ بصيغـة الفعل المضـارع الدالّـة على إنشاء الكُفْر في الحال أو المستقبل، على تحذير المؤمنين على وجه الخصوص من أنْ يُنْشِئوا كُفْراً بعد إيمـانهم، ويفْعَلوا كما يَفْعَـلُ المنافِقُـونَ المذبـذبون الـذين سيأتي الحـديث عنهم، فهذا البيان هو بمثابة التوطئة للحديث عن هذا الصنف من المنافقين.

وجواب الشرط في قوله تعالى ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ هو قوله تعالى:

﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾:

أي: فقـد ابتعَدَ عن صـراط الهدى، وسَلَك مسـالك الضيـاع، وأوغـل في هـذه المسالك إلى متاهات هو فيها بعيد جدًّا عن مهابط رحمة الله وغفرانه وعفوه.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾.

في هذه الآية بيانٌ لصنف من المنافقين وهم المنـافقون الْمُـذَبْذَبُـونَ بين الإيمان والكُفر، والمؤمنين والكافرين.

إنّ هذا التَّذَبْذُب ناتِجٌ عن تساوي قُـوّتي الْجَذْبِ في داخـل نفوسهم نحـو الخير والشر، مع ضعْفٍ في إراداتهم عن أنْ يحزمُوا أمْرَهُمْ، ويستقِرُّوا كُلّيـاً في إحْدَىٰ جِهَتَي الْجَذْب المتضادّتين المتباعِدَتَيْنِ في أقْصَيَيْنِ مُتبايِنَيْن.

وعلى سبيل المصالحة بين قُوَّتَي الجذب المتكافئتَيْن في داخلهم، التي لا يمكن أن تحصُـل في وقت واحدٍ، للتنـاقض بين الإيمان والكفـر، فهما لا يجتمعـان معـاً في قلب رجل واحد، إذْ لم يجعل الله لرجُـلٍ من قلبين في جوفـه، يَلْجَأ هؤلاء العـاجزون

إلى اتّخاذ أسلوب استرضاء الفَوْتَيْنِ بالتَّناوُب في مختلف الأزمان والأوقات، فيؤمنون حيناً، ويكفُرونَ حيناً، ويتردَّدون بين الإيمان والكفر، والمؤمنين والكافرين.

لكنَّ هذا التردُّد والتَّذَبْذُبَ المتناوب لا يَلْبَثُ طَوالَ عُمْرِ الواحد من هذا الصنف من المنافقين، إذْ لا بُدَّ بَعْدَ حين:

ـ إمَّا أنْ تَزْدَادَ لَدَيْه قُوَّةُ الجاذِب إلى الإيمان، فيزداد إيماناً ويَسْتَقِرّ فيه، وعندئذٍ يَشْمَلُهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بمعونته، ويُثَبِّتُهُ في الإيمان، ويُحَقِّقُ له الهداية، ويَشْمَلُهُ بمَغْفِرَتِه وعَفْوِه وواسع رحمته.

ـ وإمّا أنْ تَزْدَادَ لَدَيْهِ قُوَّةُ الجَاذِبِ إلى الكُفر، فيزدادَ كُفْراً ويستقرّ فيه، وعندئذٍ يجعله الله مع صنف المنافقين الكافرين في الباطن دواماً، ممن وصفهم الله بقوله في أوائل سورة (البقرة/٢):

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾.

إنّه حين يزدَادُ كُفراً ويستقرّ فيه بعد طول تردّدٍ يُمْسِي إنساناً كافراً، لا يغفرُ الله له، ولا يَهْدِيه سبيلاً إلى نجاته وخَلاصِهِ ممَّا هو فيه، بل يَتْرُكُه وشأنَه وكُفْرَهُ وما اختار هو لنفسه من سبيل، تطبيقاً لسنّته العامّة في امتحان عباده ضمن ظروف اختيارهم الحرّ، ويُمْسي شأنُه في هذا كَشأْنِ سائر الكافرين عن إصرارٍ وتصميم، ذَا حالةٍ ميؤوسٍ من إصلاحها باختياره.

لكنّه حين كان في أطوار التردّد والتذبذب، كان حالُه كحالِ المريضِ المحتار الذي يحتاج إلى مساعدة، فيساعدُهُ الله بأنواع من المساعدات الّتي تُنَوِّر بَصيرتَه عسَى أن يتّجه بإرادته الحرّة إلى الثبات في الإيمان، والاستقرار فيه.

فدلّ قولُه تعالى في الآية:

﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾:

على أنّ عوامل الكفر فيهم قد زادت على مقدار التكافؤ مع عوامل الإيمان، فاستقرُّوا في الكفر باطناً مع المحافظة على ظاهر الانتماء إلى الإسلام.

فانْطَبق عليهم من موادّ قانون الامتحان مادّتان:

الأولى: دلّ عليها قول الله عزّ وجل:

﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾:

أي: من صفاته الدائمة سبحانه أنّه لا يغفر لمن استقرّ في الكُفْرِ وأصرّ عليه دواماً، حتى لَقِيَ ربّه وهو على ذلك، وإنْ زعم في الظاهر أنّه مسلم.

الثانية: دلّ عليها قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾:

أي: ومن صفاته الدائمة سبحانه أنّه لا يهدي من استقرّ في الكفر بإرادةٍ واعيةٍ جازمة، وأصرّ عليه دواماً سبيلاً يحقّق له النجاة والخلاصَ ممّا هو فيه، بل يتركُه وشأنَه وكُفْرَهُ، وما اختار هو لنفسه من ضلالة، تطبيقاً لحكمة الاختبار القائم على حريّة الإرادة في الاختيار.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾.

خطابٌ مُوجّه لكُلّ من يصلحُ للخطاب من المؤمنين، بأن يقول للمنافقينَ بأُسْلُوبِ الإعلام العامّ: أَبْشِرُوا بعذابٍ أليم أَعَدَّهُ اللَّهُ لكُمْ.

هذا الخطاب الموجّه بأسلوب الخطاب الإفراديّ لكلّ مؤمنٍ صالح للخطاب يحقّق غرضين:

الغرض الأول: إلزام أفراد المؤمنين بأن يوجّهوا ضدّ المنافقين ضغطاً اجتماعيّاً، يُمارِسُه كلُّ واحدٍ بمفرده، ليجدَ المنافقون أنفسهم منبوذين داخل المجتمع المسلم المؤمن.

الغرض الثاني: إشعار المنافقين بإعراض الله عنهم، وأنّهم ليسوا أهلاً لمخاطبتهم بأسلوب الخطاب المباشر لهم، فهو يكلف كلّ مؤمن بأن يوجّه لهم هذا الخطاب.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾.

في هذا بيان لبعض صفات المنافقين، فمن صفاتهم أنّهم يجعلُونَ الكافرين أولياء لهم، يوادّونهم، ويتعاونون معهم، ويتواعدون معهم على المناصرة والتأييد، من دُونِ المؤمنين، أي: من غيرالمؤمنين الذين هم دون المؤمنين عند الله، لأنّهم سافلون عقيدةً وسلوكاً، وسافلون منزلةً في دار العذاب يوم الدين.

﴿يَتَّخِذُونَ﴾:

أي: يجْعَلُونَ، «اتّخذَ» علىٰ وزن «افْتَعَل» من الأخذ، ومن معاني هذه الصيغة المبالغةُ في معنىٰ الفعل، والاجتهادُ في الطّلب، فهم يعملون مجتهدين متخذين مختلف الوسائل لجعل الكافرين أولياء لهم.

﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

كلمة «دُون» في اللّغة، تأتي في الأصل مقابلة لكلمة «فوق» فهي مثل: «تحت» وكلٌّ من «فَوْق ودُون» يُستَعْمَلُ في الحسّيات والمعنويات.

ودرج المفسّرون على تفسير عبارة «من دُون» بعبارة: «من غير».

أقول:

من حُسْنِ التدبّر أن نلاحظ في العبارة معنى الدُّونيّة إضافةً إلى معنى المغايرة، في كُلّ ما تظهر فيه الدّونيّة، مثل: [من دون الله ــ من دون المؤمنين ــ شهوة من دون النساء] إلى غير ذلك.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾.

في هذا كشفٌ للباعث على اتّخاذ المنافقين الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

إنّهم يَبْتَغُونَ عند الكافرين القوّةَ الغالبة، لأنّهم يتصوّرونَ أنّ الكافرين أشدُّ قوةً

ومَنَعَةً مِنَ المؤمنين، وأنَّ الْغَلبَة بَعْدَ الحروب الدائرة بيْنَ الْفَرِيقَيْن ستَكُونُ للكافرين، فَهُمْ يحاولون أن يُوالُوهُمْ سِرّاً، ليكونَ لهم حُظْوةٌ عندهم، متَىٰ كانَ لهم النّصْرُ والغَلَبَةُ على المؤمنين في المستقبل.

فكشَفَ اللَّهُ عزّ وجلّ هذا الباعث لديهم بأسلوب طرح الاستفهام دُون مُواجَهَتِهم به، بل خاطبَ المؤمنين به، فقال تعالى:

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾:

أي: أَيَبْتَغون عِنْدَهُمُ الْقُوَّةَ الْغالِبَة.

بعد طرح هذا السؤال أبانَ اللَّهُ عزّ وجلّ أنَّ كُلَّ الْقُوَّة الغالبة لله وحْده، فَهُو يمْنَحُ منها عبادَهُ بحسب حكمته، في مجاري مقاديره، فمن كان مؤمناً بالله حقّاً اعتمد عليه، وسلَكَ سبيل المؤمنين، وانضمّ إليهم صادقاً مخلصاً، ولم يتّخذ الكافرين أولياء له من دون المؤمنين، لأنّ المؤمنين هم أولياءُ الله، فهو ناصِرُهُمْ إذا صدَقُوا، وأخلصوا، واتّخذوا الأسباب التي أمر بها، فإذا فعلوا ذلك فلَنْ يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً، فقال تعالى:

﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾:

أي: فإنْ كانوا يَبْتغُونَ عند الكافِرينَ العزّة، فإنّ العزّةَ لله جميعاً، وبسبب ذلك فإنّهم لن يحصلُوا على العزّة عند الكافرين.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ... ﴿١٤٠﴾﴾.

يُذَكِّرُ الله المسلمينَ في هذا بمَا كانَ قد أنزله في العهد المكي، ممّا مضمونُه النّهي عن مجالَسَةِ الكافرين والقعود معهم، إذَا أخذوا يَخُوضُون بألسنتهم في الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، ونفهم أنّ مجالستَهم والسُّكُوتَ على طعنهم في آيات الله هو مظْهَرٌ من مظاهر موالاتهم، من إيراد هذا البيان بعد قوله تعالى في وصف المنافقين:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهو أيضاً يُشيرُ إلى ما يُمارِسُه المنافقون من مُجالسةِ اليهود في المدينة، والسّكوتِ على ما يكون منهم من طَعْنٍ في دينِ الله، وآياته المنزّلات، وما يمارسه بعض المنافقين من لقاءاتٍ لبعضِ المشركين من أهل مكة، في أسفار هؤلاء أو هؤلاء، وما يَسْمَعُونه منهم من طعن في آيات الله وكفر واستهزاءٍ بها، وهم يسْكُتُون فلا يُفارقون مجالسهم، ولا يقومون بما يجب عليهم من دفاعٍ عن آيات ربّهم.

وقد سبق ذكر النصّ الذي كان أُنزل في العهد المكيّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها خطاباً للرّسول ولكلّ مسلمٍ مؤمنٍ من بَعْدِهِ:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

ويُمكن أن يُقاس على الكفر بآيات الله والاستهزاء بها كلُّ طعن في الدّين ومظهرٍ من مظاهر الكفر، إذ هو إمّا من قبيل المشاركة الصامتة، على طريقة الشيطان الأخرس، أو من قبيل موالاة الأشخاص والسُّكوت عن جرائمهم.

وتحمل مجالسة عصاة المسلمين في حال ارتكابهم لمعاصيهم، دون موعظتهم أو مفارقتهم قدراً من الإثم يتلاءَمُ مع نسبة المعصية وحَجْمِها في حكم الإسلام.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ . . .﴾:

أي: إذا جالستموهم وقعدْتم معهم وهم يخوضون في آيات اللّهِ كُفراً واسْتِهْزاءً بها فإنكم تكُونُونَ في تلْك الحالة مثْلَهُمْ في ارتكاب الإثمِ العظيم.

ولَيْسَ معنى هذا أنَّكُمْ تكونون كافِرينَ دَوَاماً، إلاّ إذَا كان الْمجَالِسُ لهم من أهل

النفاق، فإنّه حينئذٍ يكون من أَهْلِ الكُفْرِ باطناً وظاهراً، إذا انْكَشَفَ للمسلمين أَمْرُهُ، أو إذا كان راضياً بما يقولون.

ومن العجيب ما رُوِيَ عن مقاتل بن حيّان كما ذكر ابْنُ كثير في تفسيره، وعن الكلبي كما ذكر الشوكاني في تفسيره أنَّ هٰذِهِ الجملة منسوخة بقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦):

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

وسَبَبُ العجب أنّ هذا النَّصَّ من سورة (الأنعام) هو من أواسط التنزيل المكي، وأنّ النّصّ المدَّعَىٰ نَسْخُهُ من سورة (النساء) هو من الثلث الأول من التنزيل المدني، فكيف يستقيم أنْ يَنْسخَ تنزيلٌ مكيٌّ تنزيلاً مَدنيّاً، هذا آتٍ من عدم النظر في ترتيب النزول وعدم مراعاته.

إنّه لا نسخ هنا، وقوله تعالى:

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾:

نصٌّ مُحْكَمٌ بلا ريب.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

في هذا بيانُ عاقبةِ المنافقين الذين يجالسون الكافرين راضين بما يخوضون فيه من كُفْرٍ بآياتِ اللّهِ واستهزاءٍ بها، غير تاركين مجالسهم ولا منكرين عليهم، لأنّ هذه المجالسة بهذه الأوصاف هي من علامات النفاق.

والعقوبة هي أن يجمع الله بين المنافقين والكافرين في جهنّم جميعاً، يذوقون معاً عذابها، ويمسُّهم الحريق منها، نظير ما اجتمعوا في الدنيا على الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، بعضهم لبعض أولياء، لكنهم في جهنم يجمعهم الله وهم يومئذٍ

بعضهم لبعض أعداء، فالأخلاّء يومئذٍ بعضُهُمْ لبعض عدُوٌّ إلاّ المتقين.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ... ﴿١٤١﴾﴾.

في هذا بيان وصْفٍ آخر من أوصاف المنافقين، وهو الانتظار والتربُّص اليقظ، وَتَرَقُّبُ ما يجدُّ من نتائج الأحداث بين المؤمنين والكافرين، طلباً للسلامة والمغنم، من هؤلاء أو هؤلاء.

أمّا نتائج الأحداث فتَتَرَدَّدُ بين احتمالين:

الأول: أن ينصُرَ الله المؤمنين على الكافرين، وفي هذه الحالة يسارع المنافقون دون إبطاء للمشاركة في الغنائم، قائلين لجماعة المؤمنين: أَلَمْ نكُنْ معكُمْ في الموقعة؟ استفهام تقريري، والمؤمنون لا بدّ أن يُجيبوهم بحسب ما رَأَوْا من ظاهر شُهُودِهم الموقعة معهم، فيقولوا لهم: بلى.

عندئذٍ يُطالِبُ المنافقون بأن يُقْسَم لهم من الغنائم كما يُقْسَمُ لسائر المؤمنين المقاتلين المجاهدين في سبيل الله بصدْقٍ، ويُخْفِي المنافقون ما كانوا عليهم من خَذْلٍ في الحقيقة، وتظاهُرٍ كاذبٍ بالمشاركة في القتال، فقال الله تعالى خطاباً للمؤمنين بشأن المنافقين:

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ... ﴿١٤١﴾﴾؟.

الثاني: أن يكون للكافرين نَصِيبٌ ممّا كَسَبُوا بأسْبَابهم، ضِمْنَ سُنَّةِ الله عزّ وجلّ، في رِحْلَةِ الابتلاء، وبمقتضى حِكْمَتِه التربويّة، أو الجزائيّة، أو الاسْتِدْراجيّة والإمهالية، كما حصل لهم في معركة أُحُدٍ ثانياً، وفي معركة حُنَيْنٍ أوّلاً.

وفي هذه الحالة يسارع المنافقون دون إبْطاء قائلين لجماعة الكافرين: أَلَمْ نَكُنْ مُحْتَوِينَ عليكم احتواءَ حمايةٍ وحفظٍ ومُدَافعة، بِعَدَمِ مُقاتلتكم في المعركة، وبالعمل على إضعاف صفوف المؤمنين، وإيجاد التخلخل فيها، مع حركات الإفساد والتثبيط.

ولِيَعلَم الكافرين بحقيقة حالهم في المعركة وقبلها لا بُدَّ أن يقولوا لهم: بلى.

عندئذٍ يكون لدى المنافقين الجرأةُ الكافية لمطالبة الكافرين بتعويض ما فعلوا من أجلهم داخل صفوف المؤمنين.

فقال الله تعالى:

﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

اقتصر النصّ على إيراد التساؤل في الحالَيْن، لأنّه يدلُّ لزوماً على ما يُرِيدُونَ من ورائه من منافع ومكاسب.

ويُلاحظُ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلّ جَعَلَ مَا يُصيبُه المؤمِنُونَ في المعارِك من عـدُوِّهم فتحاً منه، أمّا ما يُصِيبه الكـافرون من جمـاعة المؤمنين، فهـو نصيب، أي: حظٌّ من حظوظِ الدّنيا، مكّنَهُمُ اللَّهُ من الحصول عليه بأسبابهم التي اتَّخذُوها، وطاقاتهم التي بذلوهـا، ضمن مجاري سُنَّتِه في الحياة الدنيا لعباده جميعاً.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾

تعقيباً علىٰ حالة التربُّص الّتي تكونُ من المنافقين، ومـا يحدُثُ بعـدها من نصْـرٍ من الله للمؤمنين، أو نصيبٍ يحصُـلُ للكافـرين، اقتضى البيان أن يشتمـل على إيضاح قضيَّتَيْن:

القضيـة الأولى: عـاقبـة هؤلاء وهؤلاء يـوم القيـامـة، وقـد دلّ عليهـا قـول الله عزّ وجل:

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ. . . ﴿١٤١﴾﴾.

هذه الجملة على إيجازها ذاتُ لوازم فكـريَّة تَشْمَـلُ البعث، والحساب، وفصـلَ القضاء، والجزاء في جنات النعيم، أو في جهنم دارِ العذاب الأليم.

القضيـة الثانيـة: حالَـةُ هؤلاء وهؤلاء في ظروف الحيـاة الدنيـا، وقـد دلّ عليهـا

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾.

ولكنْ كيف نفهم هذا الوعد الرّبّانيّ المقطوع به؟

أمّا الانتصارات الوقتيّة في بعض المعارك فَهذهِ لا تتنافَى حَتْماً مع الوعد الرّبّاني، لأنّها خاضعة لسُنَن الأسباب والمسبّبات، وظروف الابتلاء والتربية والجزاء في الحياة الدنيا، وقد وُجد شيءٌ منها في حياة الرسول ﷺ، وهو القائد لأمته، وأصحابه خيرة الأمّة.

وأمّا الانتصارات الحاسمة والغلبة الدّائمة واستباحة بيضة المسلمين العامّة فهي التي تتنافَىٰ مع الوعد الرّبّاني.

ولكِنْ مَنْ هُمُ الموعُودون بهذا الوعد الرّبّاني؟

هل هم المسلمون الّذين هم غُثَاءٌ كغُثاء السيل، ليس لديهم من حقيقة الإسلام عقيدةً وتطبيقاً إلّا الاسمُ والانتماءُ إليه؟

هل همُ الكثرة المنافقون الموالون لأعداء الإسلام؟

هل هُمُ الّذين حرّفوا مفهومات الإسلام وبدّلوا فيها؟

وهؤلاء جميعاً ليسوا بمؤمنين حقّاً، حتّىٰ يستحِقُّوا تطبيقَ الوعد الرّباني بصفتهم الجماعيّة.

بقي أنَّ الّذِينَ يَسْتَحِقُّون هذا الوعْدَ هُم الأمَّةُ ذاتُ الأكثريّة المؤمنة المسلمة، العامِلُون بوجه عامّ بمقتضى إيمانهم، في أفرادهم، وفي مجتمعهم، وفي دولتهم، هؤلاء هُمُ الذين ينطبق عليهم الوعد الرّبّانيّ، فلَنْ يَجْعَلَ الله للكافرين عليهم سبيلاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها، بمعنى أن اللَّهَ عزّ وجلّ لا يُمَكِّنُ الكافرين من استخدام السُّبُل المهيَّأةِ في الحياة الدنيا للناس، على وجهٍ يستطيعون به التَّغلُّب الدائم على المؤمنين، والسيطرةَ عليهم سيطرةً مستمرّة، بل يساعِدُ المؤمنين إذا عملوا بما أمرَهُمُ الله به من إعداد المستطاع من القوة، حتى يتفوَّقُوا بأسبابهم على أعدائهم،

ويكونوا هم المنصورين الغالبين، وقد كان هـذا مستمّراً في قـرونٍ عديـدَةٍ من الدهـر، حتى كثر فيهم الملاحدة والمنافقون والفجرة.

ويستحقّ عمومِ المؤمنين ولو لم يحقّقوا في أنفسهم مقتضيات الإيمان على الوجه المطلوب، أن لا يستبيح عـدُوُّهم بَيْضَتَهُمْ وَيَسْتَأْصِلَ شـأفَتَهُمْ ولـو اجتمـع عليهم مَنْ بأقطار الأرض من الكافرين، كما جاء في بيان الرسول ﷺ.

روى مسلم عن ثوبان، قالَ: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللَّهَ زَوَىٰ لِي الأَرْضَ[١]، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَـا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْها، وأُعْـطِيتُ الكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ والأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَـأَلْتُ رَبِّـي لأُمَّتِي أَنْ لاَ يُهْلِكَهَـا بِسَنَةٍ عَـامَّـةٍ، وأنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَـدُوّاً مِنْ سِـوَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيـحَ بَيْضَتَهُمْ[٢]، وإنَّ رَبِّـي قَـالَ: يَا مُحَمَّـدُ، إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَـإِنَّهُ لاَ يُـرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُـكَ لأُمَّتِـكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَـامَّةٍ، وَأَنْ لاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَلَـوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِـأَقْطَارِهَـا، حَتَّىٰ يَكُـونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضـاً، ويَسْبِـي بَعْضُهُمْ بَعْضاً».

وهـذا الوعـد بالنسبـة إلى عموم أمّـة محمّد مـع معـاصيهم وانحرافـاتهم مُتحقّق دواماً.

وأخيراً تَسْتَحِقُّ من عموم هذا الوعـد طائفـةٌ من المؤمنين أن يظَلُّوا ظـاهرين على الحقّ يعملون به، لا يَضُرُّهم من خالَفَهُمْ، حتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ.

روى البخاريّ ومسلم والإمام أحمد، عن معاوية، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«لاَ تَـزَالُ طَـائِفَـةٌ مِنْ أُمَّتِي قَـائِمَـةً بِـأَمْـرِ اللَّهِ، لا يَضُـرُّهُمْ مَنْ خَـذَلَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَىٰ النَّاسِ».

وروى مسلم وغيره عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) زَوَىٰ: أي: قبض وجمع، يقال لغة: زَواهُ يَزْوِيه زَيّاً إذا قبضه وجمعه.

(٢) بيضةُ الشيء: أصله، وبيضةُ القوم: حَوْزَتُهُمْ وجماهم وساحَتُهُمْ.

«لا تَزالُ طائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ، وهُمْ كَذٰلِكَ».

وهذا أمر مشاهد في تاريخ المسلمين دواماً، والمرادُ من الظهور ظهورُ حجتهم واعتزازُهُمْ بإسلامهم وإعلانُهم له.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ . . . ﴿١٤٣﴾﴾.

في هذا بيان خَمْسِ صفاتٍ من صفات المنافقين السلوكيّة.

الصفة الأولى: أنَّهم يُخادعون الله، أي: يُخادِعُون المؤمنين الذين هم أولياء الله، ظانّين أنّ خدائعهم تنطلي عليهم، لكنّ الله عزّ وجلّ الذي هو وليّ المؤمنين، يُساعد المؤمنين شديدي الحذر العاملين بمقتضىٰ إيمانهم، ومنه اتّخاذ الأسباب على ما ينبغي، ضِمْنَ أنظمة وقوانين الأسباب والمسبّبات الكونية، فيكْشِفُ الله لهم خدائع المنافقين، ويحميهم من تأثيراتها، فيرتدّ كيد المنافقين إلى نحورهم، وبذلك يكونُ الله عزّ وجلّ هو خادعهم، أي: رادّ خدائعهم عليهم، دلّ على هذه الصفة قول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ . . . ﴿١٤٢﴾﴾.

الصفة الثانية: أنّهُمْ إذا قاموا إلى الصَّلاةِ قاموا كُسالَىٰ، وذلك لأنّهم غير مؤمنين باطناً، فهم لا يؤمنون بجدوىٰ الصلاة، وإنّما يُؤدُّونها بحضور المؤمنين ستراً لنفاقهم، ومعلوم أنّ من يَعْمَلُ عملاً ما وهو غير مؤمن بجَدْواهُ لنفسه فإنّما يؤدِّيه بتثاقُلٍ وكَسَلٍ وفُتُور، ولا يُمارسُهُ بنشاطٍ وهمّة ورغبة. . دلّ على هذه الصفة قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ . . . ﴿١٤٢﴾﴾.

الصفة الثالثة: أنّهُمْ يُراءُون النّاسَ في أعمالهم الدِّينية المختلفة، ومنها الصلاة، أي: فإذا خلَوا إلى أنفسهم لم يُؤدُّوا هذه الأعمال، لأنّ أصل غرضهم من أدائها أنْ

يُظْهِروا لِجَماعة المؤمنين المسلمين، أنّهم منهم إيماناً وإسلاماً، وأنّهم صادقون في إسلامهم غير كاذبين.

دلّ على هذه الصفة قول الله تعالى:

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾.

الصفة الرابعة: أنَّهُم لاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إلاَّ قَلِيلاً، وقد سَبَقَ بيانُ سَبَبِ ذِكْرِهِمُ اللَّهَ قليلاً إذَا كَانُوا مِنْ قسم المنافقين المتردِّدِينَ، الَّذِينَ لَمْ يَسْتَقِرُّوا بَعْدُ في الكُفْرِ دواماً في داخلهم.

أمّا المنافقون الذين استقروا في الكُفْر دواماً وانْتَهَتْ لديهم حالة التردُّد، أو كانوا مستقرّين في الكُفرِ مُنْذُ البداية، فإنّ ذِكْرَهُمُ القليل لله هو من قبيل ذكر المشركين وسائر الكافرين الصرحاء، الذين يؤمنون بربوبيّة الله، لكنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بإلَهِيّته، ولا يؤمنون برسوله، ولا بما أنزل عليه، وإن ذكروا الله فإنّهم يذكرونه لدنياهم لا لآخرتهم، دل على هذه الصفة قول الله تعالى:

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

الصفة الخامسة: أنَّهُمْ مُذَبْذَبُونَ يتأرجحون بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ والكافرين في ولائهم، وفي سلوكهم، فلا هم متمونَ حقيقة إلَىٰ هؤلاء المؤمنين الواقفين في أقصىٰ جهةِ اليمين، ولا هم متمون إلى هؤلاء الكافرين الواقفين في أقصىٰ جهة الشمال، ويظلّون في حياتهم هكذا قلقين لا ثبات لهم، يتذبْذبُونَ على أُرْجوحةِ التنقُّل بين الأضداد، دلّ على هذه الصفة قول الله تعالى:

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ... ﴿١٤٣﴾﴾.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾.

في هذا تهديدٌ للمنافقين بأنّ الله عزّ وجلّ سيحكم عليهم بالضلال، وسيجازيهم على ضلالهم بما يستحقّون بمقتضىٰ قانون العدل، ومن يحكم اللّهُ عليه بالضلال

فليس له بعد الله من يحكُمُ له بالهداية، أي: ليس له من يُنجيه من عذاب الله على ضلاله، وليس له من يتّخذ له سبيلاً ما يجعله من أهل دار النعيم، أو من الناجين من عذاب الجحيم، بفِدْيةٍ أو شفاعة أو غير ذلك.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ١٤٤﴾.

بمناسبة بيانِ أنّ مِنْ صفاتِ المنافقين أنّهُم يتّخذُونَ الكافرينَ أولياءَ مِنْ دون المؤمنين، وهو ما جاء في الآية (١٣٩) التي سبق تدبُّرُ دلالاتها، وجّه الله عزّ وجلّ للذين آمنوا النّهْيَ الخاصّ بصورةٍ مباشرة أنْ لا يتّخِذَ أحدٌ منهم الكافرين أوْلياء من دون المؤمنين، وخاطبهم بهذا النهي إشعاراً بخطورة المنهيّ عنه، وأنّه ليس مجرّد وصفٍ يتّصفُ به المنافقون مِنْ جملة ما يتصفون به، بل هو من الكبائر التي يُحذِّر اللّهُ الّذين آمنوا منها تحذيراً مشدّداً، فقال الله تعالى في هذا الخطاب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾.

وأبَانَ اللّهُ عزّ وجلّ بعد هذا النهي الجازم الحازم أن الذين يتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين يرتكبون من كبائر الإثم ما يجعلُونَ بهِ للّهِ عليهم سلطاناً مبيناً، أيْ: حجّةً واضحة جليّةً لا شبهةَ فيها وهي تَقْتَضي أن يرفع عنهم ولايته، ويُنْزِل بهم عقوبته.

وجاء هذا البيان بأسلوب الاستفهام التحذيري قبل ارتكاب المنهيّ عنه، والإنكاريّ بعد ارتكاب المنهيّ عنه، فقال الله تعالى:

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ١٤٤﴾.

السلطان المبينُ هنا: هو الحجّةُ الواضحة الجليّة التي لا شبهة فيها تجعلُ لهم عُذْراً ما.

ومعلومٌ أنّ المؤمن الصادق الإيمان لا يُريد أن يرتكب من الإثم العظيم

ما يكون لله به عليه سُلْطانٌ مبين، يقتضي تعرّضه لعقاب الله، ورفع ولايته عنه.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾.

بعد الحديث عن المنافقين المذبذبين، وبيانِ طائفة من صفات عموم المنافقين، أبان الله عاقبتهم يوم الدّين، باستثناء التائبين منهم الذين تابُوا توبةً نصوحاً، وتخلّصوا من كلّ عناصر النفاق التي كانت تنزع فيهم لارتكاب الآثام الكبرىٰ الّتي هي مظاهر سلوكيّة لا تجتمع غالباً إلّا في المنافقين.

أمّا عاقبة المنافقين الذين يموتون وهم منافقون فهي أنّهم يكونون يوم الدين بعد الحساب وفصل القضاء في الطبقة السُّفْلَىٰ من طبقات دار العذاب النار، يذوقون فيها عذاباً خالداً.

ودلّ على هذه العاقبة قولُ الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾.

فهم يوم الدين في الدَّرْكِ الأسْفَل من النار، أي: في الطبقة السُّفلى من طبقاتها، وتدلُّ قراءة «في الدَّرَكِ» إذا قلنا: إنّها جمع «دَرَكة» على تفاوت منازل المنافقين في الطبقة السفلى من النار، تبعاً لتفاوت شرورهم في نفاقهم.

ولتَيْئِيسِهم من النّجاة خاطبَ الله عزّ وجلّ كلّ من يستمع هذا الخطاب أو يَتْلُوه من الذين يَصْلُحُون للخطاب ويكونون خالدين يوم الدّين فقال تعالى له:

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾:

أي: ولن تجد أيُّها المخاطَبُ أيّاً كُنْتَ للمنافقين نصيراً ينصُرُهُمْ فيرفع عنهم عذاب الله، أو يحميهم منه يوم الدين.

ولم يخاطب الله المنافقين بهذا الخطاب للإشعار بأنهم وصلوا إلى حالةٍ من

الإصرار والعناد لا ينفعهم معها الاهتمام بتوجيه الخطاب لهم، إذ استوى لديهم الإنذار وعدمُه، مع ما في عدم توجيه الخطاب لهم من الإعراض عنهم إعراضَ مَقْتٍ وغضب.

واستثنى الله من عموم هؤلاء المنافقين الّذين تابوا توبةً نصُوحاً، وقد أبان الله عناصر هذه التوبة الصادقة النّصوح:

العنصر الأول: أن يتوب المنافق إلى اللّهِ من نفاقه، وذلك بأن يرجع إلى الله معلناً رجعته إلى الإيمان الصحيح الصادق، نادماً على ما كان منه.

العنصر الثاني: أن يُمارِسَ العملَ الصالح الذي يقتضيه الإيمان الصحيح الصادق، من ظاهر السلوك وباطنه، وأن يُصْلِح من نفسه وسُلوكه ما كان أفسدَهُ النفاق السابق، وأن يُصْلِح من آثار سلوكه ما يستطيع إصلاحه منه.

العنصر الثالث: أن يصرف عن نفسه تصوُّرات الاعتزاز بالكافرين، وأن يعتصم بالله يَبْتغِي العزّة والقوّة والْمَنَعَةَ لَديه، منضمّاً إلى جماعة المؤمنين المسلمين الصادقين.

العنصر الرابع: أن يجعلَ أعْمَالَهُ الدّينيّةَ التي يَقُوم بها خالصةً لله عزّ وجلّ، لا يبتغي منها مُرَاءَاةَ النّاس، أو مغانم الدنيا ومنافِعَهُ مِنْها.

دلّ على هذه العناصر قولُ الله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

وهنا يرد سؤال: هل استثناء هؤلاء التائبين يُخْرِجُهُمْ من أن يكونوا في الدرك الأسفل من النار فقط، أم يجعلهم مع جماعة المؤمنين، تجري فيهم أحكام المؤمنين، ويُجَازَوْنَ جزاءَ المؤمنين في جنّاتِ النعيم؟

لقد أجاب الله على هذا التساؤل بقوله تعالى:

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾.

ونلاحظ في هذا أنّ كون هؤلاء التائبين مع المؤمنين لا يقتصر على الأحكام

الدنيوية، بل سوف تجري عليهم يوم الدين أحكام المؤمنين الأخرويّة بدليل قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ المؤمنين أجْراً عظيماً﴾

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

صدّرت هذه الآية باستفهام يُراد منه النفي، إذْ هو موجّه لانتزاع الجواب من المخاطبين بالنفي، أي: لا يَفْعَلُ الله بعذاب المعذّبين من عباده شيئاً لنفسه عزّ وجلّ، فهو لا يَجْلُبُ به لنفسه نفعاً، ولا يدفع به عن نفسه ضرّاً، لكنَّ قانون العدل العامّ لا بُدَّ أن يتحقّق، هذه الحقيقة هي من بَدَهيّات قواعد الإيمان في الدين الذي اصطفاه الله للناس، وقد جاء شرحها في الحديث القدسي الصحيح عن رسول الله ﷺ:

روى الإمام مسلم، عن أبي ذرٍّ جُنْدُبِ بْنِ جُنَادَة، عن النبيّ ﷺ، فيما يروي عن الله تبارَكَ وَتَعَالَى أنَّه قال: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ.

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ.

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَٰلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، ما نَقَصَ ذَٰلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ،

فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ.

يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»(١).

فلا طاعةُ العباد تنفع اللَّهَ شيئاً، ولا معصيتُهُمْ لـه تَضُرُّهُ شيئاً، وإنّما يُحْصِي الله أعمال عباده في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، ثُمَّ يُوَفِّيهم الجزاء عليها، ضِمْنَ قَانُونِ الْفَضْلِ، وقَانُونِ الْعَدْلِ، فمن وجـد من الجزاء خيراً، فلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَلَىٰ فَضْله، ومنْ وجَدَ من الجزاءِ غير ذلك، فـلا يلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ، لأنَّـهُ هُو الـذي جَنَىٰ على نفسه، باستخدامه قوانينَ الله، وسُنَنه الثابتة.

إنّ من أدخل يَدَهُ في النّار أَحْرَقَ الله له يَدَهُ، ضمن سنّتِه الدّائمـة، الشاملة لكـلّ عباده، ومَنْ كفر بالله، أوسَلَكَ سبيل النفاق، عاقبه الله ضِمْنَ سنَّته الـدائمة، الشـامِلَةِ لِكُلِّ عباده، ومن دَسَّ لَغماً موقوت التفجير ولـو بعد سنين عـديدة تحت صَـرْحِهِ، فَجَّـرَ اللَّهُ لَهُ لَغمَهُ في الوقت المحدّد فـدَمّر لـه صرحـه، ضمن سنّته الـدائمة، الشّاملة لكلّ عباده.

فمعنى قول الله عزّ وجلّ:

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ ؟﴾.

بهذه الصيغة الاستفهامية التي يُقْصَدُ منها انتزاع الجواب: لا يفْعـلُ الله بتعذيبـه لكم على آثامكم وجرائمكُمْ شيئاً لنفسه سبحانه، من جلب نفع أودفع ضرٍّ.

أي: وإنّما هي أعمالكم يحصيها الله لكُمْ ثُمَّ يُوفِّيكُمْ إيّاهـا، ضمْن القـانـون العـامّ، فهو سبحـانه لا يفعـل شيئاً لنفسـه بعـذابِكُمْ إن قـدّمتم من العمـل مـا يقتضي تعذيبكم.

أمّا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:

---

(١) عن «رياض الصالحين» للنووي، الباب الحادي عشر في المجاهدة الحديث رقم (١١١).

﴿إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾.

فهو شرط حُذِفَ جوابه، للعلم به، والمعنى: إنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُمْ آتاكُمْ أجراً عظيماً، ولا يَنْقُصُ ذلِكَ العطاءُ العظيم من مُلْكِه شيْئاً، ولا يزيدُ شُكْرُكُمْ وإيمانُكُمْ في مُلْكِه شيئاً.

وبعد هذا أبانَ اللَّهُ عزّ وجلّ من صفاته أنَّهُ شَاكِرٌ عَليم. أمّا صفةُ الشّكر، فهي تناسب مكافأة عباده المؤمنين الشاكرين، وأمّا صفة العلم، فهي تناسب قضية إحاطته علماً بأعمال عباده جميعاً، من يستحقّ منهم الثواب، ومن يستحقُّ منهم العقاب، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في السماوات ولا في الأرض، فقال تعالى:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾:

أي: إنَّهُ شاكرٌ عَلِيمٌ دواماً، وذكرُ كونه شاكِراً عليماً يومىء إلى صفة عدله، بقرينة ما يفعلُ الله بعذَابكُم؟

ويُلاحَظُ أنَّ الله عزّ وجل قَدَّمَ شُكْرَ عباده على إيمانهم مع أنّ الشكر أثَرٌ سلوكي من آثار الإيمان، فقال تَعالى:

﴿إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾.

وبالتفكّر يظهر لنا أنّه بدأ تعالى ببيان ما يَظْهَرُ للناس من سلوك، وأبان بعده شرط صحّة هذا السلوك وقبوله عند الله، وهو الإيمان الذي تنعقد عليه القلوب، فمن لم يصحّ إيمانه لم يكن لعمله الصالح ثمرةٌ عند الله.

●●●

النصّ التاسع عشر

وهو من سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول)

ثامن سورة مدنية

الآيات من (١٢ ـ ١٥)

حول لقطات من مشاهد أحوال المنافقين يوم القيامة

قال الله عزّ وجل:

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (١٤) فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٥) ﴾.

* * *

(١)

ما في النص من القراءات المتواترة (من الفرش)

* في الآية (١٣):

(١) قرأ جمهور القرّاء: [ٱنْظُرُونَا] بضمّ الظاء ووصل الهمزة من «نَظَرَهُ» بمعنى انتظره.

وقرأ حمزة فقط [أَنظِرُونا] بكَسْرِ الظاء من «أَنْظَرَهُ» بمعنى أَمْهَلَهُ، قال الزجاج: قيل: معنى «أَنظِرُونا» انْتَظِرُونا أيضاً، ومنه قول عَمْرو بن كُلْثوم:

أَبَا هِنْدٍ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْنَا وأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ الْيَقِينَا

وقال الفراء: تقول العرب: أَنظِرني، أي: انْتَظِرْني قليلاً، ويقولُ المتكلم لِمَنْ يُعْجِلُه: أَنظِرْني أَبْتَلِعْ ريقي، أي: أمهلني.

فالقراءتان على هذا هما بمعنى: انتظِرُونا وتمَهَّلُوا من أجْلِنا ولاَ تَسْبقونا.

* في الآية (١٤):

(١) قرأ جمهور القرّاء [الأَمَانيُّ] بتَشْديد الياء.

وقرأ أبو جعفر فقط بتخفيف الياء ساكنة.

والقراءتان وجهان عربيان لهذه الكلمة، فهما متكافئتان، وكلاهما جمع أُمنيّة، كما يُقال: في أُضحيّة أضاحٍ وأضاحيّ، وفي أُثفيّة أثافٍ وأثافيّ.

* في الآية (١٥):

(١) قرأ جمهور القرّاء [لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ] بالياء من يُؤْخذ.

وقرأ ابنُ عامر وأبو جعفر ويعقوبُ [لاَ تُؤْخَذُ] بالتاء.

والقراءتان وجهان عربيان لأن لفظ «فِدْيَة» مجازي التأنيث، فيجوز في الفعل المسند إليها التذكير والتأنيث.

* * *

(٢)
موضوع النص ودلالاته بوجه عامّ

يقدّم هذا النصّ لقطات من مشاهد أحوال المنافقين يوم القيامة، مقابل بيان لقطات من مشاهد أحوال المؤمنين.

هذه اللّقطات تصوّر معاملة المنافقين يوم الحشر بمثل ما كان منهم في الدنيا، إذْ كانوا بين صفوف المؤمنين، ينتمون إليهم ظاهراً، ويعملون بمثل أعمالهم الظاهرة،

لكنّهم كانوا منخذلين عَنْهُمْ سرًّا، ومتّجهين لغير اتّجاههم، وسالكين غير سبيلهم باطناً، وكانوا لا يملكون نور الإيمان الصادق والإسلام الصحيح، بخلاف أحوال المؤمنين، فقد كان لكلّ منهم من النور بمقدار قوّة إيمانه والتزامه بشرائع الإسلام وتطبيقاته.

ففي يوم القيامة يتعرّض أهل المحشر لظلمة شديدة لا يرون فيها مسيرهم الذي يُقَادُون أو يساقون فيه إلى موقف حسابهم، ثمّ إلى مصائرهم، باستثناء المؤمنين، فإن الله عزّ وجلّ يَهَبُهُم نوراً يوجّهونه بأيمانهم، وهذا النور يَسْعَىٰ بين أيديهم في مسالكهم مع سعيهم في مسيرهم، نظير النور الكهربائيّ الذي يوجّهه راكب السيّارة في اللّيل، إذْ يكشف له الطريق أمامه، وعلى مقدار سرعة سيّارته يَسْعَىٰ نوره بين يديه كاشفاً له طريقه.

أمّا المنافقون فيُحشرون أوّل الأمر مع المؤمنين، باعتبار أنّهم كانوا في الدنيا معهم بحسب الظاهر.

ثمّ يُؤْمر المؤمنون بأنْ يتوجّهوا لموقف حسابهم، فيتوجّهون ساعين، ويُسْرِعُ كلٌّ منهم على مقدار ما كان يَمْلِكُ من قوّة إيمان، وكثرة زادٍ من العمل الصالح، ويجعل الله لهم نوراً يمشون فيه، وهذا النور يَسْعَىٰ بين أيديهم، ويملكون بَثَّهُ وتوجيهه بأيمانهم، ويقالُ لهم لتطمئن قلوبهم ونفوسهم:

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

ولمّا كان المنافقون محرومين من الإيمان ومن زاد العمل الصالح فإنّهم لا يملكون القدرة على السّعْيِ السّريع في اتجاه موقف حساب المؤمنين، ولا يملكون بأيمانهم نوراً يبثُّونه ليسْعَىٰ بين أيديهم، فهم في بداية المسيرة يستفيدون من نور المؤمنين، فيمشون وراءهم قليلاً، ثمّ ينقطعون عجزاً عن المتابعة، ويسبقهم المؤمنون، وتسبقهم معهم أنوارُهم، حتى من كان لديه منهم من النور ما يكشف له بين يديه موطىء قدمه.

عندئذٍ يقول المنافقون والمنافقات لمعارفهم من المؤمنين، انتظرونا وتمهّلُوا قليلاً من أجلنا، لنستفيد من نوركم، ونسير معكم في سُبُلِكُمْ، فلا يستجيب لهم المؤمنون، لأنه لا يُسْمَحُ لهم بذلك.

ويُقال للمنافقين والمنافقات:

﴿ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ﴾:

أي: فليست هـذه الجهة جهةَ مَسِيركم، إنها جهة المؤمنين، وليست جهة الكافرين ولا المنافقين.

ويقال لهم أيضاً:

﴿فَٱلْتَمِسُواْ نُوراً﴾:

أي: الْتَمِسُوا نوراً بأنفسكم ممّا قدَّمْتُمْ من كسب في دنياكم، إنْ كنتُم قادرين على التماس نور، فليس لكافر ولا لمنافق يوم الدين أن يكونَ كَلًّا على مُؤْمنٍ في إيمان أو عمل صالح، أو آثار ذلك وثمراته.

هذا القول يقال لهم من قِبَلِ الموكَّلين من الملائكة بقيادة الناس أو سوقهم في يوم الحشر، أو هو قول يخلقه الله جواباً لهم، فهم يسمعونه ولا يرون مصدره.

حينئذٍ يقيم الله عزّ وجلّ بين المؤمنين والمنافقين سوراً يحجبُ المنافقين عن متابعة السَّيْر في جهة مَسِيرِ المؤمنين، ويجعل الله لهذا السور باباً، يدخل منه بقايا المؤمنين المقصّرين في السير، الذين ليس لهم من القوّة الإيمانية، ولا من النور ما يجعلهم من السابقين، لكنْ لديهم قليل من ذلك، فيقف الحرّاس على الباب، ويسمحون لهم بالدخول منه بحسب مراتبهم ودرجاتهم في الإيمان والعمل الصالح، حتى يدخُلَ أضعَفُهم إيماناً، وأفقرهم نوراً، وعندئذٍ يُقْفَلُ الباب على المنافقين، ويُحْجَزُونَ، ويُصْرَفُونَ إلى جهة الكافرين، فيكونون معهم، لأنّهم كانوا مع الكافرين في الدنيا باطناً.

وهذا السور له باطنٌ حَسَنٌ جميل، وهو ما هو منه إلى جهة المؤمنين، وله ظاهر مخيف موحش، وهو ما كان منه إلى جهة المنافقين، ففي جهة باطن السّور تتنزّل رحمات الله على المؤمنين بما يُسْعِدُهم ويفرحهم ويطمئن قلوبهم ونفوسهم. أمّا ظاهر السّور فيأتي مِن قِبَلِه أنواع من العذاب للمنافقين، وبذلك يشتدّ عليهم الموقف حتّى يحاسَبوا ويُساقُوا إلى دار العذاب.

حينئذٍ لا يبقى أمام المنافقين إلاّ وسيلة نداء المؤمنين، فينادونهم:

﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

يريد المنافقون أن يشهد لهم المؤمنون لدى ربّهم أنّهم كانوا معهم في الدنيا، فمن حقّهم أن يكونوا معهم في الآخرة.

فيُجيبُهم المؤمنون قائلين: ﴿بَلَىٰ﴾:

أي: لقد كُنْتم معنا في الظاهر.

وأتبعوا هذه الإجابة بما يدُلُّ على أنّهم لم يكونوا معهم في الباطن، أي: فليس من حقهم أن يكونوا معهم في باطن السور، ولا أن يكونوا بعد ذلك معهم في الجنّة.

فذكروا بالتفصيل أموراً خمسةً دالَّةً على أنّهم لم يكونوا مع المؤمنين في الباطن، وهي ما يلي:

الأمر الأول: أنّهم فتنوا أنفسهم، أي: أضلّوا أنفسهم وعرّضوها لعقاب الله ونقمته، باختيار الكفر باطناً، ومخادعة المؤمنين ظاهراً، واتّخاذ وجهين متناقضين.

الأمر الثاني: أنّهم تَرَبَّصُوا أنْ تدور الدائرة على المؤمنين فَيَنْقَضُّوا عليهم مع الكافرين.

الأمر الثالث: أنّهم ارتابوا في الحقّ الذي جاءهم من عند ربّهم على لسان رسوله، مع أنّه لم يكن لهم عُـذْرٌ في أن يرتابوا فيه، لوضوحه، وقوّة أدلّته وبراهينه الدامغة.

الأمر الرابع: أنّهم غرَّتْهُمُ الأمانيّ الّتي كانوا يُمَنُّون بها أنفسهم، وكان شياطين الإنس من اليهود والمشركين وغيرهم من الكافرين يُمَنُّونهم بها، واستمرّت تغُرُّهم هذه الأمانيّ حتى جاءتهم مناياهم وماتوا على كفرهم ونفاقهم دون توبة.

الأمر الخامس: أنّهم غرَّهُم بالله الْغَرُورُ، وهو الشيطان، بما كان يوسوس لهم من أفكار وضلالات، كالتشكيك في البعث والحساب وعذاب الآخرة، والتشكيك في الرسول والقرآن، وكتزيين أنواع الشرك والكفريات التي كانوا يعتقدونها، إلى غير ذلك من زيوف.

بعد هذا البيان التفصيلي يقال للمنافقين: فاليومَ لا يؤخذ منكُمْ فديةٌ ما عمّا قدّمتم ولا من الذين كفروا، ولا بُدَّ أن تُلاقوا جزاءكم بالعدل، ومأواكم الذي ستأوون إليه النار، هي الّتي ستتولّى أمور عذابكم عن طريق خزنتها من الملائكة الغلاظ الشداد، وهي المصير الذي ستصيرون إليه، وبِئْسَ المصير هي.

* * *

(٣)
المفردات اللُّغوية في النّصّ

﴿ بُشْرَىٰكُمُ ﴾:

أي: ما تُبَشَّرُونَ به، الْبُشْرَىٰ: اسم يُطْلَق على الشيء السّارّ المفرِح الذي يأتي به الخبرُ أو العلم.

﴿ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾:

الفوز: الظفر، والنجاة من الشرّ، والربح.

﴿ ٱنظُرُونَا ﴾:

أي: انتظِرُونا، يقالُ: نَظَرَهُ بِمَعْنَىٰ انتظَرَهُ.

﴿ ٱنظُرُونَا ﴾:

أي: أَمْهِلُونا بالانْتظار، أو انتظرونا.

﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾:

أي: نستَفِدْ من نُوركم، يُقالُ: اقتبَسَ فلانٌ من فُلانٍ نوراً أو علماً، إذا استفاده منه.

﴿ فَٱلْتَمِسُواْ ﴾:

أي: فاطْلُبُوا نوراً، وابحثوا عن نور بأنفسكم ولا يسمح لكم أن تستفيدوا من نور غيركم.

﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾:

ضَرْبُ السّور إقامتُه وإنْشاؤه وإحداثه، يقول العربيّ: ضربتُ بيتاً إذا نصبه وأقامه أو بَناه، وأطلق على إنشاء الأبنية فعل الضرب، لأنّ عمل الضرب باليد أو بالأدوات من أهمّ أعمال إنشائها. والسُّور: كلُّ ما يحيط بشيء من بناء أو غيره.

وعُدّي فعل «ضُرِبَ» بحرف الجرّ «الباء» لأنّه ضُمّن معنى فعل «يحجز» أو «يفصل» فالمعنى: فَضُرِبَ بيْنهم حاجزٌ أو فاصل بسورٍ يفصل بين المؤمنين والمنافقين.

﴿مِن قِبَلِهِ﴾:

أي: من جهته، قِبَلُ الشيء: جِهَتُه وناحيتُه.

﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾:

أي: أَضْلَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَعَرَّضْتُموها لعذاب الله ونقمته، وهذا فيما أرى أولَى المعاني بالاعتبار هنا من معاني الفتنة.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾:

التَّرَبُّص الانتظار، يُقَال لغة: تربَّص فُلانٌ بِفُلانٍ، أي: انتظر شرّاً أو خيراً يحلّ به.

﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾:

أي: شككْتُم، يقال لغة: ارتاب في الأمر وارتاب به إذا شكَّ فيه. وارتابَ به إذا اتّهمهُ بأمرٍ مستنكر، ككذب أو سرقة أو خيانة ونحو ذلك.

﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾:

أي: خَدَعَتْكُمْ وأطمعتكُمْ بالباطل.

﴿ٱلْأَمَانِيُّ﴾:

جمع «الأُمْنِيَّة» وهي ما يتمنّى الإنسان حصوله مما هو بعيد المنال.

﴿ٱلْغَرُورُ﴾: كلُّ خدّاعٍ يُطمع بالباطل، وصيغة «غَرُور» من صيغ المبالغة، أي:

شديد الخدع عظيم الحيلة، ويطلق غالباً هذا اللفظ على الشيطان، ومن كان مثله في التغرير والمخادعة للإضلال.

﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾:

الْفِدْيَةُ ما يُقَدَّمُ من مالٍ أو غيره لإنقاذ مسْتَحِقّ العقاب، وتخليصه من تَبِعَةِ ما جنَى.

﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾:

اي: مَنْزِلُكُمْ الذي تَأْوُونَ إليه النار، يقال: أَوَىٰ إلى المكان إذا نزل فيه، فهو مأْواهُ.

﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾:

من معاني «الْمَوْلَىٰ» من يتولّى أمر من هو مشرف عليه، وهذا المعنى هو أليق معاني هذه الكلمة هنا. فالنار عن طريق خزنتها من الملائكة، هي التي تتولّى أمور تعذيب المنافقين يوم الدين.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾:

بِئْسَ: فعل جامد لإنشاء الذّم، وهو منقولٌ للدّلالة على معنى الذّم من «بَئِسَ» إذا أصابَ بُؤساً، ضِدّ «نَعِمَ».

﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: اسم المكان الذي سيصيرون إليه، أو مصدر ميمي من «صار».

والمعنى: وبِئْسَ المصير النار التي سيصيرون إليها.

يقال لغة: صار إلى كذا بمعنى انتقل إليه، أو تحوّل إليه، أو انتهى إليه.

* * *

(٤)
مع النصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي

﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢﴾ :

أي : يا مَنْ تصلحُ للخطاب ضَعْ في ذاكرتِكَ مشهداً من مشاهد يَوْم القيامة، فاذْكُرْ من حينٍ لآخر يوْمَ تَرَىٰ إذْ تقُومُ القيامة، ويُحْشَرُ الناس للحساب وفصل القضاء، المؤمنينَ والمؤمناتِ محظوظين بميزة خاصّةٍ دون سائر أهل الحشر.

هذه الميزة هي أنّهم أصحابُ نورٍ يكْشِف لهم سُبُلَهُمْ في مَسِيرِهِمْ، فكُلٌّ مِنْهُمْ لَهُ نورٌ خاصٌّ بِهِ يَكْشِفُ لَهُ الْمَسِير الذي يَسِيرُ فيه عَبْرَ ظَلَامٍ مُحيطٍ مُجَلِّل، ولا بُدَّ أن يكون نورُ كلِّ واحدٍ منهم على مقدار قُوّةِ إيمانِه في الدنيا، ومقدارِ زادِه من العمل الصالح.

هذا النّور الذي يكون لكلّ مؤمنٍ ومؤمنة نورٌ يَسْعَىٰ في سُبُلِ أرضِ الحشر أمامَ السّاعين فيها على مقادير سَعْيِهم شدّةً وضعفاً، فساعٍ منهم بسرعةٍ فائقة، ونورُه يَسْعَىٰ بين يديه بمثل سُرْعته، وساعٍ منهم بسرعة دون ذلك، وتتنازلُ السّرعات حتى أدناها، ونورُ كلّ واحد منهم يسعىٰ بين يديه على مقدار سرعته، وسرعتُه في سعيه يومئذٍ تناسب سَعْيَهُ في طاعة الله ومراضيه في الحياة الدنيا.

وهذا النور يملكون بثَّهُ وتوجيهه بأيْمانهم، كالمصابيح الكهربائيّة الّتي اكتشفها الناس لإنارة طرقاتهم في اللّيل، ذاتِ الأنواع المختلفة، فمنها ما يستعمله الناس في مركباتهم، ومنها ما يحمله المشاة بأيديهم.

فالنص على تقدير: اذْكُرْ يا من يصلحُ للخطاب ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ حالة كَوْنِهم ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُمْ﴾ الخاصُّ بكلِّ واحدٍ منهم بحسب إيمانه وما قدّم من عمل صالح في مرضاة الله ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِم﴾ لِكَشْفِ طُرُقَاتِهم بحسب مقدار سعْيِ كلٍّ منهم، ودلّت الحاجة إلى النور على أنّ مُحِيطَ المكان محيطٌ مظلم لا نور فيه إلّا ما يكون ساعياً بين أيدي المؤمنين الساعين، ﴿وَ﴾ وسيلة بثّ هذا النور وتوجيهه تكون ﴿بِأَيْمَانِهِم﴾.

وضع في ذاكرتك أيضاً يا من تَصلُح للخطاب أنّ المؤمنين والمؤمنات لهم ميزةٌ أُخرى يميّزهم الله بها، دون سائر أهل المحشر يوم القيامة.

هذه الميزة الأخرى هي أنهم يُبشَّرون قبل الحساب وفصل القضاء بِبُشْرَىٰ، فيقال لهم:

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا . . . ⑫﴾.

﴿بُشْرَىٰكُمُ﴾:

أي: الشيء السّارُّ المفرح الذي تبشّرون به، وهو مبتدأ.

﴿جَنَّٰتٌ﴾:

خبرٌ. إنَّها جَنَّةٌ عُظْمَىٰ مفصّلة إلى جنّات.

ومن أوصافها أنَّها تَجْري من تحتها الأنهار التي جاء في نصوص قرآنية أخرى وصفها، فمنها أنهار ماء غير آسن، ومنها أنهار لبن، ومنها أنهار عَسَلٍ مُصَفًّى، ومنها أنهار خمْرٍ لا غولَ فيه.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

أي: هي معدّةٌ لكُم، فإذا دخلتموها كُنْتُمْ خالدين فيها.

بعد عرض هذه اللَّقطات من مشاهد يوم القيامة ممّا هو خاصٌّ بالمؤمنين والمؤمنات، أبان الله لنا على سبيل الترغيب في أن نكون من أهل الإيمان، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ⑫﴾:

أي: ذلك الثوابُ الرَّفيعُ يوم الدين للمؤمنين والمؤمنات هو وحْدَهُ الفوز العظيم، الجامع للظفر بما هو فوق أمانيّ العباد ومحابّهم، وللربح العظيم على العمل القليل، وللنجاة ممّا هو معدٌّ للكافرين والمنافقين من عذاب أليم، وضمير (هو) ضمير فصل لتأكيد التخصيص.

ونلاحظ أنَّ هذا النور الذي عرضته هذه الآية على أنَّه خَبَرٌ عن مَشْهدٍ مقتَطَعٍ من مشاهد يوم القيامة، قد جاء بيانه في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) نفسها بأسلوب وعْدٍ من الله للمؤمنين من أهل الكتاب إذا اتقوا وآمنوا برسوله محمد ولا سيما

النصارى الذين اتّبَعُوا عيسَىٰ بصدقٍ، فقال تعالى فيها:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: يا أيها الذين آمَنُوا برسُل الله السابقين وبما جاؤوا به اتقوا الله وآمنوا برسوله محمد ﷺ، يؤتكم كِفْلَيْن (أي: نَصِيبَيْن) من رحمته، مقابل إيمانكم أولاً برسلكم، ثم إيمانكم بمحمّد. ويجعل لكم نوراً من الهداية تَمْشُون به في الدنيا، ونوراً تمشونَ به يوم القيامة، ويغفر لكم، والله غفورٌ رحيم.

وجاء بيانه أيضاً في سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) بأسلوب وعْدٍ من الله لعصاة المؤمنين، فقال تعالى فيها:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

نُلاحِظُ في هذه الآية أنَّ دُعَاءَ المؤمنين يوم القيامة ربَّهُمْ أن يُتِمَّ لَهُمْ نُورَهُمْ وَيَغْفِرَ لهم، يدُلُّ على أنَّ نور كلِّ واحد منهم نـورٌ ناقصٌ عن مـرتبة الكمـال التي يشاهـدونها لـلأنبياء والمـرسلين، ولا بُدّ أن يكـون ذلك بسبب مـا كان منهم من تقصيـرات وذنوبٍ ارتكبُـوها وضعفٍ في الإيمـان، فهم يسألـون الله أن يُتِمَّ لَهُمْ نُورَهُمْ ويغفرَ لهم، حتَّىٰ يكونوا مـع السابقين، ونفهم ذهنـاً بمقتضى قانـون العدل الربّاني أنَّ نقص النـور لكلِّ واحد منهم يعادل تقصيراته وما ارتكب في الحياة الدُّنيا من سيِّئات، وهذا يَشْهَدُ للتصوُّر الذي أظهره تدبُّر الآيـة التي هي موضـوع البحث من سورة (الحـديد) كمـا سبَقَ البيان حولها.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾.

أي: وَضَعْ في ذاكرتكَ أيضاً يا من تصلُح للخطاب مشهداً آخَرَ من مشاهدِ يوْمِ القيامة موصولاً بالمشهد السابق، فاذكر من حينٍ لآخر، يوم تَرَى إذْ تقُومُ القيامة، ويُحْشَرُ النَّاسُ للحساب وفصْلِ القضاء، المنافقين والمنافقات، يَمْشُون وراء المؤمنين والمؤمنات بتباطؤٍ وضَعْفٍ وعَجْز، وهم يقولون للذين آمنوا انتظِرُونا وتمَهَّلُوا من أجْلِنا حتى نستفيد في مسيرنا خَلْفَكُمْ من نُورِكُمْ، في هذا الظلام الدامس.

ونستطيع أنْ ندركَ أنّ هذا إنّما يكون قبل الحساب وفصل القضاء، إذْ يزعم المنافقون والمنافقات أنّ خداعهم للمؤمنين ما زال سارياً تبعاً لما كانوا فيه في الحياة الدنيا، أمّا بعد الحساب وفصل القضاء، فإنّ الحكم بشأنهم يكون قد صَدَر، وعندئذٍ يُجْمَعُون مع الكافرين، وتنكشف سرائرهم للجميع، فما يذكره بعض المفسرين ممّا يخالف هذا لا يستقيم، ومنه قول بعضهم: إنّ هذا يكون على الصراط.

دلَّ على هذه اللقطة من مشاهد يوم القيامة قول الله تعالى:

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾:

أي: اذكُرْ يا مَنْ تَصْلُح للخطاب ﴿يَوْمَ يَقُولُ...﴾، فضَع هذا في ذاكرتك ليكون واعظاً لك ومُنْذِراً، فتكون شديد الحذر من أن تَسْلُكَ مسالك النفاق والمنافقين.

ولمّا كان المنافقون والمنافقات على علم بأنّ النور الذي يستهدي به المؤمنون والمؤمنات إنما هو نور إيمانِ كلٍّ منهم ونورُ عمله الصالح في الحياة الدنيا، فإنّهم يقولون لهم:

﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾.

ولا يقولون لهم: نقتبس من النور الذي تستهْدُون به في ظلمات المحشر، إنهم يعلمون أنه نُورُهُمْ المنبعث من كلٍّ منهم.

ودلّ المشهد على أن الذين آمنوا يَسْعَوْنَ، أي: يُسْرِعُون في السّير لأنّ نورَهُمْ يَسْعَى بيْنَ أيديهم، فسَعْيُ نورهم جاء كناية عن سعيهم، ولو كانوا مستقرين في أماكنهم لكان نورهم مستقرّاً معهم.

ودلّ المشهد على أن المنافقين والمنافقات يحاولون اللّحاق بالّذين آمنوا، استمراراً لما كانوا عليه من نفاقٍ في الحياة الدّنيا، ولكنّ الضعف والعجز الناجمين عمّا كانوا عليه من كفر في الباطن لا يمكّنانهم من مسايرة أضعف المؤمنين إيماناً وأقلّهم عملاً صالحاً.

ولا بدّ أن يكون هذا السّعي في اتّجاه موقف الحساب وفصْلِ القضاء الخاصّ بالمؤمنين والمؤمنات.

عندئذٍ يقال لهم:

﴿ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ ﴾:

أي: ليسْتْ هذه الجهة جهتكم، ولا تصْلُحون للّحاق بالذين آمنوا في مسيرهم، لا بالاستحقاق ولا بالتبعيّة، فمكانُكم الخاصُّ بكم هو وراءَكُمْ، فارجعوا إليه، وسيروا في الاتّجاه المعاكس حيث يَسِيرُ الكافرون الصرحاء.

فالذي يظهر أنهم يُخْدَعون في أوّل الأمر فيُحْشَرُون مع الذين آمَنُوا، ثُمّ إذا دُعِي الذين آمَنُوا للسعي في اتّجاه موقف حسابهم، مشىٰ معهم المنافقون مشي الضعفاء العجزة، فيسبقهم كلّ المؤمنين، عندئذٍ يكونون كالذيل، ثم ينفصل الذيل عن مؤخّرة المؤمنين والمؤمنات، وتَشْتَدُّ على المنافقين والمنافقات الظلمات، فلا يستطيعون متابعة اللّحاق بالذين آمنُوا، فيطلبونَ منهم الانتظار، عندئذٍ يوجّه لهم النّداء الربّاني، عن طريق الملائكة أو عن طريق خلْق صوتٍ يسْمَعُونه:

﴿ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ ﴾.

إنّهم يُجَازَوْن في موقف الحشر بمثل ما كان منهم في الحياة الدُّنيا، كانوا يُخادعون الله والذين آمَنُوا، فمن العدل أن يُعَاملوا يوم القيامة بمثل عملهم في الحياة الدنيا.

ولست أرى أنّ عبارة ﴿وَرَاءَكُمْ﴾ تأكيدٌ لعبارة ﴿ارْجِعُوا﴾ على اعتبار أنّ الرُّجُوع يستلزم السَّير إلى الوراء، بل أرى أن عبارة ﴿وَرَاءَكُمْ﴾ هي على معنىٰ: إِلْـزَمُوا وَرَاءكم، أي: فالجهةُ الّتي هي ورَاءَكم المعاكسةُ لجهة الذين آمَنُوا هي الجهة التي ستتخذون خطوط مسيركم فيها مع الكافرين، إلى موقف حسابكم، فإلىٰ جهنّم، أمّا جهة الذين آمَنُوا فهي إلى موقف حسابهم، فإلى الجنة، وإن استحقّ بعضهم مقداراً من التعذيب في النار.

ويقال لهم أيضاً بعد أمرهم بالرّجوع، وأمرهم بأن يلْزَمُوا وَرَاءَهم:

﴿فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾.

أي: فاطلبوا نوراً بِجَهْدِكم من عملكم، إن كنتم قادرين على ذلك، وابْحَثُوا عن نورٍ تستهدون به بأنفسكم، فإنّه لاَ يُسْمَحُ لكم اليوم أن تستفيدوا نوراً من غيركم كما كُنْتُمْ في الدّنيا تُشَاركون الذين آمنوا في ثمرات أعمالهم، إذ كنتم تزعمون أنّكم منهم، وأنتم كاذبون، فاليوم لا كَذِب ولا مخادعة، إنّه يوم الدين يوم الحقّ والعدل بالنسبة إلى الكافرين، ويوم الفضل والإحسان بالنسبة إلى المؤمنين.

وعقب هذا القول الذي يُوَجَّهُ للمنافقين والمنافقات يُقَامُ سورٌ حاجزٌ بين المؤمنين والمنافقين، لئلا يُتَابع المنافقون السَّير خلف المؤمنين على سبيلِ المكابرة وتجاهلِ الإعلان، بظلٍّ ثقيل، وتطفُّلٍ عليل، ويُجْعَلُ في وسط هذا السّور باب، ولا بدّ أن يكون على الباب حُرّاس، ويظهرُ أنّ الغرض من هذا الباب فحص المتخلّفين المقصّرين في السَّير من عصاة المؤمنين، وضعفاء الإيمان الّذين لم يَبْلُغ ضعف إيمانهم إلى دركة الشرك أو النفاق، فمن كان له قَدْرٌ ما من نور الإيمان والعمل الصالح مهما قلّ أُذِنَ لَهُ بالدُّخولِ من هذا الباب إلى جهة المؤمنين، ويُمْنَعُ المنافقون ويُردُّون.

هذا السّورُ لَهُ بَاطِنٌ يَقعُ إلى جهة المؤمنين، وله ظاهر يقع إلى جهة المنافقين.

ونعلم من سنّةِ الله في الْخَلْقِ أنّ الباطنَ يكون في العادة ليناً ناعماً ضامّاً لمَا يحْتَوِي علَيْهِ برفقٍ وحفظ، بخلاف الظاهر فإنّه يكون عادة قاسياً خَشِناً، يجد من يقترب منه ما يَصدُّه ويردُّه ويؤذيه.

ووفق هذه السنّة يجعل الله هذا السّور ذا باطنٍ لينٍ مؤنسٍ ناعم حسَنٍ جميل، وذا ظاهر صَلْبٍ خَشِنٍ يأتي من جهته العذاب، الذي ينزل بمن يقترب منه، ويُحاوِلُ تَسوُّرَه، لينخرط في جماعة المؤمنين، وهو ليس منهم، فبطاقة الدخول من الباب لا بُدَّ أن تكون بطاقة من نور الإيمان والعمل الصالح في الحياة الدنيا.

فقال تعالى:

﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾.

فلا يستطيع المنافقون والمنافقات الاقتراب من السور، ولا يُسْمَحُ لهم بالدّخول من الباب، نظراً إلى أنّهم لا يملكون نور إيمان وعمل صالح، ولو من أقلّ الدرجات.

عندئذٍ لا يبقى أمام كلّ واحد منهم إلاّ أن ينادي مَعارِفَه من المؤمنين ألم أكُنْ معكم؟! لعلّ بعضهم يرضىٰ أن يشْهَدَ له بأنّه كان في الدنيا مع المؤمنين، فيشفع ذلك له عند ربّه، فيأذن لملائكته بأن يُلحقوه بهم.

لكنّ المؤمنين يكونون قد اكتشفوا حقيقة معارفهم من المنافقين، فيجيبونهم بما يدُلُّ على أنهم كانوا منافقين كاذبين، مع المؤمنين ظاهراً، وليسوا مع المؤمنين باطناً.

فقال تعالى:

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾.

اسْتُعْمِلَ فعْلُ ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ نظراً إلىٰ حاجز السور الذي أقيم بين الفريقين، فمنعهما من التحادث والتخاطب بصوت منخفض.

﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾؟!

يدعو المنافقون بهذا الاستفهام الذين آمنوا بأن يشهدوا لهم عند ربّهم بأنّهم كانوا في الدنيا مع المؤمنين.

فيقول المؤمنون لهم: ﴿بَلَىٰ﴾: أي: بلى لقد كنتم معنا في ظاهر انتسابكم

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾ لم تكونوا معنا في حقيقة إيمانكم وولائكم، بل كنتم على خلاف ذلك ونقيضه في باطن أمركم.

واليوم نذكر لكم بالتفصيل حقيقة أمركم تجاه دين ربكم وتجاه رسوله والمؤمنين.

أولاً: ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾:

أي: أضللتُمْ أنفسكم وعرضتموها لعذاب الحريق في نار جهنّم، باختياركُمُ الحرَّ سُبُلَ الضَّلال والغواية وإبطانِ الكُفْر، ورفض الحقِّ الذي جاء به رسولُ ربكم، وكيدِ الإسلام والمسلمين، ومخادَعَةِ الله ورسوله والمؤمنين.

ثانياً: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾:

أي: وانتظرتُمْ أنْ تَدُور على الإسلام والمسلمين الدوائر، فتنقضُّوا على المسلمين الصّادقين مع الكافرين الصرحاء قتلاً وسَلْباً وتشريداً، وعندئذٍ كُنْتُم ستُعْلِنُون كفركم وعداوتكم الصريحة، ولكنّ اللّهَ عزّ وجلّ نصَرَ المؤمنين وخذل الكافرين، فردّ كيدكُمْ عليكم، فكنتُمْ أنْتُمُ المكيدين.

ثالثاً: ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾:

أي: وشككْتُمْ بصدقِ رَسُولِ ربكم مع كلّ ما شاهدتموه من دلائل نبوّته ورسالته، وشكَكْتُمْ في صحّة ما جاء به وبلّغه عن ربّه، مع أنّه حقٌّ تشهد له براهين العقل، ويشهد له الواقع، وتشهد له التجارب.

رابعاً: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾:

أي: واطْمَعَتْكُمُ الأمانِيُّ الّتي كُنْتُمْ تَتَمَنَّونَهَا بالْبَاطِل، وتُؤجّلونها من حينٍ إلى حين بعده، كلّما توالتِ الآجالُ دون تحقيقها ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بإنْهاءِ آجالكُم أنتم في الحياة الدنيا، فحلّت بكم مناياكم، دون تحقيق أمانيكم، وأنتم ما تزالون على نفاقكم، كُفْراً في الباطن وإسلاماً في الظّاهر.

خامساً: ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾:

أي: وخدَعكم باللّهِ رَبِّكُمُ الشيطانُ الْغَرُورُ، إذْ كان يَعِدُكُمْ وَيُمنّيكم ويوسوس لكم ويسوّل، فيزيّن لكم أنواع الشرك، وصُور الكفر، ويقدّم لكم زيوف الأفكار

والضلالات بزخارف الأقوال، وما يصطنعه هو وجنوده من شياطين الإنس من فلسفات وسفسطات وأفكار باطلة، ويزيّن لكم التشبث بالحياة الدنيا وزيناتها، ويصرف عن تصوّراتكم الآخرة وما أعدّ الله فيها من عذاب خالد للكافرين والمنافقين، ومن نعيم خالد للمؤمنين، بالتشكيك بأخبار الرسُل عن الله ربّهم.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

هذا بيان رَبّانيٌ يُوجّهُ لَهُمْ عَقِبَ الْجِوار الّذي يكونُ بينهم وبين المؤمنين، على طريقة النداء، إذ يحجز بين الفريقين السُّور المضروب بينهما.

هذا البيان الرّبّاني يأتي إعلاناً عامّاً يسمعه المنافقون جميعاً، في موقفهم يوم القيامة، لتيئيسهم من النجاة، وقطع آمالهم، حتى لا يُحاولوا اتّخاذ سببٍ ما أو حيلةٍ ما، طمعاً في الخلاص ممّا هم فيه.

صوتُ مَلَكٍ يَتْلُو عليهم هذه الآية بحسب لغاتهم، أو إذاعةُ تَبُثُّها عليهم بخلق الله، أو شيء آخر يوصلها إلى أسماعهم وقلوبهم بخلق الله، الله أعلم.

هذا البيان يشتمل على أرْبع قضايا:

القضية الأولى:

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: فالْيوم لا تُقْبَلُ مِنْكُمْ وَلَا من الّذِينَ كَفَرُوا كُفْراً صَرِيحاً فِدْيةٌ ما لو كُنْتُمْ تَمْلِكُون دَفْعَ فديةٍ تَدْرؤون بها عذابَ اللّهِ الخالدَ عنْكُمْ.

وجاء التعبيرُ بنَفْي أخْذِ الفدية عن قبولها، لأنّ قبولَها يستلزم أخذها، على أنّهم لاَ يملكون يومَ القيامة شيئاً يُقدِّمونه، لا فِدْيَةً ولا دُونَها، إنّ ما يملكه المكلّفُ يوم الدين هو عمله الصالح الذي قدّمه في الحياة الدنيا، والمنافقون والكافرون ليس لهم أعمال صالحة مقبولة عند الله حتّىٰ يُقدِّموا منها فِدْيةً ما.

القضيّـة الثانيـة:

﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾:

أي: مكانُكُم الّذي تأوون إليه وتنزلون فيـه النّارُ دارُ عـذاب الكافـرين والمنافقين والعصاةِ يوم الدين.

القضيـة الثالثـة:

﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾:

أي: النّارُ دار العذاب يوم الدين هي الّتي تتـولّى شُؤونكم، ومَنْ كانت النـار هي مولاه كانت ولايَتُها عليه ولايةَ تعذيب وتنكيل.

وقد نُزِّلَتِ النـار مَنْزِلَـةَ ذي حياةٍ وإرادَةٍ يَتَـولّىٰ شؤون من يَقَعُ تحْتَ سيـطرته على سبيـل المجاز في التعبيـر، بتنزيـل غير ذي الحيـاة منـزلـة ذي الحيـاة، أو على سبيـل ملاحظة خزنَةِ النار من الملائكة الغلاظ الشداد الذين يتولّون تعذيبَ أهلها، على سبيل المجاز المرسل، من إطلاق المحلّ وإرادة القائم على شؤونه.

القضيـة الرابعـة:

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾:

أي: وهـذه النار هي مصيـركم الأخير الـذي ستصيرون إليـه، فـلاَ خـلاص لكم منها، لأنكم فيها خالدون، وبِئْسَ الْمَصِيرُ الذي ستصيرون إليه هي.

وينتهي النصّ بهذا الختام أعاذنا الله من الكفر والنفاق.

● ● ●

النصّ العشرون

وهو من سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول)
تاسع سورة مدنية
الآيات من (١٦ ــ ٣٢)
حول عدم تفهم المنافقين لما يسمعون وهلعهم لدى سماعهم آيات الدعوة إلى القتال

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ

سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

* * *

(١)
القراءات المتواترات في هذا النصّ (من الفرش)

* في الآية (١٦):

(١) قرأ جمهور القُرّاء [آنِفاً] بمدّ الهمزة.

وللبزّي روايةٌ عن ابن كثير [أنِفاً] بالقصر، والأخرى كقراءة الجمهور.

آنفاً: بالمدّ هي بمعنى الزمن الماضي القريب من زمن التكلّم، أي: ماذا قال منذ قريب إذْ كان يتكلّم.

أنِفاً: بالقصر هي بمعنى المتبرّم المتشكّي الذي يظهر انزعاجه، كالبعير الذي يُساقُ بالخطام من أنْفِهِ، فهو ينقاد كارهاً مُتَشكّياً، يقال: بعيرٌ مأنوفٌ، أي: يُساقُ بأنْفِهِ فهُو أنِفٌ، ويُقالُ: أنِفَ البعيرُ إذا شكا أنْفَهُ من الخطام الذي فيه ويُساقُ منه.

ويقال أيضاً: بعيرٌ آنِفٌ بالمدّ إذا كان دائم التشكّي مثل: أنِفٌ، بالقصر.

ففي القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد، أي: ماذا قال محمّد في خطبته أو حديثه الذي قاله من قريب حالة كونه متشكّياً متبرّماً من أحوال بعض الناس، أي: ماذا يقصد من تَشكّيه، ومَنْ هُمُ الأشخاص الذين يتحدّث عنهم متبرّماً من أحوالهم؟

* في الآية (٢٢):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [عَسَيْتُمْ] بفتح السين.

وقرأ نافع فقط [عَسِيْتُمْ] بكسر السين.

وهما وجهان عربيان في هذه الكلمة.

(٢) قرأ جمهور القرّاء العشرة [تَوَلَّيْتُمْ] على البناء للفاعل.

وقرأ رُوَيْسٌ فقط عن يعقوب [تُـوُلِّيتُم] بضمّ التاء والواو وكَسْرِ اللاّم على البناء للمفعول.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

تَوَلَّيْتم: تأتي بمعنىٰ تسلَّمْتُمْ ولاية امور الناس، وتأتي بمعنى أدبرتم عن الحقّ وانصرفتم عن طريقه.

تُوُلِّيتُم: هي بمَعْنَى أُسْنِدَتْ إليكُمْ ولاية أمور الناس.

(٣) قرأ جمهور القرّاء العشرة (وَتُقَطِّعُوا) بتشديد الفعل من «قَطَّع» المشدّد الطاء.

وقرأ يعقوب فقط [وَتَقْطَعُوا] بالتخفيف.

وفي القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذ من الناس المرادين من يبالغ في تقطيع أرحامه، ومنهم من يقطع رحمه دون إسراف.

* في الآية (٢٥):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة [وَأَمْلَىٰ لَهُمْ] أي: أملَىٰ الشيطان لهم.

وقرأ أبو عَمْرٍو: [وَأُمْلِيَ لهم] بالبناء للمفعول وفتح الياء، أي: وأُمْلِيَ لهم من قِبَلِ من يؤثّر عليهم.

وقرأ يعقوب [وَأُمْلِي لهم] بالبناء للفاعل على أن الفاعل ضمير المتكلّم وهو الله عزّ وجلّ.

وفي هـذه القراءات تكـامل في الأداء البيـاني وتكامـل في أداء المعنى المـراد.
يقال: أَمْلَى له: إذا أطال له وأمْهَلَهُ.

* في الآية (٢٦):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [أَسْرَارَهم] جمع «سِرّ».

وقـرأ حفص عن عاصم، وحمـزة والكسـائي وخلف العـاشـر [إِسْرَارَهُمْ] بِكَسْـرِ الهمزة، مصدر أَسَرَّ إِسْراراً.

وفي القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، فالله يعلم أسرارهم التي يخفونها، ويعلم عملهم إذ يُسِرّون به.

* في الآية (٢٨):

(١) قرأ جمهور القراء العشرة [رِضْوَانَهُ] بكسر الراء.

وقرأ شعبة فقط [رُضوانه] بضمّ الراء.

وهما وجهان عربيّان لكلمة رضوان.

* في الآية (٣١):

(١) قـرأ جُمْهُـورِ القـراء العشـرة: [وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَـاهِـدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخبَارَكُمْ] بنون العظمة في الأفعال.

وقـرأ شعبـةُ فقط: [وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ يَعْلَمَ المجـاهِـدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّـابِـرِينَ وَيَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ] بياء الغائب.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني.

وقرأ رُوَيس عن يعقوب: [وَنَبْلُو] بإسكانِ الواو على استئناف الجملة دون عـطف فعـل [نَبْلُوَ] على فعل [نَعْلَمَ] فيكـون فعل [نَبْلُو] مـرفوعـاً، أي: ونحن نبلو أخباركم، وهو وجه من الأداء البياني ذو دلالة خاصة مضافة.

* * *

(٢)
موضوع النص بوجه عامّ

يكشف هذا النص حالة المنافقين وهم في مجالس العلم الديني، ويبيّن أنّهم يتصَنّعون التظاهر بأنهم يستمعون الأقوال ويصغون إليها، لكنهم في الحقيقة منصرفون عنها في نفوسهم، فلا يصل إلى أدمغتهم وقلوبهم منها شيء، إنّ قلوبهم مطبوعٌ عليها بسبب انصرافهم عنها، وعدم إيمانهم بها أصلاً.

ويكشف أيضاً حالةَ المنافقين حين كانوا يستمعون الأيات المنزّلات المتضمنات الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله بالأموال إعداداً لقتال الكافرين، وبالأنفس في الخروج لمقاتلتهم، وهي الآيات التي كان رسول الله ﷺ يتلوها على المسلمين في المجامع العامّة التي كان يشهدها المسلمون، المؤمنون منهم والمنافقون.

فقد كان المنافقون إذا أُنزلت سورة محكمة وذُكر فيها الدعوة إلى قتال الكافرين أصابهم الهلع والجزع، فجعلوا ينظرون إلى الرسول ﷺ نظر المغشيِّ عليه من الموت.

وبعد كشف هاتين الظاهرتين من أحوال المنافقين يتابع النصّ معالجتهم بالإقناع، والموعظة، والدعوة إلى تدبّر آيات القرآن، والوعيد بالعاقبة الوخيمة والعذاب الأليم، والإنذار بفضحهم أمام سائر المسلمين، بإخراج ما في سرائرهم وضمائرهم من أضغان.

وضمن ذلك يبيّن الله عزّ وجلّ حكمته في الابتلاء الذي يكشف به المؤمنين والكافرين، والمطيعين والعاصين، والمجاهدين والقاعدين المتخاذلين، والصابرين والجزعين، إلى غير ذلك من تصرّفات الناس الإرادية التي تصير بعد الوقوع أخباراً.

* * *

(٣)
المفردات اللّغوية في النّص

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾:

أي: ومن الذين كفروا منافقون ضمن جماعة المسلمين يستمعون إليك يا محمّد، بمعنى يصغُون سمعهم إليك، فيُميلون آذانهم ورؤوسهم تظاهراً بأنّهم مُهْتَمُّون بما تقول، سَتْراً لنفاقهم.

يقال لغة: استَمَع له واستَمَع إليه، وكذلك تَسَمَّع إليه، بمعنى أصغى إليه، أي: أمال رأسه وأذنه إليه ليتسمّع منه ما يقول.

﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾:

أي: ماذا قال محمّد في الزمن الماضي القريب إذْ كُنّا في مجلسه. وأحياناً يقولون هذا القول على معنى: ماذا قال محمّد وماذا يَقْصِدُ ومَنْ يَعْني بقوله الذي يَتَشكّى به، وذلك حين يُعَرِّض بالمنافقين وأعمالهم غير السّارة، وعلى هذا المعنى تُحْمل قراءة «أَنِفاً» أي: ماذا قال حالة كونه متشكّياً متبرّماً. فكلمتا «الأنِف» و «الأَنِف» تأتيان في اللغة بمعنى المتشكي، كما سبق في البيان لدى توجيه القراءات.

﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾:

الطبع في المادّيات كالختم، وقد كان من عادة الملوك وغيرهم إذا أرسلوا رسائل، وأرادوا المحافظة على سرّية ما فيها، أقفلوها بإحكام، ووضعوا عند مكان إقفالها طيناً خاصّاً، يطبعون عليه خاتمهم الخاصّ بهم، فيجفّ الطين ومثالُ الخاتم مطبوعٌ عليه، فلا يمكن معرفة ما في داخل الرسالة إلّا بكسر خاتم الطين.

وعلى سبيل التوسّع في التعبير بنقل ما هو للمادّيات إلى المعنويات، جاء في القرآن التعبير بالطبع والختم على القلوب، للدلالة على أنّها صارت محجوبة عن إدراك أيّ شيء يتعلّق بما هي محجوبةٌ عنه.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾:

تُطْلَق الساعةُ في القرآن على الزمن الذي يكون عنده إنهاء نظام الحياة الدنيا

لجميع الخلائق، وتُطلَق أيضاً ويُرادُ ساعةُ البعث إلى الحياة الأخرى، حياة الحساب والجزاء، ويُدْمَجُ المرادانِ في تعبير واحد لأنّ ساعة الإنهاء مقدّمة لساعة ابتداء الحياة الأخرى.

وساعةُ كلّ حيٍّ في الحياة الدنيا هي ساعةُ موته، وعند بعثه إلى الحياة الأخرى لا يشعرُ بالنسبة إلى الزمن إلاّ كما يشْعر النائم إذا صحا من نومه، كأنّه لم يلْبَث بين الموت والبعث إلاّ ساعةً من نهار.

﴿بَغْتَةً﴾:

أي: فجْأةً. يُقال لغةً: بَغَتَهُ يَبْغَتُهُ بَغْتاً وبَغْتَةً، بمعنَىٰ فَجَأَهُ يَفْجَؤُهُ فَجْئاً وفجْأةً.

فالساعة الأولى والساعة الأخرى لا تأتيان بقضاء الله وقدره على جميع الأحياء إلاّ فجأةً.

﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾:

أشراط الساعة علاماتُ قربها، وأماراتها، أَشْرَاط: جَمْعُ شَرَط، بفتح الراء، وهو الْعَلامة، ويقال: أَشْرَطَ الشيْءَ إذا جعل له علامة.

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾:

﴿أَنَّىٰ﴾: هنا بمعنَىٰ «كيف». ﴿ذِكْراهم﴾ أي: تذكّرهم، والمراد التذكر النافع، لأنّ الساعة متى جاءت لم ينفع التذكُّرُ صاحِبَهُ، لقد مضى زمن الابتلاء، وأقبل يوم الجزاء.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾:

التَّقَلُّبُ: التنقُّلُ، والتصرُّف في الأعمال، يقال لغة: تقلّبَ في الأمور إذا تصرّف فيها كيف يشاء. ويقال: تقلّب في البلاد إذا تنقّل فيها، فلفظُ «مُتَقَلَّبٌ» اسم مفعول بمعنى الكسب الذي حصل نتيجة تقلّب كاسبِه وتصرُّفه. أو مصدر ميمي، بمعنى التقلّب.

فالمعنى: والله يعلَمُ ما تعملون في تصرّفاتكم، ويعلَمُ حركتكم في تقلّبكم.

﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾:

أي: وسكونكم واستقراركم ومكان إقامتكم وزمانه. يقال لغة: ثوىٰ بالمكان وفي المكان يَثْوِي ثَواءً وَثُوِيًّا، إذا أقام فيه واستقر.

فلفظ «مَثْوىٰ» اسم مكان من ثَوَىٰ، واسمُ زمان، ومصدرٌ ميمي. فالمعنى: والله يعلَمُ ثواءكم، أي: استقراركم وسكونكم، ويعلم المكان الذي تَثْوُون فيه، ويعلَمُ الزمان الذي تثوون فيه، لا يخفىٰ عليه سبحانه من ذلك شيء.

﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾:

أي: هلَّا نُزِّلَتْ سورةٌ تأمر بالقتال، فلفظ «لَوْلَا» هنا للتحضيض بمعنى «هلَّا».

﴿مُّحْكَمَةٌ﴾:

أي: واضحة الدلالة، لا غموض فيها ولا شبهة ولا تحتاج إلى تأويل. ولا يَرِدُ هنا أنّها غير منسوخة، لأنّ السورة حين إنزالها لا تنزل منسوخة، بل قد تكون ناسخة لما نزل قبلها، فتفسير بعض أهل التأويل كلمة «محكمة» هنا بمعنى غير منسوخة، من التّسرع.

﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾:

هو مرضٌ أشَدُّهُ النفاق، وقد يَخِفّ إلى ما هو قريبٌ من النفاق، كضعف الإيمان الشديد.

﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾:

أي: مثل نظر الذي انتابه إغماءةُ مقدمات الموت، فجلّلت بصره، فصارت عيناه تدوران على غير هُدى، أو جَمَدَتْ عيناه عن الحركة كما ينظر الشاخص ببَصَرِه عند الموت، وهذا يكون من شدّة جزعهم وانزعاجهم.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾:

هذه عبارة تهديدٍ ووعيد، قال الأصمعي: معنى قولهم في التهديد: أولى لك، وَلِيَكَ وقاربَكَ مَا تكره. قال ثعلب: لَمْ يُقَلْ في «أَوْلَىٰ» أَحْسَنُ ممّا قالَهُ الأصمعي.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾:

حضٌ علىٰ تَفَهُّمِ دَلالاتِ آياتِ القرآن فهماً يُتابع سلسلةَ لوازم معانيها حتى آخِرِها. فتَدْبير الأمر وتدبُّرهُ إنّما يكُون بالنظر في عواقبه، إذْ دُبُرُ كُلِّ شيءٍ عَقِبُهُ ومُؤَخَّرُهُ.

﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾:

أي: «بلْ» أعلى قلوبٍ أقفالها «أمْ» هنا هي التي تسمَّىٰ المنقطعة، وهي بمعنى «بل» مع الاستفهام، فهي استفهام مستأنفٌ بعد كلام يتقدّمُها بإضرابٍ عنه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ﴾:

أي: رجعُوا إلى الكفر الذي كانوا فيه بعد أن تبيّن لهم هدى الإسلام الذي دخلوا فيه، والمراد أنهم رجعوا إلى الكفر باطناً، دون أن يعلنوا ردّتهم، فهم من الذين طرأ عليهم النفاق.

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾:

كلّ متمرّد مفسد من الإنس والجن، وإمامُ الشياطين إبليس، وجنودُه ذريّته، ومعهم كلُّ متمرّد على ربّه من الجنّ والإنس.

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾:

أي: زيَّنَ لهم الباطل والضلال والشرّ، وحبّب ذلك إليهم، وأغراهم به، وسهَّلَهُ لهم.

﴿ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾:

أي: طوّل لَهُمْ وأمْهَلَهُم، والمراد أنّه صبر طويلاً في التسويل لهم، حتى تمكّن من إغرائهم وإغوائهم، إذْ لم يتمّ له الأمر إلاّ بعد جَهْدٍ جهيد، وصبْرٍ مديدٍ، ومتابعةٍ في خطوات متدرجة عديدة.

﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾:

أي: أبْطَلَها.

﴿ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾:

أي: أحْقادهم وما يُضمِرُونَ في صدورهم من عَـدَاوَةٍ وغَيْظٍ وإرادةِ كَيْدٍ لـلإسْلَام والمسلمين.

أضغان: جمع «ضِغْن» وهو الحقد الشديد. والحقْـدُ: هو إضمـارُ العداوة، مـع إرادة الكيد، وتربّص الفرصة للإيقاع بالمحقود عليه.

﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾:

السِّيما العلامة، والمعنىٰ أنَّ المنافقين لهم عـلاماتٌ خـاصة في ظـواهرهم تـدلُّ على نفاقهم، فمن عرفها عرفهم بأشخاصهم.

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾:

لَحْنُ القول هو القول الذي يُـرادُ منه غيـر ظاهـره، ويفهمه الْفَـطِن من وراء لفظه بـالفطنـة والتأمـل، وأصل اللّحن إمـالة الكـلام إلى نَحْـوٍ من الأنحـاء لغـرض التعميـة والإخفاء عمّن لا يُراد إعلامه بالمقصود منه.

حكى ابن كثير عن عثمان بن عفان أنّه قـال: ما أسـرّ أحدٌ سـريرة إلاّ أبـداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

قال: وفي الحديث: «مـا أسرّ أحـدٌ سريـرة إلاّ كساه الله تعـالى جلبابهـا إنْ خيراً فخير أَوْ شرّاً فشرّ».

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾:

الابتلاء الامتحان والاختبار وكشف ما في السرائر.

﴿ وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾:

الصـدّ الإعـراض عن الشيء والانصـراف عنـه، وفعـل «صَـدَّ» يستعمـل لازمـاً ومتعـدّياً، يقـال صدّ عن السبيـل إذا أعرض، ويقـال صدّ غيره عن السبيـل إذا منعـه وصرفه.

﴿ وَشَآقُّوا ٱلرَّسُولَ ﴾:

أي: وعادَوُا الرسول وخالفوه، يقال لغة: شاقَّهُ مُشاقَّةً وشِقَاقاً، إذا خالفه وعاداه، قال الزجاج: الشقاق العداوة بين فريقين، والخلاف بين اثنين، سُمّي ذلك شقاقاً، لأنَّ كل فريق من فرقتي العداوة قصَدَ شِقّاً، أي: ناحية، غير شِقِّ صاحبه.

* * *

(٤)
مع النّصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ١٦﴾.

في مَعْرِض الحديث عن الذين كفروا ابتداءً من أوّل السورة، تحدّث هذا النصّ عن المنافقين، باعتبارهم يدخلون في عموم الكافرين، لأنّهم كافرون باطناً، وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام بحسب الظاهر، وتعرّض أيضاً لضعفاء الإيمان الذين قد يشاركون المنافقين في طائفةٍ من الظواهر السلوكيّة، لتحذيرهم من أن تجرّهم أعمالهم للانغماس في حَمْأةِ النفاق.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾:

أي: ومن الكافرين مُنافقون يَسْتَمِعُون إليكَ يا محمد مُظْهِرين إصغاءَهم إليك بإمالة رؤوسهم وتوجيه آذانهم مخادعين بأنهم مسلمون.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾:

أي: ويستمرّون مظهرين إقبالهم على تلقّي العلم حتّى إذا خرجوا منْ عندكَ وفارقوا مجلسكَ الذي كنت تحدّث فيه وتتلو آيات الله، توجَّهُوا لأولي العلم من المؤمنين الذين كانوا معهم في المجلس فقالوا لهم: ماذا قال محمّد حين كنّا عنده في الزمن القريب؟ فيكشفون بسؤالهم هذا أنّ ما كانوا يظهرونه من إصغاء لاستماع أقواله لم يقترن به توجُّهٌ فكريٌّ مطلقاً، بل كانت أفكارهم وقلوبهم منصرفة عنه انصرافاً كلّياً.

وأحياناً يقولون كما دلّت القراءة الأخرى: ماذا قال حالة كونه متشكّياً متذمّراً،

وماذا يعني من قوله، ويظهر أن هذا القول كانوا يقولونه حينما كان يتحدّث عن صفات المنافقين، ويكشفُ سرائرهم، ويتذمّر من أعمالهم غير السارّة.

وقد استفدنا المعْنَيَيْنِ من قراءتي: [آنِفاً] و[أَنِفاً] كما سبق بيانه، وهذه الظاهرة من منافقي عصر النبوّة، ظاهرةٌ تتكرَّرُ من منافقي كلّ عصر وكلّ أمّة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾:

أي: أُولَٰئك البعداءُ عن رحمة الله، والبعداءُ عن تَفَهُّمِ العلم النافع ليوم الدين، والنافع لحياةٍ دنيويّة رضيّةٍ سَعيدة، الّذين اتّخذُوا من الأسباب الصارفة عن الحق والهداية إلى الصراط المستقيم، ما كان من نتيجته ضمن سنن اللّهِ السببيّة أنْ تُقْفَل قلوبُهم فلا تصلَ إليها دلالاتُ أقوالِ الحقّ والهداية إلى الصراط المستقيم، بل يُطْبَعَ على أقفالها إيذاناً بأنّها صارت غير مستعدّةٍ لتقبل الحقّ والهداية مطلقاً، أي: صارت بمثابة حُجُراتٍ صمّاء، لها أبواب، وهذه الأبوابُ سكِّرَتْ وأُقْفلتْ وضُرِبَ الختمُ على هذه الأقفال.

فليس الطبعُ على قلوبهم أمْراً جَبْريّاً، بل هو نتيجة ما يفعلون من أسباب.

ونتيجةٌ لإقفالِ قلوبهم والطبْعِ عليها بالنّسبة إلى الحقّ والهدىٰ إلى صراط الله، فلا بدّ أن تكون أهواؤهم هي التي توجّه إراداتهم وتُحرِّك سلوكهم في الحياة، فقال تعالى:

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾:

الأهواءُ: رَغَباتُ الأنْفُسِ من زينة الحياة الدنيا، ومتَاعِهَا، وشهواتها، وهذه الأهواء إذا لم تكن موجّهةً ومنضبطةً بشريعة الله لعباده، انطلَقَتْ في المعاصي والفساد والإفساد في الأرض، وقادَتْهَا الشياطين إلى الشرور والمهالك، ومسَالِكِ الضلال والبغي والظلم والعدوان.

وسُمِّيَتْ أَهْوَاءً، لأنّ النفوس تنجَذِبُ إلَيْها انجذابَ مَنْ يَهْوِي بِنْ مكانٍ مرتفعٍ آمنٍ إلى مَهْواةٍ مُهْلكةٍ، تَسْتَقْبِلُ الهاوي إليها بالعذاب الأليم، والشقاء الدائم.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَنٰهُمْ تَقْوَنٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

أي: وفي مقابل أُولئك المنافقين المندسين ضمن جماعة المسلمين، يظهرُ في الصورة المؤمنون الذين اختاروا لأنفسهم بإراداتهم الحرّة الإيمانَ الصادق، فلم يسلكوا مسالك النفاق، فاهْتَدَوْا بهذا الاختيار الحكيم إلى الحق وصراط الله المستقيم، فانطلقوا في مسيرتهم في الحياة متّجهين ضمن حدود هذا الصراط، ابتداءً من أوّلِهِ، إيماناً وعملاً صالحاً.

لكنّ السالك في طريق الحقّ والهدى يظلُّ عُرضةً في رحلته في الحياة الدنيا للخروج عنه من ذات اليمين أو ذات الشمال، فهو بحاجة إلى مزيد من الهداية بالتوفيق والمعونة من الله، إذا استعان بالله وسأله التوفيق والسداد والرشاد، وصدَقَ في الطلب، فيزيده الله هُدًى، حتى يُكْمِلَ مسيرته في الحياة مُعَاناً موفقاً على مقدار صحة إرادته، وصدقه في الطلب والاستعانة بالله وحسن التوجّهِ في ابتغاء مراضي الله.

والهدى الذي يزيده الله عزّ وجلّ منه، يكون بفتح أبواب المعرفة له، فيزدادُ علماً بالله، ويزداد مما يُسْعِدُه في آخرته فهماً وبصيرة مشرقة، ويكون بإعانة الله له، على ذكره وشكره وحسن عبادته، والعملِ بمراضيه، واجتنابِ ما يُسْخِطُه في حركته وسكونه.

دلّ على هذا كلّه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُم هُدًى﴾.

وبعد تقلُّبِهِ في مختلف أعماله وتصرّفاته في الحياة مَهْدِيًّا، بعاملين:

فالأول منهما: إيمانُه وصدقُه ورغبته في الاستقامة على صراط الله، والتجاؤه إلى الله في أن يُمِدّه بالعون والتوفيق والسداد.

والآخر منهما: توفيق الله ومعونته له، وشرحُ صَدْرِه للعمل الصالح، وتنويرُ بصيرته لإدراك المعارف الرّبّانية.

بعد ذلك يُؤْتِيه الله عزّ وجلّ تَقْوَاهُ، وإيتاءُ هذه التقوىٰ يكونُ بمنحه مَلَكَةَ الاستقامة على ما يقيه من المعاصي والآثام، وذلك لأنّ الممارسة الطويلة على أي

عمل من الأعمال، وأيّةِ مهارةٍ من المهارات الجسدية أو النفسية أو الفكريّة يُكْسِبُ العادة، الّتي تكونُ مَلَكَةً تَصْدُرُ عنها ظواهرها السلوكيّة بالتّلقائيّة، دون تكلُّف زائدٍ ومعاناة، وهذا مُشاهَدٌ لدى كلّ أصحاب المهارات، حتى المهارات الفكرية والنفسية. والتقوىٰ في السلوك الباطن والظاهر تنطبق عليها هذه السّنّة من سُنَن الله في الأحياء، وسُنَن الله تتمُّ بخلقه في الأشياء وفي الأحياء.

وإيتاءُ هٰذِهِ التقوى يكون أيضاً بأن يَكْتُبَه الله عنده من المتّقين، فَيُعْرَفُ لدىٰ الملائكة بهذه الصفة، ويُلْقِي الله في قُلُوبِ الناس ما يُشْعِرُهُمْ بأنّه من المتقين، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما يَزالُ الرَّجلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حتَّىٰ يُكْتَبَ عند اللّٰهِ صِدِّيقاً».

وما يكتبه الله عنده يقذفه في قلوب عباده.

دلنا على هذه المعاني قوله تعالى:

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

* * *

* قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فهل ينظرون؟﴾:

أي: فهل ينتظرون؟

طرح هذا السؤال يدلُّ على أن المنافقين ينتظرون شيئاً، وأنّ الله عزّ وجلّ يقْطَعُ آمالهم ويُيْئِسُهُمْ من تحقيقِ ما ينتظرونه حتّىٰ قيامِ الساعة، التي ستأتي الناسَ وسائرَ الخلائق بغتةً، أي: مفاجأة، فقد أخفى الله عزّ وجلّ العِلْمَ بوقتها عن كلّ عباده في الأرض والسّماء.

فما هو الشيء الذي ينتظرونه؟

دلّ النصّ السابق من سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) على أنّ المنافقين كانوا يَتَربَّصُون، أي: ينتظرون أن تدور الدائرة على الرسول والذين آمَنوا معه، حتّى يكْشِفُوا حقيقتهم، وينْقلِبُوا صَراحةً ضدّ أُمّةِ الإيمان، مُناصِرين ومُوالِينَ أمّة الكفر الصريح.

فأبان الله عزّ وجلّ لهم وللمؤمنين أنّهم إذا كانوا ينتظرون شيئاً سيتحقّقُ بلا ريب، فإنّ ذلك الشيء ينْحَصِرُ في الساعة التي يكون بعد قيامها حسابُهم وفَصْلُ القضاءِ بشأنهم، ثم عذَابُهُمْ في نار جهنّم.

إنّهم يُنكِرُون الساعة ويومَ القيامة وما فيه من حساب وجزاء، فهم لا ينتظرون ذلك بتصوّرهم وإراداتهم، لكنّ واقِعَ انتظارهم لن يكون بعده إلّا ما سيكرهون، إنّهم ينتظرون شيئاً لا يتحقّق، ولكن الذي سيتحقق بعد انتظارهم هو الأمر الذي لم يكونوا يَنْتَظِرُونه ولا يَتَوَقَّعُونه.

فالبيانُ تحدّثَ عن واقع انتظارهم، وجاء لمرادهم منه فأيأسَهُمْ من وقوعه، بأسلوب حصر واقع انتظارهم في أمْرٍ حَتْمِيِّ الوقوع، وهي الساعة.

وهذا من بديع دمْجِ عِدّة بيانات في جملة استفهاميّة قَصِيرة:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ؟﴾.

نظير ما لو طمع جماعة من النّاس بمقدم فاتح جبّارٍ مثل «هولاكو» لينقذهم من خصومهم السّياسيّين في بلدهم الذين يُنَافِسُونَهُم في المصالح، بأُخُوّةٍ ورَحْمةٍ، فخرجوا لاستقبال هذا الفاتح الجبّار وجيشه، وقاموا ينتظرون، فجاءهم خبيرٌ فقال لهم: هل تنتظرون إلّا قطعَ رؤوسكم ونثر أشلاء أجسادكم للسباع؟ أي: إنّ ما تنتظرونه لن يتحقق لكم، ولكنّ الذي سيتحقّق هو أن الجبار وجيشه سوف يبْدَؤون بقتلكم وإبادتكم قَبْلَ أن يدخل بلادكم ويقاتل خصومكم.

فدلّ طرح هذا الاستفهام على نفي حصول ما ينتظرون بتصوُّرِهم المريض، وإثبات حصول شيء سيتحقق بعد واقع انتظارهم، وحَصْرِ واقع حال انتظارهم في حصول هذا الشيء.

وقد دلّ على الحصر النفيُ المستفاد من الاستفهام مع أداة الاستثناء «إلّا».

وإذْ قد ورد ذكر الساعة فإنّ من الحكمة الرّفيعة في البيان الدينيّ أنْ يُضاف إلى المقصود من ذِكْرِها بيانٌ عنها، يتعلّقُ بزمنها، وأماراتها، مع توجيه العظة لمن شاء أنْ يَذّكّر.

ــ أمّا زمنها فإنّها لا تأتي إلّا بغتةً، فقد أخفاه الله عن كلّ خلقه، فقال تعالى:

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ؟﴾

﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾: بدل اشتمالٍ من الساعة.

وجاء التعبيرُ بهذا الأسلوب هنا وفي الآية (٦٦) من سورة (الزخرف)، ولم يأت بأسلوب: هل ينظرون إلّا أنْ تأتيهم الساعة بغتة؟ لأنّ في تقديم ذكرِ السّاعة لفتَ نظرٍ إلى حقيقة السّاعة أوّلاً، فهذه معرفةٌ يُقْصَد تثْبيتُها ابتداءً، ثم يأتي موضوعُ وقتِ إتْيانها، فهي جزئيّةٌ معرفة تأتي في الدرجة الثانية بعد إثبات أصل قضيّة السّاعة، ومع هذه الإضافة الفكرية لم تزدْ عبارة النصّ حرفاً واحداً، إذْ لم يحصل في العبارة إلّا تقديم كلمة السّاعة، وهذه من بدائع القرآن.

ــ وأمّا أمارات الساعة، فقد قال الله عزّ وجل بشأنها في النصّ:

﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾:

أي: جاءتْ علاماتها، ومن هذه العلامات ما تحقّق في الواقع، كبعثة الرسول محمد ﷺ بالدّين الخاتم، وانشقاق القمر، ومن هذه العلامات ما أعْلَمَنا الله ورسوله به ممّا سيتحقّق، ومجيءُ العلم بهذه الأشراط على لسان الرسول المؤيّد بالمعجزات الباهرات هو بقوّة مجيئها في الواقع، على أنّ القرآن ببقائه محفوظاً وتلاوته في توالي العصور هو بمثابة بيانٍ ربّاني متجدّد، فكُلّما ظَهَرَ شَرْطٌ من أشراطِ السّاعة، يقترن به النصّ القرآني:

﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾.

يُضافُ إلى هذَيْن الأمرين أنّ القرآن من أساليبه أن يتحدّث عن الأمر المتحقق الوقوع في المستقبل بصيغة الفعل الماضي، للدلالة على أنّه لا بدّ أن يتحقّق، كما نقول لمن أطلق قذيفةً إلى هدفٍ معيّن، وهذه القذيفة محكمة التسديد: لقد أصاب

الهدف. ولو أنها ما زالت سائرةً في طريقها لم تُصِبْ هدَفَها، ومن هذا قول الله عزّ وجلّ في أول سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١﴾.

أمّا تفصيل أمارات الساعة فموجود في كتب الحديث وكتب العقيدة[1].

ـ وأمّا توجيه العظة لمن شاء أن يتذكّر منهم، فقد جاء في قوله تعالى:

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾:

أي: فكيف تكونُ نافعةً لهم ذكراهم للسّاعة، وصارفة عنهم عذابها، إذا لم تحصل لهم هذه الذكرى إلاّ بعد مجيئها.

إنّهم يومئذٍ لا يملكون أن يعملوا عملاً يَنْفَعُهم، فقد انتهت رحلةُ الابتلاء وجَاء يومُ الْحِسَاب والجزاء.

من أجل ذلك فالعاقل الحصيفُ الرَّشِيدُ هو الذي يتدارك أمره وهو في رحلة ابتلائه، فيعملُ فيها ما ينفعه عند ربّه في اليوم الآخر، يوم الحساب والجزاء، إذْ يُدْرِكُ أنّه إذا جاءت الساعة لم ينفعه من الإيمان والعمل الصالح إلاّ ما كان قد قدّمه قبل موته في الحياة الدنيا حين كان في رحلة الامتحان.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ۝١٩﴾.

يوجّه الله عزّ وجلّ في هذه الآية الخطاب للرّسول فلكلّ من يصْلُح للخطاب بمضمونها من بعده بصورةٍ إفراديّة، لأنّ مسؤوليّة كلّ مخاطب بها مسؤوليّة فرديّة تُجاه الله عزّ وجل.

(١) انظر بحث أمارات الساعة في كتاب «العقيدة الإسلامية وأسسها» للمؤلف.

والفاء في ﴿فاعلم﴾ جاءت تفريعاً على ما تضمّنه الكلام السابق في السورة، الذي تعرّض للكافرين، ولفئة المنافقين منهم، وللمؤمنين، وتَجْمَعُ هذه الأصنافُ الثلاثةُ جميع المكلفين، المأمورين بأن يعلموا دين الله لعباده، ويؤمنوا به، ويعملوا به.

وقد دلّت هذه الآية على جملة قضايا أصولٍ من قضايا الدين، وهذه القضايا بعضُها مذكور بصريح اللّفظ، وبعضُها مطويٌّ يُفْهَمُ بدلالات اللُّزوم العقليّ، وبالقرائن، وبما يُفْهَمُ اقتضاء من ترتيب الجمل المنتقيات اختزالاً من موضوعاتها، وبدلالات نصوصٍ أخرى موزعات في سور القرآن.

القضيّة الأولى:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾:

أي: فاعلم أنَّ الشأن العظيم الجليل في الوجود «لاَ إلَه إلاّ الله» أي: لا معبود يستحقّ العبادة كائنٌ في الوجود كُلّه إلاّ اللّهُ وحده، لا شَرِيكَ لَهُ.

والأمرُ بالعلم بهذه الحقيقة العظمىٰ من حقائق الدين يتضمّنُ ويستلزم ثلاث قضايا هي: طلبُ العلْم بهذه الحقيقة عِلْماً فكريّاً عقليّاً مقروناً بأدلّتها، وطَلبُ الإيمان بهذه الحقيقة إيماناً إراديّاً يتمّ بالاعتراف والتسليم القلبي مع الطمأنينة التامة وانعقاد ذلك بالعاطفة، وطَلبُ العَمل بمقتضىٰ توحيدِ الإلٰهيّة لله عزّ وجلّ. فالقضية الأولى من هذه القضايا الثلاث قد فُهِمَتْ من صريح اللفظ، والقضيتان الثانية والثالثة تُفْهَمان باللّزوم العقلي، وبقرينة عطف جملة ﴿واسْتَغْفِر لِذَنْبِكَ﴾ على جملة ﴿فاعلم﴾ لأنَّ الاستغفارَ إنما يكونُ بَعْدَ مخالفةٍ للعمل بمقتضىٰ «لا إلَه إلاّ الله» والعملُ بمقتضىٰ «لا إلَه إلاّ الله» لا يكون إلاّ بعد الإيمان بمضمون «لا إلَه إلاّ الله» إيماناً صحيحاً، فظهرت لنا بهذا التحليل القضايا الثلاث، فمنها ما هو مصرّح به، ومنها ما هو مطويّ.

وكلٌّ من العلْمِ والإيمانِ والعَملِ بمضمون «لا إلَه إلاّ الله» له مستويات، أدناها هو الذي يكون به أدنى الإيمان والنجاة من الخلود في النار، وأعلاها هو ما يكون به استحقاقُ الفردوس الأعلى في جنّات النعيم، المخصّصُ لخيرة عباد الله الصالحين، المصطفين الأخيار، من الأنبياء والصدّيقين ومن تبعهم بإحسان.

إنّ الْعِلْمَ بالله وكمالاته وصفاته الحسنىٰ وآثار قدرته وإرادته وحكمته كلّما ازداد ازْدَادَ العِلْمُ بمضمون «لا إلّه إلّا الله» وكلّما ازداد هذا العلم ازدادتْ نسبة الإيمان بمضمون «لا إلّه إلّا الله» وازداد الدافع للقيام بأنواعٍ من العبادات تستدعيها نسبة العلم والإيمان اللّذين ازدادا.

فمن الحكمة تُجاه هذه النِّسَب المتفاضلة ذواتِ الدرجات المرتقيات أن يكون الخطابُ في قول الله عزّ وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ موجّهاً لكلّ من يصلُحُ لأن يُخاطَبَ بمضْمُونه، فغير المؤمن يطالب بالعلم بها وبالإيمان والعمل من مستوى الدرجة الدنيا، والمؤمن يُطالب بمثل ذلك ولكن بأن يرتقي في درجات العلم والإيمان والعمل، بدءاً من درجته التي هو فيها، حتّىٰ الأنبياء والرُّسل مطالبون بزيادة العلم والإيمان والعمل بمضمون «لا إلّه إلّا الله»، ويشهد لهذا قول الله لرسوله محمد في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

وبهذا الفهم يسقط ما طُرِح من إشكال حول أمر الرسول بأن يعلم أنّه «لا إلّه إلا الله» مع أنّه عالم بذلك، إذِ الجواب أنّ مضمون «لا إلّه إلّا الله» قابلٌ دون حدود لزيادةِ العلم فالإيمان فالعمل.

القضية الثانية:

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

إنّ الأمر بالاستغفار ملاحظ فيه قضيةٌ مطويّةٌ في النّصّ سبق بيانها، وهي الأمر بالعمل بمضمون «لا إلّه إلّا الله» بعد الإيمان به.

ولكلّ أهل مرتبة من مراتب المؤمنين: «المتقين، والأبرار، والمحسنين» تكاليف مطالبون بها ليكونوا حقّاً من أهل تلك المرتبة، لكن بني آدم خطّاءُون جميعاً، فكلُّ أهل مرتبة تقع منهم خطايا بالنسبة إلى حقوق تلك المرتبة، فهم بحاجة إلى أن يستغفروا الله عزّ وجل من خطاياهم تلك، ليغفر الله لهم، فلا ينزلوا عن مَرْتَبَتِهم.

إنّ أهل مرتبة «الإحسان» مثلاً إذا ارتكبوا تقصيرات تقتضي إنزالهم عن هذه

المرتبة إلى مرتبة «الأبرار» مطلوبٌ منهم أن يستغفروا لذنوبهم حتى يُحافظوا على مرتبتهم بفضل الله وغفرانه، وهكذا إلى سائر المراتب ودرجاتها.

ومطلوبٌ من كلّ مؤمن بدءاً من الرسول ﷺ حتى آخر المؤمنين درجةً، أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، توثيقاً للرابطة الجماعية والأخوّة الإيمانيّة بين المؤمنين، وهذا من روائع الوحدة الجماعية الإيمانيّة.

القضيّة الثالثة:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾:

أي: والله يعلم حركتكُمُ التي بها تتصرّفون وتتقلّبون في الأعمال، ويَعْلَمُ مكانها وزمانها، ويَعْلَمُ سُكُونكم واستقراركم ومكانهما وزمانهما.

إنّ إثبات قضيّة العلم الربّاني بكلّ ما يصدُر عن العباد من حركة وسكون بعد الأمر بعلم «أنّه لا إلّه إلّا الله» والإيمانِ والعمل بمضمونها، يدلّ على أنّ التكليف يترتب عليه الحساب والجزاء، فهو يستدعي العلم بما يصدر عن المكلفين من أعمال صالحة وسيئة، فجاء ذكر العلم بعبارة:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾.

وفي اختيار المتقلَّب والْمَثْوَىٰ في هذا المقام إيجاز بديع، لأنهما يدُلّان على الحدث ومكانِه وزمانِه، كما جاء بيانه فيما سبق لدى شرح المفردات اللّغويّة، والتدبُّر الأمثل يقتضي هنا أن نحمل اللّفظ على كلّ معانيه التي يدلُّ عليها، إذ صيغة «متقلَّب» وصيغة «مَثْوَى» تصلح كلّ منهما لأن تكون اسم مكان واسم زمان ومصدراً ميميّاً[1].

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝٢٠﴾.

---

(١) انظر القاعدة الثامنة والعشرين، من كتاب «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ» للمؤلف.

يعرضُ الله عزّ وجلّ موقفَيْنِ متناقضَيْن أمام قضيّة واحدة:

الأول: موقف الذين آمنوا إيماناً صادقاً.

الثاني: موقف الّـذين في قلوبهم مرض النفـاق فما هـو أقلّ من النفـاق كضعف الإيمان، وعدم الصدق الكامل فيه.

أمّا القضيّة فهي قضية إنزال الأمـر الصريـح الواضـح البيّن الْمُحْكَم بقتال الـذين كفروا، لإعلاء كلمة الله، وتأمين الدعوة إلى دين الله، ونشر الحقّ والعدل في الأرض.

وقد كان موقف الذين آمنوا إيمانـاً صادقـاً بالنسبـة إلى هذه القضيّـة أنّهم كانـوا يقـولون من حين لآخـر مطالبين بتحضيض: لـولاَ نُزّلَتْ سُـورَةٌ بيّنَةٌ واضحـةٌ نُؤْمَـرُ فيهـا صراحةً بالتوجُّهِ إلى الأُمَمِ الكافِرة لقتالهـا، بغية إعـلاء كلمة الله، وتـأمين الدعـوة إلى دين الله، ونشر الحقّ والعدل في الأرض.

لكنّ موقف الذين كان في قلوبهم مرض النفاق فما هو أقلّ منـه، قد كـان موقفـاً مختلفاً، فلقَدْ كانوا إذا أُنزِلَتْ سورة محكمـةٌ بيّنةٌ واضحة لا غموض فيهـا، وجاء فيهـا ذِكْرُ القتال، بوصْفِه والـدّعوة إليـه، والحضّ عليه لاغتنـام الأجر العـظيم عند الله، ولـو لم يَقْتَرِنْ ذلك بما يجعلُه فريضةً لازمةً، هَلِعُوا وظهرَتْ على وجـوههم علامـات الهَلَعِ وذَلائِلُه.

فكانوا إذا تَلاَ الرسول ﷺ آيات القتال وهم حاضرون يستمعون، يُصابون بـالهلَع خوْفَ أن يُؤْمَروا بما هم به كافرون باطناً، أو بما لم يؤمنوا بعْدُ به إيماناً صحيحاً كاملاً، ويستَدْعِي منهم تعريضَ أنفسهم للقتل، وهم حريصون على الحياة، وهـذا الهلَعُ الذي تُصابُ به قلوبُهم ونُفوسُهم تدلّ عليه عُيُونُهم، إذْ ينْظُرُونَ إلى الرسول ﷺ مبْهُوتين نَـظَرَ الْمَغْشِيّ عليه من الموت، أي: كنَـظَر الذي انتـابَتْهُ إغْمَـاءَةُ مقدّمـات الموت، فجلّلَتْ بصـره، فشَخَصَتْ عيناه جـامدتين، أو صـارت تدوران بحَيْـرَةٍ على غيـر هُـدى، لأنّهم لا يستـطيعون أن يعتـرضوا بـألسنتهم، إذْ يخْشَوْنَ انكشـاف هُوِيّتهم للمؤمنين، فتَـظْهرُ انْفِعَالاتُهم الداخليّة أماراتٍ على وجوههم، وهذا شيءُ لا يملكـون منعه ولا دفعـه، إلاّ بالتدرب والممارسة الطويلة.

وبعْدَ بيان هذه الظاهرة المنافيـة لمقتضى الإيمان الصحيـح، والدّالّـة على وجود

مرضٍ داخلي في مركز الإيمان داخل القلب قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾:

أي: فقد اقترب منهم ما يكرهون، بمحاولتهم الخلاص من القتال الذي يكرهون، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾﴾.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾:

جملة مستأنفة، حُذِفَ منها أحَدُ رُكْنَي الإسناد فيها. والمعنى: المطلوبُ من المسلم في موضوع آيات القتال طاعةٌ وقولٌ معروف، أي: أن يُعلن الطاعة وأن يقول بلسانه قولاً معروفاً، والقولُ المعروف من مسلم صادق الإسلام هو ما يدلُّ على صدق إسلامه، كأن يقول: سمعتُ وأطعت، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللّهم أمدّنا بعونٍ من لدنك، اللّهم ثبِّت أقدامنا وانْصُرنا على القوم الكافرين، اللّهم اقضِ لنا الخير حيث كان الخير، واكتب لنا السلامة والعافية، ونحو ذلك، إنّه لم يدخُلْ بعْدُ معركة القتال حتّىٰ يُصابَ بالْهَلَع، وينظُرَ مثل نظر المغشيّ عليه من الموت.

لكنّ هؤلاء لا يستطيعون صرف الانفعالات المضادّة عن قلوبهم ونفوسهم، وتجاه الدعوة العامّة لقتال أوليائهم في الباطن، من المشركين واليهود والنصارى، إذ هم منافقون أو قريبون من النفاق، فالأمر بالنسبة إليهم أخْطَرُ منْ مُجرَّدِ كونهم يخافون على أنفسهم من الموت إذا خرجوا إلى القتال.

وإذْ كان هذا هو المعنى المراد قال الله تعالى:

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾:

أي: بعد إعلان الطاعة والقول المعروف قبل أن يجدّ الجدّ، يأتي في المستقبل احتمال صدور الأمر الجازم بالخروج الفعليّ إلى القتال، إذا عزَمَ أولياءُ الأمر وهم قادةُ المسلمين على الإلزام بالخروج للقتال، وعندئذٍ فقد يُفسِّرُ التخاذل بالجبْن، الذي

لا يُنَافِض الإيمان، أمّا الهلَعُ منذ نزول آيات القتال بوجه عامّ فهو من أمارات النفاق، أو الضعف الشديد في الإيمان المشوب بشوائب النفاق حتماً.

وهكذا أشار النصّ إلى أنّ الجبْنَ عن قتال الكافرين في أيّام المعارك لا يدُلُّ على النفاق، إذْ قد يكون ظاهرةً من ظواهر الضعف البشري، عند فريق من المؤمنين الصادقين في إيمانهم، فقال تعالى:

﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾:

أي: فلو صدقوا الله في قتال الكافرين حينئذٍ ولم يَضْعُفوا عن القتال بسبب الجبن، لكان ذلك الصدق خيراً لهم عند ربّهم، إذْ يكون أجرهم عنده عظيماً.

والمعنى: ولو لم يَصْدُقوا في القتال يوم المعركة لما كان ذلك دَليلاً واضحاً على كفرهم، لاحتمال أن يكون أثَرَ جُبْنٍ في قلوبهم، الأمر الذي لا يتعارض مع صحّة أصل الإيمان، وقد اشتهرت عبارة الصّدْق في القتال بمعنى بذل غاية الوسع فيه، لأنّه يدلّ حقّاً على طلب ثواب الآخرة وابتغاء مرضاة الله بصدق.

عبارةُ [عَزَمَ الأمْرُ] فيها إسناد فعل «عزَمَ» إلى «الأمر»، فالأمر هو الفاعل في هذه الجملة، والمرادُ من الأمر أمْرُ التوجيه الفعلي الجازم لقتال الكافرين، والمرادُ من العزم هُنَا الإرادةُ من مستواها الأعلى المعلَنَةُ من قِبَلِ وَليّ الأمْرِ بالإلْزام بالخروج للقتال.

فكيف يُسْنَدُ العزمُ الذي هو فعلُ وليّ الأمر، إلى المأمور به، وهو التوجُّه للقتال.

قال البلاغيون: هذا من المجاز العقلي، الذي يُسْنَدُ فيه الفعل أو ما في معناه لغير من هو له، ممّا يُلابسه بوجه من الوجوه، كالمفعول به، والمصدر والزمان والمكان والسبب.

وهنا أُسْنِدَ الْفِعْلُ إلى المعمول، إذِ الفاعل لفعل «عَزَمَ» هو وليُّ الأمْر، والمعْمُولُ هو الأمْرُ بالقتال، وقَدْ أُسْنِدَ فِعْل «عَزَمَ» إلى المفعول به، وهو «الأمر» أي: الأمْرُ بالقتال، فهو من قبيل المجاز العقلي، أمّا السّكّاكي فيدخل المجاز العقلي في عموم الاستعارة.

أقول: هذا الأسلوب المجازي هُو من المجازات الموجودة كثيراً في كلام العرب، وهو من روائع مجازاتهم.

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾.

في هذا معالجةٌ لأفكارٍ يتحدّث بها المنافقون في أنفسهم، ولا يُفْصِحون عنها بألسنتهم، ونَسْتطيع أن نستدلّ عليها من طريقة المعالجة.

إنّهم يقولون في أنفسهم: لِمَاذا نُؤْمَرُ بالقتال الّذي قَدْ يَنْجُمُ عنه إفسادٌ في الأرض، وخرابٌ للعمران وإهلاكٌ للحرث، والذين نُؤْمَرُ بقتالهم قد يكونون من أرحامنا، ومن أقرب الناس إلينا، فلِمَاذا نُقاتِلُهُمْ ونُقطّع أرْحامَنا؟!

والجوابُ على هذا الحديث النفسيّ الذي يتردّد في صدور المنافقين يكون بكشف ما سيكون من سلوكهم، لو كانوا هم أصحاب القوّة، وكانوا هم أولياء الأمر، وكانت الدولة القائمة دولَتَهم، فَمَاذا سيفعلون؟

إنّهم إن تَوَلّوا فسيكونون جبّارين في الأرض، لا تُمْسِكُ بهم رحمة، ولاَ تَرْدَعُهُم مبادىء.

إنّهم سيُفْسدون في الأرض أيّما إفْساد، وسيقطّعون أرحامهم، لتحقيق أغراضهم الشخصيّة، ومصالحهم الدنيويّة، ولا تكون لهم مبادىء ولا قِيَمٌ يدافعون عنها، إنّ قيمهم ستكون أهواءهم وشهواتهم ورغباتهم الخاصّة.

وقد عرض الله عزّ وجلّ عليهم هذا الجواب بأسلوب الاستفهام، فقال تعالى مخاطباً لهم:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ؟﴾!

وقد دلّت شواهد التاريخ على أنّ المنافقين ما ظهرتْ لهم دولة في الأرض، ولا قام لهم سلطان تولّوْا فيه على عباد الله، إلاّ أفْسَدوا في الأرض إفساداً عظيماً، وقطّعوا أرحامهم، فلم يَعْبَؤوا بقوميّة ولا دين ولا مبدأ، بل كانت أهواؤهم ومصالحهم الخاصة هي الموجّهة لهم، بأنانيّة مقيتة لا تعترف بمبدأ ولا بقيمة من القيم.

هكذا كان المنافقون في الشعوب النصرانية، وهكذا كان المنافقون في تاريخ

الأمّة الإسلاميّة، وقد شهدنا في عصرنا الحاضر الذي عشناه أمثلةً كثيرةً من تولّي المنافقين وإفسادهم في الأرض، وتقطيعهم أرحامهم، وقتلهم لقومهم بلا شفقة ولا رحمة.

فمن الحكمة في البيان أن يُعْرِضَ الله عزّ وجلّ عَنْهُمْ بعد أن وَجّه لهم الخطاب، ويخاطِبَ الذين آمَنُوا بشأنهم فيقول:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: أولئِكَ البعداء عن دائرة الإيمان، وعن الصّراطِ المستقيم، الّذِين طردَهُمُ الله فأخرجهم عن دائرة واسع رحمته، فهم في ضلالهم يترَدّدون ويتحيّرون، وفي الظُّلُماتِ يتقلّبُونَ، وفي المهالك يتخبطون.

لقد اختاروا لأنفسهم السَّيْرَ في الظُّلُمات، بعيداً عن دعوة الحقّ، وأنوارِ الهداية، فجرت فيهم سُنّةُ اللّهِ أنْ لا يسمَعُوا شيئاً من بيـاناتِ دعـوةِ الحقّ، وأن لا يَرَوْا شيئاً من معالم الهدى، كَمَنْ في أُذُنَيْـهِ صَمَمٌ وفي عينيـه عمىً بالنسبة إلى ذلك، وهـذا من كسبهم الذي جَنَوْا بـه على أنفسهم، إذ اسْتخدمـوا سُنَّة الله التي تُصِمُّهم وتُعْمِيهم باختيارهم، ولم يَسْتَخْدِمُوا سُنّة الله التي يكونون بها سميعين مبصرين.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾؟!.

إنّ قوله تعالى خطاباً للمنافقين:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾:

تضمَّنَ مخاطَبَتَهُمْ بجواب إسْكاتِيٍّ لَهُمْ يستند إلى ما في ضمائرهم وسرائرهم من رغبات إفسادٍ في الأرض وتقطيعٍ للأرحام لتحقيق مصالحهم وأهوائهم وشهواتهم الدنيوية.

أمّا الجواب الذي يتضمّن تبرير قتال الكافرين بالاستناد إلى مبادىء الحقّ والخير ومصالح الإنسانية جمعاء، فهو موزّع في سُور القرآن المختلفة، وعلى طالب الجواب

أن يتدبّر القرآن، لا أن يطرح شبهاته، ويدعها تتردّدُ في نفسه، دون أن يتدبّر القرآن وآياته، وهو يزعُمُ أنّه من المسلمين.

ولم يخاطبهم الله بهذا، بل أعْرَضَ عَنْهم وخاطب المؤمنين به، فقال تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ؟!﴾:

أي: ليتعرّفوا من خلال التدبّر على ما يدفعون به كلَّ شبهاتهم وأوهامهم.

والاستفهام هنا هو من قبيل الاستفهام التوبيخيّ لهم على إعراضهم عن القرآن وتدبّر دلالات آياته، وتركِ نفوسهم وعقولهم وقلوبهم عُرضةً لوساوس الشياطين، تطرح فيها الشبهات.

بعد هذا الاستفهام التوبيخيّ لهم قال تَعالَىٰ:

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: بل أحالُهُمْ التي هم عليها أنّ على قلوبٍ مريضةٍ في داخلهم أقْفالَها، الّتي ضَرَبتها على أنفسها، بكُفْرها وعنادها، بعد أن غلّقَتْ أبْوابَها، لتمنع واردات المعارف الدينيّة، والهداية الرّبّانيّة؟؟.

وهذا الاستفهام هو من قبيل الاستفهام التقريري، ويتضمَّن التوبيخ أيضاً.

والمعنى أنهم أقفلوا قلوبهم، وانْصَرفُوا عن تدبُّر القرآن، وظاهرٌ أنّ جعل القلوب ذاتَ أبواب وأقفال هو من قبيل الاستعارة.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾.

يكشف الله تعالى في هاتين الآيتين حالةَ ذوي النفاق الطارىء من عموم المنافقين، وهم الذين طرأ عليهم الاستقرار في النفاق بعد ضعف الإيمان الذي كانوا

فيه، وتبيَّنَ لهم به الهدى، وقد طرأ عليهم الاستقرار في النفاق بعد أن وجدوا أنفسهم مدعوّين للقتال، ويوجد في الذين سيقاتلونهم أقارِبُ وأرحامٌ لهم، وآخرون كانوا أولياءهم قبل الإسلام.

فوصف الله عزّ وجلّ هذه الفئة من المنافقين بأنّهم ارتَدُّوا علىٰ أدبارهم، أي: رجَعُوا إلى الكفر الذي كانوا فيه قبل الإسلام، بعد أن تبيّن لهم الهدىٰ الذي تلَقَّوْهُ من تعاليم الإسلام، وبيانات آيات الله في كتابه.

ولم يَرْجِعُوا إلى الكفر في ردّة ظاهرة، بل ارتَدُّوا إلى الكفر بردّةٍ باطنة، فكانوا بذلك منافقين.

﴿عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾:

«أدْبار»: جمع «دُبُر» ودُبُر كلّ شيءٍ عَقِبُهُ ومؤخّره، والشيْءُ الذي كانوا قد تركوه بالإسلام وراء أدبارهم، هو الكفر، وحين ارتَدُّوا سالكين جهة أدبارهم، ماشين في السُّبُل الّتي كانوا فارقوها، فإنهم قد انقلبوا بذلك على أدبارهم كافرين، لكنّهم لم يعلنوا كفرهم وردّتهم، بل استبقوا ظاهر انتمائهم إلى الإسلام، فهم بذلك قد نافقوا نفاقاً طارئاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾.

اسمُ موصول وصلته وهو اسمُ «إنَّ» التي جاءت لتأكيد الخبر، فما هو الخبر؟

الخبر هو جملة:

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾:

أي: إنّ الذي جعلهم يرتَدُّون على أَدْبَارِهِمْ هو أنّ الشيطانَ سَوَّلَ لَهُمْ وأَمْلَىٰ لهم.

ونتساءل: كيف سوّل لهم الشيطان وأمْلَى لهم؟

أقول:

إنّ الشيطان حرّكَ في نفوسهم مصالحهم وأهواءهم تُجاه أوليائهم السابقين من أهل الكفر، حينما وُجِد المثير، وهو دعْوَتهم إلى قتالهم.

وهنا تنطلق في أذهانهم سلاسل الأفكار، وتتقلّب في داخلهم أحاديثُ النفس، ومعلومٌ أنّ الشيطان يجري من ابْنِ آدم مجرى الدّم.

فيقولون: لمَاذا نُقاتل من كانوا أولياءنا بالأمس قبل أن نُسلم، فنقتلُ منهم ويقتلون منا؟ ولماذا نخسر مصالحنا معهم؟ أليس العيش معهم بسلام خيراً لنا في حياتنا؟ ما هذا الدين الجديد الذي مزّق وحدتنا، وشقّ صفوفنا، وجعل أمتنا أُمّتين، وعرَّضَنا للشقاق والخلاف والتقاتل؟ ألا يمكن أن تكون قصّة البعث والدار الآخرة مقولةً مخترعة؟ ألا يمكن أن يكون وجودنا مقتصراً على وجودنا في هذه الحياة الدنيا؟

وهكذا إلى سلسلة تساؤلات تسويليّة، صبر الشيطان طويلاً وهو يقذف بها واحدة بعد أخرى، فكلّما ولّد تسويلٌ شكّاً، انتقل إلى تسويل آخر، بأسلوب الخطوات المتدرّجة، فيكون الشيطان بذلك قد سوّل لهم، وأملى لهم، أي طوّل صبره لأجل إغوائهم، أو طوّل لهم الحبل لينطلقوا في سلاسل الأفكار التي تُغْويهم وتغريهم، وبهذا يكون بَدْءُ التسويل بالأفكار من الشيطان، ثم تتوارد سلاسل الأفكار الباطلة من تطويل الشيطان الحبل، حتى يسوموا في المرتع الذي يجعلهم فيه، كمن يأتي لدابته فيطعمها قبضة من نبات الأرض، حتى إذا استطابته وضعها في مكان ذلك النبات، وطوّل لها الرسن وأملاه لها، حتى ترتع بنفسها، لكنها لن تأكل إلاّ من النبات الذي وضعها هو فيه.

فما الذي جعل الشيطان يسيطر عليهم بالتسويل لهم والإملاء لهم، حتى أخرجهم من الإيمان إلى الكفر مرتدين منافقين؟

إنّه ضعف إيمانهم الذي أزلقهم فجعلهم يقولون لأهل الكفر من أوليائهم السابقين: المشركين واليهود والنصارى بمناسبة دعوتهم إلى قتالهم: سنطيعكم في بعض الأمر.

فالإنسان متى انزلق في الخطيئة الأولى سَهُل على الشيطان أن يستدرجه إلى ما بعدها، حتى يطرحه في الهاوية، إذا لم يتب من قريب، ويرجع إلى الطاعة والاستقامة.

أبان الله عزّ وجلّ هذا السبب الذي جعل الشيطان يتسلّط عليهم فيسوّل لهم

ويُمْلِي لهم، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ... ﴿٢٦﴾﴾.

المشار إليه بلفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو مضمون:

﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

والمعنى: ذلك كان بسبب أنّهم قالُوا للّذين كَرِهُوا ما نَزَّلَ الله، وهم أهل الكفر من المشركين واليهود والنصارىٰ، فهم الذين كرهوا ما نزّل الله على رسوله بوجه عام، وكرهوا ما نزّل الله من دعوة المؤمنين إلى قتالهم على وجه الخصوص.

ويظهر أنّ الكافرين استدرجوا من كانوا أولياءهم قبل الإسلام من ضعفاء الإيمان، فقالُوا لَهُمْ: كيف تقاتلوننا مع محمّد وأصحابه، وأنتم إخواننا قبل هذا الدّين، وكانَ بينا وبينكم مودّة وصفاء وموالاة؟! فأجابوهم بأنّهم لا يستطيعون أن يرجعوا إلى الكفر، ويحاربوا الرسول وأصحابه، وبَعْدَ مراوضة ومفاوضة، قالوا لهم مداراة لهم، ومحافظةً على مودّتهم: سنطيعكم في بعض الأمر، فقبلوا منهم ذلك.

ويمكن أن يدخل في بعض الأمر هذا إعلامُهم ببعض الأخبار والتحركات، وأنّهم إذا واجهوهم في القتال فإنّهم يراءُون بقتالهم ويكفّون عنهم فعْلاً.

فاتخذ الشيطان من هذا المنزلق سبباً يجُرُّ به هؤلاء إلى الكفر والنفاق.

ولمّا كان هذا الأمْر قد حدَثَ سِرّاً بين الفريقين، كان من الحكمة في البيان أن يختمه الله بقوله:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ﴾:

جمع «سِرّ» كما جاء في قراءة الجمهور.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾:

مصدر «أَسَرَّ» كما جاء في القراءة الأخرى.

فدلّت القراءتان على أن الله عزّ وجلّ يعلم «أسْرَارَهم» التي أسَرُّوا بها للّذين كرهوا ما نَزَّلَ اللّهُ من دَعْوة المؤمنين إلى قتالهم، ويَعْلَمُ حدثَ الإسْرار الذي كان منهم في زمانه ومكانه.

وبيانُ هذا العلم يتضمن إشعاراً بأنهم مُهَدَّدُونَ بفضيحتهم لدى الرّسول والمؤمنين، ومُهَدَّدُون بمعاقبتهم على ما كان منهم من اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يُسِرُّون إليهم بالمودّة، وببعض المعونة والمناصرة.

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

بعدما سبق من حديثٍ حولَ المنافقين وبعضِ صفاتِهم في السلوك الظاهر والباطن، اقتضت الحكمةُ الرّبانيّة في الدعوة والتربية، إنذارَهُمْ بما هو مُعَدٌّ لهم عندما تتوفاهم ملائكة الموت، إذْ يواجهون ساعتئذٍ أوّل عذابهم مع أوّل منازلهم في الآخرة.

إنّ ملائكة الموت إذا جاءتهم لتَقْبض أرواحهم، فإنَّ أوّل ما تلقاهم به من تعذيبٍ أن تضربَ وُجوهَهُمُ المنافقة الكاذبَةَ الّتي كانوا يستقبلون بها المؤمنين، زاعمين بها لهم أنّهم مؤمنون مثلهم، وهم كاذِبُون، وأن تضربَ أدْبارَهم الّتي ارتدُّوا عليها مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ، فكَفَرُوا بعد إيمانهم.

وقد جاء هذا الإنذار بأسلوب الاستفهام عن حالتهم حين يضرب الملائكة وجوهم وأدْبارهم ساعة قبض أرواحهم عند انتهاء آجالهم في الحياة الدنيا.

أي: فكيف تكونُ حالتُهم النفسية والجسدية حينئذ؟ إنّ جواب هذا الاستفهام يُدْرَك بالبداهة، فلا حاجة إلى التصريح به في البيان البليغ، إنَّ حالتهم تكون حالة الأشقياء التعساء الخاشعين المعذّبين المخزيين النادمين على ما كان منهم من كفر ونفاق.

هذا ما نفهمه من قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾؟!.

بعد هذا الإنذار أبان الله عزّ وجلّ سَبَب إنْزالِ الْعَذابِ بِهِمْ، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٢٨﴾.

المشار إليه بلفظ [ذَٰلِكَ] ما سبق بيانه من ضَرْب وجُوهِهِمْ وأدبارهم عندما تتوفاهم الملائكة. والباءُ في [بِأَنَّهُمْ] سببيّة، أي: بسبب أنهم، وجاء في الآية ذِكْرُ سببَيْن:

الأول: أَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ الله، وذلك لأنهم حين ارتدّوا على أدبارهم في الباطن كافرين، فإنّهم منذ تلك اللّحظة اتَّبَعُوا الأهواء والشهوات وخطوات الشياطين، وتعاليم المضلّين من الإنس والجنّ، وكلّ ذلك من الأمور التي تسخط الله عزّ وجلّ، لأنّها تناقضُ الدين الذي ارتضاه لعباده، دلّ عليه قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾.

الثاني: أَنَّهُمْ كَرِهُوا رِضْوَانَ اللّٰه، وذَلِكَ لأَنَّهُمْ كرِهُوا العمل بما أنزل الله لعباده من أوامر ونواهي، ومنها الإذن بقتال الذين كفروا لإعلاء كلمة الله وتأمين الدعوة إلى دينه، وإقامة الحقّ والعدل في الأرض، فهي الأمور التي رضيها لعباده، وجعل رضوانه على عباده لا يتحقّق إلّا إذا أطاعوه فيما رضي لهم من عمل.

فجمعوا بين الخسّتَيْن، المعصية التطبيقيّة العمليّة، والكراهية القلبيّة لدين الله والعمل بمراضيه، فكانوا بذلك كافرين، لا مُجرَّدَ عُصَاةٍ مؤمنين، إذْ كَراهيةُ رِضوان اللّٰهِ من نواقض الإيمان.

أمّا أعمالهم الصالحة التي عملوها في مدّة إيمانهم قبل ردّتهم إلى الكفر في الباطن فإنّ الله عزّ وجلّ يُحْبِطُها لهم، لأنّ الكفر كان السبب في إلغائها، ومعنى «يُحْبِطُها» يُبْطِلُها ويُلْغيها.

وكذلك يحبط الله أعمالهم التي يعملونها ضدّ المؤمنين، لمناصرة الكافرين الصرحاء الذين اتفقوا معهم على أن يطيعوهم في بعض الأمر، وينصرُ الله أولياءَه ضدّ أعدائه من الكافرين والمنافقين.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾.

هاتان الآيتان تُعالجان قضِيَّةَ إخفاء المنافقين هُوِيَّةَ أنفسهم، الّتي تُضْمِر الأضْغانَ، أي: الأحْقاد المشتملة على العداوة للإسلام والمسلمين، مع إرادة الكيد، وتَرَبُّص الفرص الملائمة لمحو الإسلام واضطهاد المسلمين وتمزيقهم وإبادتهم.

وهذه المعالجة تناولت تَحْذِيرَ المنافقين من كشف هوِيّتهم الحقيقية للرّسول وللمؤمنين، وتناولت الإلماح للمؤمنين بأنّ باستطاعتهم التعرّف عليهم بوسيلتين:

الوسيلة الأولى: التفرّس في سيماهم، وهي العلامات التي قد تظهر أحياناً على وجوههم وفي أعمالهم وتصرّفاتهم، ولكنّ هذه الفراسة تحتاج خاصيَّة استشعار يمنحها اللَّهُ لبعض عباده، وتقدّم ظنّاً، يمكن بالبحث والمتابعة للتصرفات السّرّية تأكيده أو رفضه.

الوسيلة الثانية: التعرّف عليهم من خلال أقوالهم التي لا يستطيعون أن يجعلوها صريحة واضحة تندفع بالتلقائيّة، بل لا بدّ أن تدخل فيها تعريضات وتلميحات ورمزيات وكنايات تكشف مراداتهم، وبالتالي تكشف هوِيّاتهم الحقيقيّة، وقد جاء التعبير عنها بعبارة «لَحْنِ القول».

فهي أمور ثلاثة قد يفضحهم الله عن طريقها:

الأمر الأول: وضعهم في اختبارات صعبة يكشف الله بها أضغانهم، فيعرفُ المؤمنون بذلك حقيقتهم.

دلّ على هذا الأمر قول الله عزّ وجل:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: إذا تركنا أمْرَ عقابهم منذ أوّل منازل الآخرة حتى بلوغهم الدرك الأسفل من النّار يوم الدين، أَحَسِبَ هؤلاء الذين في قلوبهم مرض النفاق أنْ لن يُعَرِّضَهُم الله في حياتهم الدنيا لاختبارات صعبةٍ على نفوسهم يُضْطرون معها أن يُعبّروا عن أضغانهم

المكتومة في صدورهم، بأعمالهم وأقوالهم، فينكشفوا للرّسول وللمؤمنين، فيعاملُون بمقتضاها على أنهم كافرون مرتدُّون، وعندئذ يُنزل المؤمنون بهم العقاب الملائم.

فعل «حَسِبَ» لم يأت في القرآن إلّا بمعنى الظنّ الكاذب والتوهُّم الضعيف المردود.

الأمر الثاني: السيما، وهي العلامة الظاهرة التي تدلّ على ما في الباطن، فمن سُنَّةِ الله في الوجود كلّه أنْ جعل لكلّ أمْرٍ مخْفِيٍّ في الباطن ما يدُلُّ عليه من الظاهر، يعرف هذا من يعرفه من أهل الفراسة أو الخبرة الطويلة، ويجهله من يجهله وهم الأكثرون.

إنّ لذي النفس الثعلبيّة علاماتٍ في وجهه وتصرّفاته تدلّ على ثعلبيّته، وللغضب الداخلي علامات في الظاهر، وللخوف علامات، وللحبّ علامات، وللكراهية علامات، وللثمرة الطيبة علامات، ولغيرها علامات، ولأحواض النِّفْط في باطن الأرض علامات في ظاهرها يستشعرها الخبراء، وللماء في باطن الأرض علامات في ظاهرها يدركها طائر الهدهد، وبعضُ المتنصتين على الأرْض بآذانهم من الناس، إلى غير ذلك.

فمن أسرّ سَريرة من خير أو شرّ ألبسه الله منها رداءً.

دلّ على هذا الأمر قول الله لرسوله:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾:

أي: ولو نشاء لأريناكَهُمْ بأشخاصهم، وعندئذ تكتشف أنّ لهم سيما في وجوههم وتصرّفاتهم تدلّ عليهم، فمن وهبه الله قدرة التفرس في الناس، أو كانَ ذا خبرة بأحوال المنافقين نتجت عن تعامله معهم، كان مؤهلاً لأن يعرف المنافق عن طريق العلامات الظاهرة التي خبرها في المنافقين، أو لديه القدرة الخاصة على استشعارها.

الأمر الثالث: لَحْنُ القول الذي يجري في أقوالهم في كثير من الأحيان، لأنهم لا يستطيعون دائماً أن يكونوا صُرحاء، يقولون ما هو في باطنهم، لذلك فهم يتكلّفون أن يقولوا في مجالس المؤمنين ما لا يعتقدون، ومع هذا التكلّف لا بدّ أن تغلبهم طبيعة

نفوسهم، فيظهر في فلتات ألسنتهم ما يدلّ على حقيقتهم، أو يقولون أقوالاً مزدوجة الدلالة، فإحدى الدلالتين لما يظهرون من إسلام، والأخرى لما يُبْطنون من كفر، والألمعيّ الْفَطِن يدرك الدلالة الأخرى التي يكشف بها نفاقهم وباطن كفرهم، ومن لحن القول الذي يصْدُر عنهم أنْ يُتابعوا اليهود في تحيّتهمْ للرسول والمؤمنين، فيقولوا: «السّام عليكم» بدل «السلام عليكم» فيخفوا اللام من لفظ السلام، والسّام هو الموت، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله في النص (٢٧) من سورة (المجادلة).

دلّ على هذا الأمر قول الله تعالى لرسوله:

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ﴾:

أي: ولتعرفنّهم في لحن القول الذي يقولونه أمامك، ولو لم نعيّنْهُمْ لك بأشخاصهم. ويظهر أنّ هذه المعرفة لا تختصّ بالرّسول، إلاّ أن الرسول أكثر فطانة من غيره، فمعرفته للمنافقين عن طريق لحن القول أسَدّ وأشدّ.

وأخيراً يوجّه الله عز وجلّ الرسول والّذين آمنوا للعمل على كشف المنافقين بمختلف الوسائل المتاحة، لا من أجل إدانتهم بالكفر ما لم يعلنوه، ولكن للحذر منهم، ولئلا يغترّوا بهم، فيقعوا فريسة مكايدهم وهم داخل صفوفهم، فقال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٠﴾:

أي: واعْمَلُوا للحذر من المنافقين بملاحظة علاماتهم، والتَفطُّن إلى لَحْنِ أقوالهم وتَتَبّع تصرّفاتهم، لاستبطان هوّيتهم الحقيقية، والله الذي يعلَمُ أعمالكم يُعينُكم ويهديكم، ويكشف أضغانهم لكم.

أقول:

ومع الأسف الشديد فقد سقط المسلمون في حبائل كثير من المنافقين، لأنّهم لم يتنبّهُوا لهذا التعليم والتوجيه الرّبّاني، وظنُّوا أنّ الأمر بمعاملة الناس بحسب ظواهرهم يلغي واجب التفرّس والتتبع والحذر الشديد.

إنّ معاملة الناس بحسب ظواهرهم تقتصر على دائرة الحكم عليهم بالرّدة أو الإسلام، ولا تتعداها لاتّخاذ بطانة من المشكوك في أمرهم، ولو بالتفرس والظنّ،

فتقريب المشكوك فيهم إلى مواطن معرفة الأسرار، أو إلى مراكز القيادة والتوجيه، أو إلى كراسيّ الاستشارة، ورطةٌ عظمى تُدمّر شؤون الأمة الإسلامية، وتسمح للأعداء بأن يتسلّلوا للقبض على نواصي إدارتها، وهي غافلة مُغرَّرٌ بها، تسير بغباء، بدعوى حسن الظنّ، والعمل بالظاهر.

وكم من عدوّ للإسلام أعلنَ إسلامه فقامت دعاية الفرحة به، ورفعته طائفة إلى مراكز القيادة والتوجيه، فكان الموجّه والمستشار الكبير لمشكلات المسلمين.

هذا غباء، ومخالف لوصايا ربّنا عزّ وجلّ، ويتضمّن خيانةً للأمة الإسلامية، وخيانةً للإسلام.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

بمناسبة الكلام المتعلّق بقتال الكافرين، وهلَع المنافقين لدى سماعهم الآيات التي يُذكرُ فيها القتال، وشبهاتهم التي تتردّد في صدورهم، وقد يظهر بعضها في لحن القول الذي يقولونه، وقد يرافق ذلك تساؤلات، منها: ألاَ يستطيع ربّنا أن يتخذ من لَدُنْهُ وسائل يَنْصُرُ بها الذين آمنوا على الذين كفروا، دون أن يعرّض أولياءه المؤمنين لقتال الكافرين؟.

وفي هذه الآية أبان عزّ وجلّ أنّ من أغراض أمر المؤمنين بأن يقاتلوا الكافرين، ابتلاءَ المؤمنين أنفسهم، فبهذا الابتلاء يتميّز المجاهدون بحسب مراتبهم ودرجاتهم من غير المجاهدين، ويتميَّزُ الصابرون بحسب مراتبهم ودرجاتهم من غير الصابرين، ذوي الهلع والجزع، وتنكشف أمور كثيرة تُميِّز طلاب الآخرة من طلاّب الدنيا، وتكشف المنافقين وأعمالهم، إلى غير ذلك، والخطابُ في هذه الآية موجّه لعموم المسلمين وفيهم المنافقون.

فأكّد الله عزّ وجلّ بالقسم وتوابعه إرادتَهُ الجازمة في امتحان المسلمين فقال:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾:

أي: ياأيها المسلمون جميعاً.

وأَبانَ أنّ حكمة الابتلاء ستستمرّ مع ظروف الحياة الدّنيا، حتى يعْلَمَ في تتابع الأجيال المجاهدين، أي: على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم، وحتى يعْلَمَ الصابرين، أي: على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم.

وحتّىٰ يعْلَمَ أخبار جميع المسلمين، في مجال نصرة الدين، ومقاتلة الكافرين، أي: حتّىٰ يعلم ما يكون من كلٍّ منهم من تصرّفات وأعمال، وسمّاها الله عزّ وجلّ أخباراً لأنها بعد الوقوع تغدو أخباراً كاشفة لما في السّرائر، فقال تعالى:

﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾.

وقد أكّد الله عزّ وجلّ وفصّل في هذه الآية بالقسم ما جاء في أوائل السورة نفسها من غير قسم ولا تفصيل، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ... ﴿٤﴾﴾.

إنّ وجود الإنسان في هذه الحياة الدنيا قائم على حكمة الابتلاء فيها، ليكون أساساً للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء بالفضل أو بالعدل في الحياة الأخرى يوم الدّين.

* * *

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

في ختام هذا النصّ من سورة (محمّد) الذي عالج قضايا تتعلّق بالمنافقين، قضت حكمة الله بأنْ يُبيّن لهم وللمؤمنين أنّ الاهتمام بمعالجتهم إنما هو من أجلهم، لإنقاذهم وإسعادهم، لا من أجله ولا من أجل دينه ولا من أجل رسوله، وذلك لأنّهم مهما عملوا من عمل وكادُوا من كَيْدٍ ومَكَرُوا مِنْ مكْرٍ، فإنهم لَنْ يضرُّوا اللَّهَ شيئاً في ذاته أو دينه أو رسوله، لأنّه عزّ وجلّ سَيُحْبِطُ أعمالهم، أي: يُبْطلُها ويلغي آثارها، أمّا الدين والقرآن فقد تكفّل الله بحفظهما، وأمّا الرسول فقد تكفّل الله بعصمته من الناس،

بقيت أعمالهم التي يعملونها ضدّ جماعة المسلمين، وهذه تدخل في حكمة الابتلاء، فإذا تقيد المسلمون بمنهاج الله واتبعوا تعاليمه في المنافقين، فسيكشفهم الله لهم وينصرُهم عليهم، وإن أهمل المسلمون منهاج الله، ولم يتبعوا تعاليمه في المنافقين، فمن سنّة الله أن يتركهم وشأنهم، وينزل فيهم عقابه، ويمكّن أعداءهم منهم، وهذا ما حصل في عصور تاريخ المسلمين.

فالمنافقون الذين تعرّضت لكشفهم ومعالجتهم معظم آيات هذا النصّ، هم الذين طرأ عليهم النفاق، من بعد أن أسْلَمُوا وتَبَيَّن لهم الهدى، فارتَدُّوا على أدبارهم كافِرين.

فمن المناسب أن تُبيّن آية الختام كُفْرَهُمْ في الباطن، وصدُّهُمْ عن سبيل الله، ومشاقتهم للرسول، وأن تُبيّنَ أنّ ذلك كلّه قد حصل منهم بعد ما تبيّن لهم الهدى، وأن تبني على هذه الأوصاف التي حدّدتها لهم قضيتين:

الأولى: أنهم لن يضرّوا الله بكفرهم وصدّهم ومشاقتهم الرسول شيئاً.

الثانية: أنّ الله سَيُحْبِطُ أعمالَهُمْ ضدّ دينه وكتابه ورسوله، مهما كادوا ومكروا مَكْراً كُبَّاراً داخل صفوف المسلمين.

فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾:

أي: إنّ هؤلاء الذين كفروا مرتدين عن الإسلام في الباطن، وظلّوا محافظين على انتمائهم للإسلام في الظاهر.

﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أي: أعرضوا عن دين الله وامتنعوا عن متابعة المسير فيه، وربّما منعوا غيرهم أيضاً عن ذلك سرّاً.

﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾:

أي: وعادوا الرّسُول وخالفوه، وجعلوا أنفسهم باطناً في شقٍّ غير شقه.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾:

أي: من بعد أن أسلموا ورأوا وضوح صراط الله المستقيم، وتبيّن لهم أنه حقّ وخير ورشاد، وأن النور يملؤه.

﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾:

أي: في ذاته، أو دينه، أو كتابه أو رسوله.

﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾:

أي: وسيبطل ويلغي أثر أعمالهم التي يعملونها بالكيد والمكر عن طريق النفاق، ليحفظ دينه وكتابه ورسوله والمؤمنين الصادقين الملتزمين منهاج الله وتعاليمه وسنة رسوله.

وانتهى النص

• • •

النصّ الحادي والعشرون

وهو من سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول)

«السورة الخامسة عشرة من التنزيل المدني»

الآيـات مـن (١١ ـ ١٧)

حـول موقف المنافقين وخيـانتهم
في أحـداث إجـلاء يهـود بني النضـير

قال الله عزّ وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧)﴾.

* * *

(١)
القراءات المتواترة في هذا النصّ (من الفرش)

* في الآية (١٤):

(١) قرأ جمهور القُرَّاء العشرة: [مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ] جَمْع «جِدَار».

وقرأ ابن كثير المكي وأبو عمرو البصري: [مِنْ وَرَاءِ جِدَارٍ] بالإفراد. فدلّت القراءتان على أنّهم إنْ كانوا قلّة يكفيهم جدار واحد، فإنّهم لا يقاتلون إلّا من وراء جدار، وإنْ كانوا كثيرين يحتاجون جُدُراً كثيرة، فإنَّهُمْ لَا يُقَاتِلُونَ إلَّا مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ.

* في الآية (١٦):

(١) قرأ جمهور القرّاء العشرة: [إِنِّي أخافُ] بإسكان الياء من [إِنِّي].

وقرأ المدنيان نافع وأبو جعفر، والمكيّ ابن كثير، والبصريّ أبو عمرو: [إِنِّيَ] بِفَتْح الياء.

والقراءتان لغتان في ياءِ المتكلّم.

* * *

(٢)
موضوع النصّ وسبب نزوله

تعرّض هذا النصّ لبيان ما كان من المنافقين من خيانة للرسول وللمؤمنين، إذْ بعثوا إلى يهود بني النضير يشدّون أزرهم، ويَعِدُونهم بالنصر، حين حاصرهم الرسول وأصحابه، ثم أجلاهم، لأنّهم دبّروا أمر قتله غيلةً وهو في حيّهم.

ودار النصّ حول كشف خيانة المنافقين هذه، وما يتطلّبه البيان الربّاني بشأنها يومئذٍ.

سبب النزول:

لا خلاف في أنّ سورة (الحشر) نزلت بمناسبة ما كان من يهود بني النضير من خيانة ونقض للعهد، بمحاولتهم اغتيال الرسول ﷺ في ديارهم، فحاصرهم، وألقى الله في قلوبهم الرّعب، ثم طلبوا إجلاءهم، فوافقهم.

فمناسبة إنزال الآيات الّتي تكشف موقف بعض المنافقين الخائن خلال تلك الأحداث، تابعة لإنزال السورة كلّها.

لذلك كان ابن عبّاس يسمّي سورة «الحشر» سورة «بني النضير» كما روى البخاريُّ ومسلمٌ وغيرهما.

خلاصة القصة:

لمّا قدم الرسول ﷺ المدينة، وقامت فيها النواة الأولى لدولة الإسلام والمسلمين، كتب لليهود فيها عهداً أمَّنَهُمْ فيه على أرواحهم، وأموالهم، وَأعراضهم، وحرّياتهم الدينيّة، بشرط ألاّ يغدروا، ولا يخُونوا، ولا يُعِينُوا أحداً على المسلمين، ولا يَمُدُّوا يداً بأذى، لكنّهم ما لبثُوا حتى خالفوا في كلّ ذلك.

فكان الرسول ﷺ يعاقب من ينقض العهد منهم أوّلاً بأول، بحسب قبائلهم، ولا يُعامِلُهم جميعاً بخيانة قبيلة واحدةٍ منهم.

فخانت يهود بني قينقاع، فحاصرهم الرسول وأصحابه، وألقى الله الرعب في قلوبهم، ونزلوا بعد محاصرته لهم خمس عشرة ليلة على حكمه، فتوسط من أجلهم رئيس المنافقين «عبد الله بْنُ أبي بن سلول» لدى الرسول، وكانوا حلفاءه وحلفاء قبيلته الخزرجيين سابقاً، فاكْتَفَى الرسول بإجلائهم عن المدينة، فخرجوا منها إلى الشام، ونزلوا بأذرعات، ولم يلْبثوا حتّى هلَكَ أكثرهم.

واستمرّ الرسول ﷺ يعامل سائر اليهود في المدينة بحُسْنِ الجوار، وبمقتضى بنود العهد والموادعة، في الكتاب الذي كان قد كتبه لليهود، منذ قَدِم المدينة.

وقد تضمّن الكتاب إقرارهم على أوضاعهم الأولى، ومنها الاستمرار على ما كانوا عليه مَعَ عَرَب المدينة في الدّيات، فهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، ونظراً إلى الأحْلافِ التي كانت بين عرب المدينة ويهودها، فإنّهم كانوا يشتركون في دفع الديات، وقد أقرّ الرسول ﷺ هذا من أعرافهم.

ودعت المصلحة الأدبيّة أن يدفع المسلمون دية قتيلين مشركين من بني عامر، قتلهما أحد المسلمين، واسمه: «عمْرو بن أُمَيَّة» وكان معهما عقد من رسول الله ﷺ لم يعلم به عمْرو.

وقد فعل «عمْرو بن أميّة» ما فعل انتقاماً لوفد المسلمين، الّذين ذهبوا إلى بني عامر، بجوار سيّدهم «أبي براء بن مالك» وكانوا سبعين رجُلاً، يحملون معهم بطلب من سيّدهم «أبي براء بن مالك» كتاب رسول الله ﷺ، ولكنّهم لمّا وصلوا إلى القوم عدا عليهم منهم «عَامِرُ بن الطُّفيل» واستصرخ على المسلمين بعضَ القبائل، فأجابوه، وأحاط بالمسلمين، فقتلهم كلّهم، ولم يَسْلَمْ منهم إلاّ «كعبُ بن زيد الأنصاري» فقد تركوه وبه رمَقٌ، فعاش حتّى قُتِلَ يومَ الخندق.

إلاّ أن النبيّ ﷺ ـ مع ذلك ـ رأى أن يدفع دية القتيلين من بني عامر، لأنّ معهما عقداً منه، فقال لعمْرو بن أمية: «لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ لأَدِيَنَّهُمَا».

وعملاً بالأعراف والأحلاف المتبعة، في جمع الديات من القوم ومن أحلافهم، فقد جمع الرسول ﷺ من المسلمين ما جمع، وخرج مع نفرٍ من أصحابه، فيهم أبو بكر، وعمر، وعلي، إلى بني النضير، وطلب منهم أن يُشَارِكوا في دية القتيلين، لِيُشْعِرَهم بالتزامه بكتاب العهد، وبِحُسْنِ الجوار، وبسلامة نيّته نحوهم، وبأنّ إجْلاءَ بني قينقاع قد كان بسبب ما كان منهم من شرٍّ ونقضٍ للعهد.

فقال رؤساء بني النضير: «نعم يا أبا القاسم، نُعِينُكَ على ما أحببت، ممّا استعنت بنا عليه».

وذهبوا ليفكروا فيما يدفعون من المال، مساهمة في دية القتيلين، وخلا بعضهم ببعض، ورسولُ الله ﷺ قاعدٌ إلى جنب جدارٍ من بيوتهم، مع النفر من أصحابه.

فقال اليهود في خلوتهم: «إنّكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فَمَنْ رجُلٌ يَعْلُو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرةً فيريحنا منه؟».

فانتدب لذلك «عمرو بن جَحَّاشٍ بن كعب» أحد يهود بني النضير، فقال: «أنا لذلك» فنهاهم عنه أحد أحبارهم، وهو سلاّمُ بن مِشْكَم، وقال لهم: «هو يعلم» فلم يقبلوا منه.

وصعد «عمْرو بن جحّاش» ليلقي على الرسول ﷺ صخرة يغتاله بها، فنزل على رسول الله ﷺ الوحي من السماء بما أراد القوم، وأنّ اليهود قد ائتمروا به ليقتلوه،

وطلبَ مِنْهُ الانسحاب في صمت، فقام وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتّى آتيكم، وخرج راجعاً إلى المدينة دون أن يُخْبِر أصحابه بالأمر، وظنّوا أنّه قد ذهب لبعض حاجته، وهو عائد إليهم.

فلمّا طال انتظار أصحاب الرسول قاموا في طلبه، فالْتَقَوْا برجُلٍ مُقْبلٍ من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيتُه داخلاً المدينة.

فأقبل أصحاب الرسول ﷺ حتّىٰ انتهَوْا إليه، فأخبرهم الخبر، وبما كانت اليهود قد دبّرت من الغدر به، وشاع في المدينة خبر المكيدة التي دبّرها يهود بني النضير، لقتل الرسول غيلة وغدراً، وضجّ المسلمون بالتذمّر، وأخذ اليهود يلوم بعضُهم بعضاً على هذه الجريمة الشنعاء، ولم يُنكروا مكيدة الغدر بالرّسول.

عندئذٍ أمر الرسول ﷺ بالتهيُّؤ لحرب بني النضير، والسّير إليهم بعد الذي كان منهم، واستعمل على المدينة «ابْنَ أُمِّ مكتوم».

وسار بالمسلمين في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، حتّى نزل بهم، فتحصّنُوا من المسلمين في حصونهم، وحاصرهم رسول الله ﷺ حصاراً دام ست ليالٍ.

وفي هذه الأثناء لعبت أصابع النفاق الموالية لليهود، فبعث إليهم رهطٌ من المنافقين، منهم: «عبد الله بن أبي بن سلُول» رئيس المنافقين في المدينة و«وديعة، ومَالِكُ بنُ قَوْقل، وسُوَيد، ودَاعِس» أن اثبتُوا وتمنّعُوا، فإنّا لن نُسْلمكُمْ، فإن قُوتلْتُم قاتلنا معكم، وإنْ أُخْرِجْتُمْ خرَجنا معكم.

فانتظر يهود بني النضير منهم أن يَنْصُروهم فلم يفعلوا، وخافوا على أنفسهم، وقذف الله الرُّعب في قلوبهم، فسألوا رسول الله ﷺ أن يُجْلِيهم كما أجلَىٰ بني قينقاع، ويكُفَّ عن دمائهم، على أنّ لهم ما حملت الإبلُ من الأموال إلّا السلاح، فوافق الرسول على ذلك، فاحتملوا من أموالهم ما استقلّت به الإبل، فكان الرجلُ منهم يهدم بيته عن نِجَاف[1] بابه، ليحمله معه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى

(١) نِجَافُ الباب: الخشب الذي يلصق بالجدار عند فتحه الباب، من الجانبين ومن الأعلى.

خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وأنزل الله فيهم وبمناسبة ما جرى من هذه الأحداث سورة (الحشر).

* * *

(٣)
المفردات اللّغوية في النصّ

﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

استفهام عن عدم وجود الرُّؤية، بمعنى العلم، والغرضُ منه الإعلام بالمسْتَفْهَم عنه، أو لفتُ النظر إليه لمعرفته، أو التَّنبيهُ عليه لاستحضاره في الذهن، تمهيداً لبناء ما يراد التعريفُ به وبيانُه من قضايا تتعلّق به.

والخطابُ موجّه لكل مؤمن بأسلوب الخطاب الإفرادي، ومع هذا الخطاب يَسْمَع المنافقون، وإخوانهم من الكافرين الصرحاء، فيحذر من يَحْذَر، أو يَتُوب من يتوب، أو يكفُّ من يكف، ويعلم الجميع أنّ الله لا يخفىٰ عليه شيء.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾:

أي: إلى الذين سبق منهم النفاق، فهو مستمرٌ فيهم، وبمقتضاه يكون منهم تصرّفات منافية لمقتضى الإيمان، وعُدّي فعل «ترى» بحرف الجر «إلى» لتضمينه معنى فعل «تنظر» فالمعنى: ألم ترَ ناظراً إلى الذين نافقوا.

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾:

أي: ليهود بني النضير الذين كفروا بالرسول محمّد وبما جاء به عن ربّهم من الحقّ والْهُدى، وجعلهم الله إخوانهم لأنّهم اشتركوا معهم في هذا الكفر، إذِ المنافقون كافرون باطناً بمحمّد وبما جاء به عن الله.

﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾:

أي: نُقْسِمُ لكم لَئِنْ اخرجكم محمّد إذا أجهدكم الحصار، ولم تستطيعوا مقاتلة أصحابه، لنَخْرُجَنَّ معكم. اللام في [لَئِنْ] موطئة للقسم، واللاّم في [لَنَخْرُجَنَّ] واقعة في جواب القسم، وجوابُ القسم سدّ مسَدّ جواب الشرط.

﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾:

أي: ولا نُطِيعُ في شأن حربكم وقتالهم، أو إخراجكم، أو سلبكم أحداً أبداً، لا محمّداً وصحبه، ولا غيرهم، فأنتم إخواننا وحلفاؤنا.

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾:

أي: والله يَعْلَمُ عِلْم شهود لأحوالهم ظاهراً وباطناً، ويقدّم شهادتَهُ بذلك في بيانه للمسلمين المؤمنين. والقول الذي يشهد الله به هو: إنَّهُمْ لكاذبون أي: فيما قالوا لإخوانهم من أهل الكتاب «يهود بني النضير».

فعل «شَهِد» يأتي بمعنى «حَضَرَ» ويأتي بمعنى: أخبر بأنه يعلم بأن الواقع هو ما قَدَّمه من خبر عِلْمَ شهودٍ، أي: حضور، والحاضر يُدْرِك ما حضره بحواسه.

﴿ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ﴾:

أي: ولئنْ حَضَروا المعركة لِنُصْرَتِهم لَجبُنوا عن مواجهة المؤمنين، ولأداروا ظهورهم فارّين هاربين.

يأتي فعل «وَلَّىٰ» بمعنى «استقبل» وعلى هذا فمعنى «لَيُوَلُّنَّ الأدْبار»: لَيَسْتَقْبِلُنَّ الأدْبارَ فارين.

ودُبُر كلّ شيءٍ: عقبه ومؤخره، وجمعه «أدبار».

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾:

أي: لا يفهمون الأمور فهماً سديداً عميقاً. الفقه في اللّغة: الفهم المؤدّي إلى العلم بحقيقة الأمر وباطنه، يقالُ: فَقِهَ الرجل إذا فَهِمَ وعلم، ويقال: فَقُهَ بضمّ القاف، إذا تمكن من الفهم والعلم، حتى صار ذلك ملكةً له، وذلك في الموضوع الذي صار فيه فقيهاً، وغُلِّبَ الفقه في الدلالة على علوم الدين، لأنها أشرف العلوم التي تُفْهَمُ وتُعلم، ويدُلُّ الفقه على فهم المعاني الدقيقة والخفيّة.

﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾:

شَتَّىٰ: جَمْعُ شَتِيت، أي: متفرّق غير مجتمع، والمعنى: وقلوبهم متفرّقة غير مجتمعةٍ على رأي واحد، أو عاطفة واحدة.

﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾:

العقل يأتي بمعنيين، بمعنى الإمساك بالمعرفة في الأداة العاقلة داخل القوة الإدراكية. وبمعنى ضبط النفس عن اتباع الهوى بإرادة حازمة.

واليهود الذين لم يسلموا لله ولرسوله محمّد لا يعقلون على المعنيين، فهم لا يمسكون في الأداة العاقلة لديهم ما قد يصلون إليه من معارف تخالف تحريفاتهم وأهواءهم، ولا يَضْبِطون نفوسهم عن اتّباع الهوى بإرادة حازمة.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾:

المراد يهود بني قَيْنُقَاع الذين أجلاهم الرسول ﷺ أوّل من أجلىٰ من اليهود في المدينة.

﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾:

أي: سُوء عاقبةِ أمْرِهم. الْوَبَالُ في اللغة: الشّدّةُ، والثِّقَلُ، وسُوءُ العاقبة.

* * *

(٤)
مع النّصّ في التحليل والتدبُّر

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ . . .﴾.

تتحدّث هذه الفقرات من هذا النصّ الموضوع للتدبّر، عن ظاهرة من ظواهر نفاق الذين مَرَدوا على النفاق في المدينة، وعلى رأسهم «عبد الله بنُ أبي بْنُ سلول» وهي ما كان منهم من ولاء في السّرّ ليهود بني النضير، حين حاصرهم الرسول، كما جاء بيانه في القصة التي سبق ذكرها في سبب نزول سورة (الحشر).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾:

أي: ألم تَرَ نَاظراً إلى الذين نافقوا، وجاءت تعدية فعل «ترى» بحرف «إلى» لتضمينه معنى فعل «تنظر» والغرض تأكيد الحث على المطلوب، فالاستفهام هنا ليس لطلب الفهم، بل هو مستعمل مجازاً لأغراض أخرى، منها ما يلي:

(١) الإعلام بالمستفهم عنه وبيانُ حصوله.

(٢) لفت النظر إلى المستفهم عنه لمعرفته.

(٣) التنبيه على المستفهم عنه لاستحضاره في الذهن.

وكلّ ذلك يكون بمثابة التمهيد لما يراد التعريف به وبيانه من قضايا تتعلّق بالمستفهم عنه.

المراد: اعلم علماً بيّناً واضحاً شبيهاً بالذي يُدْرَكُ بالحسّ البصري، أو وَجِّه نظرَكَ للمعرفة، أو تَنَبَّهْ، أو أحضرْ في ذاكرتك، يَا من له بصيرة من كلّ من يَصْلُح للخطاب، ما جرى من الذين مردوا على النفاق في المدينة، وخُذْ حِذْرَك منهم، وحاذر أن تسلك مسالك النفاق.

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾:

أي: حالة كونهم يقولون لإخوانهم المشاركين لهم في الكفر الذي عقد بينهم أُخُوَّةً خاصّةً، قائمة على الاتحاد في الكفر برسول الله محمّد وبما جاء به عن ربّه، والمراد من إخوان المنافقين هنا يَهُودُ بني النضير، وقد وصفهم الله بقوله: الذين كفروا من أَهْلِ الكتاب، وقد دلّت المناسبة والقرائن على أنهم يهود بني النضير، فلم يمنع وصفهم بأنّهم من أهل الكتاب أن يوصفوا أيضاً بأنهم كافرون، لأنّ من كفر ببعض ما يجب في دين الله الإيمانُ به فهو من الّذين كَفَروا، ولو كان مؤمناً بعناصر أخرى من أركان الإيمان، لأنّ الإيمان الذي يُخرج من كلّ دائرة الكفر هو الإيمان بكلّ العناصر التي يجب الإيمان بها في دين الله، أمّا من يؤمن ببعضها ويكفر ببعضها فإنّه يُحْكَمُ عليه بأنّه كافر، على أنّ الكفر له منازل ودركات، بعضها أخسّ من بعض، وأنْزَلُ من بعض.

ونفهم من النصّ أنّهم كانوا يُكَرِّرون لهم القول، دلَّ على هذا التكرير استعمال الفعْل المضارع، إذ لو كان مرّةً واحدة لكان المناسب أن تكون عبارة النصّ: إذْ قالوا لإخوانِهِمْ من أهل الكتاب.

فماذا كان يقول المنافقون لإخوانهم هؤلاء حين حاصرهم الرسول ﷺ وأصحابه؟

لقد جاء في النصّ بيان ثلاث مقالات:

المقالَة الأولىٰ:

﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾:

أي: نُقْسِمُ لكم لَئِنْ أُخْرِجتُمْ من مساكنكم في المدينة، بأن عجزتم عن المقاومة والمواجهة، واضْطُرِرْتُم إلَىٰ قبول الْجَلاَء، لَنَخْرُجَنَّ معكُمْ من ديارنا ولنرافقنكم في جلائكم.

هذه المقالة تدلّ على مقالة مطوية، نستطيع فهمها دون إجهاد فكري، وهي: اثبُتوا ولا تجبنُوا وقاوموا الحصار، فنحن معكم وسَنَدٌ لكم ضمن صفوف أصحاب محمد. وقد جاء في قصّة الحادثة في السيرة، أنهم قالوا لهم: اثبُتوا وتمنَّعُوا فإنّا لن نُسْلِمَكُمْ.

المقالة الثانية:

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾:

أي: ونحن لا نُطيع في قبولِ الإضرار بكم، وتَرْكِ موالاتكُمْ، أو عدم الخروج معكم أحداً كائناً مَنْ كان، على مدى المستقبل من الزمان، ولو كان من الأهل والذرّيّة.

هذا المحذوف في عبارة [فيكم] يُفْهَمُ من سِياق الكلام وسباقه، ومن قرائن الحذْث، فمن أسلوب القرآن حذفُ ما يمكن إدراكه ذهناً بالقرائن أو بإشارات بعض الألفاظ.

ومن الظاهر أنّ هذه الجملة غير داخلة في الْمُقْسَمِ عليه، بل هي معطوفة على الجملة السابقة، فهي من مقول القول، وغير مؤكّدة بالقسم، لكن إذا كانت مؤكَّدَةً مِنْ

جهة المعنى لجملة ﴿لنخرُجَنَّ معَكُمْ﴾ فإنها تكون من توابع المقسَم عليه.

المقالة الثالثة:

﴿وإن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾:

أي: وإن قُوتِلْتُمْ من قبل محمد وأصحابه، لنؤيِّدنَّكُمْ ولنُعاونَنَّكُمْ ولنُدافِعَنَّ عنكُمْ، ولنكونَنَّ شُركاءكم في جبهة القتال، أو مُخذِّلين عن مقاتلتكم، ونحن داخل صفوف المسلمين.

وفي التعقيب على هذه المقالات التي كرّر المنافقون قولها لإخوانهم في الكفر من يَهُود بني النضير، جاء في النصّ القول التالي:

* قول الله عزّ وجل:

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

لقد جاء في مقدّمة هذا التعقيب الكاشف لأحوال المنافقين المباينة لأقوالهم، بيانٌ عامٌ ينْسِفُ كلّ مقالاتهم نَسْفاً، وفي هذه المقدمة يقول الله عزّ وجل:

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾:

أي: فلا صحّةَ مطلقاً لأيّة مقالةٍ من المقالات الثلاث التي قالُوها، فلا ينبغي الاهتمام بمواعيدهم لإخوانهم من الكافرين، ولا ينبغي أن تَفُتَّ مقالاتُهم في أعضاد المؤمنين، فالمنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قُلُوبهم.

ولمّا كان الله عزّ وجلّ يَعْلَمُ حقيقة المنافقين علْمَ شُهُودٍ لمَا في صُدورهم، فإنّه إذا أَخْبَرَ بما يعلَمُ عنهم فإنّهُ يُخْبِر خَبَرَ شهادة، وهو لا يُحَدِّثُ حديث ناقل أخبارٍ عن غيره.

إنّ خبر الشهادةِ خَبَرُ مُشاهِدٍ حاضِرٍ مُعاين، فليطْمَئِنَّ الرسول والمؤمنون، ولْيَكن

إخوان المنافقين من الذين كفروا من أهل الكتاب وغيرهم على علم بحقيقتهم. ولْيَعْلَمِ المنافقون أنْفُسهم أنّهم لله مكشوفون، وعند المؤمنين بصفاتهم مفضوحون.

وبعد البيان العامّ المؤكّد بصيغة «يشهد» وبأداة التوكيد «إنّ» وبلام الابتداء المزحلقة إلى الخبر «لَكَاذِبون» جاء في النصّ تفصيل كذبهم في مقولاتهم الثلاث، بعباراتٍ مؤكّدةٍ مسوقة بأسلوب القسم في كلّ واحدة منها.

وقد جاء هذا التفصيل بأسلوب طرح الاحتمالات التي يُتَصَوَّر حصولُها وبيانِ ما سيكون من المنافقين مع كلّ احتمال منها.

الاحتمال الأوّل: أن يَتَعرَّضَ إخوانُهم الذين كفروا للإخراج والطرد من المدينة، وموقف المنافقين عند حصول هذا الاحتمال، هو ما أبانه الله بقوله:

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾:

أي: فهم كاذبون في قولهم لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ وقد أثبتَ الواقع ذلِكَ، فقد طلب بنو النضير من الرسول ﷺ الجلاء، فوافق على جَلاَئِهِم، ولم يَخْلُ معهم من المنافقين أحد، ولم يستطع المنافقون أن يدافعوا عنهم، ويثبّتوهم في مساكنهم.

وبافتضاح هذه المقالة الكاذبة سقطت مقالتهم الثانية التي قالوها، وهي: ﴿وَلا نُطِيعُ فيكُمْ أحداً أبداً﴾. فسُكُوتُ المنافقين حينما أجلى الرسول بني النضير، وعدَمُ تقديم أيّ شيءٍ يُثْبت ولاءهم لهم، وعدَمُ اتّخاذ ما يحميهم من الجلاء طاعَةٌ جبانَةٌ خرْساء لإجراءات الرسول في إخوانهم.

الاحتمال الثاني: أن يتعرّض إخوانهم الذين كفروا لمواجهة قتالية يواجههم بها الرسول وأصحابه.

وموقف المنافقين عند حصول هذا الاحتمال هو ما أبانه الله بقوله:

﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾:

أي: فهم كاذبون أيضاً في قولهم لهم: ﴿وإنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾.

إنْ المنافقين لم يختاروا لأنفسهم سبيل النفاق إلاّ بسبب جُبْنِهِمْ ولو كانت لديهم الشجاعة الكافية لكانوا كسائر الكافرين الصّرحاء، كاشفين حقيقة هوِيّاتهم، ويُواجهون جماعة الذين آمنوا بعداءٍ سافر.

فكيف وهم منافقون مداخلون مخالطون ينصرون إخوانهم الذين كفروا إذا تعرّضوا لمواجهة قتالية مع المؤمنين، إنّ المنافقين لو بدرت منهم أيَّةُ بادرة فيها مناصرة للذين كفروا، لكان ذلك منهم من قبيل الخيانة العظمى، ولانتقم منهم المؤمنون انتقاماً شديداً، والمنافقون يعرفون هذه الحقيقة، ويَجْبُنُون عن مواجهة ما هو أقلّ منها بكثير، فكَيْفَ تكون منهم نصرةٌ لإخوانهم الذين كفروا في قتالٍ وحالتهم هذه؟!

ومع ذلك فقد طرح النصّ احتمال أنْ تأخذهم ثورة الحميّة عند قيام المعركة القتالية، فيدخلوا لِمُناصَرة إخوانهم الكافرين، لكن موقفهم حينئذٍ يكون موقف الْمُدْبِرين لا المقبلين، إنهم يستقبلون جهة أدبارهم فارّين هاربين جبناء، حينما يَرَوْنَ أنّ الأمر جدٌّ، وأنّ المؤمنين أهلُ بأس، يرون الموتَ طريقاً إلى الفردوس الأعلى في جنّات النعيم، فلا يَهابُونَه، وقد يُحِبُّون الشهادة في سبيل الله أكثر من حبّ الكافرين والمنافقين للحياة، فقال تعالى:

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾.

فماذا يكون حال المنافقين إذا وَلَّوا الأَدْبارَ في مثل هذا الوضع الشائن الخائن؟ هلْ يَنْجُونَ بفرارهم؟ وهل يَسْلَمُون؟ وهَلْ يَجِدُونَ مَنْ يَنْصُرُهم من الله ومن مُلاحقة الذين آمنوا لهم؟

أجاب النصّ على هذا السؤال المطويّ، فقال تعالى:

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾:

أي: ثم مهما تراخى بهم الزمن، فارّين بعد خيانتهم العظمى للمؤمنين، بُوقُوفِهِم ضدّهم مناصرين للذين كفروا، فإنّهم لا يُكْتَبُ لهم النصر، عن طريق النجاة بالفرار، أو الخلاص من متابعة المؤمنين لهم، أو الخلاص من نزول عقوبة الله فيهم المعجّلَة في الدنيا، فإنّ واحداً من العقاب سينزل بهم لا محالة، وهذا إنذارٌ من الله لهم، إذا انحازوا إلى الذين كفروا مناصرين لهم ضدّ المؤمنين.

هـذا الفهم أولى فيمـا أرى من اعتبـار ﴿ثُمَّ لا يُنْصَـرُونَ﴾ راجعـاً إلى إخـوانهم الكافرين الصرحاء، فأمر أولئك تحكُمُه سنّة الله العامة، بين المؤمنين والكافرين الذين يتقابلون بعداء سافر وتقاتل مكشوف.

وظـاهر كـلام المفسرين يفيـد أنّ ضمير ﴿ثم لا يُنْصَـرُونَ﴾ راجع إلى الكـافرين الصرحاء.

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

الـذي يظهـر لي أنّ الحديث في هـذا النّصّ يكشف واقع حـال اليهود، بشكـلٍ عام، فبنو النضير الذين نزلت السورة بشـأنهم هم من اليهود، ومـا ينطبق عليهم ينـطبق على سائر اليهود.

أمّا المنافقـون فليس من شأنهم أن يجتمعـوا لقتال المؤمنين، إذْ لا يجتمعـون إلاّ في حالة إظهـار كفرهم، وحينئـذٍ لا يكونـون منافقين، فـما جاء عنـد المفسرين من أنّ الآية تتحدث عن حال المنافقين واليهود معاً مستبْعَدٌ فيما أرى.

والخطابُ في الآية موجّه للمؤمنين، فالله عزّ وجل يخاطبهم بقوله:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ﴾.

يقال لغةً: رَهِبَهُ يَرْهَبُهُ، رَهَباً، وَرَهْبَةً، وَرُهْباً، إذا خافَهُ. ويُقـالُ: رَهِبَ فُلَانٌ إذا خافَ.

فـالـرَّهْبَـةُ وصْفٌ يكـون في صَـدْرِ الخـائف، وهم اليهـود هنـا، أمّـا المؤمِنُـونَ فمَرْهُوبُون مخوفٌ مِنْهُمْ، فكَيْفَ جاءت الرهبةُ في الآية وصفاً للذين آمنوا؟ وكيف يكون المؤمنون أشدّ رهْبَةً في صدور اليهود من الله؟

فهل نقول كما قال الزمخشري: لأنتم أشدُّ مرهوبيَّةً فِي صدورهم من الله؟

أقول:

إنّ الآية تجعلُ حُضُورَ الَّذِينَ آمنوا في صُدُور اليهود حالة كونهم رجالَ قتالٍ وبأسٍ، على شكلِ خواطرَ ومشاهدِ صُورٍ مقاتلين، بمثابة حضور الرَّهْبَةِ في صُدُورهم، فَكَأَنَّ الرَّهْبَةَ عُنْصُرٌ من عناصر صُورِ المؤمنين التي تمرُّ في صدُورهم على شكل خواطر.

والمعنى: لأنتم يا أيها المؤمنون إذا تمثَّلْتُمْ في صدورهم كان من صفاتكم في داخلهم صفةُ الرهبة الَّتي تخلع قلوبَهُمْ، وكنتم أشدّ رهبةً فيها مما يُحْدِثُهُ ذكرهم لله.

إنّها لفكرة عجيبة صحّ معها أن تكون الصفة التي هي للخائف صفةً للمخوف منه.

أو نقول: في الكلام مضافٌ محذوف، والتقدير: لأَنْتُمْ بإرْهابكُمْ لهم في القتال أشدُّ إحداثَ رهْبَةٍ في صدورهم من رهبتهم من عقاب الله إذْ يَذْكرونَ عقابه.

والمراد من الصدر دائرةٌ في عُمْقِ الإنسان تشتمل على دائرة أعمق منها يكون فيها القلب، وضمن دائرة القلب دائرة أعْمَقُ منها يكون فيها الفؤاد، وحول دائرة الصدر في الحاشية من الظاهر تكون دائرة عموم النفس، حيث ترتع الأهواء والشهوات السطحيّة داخل النفس.

فما يصل إلى الصَّدْر من الانفعالات والعواطف فقد دخل في مستوىً عميق من النفس[1].

وأبان الله عزّ وجَلّ السبب في كون الّذين كفروا بمحمّد وبما جاء به عن ربّه من اليهود يرهبون المؤمنين في القتال أكثر من رهبتهم من عقاب الله، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) انظر تحليل النفس في الباب الثاني (الإنسان في دائرة الدلالات القرآنية) من كتاب «الأخلاق الإسلامية وأسسها» للمؤلف.

المشارُ إليه بعبارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾، وقد رجع البيان في هذه العبارة إلى الخطاب الإفرادي، كما جاء في بداية النصّ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فالكاف في ﴿ذَٰلِكَ﴾ لخطاب المفرد، ولمّا كانت الرهبة لا تحدث في قلوبهم إلاّ إذا اجتمع المؤمنون على قتالهم خاطب الله جماعة المؤمنين بقوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صدورهم من الله﴾.

والباء في: ﴿بِأَنَّهُم﴾ سببيّة، أي: بسبب أنّهم قومٌ لا يفقهون.

ولكن كيف نتصوّر أن يكون عدم فِقْهِهِمْ سبباً في أنّهم يرهبون الذين آمنوا أكثر مما يرهبون عقاب الله؟

لقد عرفنا أنّ الفقه هو فهم دقائق الأمور وأعماقها وخفاياها، وبعد التذكير بهذا نستطيع أن نُدْرِك أنّ الذين كفروا قد تعلّقُوا بالظواهر والسُّطْحِيَّاتِ التي يَشْهَدُونَها بحواسّهم، والّتي يفهمونها من قريب دون تعمّق في التفكير، ودُونَ أن يستندوا إلى مفهومات العقائد الإيمانيّة التي يشتمل عليها الإيمان بالله واليوم الآخر.

والنظراتُ السطحيّةُ تَكْشِفُ لَهُمْ أنّ جماعة المؤمنين الصادقين حينما يُوَاجِهُون أعداءَهُمْ في معارك القتال، فإنّما يواجهونهم بقلوبٍ ثابتةٍ، كأنّها تَعْشَقُ الموتَ والاستشهادَ في سبيل الله فهم يقاتلون ببأس شديدٍ يستعملون فيه كلّ طاقاتهم الجسديّة والنَّفْسِية.

والّذين كفروا لا يستطيعون أن يُجبُّوا الموت، لانقطاع آمالهم بما بعد الموت، فهم لا يستطيعون أن يقاتلوا بكلّ طاقاتهم الجسدية والنفسيّة، وهذا يكشفُ لهم الفرق الكبير بين المقاتل المؤمن وبَيْنَ المقاتل من جماعتهم، الأمر الذي يقذف الرُّعْبَ والرَّهْبَةَ في قلوبهم، بنسبة عظيمة.

أمّا إيمانُهم بالله واليوم الآخر ـ إنْ كانوا من الذين يؤمنون بالآخرة ـ فهو إيمان لم يبْلُغ مبلغ الفقه الصحيح، حتّى يرهبوا من عقاب الله رهبةً رادعة لهم عن الكفر، ودافعةً لهم إلى الإيمان بمحمّد وبما جاء به عن ربّه.

إنّ من مفهوماتهم الاعتقادية ما جاء في قولهم: «لَنْ تَمَسَّنَا النَّار إلاّ أيّاماً معدودة» فهم لا يرهبون من عذاب النار في الآخرة رهْبةً كبيرة، سبَبُها عدم فِقْهِهم في دين الله.

ومن مفهوماتهم الاعتقادية ما جاء في قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، فهم لا يرهبون من عقاب الله لهم في الدنيا رهبةً كبيرة، سَبَبُها عدَمُ فقههم في دين الله، وعدمُ فقههم لعدل الله بالنسبة إلى جميع عباده، وعدَمُ فقههم لتساوي الناس في عبوديتهم لله، وأنّ الله يعامل عباده من مُخْتَلِفِ الأجناس والأصناف والألوان بقانون واحد، وسنّة واحدة.

إلى غير ذلك من مفهومات فاسدة حول عقائد الدين، وسنن الله في الكون، وهي تدلّ على أنهم محرومون من الفقه في واقعهم.

وبما أنهم قدْ أدْبَرُوا وتَوَلَّوْا رافضين تفهُّمَ الحقائق الدينيّة والسُّنَن الرّبانيّة الكونيّة، مَهْمَا نصَحَهُمُ الناصِحونَ، وتابَعَهُم بالبيان والشرح والتحليل المعلّمون المفقّهون، لَتَشَبُّثِهِم بمفهوماتهم الفاسدة الّتي هم عليها، فإنَّهُمْ لا يَفْقَهُونَ، اي: لا يُتابِعُون أمارات المعرفة الدقيقة ودَلائلَها وبراهينها حتّى يَفقَهُوها، فهم على توالي البيانات والنصائح والإرشادات والإنذارات في تتابع الأزمان لا يَفْقَهون.

كيف يَفْقَهُ مَنْ حَجَبَ عن المعرفة حواسّه الظاهرة والباطنة، وانْغَلَقَ على نفسه، واستَحْجَرَ فِكْرُهُ على مفهوماته الباطلة أو الفاسدة أو الناقصة؟! ألا فَلْيَدْمَغْهُم قول الله عزّ وجلّ:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٣﴾.

ولو أنّهم كانوا يَفْقَهونَ لكانت رهبتُهُمْ من الله أشَدّ من رهبتهم من أي مرهوبٍ في الوجود، ولدفعتهم هذه الرهبة من الله إلى الإيمان بمحمّد وبما جاء به عن ربّه، والعمل بمقتضى هذا الإيمان، ولكانُوا مع الذين آمَنُوا إخواناً متحابين، يعملون مثل عملهم، ويقاتلون مثل قتالهم.

نفيُ الفقه لا يستلزم نَفْيَ كُلّ معرفة وعلم، فالذي لا يفقه حقائق المفهومات الدينيّةِ والسُّنَنِ الرّبانيّة الكونية، قد يَعْلَمُ مما دون ذلك أشياءَ كثيرةً من أمور الحياة الدنيا، وشهواتها، ومتاعها، وزينتها، وما فيها من قوىً وطاقات وأسْبابٍ ومسَبَّبات، لكنّه عَنِ الله والآخرة مدبر أو مُعْرِضٌ أو غافل، كما قال الله عزّ وجل بشأن عموم الكافرين وهم أكثر الناس، في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾:

وبعد كشف حالة اليهود الداخليّة بالنسبة إلى المؤمنين، وبيان أنّهم يرهبون المؤمنين أكثر ممّا يرهَبُونَ الله، أبان الله عزّ وجلّ أثر هذه الرهبة النفْسِيّة في سلوكهم الظّاهر، فقال تعالى:

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ . . . ۝١٤﴾.

جميعاً: كلمة «جميع» على وزن «فعيل» تأتي بمعنى «مجموع» اسم مفعول من «جَمَعَهُ» إذا ضَمّ بعْضَهُ إلى بعض. وتأتي بمعنى «مُجْتَمِع» اسمِ فاعلٍ من فعل «اجْتَمَع» وهذا من التوسُّع على غير القياس المتّبع، وتأتي دالّة على التأكيد بمعنى «كُلّ».

وكلمة «جميعاً» في النصّ هنا حال بمعنى «مجتمعين» أو «مجموعين» وهذه الحال تَصْلُح لأن تكون حالاً من فاعل يقاتلونكم وهو ضمير الرفع، أو من المفعول به، وهو ضمير النصب.

أي: لا يقاتلونكم حالة كونهم مجتمعين لقتالكم، أو حالةَ كونكم مجتمعين لقتالهم.

وأُرَجّحُ الاحتمال الثاني: أي: حالَةَ كونكُمْ مجتمعين لقتالهم، لأنّي أرى أنّ المؤمنين إذا كانوا مُتَفَرِّقين، أو لم يجتمعوا جميعاً بمعظم قوّاتهم لقتال اليهود، فإنّ اليهود لا يرهبونهم حينئذٍ، فيقاتلونهم دون أن يكونوا في قُرىً مُحَصّنَةٍ أومن وراءِ جُدُرٍ، فينبغي أن نفهم النّصّ على ما يُطابق الواقع.

وقد رأيت ظاهر عبارات المفسرين اقتصر على الاحتمال الأول، دون طرح الاحتمال الثاني، فضلاً عن اعتماده.

فدلّ هذا البيان على أنّ المسلمين إذا اجتمعوا لقتال اليهود قذف الله الرعب في قلوبهم، فلا يقاتِلُونهم إذا قاتلوا إلاّ في قُرىً مُحَصّنَـةٍ، أومن وراء جُدُرٍ، كجُدُرِ

الدّبابات والمصفّحات، والبوارج البحرية، ويقتصر قتالهم غالباً على قتال الدّفاع، دون قتال الهجوم وجهاً لوجْهٍ.

وليزيد الله المؤمنين طُمأنينة بالنّسْبَة إلى الذين كفروا من اليهود، أبان لهم أنّ ما قد يرونه ظاهراً من وحدة كلمة اليهود، واجتماعهم على قادتهم، إنّما هو اجتماع ظاهريٌّ مصطنع، غير قائم على أساس اتفاق حقيقيٍّ بين قلوبهم، قال تعالى:

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ... ﴿١٤﴾﴾:

أي: بأسُهُمْ بين جماعاتهم وفرقهم ومذاهبهم وأحزابهم وأفرادهم بأسٌ شديد، والمعنى: إذا وقعت حرب أو معارك فيما بينهم كانوا ذوي بأسٍ شديد على بعضهم، لعلم كلّ فريق منهم بجبن الفريق الآخر، وحِرْصِه على الحياة الدنيا.

البأس: الشدّة في الحرب.

فإذا نظرت إليهم أيّها الناظر من بُعْدٍ، ولم تُداخِلْهُم ولم تخالطهم حَسِبْتَهُمْ متفقين مجتمعين، وأنّ هذا الوصف مستمرٌّ فيهم، لكنّ قلوبهم متفرقة «شتّىٰ» بسبب اختلاف أهوائهم، ومصالحهم، ونزعاتهم، ونزغاتهم، ومذاهبهم وأحزابهم.

والمراد: فلا تَخْشَوا يا أيُّها الّذِين آمَنُوا مِنْ مُلَاقاة اليهود في قتال جادٍّ تكونون فيه مؤمنين حقًّا، ومجتمعين على قتالهم، فإنّهم لَنْ يَثْبُتوا لقتالكم.

بعد هذا أبان الله عزّ وجلّ السَّبَبَ في أنَّ بأْسَهُمْ بينهم شديد، وفي أنّ قلوبهم متفرقة متعادية متخالفة، ولو كانوا في الظاهر يُبْدُون الاتفاق ووحدة الكلمة والصف، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

أي: لا يضبطون نفوسهم وسلوكهم بإرادات حازمات، عن اتّباع أهوائهم وشهواتهم، والاستجابة للتحاسد والتباغض فيما بينهم.

العقل في اللّغة: يدور حول معنى الإمساك بالشيء، وحبسه وربطه، واستعملت مادة «عَقَلَ يَعْقِل» ومشتقاتها في القرآن، بمعنى العقل الإرادي، وبمعنى العقل العلمي.

فالعقل الإرادي: يكون بحبس النفس وضبطها عن فعل الشرّ والمعصية وكلّ ما لا يحسُن فعله بإرادة حازمة قوية.

والعقل العلمي: يكون بربط الفهم وحبسه وتثبيته في الدائرة التي من صفاتها داخل النفس التفكُّر والفهمُ والمعرفةُ والعلم، والتمييز بين الحق والباطل، والخير والشرّ، وتثبيت المعلومات، وتذكُّرها عند الحاجة إليها[1].

* * *

* قول الله عزّ وجل:

﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٥﴾ ﴾.

مَثَل: هنا بمعنى «وصف».

﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ﴾:

هم يهود بني قَيْنُقَاع، الذين أجلاهم الرسول بسبب ما كان منهم من نقض للعهد، وخيانة، وتعرّض بالأذى لبعض نساء المسلمين، واستعدادهم لحرب الرسول والذين آمنوا معه.

والمعنى: حال يهود بني النضير في خيانتهم واحتمائهم بحصونهم، ثم استسلامهم، وطَلَبِهِمْ قَبُولَ جلائهم، كما قبل الرسول من يهود بني قَيْنُقَاع الجلاء، يُشْبِهُ حالَ بني قَيْنُقَاع الذي مضى قريباً، إذْ ذاقوا سُوء عاقبة الأَمْرِ الذي صدر عنهم، فحاصرهم الرسول ثم قبل جلاءهم عن المدينة، إرضاءً لوساطة عبد الله بن أُبيّ ابن سلول رئيس المنافقين في المدينة، على أن يأخُذوا أموالهم وأثقالهم وخفيف سلاحهم. فخرجوا من المدينة إلى الشّام، حتّى نزلوا بأذرعات وأقاموا فيها، ولكنّهم لم يلبثوا إلاّ قليلاً، حتى هلك أكثرهم، ونالوا جزاء خيانتهم وغدرهم ومكرهم ومحاربتهم الله ورسوله.

[ولهم] فوق ذلك [عذابٌ أليم] عند ربّهم يوم الدين.

* * *

(١) انظر تتمة بحث العقل في كتاب «الأخلاق الإسلامية وأسسها» للمؤلف.

* قول الله عزّ وجلّ:

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

هاتان الآيتان تكشفان التَّشابُهَ مابيْنَ المنافقين الذين وعدوا إخوانهم من الكافرين الصُّرحاء ومنَّوْهُمْ بنصرتهم، فدَعَوْهُمْ إلى الثبات والصُّمود والتمنُّع ضدَّ الرَّسُول والمؤمنين معه، وقالوا لهم: لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ معكم ولا نُطيعُ فيكم احداً أبداً، وإن قوتِلْتُم لَنَنْصُرَنَّكُمْ، ثم لمّا اشتدّ عليهم الحصار خذلوهم وأسلموهم، ولم ينصُرُوهم بشيء، وبين الشيطان الذي يَعِدُ الإنسان ويُمَنِّيه بغرور، ويقولُ له: اكْفُرْ، فيستجيبُ له فيكْفُر، وحين يأتي يومُ الحساب والجزاء، يَدْعُو الإنسانُ الكافرُ الشيطانَ لنُصْرَته، فيَقُولُ الشيطانُ لَهُ: إنّي بَرِيءٌ منْكَ ومنْ جريمتِك، إنّي اخافُ اللّهَ رَبَّ العالمين.

الشيطانُ منافقٌ جبانٌ، وَسْوَاسٌ خنّاس، والمنافق شيطان جبان وَسْوَاسٌ خنّاس، وكلاهما إذا حدَّثا كذبا، وإذا وعدا أخلفا وإذا اؤْتُمِنا خانا، وإذا خاصَمَا فَجَرا، وإذا عاهدا غدرا، وإذا استُنْصِرا خَذَلا، وكلاهُما يُغْرِيان ويُغْوِيان، لاشتراكهما في الصفات الأساسيّة التي ينجم عنها النِّفاق، وأعمالُ الشياطين.

وإذْ قد تماثل جنس الشيطان وجنس المنافق في صفاتهما وفي سلوكهما، وفي كفرهما، وفي تحريضهما على الكفر، ومقاومة الإيمان الحق والذين آمنوا، أبان الله عزّ وجل أن عاقبة الفريقين أنّهما يوم الدين يكونان في النار خالدَيْن فيها، عقاباً لهما، على ما كان منهما في حياة الابتلاء في الحياة الدنيا، فقال تعالى:

﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ... ﴿١٧﴾ ﴾.

وقد أثبتَ أنّهما في النار اعتباراً بما سيكون متحقّقاً، فما سيتحقّقُ وقوعُه حتماً هو بقوّة الأمر الواقع فعلاً، فَيُعَبَّرُ عنه بالماضي ويُعبَّرُ عنه بالحال، كما يُعبَّرُ عنه بالاستقبال.

ولبيان أنّ عمل المنافقِ وعَمَلَ الشيطانِ كلاهما من قبيل الظُّلْمِ الشّنيع، ولبيانِ أنَّ كُلَّ مَنْ ظَلَمَ بمِثْلِ ظُلْمِهما كانت عاقبتُه أنّه في النار خالداً فيها قال الله عزّ وجل في ختام النصّ:

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾:

أي: وذلك الْجَزَاءُ الذي ثَبَتَ لهما يَثْبُتُ جزاءً لكل الظالمين الذين يظلمون ظُلْماً مشابهاً لظُلْمِهما، فَقَانُونُ الله واحد، وسُنَّةُ الله في عباده واحدة لا تتبدَّل ولا تتغير ولا تتحوّل.

أقـول:

إنّ قول الشيطان للإنسان: اكفر، فلمّا كفر قال: إنّي بريء منك، إنّي أخاف الله ربّ العالمين، ينبغي أن يكون شاملاً كلَّ إنسانٍ أغواه وأغراه ووسوس له الشيطان فاستجابَ له فكفر، فشأن كلّ إنسان كفر بتأثيرِ دعوة الشيطان له أن يكون مع الشيطان يوم القيامة في النار خَالِدَيْن فيها.

وحَمْلُ هذا النصّ على قصّةٍ بعينها لا يستقيم مع عموم النّصّ، وشمول سُنّةِ الله في عباده.

أمّا الاستشهاد استئناساً بالحوادث والقصص بعد بيان عموم دلالة النصّ فأمْرٌ غير مرفوض.

ومن القصص التي يمكن الاستشهاد بها في هذا المجال ما يلي:

(١) روى الطبراني بسنده عن ابن عبّاس قال: جاء إبليس يوم بدر، في جُنْدٍ من الشياطين، معه رايته، في صورة رجل من بني مُدْلجٍ، في صورة سُرَاقَةَ بْنِ مَالِك بنِ جُعْشُم.

فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جارٌ لكم. فلمّا اصطفّ الناس، أخذ رسول الله ﷺ قبضةً من التراب، فرمىٰ بها في وجوه المشركين، فولّوا مُدْبِرين.

وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه، وكانت يده في يد رجُلٍ من المشركين،

انتزع إبليس يده، فولّى مُدْبراً هو وشيعته.

فقال الرجل: يا سُراقة، تزعم أنّك لنا جار!

قال: «إنّي أرىٰ ما لا ترون، إنّي أخاف الله، والله شديد العقاب» وذلك حين رأى الملائكة.

وأنزل الله قوله في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿نَكَصَ﴾: أي: رجعَ القهقرىٰ على قفاهُ هارباً، يقالُ لغةً: نكَصَ ينْكُصُ وينكِصُ نُكوصاً.

(٢) ومنها قصة العابد الراهب الذي ذكر القصّاصُون أنّ اسمه «برصيصا».

وقد وردت قصته دون ذكر اسمه في روايات عن عليّ وابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم، وعن طاوس ومقاتل بن حيان.

فروى ابن جرير بسنده عن عليّ رضي الله عنه قال: إنّ راهباً تَعَبَّد ستين سنة، وإنّ الشيطان أرادَهُ فأعياه، فعمَدَ إلى امرأةٍ فأَجَنَّها، ولها إخوة، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القَسّ، فيداويها.

قال: فجاءوا بها إليه، فداواها، وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها إذْ أعجبته، فأتاها، فحملَتْ، فعمَد إليها فقتلها.

فجاء إخوتها، فقال الشيطان للراهب، أنا صاحبك، إنّك أعييتني، أنا صنعت هذا بك، فأطعني أُنجِكَ ممّا صَنعْتُ بك، فاسْجُدْ لي سَجْدَةً، فسجد، فلمّا سجدَ له قال: إنّي بريء مِنْكَ، إنّي أخاف الله ربّ العالمين، فذلك قوله تعالى:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾:

وروى ابن جرير في هذه الآية عن ابن مسعود: قال: كانت امرأةٌ ترعَىٰ الغنم، وكان لها أربعة إخوة، وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب، فنزل الراهب، ففجر بها، فحملت.

فأتاه الشيطان فقال له: اقتُلْها، ثم ادفنها، فإنّك رجل مُصَدَّق، يُسْمَعُ قَوْلُكَ.

فقتلها، ثم دفنها.

قال: فأتى الشيطانُ إخوتها في المنام، فقال لهم: إنَّ الراهب صاحبُ الصومعة فَجَرَ بأختكم، فلمّا أحْبَلها قتلها ثم دفنها، في مكان كذا وكذا.

فلمّا أصبحوا قال رجلٌ منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري، أقصُّها عليكم أمْ أترك؟

قالوا: لا بل قُصَّها علينا. فقصُّها.

فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيتُ ذلِك.

فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك.

قالوا: فوالله ما هذا إلاّ لشيء.

قال: فانطلقوا، فاسْتَعْدَوْا مَلِكَهُمْ على ذلك الراهب، فأتوه، فأنْزَلوه، ثمّ انطلقوا به، فلقيه الشيطان، فقال: إنّي أنا الذي أوقعتك في هذا، ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي سجدة واحدة، وأُنجيك مما أوقعتُكَ فيه. قال: فسجد له، فلمّا أتوا به ملكهم تبرّأ منه، وَأُخِذَ فقُتِلَ.

• • •

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

القسم الثاني
تدبّر النصوص القرآنية التي نزلت بشأن المنافقين
مرتبة بحسب ترتيب النزول

الموضوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

●●●

إلى هنا ينتهي الجزء الأول
من كتاب ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين
ويليه الجزء الثاني، وأوله:
النص الثاني والعشرون: من سورة (النور)